سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية

تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثالث

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

شرح
الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية

٣

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن قيّم الجوزية./
محمد بن صالح العثيمين - الرياض، ١٤٣٤هـ
٤مج؛ (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٢٣)
ردمك: ٤ - ٦٢ - ٨٠٣٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٥ - ٦٥ - ٨٠٣٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٣)
١ - العقيدة الإسلامية ٢ - التوحيد ٣ - أهل السنّة
أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٤/١٠٢٢٧

الطبعة الأولى
محرم ١٤٣٥هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فصــل

فِي أَقْسَامِ التَّوْحِيدِ[1] وَالْفَرْقِ بَيْنَ تَوْحِيدِ الْمُرْسَلِينَ وَتَوْحِيدِ النُّفَاةِ الْمُعَطِّلِينَ

٣١٢٣- فَاسْمَعْ إِذَنْ أَنْوَاعَهُ هِيَ خَمْسَةٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ أَقْسَامُهَا بِبَيَانِ

٣١٢٤- تَوْحِيدُ أَتْبَاعِ ابْنِ سِينَا وَهْوَ مَنْـ ... ـسُوبٌ لِآرِسْطُو مِنَ الْيُونَانِ

٣١٢٥- مَا لِلْإِلَٰهِ لَدَيْهِمُ مَاهِيَّةٌ ... غَيْرُ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ الْوَحْدَانِي

٣١٢٦- مَسْلُوبُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ جَمِيعِهَا ... لَكِنْ وُجُودٌ حَسْبُ لَيْسَ بِفَانِ

٣١٢٧- مَا إِنْ لَهُ ذَاتٌ سِوَى نَفْسِ الْوُجُو ... دِ الْمُطْلَقِ الْمَسْلُوبِ كُلَّ مَعَانِ

٣١٢٨- فَلِذَاكَ لَا سَمْعٌ، وَلَا بَصَرٌ، وَلَا ... عِلْمٌ، وَلَا قَوْلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ

٣١٢٩- وَلِذَاكَ[2] قَالُوا لَيْسَ ثَمَّ مَشِيئَةٌ ... وَإِرَادَةٌ لِوُجُودِ ذِي الْأَكْوَانِ

٣١٣٠- بَلْ تِلْكَ لَازِمَةٌ لَهُ بِالذَّاتِ، لَمْ ... تَنْفَكَّ عَنْهُ قَطُّ فِي الْأَزْمَانِ

٣١٣١- مَا اخْتَارَ شَيْئًا قَطُّ يَفْعَلُهُ، وَلَا ... هَذَا لَهُ أَبَدًا بِذِي إِمْكَانِ

٣١٣٢- وَبَنَوْا عَلَى هَذَا اسْتِحَالَةَ خَرْقِ ذِي الْـ ... أَفْلَاكِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

٣١٣٣- وَلِذَاكَ قَالُوا: لَيْسَ يَعْلَمُ قَطُّ شَيْـ ... ـئًا مَا مِنَ الْمَوْجُودِ فِي الْأَعْيَانِ

---

(١) هذا التفسير بسطه الناظم -رحمه الله- في الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٣/ ٩٢٩)، وانظر: مختصر الصواعق (١/ ١٠٦).

(٢) في نسخة الإفتاء والسفارينية: «وكذاك».

٣١٣٤- لَا يَعْلَمُ الْأَفْلَاكَ كَمْ أَعْدَادُهَا وَكَذَا النُّجُومُ، وَذَانِكَ الْقَمَرَانِ

٣١٣٥- بَلْ لَيْسَ يَسْمَعُ صَوْتَ كُلِّ مُصَوِّتٍ[1] كَلَّا وَلَيْسَ يَرَاهُ رَأْيَ عِيَانِ

٣١٣٦- بَلْ لَيْسَ يَعْلَمُ حَالَةَ الْإِنْسَانِ تَفْـ ـصِيلًا مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْعِصْيَانِ

٣١٣٧- كَلَّا وَلَا عِلْمٌ لَهُ بِتَسَاقُطِ الْـ أَوْرَاقِ، أَوْ بِمَنَابِتِ الْأَغْصَانِ

٣١٣٨- عِلْمًا عَلَى التَّفْصِيلِ هَذَا عِنْدَهُمْ عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَازِمُ الْإِمْكَانِ

٣١٣٩- بَلْ نَفْسُ آدَمَ عِنْدَهُمْ عَيْنُ الْمُحَا لِ وَلَمْ يَكُنْ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

٣١٤٠- مَا زَالَ نَوْعُ النَّاسِ مَوْجُودًا وَلَا يَفْنَى كَذَاكَ الدَّهْرُ وَالْمَلَوَانِ

الشرحُ

سَبَقَ أن بيَّنَّا في الفصلِ السَّابقِ أنَّ خُلاصةَ بُرهانِهم يدورُ على معنى لا يرضى به عاقلٌ، وهو أنَّهم يقولون: إنَّ هذا تركيبٌ يَسْتَلْزِمُ التَّركيبَ، وهذا لا معنى له عند العُقَلاءِ، وذكرنا أنَّ ابنَ القيِّم -رحِمه الله- قال: إنْ أَبَيْتُمْ إلَّا هذه اللفظةَ فإنَّنا نُخَلِّصُهَا، ونقولُ: إنَّ اللهَ تعالى بذاتِه وصفاتِه، ونستبدلُ كلمةَ (تركيب) بكلمة (توحيد)، فنقول: هو واحدٌ في ذاتِه وصفاتِه، ونطرحُ هذه اللفظةَ البِدعيَّةَ المرفوضة طرحَ مُهَانٍ، ونقول: لا نُسَلِّمُ بها ولا نُقِرُّ بها. ثم استطردَ المؤلِّفُ -رحِمه الله- إلى ذِكرِ أنواعِ التَّوحيدِ، والمرادُ بذلك أنواعُ التَّوحيدِ عند البشرِ جميعًا، لا عند أهلِ الإسلامِ، قال رحمه الله:

٣١٢٣- فَاسْمَعْ إِذَنْ أَنْوَاعَهُ هِيَ خَمْسَةٌ قَدْ حُصِّلَتْ أَقْسَامُهَا بِبَيَانِ

(١) في نسخة الإفتاء: «وكذا ابن آدم ليس يسمع صوته».

قَوْلُهُ: «**فَاسْمَعْ إِذَنْ**»؛ أي: في هذه الحالِ.

قَوْلُهُ: «**أنواعَه**»؛ يعني: أنواعَ التَّوحيدِ، والأنواعُ والأقسامُ بمعنى واحد عند أهلِ العلمِ؛ فأحيانًا يُقَالُ: خمسةُ أنواعٍ، وأحيانًا يُقَالُ: خمسةُ أقسامٍ.

أمَّا في الاصطلاحاتِ الكلاميَّةِ فإنَّهم يُفرِّقون بين الأنواعِ وبين الأقسامِ، فالنَّوعُ فردٌ بالنِّسبة للجنسِ، والواحدُ فردٌ بالنِّسبة للنَّوعِ، فإذا قالوا مثلًا: (حَبٌّ، وبُرٌّ، وحِنْطَةٌ)، فالأوَّلُ: جنسٌ، والثَّاني: جنسٌ باعتبارِ ما تحته، ونوعٌ باعتبارِ ما فوقه.

٣١٢٤- تَوْحِيدُ أَتْبَاعِ ابْنِ سِينَا وَهْوَ مَنْـ ... ـسُوبٌ لِآرِسْطُو مِنَ الْيُونَانِ

٣١٢٥- مَا لِلْإِلَهِ لَدَيْهِمُ مَاهِيَّةٌ ... غَيْرُ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ الْوَحْدَانِي

يقولون: إنَّ اللهَ تعالى هو الوجودُ وجودًا مطلقًا، ومعنى (**وجودًا مطلقًا**) أنَّه لا يُثْبَتُ له صفاتٌ، ولا يُنْفَى عنه صفاتٌ، فلا يُوصَفُ بنفيٍ ولا إثباتٍ، بل هو الوجودُ المطلَقُ بشرطِ الإطلاقِ، فلا يَصِحُّ أن تقولَ: إنَّه سميعٌ ولا إنَّه أصمُّ، ولا موجودٌ ولا غيرُ موجودٍ، هذا هو الإلهُ عندهم، وسيأتي أنَّهم فرُّوا من الإثباتِ أو النَّفي خوفًا من التَّركيبِ والتَّجسيمِ كما سيأتي -إن شاء اللهُ- في كلامِ المؤلِّفِ.

وهذا قولٌ لا يستطيعُ الإنسانُ أَنْ يَتصوَّرَه، فضلًا عن أن يَعتقدَه بربِّه، كيف يكونُ ربٌّ ليس له ماهيَّةٌ؟! وليس له وجودٌ إلَّا الوجود بشرط الإطلاق، ومعنى شرطِ الإطلاقِ ألا يَتَّصِفُ بصفةٍ لا سلبيَّةٍ ولا ثبوتيَّةٍ؛ ولهذا قال:

٣١٢٦- مَسْلُوبُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ جَمِيعِهَا ... لَكِنْ وُجُودٌ حَسْبُ لَيْسَ بِفَانِ

قَوْلُهُ: «**لَكِنْ وُجُودٌ حَسْبُ**»؛ أي: فقط، وجودٌ بلا أيِّ صفةٍ، كُلُّ أوصافِ

الكمالِ مسلوبٌ إيَّاها، بل وأوصافُ النَّقصِ، لكن لا نقولُ: أوصافُ النَّقصِ؛ لأنَّهم لا يُثبِتون لله نقصًا.

وَقَوْلُهُ: «لَكِنْ وُجُودٌ حَسْبُ» يعني: قُلْ: هو موجودٌ وجودًا مُطلَقًا.

قَوْلُهُ: «لَيْسَ بِفَانٍ»؛ يعني: وأَزَليّ.

٣١٢٧- مَا إِنْ لَهُ ذَاتٌ سِوَى نَفْسِ الْوُجُو ... دِ الْـمُطْلَقِ الْـمَسلُوبِ كُلَّ مَعَانِ

قَوْلُهُ: «مَا إِنْ لَهُ ذاتٌ» (إِنْ) هنا زائدةٌ، والتَّقدير: (مَا لَهُ ذاتٌ).

قَوْلُهُ: «سِوَى نَفْسِ الوُجُودِ»، وهل الوجودُ ذاتٌ أو معنى؟

الجوابُ: هو معنى، ومع ذلك يقولُ: الرَّبُّ هو الوجودُ المطلقُ.

٣١٢٨- فَلِذَاكَ لَا سَمْعٌ، وَلَا بَصَرٌ، وَلَا ... عِلْمٌ، وَلَا قَوْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

كُلُّ هذه منتفيةٌ عن الله، فليس له سمعٌ، ولا بصرٌ، ولا علمٌ، ولا قولٌ.

٣١٢٩- وَلِذَاكَ قَالُوا لَيْسَ ثَمَّ مَشِيئَةٌ ... وَإِرَادَةٌ لِوُجُودِ ذِي الْأَكْوَانِ

هذه الأكوانُ الموجودةُ هل وُجِدَت بمشيئةِ الله وإرادتِه؟ الجوابُ: لا، لم تُوجَد بمشيئةِ الله وإرادتِه؛ لأنَّك لو قلت: إنَّها وُجِدَت بمشيئتِهِ وإرادتِه لأَثْبَتَّ له صفةً، وهي الوجودُ بشرطِ الإطلاقِ، لا صفة له.

٣١٣٠- بَلْ تِلْكَ لَازِمَةٌ لَهُ بِالذَّاتِ، لَمْ ... تَنْفَكَّ عَنْهُ قَطُّ فِي الْأَزْمَانِ

يعني: هذه الأكوان لازِمةٌ له لزومَ الذَّاتِ، ليست منفصلةً بائنةً مرادةً، بل هي كما لو قلنا بالحياةِ، والعلمِ، والقدرةِ، وما أشبهها، وهم لا يَرَوْنَ هذا كُلَّه؛ **يعني:** لا يصفون اللهَ بعلمٍ، ولا قدرةٍ، ولا سمعٍ.

٣١٣١- مَـا اخْتَـارَ شَـيْئًا قَـطُّ يَفْعَلُـهُ، وَلَا هَــذَا لَــهُ أَبَــدًا بِــذِي إِمْكَــانِ

سبحان الله! كُلُّ ما يحدثُ في الكونِ فهو بغيرِ إرادةِ الله وبغيرِ مشيئتِهِ؛ لأَنَّه لا يختارُ شيئًا يفعلُه، فليس له إرادةٌ ولا اختيارٌ.

٣١٣٢- وَبَنَوْا عَلَى هَذَا اسْتِحَالَةَ خَـرْقِ ذِي الْـ أَفْــلَاكِ يَــوْمَ قِيَامَــةِ الْأَبْــدَانِ

يقولون: إنَّ الأفلاكَ لا يمكنُ أن تتغيَّرَ؛ لأنَّها عظيمةٌ، ومَن يستطيعُ أن يُغَيِّرَها؟ الجوابُ: لا أحد؛ لأنَّها لا تتغيَّرُ إلَّا بإرادةٍ ومشيئةٍ، واللهُ عندهم ليس له إرادةٌ ولا مشيئةٌ؛ ولهذا أنكروا أنَّ اللهَ يطوي السَّماواتِ بيمينه ويقبِضُ الأرضَ، وأنكروا أن تتغيَّرَ الأفلاكُ، ومِن ثَمَّ أنكر بعضُ الكُتَّابِ المسلمين أن يكونَ القمرُ قد انشقَّ آيةً للنَّبيِّ ﷺ، وقالوا: إنَّ الأفلاكَ لا يمكنُ أن تتغيَّرَ، وهم -أعني: الذين يقولون بعدمِ انشقاقِ القمرِ- لا شكَّ ضالُّون مكذِّبون لظاهرِ القرآنِ؛ لأنَّ انشقاقَ القمرِ من المتواترِ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٣١٣٣- وَلِذَاكَ قَالُوا: لَيْسَ يَعْلَمُ قَـطُّ شَيْـ ـئًا مَا مِـنَ الْـمَوْجُودِ فِي الْأَعْيَـانِ

لماذا قالوا ذلك؟ للقاعدةِ: أنَّه هو الوجودُ المطلَقُ، فلا يَعْلَمُ شيئًا من الموجودِ في الأعيانِ.

٣١٣٤- لَا يَعْلَـمُ الْأَفْـلَاكَ كَـمْ أَعْـدَادُهَا وَكَـذَا النُّجُـومُ، وَذَانِـكَ الْقَمَـرَانِ

٣١٣٥- بَلْ لَيْسَ يَسْمَعُ صَوْتَ كُلِّ مُصَوِّتٍ كَــلَّا وَلَــيْسَ يَــرَاهُ رَأْيَ عِيَــانِ

٣١٣٦- بَلْ لَيْسَ يَعْلَمُ حَالَةَ الْإِنْسَـانِ تَفْـ ـصِيلًا مِـنَ الطَّاعَـاتِ وَالْعِصْـيَانِ

٣١٣٧- كَــلَّا وَلَا عِلْـمٌ لَـهُ بِتَسَـاقُطِ الْـ أَوْرَاقِ، أَوْ بِمَنَابِــتِ الْأَغْصَــانِ

٣١٣٨- عِلْمًا عَلَى التَّفْصِيلِ هَـذَا عِنْدَهُمْ　　عَـيْنُ الْـمُحَالِ وَلَازِمُ الْإِمْكَـانِ

يعني: أنَّ اللهَ لا يعلمُ كُلَّ هذا، مع أنَّ اللهَ يقول: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩]، أمَّا هم فيقولون: لا، فلا يعلمُ بتساقطِ الأوراقِ، ولا بمنابتِ الأغصانِ.

٣١٣٩- بَلْ نَفْسُ آدَمَ عِنْدَهُمْ عَيْنُ الْـمُحَا　　لِ وَلَـمْ يَكُـنْ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

يقول: إن آدمَ لـم يُخْلَقْ من ترابٍ ثُمَّ صار بشرًا، بل النَّوعُ الإنسانيُّ لم يزل موجودًا.

٣١٤٠- مَا زَالَ نَـوْعُ النَّاسِ مَوْجُـودًا وَلَا　　يَفْنَـى كَـذَاكَ الـدَّهْرُ وَالْـمَلَوَانِ

قَوْلُهُ: «المَلَوَانِ» تُطْلَقُ في الغالبِ على الليلِ والنَّهارِ.

يعني: أنَّ نوعَ الإنسانِ ما زَالَ هكذا منذ الأزلِ، ولا يزالُ هكذا أيضًا إلى الأبدِ.

* * *

٣١٤١- هَـذَا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ فَـرِيقِهِمْ　　مِثْـلِ ابْـنِ سِـينَا وَالنَّصِـيرِ الثَّـانِي

٣١٤٢- قَالُوا وَأَلْـجَأَنَا إِلَى ذَا خَشْـيَةُ التَّـ　　ـرْكِيبِ وَالتَّجْسِـيمِ ذِي الْـبُطْلَانِ

٣١٤٣- وَلِـذَاكَ قُلْنَـا: مَـا لَـهُ سَـمْعٌ وَلَا　　بَصَـرٌ وَلَا عِلْـمٌ فَكَيْـفَ يَـدَانِ؟!

٣١٤٤- وَكَذَاكَ قُلْنَا لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلَـ　　ـهٌ الْـمُسْتَحِيلُ وَلَـيْسَ ذَا إِمْكَـانِ

٣١٤٥- جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ كِلَا الجِسْمَيْنِ مَحْـ　　ـدُودٌ يَكُـونُ، كِلَاهُمَـا صِـنْوَانِ

٣١٤٦- فَبِذَاكَ حَقًّا صَرَّحُوا فِي كُتْبِهِمْ وَهُمُ الْفُحُولُ أَئِمَّةُ الْكُفْرَانِ

٣١٤٧- لَيْسُوا مُخَانِيثَ الْوُجُودِ فَلَا إِلَى الْـ ـكُفْرَانِ يَنْحَازُوا وَلَا الْإِيمَانِ

٣١٤٨- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمْ ثُبُوتُ الذَّاتِ وَالْـ أَوْصَافِ إِذْ يَبْقَى هُنَاكَ اثْنَانِ

٣١٤٩- غَيْرُ الْوُجُودِ فَصَارَ ثَمَّ ثَلَاثَةٌ فَلِذَا نَفَيْنَا اثْنَيْنِ بِالْبُرْهَانِ

٣١٥٠- بَقِيَ الْوُجُودُ فَلَا يُضَافُ إِلَيْهِ شَيْ ءٌ غَيْرُهُ فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانِ

الشرحُ

قال المؤلِّف -رحِمه الله- مُبيِّنًا توحيدَ الفلاسفةِ، وأنَّ حقيقةَ توحيدِهم أنَّه ليس هناك ما يُسَمَّى إلهًا؛ لأنَّهم يقولون: هو الوجودُ المطلَقُ، وهو في الحقيقةِ ليس بموجودٍ؛ لأنَّ الوجودَ المطلقَ على وجهِ الإطلاقِ لا حقيقةَ له، بل هو شيءٌ يَتَخَيَّلُه الذِّهنُ بدون أن يكونَ له حقيقةٌ.

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله-:

٣١٤١- هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ مِثْلِ ابْنِ سِينَا وَالنَّصِيرِ الثَّانِي

قَوْلُهُ: «ابْنِ سِينَا» ابنُ سِينَا هو رجلٌ معروفٌ في الطِّبِّ؛ ولهذا يُمَجِّدُه القوميُّون العربُ، ويَرَوْنَ أنَّه هو العالِـمُ، ويُحْيُونَ ذِكراه بنسبةِ بعضِ المنشآتِ إليه، وهو كما تَرَوْنَ من أكفرِ عِبادِ الله والعياذُ بالله.

قَوْلُهُ: «النَّصِيرِ الثَّانِي» الذي يُسَمَّى نصيرَ الدِّين الطُّوسيَّ، وهو في الحقيقةِ مُذِلُّ الدِّينِ، وليس نصيرًا للدِّينِ.

٣١٤٢- قَالُوا وَأَلْـجَأَنَا إِلَى ذَا خَشْيَةُ التْـ ـتَرْكِيبِ وَالتَّجْسِيمِ ذِي الْـبُطْلَانِ

هذه شُبهتُهم، أنَّهم لجئوا إلى قولِ هذا الإلهِ المفروضِ ذهنًا، المعدومِ واقعًا؛ لأنَّهم يَخْشَوْنَ مِنَ التَّركيبِ والتَّجسيمِ.

٣١٤٣- وَلِـذَاكَ قُلْنَـا: مَـا لَـهُ سَـمْعٌ وَلَا بَصَـرٌ وَلَا عِلْـمٌ فَكَيْـفَ يَـدَانِ؟!

فَنَفَوُا الصِّفاتِ المعنويَّةَ، وقالوا: «فَكَيْفَ يَدَانِ؟!»؛ يعني: الصِّفاتِ الخبريَّةَ، فَنَفَوْا جميعَ الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ، بل حقيقةُ الأمرِ أنَّهم نَفَوْا وجودَه؛ لأنَّ ما يذكرون أنَّه اللهُ إنَّما هو موجودٌ في الذِّهنِ فقط.

٣١٤٤- وَكَذَاكَ قُلْنَا لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلْـ ـلَا الْـمُسْتَحِيلُ وَلَـيْسَ ذَا إِمْكَـانِ

أيضًا ليس فوق العرشِ إلهٌ؛ لأنَّه هو الموجودُ المطلَقُ بشرطِ الإطلاقِ كما سَبَقَ.

٣١٤٥- جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ كِلَا الجِسْمَيْنِ مَحْـ ـدُودٌ يَكُـونُ، كِلَاهُمَـا صِـنْوَانِ

يعني: لو قلنا: (إنَّ على العرشِ إلهًا) لَكَانَ جِسمًا على جسمٍ، وكلاهما محدودٌ، فيكونان صِنْوَيْنِ؛ يعني: يكونان شَبِيهَيْنِ.

وكلمةُ (الحدِّ) بالنِّسبةِ للرَّبِّ عزَّ وجلَّ كلمةٌ لم تَرِدْ لا نفيًا ولا إثباتًا، لا في القرآنِ ولا في السُّنَّةِ؛ ولهذا كان القولُ فيها أَنْ يُقَالَ: لو قال لنا قائلٌ: هل اللهُ محدودٌ؟ فنقول: ماذا تَعْنِي بالحدِّ؟ إِنْ أَرَدْتَ أنَّه مُتَّحِدٌ بَائِنٌ من خلقِه فهو بهذا المعنى محدودٌ، وإِنْ أردْتَ بكلمة (محدود) أَنَّ له حدًّا ينتهي إليه ويُحيطُ به شيءٌ من مخلوقاتِه فهذا ممتنِعٌ؛ ولهذا وَرَدَ في كلامِ السَّلَفِ نَفيُ الحدِّ وإثباتُ الحدِّ، وهذا الاختلافُ ينبني على التَّفصيلِ الذي ذكرنا.

فَمَن نَفَى الحدَّ أَرَادَ الحدَّ الذي يَحْصُرُ الخالقَ عزَّ وجلَّ، ومَن أَثْبَتَهُ أَرَادَ الحدَّ الذي يُبِينُه عن خلقِه ويجعلُه بائنًا منهم.

٣١٤٦- فَبِذَاكَ حَقًّا صَرَّحُوا فِي كُتْبِهِمْ وَهُمُ الْفُحُولُ أَئِمَّةُ الْكُفْرَانِ

وبئس الفحوليَّةُ! هم الفحولُ ولكن فحولُ شرٍّ؛ لأنَّهم أئمَّةُ كفرٍ.

٣١٤٧- لَيْسُوا مَخَانِيثَ الْوُجُودِ فَلَا إِلَى الْـ ـكُفْرَانِ يَنْحَازُوا وَلَا الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «لَيْسُوا مَخَانِيثَ» المخانيثُ يُرِيدُ بهم مَنْ ليسوا ذكورًا ولا إناثًا، وهو ما يُعْرَفُ عند الفقهاءِ بالخُنْثَى.

وَقَوْلُهُ: «لَيْسُوا مَخَانِيثَ الوُجُودِ» كأنَّه يشيرُ إلى ما سيأتينا من توحيدِ الجهميَّةِ الذين أخذوا من هذا وهذا، وصاروا مذبذبين، لا إلى الكفرانِ ينحازوا، ولا إلى الإيمانِ، وهنا حَذَفَ النُّونَ في (يَنْحَازُوا)، وأصلُها: (ينحازون) من أجلِ ضرورةِ الشِّعرِ.

٣١٤٨- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمْ ثُبُوتُ الذَّاتِ وَالْـ أَوْصَافِ إِذْ يَبْقَى هُنَاكَ اثْنَانِ

يعني: إذا أثبتنا ذاتًا وصفاتٍ صارا اثنين، فيكونُ ذلك شركًا؛ لأنَّ عندهم أنَّ اللهَ هو الوجودُ المطلَقُ بشرطِ الإطلاقِ، وإذا قلت: (ذاتٌ ووجودٌ)، فهذا شِركٌ لأنه اثنان.

٣١٤٩- غَيْرُ الْوُجُودِ فَصَارَ ثَمَّ ثَلَاثَةٌ فَلِذَا نَفَيْنَا اثْنَيْنِ بِالْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «فَلِذَا» لعلَّها: «فَإِذَا»[1].

---

(١) في نسخ السفارينية والظاهرية والتيمورية: «فكذا»، وفي بقية النسخ الخطية كما في الأصل: «فلذا».

قَوْلُهُ: «غَيْرُ الوُجُودِ» الذي يَرَوْنَ أنَّه هو اللهُ، وحينئذٍ يكونُ الجميعُ ثلاثةً؛ ولذا قال: «فَصَارَ ثَمَّ ثَلَاثَةٌ فَلِذَا نَفَيْنَا اثْنَيْنِ بِالبُرْهَانِ».

قَوْلُهُ: «اثْنَيْنِ» هما الذَّاتُ والأوصافُ.

٣١٥٠- بَقِيَ الْوُجُودُ فَلَا يُضَافُ إِلَيْهِ شَيْ ... ءٌ غَيْرُهُ فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانِ»؛ أي: يصيرُ ممكنًا.

فعندهم الآن: الذَّاتُ منفيَّةٌ، والصِّفاتُ منفيَّةٌ، والوجودُ ثابتٌ، وهو اللهُ عندهم، وهو الوجودُ المطلقُ بشرطِ الإطلاقِ.

حقيقةُ الأمرِ أنَّنا إذا تأمَّلنا كلامَهم وَجَدْنَا أنَّه ليس هناك رَبٌّ، فلا يثبتون لله ذاتًا ولا صفاتٍ، بل هو الوجودُ بشرطِ الإطلاقِ، فإذا نَفَيْتَ الذَّاتَ، ونَفَيْتَ الصِّفاتِ، يبقى من الثَّلاثةِ واحدٌ، وهو الوجودُ.

والخلاصة أنَّهم يقولون: إنَّ التوحيدَ هو إثباتُ الوجودِ المطلَقِ، هذا هو اللهُ، وجودٌ مطلقٌ، ما ثَمَّ ذاتٌ ولا صفاتٌ، ولا سمعٌ، ولا بصرٌ، ولا كونٌ باختيارِه، الكونُ صَارَ هكذا معلولًا لعلَّةٍ فاعلةٍ، والعِلَّةُ إذا ثَبَتَتْ ثَبَتَ المعلولُ؛ ولهذا منعوا حدوثَ البشرِ، وقالوا: إنَّ الإنسانَ قديمُ النَّوعِ وليس هناك شيءٌ يُقَالُ له: آدمُ خُلِقَ من ترابٍ، وكذلك اللهُ لا يعلمُ سقوطَ الأوراقِ من الأشجارِ ومَنابتِ الأغصانِ، كُلُّ هذا لا يعلمُه؛ لأنَّه هو الوجودُ المطلَقُ، فإذا أَثْبَتَّ شيئًا من الصِّفاتِ لله، أو أَثْبَتَّ له ذاتًا صِرْتَ مُشرِكًا.

وحقيقةُ الأمرِ: أنَّ مذهبَهم لا يمكنُ للإنسانِ أن يتصوَّرَه، فيعجِز عن تصوُّرِه؛ لأنَّه باطلٌ من أبطلِ البطلانِ.

فصل

فِي النَّوْعِ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ لأَهْلِ الإِلْحَادِ(١)

٣١٥١- هَـذَا وَثَانِيهَـا فَتَوْحِيـدُ ابْـنِ سَبْـ ـعِينَ وَشِـيعَتِهِ أُولِي الْبُهْتَـانِ

٣١٥٢- كُـلٌّ اتِّـحَادِيٌّ خَبِيـثٌ عِنْـدَهُ مَعْبُـودُهُ مَوْطُـوءُهُ الْـحَقَّانِي

٣١٥٣- تَوْحِيـدُهُمْ أَنَّ الإِلَـهَ هُـوَ الْوُجُـو دُ الْـمُطْلَقُ الْـمَبْثُوثُ فِي الأَعْيَانِ

٣١٥٤- هُـوَ عَيْنُهَـا لَا غَيْرُهَـا مَـا هَاهُنَـا رَبٌّ وَعَبْـدٌ كَيْـفَ يَفْتَرِقَـانِ؟!

٣١٥٥- لَكِـنَّ وَهْـمَ الْعَبْـدِ ثُـمَّ خَيَالَـهُ فِي ذِي الْـمَظَاهِرِ دَائِـمًا يَلِجَـانِ

٣١٥٦- فَلِـذَاكَ حُكْمُهُـمَا عَلَيْـهِ نَافِـذٌ فَـابْنُ الطَّبِيعَـةِ ظَـاهِرُ النُّقْصَـانِ

٣١٥٧- فَـإِذَا تَجَـرَّدَ عِلْمُـهُ عَـنْ حِسِّـهِ وَخَيَالِـهِ بَـلْ ثَـمَّ تَجْرِيـدَانِ

٣١٥٨- تَجْرِيـدُهُ عَـنْ عَقْلِـهِ أَيْضًـا فَـإِنْ نَ الْعَقْـلَ لَا يُدْنِيـهِ مِـنْ ذَا الشَّـانِ

٣١٥٩- بَلْ يَخْرِقُ الْـحُجُبَ الْكَثِيفَةَ كُلَّهَـا وَهْمًـا وَحِسًّـا ثُـمَّ عَقْـلٌ وَانِي

٣١٦٠- فَـالْوَهْمُ مِنْـهُ وَحِسُّـهُ وَخَيَالُـهُ وَالْعِلْـمُ وَالْـمَعْقُولُ فِي الأَذْهَـانِ

٣١٦١- حُجُبٌ عَلَى ذَا الشَّانِ فَاخْرِقْهَا وَإِلْ لَا كُنْـتَ مَحْجُوبًـا عَـنِ الْعِرْفَـانِ

٣١٦٢- هَذَا وَأَكْثَفُهَا حِجَابُ الْـحِسِّ وَالْـ ـمَعْقُولِ ذَانِكَ صَاحِبُ الْفُرْقَانِ

---

(١) في نسخ السفارينية: «الاتحاد».

٣١٦٣- فَهُنَاكَ صِرْتَ مُوَحِّدًا حَقًّا تَرَى   هَذَا الْوُجُودَ حَقِيقَةَ الدَّيَّانِ

٣١٦٤- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ فَتَنْوِيعُ[1] الْوُجُو   دِ وَقَوْلُنَا: إِنَّ الْوُجُودَ اثْنَانِ

٣١٦٥- وَاحْتَجَّ يَوْمًا بِالْكِتَابِ عَلَيْهِمُ   شَخْصٌ فَقَالُوا الشِّرْكُ فِي الْقُرْآنِ

٣١٦٦- لَكِنَّمَا التَّوْحِيدُ عِنْدَ الْقَائِلِيـ   ـنَ بِالِاتِّحَادِ فَهُمْ أُولُو الْعِرْفَانِ

٣١٦٧- رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيْفَ ذَاكَ وَإِنَّمَا الْـ   ـمَوْجُودُ فَرْدٌ مَا لَهُ مِنْ ثَانِ

الشرحُ

هذا أيضًا توحيدٌ من نوعٍ آخرَ، وهو توحيدُ أهلِ وَحدةِ الوجودِ الذين يقولون: إنَّ الوجودَ شيءٌ واحدٌ، فالعبدُ هو الرَّبُّ، والرَّبُّ هو العبدُ، نسألُ اللهَ العافيةَ؛ يعني: لا يُوجَدُ ربٌّ ولا عبدٌ بائنٌ أحدُهما عن الآخرِ، بل الكُلُّ رَبٌّ، وفي نفسِ الوقتِ الكُلُّ عبدٌ، ما هناك شيئان.

٣١٥١- هَذَا وَثَانِيهَا فَتَوْحِيدُ ابْنِ سَبْـ   ـعِينٍ وَشِيعَتِهِ أُولِي الْبُهْتَانِ

٣١٥٢- كُلُّ اتِّحَادِيٍّ خَبِيثٍ عِنْدَهُ   مَعْبُودُهُ مَوْطُوءُهُ الْحَقَّانِي

قَوْلُهُ: «اتِّحَادِيٍّ»؛ يعني: مَنْ يقولُ باتِّحادِ الخالقِ والمخلوقِ، وأنَّهما شيءٌ واحدٌ.

وسُبحان اللهَ العظيم! هم يجدون أنَّ زيدًا غيرُ عمرٍو، وأَنَّ الأبَ غيرُ الابنِ، هذا الحِسُّ والواقعُ، لكنَّهم يقولون: لا، لا تَسْتَعْمِلِ الحسَّ في الموجوداتِ، إنِ اسْتَعْمَلْتَ الحِسَّ أو الوهمَ أو الخيالَ أو العقلَ فإنَّك لن تصلَ إلى الحقيقةِ؛ لأنَّ

(١) في نسخ السفارينية والظاهرية والتيمورية: «فتقسم».

هذه الأربعةَ كُلَّها حُجُبٌ تَحْجُبُك عن الوصولِ إلى الحقيقةِ، تجَرَّدْ من العقلِ، والوهمِ، والحسِّ، والخيالِ، فضلًا عن الشَّرعِ، وحينئذٍ يَبِينُ لك التَّوحيدُ، أعوذ بالله؛ يعني: صِر مجنونًا حتَّى تكونَ موحِّدًا.

قَوْلُهُ: «**عِنْدَهُ مَعْبُودُهُ مَوْطُوءُهُ الحَقَّانِي**»؛ يعني: هو يطأُ زوجتَه ويَرَى أنَّها رَبُّه، نسألُ اللهَ العافيةَ، ويذبحَ شاتَه ويَرَى أنَّها ربُّه، ويركبُ حِمارَه ويَرَى أنَّه ربُّه، ويَزْجُرُ كلبَه ويَرَى أنَّه ربُّه، وهكذا فالشَّيءُ شيءٌ واحٌد؛ ولهذا يقول:

٣١٥٣- تَوْحِيـدُهُمْ أَنَّ الْإِلَـهَ هُـوَ الْوُجُـو دُ الْـمُطْلَقُ الْـمَبْثُوثُ فِي الْأَعْيَـانِ

هذا هو الفصلُ بين توحيدِهم وتوحيدِ الفلاسفةِ السَّابقِ؛ لأنَّ الفلاسفةَ لا يقولون: إنَّ الرَّبَّ هو المربوبُ، بل يقولون: هو الرَّبُّ وحدَه، لكنَّه هو الوجودُ الذي لا ذاتَ له ولا صفات.

وهؤلاء يقولون: الرَّبُّ هو المربوبُ، فهما شيءٌ واحدٌ موجودٌ، فاختلافُ النَّاسِ، واختلافُ الأنواعِ من الحيوانِ، ومن الأشجارِ، ومن الجبالِ، ومن الأنهار، اختلافُ مَظاهِرٍ، كما يبدو الإنسانُ وهو غضبان على وجهٍ، وهو مسرورٌ على وجهٍ آخرَ، وإلَّا فإنَّ الكُلَّ شيءٌ واحدٌ.

٣١٥٤- هُـوَ عَيْنُهَـا لَا غَيْرُهَـا مَـا هَاهُنَـا رَبٌّ وَعَبْـدٌ كَيْـفَ يَفْتَرِقَـانِ؟!

قَوْلُهُ: «**هُوَ عَيْنُهَا لَا غَيْرُهَا**» «**هُوَ**»؛ أي: اللهُ عزَّ وجلَّ، و«**عَيْنُهَا**»؛ أي: عينُ الموجوداتِ لا غيرُها.

قَوْلُهُ: «**مَا هَاهُنَا رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيْفَ يَفْتَرِقَانِ؟!**» عرفتم الآن هذا المذهبَ، فهؤلاء يقولون: إنَّ الرَّبَّ هو عينُ العبدِ، والعبدَ عينُ الرَّبِّ، ولا يمكنُ أن يكونَ هذا وهذا شيئَيْنِ أبدًا.

٣١٥٥- لَكِــنَّ وَهْــمَ الْعَبْـدِ ثُــمَّ خَيَالَــهُ فِي ذِي الْـــمَظَاهِرِ دَائِـــمًا يَلِجَـــانِ

قَوْلُهُ: «يَلِجَانِ»؛ أي: يتداخلان.

الوهمُ ثُمَّ الخيالُ يتداخلان.

٣١٥٦- فَلِــذَاكَ حُكْمُهُــمَا عَلَيْــهِ نَافِــذٌ فَــابْنُ الطَّبِيعَـةِ ظَـاهِرُ النُّقْصَــانِ

٣١٥٧- فَــإِذَا تَجَــرَّدَ عِلْمُــهُ عَــنْ حِسِّــهِ وَخَيَالِــهِ بَــلْ ثَــمَّ تَجْرِيــدَانِ

٣١٥٨- تَجْرِيــدُهُ عَــنْ عَقْلِـهِ أَيْضًــا فَــإِنْ نَ الْعَقْـلَ لَا يُدْنِيـهِ مِــنْ ذَا الشَّــانِ

يقولُ: إنَّ الإنسانَ يتوهَّمُ التَّعدُّدَ، فأنا مثلًا -على زعمِهم- بعقلي أتوهَّمُ أنَّ زيدًا غَيْرُ، ثُمَّ بعد ذلك يتخيَّلُ، ثُمَّ يُدْرِكُ بالحِسِّ أنَّ الابنَ غيرُ الأبِ، وأنَّ الخشبَ غيرُ الحديدِ، ثُمَّ العقلُ أيضًا يَدْرِكُ أنَّ المُحْدَثَ لا بُدَّ له من مُحْدِثٍ وأنَّ المُحْدَثَ شيءٌ والمُحْدِثَ شيءٌ آخرُ.

فكُلُّ هذه الأربعة، وهي: الوهمُ، ثُمَّ الخيالُ، ثُمَّ الحِسُّ، ثُمَّ العقلُ، كُلُّها تُوجِبُ التَّعدُّدَ، لكن هم يقولون: هذا التَّعدُّدُ إشراكٌ، وإذا أردتَ أن تصلَ إلى التَّوحيدِ فاكسِر كُلَّ هذه الحواجزِ حتَّى تصلَ إلى الحقيقةِ.

قَوْلُهُ: «فَإِنَّ العَقْلَ لَا يُدْنِيهِ مِنْ ذَا الشَّانِ»؛ أي: من هذا التَّوحيدِ -فالمقصود بالشَّان: التَّوحيد- لماذا؟ الجوابُ: لأنَّ العقلَ يَقضي حتمًا بأنَّ المُحْدَثَ غيرُ المُحْدِثِ، وأنَّ الأعيانَ أنفسَها متباينةٌ، وليست شيئًا واحدًا، فـ(محمَّدٌ) ليس (زيدًا)، و(زيدٌ) ليس (عَمْرًا)، لكن هم يقولون: هذا كُلُّه شيءٌ واحدٌ.

فالعقلُ لا يُدْنِيه من ذا الشَّأنِ؛ لأنَّه معلومٌ أنَّه يحكمُ بأنَّ الأعيانَ متباينةٌ متغايرةٌ، وأن المُحْدَثَ لا بُدَّ له من مُحْدِثٍ، وهكذا.

٣١٥٩- بَلْ يَخْرِقُ الْـحُجُبَ الْكَثِيفَةَ كُلَّهَا وَهْمًا وَحِسًّا ثُمَّ عَقْلٌ وَانِي

معناه: أنَّه يجبُ أن يَخْرِقَ هذه الحُجُبَ التي هي: الوهمُ، والخيالُ، والحِسُّ، والعقلُ، حتَّى تَتَبَيَّنَ له الحقيقةُ.

٣١٦٠- فَالْوَهْمُ مِنْهُ وَحِسُّهُ وَخَيَالُهُ وَالْعِلْمُ وَالْـمَعْقُولُ فِي الْأَذْهَانِ

٣١٦١- حُجُبٌ عَلَى ذَا الشَّانِ فَاخْرِقْهَا وَإِلْ لَا كُنْتَ مَحْجُوبًا عَنِ الْعِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «**اخْرِقْهَا**»؛ يعني: مَزِّقْها، وكأنَّها لا شيء.

يعني: لا تَرْجِع إلى حسٍّ، ولا وهمٍ، ولا خيالٍ، ولا عقلٍ، حتَّى تُدْرِكَ الحقيقةَ.

٣١٦٢- هَذَا وَأَكْثَفُهَا حِجَابُ الْـحِسِّ وَالْـ ـمَعْقُولِ ذَانِكَ صَاحِبُ الْفُرْقَانِ

وذلك لأنَّ الحِسَّ لا يمكنُ أَنْ يُنْكَرَ، والعقلَ كذلك لا يُمكنُ أَنْ يُنْكَرَ، لكن المُدْرَكُ بالحِسِّ مُشَاهَدٌ يُدْرَكُ بالأعيانِ؛ أي: بعين البصرِ، والمُدْرَكُ بالعقلِ يُدْرَكُ بعينِ البصيرةِ.

فالحِسُّ والعقلُ هما أكثفُها؛ لأنَّهما الأقوى دلالةً، أمَّا الخيالُ والوهمُ فهذا سهلٌ؛ لأنَّ الإنسانَ رُبَّما يَتوهَّمُ أشياءَ غيرُ معقولةٍ، وأشياءَ لا يمكنُ أن توجدَ في الحِسِّ.

لكن الحِسُّ هو المشكلةُ، كيف يكونُ الحسُّ؟ الحِسُّ يُدْرِكُ أنَّ الشَّاةَ غيرُ البعيرِ، وأنَّ الولدَ غيرُ الوالدِ، وأنَّ الحَجَرَ غيرُ الحديدِ، فهذا يُشَاهَدُ بالحِسِّ.

العقلُ كذلك يُدْرِكُ أنَّ المصنوعَ غيرُ الصَّانعِ، وأنَّ المُحْدَثَ غيرُ المُحْدِثِ، وهكذا؛ لهذا كانت دلالةُ الحسِّ والعقلِ على امتناعِ ما ذهب إليه هؤلاء أمرًا واضحًا جدًّا فصارت هي أَكْثَفَها عندهم.

٣١٦٣- فَهُنَاكَ صِرْتَ مُوَحِّدًا حَقًّا تَرَى   هَذَا الْوُجُودَ حَقِيقَةَ الدَّيَّانِ

يعني: إذا كسرتَ هذه الحُجُبَ فهناك صِرْتَ موحِّدًا حقًّا، ترى هذا الوجودَ حقيقةَ الدَّيَّانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ؛ يعني: حينئذٍ تكونُ موحِّدًا حقيقةً، ترى أنَّ هذا الوجودَ هو حقيقةُ الدَّيَّانِ (الله) عزَّ وجلَّ.

٣١٦٤- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ فَتَنْوِيعُ الْوُجُو   دِ وَقَوْلُنَا: إِنَّ الْوُجُودَ اثْنَانِ

هذا الشِّركُ، إِذَنْ التَّوحيدُ عندهم جَعْلُ الخالقِ والمخلوقِ واحدًا، والشِّركُ جَعْلُهُما اثنين.

٣١٦٥- وَاحْتَجَّ يَوْمًا بِالْكِتَابِ عَلَيْهِمُ   شَخْصٌ فَقَالُوا الشِّرْكُ فِي الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «بِالكِتَابِ»؛ أي: بالقرآنِ.

قال: القرآنُ يُفَرِّقُ بين الخالقِ والمخلوقِ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، فهناك عابِدٌ ومعبودٌ، وهناك خالِقٌ ومخلوقٌ، فكان جوابُهم: القرآنُ كُلُّه شركٌ، كُلُّ القرآنِ شركٌ، أعوذُ باللهِ.

فالقرآنُ يدعو إلى التَّوحيدِ، ويأمرُ بقتالِ المشركين؛ قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة:٣٦]، هم يقولون: القرآنُ كُلُّه شركٌ.

وأنا لا أَظُنُّ شيئًا أكفَرُ من هذا، نسألُ اللهَ العافيةَ، أَيُّ كفرٍ أعظمُ من هذا الكفرِ؟!

٣١٦٦- لَكِنَّمَا التَّوْحِيدُ عِنْدَ الْقَائِلِيـ   ـنَ بِالِاتِّحَادِ فَهُمْ أُولُو الْعِرْفَانِ

٣١٦٧- رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيْفَ ذَاكَ وَإِنَّمَا الْـ ـمَوْجُودُ فَرْدٌ مَا لَهُ مِنْ ثَانِ

هذا خلاصةُ التَّوحيدِ عند أهلِ الاتِّحادِ، والفرقُ بينهم وبين سلفِهم الفلاسفة: أَنَّ الفلاسفةَ يَرَوْنَ أنَّ الرَّبَّ شيءٌ والمربوبَ شيءٌ آخرُ، لكنَّ الرَّبَّ حقيقةً عندهم لا وجود له، لأنَّهم يقولون: هو الوجودُ المطلَقُ، وهؤلاء يقولون: الرَّبُّ والعبدُ شيءٌ واحدٌ، فَمَنْ أَثْبَتَ اثنين فقد أَشْرَكَ.

* * *

فصل

فِي النَّوْعِ الثَّالِثِ مِنَ التَّوْحِيدِ لأَهْلِ الإِلْحَادِ

٣١٦٨- هَذَا وَثَالِثُهَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْـ ـدَ الْجَهْمِ تَعْطِيلٌ بِلَا إِيمَانِ

٣١٦٩- نَفْيُ الصِّفَاتِ مَعَ الْعُلُوِّ كَذَاكَ نَفْـ ـيُ كَلَامِهِ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

٣١٧٠- فَالْعَرْشُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ بَتَّةً لَكِنَّهُ خِلْوٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

٣١٧١- مَا فَوْقَهُ رَبٌّ يُطَاعُ وَلَا عَلَيْـ ـهِ لِلْوَرَى مِنْ خَالِقٍ رَحْمَنِ[1]

٣١٧٢- بَلْ حَظُّ عَرْشِ الرَّبِّ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ مِنْهُ كَحَظِّ الْأَسْفَلِ التَّحْتَانِي

٣١٧٣- فَهُوَ الْمُعَطَّلُ عَنْ نُعُوتِ كَمَالِهِ وَعَنِ الْكَلَامِ وَعَنْ جَمِيعِ مَعَانِ

٣١٧٤- وَانْظُرْ إِلَى مَا قَدْ حَكَيْنَا عَنْهُ فِي مَبْدَا الْقَصِيدِ حِكَايَةَ التِّبْيَانِ

٣١٧٥- هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ تِلْوَ الْفُحُولِ مُقَدَّمِي الْبُهْتَانِ[2]

٣١٧٦- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ فَإِثْبَاتُ الصِّفَا تِ لِرَبِّنَا وَنِهَايَةُ الْكُفْرَانِ

٣١٧٧- إِنْ كَانَ شِرْكًا ذَا فَكُلُّ الرُّسْلِ قَدْ جَاؤُوا بِهِ يَا خَيْبَةَ الْإِنْسَانِ

الشَّرحُ

هذا النَّوعُ الثَّالثُ من أنواعِ التَّوحيدِ، وهو توحيدُ الجهميَّةِ، وتوحيدُ الجهميَّةِ

---

(١) في نسخة السفارينية: «ديان»، وفي التيمورية: «ربان».

(٢) في نسخ السفارينية والتيمورية: «سبحانك اللهم ذا السبحان».

إفرادُ الذَّاتِ عن الصِّفاتِ، قالوا: لأَنَّ إثباتَ الصِّفاتِ إن كانت صفاتٍ قديمةً لَزِمَ تعدُّدُ القدماءِ، وهذا شركٌ، وإِنْ أثبتَّ صفاتٍ حادثةً لَزِمَ قِيَامُ الحوادثِ به، والحادثُ لا يقومُ إلَّا بحادثٍ، لذلك ننفي عنه الصِّفاتِ الذَّاتيَّةَ والفعليَّةَ؛ لأنَّ الذَّاتيَّةَ إذا أثبتَّها فهي قديمةٌ، فيَلْزَمُ تعدُّدُ القدماءِ، فاللهَ قديمٌ، علمُه قديمٌ، عزَّتُه قديمةٌ، حكمتُه قديمةٌ، وهكذا، فيلزم أنْ يكونَ هناك قُدَماء متعدِّدون، وهذا عندهم أعظمُ من شركِ النَّصارى؛ لأنَّ النَّصارى قالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، وأنت إذا أَثْبَتَّ له الصِّفاتِ القديمةَ جَعَلْتَهُ واحدًا من آلافٍ، فلذلك يُمْنَعُ تعدُّدُ الصِّفاتِ القديمةِ، أمَّا الصِّفاتُ الحادثةُ التي هي الصِّفاتُ الفعليَّةُ، فقالوا: إذا أَثْبَتَّهَا لَزِمَ قيامُ الحوادثِ به، والحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، إِذَنْ فالتَّوحيدُ عند الجهميَّةِ هو إفرادُ الذَّاتِ عن الصِّفاتِ.

٣١٦٨- هَـذَا وَثَالِثُهَـا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـــــدَ الْـجَهْمِ تَعْطِيـلٌ بِـلَا إِيـمَانِ

٣١٦٩- نَفْيُ الصِّفَاتِ مَعَ الْعُلُوِّ كَذَاكَ نَفْـــيُ كَلَامِـهِ بِـالْوَحْيِ وَالْقُـرْآنِ

لأنَّهم يُنكِرون علوَّ الله، ويُنكرون صفاتِه، ويُنكرون كلامَه، ويقولون: إنَّ هذا الكلامَ المسموعَ صوتٌ مخلوقٌ، خَلَقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في الهواءِ، فَسَمِعَهُ جبريلُ، فأخذه وألقاه إلى محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

٣١٧٠- فَـالْعَرْشُ لَـيْسَ عَلَيْـهِ شَيْءٌ بَتَّـةً لَكِنَّـــهُ خِلْـــوٌ مِـــنَ الـــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «فَالعَرْشُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ بَتَّةً»؛ يعني: قطعًا، لكنَّه خِلْوٌ من الرَّحمنِ.

٣١٧١- مَـا فَوْقَـهُ رَبٌّ يُطَـاعُ وَلَا عَلَيْـــهِ لِلْـوَرَى مِـنْ خَـالِقٍ رَحْمَـنِ

لأنَّهم يُنكرون العلوَّ، ومن باب أولى يُنكرون الاستواءَ.

٣١٧٢- بَلْ حَظُّ عَرْشِ الرَّبِّ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ   مِنْـهُ كَحَـظِّ الْأَسْـفَلِ التَّحْتَـانِي

يقول: أسفلُ الأرضِ والعرشُ عند الله على حَدٍّ سواء، وعلى هذا تبطُلُ النَّصوصُ الدَّالَّةُ على الفوقيَّةِ والدَّالَّةُ على العِنديَّة ﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، يقولُ: كُلُّ النَّاسِ عند الله، لا فرقَ بين الأعلى والأسفلِ؛ لأنَّهم لا يَرَوْنَ أنَّ اللهَ فوق كُلِّ شيءٍ.

٣١٧٣- فَهُوَ الْـمُعَطَّلُ عَـنْ نُعُـوتِ كَمَالِـهِ   وَعَـنِ الْكَـلَامِ وَعَـنْ جَمِيـعِ مَعَـانِ

٣١٧٤- وَانْظُـرْ إِلَى مَـا قَـدْ حَكَيْنَـا عَنْـهُ فِي   مَبْـدَا الْقَصِـيدِ حِكَايَـةَ التِّبْيَـانِ

وقد سَبَقَ هذا مبسوطًا في كلامِ المؤلِّفِ رحمه اللهُ.

٣١٧٥- هَـذَا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ فَـرِيقِهِمْ   تِلْـوَ الْفُحُـولِ مُقَـدَّمِي الْبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «تِلْوَ الفُحُولِ مُقَدَّمِي البُهْتَانِ»؛ يعني: أنَّهم فحولٌ، لكنَّهم فحولُ بهتانٍ وكذبٍ.

٣١٧٦- وَالشِّرْكُ عِنْـدَهُمُ فَإِثْبَـاتُ الصِّـفَا   تِ لِرَبِّنَـا وَنِهَايَـةُ الْكُفْـرَانِ

الشِّركُ إثباتُ الصِّفاتِ، فكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ لله صفةً فهو عندهم مشركٌ.

يقولُ المؤلِّفُ:

٣١٧٧- إِنْ كَانَ شِرْكًا ذَا فَكُلُّ الرُّسْـلِ قَـدْ   جَـاؤُوا بِـهِ يَـا خَيْبَـةَ الْإِنْسَـانِ

المعنى: أنَّ كُلَّ الرُّسلِ قد جاؤوا بإثباتِ الصِّفاتِ لله، فإن كان هذا شِركًا فيا خيبةَ الإنسانِ.

* * *

فصــل

فِي النَّوْعِ الرَّابِعِ مِنْ أَنْوَاعِهِ

٣١٧٨- هَــذَا وَرَابِعُهَــا فَتَوْحِيــدُ لَــدَى ... جَــبْرِيِّهِمْ هُــوَ غَايَــةُ الْعِرْفَــانِ

٣١٧٩- الْعَبْـدُ مَيْـتٌ مَـا لَـهُ فِعْـلٌ وَلَــ ... ـكِنْ مَا تَرَى هُوَ فِعْلُ ذِي السُّلْطَانِ

٣١٨٠- وَاللهُ فَاعِــلُ فِعْلِنَــا مِــنْ طَاعَــةٍ ... وَمِـنَ الْفُسُـوقِ وَسَـائِرِ الْعِصْيَانِ

٣١٨١- هِيَ فِعْلُ رَبِّ الْعَالَـمِينَ حَقِيقَةً ... لَيْسَــتْ بِفِعْــلٍ قَــطُّ لِلْإِنْسَــانِ

٣١٨٢- فَالْعَبْـدُ مَيْـتٌ وَهْـوَ مَجْبُـورٌ عَـلَى ... أَفْعَالِـهِ كَالْـمَيْتِ[1] فِي الْأَكْفَـانِ

٣١٨٣- وَهُـوَ الْـمَلُومُ عَـلَى فِعَـالِ إِلَــهِهِ ... فِيــهِ وَدَاخِــلُ جَــاحِمِ النِّــيرَانِ

٣١٨٤- يَا وَيْحَهُ الْـمِسْكِينُ مَظْلُـومٌ يُـرَى ... فِي صُورَةِ الْعَبْـدِ الظَّلُّـومِ الْـجَانِي

٣١٨٥- لَكِــنْ نَقُــولُ بِأَنَّــهُ هُــوَ ظَالِــمٌ ... فِي نَفْسِــهِ أَدَبًــا مَــعَ الــرَّحْمَنِ

٣١٨٦- هَـذَا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ فَـرِيقِهِمْ ... مِنْ كُـلِّ جَـبْرِيٍّ خَبِيـثٍ جَنَـانِ[2]

٣١٨٧- وَالْكُـلُّ عِنْـدَ غُلَاتِهِـمْ طَاعَاتُنَــا ... مَــا ثَــمَّ فِي التَّحْقِيـقِ مِـنْ عِصْيَانِ

٣١٨٨- وَالشِّرْكُ عِنْـدَهُمُ اعْتِقَـادُكَ فَـاعِلًا ... غَــيْرَ الْإِلَــهِ الْــمَالِكِ الــدَّيَّانِ

---

(١) في نسخة الإفتاء: «حركاته كالجسم».

(٢) في نسخة برلين والإفتاء والتيمورية: «جاني».

٣١٨٩- فَانْظُرْ إِلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا ... فِيهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَالْكُفْرَانِ

٣١٩٠- مَا عِنْدَهُمْ وَاللهِ شَيْءٌ غَيْرُهُ ... هَاتِيكَ كُتْبُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

٣١٩١- أَتَرَى أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ رَأَوْا ... مِنْ خَالِقٍ ثَانٍ لِذِي الْأَكْوَانِ

٣١٩٢- أَمْ كُلُّهُمْ جَمْعًا أَقَرُّوا أَنَّهُ ... هُوَ وَحْدَهُ الْخَلَّاقُ لِلْإِنْسَانِ؟

٣١٩٣- فَإِذَا ادَّعَيْتُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ التْـ ... ـتَوْحِيدِ صَارَ الشِّرْكُ ذَا بُطْلَانِ

٣١٩٤- فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ أَقَرُّوا أَنَّهُ ... هُوَ وَحْدَهُ الْخَلَّاقُ لَيْسَ اثْنَانِ

٣١٩٥- إِلَّا الْمَجُوسَ فَإِنَّهُمْ قَالُوا بِأَنْ ... نَ الشَّرَّ خَالِقُهُ إِلَهٌ ثَانِ

الشرحُ

٣١٧٨- هَذَا وَرَابِعُهَا فَتَوْحِيدٌ لَدَى ... جَبْرِيِّهِمْ هُوَ غَايَةُ الْعِرْفَانِ

٣١٧٩- الْعَبْدُ مَيْتٌ مَا لَهُ فِعْلٌ وَلَـ ... ـكِنْ مَا تَرَى هُوَ فِعْلُ ذِي السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «العَبْدُ مَيْتٌ»؛ أي: لا تُنْسَبُ حركاتُه إليه، فكما أنَّ الميتَ لا يتحرَّكُ فالحيُّ لا يتحرَّكُ، حركاتُه منسوبةٌ إليه، فإذا رَفَعْتَ يدَكَ إلى فمِك فهي كما لو رَفَعَ الغاسلُ يدَ الميتِ إلى فمِه، ولا فرقَ.

قَوْلُهُ: «وَلَكِنْ مَا تَرَى هُوَ فِعْلُ ذِي السُّلْطَانِ»؛ ذو السُّلطانِ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

هذا هو النَّوعُ الرَّابعُ من أنواعِ التَّوحيدِ، وهو: إفرادُ الله تعالى بالأفعالِ؛ فأيُّ فعلٍ كان فاللهُ تعالى مُنْفَرِدٌ به، فَمَنْ أَضَافَ فِعلًا لغيرِ الله فهو مشركٌ، هذا هو التَّوحيدُ عند الجبريَّةِ.

يقولون: إنَّ فعلَ العبدِ هو نفسُ فعلِ الرَّبِّ، فحركاتُنا حركاتُ الله، والمعصيةُ الواقعةُ من الإنسانِ معصيةٌ واقعةٌ من الله، الطَّاعةُ من الإنسانِ طاعةٌ من الله.

يُقَالُ لهم: أليس يُقَالُ: إنَّ الرَّجلَ ظَلَمَ نفسَه؟ قالوا: بلى يُقَالُ، لكن هذا تأدُّبٌ مع الله، وإلَّا فإنَّ الظَّالـمَ حقيقةً هو اللهُ.

فانظر -والعياذُ بالله- إلى هذا القولِ الخبيثِ، ثُمَّ جاءت الغُلاةُ منهم وقالوا: إنَّنا نخرجُ من هذا ونتخلَّصُ، فنقول: جميعُ الأفعالِ طاعةٌ، فالزِّنا طاعةٌ، والسَّرقةُ طاعةٌ، وشربُ الخمرِ طاعةٌ، وقتلُ النَّفسِ طاعةٌ؛ وذلك لأنَّ هذه الأفعالَ إن خرجت عن الإرادةِ الشرعيَّةِ فهي واقعةٌ بالإرادةِ الكونيَّةِ؛ ولهذا يقولون: كُلُّ مرادٍ لله فهو محبوبٌ له، والكونُ كُلُّه مرادٌ، فيكونُ الكونُ كُلُّه بما فيه من طاعاتٍ ومعاصٍ محبوبًا لله؛ ولهذا ليس عندهم معصيةٌ، فَمَنِ استكبر عن الأمرِ الشَّرعيِّ فهو خاضعٌ للأمرِ الكونيِّ، وحينئذٍ لا يكونُ عاصيًا.

٣١٨٠- وَاللهُ فَاعِـلُ فِعْلِنَـا مِـنْ طَاعَـةٍ ... وَمِـنَ الْفُسُـوقِ وَسَـائِرِ الْعِصْـيَانِ

٣١٨١- هِيَ فِعْـلُ رَبِّ الْعَالَـمِينَ حَقِيقَـةً ... لَيْسَـتْ بِفِعْـلٍ قَـطُّ لِلْإِنْسَـانِ

٣١٨٢- فَالْعَبْـدُ مَيْـتٌ وَهْـوَ مَجْبُـورٌ عَـلَى ... أَفْعَالِـهِ كَالْـمَيْتِ فِي الْأَكْفَـانِ

سُبحان الله! أنا أتعجَّبُ كيف يستقيمُ قَدَمُ الإنسانِ على هذا القولِ أن يجعلَ أفعالَنا بمنزلةِ حركاتِ الميِّتِ؟! وهذا شيءٌ ينكرُه المعقولُ والمحسوسُ، لكن ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران:٨].

٣١٨٣- وَهْـوَ الْـمَلُومُ عَـلَى فِعَـالِ إِلَـهِهِ ... فِيـهِ وَدَاخِـلُ جَـاحِمِ النِّـيرَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الـمَلُومُ عَلَى فِعَالِ إِلَـهِهِ» اللهُ يفعلُ والملومُ العبدُ؛ لأنَّ فعلَ

الإنسانِ عندهم هو فعلُ الله حقيقةً، وهذا لا شكَّ أنَّك إذا تأمَّلته وجدتَه فرعًا من قولِ أهلِ وَحدةِ الوجودِ؛ لأنَّ القائلين بوحدةِ الوجودِ يقولون: إنَّ الإنسانَ هو اللهُ وفعلَه فعلُ الله، هؤلاء لا يقولون بذلك، ولكن يقولون: فعلُ العبدِ هو فعلُ الله.

قَوْلُهُ: «**وَدَاخِلُ جَاحِمِ النِّيرَانِ**»، وهذا غريبٌ، الفعلُ فعلُ غيرِه والمُعَذَّبُ هو!!

٣١٨٤- يَا وَيْحَهُ الْـمِسْكِينُ مَظْلُـومٌ يُـرَى　　　فِي صُورَةِ الْعَبْـدِ الظَّلُـومِ الْـجَانِي

٣١٨٥- لَكِـنْ نَقُـولُ بِأَنَّـهُ هُـوَ ظَالِـمٌ　　　فِي نَفْسِـهِ أَدَبًـا مَـعَ الـرَّحْمَنِ

فهم يقولون: إنَّ الذَّنبَ أُضِيفَ إليهم تأدُّبًا مع الله، وإلَّا فالذَّنبُ ذنبُ الله عزَّ وجلَّ، والعياذُ بالله! يقولُ قائلُهم:

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفًـا وَقَـالَ لَـهُ:　　　إِيَّـاكَ إِيَّـاكَ أَنْ تَبْتَـلَّ بِالمَـاءِ[1]

فلو أنَّ إنسانًا ألقى شخصًا مَكتُوفًا في الماء، وقال: أنا ألقيتُك بالبحرِ، لكن لا تبتلَّ بالماءِ، فهل هذا يمكنُ؟

الجوابُ: لا يمكنُ، إِذَنْ يقولون: لا بُدَّ أن يكونَ اللهُ ظالمًا.

فالحقيقةُ أنَّ الظالـمَ -على زعمِهم- هو اللهُ عزَّ وجلَّ، يفعلُ الفعلَ ويُنْسَبُ إلى غيرِه، ثُمَّ يُعَذِّبُ غيرُه فيدخل جاحمَ النِّيرانِ.

٣١٨٦- هَـذَا هُـوَ التَّوْحِيـدُ عِنْـدَ فَـرِيقِهِمْ　　　مِـنْ كُـلِّ جَـبْرِيٍّ خَبِيـثِ جَنَـانِ

إي واللهِ، إنَّهم خبثاءُ الجَنَانِ، والجَنَانُ هو القلبُ، وسُمِّيَ به لأنَّه مستترٌ،

---

(١) البيت في نفح الطيب (٥/ ٢٩٢) بلا نسبة.

وأصلُ هذه المادة (الجيم والنُّون) من الاستِتارِ؛ ولذلك تجد جميعَ مواردِها تحومُ حولَ الاستتارِ.

٣١٨٧- وَالْكُلُّ عِنْدَ غُلَاتِهِمْ طَاعَاتُنَا   مَا ثَمَّ فِي التَّحْقِيقِ مِنْ عِصْيَانِ

وهذا أَخْبَثُ؛ فكُلُّ ما نفعلُه طاعةٌ، فالزِّنا طاعةٌ، والنِّكاحُ بالعقدِ الصَّحيحِ طاعةٌ، وقتلُ النَّفسِ بغير حقٍّ طاعةٌ، وقتلُ الجاني قِصاصًا طاعةٌ، فكُلُّها طاعاتٌ؛ وذلك لأنَّ القاعدةَ عندهم أنَّ كُلَّ مرادِ الرَّبِّ محبوبٌ له، والكونُ كُلُّه مُرادُه، فيكون الكونُ كُلُّه محبوبًا لله طاعةً، ويكونُ أيضًا إذا استكبر عن الأمرِ الشَّرعيِّ فقد خَضَعَ للأمرِ الكونيِّ، فهو مطيعٌ.

٣١٨٨- وَالشِّرْكُ عِنْدَهُمُ اعْتِقَادُكَ فَاعِلًا   غَيْرَ الْإِلَهِ الْمَالِكِ الدَّيَّانِ

الشِّركُ أنْ تعتقدَ أنَّ هناك فاعلًا سوى الله، فإذا اعْتَقَدْتَ أنَّ الإنسانَ فاعلٌ فهذا شركٌ؛ ولذلك قلنا: إنَّ التَّوحيدَ عند هؤلاء إفرادُ الله بالأفعالِ أيًّا كانت.

٣١٨٩- فَانْظُرْ إِلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا   فِيهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَالْكُفْرَانِ

يعني: انظُر إلى ما فيه من الإشراكِ والكُفرانِ.

٣١٩٠- مَا عِنْدَهُمْ وَالله شَيْءٌ غَيْرُهُ   هَاتِيكَ كُتْبُهُمْ بِكُلِّ مَكَانِ

يعني: ولم نَكْذِبْ عليهم، فكتبُهم موجودةٌ ويصرِّحون بذلك.

٣١٩١- أَتَرَى أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ رَأَوْا   مِنْ خَالِقٍ ثَانٍ لِذِي الْأَكْوَانِ

٣١٩٢- أَمْ كُلُّهُمْ جَمْعًا أَقَرُّوا أَنَّهُ   هُوَ وَحْدَهُ الْخَلَّاقُ لِلْإِنْسَانِ؟

والجوابُ: كُلُّهم أقرُّوا بأنَّ اللهَ هو الخالقُ، حتَّى أبو جهلٍ الملعون الذي قُتِلَ

في بدرٍ، هو يُقِرُّ بأنَّ اللهَ وحده هو الـخلَّاقُ، لكن يُقِرُّ بأنَّ فعلَه غيرُ فعلِ الله عزَّ وجلَّ.

٣١٩٣- فَـإِذَا ادَّعَيْـتُمْ أَنَّ هَـذَا غَايَـةُ التَّـ ـتَوْحِيدِ صَـارَ الشِّـرْكُ ذَا بُطْـلَانِ

إذا ادَّعيتم أنَّ هذا غايةُ التَّوحيدِ وهو توحيدُ الله بالأفعالِ صار الشِّركُ ذا بطلانٍ، فلم يُوجَدْ شركٌ؛ لأنَّ الكُلَّ فعلُ الله.

٣١٩٤- فَالنَّـــاسُ كُلُّهُـــمْ أَقَـــرُّوا أَنَّـــه هُوَ وَحْـدَهُ الْـخَلَّاقُ لَـيْسَ اثْنَـانِ

٣١٩٥- إِلَّا الْـمَجُوسَ فَـإِنَّهُمْ قَـالُوا بِـأَنْ نَ الشَّـــرَّ خَالِقُــهُ إِلَــهٌ ثَــانِ

المجوسُ يقولون: إنَّ العَالَـمَ له صانعان: نورٌ وظُلمةٌ؛ فما فيه من خَيْرٍ فهو مخلوقٌ من النُّورِ، وما فيه من شرٍّ فهو مخلوقٌ من الظُّلمةِ، ومع هذا فإنَّهم لا يُقِرُّون بأنَّ هذين الإلهين سواء، بل يقولون: إنَّ النُّورَ خيرٌ من الظُّلمةِ، ويقولون أيضًا: إنَّ النُّورَ قديمٌ؛ يعني: ليس بحادثٍ، والظُّلمةُ حادثةٌ، وبعضُهم يقولُ: إنَّها قديمةٌ، فلذلك لم يُوجَدْ أحدٌ من الخلقِ يقولُ: إنَّ العَالَـمَ له صانعان متكافئان أبدًا.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ تَوْحِيدِ الأَنْبِيَاءِ والمُرسَلِينَ، ومُخَالَفَتِه لِتَوْحِيدِ المَلَاحِدَةِ والمُعطِّلِينَ

٣١٩٦- فَاسْمَعْ إِذَنْ تَوْحِيدَ رُسْلِ الله ثُمْـ ... ـمَ اجْعَلْهُ دَاخِلَ كِفَّةِ الْمِيزَانِ

٣١٩٧- مَعَ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَانْظُرْ أَيُّهَا ... أَوْلَى[1] لَدَى الْمِيزَانِ بِالرُّجْحَانِ

٣١٩٨- تَوْحِيدُهُمْ نَوْعَانِ قَوْلِيٌّ وَفِعْـ ... ـلِيٌّ كِلَا نَوْعَيْهِ ذُو بُرْهَانِ

٣١٩٩- فَالْأَوَّلُ الْقَوْلِيُّ ذُو نَوْعَيْنِ أَيْـ ... ـضًا فِي كِتَابِ الله مَوْجُودَانِ

٣٢٠٠- إِحْدَاهُمَا سَلْبٌ وَذَا نَوْعَانِ أَيْـ ... ـضًا فِي كِتَابِ الله مَذْكُورَانِ

٣٢٠١- سَلْبُ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ جَمِيعِهَا ... عَنْهُ هُمَا نَوْعَانِ[2] مَعْقُولَانِ

٣٢٠٢- سَلْبٌ لِمُتَّصِلٍ وَمُنْفَصِلٍ هُمَا ... نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ أَمَّا الثَّانِي

٣٢٠٣- سَلْبُ الشَّرِيكِ مَعَ الظَّهِيرِ مَعَ الشَّفِيـ ... ـعِ بِدُونِ إِذْنِ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ

٣٢٠٤- وَكَذَاكَ سَلْبُ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ الَّذِي ... نَسَبُوا إِلَيْهِ عَابِدُو الصُّلْبَانِ

٣٢٠٥- وَكَذَاكَ نَفْيُ الْكُفْءِ أَيْضًا وَالْوَلِـ ... ـي لَنَا سِوَى الرَّحْمَنِ ذِي الْغُفْرَانِ

٣٢٠٦- وَالْأَوَّلُ التَّنْزِيهُ لِلرَّحْمَنِ عَنْ ... وَصْفِ الْعُيُوبِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانِ

---

(١) في نسخ برلين والسفارينية والظاهرية والإفتاء والتيمورية: «أوفى».

(٢) في نسخة السفارينية: «سلبان».

٣٢٠٧- كَالْـمَوْتِ وَالْإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ الَّذِي ... يَنْفِـي اقْتِـدَارَ الْـخَالِقِ الـدَّيَّانِ

٣٢٠٨- وَالنَّـوْمُ وَالسِّـنَةُ الَّتِي هِـيَ أَصْـلُهُ ... وَعُـزُوبِ شَيْءٍ عَنْـهُ فِي الْأَكْـوَانِ

٣٢٠٩- وَكَذَلِكَ الْعَبَثُ الَّذِي تَنْفِيـهِ حِكْـ ... ـمَتُهُ وَحَمْـدُ اللهِ ذِي الْإِتْقَـانِ

٣٢١٠- وَكَذَاكَ تَرْكُ الْـخَلْقِ إِهْمَالًا سُـدًى ... لَا يُبْعَثُـونَ إِلَى مَعَـادٍ ثَـانِ

٣٢١١- كَـلَّا وَلَا أَمْـرٌ وَلَا نَهْـيٌ عَلَيْـ ... ـهِمْ مِـنْ إِلَـهٍ قَـادِرٍ دَيَّـانِ

٣٢١٢- وَكَذَاكَ ظُلْـمُ عِبَـادِهِ وَهْـوَ الْغَنِـيْ ... يُ فَـمَا لَـهُ وَالظُّلْـمِ لِلْإِنْسَـانِ

٣٢١٣- وَكَـذَاكَ غَفْلَتُـهُ تَعَـالَى وَهْـوَ عَلْـ ... ـلَامُ الْغُيُـوبِ فَظَـاهِرُ الْـبُطْلَانِ

٣٢١٤- وَكَـذَلِكَ النِّسْـيَانُ جَـلَّ إِلَـهُنَا ... لَا يَعْتَرِيـهِ قَـطُّ مِـنْ نِسْـيَانِ

٣٢١٥- وَكَـذَاكَ حَاجَتُـهُ إِلَى طُعْـمٍ وَرِزْ ... قٍ وَهْـوَ رَزَّاقٌ بِـلَا حُسْـبَانِ

٣٢١٦- هَذَا وَثَـانِي نَـوْعَيِ السَّـلْبِ الَّـذِي ... هُـوَ أَوَّلُ الْأَنْـوَاعِ فِي الْأَوْزَانِ

٣٢١٧- تَنْزِيهُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لَهُ عَـنِ التْـ ... ـتَشْبِيهِ وَالتَّمْثِيـلِ وَالنُّكْـرَانِ

٣٢١٨- لَسْـنَا نُشَـبِّهُ وَصْـفَهُ بِصِـفَاتِنَا ... إِنَّ الْـمُشَبِّهَ عَابِـدُ الْأَوْثَـانِ

٣٢١٩- كَـلَّا وَلَا نُخْلِيـهِ مِـنْ أَوْصَـافِهِ ... إِنَّ الْـمُعَطِّلَ عَابِـدُ الْبُهْتَـانِ

٣٢٢٠- مَـنْ مَثَّـلَ اللهَ الْعَظِـيمَ بِخَلْقِـهِ ... فَهْوَ النَّسِيبُ لِـمُشْرِكٍ نَصْـرَانِي[1]

٣٢٢١- أَوْ عَطَّـلَ الـرَّحْمَنَ مِـنْ أَوْصَـافِهِ ... فَهْـوَ الْكَفُـورُ وَلَـيْسَ ذَا إِيـمَانِ

---

(١) في التيمورية والسفارينية (لعابد الصلبان).

الشــرحُ

ذكَر -رحِمه الله- أربعةَ أنواعٍ للتَّوحيدِ بالنِّسبة لأهلِ التَّعطيلِ والملاحدةِ وغيرِهم، وأمَّا الخامسُ فهو توحيدُ الأنبياءِ والمرسَلين المخالفُ لتوحيدِ الملاحدةِ والمعطِّلين، وذكره -رحمه الله- هنا.

واعلم أنَّ التَّوحيدَ مصدر (**وَحَّدَ يُوَحِّدُ**)؛ بمعنى: جَعَلَ الشَّيءَ واحدًا عقيدةً أو عملًا.

وقَسَّمَه العُلَماءُ -رحمهم الله- إلى ثَلاثةِ أقسامٍ: توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وتوحيدِ الألوهيَّةِ، وتوحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ، ودليلُهم في ذلك قولُ الله -تبارك وتعالى-: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].

فتوحيدُ الرُّبوبيَّة في قولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [مريم:٦٥].

وتوحيدُ الألوهيَّة في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم:٦٥]، وهذا يُسَمَّى توحيدَ الألوهيَّةِ بالنِّسبة لله عزَّ وجلَّ، ويُسَمَّى توحيدَ العبادةِ بالنِّسبة للعبدِ أنَّه لا يَعْبُدُ غيرَ الله.

وتوحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]؛ لأنَّ الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ الاستفهام بمعنى النَّفي؛ يعني: لا تجدُ له مُضاهيًا ومُماثلًا في جميعِ صفاتِه، وهذا هو توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ.

وهناك توحيدٌ ضَمَّهُ بعضُ النَّاسِ وقال: (**توحيدُ الحاكميَّةِ**)، وهذا قسمٌ باطلٌ؛ لأنَّه مُبْتَدَعٌ، فلم يكن مـمَّا ذَكَرَه السَّلَفُ الصَّالحُ، ولو كان صحيحًا لقلنا: لا مُشاحَّةَ في الاصطلاحِ، لكنَّه غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ توحيدَ الحاكميَّةِ يدخلُ ضمنَ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ باعتبارِه حُكْمًا لله، وفي توحيدِ الألوهيَّةِ باعتبارِ أنَّ العبدَ مُتَعَبِّدٌ به

ومفروضٌ عليه، إِذَنْ لا حاجةَ إلى أن نجعلَه قسمًا برأسِه؛ لأنَّه يترتَّبُ على كونِه قسمًا برأسِه أشياءُ مخالفةٌ للشَّرعِ، ومنها: التَّسرُّع بتكفيرِ الحُكَّام، فيقولون: إذا خَالَفَ في مسألةٍ واحدةٍ -قد تحتملُ التَّأويلَ- يقولون: هذا كافرٌ؛ لأنه أَخَلَّ بالتَّوحيدِ؛ لذلك وضعوا هذا القسمَ الرَّابعَ.

وقال بعضُهم: نزيد أيضًا قسمًا خامسًا، وهو: توحيدُ المتابعةِ للرَّسولِ ﷺ، وهذا غلطٌ أيضًا؛ لأنَّ العبادةَ لا تتمُّ إلَّا بالمتابعةِ، فما دمنا نقولُ: توحيدُ الألوهيَّةِ هو العبادة فنستغني به عن توحيدِ المتابعةِ، ثُمَّ توحيدُ المتابعةِ ليس كتوحيدِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ توحيدَ الرَّبِّ بالقصدِ، وتوحيدَ المتابعةِ بالتَّأسِّي به.

فعليك يا أخي بالعتيقِ، عليك بالعتيقِ، عليك بالعتيقِ، واحذر المُحْدَثَاتِ؛ فإنَّها قد تكونُ سُمًّا في دَسَمٍ.

إِذَنْ التَّوحيدُ ثلاثةُ أنواعٍ: **أوَّلُها**: توحيدُ الرُّبوبيَّة، **والثَّاني**: توحيدُ الألوهيَّة، **والثَّالثُ**: توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ، ولم يُشْرِكْ أحدٌ في توحيدِ الرُّبوبيَّةِ من بني آدمَ -فيما نعلمُ- إلَّا على وجهِ المكابرةِ أو الضَّلالِ البعيدِ، كما فعل المجوسُ الثَّنويَّةُ الذين يقولون: إنَّ للحوادثِ خَالِقَيْنِ: ظلمةً ونورًا، فما كان من شرٍّ فهو من ربوبيَّةِ الظُّلمةِ، وما كان من خيرٍ فهو من ربوبيَّةِ النُّورِ، لكنَّهم لم يُوَافَقُوا على هذا.

أمَّا توحيدُ الألوهيَّة فهو الذي حصَلت فيه المعاركُ الكلاميَّة والقتاليَّة بين الرُّسلِ وأعدائِهم، فمثلًا المشركون الذين بُعِثَ فيهم الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- واستَحَلَّ دماءَهم وأموالَهم ونساءَهم وذرِّيَّاتِهم لا ينكرون الرُّبوبيَّةَ، يُقِرُّون بأنَّ اللهَ واحدٌ في ربوبيَّته، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، وإذا سُئِلُوا: مَنْ يُدَبِّرُ الأمرَ؟ يقولون: اللهُ عزَّ وجلَّ،

أمَّا في الألوهيَّةِ فلا، فيقولون في حقِّ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥]، وهذا إنكارٌ، ثُمَّ رَشَّحُوا هذا الإنكارَ بقولِهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾، وعُجَابٌ بمعنى: عجيب، لكن فيه نوعٌ من المبالغةِ، والحقيقةُ أنَّ العُجَابَ قولُهم بتعدُّدِ الآلـهةِ.

وأمَّا توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ فقد خَالَفَ فيه ممَّن يدينون بالإسلامِ مَنْ خَالَفَ بين الغالي في الإثباتِ والجافي، الغالي في الإثباتِ: المُشَبِّهة المُمَثِّلَة، غَلَوْا في إثباتِ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ حتَّى أشركوا بهذا الغلوِّ، كيف ذلك؟ قالوا: إنَّ صفاتِ الله مثلُ صفاتِ المخلوقِ: الوجه، واليد، والعين، كُلُّها مثلُ صفاتِ المخلوقِ، فجعلوا مع الله إلـهًا آخرَ مماثلًا له.

والقسم الثَّاني: جَفَوْا، وأنكروا الصِّفاتِ، وهؤلاء أشركوا بالله عزَّ وجلَّ، حيث شبَّهوا اللهَ تعالى بالمعدومِ وبالنَّاقصِ، وهذا نوعٌ من الشِّركِ.

فالحاصل: أنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ لم ينكره المشركون الذين قاتلهم الرَّسولُ ﷺ، وأنَّ توحيدَ الألوهيَّةِ أنكروه، لكن لم ينكره مَنْ ينتسبُ للإسلامِ إلَّا مَنْ دخل عليهم الشِّركُ في القبورِ، وما أشبه ذلك، يدَّعون أنَّهم شفعاء.

وأمَّا توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ فهو الذي حَصَلَ فيه الخلافُ بين أهلِ القبلةِ، فبعد أن ظهرت الكتبُ اليونانيَّةُ والرُّومانيَّة، وعُرِّبَتْ، وانتشرت في زمن المأمونِ، صارت محنةٌ عظيمةٌ على أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، لكنَّهم صبروا وصابروا، فكانت العاقبةُ للمتَّقين، ولله الحمدُ.

ولعلَّكم تعلمون ما جَرَى للإمامِ أحمدَ -رحِمه الله- في محنتهِ كيف كان أمرُه وصبرُه حتَّى جعل اللهُ العاقبةَ له ولله الحمدُ، وهكذا في كُلِّ عصرٍ وفي كُلِّ مِصْرٍ

يظهرُ أعداءٌ للدِّينِ من وجوهٍ مختلفةٍ؛ فعلينا نحن -معشر المسلمين- طلبة العلمِ المتمسِّكين بالسُّنَّةِ واتِّباعِ السَّلفِ؛ علينا أن نعرفَ كَوامنَ هؤلاء وندرُسَها تمامًا حتَّى يكونَ لردِّنا أثرٌ؛ ولذلك نجدُ أنَّ عُلَماءَنا -رحمهم الله- الذين تَصَدَّوْا لردِّ أهلِ التَّعطيلِ، وأهلِ المنطقِ والكلامِ قرؤوا هذه الكتبَ، وقرؤوا هذه الآراءَ وعرفوها، لكن متى يكونُ؟ الجوابُ: إذا كان عند الإنسانِ حصيلةٌ جيِّدةٌ يتحصَّنُ بها من سمِّ كتب هؤلاء، أمَّا طالبُ العلم المبتدئ فهذا قد يغترُّ بكلامِهم.

يقولُ ابنُ القيِّم -رحمه الله-:

٣١٩٦- فَاسْمَعْ إِذَنْ تَوْحِيدَ رُسْلِ الله ثُـمْ ... مَ اجْعَلْـهُ دَاخِـلَ كِفَّـةِ الْـمِيزَانِ

٣١٩٧- مَـعَ هَـذِهِ الْأَنْـوَاعِ وَانْظُـرْ أَيُّهَـا ... أَوْلَى لَـدَى الْـمِيزَانِ بِالرُّجْحَـانِ

يعني: زِنِ الأشياءَ بما يُقابلُها، وهذا ممَّا جاءت به الشَّريعةُ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، وقال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى:١٧]، فلا بُدَّ من الموازنةِ، فإذا جعلنا توحيدَ الرُّسلِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- وتوحيدَ مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهم في كِفَّةِ الميزانِ، قال ابنُ القيِّم -رحمه الله-: انظر أيُّها أَوْلَى لدى الميزانِ بالرُّجحانِ؟ وهذا لا شَكَّ أنَّه من العدلِ والإنصافِ؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤]، فمن العدلِ أنْ تُوازِنَ بين الأقوالِ وبين الأحوالِ أيضًا، وتنظُرَ أيُّها أرجحُ، لكن ما هو الأرجح؟ الجوابُ: لا شَكَّ أنَّه توحيدُ الرُّسُلِ؛ لأنَّه مُطابِقٌ تمامًا لصريحِ المعقولِ وصحيحِ المنقولِ، فالعقلُ السَّليمُ لا يمكنُ أن يُنْكِرَ توحيدَ الرُّسلِ أبدًا، بل يشهدُ بصحَّتِه ويقرُّه ويطمئنُ إليه.

ثُمَّ قسَّم المؤلِّفُ هذا التَّوحيدَ إلى أقسامٍ كثيرةٍ، لكن مع التَّأنِّي سوف تتبيَّنُ، قال رحمه الله:

٣١٩٨- تَوْحِيدُهُمْ نَوْعَانِ قَوْلِيٌّ وَفِعْـ ـلِيٌّ كِلَا نَوْعَيْهِ ذُو بُرْهَانِ

ذكر -رحِمه الله- أنَّ التَّوحيدَ نوعان: قوليٌّ وفعليٌّ، كُلٌّ منهما له برهانٌ؛ أي: دليلٌ واضحٌ قاطعٌ.

فالتَّوحيد نوعان: قوليٌّ وفعليٌّ، فالقوليُّ يكونُ باللِّسانِ وبالقلبِ، والفعليُّ يكونُ بالجوارحِ وبالقلبِ، فالتَّوحيدُ بالقلبِ أن يقولَ القائلُ مثلًا: (**لا إلهَ إلَّا الله**)، هذا توحيدٌ بالقولِ، وبالقلبِ أن يُقِرَّ بأنَّ اللهَ وحدَه هو الإلهُ.

والتَّوحيدُ بالفعلِ: ألَّا يُشْرِكَ أحدًا في فعلٍ، فلا يسجدُ لصنمٍ، ولا لأحدٍ من المخلوقين.

والتَّوحيدُ الفعليُّ بالقلبِ هو التَّوكُّلِ على الله، والاعتمادُ عليه، وما أشبه ذلك، وكُلُّها سوف تتبيَّنُ في كلامِ المؤلِّفِ إن شاء الله.

٣١٩٩- فَالْأَوَّلُ الْقَوْلِيُّ ذُو نَوْعَيْنِ أَيْـ ـضًا فِي كِتَابِ الله مَوْجُودَانِ

٣٢٠٠- إِحْدَاهُمَا سَلْبٌ وَذَا نَوْعَانِ أَيْـ ـضًا فِي كِتَابِ الله مَذْكُورَانِ

٣٢٠١- سَلْبُ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ جَمِيعِهَا عَنْهُ هُمَا نَوْعَانِ مَعْقُولَانِ

٣٢٠٢- سَلْبٌ لِمُتَّصِلٍ وَمُنْفَصِلٍ هُمَا نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ ....

القوليُّ نوعان: **أحدهما**: سلبٌ، والسَّلبُ، يعني: النَّفيَ، إِذَنْ **الثَّاني**: ثبوتٌ؛ لأنَّ ضدَّ السَّلبِ هو الإثبات.

إِذَنْ التَّوحيدُ القوليُّ ينقسمُ إلى قسمين: القسم الأوَّل: سلبيٌّ، القسم الثَّاني: ثبوتيٌّ.

وكَثَّرَ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- التَّنويعَ، فذكر أنَّ السَّلبَ نوعان أيضًا، وهذا التَّقسيمُ يُرَادُ به تقريبُ الأشياءِ للمخاطَبِ، وهي واضحةٌ، فكُلُّها تَصُبُّ في كونِ الله -سبحانه وتعالى- واحدًا في جميعِ صفاتِه منتفيًا عنه جميعُ النَّقائصِ والعيوبِ.

والسَّلبُ الذي هو النَّفيُ نوعان أيضًا، وهما: متَّصلٌ ومنفصلٌ.

أمَّا الثَّاني وهو المنفصلُ فهو سلبُ الشَّريكِ، فالشَّريكُ منفصلٌ عن الخالقِ عزَّ وجلَّ، لكن سلبُ اللُّغوبِ -وهو: التَّعَب- متَّصلٌ، وسيأتي إن شاء الله.

أمَّا عن السَّلبِ المنفصل فقال:

٣٢٠٢- .... أَمَّـا الثَّـانِي

٣٢٠٣- سَلْبُ الشَّرِيكِ مَعَ الظَّهِيرِ مَعَ الشَّفِيـ ـعِ بِـدُونِ إِذْنِ الْـخَالِقِ الـدَّيَّانِ

٣٢٠٤- وَكَذَاكَ سَلْبُ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ الَّذِي نَسَـبُوا إِلَيْـهِ عَابِـدُو الصُّـلْبَانِ

قَوْلُهُ: «سَلْبُ الشَّرِيكِ»؛ وذلك كما في مثلِ قولِه تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٣]، فاللهُ تعالى لا شريكَ له في ربوبيَّتِه، ولا ألوهيَّتِه، ولا أسمائِه وصفاتِه، وعلى هذا ينتفي التَّمثيلُ في الصِّفاتِ، وينتفي المُشَارِكُ في الخلقِ، والمُشَارِكُ في العبادةِ.

قَوْلُهُ: «مَعَ الظَّهِيرِ»؛ يعني: المُعِينَ، وذلك كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

قَوْلُهُ: «مَعَ الشَّفِيعِ بِدُونِ إِذْنِ المَالِكِ الدَّيَّانِ» أيضًا نفيُ الشَّفيعِ إلَّا بإذنِه، وكُلُّها مذكورةٌ في قولِ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣]، أربعةُ أشياءَ ذَكَرَها اللهُ في هذه الآيةِ، وهذا كُلُّه سلبٌ لمنفصلٍ.

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ سَلْبُ الزَّوْجِ»، نفى الله تعالى أن يكونَ له زوجةٌ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١]، ونفى الولدَ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]، ونفيُ الزَّوجةِ ونفيُ الولدِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣].

قَوْلُهُ: «الَّذِي نَسَبُوا إِلَيْهِ عَابِدُو الصُّلْبَانِ» «نَسَبُوا إِلَيْهِ عَابِدُو» فيها شذوذٌ لغويٌّ، وهو: الجمعُ بين ضميرِ الفاعلِ والاسمِ الظَّاهرِ، وتُسَمَّى عند النَّحويين لغةَ (أَكَلُونِي البَرَاغِيثُ)، فهنا لو أردنا أن نُطَبِّقَ البيتَ على اللُّغةِ المشهورةِ لقلنا: (نَسَبَ إِلَيْهِ عَابِدُو الصُّلْبَانِ)، لكن المؤلِّفُ -رحمه الله- يرتكبُ بعضَ اللغاتِ الضَّعيفةِ أو المجازاتِ للضَّرورةِ.

وَقَوْلُهُ: «عَابِدُو الصُّلْبَان» هم النَّصارى الذين قالوا: إنَّ عيسى ابنُ الله.

٣٢٠٥- وَكَذَاكَ نَفْيُ الْكُفْءِ أَيْضًا وَالْـوَلِـ ... ـي لَنَا سِوَى الـرَّحْمَنِ ذِي الْغُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ نَفْيُ الكُفْءِ أَيْضًا وَالوَلِي»؛ نفيُ الكُفْءِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤].

وأمَّا نفيُ الوليِّ فكما ففي قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وكقولِه تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦]،

وهذا أيضًا سلبٌ منفصلٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]؛ يعني: لا أحدَ أبدًا ينصرُ اللهَ عزَّ وجلَّ لوصفِه بالذُّلِّ، فالوليُّ النَّاصرُ من الذُّلِّ؛ يعني: أنَّ اللهَ ذليلٌ يحتاجُ إلى ناصرٍ، وهذا لا يمكنُ، بل هو وليُّ عبادِهِ كُلِّهم.

٣٢٠٦- وَالْأَوَّلُ التَّنْزِيـهُ لِلـرَّحْمَنِ عَـنْ وَصْفِ الْعُيُوبِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانِ

قَوْلُهُ: «**الأَوَّلُ**»؛ يعني: سلب النَّقص المتَّصل، وهو التَّنزيهُ للرَّحمنِ عن وصفِ العيوبِ؛ يعني: لا يُوصَفُ بعيبٍ (**وكُلِّ ذي نقصانٍ**)؛ يعني: أنَّ صفةَ الكمالِ لا يلحقُها نقصٌ.

فهذان نوعان:

أوَّلًا: أن يُنْفَى عنه كُلُّ عيبٍ.

ثانيًا: أن يُنْفَى عنه كُلُّ نقصٍ في صفةِ كمالِه.

مثلًا: (**السَّمعُ**) صفةُ كمالٍ، هل يفوتُ اللهَ شيءٌ من المسموعِ؟ الجوابُ: لا.

هل يمكنُ أن يعتريَه الصَّممُ؟ الجوابُ: لا.

(**الكلامُ**) صفةُ كمالٍ، هل يمكنُ أن يلحقَ اللهَ تعالى شيءٌ من العِيِّ؟ الجوابُ: لا، وهل يمكنُ أن يكونَ أخرسَ لا يتكلَّمُ؟ الجوابُ: لا.

إِذَنْ: كُلُّ صفةِ كمالٍ فيها نقصٌ فهذه ممنوعةٌ.

٣٢٠٧- كَالْـمَوْتِ وَالْإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ الَّذِي يَنْفِـي اقْتِـدَارَ الْـخَالِقِ الـدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «**الَّذِي يَنْفِي اقْتِدَارَ الخَالِقِ الدَّيَّانِ**»، وفي نسخةٍ: (**المَنَّانِ**).

فالموتُ ممتنِعٌ عن الله، قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، والإعياءُ أيضًا، قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف:٣٣]، والتَّعَبُ كذلك، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]؛ أي: من تعبٍ.

٣٢٠٨- وَالنَّوْمُ وَالسِّنَةُ الَّتِي هِيَ أَصْلُهُ وَعُزُوبِ شَيْءٍ عَنْهُ فِي الْأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «النَّوْمِ وَالسِّنَةِ»؛ يعني: نفي النَّومِ عن الله والسِّنَةِ التي هي أصلُ النَّومِ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالسِّنَةُ أصلُ النَّومِ؛ لأنَّها النُّعاسُ، والنُّعاسُ هو الدَّرجةُ الأولى من النَّومِ، وتأمَّل قولَه تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ يعني: لن تغلبَه السِّنَةُ التي تغلبُ غيرَه، فإنَّ الإنسانَ إذا سهر طويلًا غلبه النَّومُ حتَّى إنَّه يُكَلِّمُ النَّاسَ وهو نائمٌ، ويصعدُ الدَّرَجَ وهو نائمٌ، وينزلُ وهو نائمٌ، وهذا شيءٌ مُشَاهَدٌ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فإنَّه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قَوْلُهُ: «وَعُزُوبِ شَيْءٍ عَنْهُ فِي الأَكْوَانِ» كما في قولِ الله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣]، والعزوبُ بمعنى الغَيْبَة؛ يعني: لا يغيبُ عنه.

٣٢٠٩- وَكَذَلِكَ الْعَبَثُ الَّذِي تَنْفِيهِ حِكْـ ـمَتُهُ وَحَمْدُ الله ذِي الْإِتْقَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ العَبَثُ الَّذِي تَنْفِيهِ حِكْمَتُهُ»؛ يعني: تأباه الحكمةُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص:٢٧]، فالحكمةُ تنفي أن يكونَ ذلك باطلًا، أو أن يكونَ عَبَثًا، أو أن يخلقَ اللهُ العبدَ سُدًى؛ لقولِه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥] لماذا؟ لكمالِ الحكمةِ؛ لأنَّ العابثَ سَفِيهٌ، لا حكمةَ عنده، فإذا نَفَى اللهُ عن نفسِه العبثَ فذلك لحكمتِهِ الكاملةِ.

قَوْلُهُ: «وَحَمْدُ الله ذِي الإِتْقَانِ» حمدُ الله هو وصفُه بالكمالِ، وهذا ينافي العبثَ أيضًا.

٣٢١٠- وَكَذَاكَ تَرْكُ الْـخَلْقِ إِهْمَالًا سُدًى لَا يُبْعَثُونَ إِلَى مَعَادٍ ثَانِ

٣٢١١- كَلَّا وَلَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ عَلَيْـ ـهِمْ مِنْ إِلَهٍ قَادِرٍ دَيَّانِ

كذلك أيضًا لا يُمكنُ أن يتركَ الخلقَ سُدًى؛ يعني: هَمَلًا، ليس لهم مَرجِعٌ وليس عليهم حسابٌ، فلو كَانَ هذا الخلقُ يُوجَدُ ثُمَّ يَفْنَى ولا يعودُ لَكَانَ هذا من أعبَثِ العبَثِ بلا شكٍّ؛ ولهذا قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾؛ يعني: لا يحسبُ؛ يعني: لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهَى ولا يُبْعَثُ ولا يُحَاسَبُ، وهذا تفسيرٌ لقولِه: ﴿سُدًى﴾؛ يعني: هل يمكنُ أن يخلقَهم ويتركَهم ولا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يبعثهم ولا يجازيهم؟ الجوابُ: لا يمكنُ؛ لأنَّه لو كان كذلك لكان عبثًا، وهذا تأباه حكمةُ الله وحمدُه، وكُلُّ هذا من السَّلبِ المتَّصل.

٣٢١٢- وَكَذَاكَ ظُلْمُ عِبَادِهِ وَهْوَ الْغَنِيْ يُ فَمَا لَهُ وَالظُّلْمِ لِلْإِنْسَانِ

وكذلك يُسْلَبُ عنه عزَّ وجلَّ الظُّلمُ؛ لأنَّه غنيٌّ، فما له وللظُّلمِ! قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، الظُّلمُ لا يرتكبُه إلَّا مَنْ كان محتاجًا، فيظلم ليأخذَ، أو يظلم لِيُنْكِرَ ما عليه، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ غنيٌّ، وهذا من الأدلَّةِ على

امتناعِ الظُّلمِ عن الله، وهو أنَّه غنيٌّ، كيف يظلمُ؟ فهو لا يحتاجُ إلى شيءٍ حتَّى يظلمَ العبادَ؛ ولهذا قال: «**فَمَا لَهُ وَالظُّلْمِ للإِنْسَانِ؟!**»، وهذا نفيٌ لمتَّصلٍ.

٣٢١٣- وَكَـذَاكَ غَفْلَتُـهُ تَعَـالَى وَهْـوَ عَلْـ ... ـلَامُ الْغُيُـوبِ فَظَـاهِرُ الْـبُطْلَانِ

الغفلةُ نفاها اللهُ عن نفسِه، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢].

٣٢١٤- وَكَـذَلِكَ النِّسْـيَانُ جَـلَّ إِلَـهُنَا ... لَا يَعْتَرِيـهِ قَـطُّ مِـنْ نِسْـيَانِ

النِّسيانُ أيضًا، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

ولكن قد يقولُ قائلٌ: كيف نجمعُ بين هذه وبين قولِه تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة:٦٧]؟ الجمعُ أن نقولَ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ من بابِ نسيانِ التَّركِ؛ يعني: تركوا اللهَ وتركوا أوامرَه فتركهم اللهُ عزَّ وجلَّ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ [السَّجدة:١٤].

٣٢١٥- وَكَـذَاكَ حَاجَتُـهُ إِلَى طُعْـمٍ وَرِزْ ... قٍ وَهْـوَ رَزَّاقٌ بِـلَا حُسْـبَانِ

أيضًا من السَّلبِ المتَّصلِ حاجتُه إلى طُعمٍ ورِزقٍ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذريات:٥٦-٥٨]، فلا يحتاجُ إلى رِزْقٍ ولا إلى طعامٍ، ولقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]؛ لأنَّه غَنِيٌّ بذاتِه عن جميعِ مخلوقاتِه، ولأنَّه -سبحانه وتعالى- أحدٌ صَمَدٌ لا يحتاجُ إلى طعامٍ ولا إلى شرابٍ، إِذَنْ لا يحتاجُ

لطعامٍ ولا شرابٍ لكمالِ غناه، فهو غنيٌّ بذاتِه عن جميعِ مخلوقاتِه، هذا النَّوع الثَّاني من أنواع السَّلبِ.

إِذَنْ المسلوبُ عن الله عزَّ وجلَّ متَّصلٌ ومنفصلٌ، فالمنفصلُ مثل: الولدِ والشَّريكِ والمعينِ والشَّفيعِ، وما أشبه ذلك، والمتَّصل مثل: التَّعبِ، والنِّسيانِ، والظُّلمِ، والغفلةِ، وأشياءَ كثيرةٍ.

وعندنا قاعدةٌ في صفاتِ النَّفي، وهي: أنَّ ما نَفاه اللهُ عن نفسِه يُرَادُ به شيئان: **الأوَّل**: نفيُ هذا، **والثَّاني**: إثباتُ ضدِّه على الكمالِ، فإذا قيل: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] فهل المرادُ انتِفاءُ الظُّلمِ فقط، أو إثباتُ العدلِ الذي لا ظُلمَ فيه؟ الجوابُ: الثَّاني، هذا هو المرادُ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن تقولَ: لا يظلمُ لأنَّه يعجِزُ عن أن يظلمَ، لا؛ لأنَّه لو شَاءَ لَظَلَمَ، لكنَّه حَرَّمَ الظُّلمَ على نفسِه، كذلك لا تقولُ: لا يظلمُ لأنَّه ينتفي عنه الظُّلمُ فقط، دون ثبوتِ العدلِ؛ لأنَّ النَّفيَ المحضَ عَدَمٌ محضٌ، والعدمَ المحضَ ليس كمالًا، بل ليس بشيءٍ فضلًا عن أن يكونَ كمالًا.

إِذَنْ كُلُّ صفةٍ نَفَاهَا اللهُ عن نفسِه فليس المرادُ مجرَّدَ النَّفيِ، بل المرادُ ثبوتُ ضِدِّها على الكمالِ، فلكمالِ عدلِه لا يَظلِمُ.

فإذا قيل: علِّل؟ فقُلْ: لأنَّ نفيَ الظُّلمِ المجرَّدِ عدمٌ؛ يعني: لا ظلمَ، فهذا عَدَمٌ، والعَدَمُ ليس بشيءٍ، المعدومُ غيرُ موجودٍ وليس بشيءٍ، وما ليس بشيءٍ فليس مدحًا ولا كمالًا؛ لأنَّه لا شيءَ؛ ولأنَّنا لو لم نقل بذلك؛ أي لو لم نقل بأنَّ نفيَ صفةِ الظُّلمِ بإثباتِ العدلِ على الكمالِ، لو لم نقل بهذا لكان محتملًا أن يكونَ نفيُ الظُّلمِ لعجزِه عن الظُّلمِ، وهذا مستحيلٌ.

فإن قال قائلٌ: أَثبِتوا لنا شاهدًا يدلُّ على أنَّ نفيَ الظُّلمِ للعجزِ عن الظُّلمِ، قلنا: هو في قولِ الشَّاعرِ:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ(١)

لماذا؟ لأنَّهم عاجزون، فهم قُبَيِّلَةٌ وليسوا بشيءٍ، فلا يغدرون بذمَّةٍ إذا عاهدوا، ولا يظلمون النَّاسَ حبَّةَ خردلٍ؛ لأنَّهم عاجزون.

وكذلك قول الحماسيِّ:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا(٢)

يعني: بدل الظلمِ يَجزون مغفرةً، وبدل الإساءةِ يجزون إحسانًا، لماذا؟ الجوابُ: لعَجزِهم، ولهذا قال:

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا ... شَنُّوا الإِغَارَةَ رُكْبَانًا وَفُرْسَانَا(٣)

لذلك نقولُ: نفيُ الظُّلمِ لا بُدَّ أن يتضمَّنَ كمالًا، أيضًا إذا قلنا: إنَّ نفيَ الظُّلمِ يُرَادُ به إثباتُ العدلِ على وجهِ الكمالِ، لو لم نقل بهذا لكان احتمال أنْ يكونَ نفيُ الظُّلمِ لعدمِ قابليَّتِهِ للظُّلمِ؛ لأنَّك يمكنُ أن تقولَ: (**الجدارُ لا يَظْلِمُ**)، فهل تكون إذا قلت: (**الجدارُ لا يظلمُ**) مادحًا للجدار؟الجوابُ: لا، لعدم قابليَّتِه، إِذَنْ خُذْ

(١) البيت قاله النجاشي في رهط تميم بن مقبل، انظر: العقد الفريد (٢/ ٣٣٢).

(٢) الأبيات لشاعر من بني العنبر، كما في العقد الفريد (٢/ ٣٣٢).

(٣) ذُكر ضمن أبيات غير منسوبة في شرح الحماسة للتبريزي (١/ ١٠)، وخزانة الأدب (٣/ ٣٣٢). وذُكر منسوبًا لقريط بن أنيف العنبري في الحماسة لأبي تمام (١/ ٥٨)، والجنى الداني (١٠٥).

هذه القاعدةَ المفيدةَ: كُلَّما رَأَيْتَ صفةً نَفَاهَا اللهُ عن نفسِه فالمرادُ بها إثباتُ ضدِّها على وجهِ الكمالِ.

وكذلك نفى اللهُ عزَّ وجلَّ عن نفسِه التَّعبَ والإعياءَ، فيكونُ المقصودُ بذلك إثباتَ القُدرةِ على وجهِ الكمالِ.

الآن إذا قلت: (**فلانٌ صادقٌ**) فهنا وَصَفْتَهُ بالصِّدقِ، لكن أَلَا يَحتملُ أن يكذبَ؟ يحتملُ، لكن إذا قلت: (**فلانٌ صادقٌ لا يكذبُ**) جاء هذا النَّفيُ مُقَرِّرًا صِدْقَه على وجهِ الكمالِ، وأنَّه لا يمكنُ أن يكذبَ.

٣٢١٦- هَذَا وَثَانِي نَوْعَيِ السَّلْبِ الَّذِي ... هُوَ أَوَّلُ الْأَنْوَاعِ فِي الْأَوْزَانِ

قَوْلُهُ: «فِي الأَوْزَانِ»؛ يعني: في النَّظمِ؛ لأنَّ النَّظمَ كلامٌ موزونٌ مُقَفًّى، والمؤلِّفُ -رحِمه الله- جعل ذلك غيرَ مرتَّبٍ، يقولُ:

٣٢١٧- تَنْزِيهُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لَهُ عَنِ التْـ ... ـتَشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالنُّكْرَانِ

٣٢١٨- لَسْنَا نُشَبِّهُ وَصْفَهُ بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

٣٢١٩- كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

٣٢٢٠- مَنْ مَثَّلَ اللهَ الْعَظِيمَ بِخَلْقِهِ ... فَهْوَ النَّسِيبُ لِمُشْرِكٍ نَصْرَانِي

٣٢٢١- أَوْ عَطَّلَ الرَّحْمَنَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... فَهُوَ الْكَفُورُ وَلَيْسَ ذَا إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «النَّسِيبُ»؛ يعني: المماثِلَ له؛ لأنَّ النَّسبَ يُقَرِّبُ النَّاسَ بعضهم لبعضٍ، فهو يُطْلَقُ على القريبِ، لكن المرادُ به هنا المُشْبِه.

أوصافُ كمالِه عزَّ وجلَّ كعلمِه، وقُدرتِه، وسمعِه، وبصرِه، ووجهِه، وغيرِ

ذلك، السَّلبُ فيها تنزيهُه عن شيئين: التَّمثيلِ ومثلُه التَّشبيهُ، والنُّكرانِ؛ يعني: الجحدَ والتَّعطيلَ.

فأوصافُ كمالِه مُنَزَّهةٌ عن هذين الشَّيئين، وهما: التَّمثيلُ والتَّعطيلُ؛ أي: **(النُّكران)**.

واعلم أنَّ أكثرَ ما تجده في كتبِ الكلامِ وغيرِها نفيُ التَّشبيهِ، فيُقَالُ: **(بِلَا تشبيهٍ)** أو لا نُشَبِّهُ اللهَ، وما أشبهَ ذلك، ولكنَّ التَّعبيرَ بالتَّمثيلِ أَوْلَى؛ لأنَّ هذا هو الذي عبَّر اللهُ به عن نفسِه فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١] ولم يقل: **(لَيْسَ كَشِبْهِهِ)** فهو أَولى؛ لأنَّه التَّعبيرُ القرآنيُّ، ولأنَّ التَّشبيهَ صار عند بعضِ النَّاسِ بمعنى إثبات الصِّفاتِ، ويقولون: مَنْ أَثْبَتَ الصِّفاتِ فهو مُشَبِّهٌ، ويرمون أهلَ السُّنَّةِ الذين يثبتون الصِّفاتِ بأنَّهم مُشَبِّهةٌ، فإذا قلت: **(بلا تشبيهٍ)** تخاطبُ مَنْ قَرَأَ أنَّ التَّشبيهَ إثباتُ الصِّفاتِ، صار المعنى عنده: **(التَّعطيل)**، لكن **(بلا تمثيلٍ)** هو الحقُّ.

أيضًا: **(بِلَا تَشْبِيهِ)** إن أَرَادَ نفيَ التَّشبيهِ المُطْلَقِ؛ يعني: المشابهةَ من كُلِّ وجهٍ، فهذا لا حاجةَ إليه؛ لأنَّه لم يقل أحدٌ من الخلقِ: إنَّ اللهَ مشابهٌ للمخلوقاتِ من كُلِّ وجهٍ، وإذا لم يقل به أحدٌ فنفيُه عَبَثٌ لا فائدةَ منه، فهو كقولِ القائلِ:

كَأَنَّنَا وَالمَاءُ مِنْ حَوْلِنَا ... قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُمْ مَاءُ[1]

ما هذه الفائدةُ العظيمةُ؟! حتَّى إنَّ بعضَ النَّحْوِيِّين قال: مثلُ هذا التَّركيبِ لا يُعَدُّ كلامًا في اللُّغةِ العربيَّة؛ لأنَّه لم يُفِدْ فائدةً، وكقولِ القائلِ: **(السَّماءُ فوقنا والأرضُ تحتنا)**.

---

(١) البيت في الكشكول (١/ ٢٦١) بلا نسبة.

فإذا قال: أنا أريدُ بنفي التَّشبيهِ التَّشبيهَ المطلقَ، قلنا: هذا غلطٌ، ولا حاجةَ إلى أن تنفيَه؛ لأنَّه لم يقل به أحدٌ.

وإن أَرَادَ نفيَ مُطْلَقِ التَّشبيهِ فهذا غلطٌ أيضًا؛ لأنَّه لا بُدَّ من مُطْلَقِ المشابهةِ، فمثلًا: سَمْعُ الله -سبحانه وتعالى- يشتركُ مع سَمْعِ المخلوقِ في إدراكِ الأصواتِ، لكن يختلفُ اختلافًا عظيمًا.

وحياةُ الله عزَّ وجلَّ تشتركُ مع حياة المخلوقِ في أصلِ الحياةِ، لكن تختلفُ في كيفيَّة الحياةِ، وهلمَّ جرًّا.

فصار نفيُ التَّشبيهِ فيه مُؤاخَذاتٌ، لكن إذا قلت: (**بلا تمثيلٍ**)، لا يقولُ لك أحدٌ شيئًا.

فنفي التَّمثيل أَوْلَى لهذه الوجوه:

أوَّلًا: أنَّه التَّعبيرُ القرآنيُّ.

ثانيًا: أنَّ التَّشبيهَ صار عند كثيرٍ من النَّاسِ هو إثباتَ الصِّفاتِ.

وثالثًا: أنَّه إنْ أراد بذلك نفيَ التَّشبيهِ المُطْلَقِ فهو كلامُ لغوٍ لا فائدةَ منه، وإن أَرَادَ نفيَ مُطْلَقِ التَّشبيهِ فهذا خطأٌ؛ لأنَّه ما من شيئين اشتركا في صفةٍ إلَّا وبينهما مشابهةٌ في أصلِها.

بقي عندنا (**النُّكران**)؛ يعني: التَّعطيلَ، فتُنَزَّهُ صفاتُ الله عن شيئين: عن التَّمثيلِ وعن التَّعطيلِ.

وهل وقع أحدٌ ممَّن يدَّعي الإسلامَ في التَّمثيلِ؟ الجوابُ: نعم، يوجدُ أناسٌ مُمَثِّلةٌ، وهل وقع أحدٌ ممَّن ينتسبُ إلى الإسلامِ في التَّعطيلِ؟ نعم، وهو كثيرٌ.

واعلَمْ أنَّ كُلَّ ممثِّلٍ معطِّلٌ، وأنَّ كُلَّ مُعطِّلٍ ممثِّلٌ، وهذا ضابطٌ كُلِّيٌّ، فكُلُّ مُمثِّلٍ معطِّلٌ؛ لأنَّه عَطَّلَ اللهَ تعالى من كَمالِه الواجبِ؛ وجهُ ذلك أنَّه شَبَّهَه بالنَّاقصِ، وتمثيلُ الكاملِ بالنَّاقصِ يجعلُه ناقصًا؛ ولهذا قال الشَّاعرُ:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ السَّـيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ   إِذَا قِيلَ: إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا[1]

ثانيًا: أنَّ الـمُمَثِّلَ عَطَّلَ جميعَ النُّصوصِ التي تنفي المماثلةَ، فَعَطَّلَ قولَه -سبحانه وتعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى:١١]، وعَطَّلَ قولَه تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧]، وعَطَّلَ قولَه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤].

وكُلُّ معطِّلٍ ممثِّلٌ؛ فمثلًا: الذي ينكرُ استواءَ الله على عَرشِه، أو يُنكرُ نزولَه للسَّماءِ الدُّنيا، أو ينكرُ أن يكونَ له يدٌ، نقولُ: أنت ممثِّلٌ من وجهين:

الوجه الأوَّل: لأنَّه إنَّما عطَّلَ بناءً على أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ يَستلزِمُ التَّمثيلَ، فَمَثَّلَ أوَّلًا وعَطَّلَ ثانيًا؛ فصار كُلُّ مُعَطِّلٍ ممثِّلًا.

الوجه الثَّاني: أنَّه إذا عَطَّلَ اللهَ عزَّ وجلَّ عن صفاتِه مَثَّلَه بالمعدومِ أو بالنَّاقصِ، فإذا قال: لا يفعلُ الشَّيءَ باختيارِه، ولا يَشاءُ أفعالَ العبادِ، ولا ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، فلا شكَّ أنَّه ممثِّلٌ؛ لأنَّه إذا انتفت صفاتُ الكمالِ لزم ثبوتُ ضدِّها فيكونُ ممثِّلًا لله تعالى بما هو ناقصٌ، وهنا نقولُ: الأفضلُ أن يُقالَ:

لَسْنَا نُمَثِّـلُ وَصْـفَهُ بِصِـفَاتِنَا   إِنَّ المُمَثِّـلَ عَابِـدُ الأَوْثَـانِ

إذا مَثَّلَ اللهَ بخلقِه صار وَثَنًا، مثل: اللَّاتِ والعُزَّى ومَنَاة وهُبَل وما أَشْبَهَها،

---

(١) البيت في السحر الحلال (ص:٧٣) بلا نسبة.

فيكون المُمثِّلُ عابدًا للأصنامِ، أمَّا المعطِّلُ فلم يُثْبِتْ وجودَ إلهٍ؛ لأنَّه إذا انتفت عنه الصِّفاتُ بَقِيَ معدومًا، فيكون عابدَ البهتانِ؛ يعني: عابدَ الكذبِ، يعني: لا يُوجَدُ ربٌّ يُعْبَدُ، فلم يعبدُ ربًّا؛ لأنَّه إذا سَلَبَهُ أوصافَه صار عَدَمًا، وهذا من أحسنِ ما يكونُ ممَّا شَبَّهَه المؤلِّفُ رحمه الله.

فالممثِّلُ يعبدُ الصَّنمَ، والمعطِّلُ يعبدُ عَدَمًا، فهو كذبٌ، وأمَّا المُوَحِّدُ فيعبدُ إلهَ الأرضِ والسَّماءِ سبحانه وتعالى.

إِذَنْ ابنُ القيِّم -رحِمه الله- يرى أنَّ الممثِّلَ مُشرِكٌ، وأنَّ المعطِّلَ كافرٌ، لكن هذا على سبيلِ الإجمالِ، أمَّا عند التَّفصيلِ فَيُحْكَمُ على كُلِّ واحدٍ منهما بما يقتضيه تمثيلُه أو تعطيلُه.

***

فصل

فِي النَّوْعِ الثَّانِي مِنَ النَّوْعِ الأَوَّلِ وَهُوَ الثُّبُوتُ[1]

٣٢٢٢- هَـذَا وَمِـنْ تَوْحِيـدِهِمْ إِثْبَـاتُ أَوْ ... صَـافِ الْكَـمَالِ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

٣٢٢٣- كَعُلُـوِّهِ سُـبْحَانَهُ فَـوْقَ السَّـمَا ... وَاتِ الْعُلَى بَـلْ فَـوْقَ كُـلِّ مَكَـانِ

٣٢٢٤- فَهْـوَ الْعَـلِيُّ بِذَاتِـهِ سُـبْحَانَهُ ... إِذْ يَسْـتَحِيلُ خِـلَافُ ذَا بِبَيَـانِ

٣٢٢٥- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... قَـدْ قَـامَ بِالتَّـدْبِيرِ لِلْأَكْـوَانِ

٣٢٢٦- حَـيٌّ مُرِيـدٌ قَـادِرٌ مُـتَكَلِّمٌ ... ذُو رَحْمَـةٍ وَإِرَادَةٍ وَحَنَـانِ

٣٢٢٧- هُـوَ أَوَّلٌ هُـوَ آخِـرٌ هُـوَ ظَـاهِرٌ ... هُـوَ بَـاطِنٌ هِـيَ أَرْبَـعٌ بِـوِزَانِ

٣٢٢٨- مَـا قَبْلَـهُ شَيْءٌ كَـذَا وَمَـا بَعْـدَهُ ... شَيْءٌ تَعَـالَى اللهُ ذُو السُّـلْطَانِ

٣٢٢٩- مَـا فَوْقَـهُ شَيْءٌ كَـذَا مَـا دُونَـهُ ... شَيْءٌ وَذَا تَفْسِـيرُ ذِي الْبُرْهَـانِ

٣٢٣٠- فَـانْظُرْ إِلَى تَفْسِـيرِهِ بِتَـدَبُّرٍ ... وَتَبَصُّـرٍ وَتَعَقُّـلٍ لِـمَعَانِ

٣٢٣١- وَانْظُرْ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَعْـ ... ـرِفَةٍ لِـخَالِقِنَا الْعَظِيمِ الشَّـانِ

الشَّـرحُ

سبق الكلامُ على التَّوحيدِ السَّلبيِّ، وأنَّ التَّوحيدَ السَّلبيَّ متَّصلٌ ومنفصلٌ،

(١) في الأصول الخطية: «الثبوتي».

فالمتَّصلُ: ما لا يعدو ذاتَ الله عزَّ وجلَّ، مثل: سلبِ الموتِ، والنَّومِ، والسِّنَةِ، والظُّلمِ، والغفلةِ، وما أَشْبَهَ ذلك، والمنفصلُ: ما كان خارجًا عنه، مثل: الزَّوجةِ، والولدِ، والكُفْءِ، والنَّظيرِ، وما أَشْبَهَ ذلك، وسبق لنا أيضًا أنَّ المتَّصلَ نوعان:

الأوَّل: نفيُ العيوبِ كُلِّها، **والثَّاني:** نفيُ التَّمثيلِ، وكذلك التَّعطيل، والنُّكران؛ فإنَّ هذا من التَّوحيدِ السَّلبيِّ.

والحقيقةُ أنَّ نفيَ التَّمثيلِ يَرجِعُ إلى نفيِ النَّقصِ؛ لأنَّ التَّمثيلَ نقصٌ؛ فإنَّ إلحاقَ الكاملِ بالنَّاقصِ يجعلُه ناقصًا، أمَّا الثَّاني فهو الثُّبوتيُّ، والثُّبوتيُّ هو إفرادُ الله -سبحانه وتعالى- وتوحيدُه بما يجبُ له من الأسماءِ والصِّفاتِ، قال:

٣٢٢٢- هَـذَا وَمِـنْ تَوْحِيـدِهِمْ إِثْبَـاتُ أَوْ　　　　صَـافِ الْكَـمَالِ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

فكُلُّ أوصافِ الكمالِ ثابتةٌ له، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرُّوم:٢٧]، فقولُه: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ يعني: الوصفَ الأكملَ من كُلِّ وجهٍ، وفي الأسماءِ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ ولهذا لا تجدُ اسمًا من أسماءِ الله يتضمَّنُ نقصًا بوجهٍ من الوجوهِ، ولا صفةً من صفاتِ الله تتضمَّنُ نقصًا بوجهٍ من الوجوهِ، ولذلك تجدُ أنَّ بعضَ الصِّفاتِ مثل: الكيد، والخداع، لا تُقَالُ له على وجهِ الإطلاقِ.

فالثُّبوتيُّ إِذَنْ إثباتُ أوصافِ الكمالِ لله عزَّ وجلَّ، ولكن لا بُدَّ أن يُضَافَ إليها شيءٌ آخرُ، وهو مع نفيِ المماثلةِ؛ لأنَّ الإثباتَ بدون نفيِ المَثِيلِ ليس بتوحيدٍ؛ فإنَّ التَّوحيدَ يقومُ على النَّفيِ والإثباتِ، مثالٌ على ذلك يتَّضحُ به المقالُ: إذا قلت: **(فلانٌ جَيِّدٌ)**، فهذا وصفٌ له بالجُودِ، والجُودُ كمالٌ، لكن هل هذا يستلزمُ التَّوحيدَ؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّه قد يكونُ هـو جيِّدًا وآخـر جيِّدًا أيضًا، فـإذا قلت: **(لا جَيِّدَ**

إلَّا فلانٌ)، أو (**إنَّما الجيِّدُ فلانٌ**) فحينئذٍ وحَّدته بالجودِ.

فقولُ المؤلِّفِ: «**إِثْبَاتُ أَوْصَافِ الكَمَالِ لِرَبِّنَا**» يحتاجُ إلى إضافةٍ، وهي: (**مَعَ نَفْيِ الـمُمَاثَلَةِ**)؛ حتَّى يتمَّ التَّوحيدُ.

إِذَنْ من توحيد الرُّسلِ: إثباتُ أوصافِ الكمالِ التي تتضمَّنها أسماؤه؛ لأنَّ كُلَّ اسمٍ من أسماءِ الله متضمِّنٌ لصفةِ كمالٍ، وقد يكونُ الاسمُ متضمِّنًا لصفتين أو أكثر، فـ(**الخَلَّاق**) من أسماءِ الله، ولا خَلْقَ إلَّا بعلمٍ وقدرةٍ، وعلى هذا فيكونُ (**الخلَّاق**) دالًّا على الخلقِ، ودالًّا على العلمِ، ودالًّا على القدرةِ.

ولهذا نقولُ في هذا البابِ: القاعدةُ في الأسماءِ أنَّه إذا كان الاسمُ لازمًا لم يتمَّ الإيمانُ به إلَّا بإثباتِه اسمًا لله عزَّ وجلَّ، وبإثباتِ ما دَلَّ عليه من الصِّفةِ، هذا إذا كان لازمًا، فالواجبُ إثباتُ الشَّيئين: الاسمِ، وما دَلَّ عليه من الصِّفةِ.

وإن كان متعدِّيًا لم يتمَّ الإيمانُ به إلَّا بإثباتِ الاسمِ، وما دَلَّ عليه من الصِّفةِ، وما يترتَّبُ على تلك الصِّفةِ مـمَّا يتعدَّى إلى غيرِه، فمثلًا: (**الحيُّ**) اسمٌ من أسماءِ الله، لكنَّه لازمٌ غيرُ مُتَعدٍّ، ولهذا الحيُّ فعلُه (**حَيِيَ**)، وليس فعلُه (**أَحْيَا**)، ولا يتمُّ الإيمانُ به حتَّى تُثْبِتَ أنَّ الحيَّ من أسماءِ الله، والثَّاني: تُثبتَ ما دَلَّ عليه من الصِّفةِ، وهي الحياةُ.

(**السَّميعُ**) من أسماءِ الله، ولا يتمُّ الإيمانُ به حتَّى تُثْبِتَه اسمًا من أسماءِ الله، وتُثْبِتَ السَّمعَ الذي دَلَّ عليه، وتُثْبِتَ المسموعَ الذي يسمعُه اللهُ؛ يعني: أنَّ اللهَ يسمعُ كُلَّ صوتٍ، لو قلت: أنا أُثْبِتُ (**السَّميع**) اسمًا من أسماءِ الله، وأُثْبِتُ السَّمعَ صفةً له، لكن لا أُثْبِتُ أنَّه يسمعُ، فهل تكونُ آمَنتَ بالاسمِ؟ لا، لا بُدَّ أن تُثْبِتَ إذا كان متعدِّيًا ما يتعدَّى إليه الاسم، وهذه قاعدةٌ مهمَّةٌ.

فكُلُّ اسمٍ من أسماءِ الله لا يتمُّ الإيمانُ به إلَّا بإثباتِ الاسمِ، والصِّفةِ، وما دَلَّ عليه هذا الاسمُ إذا كان مُتعدِّيًا، وإن كان لازمًا فتثبت الاسمَ والصِّفةَ.

من ذلك يقولُ:

٣٢٢٣- كَعُلُــوِّهِ سُــبْحَانَهُ فَــوْقَ السَّــمَا وَاتِ الْعُلَى بَـلْ فَـوْقَ كُـلِّ مَكَـانِ

٣٢٢٤- فَهْــوَ الْعَــلِيُّ بِذَاتِــهِ سُــبْحَانَهُ إِذْ يَسْــتَحِيلُ خِــلَافُ ذَا بِبَيَــانِ

من توحيدِ الرُّسلِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- إثباتُ علوِّ الله؛ ووجهُ ذلك أنَّ العلوَّ صفةُ كمالٍ، فَوَجَبَ ثبوتُه لله، ووجهٌ آخرُ: أنَّ ضدَّ العلوِّ السُّفلُ، والسُّفلُ نقصٌ، واللهُ تعالى منزَّهٌ عن النَّقصِ.

وقد جاء اسمُ **(العليِّ)** و**(الأعلى)**، **(العَلِيُّ)**: صفةٌ مشبَّهةٌ لازمةٌ، و**(الأعلى)**: اسمُ تفضيلٍ، وذُكِرَ **(الأعلى)** غيرَ مقيَّدٍ؛ يعني: لم يقل: **(أَعْلَى من كذا)**، بل جُعِلَ وصفًا لازمًا.

فتبيَّن بهذا إثباتُ العلوِّ وأنَّه أَعْلَى من كُلِّ شيءٍ، هذا العلوُّ يقولُ رحمه الله: **«فَوْقَ السَّماوَاتِ العُلَى بَلْ فَوْقَ كُلِّ مَكَانٍ»**، والذي فوق السَّماواتِ: العرشُ والكرسيُّ، واللهُ تعالى فوق العرشِ وفوق الكرسيِّ.

وَقَوْلُهُ: «بِذَاتِهِ» إنَّما نَصَّ على هذا؛ لأنَّ من أهلِ القبلةِ الذين ينتسبون للإسلامِ مَنْ يقولُ: إنَّه عَلِيٌّ بصفاتِه لا بذاتِه، سبحان الله! المؤلِّفُ -رحمه الله- يقولُ: **(بِذَاتِهِ)**.

قد يقولُ قائلٌ: لماذا جاء (بِذَاتِه) واللهُ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولم يقل: (بِذَاتِهِ)؟ وكذلك السُّنَّةُ ليس فيها لفظُ (بِذَاتِهِ)؟

نقولُ: أتى بها لسبَبَيْنِ:

أوَّلًا: أنَّ كُلَّ ما أُضِيفَ إلى الله من الصِّفاتِ فهو متعلِّقٌ بذاتِه، فإذا قيل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام:١]؛ يعني: هو نفسُه، و﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٦٤]؛ يعني: هو نفسُه، و﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ يعني: هو نفسُه؛ لأنَّه فعلٌ مضافٌ إلى فاعلِه.

ثانيًا: للرَّدِّ على الذين يقولون: إنَّ اللهَ ليس عليًّا بذاتِه، ويجعلون العلوَّ علوَّ صفةٍ فقط.

إِذَنْ السَّلفُ اضطرُّوا إلى أنْ يُلحقوا كلمةَ (بِذَاتِهِ) من أجل الرَّدِّ على أولئك القوم الذين يقولون: إنَّ اللهَ ليس عاليًا بذاتِه، لكن علوُّه علوُّ صفةٍ.

ثُمَّ انقسم هؤلاء المبطِلون -وأعني بالمبطلين: الذين أنكروا علوَّ الذَّاتِ- إلى قسمين:

- قسم قال: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- في كُلِّ مكانٍ.
- قسم آخر قال: لا يجوزُ أن نُثْبِتَ أنَّ اللهَ في مكانٍ، لا فوقُ، ولا تحتُ، ولا يمينُ، ولا يسارُ.

وكلا القولين باطلٌ؛ باطلٌ بالسَّمعِ والعقلِ والفِطرةِ، وسنذكُر -إن شاء الله- الأدلَّةَ على هذا.

الذين قالوا: إنَّه في كُلِّ مكانٍ، لا شكَّ أنَّهم لم يُنزِّهوه عن الأقذارِ والأنتانِ، فهو في المراحيضِ -والعياذُ بالله- في المساجدِ، في الأسواقِ، في كُلِّ مكانٍ، وهؤلاء يلزمُهم هذا اللَّازمُ ولا بُدَّ، أو أنْ يتراجعوا عن قولِهم، هذه واحدةٌ، أنَّهم لم يُنزِّهوه عن الأقذارِ والأنتانِ والرَّوائحِ الكريهةِ.

ثانيًا أنْ نقولَ لهم: إذا كان عزَّ وجلَّ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ فالذين في المسجدِ فهو عندهم، وكذلك عند الذين في السُّوقِ، والذين في البحرِ، والذين في الجوِّ، كم يكونُ من إلهٍ؟ الجوابُ: لا يُحْصَى، أو يلزمُهم أن يقولوا: بتجزُّئِه سبحانه وتعالى، جزءٌ منه هنا، وجزءٌ هنا، وجزءٌ هناك، يلزمُهم هذا ولا بُدَّ.

والذين قالوا: إنَّه ليس له مكانٌ، ولا يمكنُ أن نقولَ: فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا يسار، هؤلاء وصفوه بالعدمِ؛ ولهذا أَلْزَمَ الأميرُ المظفَّرُ محمود بن سبكتكين الكلاميَّ المنطقيَّ محمد بن فُورَك، وقال له: صِفْ لنا ربَّك. فقال: ليس فوق ولا تحت... إلى آخره، قال له: إنَّك وَصَفْتَ ربَّك بالعدمِ. ألزمه بهذا.

فصار كلا القولين باطلًا، لكن ما هو الصَّحيحُ؟

الصَّحيحُ أن يكون عاليًا، بل يستحيلُ ألَّا يكونَ عاليًا؛ لأنَّ ضدَّ العلوِّ السُّفلُ، وهذا نقصٌ، وإذا قلنا: هو السُّفلُ، فإمَّا أن يكونَ حالًّا في المخلوقاتِ، وإمَّا أن يكونَ عينَ المخلوقاتِ، وكلاهما باطلٌ، فهذا حلولٌ واتِّحادٌ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

إِذَنْ يستحيلُ ألَّا يكونَ عاليًا بذاتِه؛ لأنَّنا إذا لم نقل: **(عَالِيًا بذاتِه)** لَزِمَ أن يكونَ في كُلِّ مكانٍ، وإمّا ألَّا يكونَ له مكانٌ، وكلاهما مستحيلٌ، ولهذا قال: **(إِذْ يَسْتَحِيلُ خِلَافُ ذَا)**؛ أي: خلافُ علوِّه بذاتِه، ويبقى علوُّه بذاتِه ثابتًا بمقتضى العقل.

ثُمَّ إنَّ عُلُوَّ الله عزَّ وجلَّ بذاتِه دَلَّتْ عليه أنواعُ الأدلَّةِ الخمسةِ: القرآن، والسُّنَّة، والإجماع، والعقل، والفِطرة.

أمَّا القُرآنُ فمَملوءٌ من ذِكرِ عُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ بعِباراتٍ مُتنوِّعةٍ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النَّحل:٥٠]، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ

وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السَّجدة:٥]، والأمثلةُ على هذا كثيرةٌ لا تُحْصَى.

وأمَّا السُّنَّةُ فجاءت بأنواعِها الثَّلاثة: القول، والفعل، والإقرار؛ أمَّا القولُ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ -لا شكَّ- أنَّه أخبر بأنَّ اللهَ تعالى في السَّماءِ فقال: «**رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُه**»[1]، وكان يقولُ في صلاتِه: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»[2].

وأمَّا الفعلُ فَأَثْبَتَهُ ﷺ في أكبرِ تجمُّعٍ للمسلمين في عهدِه؛ ففي خطبته في حجَّةِ الوداعِ وهو بعَرَفَةَ قال لأصحابِه: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»، يرفعُ أُصْبَعَه إلى السَّماءِ ويردُّها إلى النَّاسِ، ثلاثَ مرَّاتٍ، وهو يقولُ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[3]، هذا إثباتٌ لِعُلُوِّه بالفعلِ، وهو الإشارةُ.

وأمَّا الإقرارُ ففي حديثِ معاويةَ بنِ الحَكَمِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين أتى بجاريته التي صكَّها وأراد أن يُعْتِقَها، فدعا بها النَّبيُّ -صَلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم- فجاءت، فقَالَ لها: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «**أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[4].

فثبت في السُّنَّة بأنواعِها الثَّلاثةِ: القوليَّة، والفعليَّة، والإقراريَّة، ولا أعظمَ من أدلَّةٍ تجتمعُ على معنًى واحد.

أمَّا الإجماعُ فإجماعُ السَّلفِ، لم يقل أحدٌ من الصَّحابةِ: إنَّ اللهَ ليس في السَّماءِ،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة في منى، رقم (١٧٤١)، مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

ولا التَّابعين ولا الأئمَّة من بعدهم، ما قالوا أبدًا: إنَّ اللهَ ليس في السَّماءِ، وسكوتُهم وهم يتلون كتابَ الله ويسمعون سُنَّةَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- عن إثباتِ معنًى يخالفُ ظاهرَها يدلُّ على إجماعِهم على ظاهرِها.

أمَّا دلالةُ العقلِ على علوِّ الله بذاتِه فأن نتساءلَ: هل العلوُّ من صفاتِ الكمالِ أو صفاتِ النَّقصِ؟ الجوابُ: من صفاتِ الكمالِ عقلًا، ولا أحدَ ينكرُ هذا، وإذا كان من صفاتِ الكمالِ لَزِمَ أن يكونَ اللهُ متَّصفًا به؛ إذ إنَّنا لو وصفناه بالسُّفلِ -وحاشاه من ذلك- لَزِمَ أن يكونَ إمَّا مع الخلقِ وإمَّا تحت الخلقِ، نسألُ اللهَ العافيةَ، وكُلُّ هذا مستحيلٌ.

وأمَّا الفِطرةُ: فكُلُّ إنسانٍ مفطورٌ على أنَّ اللهَ في السَّماءِ؛ يعني: الذي لم يدرس كلامَ المتكلِّمين والمناطقةِ لا يطرأُ على بالِه أبدًا أنَّ اللهَ تعالى ليس فوق السَّماواتِ.

لو تأتي إلى العجوزِ التي لم تقرأ أبدًا، وتقولُ: أين اللهُ؟ لقالت: في السَّماءِ، ثُمَّ إنَّ كُلَّ إنسانٍ يدعو اللهَ عزَّ وجلَّ فإنَّه يجد من نفسِه ضرورةً بطلبِ العلوِّ، فأنت عندما تريدُ أن تدعوَ اللهَ ترفعُ يديك، هل توجِّهُها يمينًا أو يسارًا أو أسفل؟ الجوابُ: لا، لكنَّك تُوجِّهُها إلى فوق، فِطرة تغلبُك على أن تتَّجهَ إلى السَّماءِ؛ ولهذا لما كان أبو المعالي الجُوَيْنِيُّ -رحمه الله وعفا عنه- يتكلَّمُ عن الاستواءِ، يريدُ أن يقولَ: إنَّ اللهَ لم يستوِ على العرشِ، قال له أبو العلاء الهَمْدَانِيُّ رحمه الله: يا أستاذ، دَعْنَا من ذكرِ العرشِ والاستواءِ على العرشِ، لكن أَخْبِرْنَا عن هذه الضَّرورةِ التي نجدُها في نفوسِنا، ما قال عارفٌ قطُّ: (يا الله) إلَّا وَجَدَ من قلبِه ضرورةً بطلبِ العلوِّ، فجعل يضربُ على رأسِه قائلًا: حيَّرني، حيَّرني، حيَّرني. لأنَّه لا يستطيعُ أن ينفيَ الفطرةَ أبدًا.

فالحاصل: أنَّ من عقيدتِنا التي نَدِينُ اللهَ بها -ونسألُ اللهَ أن يتوفَّانا عليها- أنَّ اللهَ تعالى نفسَه في السَّماءِ فوق كُلِّ شيءٍ، وما السَّماواتُ السَّبعُ والأَرَضُون السَّبعُ في كفِّه إلَّا كخردلةٍ في كفِّ أحدِنا، وكما هو معلومٌ أنَّ الخردلةَ بالنِّسبة لليدِ لا تُساوي شيئًا، فكُلُّ المخلوقاتِ ليست بشيءٍ عند الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فله العلوُّ المطلقُ.

وهنا المؤلِّفُ -رحِمه الله- ذكر أنَّه العَلِيُّ بذاتِه، ولم يذكر العلوَّ الآخرَ المتَّفقَ عليه بين الأُمَّةِ وهو العلوُّ بصِفاتِه؛ لأنَّه إنَّما يريدُ الرَّدَّ على أهلِ التَّعطيلِ؛ ولهذا نقولُ: إنَّ علوَّ الله عزَّ وجلَّ نوعان: علوٌّ ذاتيٌّ، وعلوٌّ وصفيٌّ، وهو علوُّ الصِّفةِ، وهذا متَّفقٌ عليه بين أهلِ الملَّةِ الإسلاميَّةِ، ولم يجوِّز أحدٌ منهم أن يُوصَفَ اللهُ تعالى بالنَّقصِ، ولكن ما ميزانُ النَّقصِ والكمالِ؟ هذا هو المحطُّ الرَّحبُ.

أهلُ البدعِ يَرَوْنَ أنَّ الميزانَ هو العقلُ؛ فما اقتضى العقلُ أنَّه كمالٌ أثبَتُوه، وما اقتضى أنَّه نقصٌ نفَوْه، وما لا يقتضي هذا ولا هذا فمنهم مَنْ تَوَقَّفَ فيه، ومنهم مَنْ نَفَاهُ، ولكن نقولُ: إنَّ مَرجِعَ الوصفِ -أي: ما يُوصَفُ اللهُ به من الكمالِ- هو الكتابُ والسُّنَّة، والعقلُ يهتدي إلى أنَّ اللهَ تعالى موصوفٌ بالكمالِ على سبيلِ العمومِ، أمَّا على سبيلِ التَّفصيلِ فلا.

وحينئذٍ نقولُ: العلوُّ ينقسم إلى قسمين: علوُّ صفةٍ: وهو متَّفقٌ عليه بين فرق الأُمَّة، لكن يبقى الخلافُ ما هو العلوُّ في الصِّفاتِ؟

والثَّاني: علوُّ الذَّاتِ، وهذا تنكرُه جميعُ الطَّوائفِ إلَّا السَّلف الصَّالح ومَنْ كان على منهجِهم.

لـمَّا ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحِمه الله- العلوَّ، والعلوُّ كما سبق دليلُه سمعيٌّ وعقليٌّ

وفطريٌّ ذَكَرَ الاستواءَ فقال:

٣٢٢٥- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى   قَـدْ قَـامَ بِالتَّـدْبِيرِ لِلْأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى» «حَقًّا»: صفةٌ لمحذوفٍ، والتَّقديرُ: (استواءً حَقًّا).

قَوْلُهُ: «عَلَى العَرْشِ» العرشُ مخلوقٌ عظيمٌ خَلَقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وبَيَّنَ لنا النَّبِيُّ ﷺ عظمتَه، وأخبر الرَّسولُ ﷺ أنَّ السَّماواتِ السَّبعَ والأرَضين السَّبعَ بالنِّسبةِ للكرسيِّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ في فَلَاةٍ من الأرضِ[1]، فَحَلْقَةُ المِغْفَرِ بالنِّسبة للفلاةِ ليست بشيءٍ، وأخبر أنَّ فَضْلَ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفَلَاةِ على هذه الحَلْقَةِ، إِذَنْ لا نستطيعُ أن نتصوَّرَ عظمةَ الكرسيِّ ولا عظمةَ العرشِ.

ثم هل لنا أن نسألَ عن مادةِ العرشِ؛ هل هي من خشبٍ، من حديدٍ، من ذهبٍ، من فضةٍ، من زمرُّدٍ... إلخ؟

الجوابُ: ليس لنا أن نسألَ عن هذا، بل لو سَأَلْنَا لدخلنا في قولِ الرَّسولِ ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»[2]؛ لأنَّ قادتَنا حقيقةً وهم الصَّحابةُ ما سألوا النَّبِيَّ ﷺ عن ذلك، ولا بَيَّنَه الرَّسولُ ﷺ بدون سؤالٍ، فليس لنا أن نسألَ، لكن نقولُ: هو مخلوقٌ عظيمٌ لا يَقْدُرُ قدرَه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ كما جاء عن ابن عبَّاسٍ أنَّ الكُرْسِيَّ مَوْضِعُ قَدَمَيِ الرَّحمن عزَّ وجلَّ[3]، وأنَّ العرشَ لا يقدُرُ قدرَه إلَّا اللهُ -تبارك وتعالى-.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧، رقم ٣٦١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

(٣) يعني قوله: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يُقْدَرُ قَدْرُهُ». أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨).

قَوْلُهُ: «اسْتَوَى»؛ بمعنى: علا وارتفع، وبعضُهم أضاف: (اسْتَقَرَّ) إلى هذا المعنى؛ يعني: قال: إنَّ اللُّغةَ تقتضي بقولِك: (اسْتَوَى عَلَى كَذَا) العلوَّ والاستقرارَ، وذَكَرُوا لهذا أمثلةً، منها قولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]؛ يعني: علوتم واستقررتم عليه، وهذا العلوُّ الذي اختصَّ به العرشُ علوٌّ خاصٌّ، ليس هو العلوَّ على جميعِ المخلوقاتِ، بل علوٌّ يختصُّ بالعرشِ، ولا يُقَالُ إلَّا للعرشِ، فلا يجوزُ أن تقولَ: (اسْتَوَى اللهُ على الأرضِ)، ولا (اسْتَوَى اللهُ على السَّماءِ).

فإن قال قائلٌ: هو عالٍ على كُلِّ شيءٍ؟ قلنا: نعم، هو عالٍ على كُلِّ شيء، لكن الاستواءُ على العرشِ علوٌّ خاصٌّ بالعرشِ؛ أرأيت لو أنَّ شخصًا فوق السَّطحِ على الكرسيِّ، فهو عالٍ على السَّطحِ وعلى مَنْ تحته، لكنَّه مستوٍ على الكرسيِّ خاصَّةً، فالاستواءُ خاصٌّ بالعرشِ كاستواءِ الإنسانِ على الكرسيِّ فوق السَّطحِ، فهو عالٍ على الكرسيِّ وعلى مَنْ تحته، لكنَّ الاستواءَ خاصٌّ بالكرسيِّ؛ إِذَنْ علوُّه على العرشِ أو استواؤه على العرشِ علوٌّ خاصٌّ، وليس هو العلوَّ الشَّاملَ لكُلِّ المخلوقاتِ.

وهذا دليلُه سمعيٌّ، لا مجالَ للعقلِ فيه، ولا للفطرةِ؛ لأنَّ العقلَ لا يدري هل خَلَقَ اللهُ عرشًا أم لا؟ ولا يدري هل استوى عليه لـمَّا خَلَقَهُ أم لا؟ وكذلك الفطرة.

بَقِيَ عندنا الدَّليلُ السَّمعيُّ، وقد ذكره اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآنِ الكريمِ في سبعةِ مواضعَ: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، أو ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] ...ويكفي في إثباتِه والإيمانِ به والجزمِ به موضعٌ واحدٌ، فكيف وهو في سبعةِ مواضعَ من كتابِ الله عزَّ وجلَّ؟! وما جاء في القرآنِ فالسُّنَّةُ مثبِتةٌ له، كيف ذلك؟

لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ يقرأُ القرآنَ ويؤمنُ بما فيه ويقرُّه بلا شكٍّ، وما جاء في القرآنِ فالصَّحابةُ مُجمِعون عليه؛ لأنَّه لم يَرِدْ أبدًا عن الصَّحابةِ ولا حرفٌ واحدٌ أنَّهم قالوا: إنَّ اللهَ لم يستوِ على العرشِ، وحينئذٍ يمكنُ أن نقولَ: استواءُ الله على العرشِ بالقرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الصَّحابةِ.

ووجهُ كونِه ثابتًا في السُّنَّةِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقرؤه مؤمنًا به مقرًّا له، ولم يأتِ عنه حرفٌ واحدٌ بنفيه ولا بتحريفِه، إِذَنْ مذهبُ السَّلفِ وأهلِ السُّنَّةِ الإيمانُ بأنَّ اللهَ قد استوى على عرشِه، ولكن لا يعلمون كيف استوى؟ إِذَنْ يعلمون أنَّه استوى عليه؛ أي: عَلَا عليه، لكن لا يعلمون كيف استوى، ولا يحاولون أن يعلموا كيف استوى، وليس السُّؤالُ عن كيفيَّةِ الاستواءِ من واجبِ دينِهم، ولا من كَمالِ دِينِهم، وما أَحْسَنَ ما قال الإمامُ مالكٌ -رحمه الله- حين سأله رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فأطرق مالكٌ -رحمه الله- برأسِه حتَّى علاه الرُّحَضَاءُ؛ يعني: العرقَ، وجعل يتصبَّبُ عرقًا من شدَّةِ وقع السُّؤالِ على قلبِه. ومع الأسف يمرُّ بنا هذا السُّؤالُ وكأنَّه ماءٌ باردٌ على جسدٍ محمومٍ، لا نحسُّ به، لكن الذين يَقْدُرُون اللهَ حقَّ قدرِه يعرفون مدى خطورةِ هذا السُّؤالِ، ثُمَّ رَفَعَ رأسَه وقال: يا هذا: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ، وما أُرَاكَ إلَّا مبتدعًا»، ثُمَّ أَمَرَ به فأُخْرِجَ من مسجدِ النَّبِيِّ ﷺ[1]؛ لأنَّ هذا ساعٍ في الأرضِ فسادًا، وأقلُّ ما يُعَامَلُ السَّاعي في الأرضِ فسادًا أن يُنْفَى من الأرضِ، فنفاه مالكٌ -رحمه الله- من مسجدِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وعلى آله وسلم- لئلا يفسدَ الخلقَ.

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوَّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

إِذَنْ نقولُ: (**الاستواءُ معلومٌ**) وهو العلوُّ والاستقرارُ، (**والكيفُ مجهولٌ**)؛ أي: عقولُنا تجهلُه، ولم يَرِدْ في القرآنِ والسُّنَّةِ ذِكْرُه، فَيَجِبُ علينا أن نُعْرِضَ عنه، (**والإيمانُ بالاستواءِ واجبٌ**)؛ أي: بالاستواءِ على الوصفِ السَّابقِ، وهو علمُ معناه وجهْلُ كيفيَّته، فالإيمانُ به واجبٌ، (**والسُّؤالُ عنه -أي: عن كيفيَّته- بدعةٌ**)، لا تسأل عنه، وإنَّما كان بدعةً لوجهين:

الوجه الأوَّل: أنَّ الصَّحابة -وهم أحرصُ منَّا على العلمِ- لم يسألوا عنه، والنَّبيُّ ﷺ لم يبيِّنه.

الوجه الثَّاني: أنَّه من ديدنِ أهلِ البدعِ؛ أي: من دأبِهم وشأنِهم، فأهلُ البدعِ دائمًا يسألون عن كيفيَّةِ الصِّفاتِ لتعجيزِ أهلِ الحقِّ، من أجل أن يقولوا: أنتم لا تعرفون شيئًا.

وَقَوْلُهُ: (**وَمَا أُرَاكَ إلَّا مبتدعًا**)، هذه فراسةٌ من الإمامِ مالك رحمه الله، حيث اسْتَدَلَّ بهذا السُّؤالِ على أنَّه رجلٌ مُبْتَدِعٌ، فَحَكَمَ على الرَّجلِ بظاهرِ حالِه من سؤالِه.

إِذَنْ هذا مذهبُهم، نؤمنُ بالله عزَّ وجلَّ أنَّه مستوٍ على عرشِه استواءً لا تُعْلَمُ كيفيَّتُه.

وهنا مسألةٌ: هل يجوزُ أن تأخذَ العلمَ عن رجلٍ مبتدعٍ؟

الجوابُ: هذا فيه تفصيلٌ: إن كان عند الإنسانِ علمٌ يدفعُ به ما يدسُّه هذا المبتدعُ في تعليمِه، هذا شرطٌ، ولم يكن بحضورِه إلى حلْقاتِ هذا المبتدعِ فتنةٌ يَفتتنُ بذلك النَّاسُ، ويقولون: هذا رجلٌ يحضرُه فلانٌ وفلانٌ، فهو على حقٍّ، هذا الشَّرطُ الثَّاني.

الثَّالث: ولم يتعرَّض لتثبيتِ بدعته في حَلْقَاتِه، فهذا لا بأسَ به، فهذه شروطٌ ثلاثةٌ لا بُدَّ منها، وإلَّا فاجتنبْه؛ لأنَّ بعضَ المبتدعةِ ذكيٌّ كما قال شيخُ الإسلامِ رحمه الله: «إنَّ هؤلاء المتكلِّمين أوتوا ذكاءً ولم يؤتوا زكاءً»، فهو ذكيٌّ يستطيعُ أن يُدْخِلَ عليك البدعةَ من حيث لا تشعرُ، حتَّى إنَّ البُلْقَيْنِيَّ -رحمه الله- قال: إنِّي استخرجتُ شيئًا من تفسيرِ الكشَّافِ للزمخشريِّ من اعتزاليَّاتِه بالمناقيشِ، والزَّمخشريُّ إمامُ المفسِّرين في الحقيقةِ فيما يتعلَّقُ باللُّغةِ العربيَّةِ والفصاحةِ، لكنَّه معتزليٌّ، ولذلك لـمَّا جاء إلى قولِ الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، فقال: أيُّ فوزٍ أعظمُ من النَّجاةِ من النَّارِ ودخولِ الجنَّةِ[1]؟! فقال: أيُّ فوزٍ أعظمُ؟! الذي يقرأ هذا يقولُ: هذا صحيحٌ، لكنَّه أراد أن ينفيَ ما هو أعظمُ من هذا وهو رؤيةُ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ رؤيةَ الله أعظمُ عند أهلِ الجنَّةِ من حلول سكنى الجنَّةِ، وربَّما هذا المبتدعُ الذي تدرسُ عنده في اللُّغةِ العربيَّةِ يُمَثِّلُ لك بأنَّ المضافَ إليه يقومُ مقامَ المضافِ عند حذفِه، ويقولُ: مثالُ ذلكِ قولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢].

لو قال قائلٌ: أنا أقولُ: إنَّ اللهَ استوى على عرشِه استواءً يليقُ بجلالِه هل يكفي هذا؟

الجوابُ: لا يكفي؛ لأنَّنا نقولُ: ما معنى الاستواء عندك؟ أمَّا أن تقول: استوى استواءً يليقُ بجلالِه، دون معرفةِ المعنى، فهذا لا يكفي، فحتى الاستيلاء على العرشِ يليقُ بجلالِه، الآن لم نفهم هل أنت على طريقة السَّلفِ أو على طريقة الخلفِ؟ لا بُدَّ أن تقولَ: **(استوى)** بمعنى علا علوًّا يليقُ بجلالِه.

---

(١) الكشاف للزمخشريِّ عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] (١/ ٤٤٩).

وقد خَالَفَ في ذلك أهلُ التَّحريفِ والتَّعطيلِ الذين يسمُّون أنفسَهم أهلَ التَّأويلِ تزلُّفًا وتقرُّبًا إلى العامَّةِ؛ لأنَّهم لو وصَفوا أنفسَهم بحقيقة أمرِهم -وهي التَّحريفُ- لنفر النَّاسُ عنهم، ولم يَقبَلوه، لكن يقولون: أهلُ التَّأويلِ، وهذه العبارةُ أهونُ بلا شكٍّ، ويقولون: إنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قال لابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**عَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[1]، ونحن أهلُ التَّأويلِ.

المشكلة أنَّ أهلَ التَّأويلِ يُسمُّون أهلَ السُّنَّةِ أهلَ التَّفويضِ، فهم يقولون: أهلُ السُّنَّةِ لا يعرفون المعاني، لو تسأله معنى (**استوى**) قال: لا أدري، معنى: (**ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا**)؟ قال: لا أدري، معنى (**الوجه**)؟ قال: لا أدري، فيشبِّهون على العامَّةِ، يقولون: هؤلاء جُهَّالٌ لا يعرفون، والعلمُ عندنا، المرادُ بكذا: كذا وكذا.

أهلُ التَّحريفِ قالوا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ يعني: استولى عليه، والحقيقةُ أنَّ قولَهم هذا باطلٌ من وجوهٍ:

أوَّلًا: أنَّه مخالفٌ لظاهرِ النَّصِّ؛ لأنَّ القرآنَ نزل باللِّسانِ العربيِّ، واللُّغةُ العربيَّةُ لا يمكنُ أن تُفَسَّرَ (**استوى**) بمعنى (**استولى**) أبدًا، فهو مخالفٌ لظاهرِ النَّصِّ.

ثانيًا: مخالفٌ لإجماعِ السَّلفِ؛ إذ إنَّ السَّلفَ مُجمِعون على أنَّ استواءَ الله على عرشِه هو المعنى اللُّغويُّ، لم يَرِدْ عنه تحريفٌ في ذلك.

ثالثًا: أنَّه يلزمُ على هذا التَّفسيرِ لوازمُ باطلةٌ، منها أن يكونَ العرشُ قبل استواءِ الله عليه لغيرِ الله، فحصلت مصارعةٌ بين الله وبين الآخر، ثُمَّ استولى عليه اللهُ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٩، رقم ٢٤٢٢).

عزَّ وجلَّ، وهذا لازمٌ باطلٌ بلا شكٍّ، مَنْ مَلَكَ العرشَ قبل الله حتَّى يستويَ اللهُ عليه من بعد؟! لا أحدَ، ثُمَّ لو قال قائلٌ: لا نلتزمُ بذلك، نقولُ: إِذَنْ لِـمَن مُلْكُ العرشِ قبل استيلاءِ الله عليه؟ يعني: لو قال: لو أَلزَمتُمونا لا نلتزمُ، نقولُ: إِذَنْ لِـمَن كان ملكُه؟ إذا كنتم تقولون: ثم استوى على العرشِ، فقبل ذلك لمن؟

ومن اللَّوازمِ الباطلةِ أنَّه يلزمُ على كلامِهم أن يصحَّ قولُ القائلِ: إنَّ اللهَ استوى على الأرضِ؛ لأنَّ المعنى (**استولى**) يشملُ الأرضَ وجميعَ ملكِ الله، وهذا لا شكَّ أنَّه معنًى باطل.

فصار الصَّوابُ -وهو الواجبُ اعتقادُه- أنَّ استواءَ الله على العرشِ؛ يعني: علوَّه عليه، فإن قال قائلٌ: أليس قد جاء في النَّظمِ قولُ القائلِ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْرَاقِ[1]

و(**اسْتَوَى عَلَى العِرَاقِ**) ليس معناه: علا على العراقِ، بل معناه: استولى عليه؟ فيقال: سبحان الله! كيف يُسْتَدَلُّ بهذه اللُّكْنَةِ على اللُّغةِ العربيَّةِ الفصحى؟! من قال هذا البيتَ؟

الجوابُ: غيرُ معروفٍ، وإذا كان غيرَ معروفٍ فكيف يُسْتَدَلُّ به على اللُّغةِ العربيَّةِ أُمِّ اللُّغاتِ ولغةِ القرآنِ؟! ثُمَّ نقولُ: يَمْنَعُ أن يكونَ (**استوى على العراقِ**) بمعنى: علا عليه علوًّا حِسِّيًّا؛ يمنعُ هذا أنه لا يمكنُ في العقلِ.

ثالثًا: نقولُ: (**استوى على العراقِ**) استواءً معنويًّا؛ يعني: علوًّا معنويًّا وهو الاستيلاء، وحينئذٍ يكون (**استوى على العراق**) بمعناها الحقيقيِّ، لكنَّه استواءٌ معنويٌّ.

---

(١) الأزمنة والأمكنة لأبي علي الأصفهاني (١/ ٣٦).

إِذَنْ اللهُ تعالى مستوٍ على عرشِه -حقيقةً- استواءً يليقُ بجلالِه وعظمتِه، والاستواء بمعنى العلوِّ والاستقرارِ كما تفيدُه اللُّغةُ العربيَّةُ التي جاء بها القُرآنُ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]؛ يعني: صيَّرناه باللُّغةِ العربيَّة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣]، أي: تفهمون معناه، وبَيَّنَّا أَنَّ الذين فسَّروه بـ(**استولى**) ضالُّون، وأنَّهم ارتكبوا جنايتين، فكُلُّ مَنْ فَسَّرَ النُّصوصَ بغيرِ ظاهرِها فقد ارتكب خطيئتَيْنِ عظيمَتَيْنِ:

الأُولى: أنَّه صَرَفَ النُّصوصَ عن مُرادِ الله بها، وهذا عُدوانٌ سلبيٌّ، وهذه جنايةٌ لا شكَّ.

الثَّانية: أنَّه أَثْبَتَ لها معنًى غير مرادٍ، فقد ضَلَّ وأخطأ في السَّلبِ والإيجابِ؛ في السَّلبِ حيث نفى ظاهرَها المرادَ، وفي الإيجابِ حيث أَثْبَتَ لها معنًى غير مرادٍ، وهذا عدوانٌ إيجابيٌّ.

إِذَنْ عقيدتُنا التي نَدينُ اللهَ بها ونسألُ اللهَ أن نموتَ عليها أنَّ اللهَ -جلَّ وعلا- استوى على عرشِه حقيقةً استواءً يليقُ بجلالِه، وأنَّ الاستواءَ هو العلوُّ والاستقرارُ، والمجهولُ لنا من ذلك هو الكيفيَّةُ.

ولكنِّي أقولُ: إنَّ الهوى يُعْمِي ويُصِمُّ، الإنسانُ إذا اعتقد الشَّيءَ وذَهَبَ يستدلُّ حَاوَلَ أن يَلوِيَ أعناقَ النُّصوصِ إلى ما يعتقدُ، وهذه وَصمةُ عارٍ في الواقعِ، ليست على المتكلِّمين في العقائدِ فقط، بل وحتَّى المتكلِّمين في الفقهِ، تجدُ الواحدَ منهم إذا كان على مذهبٍ حَاوَلَ أن يلويَ أعناقَ النُّصوصِ إلى مذهبِه، وهذا -والعياذُ بالله- محرَّمٌ؛ لأنَّ الواجبَ أن يكونَ الإنسانُ تابعًا للنُّصوصِ وليس متبوعًا لها، ولهذا قيل: استدلَّ ثم احكُمْ، ولا تحكمْ ثم تستدلّ؛ لأنَّك إن حَكَمْتَ أَوَّلًا ثُمَّ اسْتَدْلَلْتَ فإنَّك رُبَّما تخطئ.

إِذَنْ نقولُ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ أي: علا عليه، واستقرَّ عليه علوًّا واستقرارًا يليقُ بجلالِ الله عزَّ وجلَّ.

وأمَّا قولُه تعالى في سورة فُصِّلَتْ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١]، وقولُه تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩]، فهاتان الآيتان من عُلَماءِ السُّنَّةِ مَنْ قال: (إلى) بمعنى (على)، لكن هذا لا يستقيمُ، ومنهم مَنْ قال: إنَّها على بابِها وإنَّها تفيدُ الغايةَ، وهذا أيضًا لا يستقيمُ؛ لأنَّنا إذا قلنا: (استوى إلى السَّماءِ) بمعنى: ارتفع إليها، صار في الأوَّل نازلًا، وهذا لا يستقيمُ؛ ولهذا كان القولَ الرَّاجحَ أنَّ (استوى) بمعنى (قَصَدَ)، وليس هذا من بابِ التَّحريفِ؛ لأنَّ تعلُّقَ المجرورِ الذي بعده يفيدُ هذا؛ فـ(إلى) للغايةِ، وليست للاستعلاءِ، فالعلماءُ -رحمهم الله- اختلفوا في هذا، والصَّوابُ أنَّه بمعنى (قَصَدَ)؛ يعني: أراد -سبحانه وتعالى- إرادةً تامَّة كاملةً لخلقِ السَّماءِ وأنَّ القصدَ التَّامَّ استواءٌ في الواقعِ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]؛ أي: كَمُلَ.

فإن قال قائلٌ: هل يَلزمُ من استواءِ الله على العرشِ أنَّه لو زال العرشُ يُعْدَمُ علوُّ الله عزَّ وجلَّ؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ استواءَ الله على العرشِ لا لحاجتِه للعرشِ؛ لأنَّ العرشَ وغيرَه محتاجٌ إلى الله عزَّ وجلَّ، بخلاف استواءِ الإنسانِ على السَّريرِ أو على البَعيرِ؛ فإنَّه إذا زال السَّريرُ سقط، وإذا عثر البعيرُ سقط؛ لأنَّ الإنسانَ محتاجٌ لذلك، لكن استواءُ الله على العرشِ ليس استواءَ حاجةٍ، ولكنَّه استواءُ كمالٍ، فلكمالِ السُّلطانِ والعظمةِ استوى على العرشِ، وحينئذٍ يكونُ الرَّبُّ -جلَّ وعلا- غيرَ محتاجٍ إلى العرشِ.

وهنا إذا قلنا: إنَّ اللهَ مُستوٍ على العرشِ هل يلزمُ منه أن يكونَ العرشُ محيطًا به، وهذا مستحيلٌ وفاسدٌ، ولازمُ الفاسدِ فاسدٌ؟

الجوابُ أن نقولَ: هذا في حقِّ المخلوقِ، مع أنَّه في حقِّ المخلوقِ أيضًا قد يكونُ، فقد تستوي على عتبةٍ صغيرةٍ أقلَّ منك، فإذا صارت ثابتةً يمكنُ أنْ تجلسَ عليها مُستقِرًّا، ولو كنت أكبرَ منها، المهمُّ أنَّ هذا لا يلزمُ في حقِّ المخلوقِ، وإذا قُدِّرَ أنَّه لازمٌ في حقِّ المخلوقِ فليس لازمًا في حقِّ الخالقِ؛ لأنَّ اللهَ لا يُقَاسُ بخلقِه.

قَوْلُهُ: «قَدْ قَامَ بِالتَّدْبِيرِ لِلأَكْوَانِ» أشار -رحِمه الله- بقولِه: (**قَدْ قَامَ بِالتَّدْبِيرِ لِلأَكْوَانِ**) بعد ذكرِ استوائِه على العرشِ إلى أنَّ هذا من كمالِ عظمتِه وسُلطانِه، أنَّه استوى على عرشِ المُلكِ، فيكون هذا من كمالِ العظمةِ والسُّلطانِ، وفيه إشارةٌ إلى ردِّ قولِ مَنْ قال: إنَّ (**استوى**) بمعنى (**استولى وملك وقهر**)، فيشيرُ المؤلِّفُ -رحِمه الله- إلى أنَّ ملكَه وقهرَه واستيلاءَه على جميعِ الأكوانِ، أمَّا الاستواءُ فهو خاصٌّ بالعرشِ.

٣٢٢٦- حَـيٌّ مُرِيـدٌ قَـادِرٌ مُـتَكَلِّمٌ ... ذُو رَحْمَـةٍ وَإِرَادَةٍ وَحَنَـانِ

قَوْلُهُ: «حَيٌّ»؛ أي: من الحياةِ؛ يعني: من أسمائِه عزَّ وجلَّ (**الحيُّ**)، فيجبُ علينا أن نُثبتَ (**الحيَّ**) اسمًا من أسمائِه، وأن نثبتَ صفةَ الحياةِ له؛ إذ لا يمكنُ حيٌّ بلا حياةٍ، وحياةٌ لا يُوصَفُ من اتَّصفَ بها بالحيِّ لا تمكنُ أيضًا، فهو حيٌّ ذو حياةٍ كاملةٍ أزلًا وأبدًا، وحياتُه لم يسبقْها عدمٌ ولا يلحقها زوالٌ، بخلاف حياتِنا، فحياتُنا مسبوقةٌ بالعَدَمِ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، فالإنسانُ قبل أن يكونَ في بطن أُمِّه ليس بشيءٍ، والنِّهايةُ العَدَمُ

كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٢٦-٢٧]، لكنَّه ليس عدمًا محضًا؛ لأنَّ الرُّوحَ تبقى، فالرُّوحُ من الأشياءِ التي خلقها اللهُ للبقاء، فالرُّوحُ تبقى، وأمَّا الجسدُ فإمَّا أن يبقى وإمَّا ألَّا يبقى، فمثلًا أجسادُ الأنبياءِ باقيةٌ لا شكَّ؛ لأنَّ اللهَ حَرَّمَ على الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ، فهي باقيةٌ، وتُعَادُ يومَ القيامةِ، أمَّا الرَّبُّ عزَّ وجلَّ فإنَّه لم يزل ولا يزالُ موجودًا؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، فهو لا يموتُ لكمالِ حياتِه، وهي أيضًا حياةٌ كاملةُ الأوصافِ، ليس فيها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه؛ فهي كاملةٌ من النَّاحيتين: من ناحية الكمالِ الذَّاتيِّ، ومن ناحيةِ الكمالِ الزَّمنيِّ، فحياةُ المخلوقين ناقصةٌ من ناحيةِ الكمالِ الزَّمنيِّ ومن ناحية الكمالِ الذَّاتيِّ.

فحياةُ المخلوقينِ مَسبوقةٌ بعَدَمٍ وملحوقةٌ بزوالٍ، وهذا نقصٌ زمانيٌّ، أيضًا حياةُ المخلوقِ ليست كاملةً، بل يلحقُها النَّقصُ؛ فيمرض الإنسانُ، ويجوعُ، ويعطشُ، ويدخلُه البردُ، ويؤلمُه الحرُّ، بخلاف حياةِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فهي كاملةٌ.

وقد ذكر اللهُ تعالى (**الحيَّ القيُّومَ**) في ثلاثةِ مواضع:

١- في آية الكرسيِّ من سورة البقرة، حيث قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

٢- وفي سورة آل عمران، حيث قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:١-٢].

٣- وفي سورة (طه)، حيث قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه:١١١].

وهذان الاسمان جَمَعَا كُلَّ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ الذَّاتيَّةِ والفعليَّةِ؛ لأنَّ (**الحيَّ**) هو مَن اتَّصَفَ بالحياةِ، و(**القيُّوم**) مَنِ اتَّصَفَ بالقيُّوميَّةِ، فهو قَائِمٌ بنفسِه قَائِمٌ على

غيرِه، وهذه تضمَّنت جميعَ الصِّفاتِ؛ ولهذا كان هذان الاسمان هما الاسم الأعظم الذي إذا دُعِيَ اللهُ به أَجَابَ، وإذا سُئِلَ به أَعْطَى.

قَوْلُهُ: «مُرِيدٌ»؛ يعني: له الإرادةُ.

فهو مُريدٌ لكلِّ ما في الكونِ من أفعالِه وأفعالِ عبادِه، فكُلُّ ما في الكونِ فهو مرادُ الله عزَّ وجلَّ بالإرادةِ الكونيَّةِ، أفعالُه -لا شكَّ- أنَّها صادرةٌ عن إرادةٍ؛ إذ لا أحَد يُكْرِهُهُ، ولا أحَد يُجْبِرُه عزَّ وجلَّ، وأفعالُ العبادِ أيضًا عن إرادتِهِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

ثُمَّ اعلم أنَّ الإرادةَ نوعان: إرادةٌ كونيَّةٌ، وإرادةٌ شرعيَّةٌ، الإرادةُ الكونيَّةُ هي التي بمعنى المشيئة، والإرادةُ الشَّرعيَّةُ هي التي بمعنى المحبَّة، والفرقُ بينهما من وجهين:

الوجه الأوَّل: أنَّ المرادَ كونًا لا بُدَّ أن يقعَ بخلافِ المرادِ شرعًا.

الوجه الثَّاني: أنَّ المرادَ كونًا يكونُ ممَّا يحبُّه اللهُ وممَّا لا يحبُّه اللهُ، والمرادَ شرعًا لا يكونُ إلَّا فيما يحبُّه اللهُ.

وهذا بابٌ مهمٌّ جدًّا، فنطلبُ أوَّلًا الدَّليلَ على تقسيمِ الإرادةِ، الدَّليلُ في القرآنِ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النِّساء:٢٧] هذه الإرادةُ شرعيَّةٌ؛ لأنَّها لو كانت كونيَّةً لَتَابَ اللهُ على جميعِ النَّاسِ، وقال اللهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٦] وهذه إرادةٌ شرعيَّةٌ، ومنها أيضًا قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وهذه إرادةٌ شرعيَّةٌ.

وأمَّا الإرادةُ في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣] فهي إرادةٌ كونيَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ لا يريدُ شرعًا الاقتتالَ، ولا يريدُ الكفرَ، وفي قولِ الله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦] كونيَّةٌ أيضًا.

بعد أنْ عرفنا ذلك نقولُ: الإرادةُ الشَّرعيَّةُ قد يقعُ المرادُ فيها وقد لا يقعُ؛ لأنَّ ما يحبُّه اللهُ عزَّ وجلَّ قد يقعُ وقد لا يقعُ، أليس اللهُ يريد منَّا أن نكونَ صالحين؟ الجوابُ: بلى، ومع ذلك يصلحُ بعضٌ منَّا وبعضٌ لا يصلحُ، إذَنْ هذه الإرادةُ شرعيَّةٌ، ولا يمكنُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ يريدُ الكفرَ بمعنى الإرادة الشَّرعيَّة، لا يمكنُ ذلك؛ لأنَّ الكفرَ مكروهٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

الإرادةُ الكونيَّةُ لا بُدَّ فيها من وقوعِ المرادِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، ويقولُ: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرَّعد:١١]، ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، إذا أراد شيئًا بالإرادةِ الكونيَّةِ.

ثانيًا: تتعلَّقُ أيضًا بما يحبُّ وما لا يحبُّ، فلو قال قائلٌ: هل أراد اللهُ عزَّ وجلَّ الشَّرَّ أو لا؟ الجوابُ: بالإرادةِ الشَّرعيَّةِ: لا، وبالإرادةِ الكونيَّةِ: نعم؛ لأنَّ كُلَّ ما وقع فإنَّه بإرادتِه؛ ولهذا نقولُ: كيف يكونُ الشَّرُّ مرادًا لله كونًا؟ نقولُ: نعم؛ لأنَّه لكمالِ سلطانِه قد يريدُ الشَّيءَ وهو لا يحبُّه لكن لحكمةٍ بالغةٍ أَرادَ ذلك، مثلًا: هل يريدُ اللهُ -عزَّ و جلَّ- أن يُعذِّبَ عبادَه بالكوارثِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ أو لا يريدُ؟ الجوابُ: كونًا يريدُ، لكنَّه لا يحبُّ ذلك، إنَّما هو أراده لمصلحةٍ عظيمةٍ بيَّنها اللهُ تعالى بقولِه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الرُّوم:٤١] هذا السَّببُ، والغايةُ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرُّوم:٤١]، وهذه غايةٌ حميدةٌ.

وأضربُ لكم مثلًا: رجلٌ عنده ابنٌ يحبُّه محبَّةً شديدةً، فمرِض الابنُ، وطلب له الطَّبيبَ، فقرَّر الطَّبيبُ أن يَكْوِيَ هذا الابنَ، وقال: لا بُدَّ أن يُكْوَى وإلَّا فما يشْفَى، فهل الوالدُ يحبُّ أن يحترقَ شيءٌ من جسمِ طفلِه هذا أو لا؟ الجوابُ: لا، لكن إذا ترتَّب عليه الشِّفاءُ أحبَّه لغيرِه، فهو مرادٌ محبوبٌ لغيرِه، هكذا أيضًا ما يفعلُه اللهُ عزَّ وجلَّ ممَّا لا يتلاءَمُ وطبيعة البشرِ، إنَّما يفعلُه -تبارك وتعالى- لحكمةٍ بالغةٍ، وكم من إنسانٍ اهتدى لمصيبةٍ حصلت له، أو لمرضٍ حصل له! نُحَدَّثُ عن هذا كثيرًا، أنَّ من الأبناء مَنْ هو زائغٌ بمعنى الكلمة، يقولُ لي أحدُ النَّاس: لمَّا مات أبوه وخرج مع النَّاسِ في جنازته ورجع -سبحان الله!- تاب اللهُ عليه، واهتدى بهذه المصيبةِ، فالمصائبُ قد تكونُ عواقبُها حميدةً إلى أبعدِ الحدودِ.

بَقِيَ علينا هل (المريدُ) من أسماءِ الله؟ أو (المريدُ) ممَّا يُخْبَرُ به عن الله؟ الجوابُ: الثَّاني؛ وذلك لأنَّ الإرادةَ تنقسمُ، فأمَّا الأسماءُ فكُلُّها حُسْنَى ليس فيها انقسامٌ، وأمَّا الإرادةُ فتنقسم إلى إرادةِ خيرٍ وإرادةِ شرٍّ، ولأنَّ أسماءَ الله وَصَفَهَا اللهُ تعالى بأنَّها حُسْنَى في ثلاثةِ مواضعَ من القرآنِ: في سورة الأعراف، وفي سورة (طه)، وفي سورة الحشر، فقال جلَّ وعلا في سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقال في سورة (طه): ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨]، وقال في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٢]، إلى أن قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر:٢٤]، ولا يمكنُ أن يكونَ في أسمائِه احتمالُ النَّقصِ بأيِّ وجهٍ؛ ولذلك لم يكن (المريدُ) من أسمائِه، لكن من صفاتِه، والصِّفةُ أوسعُ من الاسمِ، الصِّفةُ يُخْبِرُ اللهُ بها عن الله ولكن لا يُسَمَّى بمدلولِها مريدًا.

قَوْلُهُ: «قَادِرٌ» هذا اسمٌ من أسماءِ الله، والقدرةُ هي فعلُ الفعلِ، أو هي وصفٌ يقومُ بالفاعلِ بلا عجزٍ، وقد وَصَفَ اللهُ نفسَه بأنَّه قادرٌ، وبأنَّه قديرٌ، وبأنَّه مقتدرٌ،

وكُلُّ هذا يعودُ إلى معنًى واحدٍ، وهو فعلُ الفعلِ بلا عجزٍ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، والعجزُ قد يكونُ للجهلِ، لو قلت لواحدٍ لا يعرفُ الهندسةَ: أصلِح لي المسجلَ، وهو قادرٌ لكنَّه لا يعلمُ، هل يمكنُ أن يفعلَ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، ولو قلت لمهندسٍ لكنَّه أشلُّ: أصلح لي المسجلَ؟ هل يمكنُ أن يفعلَ؟ الجوابُ: لا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، فلعلمِه وقدرتِه لا يُعْجِزُه شيءٌ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ، سبحانه وتعالى!

وهل في القُرآنِ ما يدلُّ على أنَّ اللهَ قادرٌ على كُلِّ شيءٍ؟ الجوابُ: نعم، في آياتٍ كثيرةٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة:١٢٠]، فكُلُّ شيءٍ فاللهُ قادرٌ عليه، إعدامًا للموجودِ وإيجادًا للمعدومِ، ولا تَسْتَثْنِ.

لو قال قائلٌ: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قال للرَّجلِ الذي يكونُ آخرَ أهلِ الجنَّةِ دخولًا: «وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1]، وقال اللهُ تعالى في القرآنِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، أفلا يدلُّ هذا على أنَّ القدرةَ مقرونةٌ بالمشيئةِ؛ يعني: أنَّه قادرٌ على ما يشاءُ، وما لا يشاءُ ليس قادرًا عليه؟

الجوابُ: لا، لكن نقولُ: المشيئةُ عائدةٌ إلى الفعلِ لا إلى القدرةِ؛ ولذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشُّورى:٢٩]؛ أي: إذا يشاءُ جمعَهم ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يمتنعُ عليه، فالقيدُ هنا للجمعِ، إذا شاءُ اللهُ جَمَعَهم وإذا شاء لم يجمعْهم، وليس عائدًا على القدرةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٢٠٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم (١٨٧).

وكذلك في قصَّةِ الرَّجلِ الذي قال اللهُ له: «وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»، يعني: إنِّي قد شئتُ وأنا قادرٌ عليه، وإلَّا فالقدرةُ عامَّةٌ في كُلِّ شيءٍ، وبهذا نعرفُ خطأَ مَنْ يختمون كلامَهم أحيانًا فيقولون: (إنَّه على ما يشاءُ قديرٌ)؛ لأنَّ مفهومَه خطرٌ من جهة العقيدةِ؛ ففي قولِهم: (عَلَى مَا يَشَاءُ) قدَّم المعمولَ فاقتضى الحصرَ، وأنَّه ليس قادرًا إلَّا على ما يشاءُ، وهذا غلطٌ، بل نقولُ: هو على كُلِّ شيءٍ قديرٍ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ، ونقولُ لمن قال: (إنَّه على ما يشاءُ قديرٌ): لا تستعملْ هذه العبارةَ.

فإذا قال قائلٌ: يجبُ علينا أن نؤمنَ بالقُدرة، وبإيمانِنا بها نحترزُ من الذُّنوبِ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ اللهَ قادرٌ على عقوبتِنا، لو قال قائلٌ: يونسُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، هل يمكنُ أن يَظُنَّ أحدُ الأنبياءِ والرُّسلِ الكرامِ أنَّ اللهَ لا يقدرُ عليه؟ الجوابُ: لا يمكنُ، لكن نقولُ: القدرةُ هنا بمعنى التَّضييقِ؛ كقولِه تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الشورى:١٢]، وكقولِه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطَّلاق:٧]؛ يعني: ضُيِّقَ ﴿فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطَّلاق:٧]؛ يعني: ظنَّ أنَّ اللهَ يعفو عنه ولا يُضَيِّقُ عليه، ولم يظنَّ أنَّ اللهَ لا يستطيعُ أن يُدْرِكَه.

فإذا قال قائلٌ: أليس الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ. فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَارَبِّ خَشْيَتُكَ. فَغَفَرَ لَهُ»[1] نقولُ: هذا

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٩)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥٦).

الرَّجلُ متأوِّلٌ، وإلَّا فلا شكَّ أنَّه يعلمُ أنَّ اللهَ قادرٌ على أن يعاقبَه، لكنَّه تأوَّل فأخطأ، فَغَفَرَ اللهُ له.

قَوْلُهُ: «مُتكَلِّمٌ» هذا وصفٌ، وليس باسمٍ؛ لأنَّ الكلامَ ينقسمُ إلى لغوٍ، وإثمٍ، وخيرٍ، واللهُ عزَّ وجلَّ لا يتكلَّمُ إلَّا بالخيرِ، ولذلك نقولُ: هو وصفٌ، وليس باسمٍ.

وَقَوْلُهُ: «مُتكَلِّمٌ» هذا أيضًا من الصِّفات التي خاض فيها النَّاسُ خَوْضًا عظيمًا، فأين الدَّليلُ على أنَّ اللهَ متكلِّمٌ؟ الدَّليلُ في القرآنِ الكريمِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، فأكَّدَ الفعلَ بالمصدرِ؛ ولهذا يُسَمِّي النُّحاةُ ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ مصدرًا مؤكِّدًا، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، هذا الكلامُ الذي وقع من الله عزَّ وجلَّ هل وقع بصوتٍ يُسْمَعُ وحرفٍ مرتَّبٍ أو لا؟ الجوابُ: نعم، وقع هكذا بصوتٍ يُسْمَعُ، وحروفٍ مرتَّبةٍ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾؛ أي: البعيدِ، ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢] جعل الله عزَّ وجلَّ يُناجيه، وقرَّبه. فوصف كلامَه -تبارك وتعالى- بأمرين: نداء، ومناجاة، وهذا وصفٌ للصَّوتِ، أمَّا الحرف فكُلُّ ما كلَّمه اللهُ به فهو حروفٌ مرتَّبةٌ بعد بعضٍ.

هذا كلامُ الله عزَّ وجلَّ نحن نؤمنُ به، ونؤمنُ بأنَّ ربَّنا عزَّ وجلَّ يتكلَّمُ متى شاء زمنًا، وبما شاء؛ أي: في أيِّ موضوعٍ يُريدُه، وكيف شاء؛ أي: على أيِّ كيفيَّةٍ؛ إنْ شاء مناداةً وإن شاء مناجاةً، نؤمنُ بهذا، وهو عقيدتُنا التي نرجو اللهَ أن نموتَ عليها وألَّا يزيغَنا عنها، وهل وَصْفُ الله بهذا الوصفِ يُعْتَبَرُ نقصًا في حقِّه؟ الجوابُ: لا، والله هو كمالٌ؛ لأنَّ ضدَّ الكلامِ هو الخرسُ، والخرسُ نقصٌ، فالكلامُ كمالٌ.

والنَّاسُ اختلفوا في كلامِ الله على سبعةِ أقوالٍ أو ثمانيةٍ ذكرها في (**مختصر الصَّواعق المرسلة**)، لكن المشتهرُ منها ثلاثةٌ:

الأوَّل: مذهبُ السَّلفِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ اللهَ تعالى يتكلَّمُ كلامًا حقيقيًّا مسموعًا بالآذان، وبأيِّ صوتٍ شاء، وبأيِّ لغةٍ شاء، ومتى شاء.

الثَّاني: مذهبُ الجهميَّةِ، يقولون: إنَّ كلامَ الله حقٌّ، لكنَّه ليس من أوصافِه، بل هو من أفعالِه، فهو مخلوقٌ من المخلوقاتِ، فكما خَلَقَ الشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ والأرضَ والسَّماءَ خَلَقَ الكلامَ، واللهُ تعالى على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، فالجوُّ يخلقُ اللهُ فيه كَلامًا يسمعُه مَنْ يكلِّمُه اللهُ، ولا تستغرب، الآن يقولون: إنَّ الجوَّ مملوءٌ من أصواتِ النَّاسِ، حتَّى حدَّثنا شيخُنا عبدُ الرحمن بن سِعدي -رحمه الله، المتوفَّى عام (١٣٧٦هـ)- أنَّهم الآن يُحاولون أن يَرْجِعوا كلامَ النَّاسِ المخزون في الجوِّ حتَّى يُسْمَعَ؛ ويعني هذا: أنَّه يمكنُ أن نسمعَ كلامَ الرَّسولِ ﷺ بين أصحابِه، ولا تَسْتَغْرِبْ، فالآن الاتِّصالات بَيَّنَت لنا أشياءَ عظيمةً في هذا الكونِ، وفي أنَّ بين السَّماواتِ والأرضِ أشياءَ عجيبةً عجيبةً عجيبةً اقتضت أن يجعلَ اللهُ ما بين السَّماواتِ والأرضِ قسيمًا للسَّماواتِ والأرضِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الفرقان:٥٩].

فالمهمُّ أنَّ هؤلاء الجهميَّة يقولون: كلامُ الله مخلوقٌ كسائرِ المخلوقاتِ، خَلَقَ اللهُ في هذا الجوِّ أصواتًا، ونسبها إليه تشريفًا وتكريمًا، أمَّا هو نفسُه فلا يتكلَّمُ.

الثَّالث: مذهبُ الأشاعرةِ الذي عليه كثيرٌ من النَّاسِ، ولا سيَّما المتكلِّمون في أصولِ الفقِه حتَّى ممَّن هو على مذهبِ أهلِ السُّنَّة يخطئون في هذا خطًا عظيمًا، يقولون: إنَّ اللهَ تعالى يتكلَّمُ، وكلامُه من صفاتِه، لكنَّه لا يتكلَّمُ بصوتٍ ولا يتكلَّمُ

بحرفٍ، كلامُه هو المعنى القَائِمُ بنفسِه، فهو شيءٌ في نفسِه، ثُمَّ يخلقُ عزَّ وجلَّ أصواتًا مسموعةً وحروفًا مرتَّبةً تدلُّ على ما في نفسِه.

وحقيقةُ الأمرِ أنَّهم نَفَوُا الكلامَ كما قال بعضُ المحقِّقين المنصِفين منهم، قال: «**إنَّه ليس بيننا وبين الجهميَّةِ فرقٌ، فكُلُّنا متَّفقون على أنَّ ما في المصحفِ ليس كلامَ الله، لكن نحن نقول: إنَّه مخلوقٌ، وأنتم تقولون: إنَّه عبارةٌ عن كلامِ الله، وليس كلامَ الله**».

هذان مذهبان، ولا شكَّ في بطلانِهما؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ولـمَّا حرَّف بعضُهم هذه الآيةَ وقال: إنَّ صوابَها (**وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا**)، قال ذلك حتَّى ينقلبَ المعنى، فيكون المتكلِّمُ موسى، فقال له بعضُ علماءِ السَّلفِ: وماذا تقولُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]؟ فَبُهِتَ الرَّجلُ، وما استطاع أن يجيبَ؛ لأنَّه لا أحدَ يدَّعي أنَّ الهاءَ في (**كلَّمه**) فاعلٌ، لا يمكن أن يقولَ ذلك أحدٌ.

فالحاصلُ أنَّ هؤلاء حرَّفوا، وإذا سَأَلْتَهُم: ما معنى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ [النَّساء:١٦٤]؟ قالوا: الكَلْمُ في اللُّغةِ: الجرح.

واقرأ قولَ النَّبيِّ ﷺ: «**لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الله -وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ- إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ**»[1]، ومعنى «**يُكْلَمُ**»: يُجْرَحُ، قال: وأمَّا قولُه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ فاستعارةٌ، فـ(**كَلَّمَه**)؛ أي: جَرَّحَه بمخالبِ الحكمةِ، سبحان الله! ما معنى جَرَّحَه؟ معقولٌ هذا؟ لكن نسألُ اللهَ لنا ولكم الهدايةَ، ومن أزاغ اللهُ قلبَه رأى الباطلَ حقًّا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٣).

فنقولُ: إنَّ اللهَ كَلَّمَ موسى، وكَلَّم محمَّدًا ﷺ، وكلَّم آدمَ، ويُكَلِّمُ مَنْ شاء، هذه عقيدتُنا في كلامِ الله عزَّ وجلَّ؛ ولذلك قال المؤلِّفُ: (مُتكَلِّمٌ).

وهل الكلامُ يتعلَّقُ بمشيئتِه؟ نقولُ: أمَّا على مذهبِ الجهميَّةِ والمعتزلةِ وأهلِ السُّنَّةِ فإنَّه يتعلَّقُ بمشيئتِه، وأمَّا على مذهبِ الأشعريَّة فلا يتعلَّقُ بمشيئتِه؛ لأنَّه معنًى قَائِمٌ بنفسِه كقيامِ العلمِ بها، لا يتعلَّقُ بمشيئتِه.

قَوْلُهُ: «ذُو رَحْمَةٍ»؛ يعني: صاحب رحمةٍ، وواضحٌ أنَّ هذا وصفٌ، ورحمةُ الله عزَّ وجلَّ نوعان: عامَّةٌ، وخاصَّةٌ، فبالعامَّةِ رَحِمَ جميعَ الخلقِ حتَّى الكُفَّارَ والفُسَّاقَ والفُجَّارَ، رَحِمَهم اللهُ برحمته العامَّةِ، والخاصَّة رَحِمَ بها المؤمنين، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣].

قَوْلُهُ: «وَإِرَادَةٍ» سبقت الإرادةُ في قوله: (مُرِيدٌ).

قَوْلُهُ: «وَحَنَانِ» الحنانُ هو العطفُ والرَّأفةُ والإشفاقُ، فهو -جلَّ وعلا- ذو حنانٍ، ولكن هل يُوصَفُ بأنَّه (حَنَّانٌ)؟ هذا لم يثبت عن النَّبيِّ ﷺ، وأمَّا ما نسمعُه في دعاء بعضِ النَّاسِ: (يا حَنَّانُ، يا مَنَّانُ) فلا أصلَ له، أمَّا (مَنَّان) فثَبَتَت[1] لا شكَّ فيها.

٣٢٢٧- هُــوَ أَوَّلٌ هُــوَ آخِــرٌ هُــوَ ظَـاهِرٌ هُــوَ بَـاطِنٌ هِــيَ أَرْبَــعٌ بِــوِزَانِ

وهذه مذكورةٌ في قولِه تعالى في سورةِ الحديد: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، وهذا من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ المزدوجة، الاسمان الأوَّلان

(١) كما في حديث أنس بن مالك، قال: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِأَبِي عَيَّاشٍ زَيْدِ بْنِ صَامِتٍ الزُّرَقِيِّ وَهُوَ يُصَلِّي، وَهُوَ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، يَا مَنَّانُ، يَا بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى». أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٥، رقم ١٣٨٣٤).

أحاطا بالزَّمانِ، والاسمان الآخِرانِ أحاطا بالمكانِ، فهو -سبحانه وتعالى- محيطٌ بكُلِّ شيءٍ زمنًا وبكُلِّ شيءٍ مكانًا، و(**الأَوَّلُ**) ضدُّه (**الآخِرُ**)، و(**الظَّاهِرُ**) ضدُّه (**البَاطِنُ**)، واقرأ لتفسيرها، قال:

٣٢٢٨- مَـا قَبْلَـهُ شَيْءٌ كَـذَا وَمَـا بَعْـدَهُ شَيْءٌ تَعَـالَى اللهُ ذُو السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**مَا قَبْلَهُ شَيْءٌ**»، هذا تفسيرٌ لـ(**الأَوَّل**)، فالأوَّلُ ليس قبلَه شيءٌ.

قَوْلُهُ: «**كَذَا مَا بَعْدَهُ شَيْءٌ**»، وهذا تفسيرٌ لـ(**الآخِر**).

قَوْلُهُ: «**تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ**» (**تَعَالَى اللهُ**)؛ أي: تَرَفَّعَ عن كُلِّ نقصٍ، و(**تَعَالَى**) قد تكونُ أبلغَ من (**عَلَا**)؛ لأنَّ التَّعالِيَ تَرَفُّعٌ، فهو -سبحانه وتعالى- متعالٍ عن كُلِّ نقصٍ.

٣٢٢٩- مَـا فَوْقَـهُ شَيْءٌ كَـذَا مَـا دُونَـهُ شَيْءٌ وَذَا تَفْسِـيرُ ذِي الْبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ**» هذا تفسيرٌ لـ (**الظَّاهِر**).

قَوْلُهُ: «**كَذَا مَا دُونَهُ شَيْءٌ**» ما معنى ما دونه شيء؟ أي: إنَّه عزَّ وجلَّ لا يحولُ بينه وبين سلطانِه وعلمِه وقُدرتِه وبصرِه وسمعِه شيءٌ، فكُلُّ شيءٍ عنده معلومٌ مرئيٌّ مبصَرٌ مُحَاطٌ به من كُلِّ ناحيةٍ.

يقول النَّاسُ: (**أنا ما أقطع دونَك شيئًا**)، (**دونك**)؛ أي: دون علمِك وأمرِك وما أشبهَ ذلك، وليس معنى (**ما دونه**) في الصِّغرِ كما يقولُ بعضُ أهلِ التَّحريفِ، (**ما دونه**)؛ أي أنَّه لا يُرَى؛ لأنَّه لطيفٌ خَفِيٌّ، أعوذُ بالله، فهذا لم يُرِدْهُ الرَّسولُ، ولا يمكنُ أن يُرَادَ، إذا كانت السَّماواتُ والأرضُ في كفِّ الرَّحمنِ كخردلةٍ، فكيف يُقَالُ: إنَّه لا يُرَى؟! نسألُ اللهَ العافيةَ.

إِذَنْ هو الباطنُ (لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ)؛ أي: إنَّه محيطٌ بكُلِّ شيءٍ، ولا يخفى عليه شيءٌ، ولا يُعجزُه شيءٌ، وليس معنى الباطن الخفيّ؛ لأنَّ الخفاءَ يضادُّه الظُّهورُ، فهو -سبحانه وتعالى- أبينُ الأشياءِ، وأوضحُ الأشياءِ، كيف وفي كُلِّ شيءٍ له آيةٌ، لكن معنى الباطن أنَّه محيطٌ بكُلِّ شيءٍ، لا يخفى عليه شيءٌ، فليس دونَه؛ أي: ليس دونَ علمِه، ولا قُدرتِه، ولا سُلطانِه، ولا سَمعِه، ولا بصرِه، ولا جميع صفاتِه، ليس دونَه شيءٌ.

قَوْلُهُ: «**وَذَا تَفْسِيرُ ذِي الْبُرْهَانِ**»؛ يعني: الرَّسولَ -عليه الصلاة والسلام-.

٣٢٣٠- فَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِهِ بِتَدَبُّرٍ وَتَبَصُّرٍ وَتَعَقُّلٍ لِمَعَانِ

قَوْلُهُ: «**فَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِهِ**»؛ أي: تفسيرِ النَّبِيِّ ﷺ، وقد فسَّرها النَّبِيُّ ﷺ بنفسِه، وهو أعلمُ الخلقِ بكلامِ الله عزَّ وجلَّ، فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»[1]، هذا هو المعنى الذي لا يمكنُ سواه؛ لأنَّه (**تَفْسِيرُ ذِي الْبُرْهَانِ**) كما قال المؤلِّفُ رحمه الله.

قَوْلُهُ: «**بِتَدَبُّرٍ**»، وهذا محلُّه القلبُ.

قَوْلُهُ: «**وَتَبَصُّرٍ وَتَعَقُّلٍ لِمَعَانِ**»، هذا محلُّه العقلُ.

يعني: انظُر بعين البصيرة متدبِّرًا متعقِّلًا للمعاني حتَّى يتبيَّنَ لك عِظَمُ هذه الأسماءِ الأربعةِ، فانظر إلى تفسيرِه تجد أنَّه أعظمُ التَّفاسيرِ وأبينُها وأوضحُها؛ ولهذا يقول:

٣٢٣١- وَانْظُرْ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَعْـ ـرِفَةٍ لِخَالِقِنَا الْعَظِيمِ الشَّانِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

فإنَّ هذه الأسماءَ الأربعةَ تتضمَّنُ الإحاطةَ العامَّةَ زمانًا ومكانًا، زمانًا في (الأوَّل) و(الآخِر)، ومكانًا في (الظَّاهِر) و(الباطِن).

* * *

٣٢٣٢- وَهُـوَ العَـلِيُّ فَكُـلُّ أَنْـوَاعِ العُلُـوْ ... وِ لَـهُ فَثَابِتَـةٌ بِـلا نُكْـرَانِ

٣٢٣٣- وَهُوَ العَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى يُوجِبُ التْـ ... ـتَعْظِيمَ لا يُحْصِيهِ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٢٣٤- وَهُوَ الجَلِيلُ فَكُلُّ أَوْصَـافِ الجَـلا ... لِ لَـهُ مُحَقَّقَـةٌ بِـلا بُطْـلانِ

٣٢٣٥- وَهُوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيْفَ لا ... وَجَمَـالُ سَـائِرِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

٣٢٣٦- مِـنْ بَعْـضِ آثَـارِ الجَمِيـلِ فَرَبُّهَـا ... أَوْلَى وَأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي[1] العِرْفَانِ

٣٢٣٧- فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالأَوْصَـافِ وَالـ ... أَفْعَـالِ وَالأَسْـمَاءِ بِالبُرْهَـانِ

٣٢٣٨- لا شَيْءَ يُشْـبِهُ ذَاتَـهُ وَصِـفَاتِهِ ... سُـبْحَانَهُ عَـنْ إِفْـكِ ذِي بُهْتَـانِ

٣٢٣٩- وَهُوَ المَجِيدُ صِفَاتُهُ أَوْصَـافُ تَعْـ ... ـظِيمٍ فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَـمُ شَـانِ

الشَّـرحُ

٣٢٣٢- وَهُـوَ العَـلِيُّ فَكُـلُّ أَنْـوَاعِ العُلُـوْ ... وِ لَـهُ فَثَابِتَـةٌ بِـلا نُكْـرَانِ

قَوْلُهُ: «العَلِيُّ» سبق لنا أنَّه عزَّ وجلَّ عليٌّ، وذكرنا الأدلَّةَ على هذا مثل قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقولِه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وذكرنا أدِلَّةَ العلوِّ الخمسةَ.

---

(١) في نسخة الإفتاء «يا ذوي».

قَوْلُهُ: «**فَكُلُّ أَنْوَاعِ العُلُوِّ لَهُ فَثَابِتَةٌ بِلَا نُكْرَانِ**» كُلُّ أنواعِ العلوِّ ثابتةٌ له بلا نكرانٍ، وذكرنا فيما سَبَقَ علوَّ الذَّاتِ وعلوَّ الصِّفةِ، وهذا التَّقسيمُ الذي ذكرناه محيطٌ بكُلِّ شيءٍ من أنواع العلوِّ، لكنَّ بعضَهم قال: إنَّ له علوَّ الذَّاتِ، وعلوَّ القدرِ، وعلوَّ القهرِ، فعلوُّ الذَّاتِ؛ يعني: أنَّه بذاتِه فوق كُلِّ شيءٍ، وعلوُّ القهرِ؛ يعني: أنَّه قاهرٌ لكُلِّ شيءٍ غالبٌ له، وعلوُّ القدرِ؛ يعني: أنَّ قَدْرَه فوق كُلِّ قدرٍ، لا ينالُه أحدٌ في قدرِه، لكن ما ذكرناه أولى؛ لأنَّه أشملُ وأعمُّ أنَّ له علوَّ الذَّاتِ وعلوَّ الصِّفاتِ، وهذا أخصرُ، فيشملُ جميعَ الصِّفاتِ، فهو عالٍ في سمعِه، عالٍ في بصرِه، عالٍ في جميعِ صفاتِه.

٣٢٣٣- وَهُوَ العَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى يُوجِبُ التْـ ... ـتَعْظِيمَ لا يُحْصِيهِ مِنْ إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ العَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى**»، فهو عزَّ وجلَّ عظيمٌ في ذاتِه، عظيمٌ في صفاتِه، عظيمٌ في أفعالِه، قال اللهُ تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨].

فـ«**العظيم**» من أسماءِ الله، وقد تكرَّرَ في القرآنِ الكريمِ كثيرًا، ويجمعُ اللهُ بينه وبين «**العَلِيِّ**»؛ لما في العلوِّ من الكمالِ الذَّاتيِّ والوصفيِّ، ولما في «**العظيم**» من العظمةِ، فكُلُّ أوصافِ التَّعظيمِ فهي ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ، والعظمةُ تكونُ لله وتكونُ لغيرِه، لكنَّ العظمةَ لله لا يشبهُها شيءٌ، قال اللهُ تعالى عن الهدهدِ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢]، وقال عن عرشِ بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النَّمل:٢٣]، وقال عن العرشِ: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، فهذا العِظَمُ يكونُ لله ولغيرِه، لكنَّ العظمةَ الخاصَّةَ بالله عظمةٌ لا تساويها عظمةٌ.

فهو عظيمٌ بكُلِّ معنى يُوجِبُ التَّعظيمَ، هذا العِظَمُ يوجبُ للإنسانِ شَيْئَيْنِ: الاجتهادَ في الطَّلَبِ، والاجتهادَ في الهربِ، كيف ذلك؟ الاجتهادُ في الطَّلَبِ أنَّ الإنسانَ لِعِظَمِ ربِّه يلجأُ إليه ويحبُّه عزَّ وجلَّ، ويعلمُ أنَّه لا أحدَ أعظمُ منه، وفي الهربِ يخاف منه؛ لأنَّه عظيمٌ فيتجنَّب مخالفتَه سبحانه وتعالى، ويبتعد عن مخالفتِهِ؛ لأنَّه أعظمُ من كُلِّ شيءٍ؛ ولهذا قال: «**بِكُلِّ مَعْنًى يُوجِبُ التَّعْظِيمَ**»، فكُلُّ معنًى يوجبُ التَّعظيمَ فاللهُ -سبحانه وتعالى- مُتَّصِفٌ به.

قَوْلُهُ: «**لَا يُحْصِيهِ مِنْ إِنْسَانِ**»؛ يعني: لا أحدَ يُحْصِي تعظيمَ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه شاملٌ عامٌّ.

٣٢٣٤- وَهُوَ الجَلِيلُ فَكُلُّ أَوْصَافِ الجَلا لِ لَهُ مُحَقَّقَةٌ بِلا بُطْلانِ

قَوْلُهُ: «**الجَلِيلُ**»؛ يعني: المُعَظَّمَ؛ ولهذا يقولُ النَّاسُ: فلانٌ أجلُّه؛ يعني: أعظِّمه، فالجلالُ بمعنى التَّعظيم، ولكن هل من أسماءِ الله «**الجليل**»؟

بحثت فلم أجد شيئًا[1]، ولكن فوق كُلِّ ذي علمٍ عليمٌ، إنَّما الذي جاء في القرآنِ والسُّنَّةِ هو ذو الجلالِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٢٧]، وقال تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٨]، وهنا نسألُ: لماذا قال في الأولى: ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾، وفي الثَّانية: ﴿ذِى ٱلْجَلَـٰلِ﴾؟ الجوابُ: أنَّ ﴿ذُو﴾ الأولى صفةٌ للوجهِ، و﴿ذِى﴾ الثَّانية صفةٌ للرَّبِّ وليس للاسمِ.

وهل يجوزُ أن نقولَ: «**جَلَّ فلانٌ**» أو «**تَقَدَّسَ فلانٌ**»؟ الجوابُ: أمَّا «**جَلَّ فلانٌ**» فيصحُّ؛ لأنَّ «**جَلَّ**»؛ أي: صار ذا جلالةٍ، فهذا ممكنٌ، فتقول: «**فلانٌ جليلٌ**»، فهذا يُوصَفُ به غيرُ الخالقِ.

---

(١) انظر: القاعدة السادسة من قواعد الأسماء من كتاب القواعد المثلى للشَّارح رحمه الله.

أَمَّا «تَقَدَّسَ فلانٌ» فلا يصحُّ؛ لأنَّ «تَقدَّسَ» ما يُوصَفُ بها إلَّا اللهُ؛ ولأنَّ التَّقدُّسَ معناه التَّطهُّرُ من كُلِّ عيبٍ، وهذا لا يليقُ إلَّا بالله.

إذَنْ هو -سبحانه وتعالى- ذو الجلال؛ أي: المستحقُّ للتَّعظيمِ غاية التَّعظيمِ، والجلالُ هو كمالُ السُّلطانِ، فالجلالُ كُلُّه ثابتٌ لله عزَّ وجلَّ، وإذا آمنت بذلك لَزِمَك أن تخشى اللهَ وتخافَه؛ لأنَّه جليلٌ.

و﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ له معنيان: إكرامُ الطَّائعين من عبادِه، وإكرامُ عبادِه له، فهو ذو كرمٍ على عبادِه، وعبادُه مكرمون له عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] يكرمُهم اللهُ، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠-١١]، وهو -سبحانه وتعالى- مكرِمٌ لمن يستحقُّ الإكرامَ من عبادِه، فكُلُّ أوصافِ الجلالِ له محقَّقةٌ بلا بطلانٍ.

٣٢٣٥- وَهُوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيْفَ لا وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

٣٢٣٦- مِنْ بَعْضِ آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّهَا أَوْلَى وَأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي العِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «وَهْوَ الجَمِيلُ» الجميلُ من أسماءِ الله، وصفتُه الجمالُ، لـمَّا تحدَّث النَّبيُّ ﷺ عن الكِبْرِ **«قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً»** وهذا صحيحٌ، فالصَّحابةُ يحبُّون أن تكونَ ثيابُهم حسنةً ونعالُهم حسنةً، وبعضُ الزُّهَّادِ والمتصوِّفةِ يقولُ: البس الخياشَ والصُّوفَ، لا تكن ثيابُك حسنةً ولا نعلُك حسنةً، وأيُّهما أهدى؟ الجوابُ: الصَّحابةُ بلا شكٍّ، قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- جوابًا لسؤالِهم: **«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ»**[1]؛ يعني: يحبُّ أن يتجمَّلَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

الإنسانُ، فتجمَّلوا بثيابِكم ونعالِكم وسياراتِكم، وكُلِّ ما يتَّصلُ بكم، فإنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، لكن لا تصلوا إلى حدِّ الإسرافِ.

إِذَنْ «الجميلُ» من أسماءِ الله، والجمالُ وصفٌ محمودٌ مطلوبٌ، كُلٌّ يبتغي الجمالَ حتَّى في المصنوعاتِ، فكُلٌّ يحبُّ أن يكونَ معه ساعةٌ جميلةٌ، قلمٌ جميلٌ، كتابٌ جميلٌ، فالجمالُ مرادٌ حتَّى في المركوباتِ: الإبل، والبقر، والغنم، فالنَّاسُ يميلون إلى الجميلِ، حتَّى الأشجار بعضها جميلٌ وبعضها غيرُ جميلٍ.

قَوْلُهُ: «**كَيْفَ لَا وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ مِنْ بَعْضِ آثَارِ الجَمِيلِ**»؛ أي: كيف لا يكونُ جميلًا، وجمالُ سائرِ هذه الأكوانِ من بعضِ آثارِ الجميلِ؟! كُلُّ جمالٍ في الكونِ فهو من آثارِ جمالِ الله عزَّ وجلَّ، لكنَّه ليس هو جمالَ الله، بل هو جمالٌ في مخلوقٍ، لكنَّه من آثارِ الجميلِ عزَّ وجلَّ.

فهو عزَّ وجلَّ جميلٌ، ولكنَّ جمالَه ليس كجمالِ المخلوقين، بل هو أعظمُ، شيءٌ لا يدورُ بالخيال، ولا يمكنُ أن يدركَه الفكرُ؛ ولهذا تجد أنعمَ ما يكونُ لأهلِ الجنَّةِ أن ينظروا إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ، هذا يفوقُ النَّعيمَ الذي كانوا فيه، وهم في نعيمٍ، قال اللهُ تعالى عنه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدة:١٧]، وقال في الحديث القدسيِّ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١).

قَوْلُهُ: «**فَرَبُّهَا أَوْلَى وَأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي العِرْفَانِ**»؛ يعني: معطي الجميلِ أولى بالجمالِ، هذا معنى كلام المؤلِّف رحمه الله؛ ولذلك لا ترى أهلَ الجنَّةِ -جعلني اللهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

وإيَّاكم منهم- لا ترى عندهم ألذَّ من رؤيةِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم يَرَوْنَ أحبَّ الأشياءِ إليهم وأجملَ الأشياءِ وأعظمَ الأشياءِ، وهل يمكنُ أن يتصوَّرَ الإنسانُ جمالَ الله عزَّ وجلَّ؟ لا يمكنُ أبدًا، ولا يمكنُ أن يحيطَ به؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠].

يقول شيخُنا عبد الرحمن السِّعديُّ رحمه الله: إنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله تعالى- جَمَعَ بين «**الجميل**» و«**الجليل**»؛ لأنَّ «**الجميلَ**» يستلزمُ الطَّلبَ والوصولَ إليه عزَّ وجلَّ، و«**الجليل**»؛ يعني: المعظَّمَ، وهذا يستلزمُ الخوفَ منه والهربَ من معاصيه، وأصلُ هذا أنَّ الشَّرائعَ كُلَّها مَبْنيَّةٌ على الخوفِ والرَّجاءِ، العملُ الصَّالحُ يفعلُه الإنسانُ؛ ليصلَ إلى الله عزَّ وجلَّ والمعاصي «**المنهيات**» يتركُها؛ خوفًا من الله عزَّ وجلَّ.

٣٢٣٧- فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالأَوْصَافِ وَالـ أَفْعَالِ وَالأَسْمَاءِ بِالبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «**فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ**»؛ يعني: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جميلٌ بذاتِه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أَضَافَ الجمالَ إلى الله، والأصلُ أنَّ الوصفَ المضافَ إلى الموصوفِ يكونُ متعلِّقًا بذاتِه، فجمالُه بالذَّاتِ.

قَوْلُهُ: «**الأَوْصَافِ**» كُلُّ أوصافِه حُسْنَى، وحُسْنُ الأوصافِ جمالُها، فهو عزَّ وجلَّ جميلٌ بصفاتِه كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الروم:٢٧]، فجمالُ الصِّفاتِ أنَّها صفاتٌ كاملةٌ لا نقصَ فيها بوجهٍ من الوجوهِ.

قَوْلُهُ: «**الأَفْعَالِ**»، وكذلك أفعالُه، فكُلُّ أفعالِه جميلةٌ، ليس فيها شيءٌ مكروهٌ، ليس فيها شيءٌ مُبْغَضٌ؛ لأنَّ أفعالَ الله عزَّ وجلَّ دائرةٌ بين أمرين لا ثالثَ لهما: العدل، والإحسان، العدلُ والإحسانُ هل فيهما قبيحٌ؟ الجوابُ: لا، إمَّا عدلٌ

بلا ظلمٍ، وإمَّا إحسانٌ وإفضالٌ، وهذا ليس فيه شيءٌ من القبحِ، هذا هو جمالُ الفعلِ، وأفعالُه كُلُّها حميدةٌ، كُلُّها لحكمةٍ وغايةٍ.

قَوْلُهُ: «**الأَسْمَاءِ**» أيضًا أسماؤه كُلُّها جميلةٌ، ولهذا وَصَفَهَا اللهُ تعالى بالحُسْنَى في أربعةِ مواضعَ، و«**الحُسْنَى**» مؤنَّث: «**أحسن**»، و«**أَحْسَنُ**»: صيغةُ اسمُ تفضيلٍ؛ إِذَنْ كُلُّ ما تتصوَّر من حسنٍ في أسماءٍ فأسماءُ الله فوقه، له الأسماءُ الحُسْنَى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، فهو جميلٌ في هذه الأمورِ الأربعة: الذَّاتِ، والأوصافِ، والأفعالِ، والأسماءِ.

٣٢٣٨- لا شَيْءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «**لَا شَيْء يُشْبِهُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ**» «**لَا**»: نافيةٌ للجنسِ، واسمُها أعمُّ الأسماءِ وهو كلمةُ «**شَيْءَ**».

يقول رحمه اللهُ: لا شيءَ من المخلوقاتِ كُلِّها يُشْبِهُ ذاتَه بالنِّسبة للذَّواتِ وصفاتِه بالنِّسبة للصِّفاتِ، فكُلُّ ما في الكونِ من ذواتٍ لا يمكنُ أن تُشْبِهَ الخالقَ، وكُلُّ ما في الكونِ من صفاتٍ لا يمكنُ أن تُشْبِهَ صفاتِ الخالقِ.

قَوْلُهُ: «**سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي البُهْتَانِ**»؛ أي: تنزيهًا له عن إفكِ ذي البُهْتَانِ، وهم المُشَبِّهةُ والمعطِّلةُ أيضًا، حتَّى المعطِّلة يُشَبِّهونَ اللهَ، لماذا عَطَّلَ المعطِّلةُ صفاتِ اللهِ؟ الجوابُ: إِذَنْ شبَّهوا أوَّلًا حيث اعتقدوا أنَّ الإثباتَ يستلزمُ التَّشبيهَ، وعطَّلوا ثانيًا، إِذَنْ اللهُ منزَّهٌ عن تعطيلِ المعطِّلين، وعن تمثيلِ الممثِّلين.

٣٢٣٩- وَهُوَ المَجِيدُ صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تَعْـ ـظِيمٍ فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ

من أسمائِه عزَّ وجلَّ المجيدُ، قال اللهُ تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]،

و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بالرَّفع صفةٌ لـ«ذو»؛ يعني: أنَّ اللهَ من أسمائِه «المجيد»، والمجدُ هو العظمةُ والسُّلطانُ؛ ولهذا تجدون في سورة «البروج» أنَّه ذَكَرَ «المجيدَ» من أسماءِ الله، وذَكَرَ وَصْفَ القرآنِ بأنَّه مجيدٌ؛ لأنَّ المقامَ يقتضي ذِكْرَ ما فيه العظمةُ والسُّلطانُ حتَّى لا يتقدَّمَ أحدٌ بمثلِ ما تقدَّم به مَنْ نكَّلوا بأصحابِ الأخدودِ، فالسُّورة كُلُّها تدلُّ على عظمةٍ وعلوٍّ وارتفاعٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج:١]، أي: العالية، وامشِ مع السُّورةِ تجد أنَّها كُلَّها تُوجِبُ قوَّةَ عظمةِ الله تعالى وسلطانِه.

و«المَجِيدُ» هو كاملُ القوَّةِ والسُّلطانِ، واقرأ الحديثَ الصَّحيحَ في سورةِ الفاتحة: «...فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَـمِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي...»[1]؛ لأنَّ العظمةَ والسُّلطانَ لربِّ العالمين، وتكونُ في يومِ القيامةِ أظهرَ وأولى وأبينَ وأجلى، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، المَلِكُ وأدنى واحدٍ من الفرَّاشين أو من الكنَّاسين كُلُّهم في صعيدٍ واحدٍ لا يخفى على الله منهم شيءٌ، ويقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ لا يجيبُه أحدٌ، ليس هناك ملكٌ، فيجيب نفسَه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

فتأمَّل قوله: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» قال: «مَجَّدَنِي عَبْدِي»، فهو قوَّةُ العظمةِ والسُّلطانِ، فهو عزَّ وجلَّ مجيدٌ، له قوَّةُ العظمةِ والسُّلطان؛ ولهذا قال المؤلِّفُ: «صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تَعْظِيمٍ فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ»؛ ولهذا نقولُ: أسماءُ الله كُلُّها دالَّةٌ على أوصافِه، ليس فيها اسمٌ جامدٌ، بل هي مشتملةٌ على أوصافٍ عظيمةٍ يتبيَّنُ بها كمالُ الرَّبِّ -جلَّ وعلا- بخلافِ أسمائِنا، فأسماؤنا أسماءٌ جامدةٌ، أو مشتقَّةٌ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٤).

لا تدلُّ على معناها، منَّا مَنْ يُسَمَّى «خالدًا»، وهل يُخَلَّدُ؟ لا، ومنَّا مَنْ يُسَمَّى «محمَّدًا»، وقد يكونُ مذممًّا، ومنَّا مَنْ يُسَمَّى «عبد الله»، وقد يكونُ أكفرَ عبادِ الله، فالمهمُّ أنَّ أسماءَ الله تعالى متضمِّنةٌ لأوصافِه الجليلةِ العظيمةِ، ليس فيها اسمٌ جامدٌ أبدًا، ولا اسمٌ لم يتحقَّق معناه الذي دَلَّ عليه بخلافِ أسماءِ غيرِه.

ولهذا قال المؤلِّف: «**فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ**»؛ يعني: إيَّاك أن تُثْبِتَ أسماءً بلا أوصافٍ، لولا ما تحملُه هذه الأسماءُ من المعاني والأوصاف لكانت أسماءً جامدةً لا تدلُّ إلَّا على الذَّاتِ فقط.

اجعل قولَه: «**فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ**» اجعله قاعدةً، أنَّ من أَبْلَغِ ما يكونُ في أسماءِ الله اشتمالَها على الأوصافِ العظيمةِ.

* * *

٣٢٤٠- **وَهُوَ السَّمِيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا ... فِي الكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلانِ**[(١)]

٣٢٤١- **وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ ... فَالسِّرُّ وَالإِعْلانُ**[(٢)] **مُسْتَوِيَانِ**

٣٢٤٢- **وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعُ الأَصْوَاتِ لا ... يَخْفَى عَلَيْهِ بَعِيدُهَا وَالدَّانِي**

٣٢٤٣- **وَهُوَ البَصِيرُ يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السْـ ... ـسَوْدَاءِ تَحْتَ الصَّخْرَةِ الصَّوَّانِ**

٣٢٤٤- **وَيَرَى مَجَارِي القُوتِ فِي أَعْضَائِهَا ... وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا**[(٣)] **بِعِيَانِ**

٣٢٤٥- **وَيَرَى خِيَانَاتِ العُيُونِ بِلَحْظِهَا ... وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ**

---

(١) في نسخة الإفتاء «في الكون عالي مع التحتاني»

(٢) في نسخة السفارينية والتيمورية «فالجهر والإسرار».

(٣) في نسخة السفارينية والتيمورية والإفتاء «عروق نياطها».

الشـــرحُ

في هذه الأبياتِ ذَكَرَ -رحمه الله- اسمين من أسماءِ الله، وهما: «**السَّميعُ**»، و«**البصير**»، وما أكثر ما يقترنُ هذان الاسمان في كتابِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ بـ«**السَّميع**» إدراكَ المسموعاتِ، وبـ«**البصير**» إدراكَ المرئيَّاتِ.

٣٢٤٠- وَهُوَ السَّمِيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا فِي الكَـوْنِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلانِ

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ السَّمِيعُ**»، **ثُمَّ قال بعد ذلك**: «**وَهُوَ البَصِيرُ**»، وإنَّما قَدَّمَ المؤلِّفُ: «**يَرَى**» وهي متعلِّقةٌ بالبصرِ؛ إمَّا لضيقِ النَّظمِ، أو لغيرِ ذلك، المهمُّ أنَّه عزَّ وجلَّ سميعٌ يسمعُ بسمعٍ، و«**يسمعُ**» هذا هو الحكم، والأثر النَّاتج عن اتِّصافِهِ بالسَّمعِ.

وسَمْعُ الله عزَّ وجلَّ ثابتٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأُمَّةِ، وما أكثَرَ ما نقرأُ في القرآنِ قولَه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]، وقولَه: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، وقولَه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]، والنَّبِيُّ ﷺ يُكَرِّرُ في كُلِّ صلاةٍ قولَ: «**سَمِعَ اللهُ لِـمَنْ حَمِدَهُ**»[١].

واعلم أنَّ سمعَ الله عزَّ وجلَّ ينقسمُ إلى قسمين: **أحدهما**: ما ذَكَرَهُ المؤلِّفُ -رحمه الله- وهو إدراكُ المسموعاتِ، **والثَّاني**: إجابةُ الدَّعواتِ، فهو سميعٌ بمعنى مجيب الدَّعواتِ، أمَّا السَّمعُ الذي هو إدراكُ المسموعاتِ فإنَّه ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسام:

قسمٌ يُرادُ به النَّصرُ والتَّأييدُ، وقسمٌ يُرادُ به التَّهديدُ والوعيدُ، وقسمٌ يُرادَ به بيانُ إحاطة الله -تبارك وتعالى- بكُلِّ مسموعٍ من خيرٍ وشرٍّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

القسم الأوَّل: يُرَادُ به النَّصرُ والتَّأييدُ، ومنه قولُ الله -تبارك وتعالى- لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، قال ﴿أَسْمَعُ﴾ السَّمعُ هنا يُرَادُ به النَّصرُ والتَّأييدُ، فليس اللهُ تعالى يخبرُهما أنَّه يسمعُ بمجرَّدِ أن يعلمَ بذلك لكن ليطمئنَّا ويعلما أنَّ اللهَ سوف ينصرُهما ويؤيِّدُهما.

الثَّاني: بالعكس، وهو ما يُرَادُ به الوعيدُ والتَّهديدُ مثل قولِ الله -تباركَ وتعالى-: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، ومثل قولِ الله -تبارك وتعالى-: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [آل عمران:١٨١]، فقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [آل عمران:١٨١] تهديدًا لهم.

وهذان القسمان متقابلان.

القسم الثَّالث: ما يُرَادُ به بيانُ إحاطةِ سمعِ الله تعالى بكُلِّ شيءٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، هذه المرأةُ جاءت تشتكي إلى الرَّسولِ ﷺ زوجَها؛ لأنَّه قد ظَاهَرَ منها بعد أن كَبِرَتْ سِنُّها، والظِّهارُ في الجاهليةِ طلاقٌ بَائِنٌ، فجاءت تشتكي إلى الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وتُحاورُه، تراجُعه في الكلامِ، أين أذهب؟ كَبِرَت سنُّها وكَثُرَ عيلُها، فماذا تصنعُ؟ ذكر المفسِّرون أنَّ الرَّسولَ ﷺ قال لها: «مَا أَرَى زَوْجَكِ إِلَّا قَدْ طَلَّقَكِ» بناءً على المعروفِ عند النَّاسِ؛ لأنَّ الألفاظَ تُحْمَلُ على العرفِ، والنَّبيُّ ﷺ لم ينزل عليه في ذلك قرآنٌ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ[1]: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة:١] مصدَّرةً بالتَّحقيقِ في قولِه: ﴿قَدْ﴾،

(١) أخرجه البيهقي (٧/ ٦٢٩، رقم ١٥٢٤٥).

ثُمَّ أكَّد هذا بأنَّه لم يزل يسمعُ، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١]، تقولُ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ المُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ البَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة:١]»[1]، وهي جنبُها، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ من فوق سبعِ سمواتٍ لا يخفى عليه حديثُها، هذا المرادُ به بيانُ إحاطةِ سمعِ الله تعالى بكُلِّ مسموعٍ.

وإنَّنا إذا آمَنَّا بهذا -ونحن إنْ شاء اللهُ تعالى مؤمنون به- إذا آمنَّا بهذا، فإنَّ إيمانَنا به يستلزمُ أن نتأدَّبَ مع الله، فلا نُسْمِعُ اللهَ عزَّ وجلَّ ما يكرهُه، بل لا نُسْمِعُه إلَّا ما يَرْضَى به -تبارك وتعالى-، وهذا هو ثمرةُ الإيمانِ بهذا الاسمِ وهذه الصِّفةِ.

إِذَنْ سمعُ الإدراكِ ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ، احذر أن يكونَ سماعُ الله لك من القسم الثَّاني، احذر هذا.

أمَّا القسم الثَّاني من السَّمعِ فهو سمعُ الإجابةِ، فيكون معنى «سَمِعَ»؛ أي: اسْتَجَابَ، ومنه قولُ الله -تبارك وتعالى- عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، معنى «سميع»: مجيبٌ؛ لأنَّه لم يُرِدْ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنَّ اللهَ يسمعُ دعاءَه فقط، بل تَوَسَّلَ إلى الله بإجابتِهِ للدُّعاءِ ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، هذا سَمْعٌ بمعنى الإجابة، ومنه أيضًا قولُ المصلِّي: «سَمِعَ اللهُ لِـمَنْ حَمِدَهُ»؛ يعني: اسْتَجَابَ لِـمَنْ حَمِدَه.

قَوْلُهُ: «يَرَى» فهنا «يَرَى» تأتي بمعنى «الرُّؤية» التي هي رؤيةُ العينِ، وتأتي

---

(١) أخرجه البخاري معلقا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:١٣٤]، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

بمعنى «**العلم**»، فمثل قولِه تعالى: ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧] هذه بمعنى العلم؛ لأنَّ يومَ الحسابِ لم يأتِ بعدُ، ولكنَّه معلومٌ عند الله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك في شعرِ العربِ قولُ الشَّاعرِ:

رَأَيْــتُ اللهَ أَكْــبَرَ كُــلِّ شَيْءٍ مُحَاوَلَــةً وَأَكْثَــرَهُمْ جُنُــودًا[1]

فَقَوْلُهُ: «**رَأَيْتُ اللهَ**»؛ يعني: عَلِمْتُه؛ لأنَّه لم يرَ ربَّه، فهذا في اللُّغةِ العربيَّةِ.

ومثل قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:١٤]، هذه رؤيةٌ للعلمِ ورؤيةٌ للبصرِ أيضًا، فهو يرى ويُشَاهِدُ هؤلاء الذين يُؤذون النَّبيَّ ﷺ.

والرُّؤية التي بمعنى إدراك المرئيِّ منها عامٌّ ومنها خاصٌّ؛ يعني: يقتضي النَّصرَ والتَّأييدَ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، المرادُ بذلك الرُّؤيةُ التي تقتضي النَّصرَ والتَّأييدَ.

قَوْلُهُ: «**يَسْمَعُ كُلَّ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلَانِ**» قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف:٨٠]، إن تَكَلَّمْتَ بصوتٍ مسموعٍ سَمِعَهُ اللهُ، بصوتٍ لا يسمعُه إلَّا جارُكَ سَمِعَه اللهُ عزَّ وجلَّ، بصوتٍ تُحَدِّثُ به نفسَك يسمعُه اللهُ عزَّ وجلَّ، وما تُحَدِّثُ به نفسَك من غير نطقٍ يعلمُه اللهُ عزَّ وجلَّ.

٣٢٤١- وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْـهُ سَـمْعٌ حَـاضِرٌ فَالسِّـــرُّ وَالإِعْــلانُ مُسْــتَوِيَانِ

قَوْلُهُ: «**وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ**» كُلُّ صوتٍ فللَّهِ منه سمعٌ، وهذه الكلمةُ من ابن القيِّم -رحمه الله- يحتملُ أنَّ معناها لكُلِّ صوتٍ سمعٌ؛ يعني:

---

(١) البيت لخداش بن زهير في المقاصد النحوية (٢/ ٣٧١)، وبلا نسبة في شرح ابن عقيل (٢/ ٢٩).

لا يخفى عليه أيُّ صوتٍ، كُلُّ صوتٍ فسمعُ الله حاضرٌ له، ويحتملُ أنَّ المعنى أنَّ سَمْعَ الله -سبحانه وتعالى- إذا تَجَدَّدَ المسموعُ فهذا السَّمعُ الذي سَمِعَه اللهُ متجدِّدٌ لكنَّ أصلَ السَّمعِ أَزَلِيٌّ، فمثلًا صوتُ المتكلِّم متى سَمِعَه اللهُ؟ الجوابُ: حين تكلَّم به، لم يسمعه من قبلُ بخلافِ العلمِ، فالعلمُ يتعلَّقُ بالمستقبلِ، لكنَّ السَّمعَ لا يكونُ إلَّا بعد حدوثِ المسموعِ، فكلامُه -رحمه الله- يحتملُ هذا وهذا، يحتملُ أنَّه أراد الشُّمولَ أنَّ كُلَّ صوتٍ فسمعُ الله حاضرٌ له، ويحتملُ أنَّ المعنى: أنَّ لكُلِّ صوتٍ سمعًا خاصًّا يكونُ عند حدوثِ ذلك الصَّوتِ، والحدوثُ هنا للصِّفةِ أو للمسموعِ؟ الجوابُ: للمسموعِ، أمَّا السَّمعُ فلا يزالُ اللهُ تعالى سميعًا.

قَوْلُهُ: «**فَالسِّرُّ وَالإِعْلَانُ مُسْتَوِيَانِ**» هذا يُؤَيِّدُ أنَّ المعنى: أنَّ كُلَّ صوتٍ سواء أكان سرًّا أم إعلانًا فاللهُ يسمعُه.

٣٢٤٢- وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعُ الأَصْوَاتِ لا ... يَخْفَى عَلَيْهِ بَعِيدُهَا وَالدَّانِي

قَوْلُهُ: «**وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعُ الأَصْوَاتِ**» «**وَاسِعُ**» بمعنى شامل؛ يعني: أنَّ السَّمعَ يشملُ كُلَّ الأصواتِ.

قَوْلُهُ: «**لَا يَخْفَى عَلَيْهَا بَعْيدُهَا وَالدَّانِي**» المؤلِّفُ ذكر في البيتِ الأوَّلِ نبرةَ الصَّوتِ، فإنَّها تكونُ سرًّا و إعلانًا، والثَّاني قربَ الصوتِ، فإنَّه يكونُ قريبًا ويكونُ بعيدًا، فصوتُ النَّبِيِّ ﷺ حين أُسْرِيَ به وكَلَّمَهُ ربُّه عزَّ وجلَّ فوق السَّماواتِ العُلَى قريبٌ، وصوتُ ذي النُّونِ في بطنِ الحوتِ بعيدٌ، إذَن المؤلِّف -رحمه الله- ذكر أمرين:

الأوَّل: نبرةُ الصَّوتِ هل هي سرٌّ أو إعلانٌ، فاللهُ يعلمُها.

الثَّاني: قربُ الصَّوتِ وبعدُه، كلاهما عند الله سواءٌ.

ثُمَّ انتقل المؤلِّفُ إلى الاسم الآخر وهو «البَصِيرُ»، وذكر المؤلِّفُ -رحمه الله- معنىً واحدًا للبصيرِ كما أنَّه لم يذكر للسَّمعِ إلَّا معنًى واحدًا وهو سمعُ الإدراكِ، وفي البصر -أيضًا- ذكر بصرَ الإدراكِ فقال:

٣٢٤٣- وَهُوَ البَصِيرُ يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السْـ ـسَوْدَاءِ تَحْـتَ الصَّـخْرَةِ الصَّـوَّانِ

اللهُ أكبر، نملةٌ صغيرةٌ سوداءُ في ظلمةِ الليلِ تحت الصَّخرةِ يراها عزَّ وجلَّ، لا تخفى عليه، فهذا من أخفى ما يكونُ، ومع ذلك فلا يَعْزُبُ عنه سبحانه وتعالى، وهذا دليلٌ على عمومِ بصرِ الله -تبارك وتعالى-.

٣٢٤٤- وَيَرَى مَجَارِي القُوتِ فِي أَعْضَـائِهَا وَيَـرَى نِيَـاطَ عُرُوقِهَـا[1] بِعِيَـانِ

قَوْلُهُ: «وَيَرَى مَجَارِي القُوتِ» «مَجَارِي»، والأصلُ أن يقولَ: «مَجَارِيَ» لكن لأجل النَّظمِ سَكَّنَ الياءَ.

قَوْلُهُ: «وَيَرَى مَجَارِي القُوتِ فِي أَعْضَائِهَا» الله أكبر! أعضاءُ النَّملةِ دقيقةٌ جدًّا، وهذه الأعضاءُ لها نصيبٌ من قُوتِ النَّملةِ، إذا أَكَلَتْ شيئًا لا بُدَّ أن ينالَ أعضاءَها شيءٌ من هذا القوتِ، هذا القوتُ يجري في أعضائِها، واللهُ عزَّ وجلَّ يراه، وفي هذا أيضًا قال الأوَّلُ:

يَا مَنْ يَرَى مَـدَّ البَعُـوضِ جَنَاحَهَـا فِي ظُلْـمَةِ اللَّيْـلِ البَهِـيمِ الأَلْيَـلِ

وَيَـرَى نِيَـاطَ عُرُوقِهَـا فِي نَحْرِهَـا والمُـخَّ فِي تِلْـكَ العِظَـامِ النُّحَّـلِ

امْـنُنْ عَـلَيَّ بِتَوْبَـةٍ تَمْحُـو بِهَـا مَـا كَـانَ مِنِّـي فِي الزَّمَـانِ الأَوَّلِ[2]

---

(١) في نسخة السفارينية والتيمورية والإفتاء «عروق نياطها».

(٢) الأبيات في الحماسة البصرية (٢/ ٤٣٢) بلا نسبة.

وهذا توسَّلٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا بِعِيَانِ**» نياط عروقها: تحرُّكها بِعِيَانٍ؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ واسعُ البصرِ لا يخفى عليه شيءٌ.

٣٢٤٥- وَيَرَى خِيَانَاتِ العُيُونِ بِلَحْظِهَا وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ

قَوْلُهُ: «**وَيَرَى خِيَانَاتِ العُيُونِ بِلَحْظِهَا**» الإنسانُ قد يخونُ في النَّظرِ، فينظرُ إلى امرأةٍ والنَّاسُ لا يعلمون، فهذه خيانةٌ؛ لأنَّه لم يُشْخِصْ بصرَه ويسلِّطه على المرأةِ والنَّاس ينظرون، بل يخالسُ النَّظرَ، فهو يرى خياناتِ العيونِ فيما لو أشار أحدٌ بعينهِ إلى عدوانٍ على شخصٍ؛ ولهذا مُنِعَ الأنبياءُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- من اللَّحظِ بالعينِ والإشارةِ بالعينِ؛ لأنَّ هذا خيانةٌ، واللهُ عزَّ وجلَّ يعلمُ خائنةَ الأعينِ، وواضحَ الأعينِ من بابِ أولى، فإيَّاك إيَّاك أن تخونَ بعينِك وتنظرَ إلى ما لا يحلُّ لك النَّظرُ إليه، فإنَّه وإن خَفِيَ ذلك على النَّاسِ لا يَخْفَى على الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ**» فالأجفانُ تتقلَّبُ، تنفتحُ أحيانًا، وتُغمضُها أحيانًا، فاللهُ تعالى يَرَى ذلك كُلَّه.

فالمؤلِّفُ -رحمه الله- اقتصر على معنى واحدٍ من معنى «**البصير**»، وهو البصرُ في المحسوساتِ والمبصراتِ.

إذا آمَنْتَ بذلك ما الذي يُوجِبُ لك هذا الإيمانُ؟ ألَّا تفعلَ فعلًا لا يرضاه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ إيمانَك بأنَّ اللهَ محيطٌ بكُلِّ شيءٍ بصرًا إذا لم يكن له تأثيرٌ على سلوكِك ومنهجِك فلا فائدةَ من هذا الإيمانِ.

إِذَنْ إذا آمَنْتَ بذلك لَزِمَ من هذا أن تراقبَ اللهَ عزَّ وجلَّ فلا يراك حيث نهاك، ولا يفقدُك حيث أمرك.

وهناك معنى آخَر للبصرِ، وهو معنى معنويٌّ وهو العلمُ، فالبصيرُ له معنيان: بصرُ البصرِ «النَّظر» في المحسوساتِ، وبصرُ العلمِ، واللهُ تعالى له هذا وهذا، فهو بصيرٌ بما نعملُ، لا يخفى عليه -سبحانه وتعالى- شيءٌ من أعمالِنا؛ حركاتُنا معلومةٌ، أقوالُنا معلومةٌ، هواجسُنا معلومةٌ لله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، لكن من لُطفِ الله أنَّ الهواجسَ في القلوبِ، لا نُعَاقَبُ عليها مهما عظمت إذا لم يطمئنَّ الإنسانُ إليها، قال النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَـمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[1]، وإلَّا فَيَرِدُ على القلبِ من الشُّبهاتِ والشَّهواتِ ما لولا لُطْفُ الله لهلك الإنسانُ، ولكن إذا أَحْسَسْتَ بمثلِ هذه الأمورِ فعليك بشيئين أَرْشَدَ إليهما النَّبِيُّ ﷺ وهما: الاستعاذةُ بالله من الشَّيطانِ الرَّجيم[2]، والانتهاءُ والإعراضُ والغفلةُ عن هذا الشَّيء فيزول؛ لأنَّ الانتهاءَ عن الشَّيء يُبْطِلُ أثرَه؛ يعني: التَّغافلَ عنه، لو أصابك جرحٌ في رجلِك وهو يسيلُ، إذا غَفَلْتَ عنه لا تحسُّ بألِمِه ولا كأنَّه شيءٌ، لكن لو تَذَكَّرْتَهُ أَحْسَسْتَ بألِمِه، هكذا هواجسُ القلبِ اغفلْ عنها، لا تلتفت إليها، امشِ على ما أنت مأمورٌ به، ودَعْ عنك هذه الخيالاتِ فيذهبها اللهُ عزَّ وجلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطإ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

(٢) ودليله قوله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ». أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣١٠٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

إِذَنْ «البصيرُ» له معنيان هما: الإحاطة بالْمُبْصَرَات وهذا يتعلَّقُ بالمحسوسِ، والثَّاني: الإحاطةُ بالمعلوماتِ وهذا ليس إدراكًا، بل هو بصرٌ معنويٌّ.

* * *

٣٢٤٦- وَهُوَ العَلِيمُ أَحَاطَ عِلْمًا بِالَّذِي ... فِي الكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلانِ

٣٢٤٧- وَبِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ ... فَهُوَ المُحِيطُ وَلَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

٣٢٤٨- وَكَذَاكَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ غَدًا وَمَا ... قَدْ كَانَ وَالمَوْجُودَ فِي ذَا الآنِ

٣٢٤٩- وَكَذَاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـ ... ـفَ يَكُونُ ذَاكَ الأَمْرُ ذَا إِمْكَانِ

الشرحُ

٣٢٤٦- وَهُوَ العَلِيمُ أَحَاطَ عِلْمًا بِالَّذِي ... فِي الكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلانِ

من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ «العليمُ»، و«عَلَّامُ الغيوبِ»، و«العَالِـم» كما قال: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨١]، والعلمُ قال النَّاسُ في تعريفِه: إدراكُ الشَّيءِ على ما هو عليه على وجهٍ ليس فيه شكٌّ ولا ظنٌّ؛ أي: إدراكُ الشَّيءِ إدراكًا جازمًا مطابقًا، فَمَنْ لم يُدْرِكْ فهو جاهلٌ، ومن لم يجزمْ فليس بعالمٍ، هو شاكٌّ أو ظانٌّ، ومَنْ أدركه على وجهٍ غير مطابق فهو جاهلٌ جهلًا مُركَّبًا، والجهلُ المركَّبُ أسوأُ من الجهلِ البسيطِ؛ لأنَّ الجاهلَ جهلًا مُرَكَّبًا جاهلٌ بالأمرِ وجاهلٌ أنَّه يجهلُ؛ ولهذا قال الشَّاعرُ وهو رجلٌ يُسَمَّى «توما» ويُلَقَّبُ بالحكيمِ، ويُفْتِي النَّاسَ بالعلمِ وبالجهلِ، يقولُ الشَّاعرُ:

قَالَ حِمَارُ الحَكِيمِ تُومَا ... لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ كُنْتُ أَرْكَبْ

يعني: الحمار يركبُ على صاحبِه.

لأنَّنِــــي جَاهِــــلٌ بَسِــــيطٌ وَصَــاحِبِي جَاهِــلٌ مُرَكَّــبْ[1]

على كُلِّ حالٍ قوله: «**لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ**» هذا مـمَّا يقولُه الشُّعراءُ، ولا يُوافقُونَ عليه، لكن الشَّاهدُ أنَّ هذا الحمارَ صار عالمًا، يقولُ: إنَّه جاهلٌ بسيطٌ وصاحبُه جاهلٌ مُرَكَّبٌ، وأيُّهما أشدُّ؟ الجوابُ: الثَّاني، فالجاهلُ المركَّبُ هو البلاءُ، يَضِلُّ ويُضِلُّ.

على كُلِّ حالٍ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عليمٌ مُدْرِكٌ للأمورِ على ما هي عليه إدراكًا تامًّا جملةً وتفصيلًا، وعلمُه عزَّ وجلَّ من أوسعِ ما يكونُ من الصِّفاتِ؛ لأنَّه يتعلَّقُ بالواجبِ والممكنِ والمستحيلِ والدَّقيقِ والجليلِ، فالعلمُ من أوسعِ الأسماءِ والصِّفاتِ مُتَعلَّقًا، فلننظر، ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه بكُلِّ شيءٍ عليمٌ، وأنَّه أَحاطَ بكُلِّ شيءٍ علمًا، والملائكةُ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، وهل هذا عامٌّ أو مفصَّلٌ؟ هذا عامٌّ، فهو بكُلِّ شيءٍ عليمٌ؛ ولهذا قال أهلُ أصولِ الفقهِ: ليس في القرآنِ عامٌّ إلَّا أمكن تخصيصُه إلَّا هذه الآية ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فهذا لا يمكنُ تخصيصُه؛ لأنَّه متعلِّقٌ بكُلِّ شيءٍ.

وأخبرَ عزَّ وجلَّ أنَّه عليمٌ بالأشياءِ على وجهِ التَّفصيلِ في قولِه -تبارك وتعالى-: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩]، فما تسقطُ من ورقةٍ من الأشجارِ إلَّا يعلمُها، فإذا كان عزَّ وجلَّ، يعلمُ سقوطَ الورقةِ، فوجودُ الورقةِ من بابٍ أولى؛ لأنَّ وجودَها خَلْقٌ، إِذَنْ وجودُ الورقةِ خَلْقٌ، وسقوطُها خلقٌ، فهو عزَّ وجلَّ يعلمُ

---

(١) البيتان في نهاية الأرب (١٠/ ١٠٠) بلا نسبة.

الورقةَ متى تسقطُ؟ وأين تسقطُ؟ وكيف تسقطُ؟ ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:٥٩]، فأيُّ حبَّةٍ كبيرةٍ أو صغيرةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ إلَّا يعلمُها عزَّ وجلَّ، وهل في الأرضِ ظلمةٌ واحدةٌ وظلماتٌ؟ نعم، فيه ظلمات الأرضِ، لنفرضَ أنَّ حبَّةً صغيرةً في قاعِ البحرِ في ليلةٍ مظلمةٍ في سحابٍ متراكمٍ، في وابلٍ هطَّالٍ، كم الظُّلماتُ الآن؟ ستُّ ظلماتٍ، **أوَّلًا**: ظلمة البحر؛ يعني: ظلمة الطِّينِ الذي على الحبَّة، **ثانيًا**: ظلمة الماءِ، **ثالثًا**: ظلمة الجوِّ، **رابعًا**: ظلمة السَّحابِ، **خامسًا**: ظلمة المطرِ، **سادسًا**: ظلمة اللَّيلِ، هذا الذي ندركُه، وقد تُوجَدُ ظلماتٌ أخرى، لكن هذا الذي أدركناه، ستُّ ظلماتٍ أَحَاطَتْ بحبَّةٍ صغيرةٍ يعلمُها اللهُ عزَّ وجلَّ.

ثُمَّ جاء آخِرُ الآيةِ: ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩]، كُلُّ الأشياءِ إمَّا رطبٌ وإمَّا يابسٌ، سبحان الله! ولم يُكْتَبْ إلَّا بعد علمِ الله عزَّ وجلَّ، هذا من التَّفصيلِ.

ومفاتحُ الغيبِ مذكورةٌ في قولِه تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان:٣٤] هذه مفاتحُ الغيبِ؛ لأنَّ السَّاعةَ مِفْتَاحُ الآخرةِ، ونزولَ الغيثِ مِفْتَاحُ حياةِ الأرضِ، وما في الأرحامِ مِفْتَاحُ حياةِ الحيوانِ، ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗا﴾ مِفْتَاحُ العملِ في المستقبلِ، ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُ﴾ مِفْتَاحُ البرزخِ، هذه مفاتحُ لا يعلمُها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

إِذَنْ علمُ الله محيطٌ بكُلِّ شيءٍ جملةً وتفصيلًا، وذكرنا أنَّ متعلَّقَه إمَّا واجبٌ أو ممكنٌ أو مستحيلٌ، فعلمُ الله تعالى بما له من الصِّفاتِ والأسماءِ والأفعالِ علمٌ بواجبٍ، فكُلُّ ما أخبر اللهُ به عن كمالاتِه فهو علمٌ بواجبٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يجبُ له

الكمالُ المطلقُ، علمُه بأنَّه لو كان في السَّماواتِ والأرضِ آلهةٌ إلَّا الله لَفَسَدَتَا بالمستحيلِ، ومع ذلك أخبر عزَّ وجلَّ أنَّه لو كان لفسدت السَّماواتُ والأرضُ.

وأمَّا علمُه بالمخلوقاتِ فهو بالممكنِ؛ لأنَّ كُلَّ المخلوقاتِ من قسمِ الممكنِ؛ لأنَّها كانت معدومةً فَوُجِدَتْ، فهي من قسمِ الممكنِ.

٣٢٤٧- وَبِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ فَهُوَ المُحِيطُ وَلَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

قَوْلُهُ: «فَهْوَ المُحِيطُ» «فَهْوَ»؛ أي: العِلْمُ.

قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ ذَا نِسْيَانِ»؛ يعني: أنَّ اللهَ لا يَنْسَى، فعلمُه تامٌّ لا يلحقُه نسيانٌ، وعلمُه تامٌّ لم يسبقْه جهلٌ، قال موسى عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] فقولُه: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾؛ أي: لا يجهلُ، وقولُه: ﴿وَلَا يَنسَى﴾؛ أي: لا يغيبُ عنه ما ذَكَرَهُ.

٣٢٤٨- وَكَذَاكَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ غَدًا وَمَا قَدْ كَانَ وَالمَوْجُودَ فِي ذَا الآنِ

قَوْلُهُ: «وَمَا قَدْ كَانَ»؛ يعني: في الماضي.

ذَكَرَ المؤلِّفُ أقسامَ الزَّمانِ الثَّلاثة؛ لأنَّ الزمانَ إمَّا مستقبلٌ وإمَّا ماضٍ وإمَّا حاضرٌ، فعلمُ الله متعلِّقٌ بالزَّمانِ الماضي والمستقبلِ والحاضرِ، فهو **«يَعْلَمُ مَا يَكُونُ»** هذا في المستقبل، **«وَمَا قَدْ كَانَ»** هذا في الماضي، **«وَالمَوْجُودَ فِي ذَا الآنِ»** هذا في الحاضر، وأيضًا علمٌ آخرُ؛ ولذا قال:

٣٢٤٩- وَكَذَاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـ ـفَ يَكُونُ ذَاكَ الأَمْرُ ذَا إِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ»؛ يعني: الشَّيءَ المستقبلَ يعلمُ متى يكونُ؛ وكيف يكونُ؟ وهذا دليلٌ على سَعَةِ علمِ الله -تبارك وتعالى-،

وأنت إذا آمَنْتَ بهذا أَوْجَبَ لك خشيةَ الله عزَّ وجلَّ وخوفَه، والحذر أن تُخْفِيَ في قلبِك ما يكرهُه ربُّك عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ ذلك معلومٌ عند الله.

إِذَنْ ينبغي لنا أن نعرفَ أنَّ علمَنا بهذه المعاني من أسماءِ الله يجبُ أن يؤثِّرَ علينا، فمثلًا إذا عَلِمْنَا إحاطةَ الله بكُلِّ شيءٍ علمًا يستلزمُ منَّا ألَّا نخالفَ أمرَ الله؛ لأنَّنا لو خَالَفْنَا أمرَ الله لكان يعلمُ بنا، وألَّا نقعَ فيما نَهَى اللهُ عنه؛ لأنَّه يعلمُ، وأن نعلمَ أنَّنا مهما كُنَّا في أخفى مكانٍ من الأرضِ فاللهُ عالمٌ بنا، وأن نعلمَ أيضًا أنَّنا لو نظرنا نظرًا محرَّمًا لا يعلمُ به الخلقُ لكان اللهُ تعالى يعلمُ به، فإِذَن ينبغي أن يكونَ لنا فائدةٌ مسلكيَّةٌ من معرفةِ معاني أسماءِ الله وصفاتِه، لا أن يكونَ علمُنا بها مجرَّدَ نظرٍ، إذا لم نتأثَّر بمدلولاتِها لم ننتفعْ بها كثيرًا.

* * *

فصل

٣٢٥٠- وَهُوَ الحَمِيدُ فَكُلُّ حَمْدٍ وَاقِعٍ ... أَوْ كَانَ مَفْرُوضًا مَدَى[1] الأَزْمَانِ

٣٢٥١- مَلأَ الوُجُودَ جَمِيعُهُ وَنَظِيرُهُ ... مِنْ غَيْرِ مَا عَدٍّ وَلا حُسْبَانِ[2]

٣٢٥٢- هُوَ أَهْلُهُ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ ... كُلُّ المَحَامِدِ وَصْفُ ذِي الإِحْسَانِ

الشرحُ

من أسماءِ الله تعالى «الحميدُ»، وكثيرًا ما يَقْرِنُ اللهُ تعالى «الحميدَ» بـ«الغنيِّ» أو بـ«الوليِّ»، قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشُّورى:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، فما معنى «الحميد»؟ «الحميدُ» زنتُه الصَّرفيَّةُ «فَعِيلٌ»، وهل هو بمعنى «فاعل» أو بمعنى «مفعول»؟ الجوابُ: هو بمعناهما جميعًا، فهو حميدٌ بمعنى محمود على كمالِ صفاتِه، وعلى إحسانِه وإنعامِه، وعلى جميعِ أفعالِه، فله الحمدُ كُلُّه، وهو محمودٌ على كُلِّ حالٍ؛ لأنَّ كُلَّ الكونِ يُثْني على الله، قال اللهُ تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، لا يَشِذُّ عن ذلك إلَّا الكفرةُ من بني آدمَ ومن الجنِّ، فإنَّ هؤلاء لا يحمدون اللهَ، وإلَّا فكُلُّ شيءٍ يحمدُ اللهَ بلسانِ الحالِ والمقالِ، أمَّا الكفرةُ من بني آدمَ ومن الجنِّ فإنَّهم لا يحمدونَ اللهَ بلسان المقالِ، لكن يحمدونه بلسانِ

---

(١) في نسخة برلين «بذي».

(٢) في نسخة برلين «إحسان» والأصح ما في أعلاه.

الحالِ، فإنَّ حالَهم تشهدُ لله تعالى بالكمالِ؛ يعني: حالُهم تُثْنِي على الله عزَّ وجلَّ، فما أَوْدَعَ اللهُ فيهم من كمال الخِلْقَةِ والصَّنعةِ والذَّكاءِ، وغيرِ ذلك، كُلُّه من الله، وكُلُّ هذا يشهدُ لله بالكمالِ.

كذلك هو «**حامد**»، حامدٌ مَنْ يستحقُّ الحمدَ من عبادِه، يُثْنِي عليهم ويصفُهم بالأخيارِ، ويحبُّهم، فهو يُثْنِي على مَنْ يستحقُّ الثَّناءَ من الخلقِ كما أَثْنَى على رسلِه، وأنبيائِه، وعلى عبادِه الصَّالحين، إِذَنْ «**حميدٌ**» بمعنى «**حامد**»، وبمعنى «**محمود**».

والمؤلِّف -رحمه الله- لم يُشِرْ إلى المعنى الأوَّل الذي هو «**حامد**»، بل أشار إلى المعنى الذي هو «**محمود**»، فقال: «**فَكُلُّ حَمْدٍ وَاقِعٍ... إلخ**»، فاللهُ تعالى هو أهلُه.

فإذا قال قائلٌ: ما هو الحمدُ؟

فالجوابُ: «**الحمدُ**» وصفُ المحمودِ بالكمالِ مع المحبَّةِ والتَّعظيمِ، واللهُ تعالى موصوفٌ بالكمالِ، محبوبٌ على هذا الوصفِ، مُعَظَّمٌ عليه، فمتى وَصَفْتَ شيئًا بالكمالِ فقد حَمِدْتَهُ، إذا قلت: «**فلانٌ غنيٌّ**» فقد حَمِدْتَهُ، وإذا قلت: «**فلانٌ شجاعٌ**» فقد حَمِدْتَهُ، فكُلُّ وصفٍ بالكمالِ فهو حمدٌ، فإذا ثنَّيْتَه وكرَّرْتَه صار ثناءً، وقد يكون الحمدُ في مقابلِ نعمةٍ فيكون بمعنى الشُّكر، وقد يكونُ في مقابلِ كمالِ المحمودِ فيختلفُ عن الشُّكرِ، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»[1]، هذا حمدٌ على نعمةٍ، فهو بمعنى الشُّكر، وقال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤).

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، هذا حمدٌ على صفةٍ، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء:١١١]، هذا حمدٌ على كمالِ صفاتِه عزَّ وجلَّ.

والمصلِّي يقولُ: «رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ [حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ] مِلْءَ السَّمَاءِ وَمِلْءَ الأَرْضِ»(١)، مِلْءَ السَّماءِ وَمِلْءَ الأرضِ كيف ذا؟ قال بعضُ العلماءِ: هذه استعارةٌ تخييليَّةٌ؛ يعني: أنَّه جُعِلَ أجسامًا تملأُ السَّماءَ والأرضَ، لكن هذا القولُ ضعيفٌ، والصَّوابُ أنَّ الله تعالى مستحقٌّ للحمدِ الذي يملأُ السَّماءَ والأرضَ؛ لأنَّ السَّماءَ والأرضَ من آثارِ كمالِه فيكون محمودًا على ذلك، هذا هو المعنى الصَّحيحُ لهذه الجملةِ العظيمةِ.

ولقد كان النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- إذا أتاه الأمرُ يَسُرُّهُ قَالَ: «الحَمْدُ لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وإذا أتاه الأمرُ يكرهُه قال: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ»(٢)، فإذا ضَاعَ لك شيءٌ وبَحَثْتَ عنه فوجدته، تقولُ: «الحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصَّالحاتُ»، وإذا لم تجده قلت: «الحمدُ لله على كُلِّ حالٍ»، هذا هو المشروعُ.

وسَمِعْنَا أخيرًا من أفواهِ النَّاسِ أنَّهم يقولون: الحمدُ لله الذي لا يُحْمَدُ على مكروهٍ سواه، وهذا غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ المعلِّمَ وهو رسولُ الله ﷺ لم يكن يقولُ هذا، بل يقول: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ»؛ ولأنَّ قولَك: «على مكروهٍ سواه» يُشْعِرُ بنوعٍ من الجزعِ والسَّخطِ؛ ولأنَّ قولَك: «على مكروهٍ» يُنافي الحمدَ؛ لأنَّ الطَّبيعةَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، رقم (٤٧١).
(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣).

تنفرُ من أن يكونَ الشَّيءُ المكروهُ محمودًا عليه؛ فلهذه الأوجُهِ الثَّلاثةِ نقولُ: اعدل عن هذا، وقُلْ: «**الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ**»؛ لأنَّ الأشياءَ المكروهةَ -وإن كان كُلُّ شيءٍ من الله- على وجه التَّفصيلِ من سوءِ الأدبِ أن تضيفَها إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ولذلك نحن نقولُ: «**اللهُ خالقُ كُلِّ شيءٍ**»، لكن لو أَضَفْتَ خَلْقَهُ إلى شيءٍ مكروهٍ مُسْتَقْبَحٍ لكان ذلك غيرَ لائقٍ، ففرقٌ بين التَّعميمِ وبين التَّخصيصِ، على كُلِّ حالٍ اللهُ عزَّ وجلَّ محمودٌ على كُلِّ حالٍ، على إنعامِه الذي لا يُحْصَى، وعلى كمالِه الذي لا يُسْتَقْصَى.

❊ ❊ ❊

فصـــل

٣٢٥٣- وَهُـوَ المُكَلِّـمُ عَبْـدَهُ مُوسَـى بِتكْـ ـــلِيمِ الخِطَـابِ وَقَبْلَـهُ الأَبَـوَانِ

٣٢٥٤- كَلِمَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ وَالتَّـ ـتَعْدَادِ بَلْ عَنْ حَصْرِ ذِي الحُسْبَانِ

٣٢٥٥- لَوْ أَنَّ أَشْجَارَ البِلادِ جَمِيعَهَا الـ أَقْـلامُ تَكْتُبُهَـا بِكُـلِّ بَنَـانِ

٣٢٥٦- وَالبَحْـرُ تُلْقَـى فِيـهِ سَبْعَةُ أَبْحُـرٍ لِكِتَابَـةِ الكَلِـمَاتِ كُـلَّ زَمَـانِ

٣٢٥٧- نَفِـدَتْ وَلَـمْ تَنْفَـدْ بِهَـا كَلِمَاتُـهُ لَـيْسَ الكَـلامُ مِـنَ الإِلَـهِ بِفَـانِي

٣٢٥٨- وَهُـوَ القَـدِيرُ وَلَـيْسَ يُعْجِـزُهُ إِذَا مَـا رَامَ شَـيْئًا قَـطُّ ذُو سُـلْطَانِ

٣٢٥٩- وَهُوَ القَوِيُّ لَـهُ القُـوَى جَمْعًـا تَعَـا لَى اللهُ[1] ذُو الأَكْـوَانِ وَالسُّـلْطَانِ

٣٢٦٠- وَهُـوَ الغَنِـيُّ بِذَاتِـهِ فَغِنَـاهُ ذَا تِـيٌّ لَـهُ كَالـجُودِ وَالإِحْسَـانِ

٣٢٦١- وَهُـوَ العَزِيـزُ فَلَـنْ يُـرَامَ جَنَابُـهُ أَنَّـى يُـرَامُ جَنَـابُ ذِي السُّـلْطَانِ

٣٢٦٢- وَهُوَ العَزِيزُ القَـاهِرُ الغَـلَّابُ لَـمْ يَغْلِبْـهُ شَيْءٌ هَـذِهِ صِـفَتَانِ

٣٢٦٣- وَهُـوَ العَزِيـزُ بِقُـوَّةٍ هِـيَ وَصْـفُهُ فَـالعِزُّ حِينَئِـذٍ ثَـلاثُ مَعَـانِي

٣٢٦٤- وَهِـيَ الَّتِـي كَمُلَـتْ لَـهُ سُـبْحَانَهُ مِـنْ كُـلِّ وَجْـهٍ عَـادِمِ النُّقْصَـانِ

---

(١) في أكثر النسخ «رب ذي».

الشـرحُ

٣٢٥٣- وَهُوَ المُكَلِّمُ عَبْدَهُ مُوسَى بِتَكْـ ـلِيمِ الخِطَابِ وَقَبْلَهُ الأَبَوَانِ

هذه الأبياتُ في «**الكلامِ**»، و«**الكلامُ**» من صفاتِ الله عزَّ وجلَّ لا شَكَّ، فهو -جلَّ وعلا- متكلِّمٌ ويتكلَّم متى شاء بما شاء كيف شاء، وكلامُه عزَّ وجلَّ بحرفٍ وصوتٍ مسموعٍ من قريبٍ ومن بعيدٍ، وبحروفٍ مُرتَّبةٍ، فقولُه -تبارك وتعالى-: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] سَمِعَها جبريلُ من الله بصوتٍ، وهذه البسملةُ بحروفٍ مُرتَّبةٍ، إِذَنْ كلامُ الله بحرفٍ وصوتٍ، فهو بحروفٍ مرتَّبةٍ، والصوتُ يكونُ من قريبٍ ومن بعيدٍ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى عن موسى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، هذا من بعيدٍ، وقال: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢] هذا من قريبٍ، و في الحديثِ الصَّحيحِ: «**يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ**»[1]، فقولُه: «**بِصَوْتٍ**» هذا من بابِ التَّوكيد، وإلَّا فإنَّ قولَه: «**يُنَادِي**» تُفِيدُ الصَّوْتَ لا شكَّ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يتكلَّمُ بما شاء متى شاء كيف شاء، وقد سبق أنْ ذَكَرْنَا أنَّ النَّاسَ اختلفوا في كلامِ الله على ثمانيةِ أقوالٍ أو سبعةٍ، وذَكَرْنَا ثلاثةً منها الأصول، فهو -سبحانه وتعالى- مكلِّمٌ عبدَه موسى.

قَوْلُهُ: «**بِتَكْلِيمِ الـخِطَابِ**»؛ يعني: بتكليمٍ يخاطبُه فيه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النِّساء:١٦٤].

قَوْلُهُ: «**وَقَبْلَهُ الأَبَوَانِ**»؛ أي: آدمُ وحوَّاء، قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢).

أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف:٢٢]، فهذا نداءٌ للأبوين.

وكذلك كَلَّمَ محمَّدًا ﷺ حين عرج به.

٣٢٥٤- كَلِمَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ وَالتْـ ... ـتَعْدَادِ بَلْ عَنْ حَصْرِ ذِي الحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «جَلَّتْ»؛ يعني: عَظُمَتْ أن تُحْصَى.

فكلماتُه -سبحانه وتعالى- لا مُنْتَهَى لها، ولا حصرَ لها، ثُمَّ ذَكَرَ المؤلِّفُ ما دَلَّ عليه القرآنُ فقال:

٣٢٥٥- لَوْ أَنَّ أَشْجَارَ البِلادِ جَمِيعَهَا الـ ... أَقْلامُ تَكْتُبُهَا بِكُلِّ بَنَانِ

أي: تكتبُ كلماتِه.

٣٢٥٦- وَالبَحْرُ تُلْقَى فِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ... لِكِتَابَةِ الكَلِمَاتِ كُلَّ زَمَانِ

٣٢٥٧- نَفِدَتْ وَلَمْ تَنْفَدْ بِهَا كَلِمَاتُهُ ... لَيْسَ الكَلامُ مِنَ الإِلَهِ بِفَانِي

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ [لقمان:٢٧]؛ يعني: لو كان أقلامًا ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، فقولُه تعالى: «**أَنَّ**»: حرفُ توكيدٍ ينصبُ المبتدأَ ويرفعُ الخبرَ، و«**مَا**»: اسمُها؛ يعني: ولو أنَّ الَّذي في الأرضِ من الشَّجرِ، «**أقلامٌ**»: خبر «**أَنَّ**»؛ يعني: لو أنَّ جميعَ أشجارِ الأرضِ جُعِلَتْ أقلامًا وجُعِلَ البحرُ مِدَادًا ومِنْ بعده سبعةُ أبحرٍ ما نفدت كلماتُ الله؛ لأنَّه لا مُنْتَهى لفعلِه، فلا مُنْتَهَى لقولِه، فكُلُّ شيءٍ يريدُه يقولُ له: «كن»، وهل مرادُ الله تعالى له مُنْتَهى؟ الجوابُ: لا.

إِذَنْ كلماتُ الله غيرُ محصورةٍ، وهل هي أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ أو هي حادثةٌ بعد أنْ

لم تكن؟ الجوابُ: الأوَّل، هي أزليَّةٌ أبديَّةٌ، فلم يزل ولا يزالُ -جلَّ وعلا- متكلِّمًا؛ لأنَّه -سبحانه وتعالى- لم يأتِ زمنٌ وهو -سبحانه وتعالى- قبل الأزمان سبحانه وتعالى لم يأتِ زمنٌ وهو أخرسُ، حاشاه من ذلك، بل لم يزل ولا يزالُ متكلِّمًا، من يُحْصِي هذا؟ الجوابُ: لا أحدَ يُحْصِيه.

إذا قال قائلٌ: هل الكلامُ يتعلَّقُ بمشيئتهِ إن شاء تكلَّم وإن شاء لم يتكلَّم؟ فالجوابُ: نعم، لا شكَّ، هو لا يتكلَّمُ قهرًا، بل يتكلَّمُ بإرادةٍ ومشيئةٍ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا**»[1]، فقوله: «**سَكَتَ**»؛ يعني: لم يتكلَّم بها، وإلَّا فإنَّه يتكلَّمُ بأشياءَ أخرى، لكن سَكَتَ عن أشياءَ، فسكوتُه ليس سُكوتًا مطلقًا.

فإذا قال قائلٌ: إذا قلت: إنَّ الكلامَ يتعلَّقُ بمشيئتهِ فإن كان كمالًا فقد كمل بعد أن كان ناقصًا، وإن كان نقصًا فالنَّقصُ ممتنعٌ عن الله؛ إِذَنْ يجبُ عليك ألَّا تؤمنَ بأنَّ اللهَ يتكلَّمُ، كيف تقولُ: «**يتكلَّمُ**» يتعلَّقُ بمشيئته؟

هذا جوابُه سهلٌ بأن نقولَ: الكلامُ في موضعِه كمالٌ، وفي غيرِ موضعِه ليس كمالًا، فإذا اقتضت حكمةُ الله تعالى أن يتكلَّمَ في شيءٍ من الأشياءِ وتكلَّم به فهو في هذه الحالِ كمالٌ، وقبله ليس كمالًا، وهل كلامُ الله تعالى لآدمَ وحوَّاء كان بعد خلقِهما أو قبله؟ الجوابُ: بعد خلقِهما وبعد أكلِهما من الشَّجرةِ، فهو في وقتِه وموضعِه كمالٌ، لا شكَّ، فتبيَّن بهذا أنَّ كونَ الكلامِ يتعلَّقُ بمشيئةِ الله ليس نقصًا في حقِّ الله.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ٣٨١).

٣٢٥٨- وَهُـوَ القَـدِيرُ وَلَـيْسَ يُعْجِـزُهُ إِذَا مَـا رَامَ شَـيْئًا قَـطُّ ذُو سُـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَهْوَ القَدِيرُ» «القديرُ» من أسماءِ الله؛ أي: ذو القدرةِ التَّامَّةِ، والقدرةُ وَصْفٌ يتعلَّقُ بالفاعلِ بحيث يفعلُ الفعلَ بلا عجزٍ، وضدُّها «العجزُ»، وقد جاءت «القدرةُ» في القُرآنِ الكريمِ في مواضعَ كثيرةٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]؛ ولهذا يقولُ: «وَلَيْسَ يُعْجِزُهُ إِذَا مَا رَامَ شَيْئًا»، «إِذَا مَا رَامَ»؛ أي: أَرَادَ شيئًا.

قَوْلُهُ: «إِذَا مَا رَامَ شَيْئًا» «مَا» هنا زائدةٌ، قال الرَّاجِزُ:

يَـا طَالِبًـا خُـذْ فَائِـدَهْ بَعْـدَ «إِذَا» «مَـا» زَائِـدَهْ[1]

قَوْلُهُ: «قَطُّ ذُو سُلْطَانِ»؛ أي: لا أحدَ يعجزُه مهما كان سلطانُه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

٣٢٥٩- وَهُوَ القَوِيُّ لَـهُ القُـوَى جَمْعًـا تَعَـا لَى اللهُ ذُو الأَكْـوَانِ وَالسُّـلْطَانِ

هو عزَّ وجلَّ القويُّ، فالقوَّةُ لله جميعًا، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذَّاريات:٥٨]، وهي فعلُ الفعلِ بلا ضعفٍ، فاللهُ تعالى قويٌّ بذاتِه، قويٌّ في سُلطانِه، قويٌّ في جميعِ صفاتِ العظمةِ؛ ولهذا قال: «لَهُ القُوَى جَمْعًا»؛ أي: قوَّةُ الذَّاتِ، وقوَّةُ السُّلطانِ، وقوَّةُ العظمةِ، كُلُّ ما يتعلَّقُ بهذه الصِّفاتِ فهو قويٌّ فيها، والقوَّةُ يقابلُها الضَّعفُ، وقد افتخرت عادٌ بقوَّتِها، وقالوا: مَنْ أشدُّ منَّا قوَّةً؟ فقال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصِّلت:١٥]، ومع

---

(١) البيت في فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية (ص:١٧٢) بلا نسبة.

ذلك أهلكهم اللهُ بشيءٍ لطيفٍ لا يُرَى وهو الرِّيحُ.

وهذا غايةُ القوَّةِ، فاللهُ عزَّ وجلَّ قويٌّ، خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، ولم يعيَ بخلقهِنَّ، خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّة أيامٍ وما مسَّه من لُغُوبٍ؛ أي: ضعفٍ يَلْحَقُ مَنْ يقولُ للشَّيءِ: «كُنْ فَيَكُونُ».

وجميعُ القُوَى في المخلوقاتِ من آثارِ قُوَّةِ الله عزَّ وجلَّ؛ بمعنى: أنَّ الذي أعطاها القُوَى هو أولى بالقوَّةِ منها، فإيمانُك بأنَّه عزَّ وجلَّ قويٌّ، وبأنَّه قديرٌ يفتحُ لك آفاقًا بعيدَة في أنَّ اللهَ تعالى سينصرُ دينَه، وأنَّ قوى الخلقِ وقدرةَ الخلقِ مهما بلغت تضمحلُّ أمام قدرةِ الله وقوَّتِه.

إنَّ الأحزابَ تحزَّبوا على رسولِ الله ﷺ واجتمع نحوُ عشرة آلافٍ من قبائلَ شتَّى من العربِ، وأحاطوا بالمدينةِ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وسَلَّطَ اللهُ عليهم ريحًا وجنودًا لم يَرَوْهَا، أرسل اللهُ عليهم ريحًا وجنودًا لم يرها النَّبِيُّ ﷺ ولا أصحابُه، فَزُلْزِلُوا وقد نَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ رجلًا في ليلةٍ من ليالي الأحزابِ -وكانت ليلةً شديدةَ البردِ- ليسْبُرَ خبرَهم، ولم يَقُمْ أحدٌ، فكُلُّهم خائفٌ، فهي ليلةٌ باردةٌ شديدةُ الرِّيحِ، يَقُولُ حُذَيْفَةَ: فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ الله ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنْ القِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: «يَا حُذَيْفَةُ فَاذْهَبْ فَادْخُلْ فِي القَوْمِ فَانْظُرْ مَاذَا يَفْعَلُونَ؟...» فقام إلى القومِ، وجعل اللهُ هذه الرِّيحَ الباردةَ بالنِّسبة لحذيفةَ دافئةً وبدون إزعاجٍ حتَّى وَصَلَ إلى قريبٍ من أبي سفيان، وكان زعيمَ القومِ في ذلك الوقتِ قبل أن يُسْلِمَ، وكان يصطلي على النَّارِ من شدَّةِ البرد، يقولُ حذيفةُ: وَلَوْلَا عَهْدُ رسولِ الله ﷺ: «لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي»، وَلَوْ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ [1]، لكنَّه امتنع.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٧٨٨).

انظُر إلى الحكمةِ والامتثالِ لأمرِ الله ورسولِه، لو كان من هؤلاء العاطفيِّين الذين لا يُقَدِّرون الأمورَ لقال: هذا رئيسُ القومِ أجعلُ السَّهمَ في نحرِه وأستريحُ منه، لكنَّه عَلِمَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ أحكمُ منه، ويقولُ: إنَّه لـمَّا رجع للنَّبيِّ ﷺ وانتهت المهمَّةُ أَحَسَّ بالبردِ، سبحان الله! وهذا من آياتِ الله عزَّ وجلَّ، هذا من آثارِ قوَّةِ الله وقدرتِه، أنت إذا آمَنت بالقُدرةِ وبالقوَّةِ ماذا يُحْدِثُ لك هذا الإيمانُ؟ يُحْدِثُ لك -كما سبق- أنَّه يفتحُ لك آفاقًا بعيدةً، بأنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على أن يُهْلِكَ عدوَّه كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم﴾ [محمد:٤]، كذلك أيضًا يُوجِبُ لك الخوفَ من الله، وأنَّ اللهَ قادرٌ على أن يُنْزِلَ بك عقوبتَه، وقويٌّ في ذلك، فإن قال قائلٌ: ما الفرقُ بين القوَّةِ والقدرةِ؟ فالفرقُ بينهما يُعْرَفُ من تعريفِهما، القدرةُ: صفةٌ يتمكَّنُ بها الفاعلُ من الفعلِ بلا عجزٍ، والقوَّةُ: صفةٌ يتمكَّنُ بها الفاعلُ من الفعلِ بلا ضعفٍ، هذا فرقٌ في التَّعريفِ.

ثانيًا: القدرةُ لا يُوصَفُ بها إلَّا مَنْ له إرادةٌ، والقوَّةُ يُوصَفُ بها مَنْ له إرادةٌ ومَن لا إرادةَ له، فمثلًا تقولُ: «**الحديدُ قويٌّ**»، ولا تقولُ: «**قادرٌ**»، والإنسانُ يُقَالُ له: قادرٌ؛ لأنَّه مختارٌ، فلو أنَّ رجلًا قلنا له: احمل هذه الصَّخرةَ، فجعل يزحزحُها ثُمَّ حملها لكن بكُلِّ تعبٍ، احمرَّ وجهُه وصار نَفَسُه يتكرَّرُ بسرعةٍ، لكنَّه حملها، نقولُ عنه: قادرٌ لكنَّه ضعيفٌ، أمَّا إن لم يستطع حملَها فيُقَالُ عنه: عاجزٌ، وإن قلنا لآخَرَ: احمل هذه الصَّخرةَ، فحملها فوق رأسِه، نقول: قَوِيٌّ.

٣٢٦٠- وَهُـوَ الغَنِـيُّ بِذَاتِـهِ فَغِنَـاهُ ذَا ... تِيٌّ لَـهُ كَـالجُودِ وَالإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ الغَنِيُّ**»؛ أي: واسعُ الإنفاقِ، لا ينفدُ ما عنده كما أخبر بذلك النَّبيُّ ﷺ حين قال: «**يَدُ الله مَلأَى، لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا**

أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَـمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ»[1]، فهو غنيٌّ.

قَوْلُهُ: «بِذَاتِهِ»؛ يعني: ليس أحدٌ مَنَّ عليه بغنًى، ولكنَّه غنيٌّ بذاتِه؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ مُوجِدُ كُلِّ شيءٍ، فهو -سبحانه وتعالى- غنيٌّ بذاتِه عن جميعِ مخلوقاتِه، لا يحتاجُ لشيءٍ، وغيرُه غنيٌّ بغيرِه، فالإنسانُ ليس غنيًّا بذاتِه بل يحتاجُ إلى أكلٍ وشربٍ ولباسٍ وسَكَنٍ وغيرِ ذلك، أمَّا اللهُ فهو غنيٌّ بذاتِه؛ ولهذا قال: «غِنَاهُ ذَاتِيٌّ»، إِذَنْ الغنى من صفاتِه الذَّاتيَّةِ التي لم يزلْ ولا يزالُ متَّصفًا بها.

قَوْلُهُ: «كَالْجُودِ وَالإِحْسَانِ» وهذا هو التَّفضُّلُ على الغيرِ، إِذَنْ هو غَنِيٌّ وجوادٌ ومحسنٌ، ولا يلزمُ من الغنى الجودُ ولا الإحسانُ، لكن بالنِّسبةِ للرَّبِّ عزَّ وجلَّ يلزمُ من غناه جودُه وإحسانُه، فهو غنيٌّ بذاتِه، وهو -سبحانه وتعالى- جائدٌ على مخلوقاتِه.

٣٢٦١- وَهُـوَ العَزِيـزُ فَلَـنْ يُـرَامَ جَنَابُـهُ ... أَنَّـى يُـرَامُ جَنَـابُ ذِي السُّـلْطَانِ

٣٢٦٢- وَهُوَ العَزِيزُ القَـاهِرُ الغَـلَّابُ لَـمْ ... يَغْلِبْـهُ شَيْءٌ هَـذِهِ صِـفَتَانِ

٣٢٦٣- وَهُـوَ العَزِيـزُ بِقُـوَّةٍ هِـيَ وَصْـفُهُ ... فَـالعِزُّ حِينَئِـذٍ ثَـلاثُ مَعَـانِي

٣٢٦٤- وَهِـيَ الَّتِـي كَمُلَـتْ لَـهُ سُـبْحَانَهُ ... مِـنْ كُـلِّ وَجْـهٍ عَـادِمِ النُّقْصَـانِ

«العزيزُ» من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ، وهو كثيرٌ في القرآنِ، وله ثلاثةُ معانٍ:

الأوَّل: أنَّه لا يستطيعُ أحدٌ أن ينالَه بسوءٍ لقولِه: «فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ»؛ يعني: لن يُدْرَكَ ولم يوصل إليه عزَّ وجلَّ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن ينالَه بسوءٍ، مأخوذٌ من

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب سورة هود باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، رقم (٤٦٨٤)، مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة، رقم (٩٩٣).

قولِهم «أَرْضٌ عَزَازٌ»، والأرضُ العَزَازُ هي الأرضُ الصَّلبةُ القويَّة التي لا تنالُها الفؤوسُ لصلابتِها بخلافِ الرَّملِ فإنَّه سهلٌ، تَرْكِزُ العصا به ويغيص، أمَّا الأرضُ الصَّلبةُ فتحتاج إلى معاولَ، هذا أصلُ المادةِ، لكن بالنِّسبة لله عزَّ وجلَّ لا نُفَسِّرُ عزَّتَه بذلك، بل نقولُ: هو العزيزُ الذي لن يصلَ إليه سوءٌ من أيِّ أحدٍ، وهذه عزَّةُ القَدْرِ.

هو أيضًا العزيزُ القاهرُ الغلَّابُ من عَزَّ يَعَزُّ إذا قَوِيَ وغَلَبَ، ومنه قولُ الله -تبارك وتعالى- عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، يريدون بـ﴿ٱلْأَعَزُّ﴾ أنفسَهم، وبـ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾ رسولَ الله -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- وأصحابَه، فماذا أُجيبوا؟ أُجيبوا بقولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨]، ولم يَقُلْ: واللهُ أعزُّ، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون:٨]، فهذا يعني: أنَّ المنافقين عليهم الذُّلُّ والمهانةُ والخزيُ، وليس لهم من العزَّةِ شيءٌ.

فهو العزيزُ الغالبُ لكُلِّ شيءٍ، قال الشَّاعرُ الجاهليُّ:

أَيْنَ المَفَرُّ وَالإِلَهُ الطَّالِبُ ... وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِبُ[1]

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ**»، فله عزَّةُ القوَّةِ، ولا أحدَ أقوى منه، فهو -جلَّ وعلا- له العزَّةُ بمعانيها الثَّلاثة: عزَّةُ القوَّةِ، عزَّةُ القهرِ، عزَّةُ الامتناعِ، فهذه ثلاثةُ مَعانٍ لاسمِ «**العزيز**».

* * *

(١) البيت في همع الهوامع (١/ ٤٢٤) بلا نسبة، ونسبه في الحيوان للجاحظ (٧/ ١١٩) لأبرهة الأشرم.

٣٢٦٥- وَهُوَ الحَكِيمُ وَذَاكَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... نَوْعَانِ أَيْضًا مَا هُمَا عَدَمَانِ

٣٢٦٦- حُكْمٌ وَإِحْكَامٌ فَكُلٌّ مِنْهُمَا ... نَوْعَانِ أَيْضًا ثَابِتَا البُرْهَانِ

٣٢٦٧- وَالحُكْمُ شَرْعِيٌّ وَكَوْنِيٌّ وَلا ... يَتَلازَمَانِ وَمَا هُمَا سِيَّانِ

٣٢٦٨- بَلْ ذَاكَ يُوجَدُ دُونَ هَذَا مُفْرَدًا ... وَالعَكْسُ أَيْضًا ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ

٣٢٦٩- لَنْ يَخْلُوَ المَرْبُوبُ مِنْ إِحْدَاهُمَا ... أَوْ مِنْهُمَا بَلْ لَيْسَ يَنْتَفِيَانِ

٣٢٧٠- لَكِنَّمَا الشَّرْعِيُّ مَحْبُوبٌ لَهُ ... أَبَدًا وَلَنْ[1] يَخْلُو مِنَ الأَكْوَانِ

٣٢٧١- هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِيُّ جَاءَتْ رُسْلُهُ ... بِقِيَامِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

٣٢٧٢- لَكِنَّمَا الكَوْنِيُّ فَهْوَ قَضَاؤُهُ ... فِي خَلْقِهِ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

٣٢٧٣- هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ ذُو رِضًا ... وَالشَّأْنُ فِي المَقْضِيِّ كُلَّ الشَّانِ

٣٢٧٤- فَلِذَاكَ نَرْضَى بِالقَضَاءِ وَنَسْخَطُ الـ ... ـمَقْضِيَّ حِينَ يَكُونُ بِالعِصْيَانِ

٣٢٧٥- فَاللهُ يَرْضَى بِالقَضَاءِ وَيَسْخَطُ الـ ... ـمَقْضِيَّ مَا الأَمْرَانِ مُتَّحِدَانِ

٣٢٧٦- فَقَضَاؤُهُ صِفَةٌ بِهِ قَامَتْ وَمَا الـ ... ـمَقْضِيُّ إِلَّا صَنْعَةُ الإِنْسَانِ[2]

٣٢٧٧- وَالكَوْنُ مَحْبُوبٌ وَمَبْغُوضٌ لَهُ ... وَكِلاهُمَا بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ

٣٢٧٨- هَذَا البَيَانُ يُزِيلُ لَبْسًا طَالَمَا ... هَلَكَتْ عَلَيْهِ النَّاسُ كُلَّ[3] زَمَانِ

---

(١) في نسخ برلين والإفتاء والتيمورية ونسخة ابن سحمان «ولو».

(٢) في نسخة ابن سحمان «الرحمن» وتأتي مفاضلة شيخنا بين النسختين مع التوجيه.

(٣) في نسخ السفارينية والتيمورية «منذ».

٣٢٧٩- وَيَحِلُّ مَا قَدْ عَقَّدُوا بِأُصُولِهِمْ ... وَبُحُوثِهِمْ فَافْهَمْهُ فَهْمَ بَيَانِ

٣٢٨٠- مَنْ وَافَقَ الكَوْنِيَّ وَافَقَ سُخْطَهُ ... إِنْ لَمْ يُوَافِقْ طَاعَةَ الدَّيَّانِ

٣٢٨١- فَلِذَاكَ لا يَعْدُوهُ ذَمٌّ أَوْ فَوَا ... تُ الحَمْدِ مَعْ أَجْرٍ وَمَعْ رِضْوَانِ

٣٢٨٢- وَمُوَافِقُ الدِّينِيِّ لا يَعْدُوهُ أَجْـ ... ـرٌ بَلْ لَهُ عِنْدَ الصَّوَابِ اثْنَانِ

الشرحُ

«الحكيمُ» من أسماءِ الله سبحانه وتعالى، وقد جاء كثيرًا في القرآنِ الكريمِ مُعرَّفًا ومُنكَّرًا، ومرفوعًا ومنصوبًا ومجرورًا، على أوجهٍ متعدِّدةٍ، و«الحكيمُ» من أوسعِ الأسماءِ تَعلُّقًا؛ لأنَّه مشتقٌّ من الحُكْمِ والإحكامِ، الإحكامُ الذي هو الحكمةُ والإتقانُ، فيقولُ المؤلِّفُ رحمه الله:

٣٢٦٥- وَهُوَ الحَكِيمُ وَذَاكَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... نَوْعَانِ أَيْضًا مَا هُمَا عَدَمَانِ

٣٢٦٦- حُكْمٌ وَإِحْكَامٌ فَكُلٌّ مِنْهُمَا ... نَوْعَانِ أَيْضًا ثَابِتَا البُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الحَكِيمُ وَذَاكَ مِنْ أَوْصَافِهِ»؛ يعني: أنَّ «الحكيمَ» اسمٌ يدلُّ على وصفين، وليس المعنى أنَّ «الحكيمَ» من أوصافِه؛ لأنَّ «الحكيمَ» من أسمائِه بالاتِّفاق؛ يعني: أنَّ الوصفَ الذي اشتمل عليه اسمُ «الحكيم» نوعان: حُكْمٌ، وإحكامٌ.

قَوْلُهُ: «مَا هُمَا عَدَمَانِ»؛ أي: بل مَوْجودان ثابتان دَلَّ عليهما هذا الاسمُ.

إِذَنْ هو مشتقٌّ من شيئين: من الحُكْمِ، والإحكام، ومنه قولُ الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التِّين:٨]، فهذا شاملٌ للأمرين معًا؛ أي: للحُكْمِ

والإحكامِ، من «**الحُكْم**» على أنَّه مشتقٌّ من «**حَكَمَ**»، ومن «**الإحكام**» على أنَّه مشتقٌّ «**أَحْكَمَ**»، إِذَنْ «**حكيمٌ**» مأخوذةٌ من «**حَكَمَ**» الثُّلاثيِّ، ومن «**أَحْكَمَ**» الرُّباعيِّ؛ إذ إنَّ مصدرَ «**أَحْكَمَ**» إحكامًا، وكونُها مَأخوذةً من الثَّلاثيِّ أمرٌ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّ «**فعيل**» بمعنى فاعل تأتي كثيرًا من «**فَعَلَ**»، تقولُ: «**سميعٌ**» من «**سَمِعَ**» بمعنى: سامع، و«**عليمٌ**» بمعنى: عالم، و«**حكيمٌ**» بمعنى: حاكم، لكن «**فعيل**» من «**أَفْعَلَ**» قليلةٌ، فيكون «**حكيم**» بمعنى «**مُحْكِم**» كـ«**سميع**» بمعنى «**مُسْمِع**»، وهذا واردٌ في اللغة العربيَّة في قولِ الشَّاعرِ:

أَمِــنْ رَيْحَانَــةَ الــدَّاعِي السَّــمِيعُ   يُــؤَرِّقُنِي وَأَصْــحَابِي هُجُــوعُ؟[1]

فَقَوْلُهُ: «**السَّمِيعُ**»؛ أي: المُسْمِع.

وعلى هذا فـ«**الحكيمُ**» مشتقٌّ من الحُكْمِ والإحكامِ، فعلى تقديرِ اشتقاقِه من الحُكْمِ يكون بمعنى «**حاكم**»، وعلى تقديرِ اشتقاقِه من «**الإحكام**» يكون بمعنى «**مُحْكِم**»، وقد عرفتم أنَّ «**فعيل**» يأتي بمعنى «**فاعل**»، ويأتي بمعنى «**مُفْعِل**»، فهو حُكْمٌ وإحكامٌ، وكُلٌّ منهما نوعان أيضًا ثابتا البرهانِ.

والحكمُ نوعان، والإحكامُ نوعان، فالحكمُ نوعان، وبَيَّنَ ذلك فقال:

٣٢٦٧- وَالــحُكْمُ شَرْعِــيٌّ وَكَــوْنِيٌّ وَلا   يَتَلازَمَــانِ وَمَــا هُمَــا سِــيَّانِ

الحكمُ كونيٌّ وشرعيٌّ، فكونُ الله تعالى يقولُ: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، هذا حكمٌ شرعيٌّ، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢] شرعيٌّ، أمرٌ ونهيٌ، الكونيُّ يقولُ للشَّيءِ: كُنْ إيجادًا فيكون، هذا حكمٌ كونيٌّ، يقولُ للشَّيءِ الموجودِ «**كن**»؛

(١) البيت لعَمْرو بن معد يكرب، كما في الأصمعيات (ص:١٧٢).

يعني: عَدَمًا، فيكون عدمًا، ويقولُ: للشَّيءِ المعدومِ: «كن»؛ يعني: وجودًا، فيكون موجودًا، هذا حكمٌ كونيٌّ.

قضاءُ الله -تبارك وتعالى- بالمعاصي والفُسوقِ والفجورِ والكفرِ وما أشبهها من الحكمِ الكونيِّ، وقضاؤه بالأمراضِ والفقرِ والجدبِ والجنون وما أشبه ذلك هو كونيٌّ، أمَّا الحكمُ الشَّرعيُّ فهو الأوامرُ والنَّواهي الشَّرعيَّةُ، وكذلك المباحات.

فالحُكْمُ شرعيٌّ وكونيٌّ ولا يتلازمان، فقد يُوجَدُ الحكمُ الشَّرعيُّ دون الكونيِّ، وقد يوجدُ الكونيُّ دون الشَّرعيِّ، فالمرضُ والفقرُ والموتُ وما أشبهها كونيٌّ وليس شرعيًّا، إيجابُ الصَّلاةِ وتحريمُ الزِّنا شرعيٌّ وليس كونيًّا؛ لأنَّه رُبَّما يقومُ به المرءُ وقد لا يقومُ بخلافِ ما قضاه اللهُ عزَّ وجلَّ كونًا فلا بُدَّ أن يكونَ؛ إِذَنْ لا يتلازمُ الحكمُ الكونيُّ والحكمُ الشَّرعيُّ، فقد يُوجَدُ حكمٌ شرعيٌّ ولكنَّه لا يكونُ حُكْمًا كونيًّا وذلك إذا لم يقع، وقد يُوجَدُ حكمٌ كونيٌّ وليس بشرعيٍّ؛ وذلك إذا وقع وهو ممَّا لا يرضاه اللهُ.

٣٢٦٨- بَلْ ذَاكَ يُوْجَدُ دُونَ هَذَا مُفْرَدًا وَالعَكْسُ أَيْضًا ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ

قَوْلُهُ: «**بَلْ ذَاكَ يُوجَدُ دُونَ هَذَا مُفْرَدًا**»؛ يعني: قد يُوجَدُ الكونيُّ دون الشَّرعيِّ كالمعصيةِ، والفسوقُ والعصيانُ يقعُ من الإنسانِ بالحُكْمِ الكونيِّ لا بالحُكْمِ الشَّرعيِّ؛ لأنَّ الحكمَ الشَّرعيَّ ينفي ذلك.

قَوْلُهُ: «**وَالعَكْسُ أَيْضًا**»؛ أي: قد يُوجَدُ الشَّرعيُّ دون الكونيِّ كالحُكْم بوجوبِ الصَّلاةِ ولكنَّه لم يُصَلِّ، فهذا ثَبَتَ في حقِّه الحكمُ الشَّرعيُّ وهو وجوبُ الصَّلاةِ دون الحُكْمِ الكونيِّ، والطَّاعةُ والعدالةُ ثابتةٌ بالحُكْمِ الشَّرعيِّ، لكن بالحُكْمِ الكونيِّ قد تثبتُ وقد لا تثبتُ، فقد يُطِيعُ الإنسانُ وقد يَعْصِي، وقد يعدلُ وقد يجورُ.

قَوْلُهُ: «ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ» هذا القسمُ الثَّالثُ؛ يعني: وقد يجتمعان، فإذا قال اللهُ تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، ثُمَّ قَامَ رجلٌ وصَلَّى فأيُّ الحكمين فيه؟ الجوابُ: كلاهما، اجتمع في هذا الرَّجلِ الحكمُ الكونيُّ؛ لأَنَّه صَلَّى، والحكمُ الشَّرعيُّ؛ لأَنَّه امتثل أمرَ الله، وقد يجتمعان أيضًا كرجلٍ تزوَّج فعلًا، فهذا فيه الحكمُ الكونيُّ والشَّرعيُّ، وكامرأةٍ حائضٍ لم تُصَلِّ، هنا انتفت صلاتُها بالحكمين الكونيِّ والشَّرعيِّ؛ إِذَنْ اجتمعا في حقِّها.

٣٢٦٩- لَـنْ يَخْلُـوَ الْمَرْبُـوبُ مِـنْ إِحْـدَاهُمَا   أَوْ مِـنْـهُمَا بَـلْ لَـيْسَ يَنْتَفِيَـانِ

المربوبُ لن يخلوَ من الحكمِ الكونيِّ قطعًا؛ لأنَّ كُلَّ مخلوقٍ وُجِدَ بحكمِ الله عزَّ وجلَّ، يفعلُ بحكمِ الله، يتركُ بحكمِ الله، كُلُّ مخلوقٍ -وهو المربوب- لا بُدَّ أن يكونَ قد مضى فيه حكمُ الله عزَّ وجلَّ الكونيُّ.

ورُبَّما يُوجَدُ الشَّرعيُّ مع الكونيِّ، وقد يُوجَدُ الحكمُ الشَّرعيُّ على الشَّخصِ ولا يُوجَدُ الكونيُّ؛ فمثلًا يُوجِبُ اللهُ على العبدِ أن يُقِيمَ الصَّلاةَ، ولا يقيمُ الصَّلاةَ، هذا حكمٌ شرعيٌّ ولم يُوجَد الكونيُّ.

وهل الكُفَّارُ فيهم أحكامُ الله الكونيَّةُ أو الشَّرعيَّةُ؟ الجوابُ: الكونيَّةُ؛ لأنَّهم لم يمتَثِلوا حُكمَ الشَّرعِ.

لكن هل يمكنُ أنْ ينتفيَ الحكمان الكونيُّ والشَّرعيُّ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، فالإنسانُ لا بُدَّ أن يكونَ محكومًا بحكمٍ كونيٍّ أو شرعيٍّ؛ ولذا قال: «**بَلْ لَيْسَ يَنْتَفِيَانِ**».

ثُمَّ شرع المؤلِّفُ -رحمه الله- في الفرقِ بينهما من حيث المحبَّةُ والكراهةُ فقال:

٣٢٧٠- لَكِـنَّمَا الشَّـرْعِيُّ مَحْبُـوبٌ لَـهُ   أَبَـدًا وَلَـنْ يَخْلُـو مِـنَ الأَكْـوَانِ

سواءٌ كان إيجابًا أو عَدَمًا؛ فمثلًا: الصَّلاةُ حكمٌ شرعيٌّ إيجابيٌّ لكنَّها محبوبةٌ لله، اجتنابُ الزِّنا حكمٌ شرعيٌّ عدميٌّ سلبيٌّ محبوبٌ لله عزَّ وجلَّ، فكُلُّ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ الإيجابيَّةِ والسَّلبيَّةِ كُلُّها محبوبةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ، لكن هل تقعُ أو لا تقعُ؟ الجوابُ: قد تقعُ وقد لا تقعُ.

قَوْلُهُ: «**وَلَنْ يَخْلُو مِنَ الأَكْوَانِ**»؛ يعني: لا بُدَّ أن يكونَ حكمُه الشَّرعيُّ موجودًا، لكن قد يُمْتَثَلُ وقد لا يُمْتَثَلُ؛ إِذَنْ لا يخلو الحكمُ الشَّرعيُّ من الأكوانِ أبدًا، ولا يمكنُ أن يخلوَ عصرٌ من الأعصارِ عن آثارِ الرِّسالةِ أبدًا؛ لأنَّه لو خلا عصرٌ من الأعصارِ عن آثارِ الرِّسالةِ لكان للخلقِ على الله حُجَّةٌ، واللهُ عزَّ وجلَّ قد أعذر الخلقَ وأرسل إليهم الرُّسلَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

وقد يُشْكِلُ على هذا ما جاء من الأحاديثِ في آخِرِ الزَّمانِ من رفعِ العلمِ ورفعِ القرآنِ، وحينئذٍ لا تبقى حُجَّةٌ؟ فنقول: هذا العمومُ السَّابقُ نفسُه مخصَّصٌ بهذا، أو يُقَالُ: هذا فيما سبق، أمَّا فيما يأتي فربَّما؛ لأنَّه لا نبيَّ بعد محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثُمَّ إنَّ هؤلاء الذين في آخرِ الزَّمانِ لن يبقوا كثيرًا؛ أي: لن يعيشوا كثيرًا؛ لأنَّه يكونُ عندهم إيمانٌ ثُمَّ ارتدُّوا، وبقوا مثل الحميرِ وماتوا، ولا تأتي ذُرِّيَّةٌ جديدةٌ.

٣٢٧١- هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِيُّ جَاءَتْ رُسْلُهُ ... بِقِيَامِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «**هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِيُّ**» هذا تفسيرٌ للحُكْمِ الشَّرعيِّ، أمرُه الدِّينيُّ أو حُكمُه الدِّينيُّ كُلُّه بمعنى واحد، فصار الحكمُ الشَّرعيُّ هو حُكمَه الدِّينيَّ، الأوامرُ والنَّواهي والإباحاتُ، وهذا ما جاءَتْ به الرُّسُلُ، ولن يخلوَ منه زمانٌ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، والحكمُ الشَّرعيُّ يجبُ

الرِّضا به على كُلِّ حالٍ، ويجبُ تنفيذُه على كُلِّ حالٍ، ولا يجوزُ كراهتُه بأيِّ حالٍ من الأحوالِ، والكونيُّ سيأتي.

٣٢٧٢- لَكِنَّمَا الكَوْنِيُّ فَهْوَ قَضَاؤُهُ   فِي خَلْقِهِ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّمَا الكَوْنِيُّ» وهذا القسمُ الثَّاني، «فَهْوَ قَضَاؤُهُ فِي خَلْقِهِ» وكيف قضاؤه في خلقِه؟ ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ قضاءَ الله في خلقِه يدورُ على شيئين لا ثالثَ لهما: عدل وإحسان، بخلاف الظُّلمِ فإنَّه يمكنُ أن يكونَ من غيرِ الله، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فلا ظُلمَ في قضائِه أبدًا، إمَّا عدلٌ وإمَّا إحسانٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠] هذا إحسانٌ، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، هذا عدلٌ؛ ولذلك قال: «بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ»، فمجازاةُ السَّيِّء على سيِّئتِهِ عدلٌ، والمحسنِ على إحسانِه إحسانٌ، أمَّا الظُّلمُ فلا يمكنُ أن يقعَ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ [طه:١١٢].

٣٢٧٣- هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ ذُو رِضًا   وَالشَّأْنُ فِي المَقْضِيِّ كُلَّ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ ذُو رِضًا» كُلُّ قضاءِ الله حقٌّ، كُلُّ قضاءِ الله عدلٌ، إذا أُصِيبَ النَّاسُ بحروبٍ، أُصيبوا بجدبٍ، أُصيبوا بأمراضٍ، هل هذا عدلٌ أو إحسانٌ أو ظلمٌ؟ الجوابُ: هو عدلٌ لا شكَّ، لكنَّه إحسانٌ من جهةٍ أخرى، بَيَّنَه اللهُ تعالى في قولِهِ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الرُّوم:٤١]، إِذَنْ هذا عدلٌ ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الرُّوم:٤١]، إِذَنْ النَّتيجةُ إحسانٌ، حتَّى جَزاء السَّيِّئاتِ في الدُّنيا هو في الحقيقةِ إحسانٌ؛ ولهذا جاء في الحديثِ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا -حتَّى يوافيَ ربَّه وما

عليه ذنبٌ- وإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١]، وعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى.

إِذَنْ قضاءُ الله -سبحانه وتعالى- دائرٌ بين العدلِ والإحسانِ، كُلُّه حقٌّ، كُلُّه عدلٌ، كُلُّه مرضيٌّ، وهذا بالنِّسبةِ للقضاءِ.

قَوْلُهُ: «وَالشَّأْنُ فِي المَقْضِيِّ كُلَّ الشَّانِ» المقضيُّ هو الذي فيه التَّفصيلُ؛ ولذا قال:

٣٢٧٤- فَلِذَاكَ نَرْضَى بِالقَضَاءِ وَنَسْخَطُ الـ ـمَقْضِيَّ حِينَ يَكُونُ بِالعِصْيَانِ

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ نَرْضَى بِالقَضَاءِ»؛ أي: نَرْضَى بقضاءِ الله، حتَّى قضاء الله بالمعاصي نَرْضَى به، قضاءُ الله بالجدبِ، والفقرِ، والمرضِ، والموتِ، والزَّلزلةِ، وكُلِّ شيءٍ، نرضى به، ولا يمكنُ أن نسخطَه؛ لأَنَّك لو لم ترضَ بالقضاءِ لم تكن رَضِيتَ بالله ربًّا.

إِذَنْ يبقى علينا المقضيُّ، وهو الذي فيه التَّفصيلُ؛ ولهذا قال: **«وَنَسْخَطُ المَقْضِيَّ حِينَ يَكُونُ بِالعِصْيَانِ»**، فالمقضيُّ هو الذي يكونُ محلًّا للرِّضا والسخطِ والصَّبرِ والجزعِ.

هل يجبُ علينا أن نرضى بكُلِّ مَقْضِيٍّ؟ الجوابُ: فيه تفصيل أمَّا المقضيُّ الشرعيُّ فيجب علينا أن نرضى به؛ فيجبُ علينا أن نؤمنَ بوجوبِ الصَّلاةِ، وتحريمِ الزِّنا، وما أشبه ذلك، لكن في الكونيِّ لا يلزمُ علينا الرِّضا بكُلِّ مقضيٍّ؛ وذلك أَنَّ المقضيَّ إمَّا أن يكونَ ممَّا يكرهُه اللهُ أو ممَّا يحبُّه، فإن كان ممَّا يكرهُه اللهُ وَجَبَ علينا أن نكرهَه؛ فمثلًا كفرُ الكافرينِ لا شكَّ بالنِّسبة لقضاءِ الله له حقٌّ وعدلٌ وحكمةٌ، لكن المقضيُّ وهو الكفرُ لا يلزمُنا أن نرضى به، بل لا يجوزُ أن

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦).

نرضى بهذا بالمقضيِّ، لكنَّنا لا نعترضُ على الله ونقولُ: لماذا يُقَدِّرُ الكفرَ؟ لماذا لم يجعل النَّاسَ كُلَّهم على الإيمانِ؟ هذا حرامٌ، إنَّما المقضيُّ فيه أقسامٌ:

ما كَرِهَهُ اللهُ يجبُ علينا أن نكرهَه، وما أحبَّه اللهُ يجبُ علينا أن نحبَّه، هذا في الأمورِ الشَّرعيَّةِ.

أمَّا في الأمورِ الكونيَّةِ كالمصائبِ مثلًا، فإذا أُصِيبَ الإنسانُ بمصيبةٍ يكون له أربعُ مراتبِ: الجزع، الصَّبر، الرِّضا، الشُّكر، فإذا أُصِيبَ الإنسانُ بمصيبةٍ كونيَّةٍ كالمرضِ مثلًا، أو موتِ الأحبابِ، أو فقدِ الأموالِ، وما أشبه ذلك، فله أربعُ مراتب:

الأولى: الجَزَعُ، أن يجزعَ من قضاءِ الله إمَّا بلسانِه وإمَّا بفعالِه وإمَّا بقلبِه، إمَّا بلسانِه مثل أن يدعوَ بالويل والثُّبور كما يدعو أهلُ الجاهلية: يا ويلاه، ياثبوراه، وانقطاع ظهراه، وما أشبه ذلك، وبالفعلِ كشقِّ الجيبِ أو نتفِ الشَّعرِ أو خمشِ الخدودِ، وإمَّا بقلبِه بأن يجزعَ من الله؛ يعني: يقولُ في قلبِه: كيف ابتلاني اللهُ عزَّ وجلَّ وقد عافى فلانًا وفلانًا فيتسخَّط على الله عزَّ وجلَّ ما حُكْمُ هذا؟ هذا محرَّمٌ حتَّى إنَّ النَّبِيَّ ﷺ تبرَّأ من فاعلِه فقال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»[1]، ولما مرَّ بامرأةٍ عند قبرٍ تبكي على ولدِها قال لها: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**»، ولكنَّها لم تفعل، وقالت: **إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي**، فانصرف الرَّسولُ ﷺ فقيل لها: **إِنَّهُ رَسُولُ الله، فَجَاءَتْ تَعْتَذِرُ، فَقَالَ لَهَا**: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»[2]، وصدق الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، رقم (١٢٩٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، رقم (١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم (١٢٢٣)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند أول الصدمة، رقم (٩٢٦).

الثَّانية: الصَّبرُ، وهو حبسُ النَّفسِ عن الجزعِ، بمعنى: أنَّ الإنسانَ يتألَّمُ جدًّا جدًّا من المصيبةِ، ويتمنَّى أنَّها لم تكن حَدَثَتْ، لكنَّه صابرٌ لم يَتَسخَّط لا بقولِه ولا بفعلِه ولا بقلبِه، فهو صابرٌ يقولُ: «**إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون**»، ويصبرُ، فهذا واجبٌ؛ لأنَّه صبرٌ عن المحرَّمِ، والصَّبرُ عن المحرَّمِ واجبٌ.

الثَّالثة: الرِّضا، أنْ تكونَ المصيبةُ عند الإنسانِ ليس بين وجودِها وعدمِها فرقٌ؛ يعني: هو ما تألَّم ذاك التَّألُّم؛ لأنَّه يقولُ في نفسِه: أنا عبدٌ لله عزَّ وجلَّ يفعلُ بي ما شاء، إنْ أعطاني شَكَرْتُ، وإنِ ابتلاني صَبَرْتُ، فالكُلُّ عنده سواءٌ، هذه لا شكَّ أنَّها أعلى مرتبةً من الصَّبرِ؛ ولهذا اختلف العلماءُ -رحمهم الله تعالى- هل الرِّضا بالمصائبِ واجبٌ أو مستحبٌّ؟ والجمهورُ على أنَّه مستحبٌّ وليس بواجبٍ، وهذا اختيارُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ وجماعةٍ من المحقِّقين، وهو الصَّحيحُ، وهذا بالنِّسبة للمَقضِيِّ.

أمَّا القضاءُ فيجبُ الرِّضا به على كُلِّ حالٍ، والرِّضا بالقضاءِ من مقتضى قولِ القائلِ: «**رَضِيتُ بِالله رَبًّا**».

لكن هذا الذي رَضِيَ هل نقولُ إذا بَكَى: دَلَّ ذلك على عدمِ رضاه؟ الجوابُ: لا، فقد يبكي رحمةً، أو يبكي يتذكَّرُ مثلًا اجتماعَه بهذا الشَّخصِ وما أشبه ذلك، فيتجدَّد له الحزنُ، فهذا لا يُنافي الرِّضا.

الرَّابعة: الشُّكرُ، وهو فوق هذا كُلِّه؛ إذ كُلُّ شاكرٍ صابرٌ راضٍ، وكُلُّ راضٍ صابرٌ، وليس كُلُّ صابرٍ راضيًا ولا شاكرًا، والشُّكرُ أنْ تشكرَ اللهَ على هذا البلاءِ، وهذا أمرٌ قد يبدو للإنسانِ مستحيلًا؛ إذ كيف يشكرُ اللهَ على مرضٍ، أو على فقرٍ، أو على موتِ أولادٍ، أو على قلقٍ وخوفٍ؟

قال العلماء: يُتَصَوَّرُ هذا بأن يذكرَ أنَّ هذه المصيبةَ تُكفِّرُ السَّيِّئاتِ، ومع الاحتسابِ تُرْفَعُ الدَّرجاتُ، وأيضًا هذه المصيبةُ عقوبةٌ عُجِّلَت له في الدُّنيا، والعقوبةُ إذا عُجِّلت في الدُّنيا فهي أهونُ من تأخيرِها في الآخرِة، فيشكرُ من هذه النَّاحيةِ.

فهذه أحوالُ النَّاسِ عند وجودِ ما يُكْرَهُ من المقضيِّ، أمَّا بالنِّسبةِ لصدورِه من الله -سبحانه وتعالى- فالرِّضا به واجبٌ؛ لأنَّك إن لم ترضَ بذلك فإنَّك لم ترضَ بالله ربًّا، وهذا بالنِّسبة للمصائبِ التي من الله.

أمَّا بالنَّسبة للأفعالِ فهل نرضى بأفعالِ النَّاسِ؟ نقولُ: فيها عدَّةُ أمورٍ: إذا كانت معصيةً لا نرضى بها، ولا يجوزُ الرِّضا بها، وإذا كانت طاعةً وَجَبَ الرِّضا بها؛ لأنَّك لو لم ترضَ بفعلِ العبدِ إذا كان طاعةً فقد كَرِهْتَ حُكْمَ الله، وكراهةُ حُكْمِ الله لا شكَّ أنَّها حرامٌ وقد تكونُ كفرًا، فيجبُ علينا أن نرضى بالطَّاعاتِ، وبذلك نعرفُ الخطورةَ العظيمةَ على أولئك الذين يكرهون من النَّاسِ أن يتطوَّعوا بالعباداتِ، يُوجَدُ من النَّاسِ مَن يمنعون أبناءَهم وبناتِهم من فعلِ الطَّاعِة، يقول مثلًا: لا تَقُمْ باللَّيلِ حتَّى لا تسهر فتتعبَ نفسَك، لا تصم الإثنين والخميس، لا تصم الأيامَ البيضَ؛ لأنَّ هذا تعبٌ، وهذا يشكو منه بعضُ النَّاسِ، فبعضُ النَّاسِ يتَّصلون علينا ويقولون: إنَّ أُمَّنا مَنَعَتْنَا من الصِّيامِ، مَنَعَتْنَا من قيامِ اللَّيلِ، أبونا يقولُ: لا تصوموا، يقولُ: لا تطلبوا العلمَ، لا تذهبوا مع الرِّجالِ الخيِّرين الطَّيِّبين، وهذا خطيرٌ جدًّا؛ لأنَّ هذا مضمونُه كراهةُ الطَّاعِة، وهو خطيرٌ على الإنسانِ.

ولا شكَّ أنَّ الذين يفعلون مثلَ هذا الفعلِ أنَّهم سُفَهاءُ عقولٍ ضِعَافُ دينٍ؛ لأنَّ الذي ينبغي للإنسانِ إذا مَنَّ اللهُ على أبنائِه وبناتِه بالاستقامةِ أن يشكرَ اللهَ

ويشجِّعَهم على ذلك؛ لأنَّ هذا خيرٌ له، وقد قال النَّبيُّ ﷺ «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

فصار عندنا الآن بالنِّسبةِ للحكمِ الكونيِّ هل نرضى به أو لا؟ الجوابُ: باعتبارِ صدورِه من الله نرضى به وجوبًا؛ لأنَّه قضاءُ الله، وهو ربُّنا يفعلُ ما يشاءُ، وبالنِّسبةِ للمقضيِّ فيه تفصيلٌ: فإن كان مصائبَ فالنَّاسُ فيها مراتبُ أربعٍ، وإن كان فعلًا من العبدِ فإن كان معصيةً حَرُمَ الرِّضا به، وإن كان طاعةً وَجَبَ الرِّضا به.

فإذا قال قائلٌ: قال اللهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] الصَّحابةُ كَرِهُوا القتالَ، والقتالُ جهادٌ في سبيلِ الله، كيف يكونُ كُرْهًا؟ نقولُ: إنَّ كُرْهَهم ليس لكتابتِه عليهم، فهم بالنِّسبةِ للكتابةِ راضون وسينفِّذون، لكن هذا كرهٌ طبيعيٌّ، كُلُّ إنسانٍ يكرهُ أنْ يموتَ، لكن من النَّاحيةِ الشَّرعيَّةِ وفرضِ الله إيَّاه ما كَرِهُوا هذا أبدًا، بل يتسابقون إليه، ومن هذا النَّوعِ كونُ النَّبيِّ ﷺ «يَكْرَهُ النَّومَ قَبْلَ صَلَاةِ العِشَاءِ وَالحَدِيثَ بَعْدَهَا»(٢)، فإنَّ بعضَ أهلِ العلمِ يقولُ: هذه الكراهةُ ليست كراهةً شرعيَّةً وهي ككراهتِه أكلَ البصلِ والثُّومِ، لكن هذا فيه نظرٌ وفيه تردُّدٌ.

الخلاصةُ: أنَّ الحكمَ نوعان: شرعيٌّ وكونيٌّ؛ فالشَّرعيُّ هو أمرُه الدِّينيُّ الذي جاءت به الرُّسلُ، والكونيُّ ما يقضيه اللهُ تعالى في خَلْقِه وهو دائرٌ بين أمرين لا ثالثَ لهما هما: العدلُ والإحسانُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الهبات، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت العصر، رقم (٥٢٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها، رقم (٦٤٧).

الحكمُ بالنِّسبةِ للشَّرعيِّ يجبُ علينا أن نرضىَ به سواءٌ كان مأمورًا به أم منهيًّا عنه، أمَّا الكونيُّ فنقول: أمَّا أصلُ القضاءِ فيجب علينا أن نرضى به؛ لأنَّ هذا من مقتضى رضا الإنسانِ بالله ربًّا، والمقضيُّ فيه التَّفصيلُ؛ فللإنسانِ أربعةُ مقاماتٍ كما سبق، أمَّا المقضيُّ الشَّرعيُّ يجبُ الرِّضا به على كُلِّ حالٍ، لكن إذا وقع من شخصٍ زنا، فوقوع الزِّنا منه حكمٌ كونيٌّ لا شرعيٌّ، فيجبُ علينا أن نرضى بأنَّ اللهَ حرَّمه، ولكن لا نرضى بفعلِ هذا الرَّجلِ له؛ لأنَّ المقضيَّ كما قال ابنُ القيِّم رحمه الله: «**والشَّأَنُ فِي المَقْضِيِّ كُلَّ الشَّانِ**».

٣٢٧٥- فَاللهُ يَرْضَى بِالقَضَاءِ وَيَسْخَطُ الـ ... ـمَقْضِيَّ مَا الأَمْرَانِ مُتَّحِدَانِ

قَوْلُهُ: «**فَاللهُ يَرْضَى بِالقَضَاءِ وَيَسْخَطُ المَقْضِيَّ**»، فهو عزَّ وجلَّ يرضى أنَّه قَضَى على عبادِه بالكفرِ والإيمانِ، ويسخطُ الكفرَ، يرضى -جلَّ وعلا- بكونِه حرَّم الزِّنا، ويكرهُ أن يقعَ الزِّنا، كيف يكرهُ أن يقعَ الزِّنا؟ نعم، يكرهُه شرعًا، لو قال قائلٌ: إذا كان عزَّ وجلَّ يكرهُ الزِّنا فلماذا قَضَى به كونًا؟ نقولُ: قضى به كونًا لحكمةٍ عظيمةٍ كما أنَّه جعل الخلقَ منهم كافرٌ ومنهم مؤمنٌ لحكمةٍ عظيمةٍ، وهو لا يَرْضَى الكفرَ.

قَوْلُهُ: «**مَا الأَمْرَانِ مُتَّحِدَانِ**» هل هذا الإعرابُ مخالفٌ للمشهورِ من لغة العربِ أو موافقٌ؟ الجوابُ: نقولُ: إذا قال لك: إنَّه تميميٌّ انتهى الإشكالُ، وإذا قال لك: إنَّه قرشيٌّ لكنَّه يرى أنَّ المثنىَّ يلزمُ الألفَ مطلقًا، إِذَنْ لها مخرجٌ، إمَّا أن يُقَالَ: إنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- مشى على لغةِ بني تميمٍ، وإمَّا أن يُقَالَ: إنَّه مشى على لغة مَنْ يُلزمون المثنَّى الألفَ مطلقًا، لكنِّي أقول: بالنِّسبة للمؤلِّفين الذين ألَّفوا بعد تغيُّرِ هذا اللِّسانِ يجبُ أن يمشوا على لغةِ قريشٍ التي هي لغةُ القرآنِ، لكن إذا أتاك رجلٌ يريد أن يجادلَ فله مخرجٌ.

٣٢٧٦- فَقَضَاؤُهُ صِفَةٌ بِـهِ قَامَـتْ وَمَـا الـ ـــمَقْضِيُّ إِلَّا صَــنْعَةُ الإِنْسَـــانِ

قَوْلُهُ: «**فَقَضَاؤُهُ صِفَةٌ بِهِ قَامَتْ**» قضاؤه الذي هو فعلُه عزَّ وجلَّ أو تشريعُه للشَّيءِ صفةٌ قَامَتْ به، وهذا يجبُ الرِّضا به على كُلِّ حالٍ، وليُعْلَم أنَّ قضاءَ الله وإن كان المقضيُّ شرًّا فهو خيرٌ؛ لأنَّ اللهَ وإنْ قَضَى الشَّرَّ فإنَّما يقضيه لحكمةٍ بالغةٍ وغايةٍ محمودةٍ، فهو خيرٌ.

قَوْلُهُ: «**وَمَا المَقْضِيُّ إِلَّا صَنْعَةُ الإِنْسَانِ**»، وفي نسخةٍ: «**صَنْعَةُ الرَّحْمَنِ**»؛ يعني: إلَّا مصنوعٌ، فـ«صنعة» هنا بمعنى مصنوع، أمَّا على نسخة: «**وَمَا المَقْضِيُّ إِلَّا صَنْعَةُ الإِنْسَانِ**» فالمعنى: ما المقضيُّ إلَّا فعلُ الإنسانِ، وهذا صحيحٌ، فيكون المقضيُّ فعلَ الإنسانِ من طاعاتٍ ومعاصٍ.

وعلى نسخة: «**وَمَا المَقْضِيُّ إِلَّا صَنْعَةُ الرَّحْمَنِ**» فصحيحٌ أيضًا كما سبق في المصائبِ، فالمصائبُ من فعلِ الله، وكذلك الطَّاعاتُ والمعاصي من فعلِ العبدِ، ولكنَّها بإرادةِ الله.

٣٢٧٧- وَالكَـوْنُ مَحْبُـوبٌ وَمَبْغُـوضٌ لَـهُ وَكِلاهُمَـــا بِمَشِـــيئَةِ الـــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**وَالكَوْنُ مَحْبُوبٌ وَمَبْغُوضٌ لَهُ**»؛ يعني: الواقع كونًا منه ما هو محبوبٌ لله مثل: الطَّاعاتِ، ومنه ما هو مبغوضٌ له كالمعاصي، قال اللهُ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ المَالِ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣]، وكم الغنى، رقم (١٤٧٧). ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم (١٧١٥).

قَوْلُهُ: «**وَكِلَاهُمَا بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ**»؛ أي: المحبوبُ والمبغوضُ كلاهما بمشيئتِهِ، اجتمع رجلان: أحدهما مبتدعٌ[١]، فلمَّا جلس أو جاء قال: «سُبْحَانَ مَنْ تنزَّه عن الفحشاءِ!»، فهذا الكلامُ ظاهرُه أنَّه صحيحٌ، ففطن له الآخرُ وهو من أهلِ السُّنَّةِ، فقال: «سُبْحَانَ مَنْ لا يكونُ في ملكِه إلَّا ما يشاءُ!»[٢]، معنى كلام الأوَّلِ: أنَّ المعاصيَ غيرُ مرادةٍ لله، وهذا أحدُ القولين من مذهب القدريَّةِ؛ لأنَّ القدريَّةَ منهم مَنْ يقولُ: جميعُ أفعالِ العبدِ لا تدخلُ في مشيئةِ الله، ومنهم مَنْ يقولُ: المعاصي لا تدخلُ في مشيئةِ الله؛ لأنَّ اللهَ لا يرضاها، والطَّاعاتُ تدخلُ في مشيئةِ الله.

فقوله: «سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّه عن الفحشاءِ!»؛ يعني: أنَّ المعاصيَ غيرُ مخلوقةٍ لله، وغيرُ مرادةٍ لله، فقال الآخر: «سُبْحَانَ مَنْ لا يكونُ في ملكِه إلَّا ما يشاءُ!»، فقال له الأوَّلُ: أَرَأَيْتَ إنْ منعني الهدى -يعني: لم يهدِني- وقضى عليَّ بالرَّدى أَحْسَنَ إليَّ أم أَسَاءَ؟ السُّؤالُ محرجٌ، فأجابه قائلًا: «**إنْ منعك ما هو لك فقد أَسَاءَ، وإن منعك ما هو فضلُه فذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاءُ**»، فانقطع الرَّجلُ؛ يعني: قال له: هل لك على الله حقٌّ حتَّى تقولَ: منعني حقِّي؟ الجوابُ: لا، هو فضلُه، واللهُ -سبحانه وتعالى- يُؤتِي فضلَه مَنْ يشاءُ، فيهدي هذا ويهدي هذا، ويُضِلُّ هذا، ولكن اعلم أنَّ اللهَ لا يُضِلُّ إلَّا مَنْ عَلِمَ سبحانه أنَّه أهلٌ للإضلالِ، فيكون قولُه تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام:٣٩] مقيَّدًا بما إذا كان الذي أضلَّه اللهُ غيرَ أهلٍ للهدايةِ، أعاذَنا اللهُ وإيَّاكم من هذا، والدَّليلُ قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

---

(١) هو القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي، والآخر هو أبو إسحاق الإسفراييني من أئمة أهل السنة.

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٣٣٩).

فإذا قال قائلٌ: المحبوبُ وقوعُه بمشيئةِ الله لا إشكالَ فيه؛ لأنَّ اللهَ يحبُّه فأوقعه، ولكن المكروهُ كيف يكونُ بمشيئةِ الله؟ نقولُ: من هنا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ من النَّاسِ، وقالوا: إنَّ المكروهَ لله لا يقعُ بمشيئتهِ وإنَّ المعاصيَ ليست بمشيئةِ الله، وكيف يشاءُ اللهُ شيئًا لا يرضاه؟

ولكنَّا نقولُ: بل إنَّ اللهَ لا يكونُ في مُلكِه ما لا يريدُ، كُلُّ شيءٍ في ملكِه فهو بإرادةِ الله عزَّ وجلَّ، ولا يخرجُ عن ملكِه شيءٌ، ولكنَّ المرادَ نوعان: مرادٌ لذاتِه، ومرادٌ لغيرِه، فالمحبوبُ مرادٌ لذاتِه، والمكروهُ «المبغوضُ» لله مرادٌ لغيرِه؛ لأنَّ في وقوعِ هذا الشَّيءِ الذي يبغضُه اللهُ ويكرهُه من المصالحِ العظيمةِ ما اقتضت الحكمةُ أن يقعَ من أجلِها، لولا وقوعُ ما يكرهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لم يُعْرَف المؤمنُ من الكافرِ ولا المتَّقي من الفاسقِ، فلولا الكفرُ ما عُرِفَ قدرُ الإيمانِ، ولولا الكفرُ ما قامت الدُّنيا والآخرةُ؛ لأنَّ اللهَ خَلَقَ النَّارَ وخلق لها أقوامًا، ولم يقم عَلَمُ الجهادِ ولا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ، ولم يعرف الإنسانُ قدرَ نعمةِ الله عليه بالإيمانِ، إلى غير ذلك من المصالحِ العديدةِ في وقوعِ الأشياءِ المكروهةِ لله، لكنَّها مرادةٌ لغيرِها؛ أي: لما يترتَّبُ عليها من المصالحِ، وإلَّا فإنَّ اللهَ يريدُ منَّا أن نقضيَ على هذه المعاصي؛ ولهذا أمر بحدِّ الزَّاني، وقطعِ يد السَّارقِ، ورجمِ الزَّاني المُحْصَن، وهكذا، كُلُّ هذا قطعًا لدابرِ هذا الشَّيءِ، لكن الحكمةُ تقتضي وجودَه لما فيه من المصالحِ العظيمةِ.

ونضربُ لهذا مثلًا برجلٍ له طفلٌ يحبُّه حبًّا شديدًا، ويكرهُ أن يخرجَ به إلى الشَّمسِ؛ خوفًا من حرِّها، فمرض الطِّفلُ، فجاء الطَّبيبُ، وقال: لا بُدَّ أن نكويَه في بطنِهِ أو في رأسِه، كيف ذلك مع أنَّ النَّارَ حارَّةٌ، فالرَّجلُ يتَّقي الشَّمسَ خوفًا من أن تحتميَ على ولدِه؟! فهل يَكْرَهُ أبو الطِّفلِ أن يُكْوَى أو لا يَكْرَهُ؟ الجوابُ: يَكْرَهُ

بدون سببٍ، لكن للغايةِ يُحِبُّ أن يُكْوَى، فيقول: اكوِه، فاللهُ عزَّ وجلَّ قد يريدُ الكفرَ والمعاصيَ لغايةٍ حميدةٍ.

٣٢٧٨- هَـذَا البَيَـانُ يُزِيـلُ لَبْسًـا طَالَـمَا هَلَكَـتْ عَلَيْـهِ النَّـاسُ كُـلَّ زَمَـانِ

يبقَى محـيِّرًا للنَّاسِ؛ كيف يريدُ اللهُ ما يكرهُ؟ وكيف يريدُ ما لا يحبُّه؟ لكن المؤلِّفُ -رحمه الله- شَرَحَ هذا البابَ شرحًا وافيًا، وبَيَّنَ أنَّ هناك فرقًا بين القضاءِ والمقضيِّ، وأنَّ القضاءَ كُلَّه محبوبٌ لله تعالى، وأمَّا المقضيُّ فمنه ما هو مكروهٌ ومنه ما هو محبوبٌ، والمبغوضُ مرادٌ لغيرِه، والمحبوبُ مرادٌ لذاتِه.

٣٢٧٩- وَيَحِلُّ مَـا قَـدْ عَقَّـدُوا بِأُصُولِـهِمْ وَبُحُـوثِهِمْ فَافْهَمْـهُ فَهْـمَ بَيَـانِ

يعني: هذا البيانُ يَحِلُّ ما قد عقَّدوا بأصولِهم؛ أي: ما جعلوه مُعَقَّدًا لم يعرفوا أن يتخلَّصوا منه.

٣٢٨٠- مَنْ وَافَـقَ الكَـوْنِيَّ وَافَـقَ سُـخْطَهُ إِنْ لَـمْ يُوَافِـقْ طَاعَـةَ الـدَّيَّانِ

مَنْ وَافَقَ القضاءَ الكونيَّ، وليست هذه الموافقةُ موافقةً لطاعةِ الله، فهذا وقَع في سخطِ الله لكنَّه بقضاءِ الله الكونيِّ، وبهذا نقولُ: العاصي موافقٌ لمرادِ الله الكونيِّ، لكنَّه ليس مُوافقًا لمرادِ الله الشَّرعيِّ، ومرادُه رحمه الله بقوله: «**إِنْ لَـمْ يُوَافِقْ طَاعَةَ الدَّيَّانِ**»؛ يعني: إنْ كان مخالفًا للطَّاعة، وذلك لأنَّ الأشياءَ إمَّا واجبٌ، أو حرامٌ، أو مباحٌ، فمرادُ ابن القيِّم -رحمه الله- الحرامُ.

٣٢٨١- فَلِـذَاكَ لا يَعْـدُوهُ ذَمٌّ أَوْ فَـوَا تُ الحَمْدِ مَعْ أَجْـرٍ وَمَـعْ رِضْـوَانِ

قَوْلُهُ: «**لَا يَعْدُوه**»؛ أي: لا يعدو مَنْ وَافَقَ الكونيَّ ذَمٌّ؛ يعني: لا بُدَّ أن يكونَ مذمومًا؛ لأنَّه خالَفَ الطَّاعةَ.

قَوْلُهُ: «أَوْ فَوَاتُ الحَمْدِ مَعْ أَجْرٍ وَمَعْ رِضْوَانِ»؛ يعني: أو يفوتُه الحمدُ والأجرُ والرِّضوان؛ يعني: فهو إمَّا أن يُذَمَّ إن كان الشَّيءُ الذي فعله مكروهًا، أو يفوتُه الحمدُ والرِّضوان والأجرُ إذا ترك شيئًا محبوبًا.

مثلًا مَنْ زَنَى -نسألُ اللهَ العافيةَ- هذا يلحقه الذَّمُّ، ومَن لم يقم بالواجبِ فإنَّه يفوتُه الحمدُ والأجرُ والرِّضوانُ، وإن كان قد يُذَمُّ من وجهٍ آخرَ.

٣٢٨٢- وَمُوَافِقُ الدِّينِيِّ لا يَعْدُوهُ أَجْـ ... ـرٌ بَلْ لَهُ عِنْدَ الصَّوَابِ اثْنَانِ

قَوْلُهُ: «وَمُوَافِقُ الدِّينِيِّ لَا يَعْدُوهُ أَجْرٌ» «الدِّينيِّ»؛ أي: الشَّرعيِّ، وصفةٌ لمحذوفٍ تقديرُه: «الأمرِ» أو «الحُكْمِ» الدِّينيِّ، لا يعدوه أجرٌ.

يعني: لا بُدَّ أنْ ينالَ أجرًا بخِلافِ مَنْ وَافَقَ الأمرَ الكونيَّ، فقد يُذَمُّ، وقد يفوتُه الحمدُ والرِّضوان، أمَّا موافقُ الأمرِ الدِّينيِّ فإنَّه لا يعدوه أجرٌ، «بَلْ لَهُ عِنْدَ الصَّوَابِ اثْنَانِ»؛ وذلك إذا أصاب، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»[1].

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (٦٩١٩)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (١٧١٦).

فصل

٣٢٨٣- وَالحِكْمَةُ العُلْيَا عَلَى نَوْعَيْنِ أَيْـ ـضًا حُصِّلَا بِقَوَاطِعِ البُرْهَانِ

٣٢٨٤- إِحْدَاهُمَا فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ نَوْعَانِ أَيْضًا لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

٣٢٨٥- أَحْكَامُ هَذَا الخَلْقِ إِذْ إِيجَادُهُ فِي غَايَةِ الإِحْكَامِ وَالإِتْقَانِ

٣٢٨٦- وَصُدُورُهُ مِنْ أَجْلِ غَايَاتٍ لَهُ وَلَهُ عَلَيْهَا حَمْدُ كُلِّ لِسَانِ

٣٢٨٧- وَالحِكْمَةُ الأُخْرَى فَحِكْمَةُ شَرْعِهِ أَيْضًا وَفِيهَا ذَانِكَ الوَصْفَانِ

٣٢٨٨- غَايَاتُهَا اللَّاتِي حُمِدْنَ وَكَوْنُهَا فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ وَالإِحْسَانِ

الشرحُ

٣٢٨٣- وَالحِكْمَةُ العُلْيَا عَلَى نَوْعَيْنِ أَيْـ ـضًا حُصِّلَا بِقَوَاطِعِ البُرْهَانِ

٣٢٨٤- إِحْدَاهُمَا فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ نَوْعَانِ أَيْضًا لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

لما انتهى الكلامُ على الحُكْمِ شَرَعَ في الكلامِ على الحكمةِ التي هي الإحكامُ، وهي على نوعين: حكمة في الخلقِ، وحكمة في الشَّرعِ، والحكمةُ في الخلقِ أيضًا نوعان: إحكامُ هذا الخلقِ، والثَّاني: الغايةُ من هذا الخلقِ، فهي حكمةٌ ذاتيَّةٌ صوريَّةٌ، وحكمةٌ غائيَّةٌ.

إِذَنْ الحكمةُ إمَّا في ذاتِ الشَّيءِ المخلوقِ أو المشروعِ، وإمَّا في غايتِهِ، فتكونُ الأقسامُ أربعةً وهي: حكمةٌ في المخلوقِ ذاتِه، وحكمةٌ في غايتِه، وحكمةٌ في المشروعِ،

وحكمةٌ في غايتِه.

٣٢٨٥- أَحْكَامُ هَذَا الخَلْقِ إِذْ إِيجَادُهُ   فِي غَايَةِ الإِحْكَامِ وَالإِتْقَانِ

تأمَّل السَّماءَ، الأرضَ، الشَّمسَ، القمرَ، النُّجومَ، تجدها كُلَّها بهذا التَّرتيبِ والنِّظامِ مُطابقةً للحكمةِ؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]، هذا التَّقديرُ المرتَّبُ الذي لا يفوتُ ولا يتغيَّرُ منذ خُلِقَ إلى اليومِ وإلى أنْ يشاءَ اللهُ، وكذلك الشَّمسُ فقد قَدَّرَ اللهُ جرَيانها على فُصولٍ أربعةٍ، النُّجومُ، والإنسانُ وتركيبُه على هذا الشَّكلِ وبهذه القامةِ، وبإيداعِ ما أَوْدَعَهُ اللهُ تعالى في قُواه الظَّاهرةِ والباطنةِ، كونُه على هذا الوجهِ مُوافقٌ للحِكمةِ، فمثلًا: «**اليد**» لماذا كانت أصابعُها طويلةً وأصابعُ الرِّجلِ قصيرةً؟ الجوابُ: لحكمةٍ؛ لأنَّ اليدَ بها يقبضُ، وبها يأكلُ، وبها يشدُّ وبها يحلُّ، لكن لو كانت أصابعُ الرِّجلِ طويلةً لأشكل على الإنسانِ كيف يمشي؟ لكن جعلَها اللهُ قصيرةً من أجل أنْ تثبتَ على الأرضِ، ولماذا جعل أظفارًا في أطرافِ الأصابعِ؟ الجوابُ: لحكمةٍ، لولا هذه الأظفارُ لتدرَّنت أطرافُ الأصابعِ، وأشياءُ كثيرةٌ، ومَن أراد الزِّيادةَ في هذا الأمرِ فعليه بقراءة كتاب: «**مفتاح دار السَّعادة**» للنَّاظم رحمه الله، ففيه عجائبُ.

والغايةُ من هذا الخلقِ أيضًا حكمةٌ؛ ولهذا قال:

٣٢٨٦- وَصُدُورُهُ مِنْ أَجْلِ غَايَاتٍ لَهُ   وَلَهُ عَلَيْهَا حَمْدُ كُلِّ لِسَانِ

فصارت الحكمةُ في الخلقِ من وجهين:

الأوَّل: إيجادُ الخلقِ على هذه الصُّورة.

الثَّاني: الغاياتُ من هذا الخلقِ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

الشَّرعُ له حكمتان أيضًا:

الحكمة الأولى: كونُه على هذا الوجهِ.

الحكمة الثَّانية: الغايةُ منه.

فكونُه على هذا الوجهِ كصلاةٍ، وزكاةٍ، وصيامٍ، وحَجٍّ، هذه حكمةٌ عظيمةٌ، فالصَّلاةُ على هذا الوصفِ وفي هذا الوقتِ في غايةِ الإتقانِ والإحكامِ، وكونُ الغايةِ منها نَيْلَ الأجرِ والثَّواب وما أشبه ذلك، هي أيضًا حكمةٌ، فهي عملٌ بدنِيٌّ محضٌ، وليس فيها عملٌ ماليٌّ إلَّا ما يتمُّ به هذا العملُ البدنيُّ كالماءِ تشتريه بالدَّراهمِ مثلًا، والسُّترةُ كالثِّيابِ وشبهِها، نأتي إلى الزَّكاةِ نجدُها عبادَة ماليَّةً؛ لأنَّ من النَّاسِ مَنْ يهونُ عليه أن يصلِّيَ ألفَ ركعةٍ ويشقُّ عليه أن يتصدَّقَ بدرهمٍ.

ويُقَالُ: إنَّ رجلًا عَثَرَ، وعليه نعلٌ فانقطع أصبعُه، فقال: الحمدُ لله الذي جعله في الأصبعِ لا في النَّعلِ، فالأصبعُ أشدُّ، لكن لا يهمُّه الأصبعُ، بل عنده أنَّ النَّعلَ شديدُ الأهميَّةِ.

وقد نوَّع اللهُ العباداتِ؛ هذه عبادةٌ بدنيَّةٌ، وتلك عبادةٌ ماليَّةٌ، الصِّيامُ يمكنُ للإنسانِ أن يبذلَ شيئًا كثيرًا، ولا يُقَالُ له: لا تأكل، ولا تشرب، لاسيَّما في أيَّامِ الصَّيفِ الطَّويلةِ الحارَّةِ، لكنَّه امتحانٌ، إِذَنْ إذا نظَرْنا إلى الأحكامِ الشَّرعيَّةِ وجدنا أنَّها هي نفسها في غايةِ الإتقانِ، وغاياتُها محمودةٌ.

ويُذْكَرُ أنَّ بعضَ العلماءِ استحسن أمرًا لكنَّه ليس بحسَنٍ، فقد وَجَبَتْ على أحدِ الخلفاءِ كفَّارةٌ فيها عتقٌ ثُمَّ صيامٌ، وهذا الخليفةُ عنده من العبيدِ ما لا يُحْصَى،

فقال هذا العالم: لو أَفْتَيْتُه بإعتاقِ رقبةٍ لكان الأمرُ سهلًا، لكن سأُفتيه بصيامِ شهرين متتابعين، فغلَّطه العلماءُ، هو ظَنَّ أنَّ الكفاراتِ تأديبٌ لتمنعَ الإنسانَ، وقال: إنَّ صيامَ شهرين متتابعين على هذا الخليفةِ أشدُّ من أن يعتقَ رقبةً أو مئةَ رقبةٍ، لكنَّه أخطأ؛ لأنَّ هذا قياسٌ في مقابلةِ النَّصِّ، ولأنَّه لم يتفطن لتحريرِ الرَّقبةِ وتخليصِها من الرِّقِّ، وهذه فائدةٌ عظيمةٌ.

على كُلِّ حالٍ إذا تَأَمَّلْتَ الشَّريعةَ وجدتَها حكمةً في كونِها على هذه الصُّورةِ وهذا الوجهِ.

حكمةٌ غائيَّةٌ؛ أي: الغايةُ منها أيضًا حكمةٌ عظيمةٌ وليس عبثًا، لم يفرض اللهُ عزَّ وجلَّ الجهادَ على الإنسانِ مع كونِه كُرْهًا له لمجرَّدِ أن يعذِّبَه بل لغاياتٍ محمودةٍ، وما الغايةُ؟ قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١]، هذه غايةٌ عظيمةٌ؛ ولهذا لـمَّا قال اللهُ عزَّ وجلَّ لعبد الله بن حَرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قُتل في سبيلِ الله شهيدًا وكَلَّمَه اللهُ عزَّ وجلَّ كِفَاحًا، قال له: «يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيةً، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّه قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يرْجِعُونَ»[1]، انظُر كيف تمنَّى هذا وهو في الدُّنيا! يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] لكن تمنَّى هذا؛ لأنَّه وجد الغايةَ الحميدةَ العظيمةَ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، رقم (٣٠١٠)، وابن ماجه: كتاب افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٩٠).

٣٢٨٧- وَالحِكْمَةُ الأُخْرَى فَحِكْمَةُ شَرْعِهِ ... أَيْضًا وَفِيهَا ذَانِكَ الوَصْفَانِ

٣٢٨٨- غَايَاتُهَا اللَّاتِي حُمِدْنَ وَكَوْنُهَا ... فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «غَايَاتُهَا اللَّاتِي حُمِدْنَ»، هذه واحدةٌ.

قَوْلُهُ: «وَكَوْنُهَا فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ وَالإِحْسَانِ» نفسُ الشَّرائعِ كُلُّها حكمةٌ عظيمةٌ مُتْقَنَةٌ على أكملِ وَجْهٍ، فيها إحسانٌ وليس فيها ظُلمٌ، بل كُلُّها إحسانٌ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرَّحمن:٦٠]، فهي إحسانٌ للعبادِ حتَّى إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أعطى عبادَه قاعدةً عامَّةً فقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥]، وغايةُ القيامِ بهذه العباداتِ هي السَّعادةُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولذلك لا تجدُ أسعدَ حياةً ممَّن يقومُ بهذه الأعمالِ بالدِّين الإسلاميِّ، واتلُ قولَ الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] هذه الدُّنيا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل:٩٧] هذه الآخرةُ، النَّاس كُلُّهم ينشدون أن يحيوا حياةً طيِّبةً، حتَّى الكفار يريدون ذلك لكن لا يمكنُ ذلك إلَّا بهذين الشَّرطين: العملِ الصَّالحِ المبنيِّ على الإيمانِ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل:٩٧]؛ ولذلك لا تجدُ أسعدَ حياةً ولا أنعمَ بالًا ولا أشدَّ طمأنينةً في قلبٍ من المؤمنِ الذي يعملُ الصَّالحاتِ، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم يا ربَّ العالمين.

المؤلِّف -رحمه الله- بدأ في الحكمةِ في الخلقِ، بدأ بالحكمةِ الأولى، وفي الشَّريعةِ بدأ بالحكمةِ الثَّانيةِ وهي الغاية، والظَّاهرُ لي -واللهُ أعلمُ- أنَّه ما قَصَدَ بهذا شيئًا، وإنَّما ضيقُ النَّظمِ أَوْجَبَ له أن يبدأَ بهذا وبهذا.

وقد أنكر قومٌ من المبتدعةِ الحكمةَ في غايتِه، وقالوا: إنَّ الحكمةَ غرضٌ، واللهُ -سبحانه وتعالى- منزَّهٌ عن الأغراضِ، إذا قلت: إنَّه فَعَلَ كذا لكذا فمعناه أنَّه فَعَلَ لِغَرَضٍ، واللهُ مُنزَّهٌ عن الأغراضِ، والواجبُ أن تعتقدَ أنَّ اللهَ فَعَلَ هذا الشَّيءَ أو شَرَعَ هذا الشَّيءَ لمجرَّدِ مشيئةٍ فقط رجَّحت مثلًا على مثلٍ بلا سببٍ، أَوْجَبَتْ هذا بلا سببٍ، حرَّمت هذا بلا سببٍ، ولا يجوزُ أن تقولَ: إنَّ اللهَ حرَّم كذا لكذا، لماذا؟ قالوا: لأنَّ هذا نقصٌ، فكونُ الله يفعلُ الشَّيءَ للشَّيءِ، هذا نقصٌ، بل قل: إنَّ اللهَ يفعلُ ما يشاءُ لمجرَّدِ المشيئةِ.

ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ هذا القولَ باطلٌ؛ لأنَّه يبطلُه آياتٌ كثيرةٌ ونصوصٌ كثيرةٌ، فكُلُّ شيءٍ فيه لامُ التَّعليلِ فهو دَالٌّ على الحكمةِ، وكُلُّ شيءٍ فيه «**من أجل**» فهو دالٌّ على الحكمةِ كقولِه تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة:٣٢]، وكقول النَّبيِّ: «**لَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ**»[1]، إلى غيرِ ذلك، ثُمَّ نقولُ: أيُّهما أكملُ مَنْ يفعلُ لغيرِ مصلحةٍ أو مَنْ يفعلُ لمصلحةٍ؟ الجوابُ: الثَّاني، والأوَّل سفهٌ، فدعواهم أنَّ هذا نقصٌ دعوى باطلة، بل نقولُ: هذا هو الكمالُ، وكونُه عزَّ وجلَّ يفعلُ شرعًا أو خَلْقًا لحكمةٍ هذا هو غايةُ الكمالِ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، حتَّى العقل يَدُلُّ على ثبوتِ الحكمةِ لله عزَّ وجلَّ، كونُها

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث، رقم (٥٩٣٠)، ومسلم: كتاب السلام باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، رقم (٢١٨٣).

على هذا الوضعِ هذا حكمةٌ لا شكَّ، القمرُ قدَّره اللهُ منازلَ لنعلمَ عددَ السِّنين والحسابَ، الشَّمسُ قَدَّرَ اللهُ جريانها على فصولٍ أربعةٍ، كونُ الإنسانِ نفسِه معتدلَ القامةِ وله يدان، وهَلُمَّ جرًّا، هذا حكمةٌ.

ولذلك نقولُ: الصُّدفةُ في فعلِ الله ليس لها حقيقةٌ، ولا يجوزُ أن يكونَ شيءٌ في فعلِ الله صدفةً؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ من فعلِ الله معلومٌ عنده وواقعٌ بإرادتِه، وفعلُ الله مُطْلَقٌ، أمَّا بالنِّسبة لنا فتقعُ الأشياءُ صُدفةً، أحيانًا لا يعرفُ الإنسانُ شيئًا ومع ذلك ينجحُ في عملِه، أحيانًا لا يكونُ في خاطرِك أن توافقَ رجلًا من النَّاسِ ثُمَّ تصادفُه، أحيانًا تحفر بئرًا ويُصادفُك حجرٌ صلبٌ، المهمُّ المصادفةُ في حقِّ الإنسانِ واردةٌ لقصورِ علمِه، أمَّا في حقِّ الله فليست واردةً؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ لا تصدرُ الأشياءُ منه إلَّا عن علم؛ ولهذا لا يُنْكَرُ على مَنْ قال: «**وَجَدْتُ فلانًا صدفةً**»؛ لأنَّه يريدُ باعتبارِه لنفسِه، لا باعتبار أنَّ اللهَ قَدَّرَ أن يُلاقيَه، فهو باعتبارِ فعلِ الله ليس صدفةً، وباعتبارِ المخلوقِ صدفةٌ.

* * *

فصـــل

٣٢٨٩- وَهُوَ الـحَيِيُّ فَلَيْسَ يَفْضَـحُ عَبْـدَهُ عِنْـدَ التَّجَـاهُرِ مِنْـهُ بِالعِصْـيَانِ

٣٢٩٠- لَكِنَّـــهُ يُلْقِـــي عَلَيْـــهِ سِـــتْرَهُ فَهُـو السِّـتِيرُ وَصَـاحِبُ الغُفْـرَانِ

٣٢٩١- وَهُوَ الـحَلِيمُ فَـلا يُعَاجِـلُ عَبْـدَهُ بِعُقُوبَـــةٍ لِيَتُـــوبَ مِـــنْ عِصْـــيَانِ

٣٢٩٢- وَهُوَ العَفُوُّ فَعَفْـوُهُ وَسِـعَ الـوَرَى لَـــوْلاهُ غَـــارَ الأَرْضَ بِالسُّـــكَّانِ

٣٢٩٣- وَهُـوَ الصَّـبُورُ عَـلَى أَذَى أَعْدَائِـهِ شَـــتَمُوهُ بَـــلْ نَسَـــبُوهُ لِلبُهْتَـــانِ

٣٢٩٤- قَـالُوا لَـهُ وَلَـدٌ وَلَـيْسَ يُعِيـدُنَا شَـــتْمًا وَتَكْـــذِيبًا مِـــنَ الإِنْسَـــانِ

٣٢٩٥- هَـــذَا وَذَاكَ بِسَـــمْعِهِ وَبِعِلْمِـــهِ لَـوْ شَـاءَ عَـاجَلَهُمْ بِكُـلِّ هَـوَانِ

٣٢٩٦- لَكِــنْ يُعَــافِيهِمْ وَيَــرْزُقُهُمْ وَهُــمْ يُؤْذُونَـــهُ بِالشِّـــرْكِ وَالكُفْـــرَانِ

الشــرحُ

٣٢٨٩- وَهُوَ الحَيِيُّ فَلَيْسَ يَفْضَـحُ عَبْـدَهُ عِنْـدَ التَّجَـاهُرِ مِنْـهُ بِالعِصْـيَانِ

٣٢٩٠- لَكِنَّـــهُ يُلْقِـــي عَلَيْـــهِ سِـــتْرَهُ فَهُـو السِّـتِيرُ وَصَـاحِبُ الغُفْـرَانِ

من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ «الحَيِيُّ»، وهو من الحياءِ وليس من الحياةِ، وهنا «حيٌّ وحَيِيٌّ ومُحيي» تشتبهُ على بعضِ النَّاس؛ فيظنُّون أنَّ «المُحيي» هو «الحيُّ» وأنَّ «الحيَّ» هو «الحَيِيُّ»، وهذا خطأٌ، فـ«المحيي» الذي يخلقُ الحياةَ في غيرِه، و«الحيُّ»

هو المتَّصفُ بالحياةِ؛ ولهذا الفعلُ من الأوَّل «أحيا»، ومن الثَّاني: «حَيَّ»، وأمَّا «الحَيِيُّ» فمن الحياءِ وليس من الإحياءِ ولا من الحياةِ.

قَوْلُهُ: «الحَيِيُّ»: اسمٌ من أسماءِ الله، لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»(١)؛ يعني: يستحيي اللهُ عزَّ وجلَّ إذا رَفَعْتَ يديك إليه تسأله أن يردَّهُما صفرًا، لا بُدَّ أن يجزيَك على هذا الدُّعاءِ إمَّا أجرًا، وإمَّا حصولَ مطلوبٍ، وإمَّا أن يدفعَ عنك من الشَّرِّ ما هو أعظم، فلا يفوتُ الدَّعاءُ بلا فائدةٍ، فهو حَيِيٌّ، وفي القرآنِ الكريمِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]، وفيه أيضًا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣]، فالحياءُ ثابتٌ لله عزَّ وجلَّ.

فإذا قال قائلٌ: الحياءُ انكسارٌ وتطامنٌ وتهاونٌ، فكيف يَلِيقُ بالله؟ الجوابُ: هذا حياءُ المخلوقِ، أمَّا حياءُ الخالقِ فليس كمثلِه شيءٌ.

انتبه حتَّى لا يقولُ لك المعطِّلُ: إنَّك إذا وَصَفْتَ اللهَ بالحياءِ فقد وَصَفْتَهُ بالنَّقصِ؛ لأنَّ الحياءَ انكسارٌ يعتري الإنسانَ عند فعلِ ما يُسْتَحْيَا منه، فيُقَالُ: هذا حياءُ المخلوقِ، أمَّا حياءُ الله فإنَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فإن قال قائلٌ: «الحَيِيُّ» عادةً يخجلُ من الأفعالِ التي تتعلَّقُ به، فيُقَالُ: و«الحَيِيُّ» أيضًا يخجلُ من أفعالِ غيرِه؛ ولهذا تجدُ الإنسانَ «الحَيِيَّ» يخجلُ أن يحكيَ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨). والترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٥٥٦). وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥).

ذُنوبَ الآخرينِ، فكيف إذا كان له حقُّ العقوبةِ؟! فتجده يستحي أن يُعَاقِبَ غيرَه، فلهذا كان «الحَيِيُّ» صفةَ كمالٍ؛ لأنَّه يدلُّ على كمالِ سترِ الله عزَّ وجلَّ ورحمتِه بعبدِه، ولولا ذلك لافتضح النَّاسُ.

لو كان كُلُّ ما يعلمُه اللهُ منَّا ينشرُه ما مشينا على الأرضِ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حَيِيٌّ كريمٌ يستحيي أن يفضحَ عبدَه بالعقوبةِ.

ثُمَّ ذكر مثالًا على هذا فقال: «**لَيْسَ يَفْضَحُ عَبْدَهُ عِنْدَ التَّجَاهُرِ بِالعِصْيَانِ**».

والله ما أكثرَ ذنوبَنا الخفيَّةَ حتَّى قال القحطانِيُّ رحمه اللهُ:

وَالله لَوْ عَلِمُوا خَبِيءَ سَرِيرَتِي ... لأَبَى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي[1]

يعني: لو يعلمون ما عندي ما سلَّموا عليَّ، وما أكثرَ الذُّنوبَ الخفيَّةَ القلبيَّةَ والجوارحيَّةَ! ولكنَّ اللهَ -ولله الحمدُ- يُضْفِي سترَه على العبدِ، يستحيي -سبحانه وتعالى- أن يفضحَ عبدَهَ؛ لعلَّه يتوبُ إلى الله عزَّ وجلَّ، لكنَّه يُلقي عليه سترَه فهو السَّتِيرُ وصاحبُ الغفرانِ.

«**وَالسِّتِير**» من أسماءِ الله، «**والسَّاترُ**» من أوصافِه، وأمَّا «**السَّتَّار**» فلم أعلم أنَّه وَرَدَ بهذا اللفظِ، لكنَّه من الأوصافِ التي لا تنطبقُ إلَّا على الله عزَّ وجلَّ، ويظهرُ أثرُ هذا السِّتر يومَ القيامة فإنَّ اللهَ يخلو بعبدِه المؤمنِ ويحاسبُه، ويقولُ: «**فَعَلْتَ كَذَا فِي يَوْمِ كَذَا حَتَّى يُقِرَّ**»، ثُمَّ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: «**إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»[2].

---

(١) نونية القحطاني البيت (١٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]، رقم (٢٣٠٩)، ومسلم: كتاب التوبة قبول توبة القاتل وإن كثر قتله رقم، رقم (٢٧٦٨).

٣٢٩١- وَهُوَ الحَلِيمُ فَلا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

من أسماءِ الله «الحليمُ»، وهو في القرآنِ الكريمِ، ويَقْرِنُ اللهُ تعالى بينه وبين «الغفور».

و«الحَلِيمُ» من الحِلْمِ، وهو سَعَةُ النَّفَسِ، وعدمُ التَّعجيلِ والأَخْذِ بالعقوبةِ؛ ولهذا يقولُ النَّاسُ للأميرِ إذا كان لا يُعاجِلُ بالعقوبةِ: «فلانٌ حليمٌ واسعُ الحِلْمِ»، وهو قريبٌ من معنى التَّأنِّي؛ يعني: أنَّه إذا فَعَلَ الإنسانُ الذَّنبَ لا يُعاقبُه كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، ولكنَّه يُمهِلُ فلا يُعَاجِلُ ليتوبَ العبدُ ويكون عنده فسحةٌ يتمكَّنُ من التَّوبةِ قبل أنْ تأخذَه العُقوبةُ، فإذا تَابَ إليه مُحِيَت السَّيِّئةُ، بل إنَّ الإنسانَ إذا عَمِلَ عَمَلًا صالحًا من المكفِّراتِ كالصَّلاةِ مُحِيَت السَّيِّئةُ، وهذا من حِلْمِ الله عزَّ وجلَّ، ولكن مع ذلك هو عزَّ وجلَّ يُمْلِي للظَّالِمِ فيستمرُّ في معصيتِه حتَّى يأخذَه أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدرٍ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٤٤]، وقال: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٣]؛ ولذلك يجبُ على العبدِ أنْ يُلاحِظَ نفسَه إذا رأى النِّعمَ تَتْرَى عليه وهو مُقَصِّرٌ، فليعلم أنَّ هذا استدراجٌ من الله عزَّ وجلَّ، فليقلع عن المعصيةِ وليتُبْ إلى الله قبل أن يؤاخذَه بالعقوبةِ.

٣٢٩٢- وَهُوَ العَفُوُّ فَعَفْوُهُ وَسِعَ الوَرَى لَوْلاهُ غَارَ الأَرْضَ بِالسُّكَّانِ

«العَفُوُّ» من أسماءِ الله تعالى أيضًا، وهو كثيرٌ في القُرآنِ، فما معنى «العَفُوُّ»؟ فسَّره المؤلِّفُ -رحمه الله- بقولِه: «فَعَفْوُهُ وَسِعَ الوَرَى»، وهو قريبٌ من «الحَليمِ»؛

يعني: يتجاوزُ عن عبدِه إذا ترك الواجبَ؛ ولهذا يُقَالُ: «**عفوٌّ غفورٌ**»، «**العفوُّ**» في جانبِ الأوامرِ، إذا فَرَّطَ فيها الإنسانُ ولم يفعلْها عَفَا اللهُ عنه، و«**الغفور**» في جانبِ المعاصي، إذا فَعَلَهَا العبدُ سترها اللهُ عزَّ وجلَّ، ومحا عنه أثرَها.

من أسمائِه تعالى العفوُّ، وهو عزَّ وجلَّ يحبُّ العفوَ، وقد عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أمَّ المؤمنين عائشةَ أن تقولَ، حينَ سَأَلَتْهُ مَاذَا تَقُولُ إِنْ وَافَقَتْ لَيْلَةَ القَدْرِ؟ أن تقولَ: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[1]، «**تُحِبُّ العَفْوَ**»؛ يعني: أن تعفوَ عن العبادِ، أو أن يعفوَ عن العبادِ وأن يعفوَ العبادُ بعضُهم عن بعضٍ؟ الجوابُ: كِلَا الأمرين جميعًا، فهو يُحِبُّ أن يعفوَ عن عبدِه، ويحبُّ من العبدِ أن يعفوَ عن إخوانِه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن:١٤].

إِذَنْ العَفُوُّ هو المتجاوِزُ عن سيِّئاتِ عبادِه مع القُدرةِ على الانتقامِ منهم؛ ولهذا جمع اللهُ بينهما في قولِه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النِّساء:١٤٩]، والعفوُ مع القدرةِ هو الذي يُمْدَحُ، أمَّا العفوُ مع العجزِ فهو نقصٌ.

إِذَنْ العفوُ هو التَّجاوزُ عن سيِّئاتِ العبادِ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشُّورى:٢٥].

٣٢٩٣- وَهُوَ الصَّبُورُ عَلَى أَذَى أَعْدَائِهِ   شَتَمُوهُ بَلْ نَسَبُوهُ لِلْبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «**الصَّبُورُ**» بوزن «**فَعُول**» من الصَّبرِ، فهو صفةٌ مُشَبَّهَةٌ، أو صِيغةُ مبالغةٍ، والصَّبرُ قريبٌ من الحِلْمِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٧١)، والترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (٣٥١٣)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، رقم (٣٨٥٠).

هو الصَّبورُ على أذى أعدائِه، فلا يُعاجِلُهم بالعقوبةِ، و«الصَّبُورُ» لم يَرِدْ بهذا اللَّفظِ، لكنَّه ورَد بلفظٍ آخَرَ أخَذه المؤلِّفُ -رحمه الله- من قولِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ»[1]، فـ«أَصْبَرُ» اسمُ تفضيلٍ، فـ«الصَّبُورُ»: من أوصافِه، فهو -سبحانه وتعالى- يصبرُ على أذى أعدائِه مع أنَّهم شتموه وسبُّوه وكذَّبوه.

٣٢٩٤- قَالُوا لَهُ وَلَدٌ وَلَيْسَ يُعِيدُنَا ... شَتْمًا وَتَكْذِيبًا مِنَ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «قَالُوا: لَهُ وَلَدٌ»، وهو ليس له ولدٌ.

قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ يُعِيدُنَا»؛ أي: في البعثِ، وهو يُعيدُهم.

فابنُ آدمَ شَتَمَ اللهَ وليس له ذلك، وكَذَّبَ اللهَ وليس له ذلك، فالشَّتمُ في قولِهم: إنَّ له ولدًا؛ لأنَّ دعوى أنَّ له ولدًا؛ يعني: وصفَه بالنَّقصِ؛ إذ لا يحتاجُ للولدِ إلَّا مَنْ كان ناقصًا لبقاءِ ذكرِه بذرِّيَّتِه، أو لاستعانتِه بولدِه، أو ما أشبه ذلك؛ ولهذا إذا لم يكن للإنسانِ ولدٌ انقطع ذكرُه بموتِه ولم يُذْكَرْ.

فهم إذا قالوا: إنَّ اللهَ له ولدٌ فهو شتمٌ وعيبٌ وسبٌّ، أمَّا التَّكذيبُ فهو قولُهم: إنَّه لن يُعيدَنا إذا مِتنا، قال اللهُ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون:٨٢]، فهم يُنكرون هذا، وهذا تكذيبٌ؛ لأنَّ اللهَ أخبر بأنَّه سيُعِيدُ الخلائقَ يومَ القيامةِ، لكنَّهم كذَّبوا، ومع ذلك فهو عزَّ وجلَّ صابرٌ عليهم؛ ولهذا قال النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ»، سبحان الله! مع أنَّه قادرٌ على الأَخْذِ، قادرٌ على الانتقامِ، لو أنَّ أحدًا آذانا وشتمنا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، رقم (٥٧٤٨)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عزَّ وجلَّ، رقم (٢٨٠٤).

وكذَّبنا ما صبرنا، بل أخذنا منه باليمينِ، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مع تمامِ قدرتِه -تبارك وتعالى- يصبرُ على أذى أعدائِه، «**قَالُوا: لَهُ وَلَدٌ**» وهل له ولدٌ؟ الجوابُ: لا، هو نفسُه عزَّ وجلَّ نفى أن يكونَ له ولدٌ لكن كذَّبوه.

«**قَالُوا: لَيْسَ يُعِيدُنَا**»؛ يعني: يومَ القيامة، حتَّى أنكروا، وأقاموا الشُّبهَ، وقالوا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وقوله: ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، هذه حُجَّةٌ لهم، لكنَّها في الواقع شبهةٌ وليست بحُجَّةٍ؛ ولهذا أُجيبوا بقولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، هذه واحدةٌ، وهذا أكبرُ دليلٍ.

مَن الذي أنشأها أوَّلَ مرَّةٍ؟

الجوابُ: اللهُ، إعادتُها أسهلُ وأهونُ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرُّوم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٧٩- ٨٣].

وقد ذَكَرَ اللهُ سبعةَ أَدلَّةٍ عقليَّةٍ حِسِّيَّةٍ تدلُّ على إمكانِ ذلك:

الدَّليلُ الأوَّل: قولُه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، فهذا لكن كيف نُركِّبُ الدَّليلَ؟ الجوابُ: القادرُ على الابتداءِ قادرٌ على الإعادةِ.

الدَّليلُ الثَّاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، وهذا دليلٌ أيضًا؛ لأنَّ الذي لا يقدرُ قد يكونُ جاهلًا، فقال اللهُ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، فهو عالـمٌ كيف يخلقُ هذا العَظْمَ الذي صار رَمِيمًا حتَّى يكونَ سليمًا.

الدَّليلُ الثَّالثُ: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:٨٠]، الشَّجرُ الأخضرُ يكونُ نارًا ينقدحُ، وكانوا فيما سبَق يقدحون النَّارَ من هذا الشَّجرِ الأخضرِ، يكون فيه زندٌ - وقد أدركتُ الزَّندَ وهو حديدةٌ عريضةٌ إلى حَدٍّ ما، يُضربُ بها الشَّجرةَ المعروفةَ التي تُسْتَخْرَجُ منها النَّارُ، إذا ضرب هذا اشتعلت النَّارُ من الشَّجرِ الأخضرِ، والشَّجرُ الأخضرُ فيه ضدَّان للنَّارِ: الرُّطوبةُ والبرودةُ، والنَّارُ حارَّةٌ ويابسةٌ، فالقادرُ على أن يُخْرِجَ هذه النَّارَ الحارَّةَ اليابسةَ من هذا الشَّجرِ الرَّطبِ الباردِ قادرٌ على أنْ يُعيدَ الإنسانَ، وأكَّد اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك بقولِه: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠]، يعني: ليس أمرًا مفروضًا، بل هو أمرٌ واقعٌ.

الدَّليلُ الرابعُ: قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١] هذا دليلٌ، وأعظمُ دليلٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وإذا كان قادرًا على أن يخلقَ السَّماواتِ والأرضَ ونحن الآن خُلِقْنَا من الأرضِ فهو قادرٌ على أن يُعيدَنا.

الدَّليلُ الخامسُ: قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١]، وهذا أيضًا تأكيدٌ لقولِه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]؛ يعني: هو أيضًا من أسمائِه أنَّه خلَّاقٌ تامُّ القدرةِ على الخلقِ عليمٌ.

الدَّليلُ السَّادسُ: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، والذي أمرُه هكذا لا يستحيلُ أن يُعيدَ، بل بكلمةٍ واحدةٍ يخرجُ النَّاسُ كُلُّهم، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، في أيِّ مكانٍ من الأرضِ، صَيْحة واحدة:

احضروا، فيحضرون، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازعات:١٣-١٤]؛ أي: على وجهِ الأرضِ، كلمةٌ واحدةٌ بإذنِ الله تُحيي هذه الخلائقَ من أوَّلِهم إلى آخِرِهم في هذه اللَّحظةِ، ومَنْ هذه قدرتُه هل يستحيلُ أن يعيدَ الإنسانَ؟ الجوابُ: لا.

الدَّليلُ السَّابعُ: قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس:٨٣]؛ أي: تنزيهًا له، وبيدِه ملكوتُ كُلِّ شيءٍ أن يَعْجَزَ عن إعادةِ الإنسانِ بعد أن كان رميمًا، فهذه سبعةُ أدلَّةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣] هذا دليلٌ عقليٌّ في الواقعِ؛ لأنَّنا لو فرضنا أنَّ إعادةَ العظامِ بعد كونِها رَميمًا محالٌ لكان خلقُ النَّاسِ عَبَثًا لا فائدةَ منه، لكن لا بُدَّ من رجوعٍ إلى الله، لا بُدَّ أن نُخْلَقَ مرَّةً أخرى، فنرجع إلى الله عزَّ وجلَّ، فانظر كيف كان تقريرُ هذا الأمرِ العظيمِ؟! وهم يقولون: إن اللهَ ليس بقادرٍ، ومع ذلك يقولُ المؤلِّف رحمه الله:

٣٢٩٥- هَـذَا وَذَاكَ بِسَـمْعِهِ وَبِعِلْمِهِ ... لَـوْ شَـاءَ عَـاجَلَهُمْ بِكُـلِّ هَـوَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَذَاكَ بِسَمْعِهِ وَعِلْمِهِ»؛ يعني: «قولُهم: إنَّ لَهُ ولدًا»، وقولُهم: «لن يُعِيدَنا».

قَوْلُهُ: «لَـوْ شَـاءَ عَاجَلَهُمْ بِكُلِّ هَـوَانِ»؛ أي: بكُلِّ عقوبةٍ، وبكُلِّ عذابٍ تُهينُهم.

٣٢٩٦- لَكِـنْ يُعَـافِيهِمْ وَيَـرْزُقُهُمْ وَهُـمْ ... يُؤْذُونَـهُ بِالشِّـرْكِ وَالكُفْـرَانِ

سبحانه وتعالى ما أصبرَ اللهَ!

وقول المؤلِّف: «يُؤْذُونَهُ» يجب أنْ نعلمَ أنَّ الأذى غيرُ الضَّررِ، فلا أحدَ يضرُّ اللهَ كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٧٦]، وفي الحديثِ القدسيِّ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»[1]، بخلاف الأذى فإنَّه ثابتٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧]، وقال تعالى في الحديثِ القدسيِّ: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ»[2]، والأذيَّةُ لا تستلزمُ الضَّررَ، والدَّليلُ على ذلك الواقعُ، يتأذَّى الإنسانُ برائحةِ البصلِ والكرَّاثِ، ولكن لا يتضرَّرُ بذلك، يتأذَّى إذا كان بجوارِه مُصَلٍّ التصق به التصاقًا وقد أكل ثومًا أو بصلًا حتَّى لا يكاد يتحرَّك، فلا شكَّ أنَّه يتأذَّى بهذا، ولكن لا يتضرَّرُ به، فلا يلزمُ من الأذيَّةِ الضَّررُ؛ ولذلك ثَبَتَت الأذيَّةُ في حقِّ الله عزَّ وجلَّ، ونُفِيَ الضَّررُ.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، رقم (٤٥٤٩)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

فصل

٣٢٩٧- وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الخَوَاطِرِ وَاللَّوَا ... حِظِ كَيْفَ بِالأَفْعَالِ بِالأَرْكَانِ

٣٢٩٨- وَهُوَ الحَفِيظُ عَلَيْهِمُ وَهُوَ الكَفِيـ ... ـلُ بِحِفْظِهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانِي

٣٢٩٩- وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

٣٣٠٠- إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الأُمُورِ بِخِبْرَةٍ ... وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الإِحْسَانِ

٣٣٠١- فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ وَيُبْدِي لُطْفَهُ ... وَالعَبْدُ فِي الغَفَلاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ

الشرحُ

٣٢٩٧- وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الخَوَاطِرِ وَاللَّوَا ... حِظِ كَيْفَ بِالأَفْعَالِ بِالأَرْكَانِ

«الرَّقيبُ» من أسماءِ الله أيضًا، وفي القرآنِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب:٥٢]، فهو عزَّ وجلَّ رقيبٌ يُراقِبُ الخواطرَ واللَّواحظَ والأفعالَ، ذَكَرَ ثلاثةَ أشياءَ: الخواطرَ في القلبِ، واللَّواحظَ في العينِ، والأركانَ في بقيَّةِ الأعضاءِ، ولهذا قال: «كَيْفَ بِالأَفْعَالِ بِالأَرْكَانِ؟!».

فهو -سبحانه وتعالى- رقيبٌ على خَواطِرنا، على ما في قلوبِنا؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، وكذلك اللَّواحظ لقولِ الله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، وهذه الآيةُ فيها دليلٌ لهذا ولهذا، كيف بالأفعالِ؟ من باب أولى؛ يعني: حركاتُنا الآن يراها اللهُ عزَّ وجلَّ ويراقبُها -تبارك وتعالى-، فما من إنسانٍ يتحرَّكُ في أيِّ مكانٍ ولا من

مَلَكٍ ولا من أيِّ شيءٍ يتحرَّكُ إلَّا واللهُ -سبحانه وتعالى- يعلمُه ويراقبُه، وهذا دليلٌ على إحاطتِه -سبحانه وتعالى- بكُلِّ شيءٍ علمًا.

٣٢٩٨- وَهُوَ الحَفِيظُ عَلَيْهِمُ وَهُوَ الكَفِيـ ـلُ بِحِفْظِهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانِي

كذلك هو «**حفيظٌ**» و«**كفيلٌ**»، وهل في القُرآنِ اسمُ الله «**الحفيظ**»؟ الجوابُ: نعم، موجودٌ في القرآنِ، قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤]، فهو حفيظٌ عليهم.

والحفيظُ له معنيان: حفيظٌ عليهم، وحفيظٌ لهم، حفيظٌ عليهم؛ يعني: يحفظُ أعمالَهم ويُحْصِيها عليهم، وسيخبرُهم بها يومَ القيامة ويحاسبُهم عليها، وحفيظٌ لهم؛ يعني: يحفظُهم من كُلِّ الأمورِ، وهذا يكونُ بنفسِه جلَّ وعلا، أو برُسُلِه من الملائكةِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، فكُلُّ واحدٍ منَّا له ملائكةٌ يتعاقبون ليلًا ونهارًا ويجتمعون في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصرِ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمرِ الله عزَّ وجلَّ، هذا حفظُ الكفالةِ.

كذلك ملائكةٌ يحفظون الأعمالَ، قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩-١٢]، وهذا من حفظِ الإحصاءِ، أنَّه يُحْصِي الأعمالَ ويحفظُها.

كذلك يحفظُهم من الآفاتِ، من كُلِّ أمرٍ يشقُّ عليهم إذا هم أَتَوْا بأسبابِ الحفظِ، من ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ «أَخْبَرَ أَنَّ الأذانَ يطردُ الشَّيطانَ»(١)، وفي الحديثِ:

---

(١) كما في حديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ الأَذَانَ أَدْبَرَ وَلَهُ ضُرَاطٌ». أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل التأذين، رقم (٦٠٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، رقم (٣٨٩).

«إِذَا تَغَوَّلَتِ الغِيلَانُ فَبَادِرُوا بِالأَذَانِ»[١]، والغِيلانُ هي أجسامٌ يتخيَّلُها النَّاسُ في الأسفارِ ويخافون منها، ولكنَّها شياطين تُخِيفُ الإنسانَ، فإذا كبَّر الإنسانُ هَرَبَتْ ولم يرها، وأقرَّ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ»[٢]، وحَدَّثَنِي مُؤَذِّنُ هذا المسجدِ جدُّ مؤذِّننا الموجود الآن، وهو صَدُوقٌ وعَدْلٌ، قال: إنَّه كان يحافظُ على قراءةِ آيةِ الكرسيِّ في كُلِّ ليلةٍ، وفي ليلةٍ من الليالي لَدَغَتْهُ عقربٌ، يقولُ: ففكَّرتُ، وإذا أنا قد نسيتُ آيةَ الكرسِيِّ تلك الليلة، سبحان الله! هذا شيءٌ واقعٌ، فدلَّ هذا على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحفظُ الإنسانَ، لكن هناك أسبابٌ كقراءةِ آيةِ الكرسيِّ.

٣٢٩٩- وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

٣٣٠٠- إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الأُمُورِ بِخِبْرَةٍ ... وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الإِحْسَانِ

من أسماءِ الله تعالى «**اللَّطيفُ**»، و«**اللَّطيفُ**» له معنيان بحسَب ما يتعدَّى بالحرفِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، فهو لطيفٌ بعبدِه ولطيفٌ لعبدِه، أمَّا اللَّطيفُ بعبدِه فمعناه أنَّه يُدْرِكُ أسرارَ أمورِ العبادِ بخبرةٍ تامَّةٍ؛ لأنَّه لطيفٌ بهم، عليمٌ بخَبايا أمورِهم ودَقائقِ أحوالِهم، واللَّطيفُ لعبدِه أنَّه يُيسِّرُ له ويُمَهِّدُ له الأشياءَ التي يندفعُ بها الشَّرُّ ويحصلُ بها الخيرُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، قال ذلك يوسفُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلام- حين جَمَعَ به أهلَه، فصار «**اللَّطيفُ**» الذي في أسماءِ الله له معنيان:

المعنى الأوَّل: اللُّطفُ بالعبدِ، وهو إدراكُ أسرارِه وأحَوالِه.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٥، رقم ١٤٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا، رقم (٢٣١١).

المعنى الثَّاني: اللُّطفُ للعبدِ، وهو أنَّه -سبحانه وتعالى- يُقَدِّرُ له ما به تتيسَّرُ الأمورُ ويحصلُ المطلوبُ؛ إمَّا بجلبِ المحبوبِ أو بدفعِ المكروهِ.

وهنا مسألة، وهي: أنَّ كثيرًا ما يقولُ النَّاسُ في الدُّعاءِ: «**يا لطيفُ يا لطيفُ**» فأيَّ المعنيين يريدون؟ **الجوابُ**: الغالبُ أنَّهم يريدون باللَّامِ.

٣٣٠١- فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ وَيُبْدِي لُطْفَهُ وَالعَبْدُ فِي الغَفَلاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ

قَوْلُهُ: «**فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ وَيُبْدِي لُطْفَهُ**» الله أكبر، يُرِيكَ عزَّتَه وغلبتَه وأنَّه لا غالبَ له، ويُنْزِلُ بك الأشياءَ، وإذا باللُّطفِ يأتي من الله، كم من إنسانٍ انهدم عليه الجدارُ، وهذه مصيبةٌ، وإذا بالله عزَّ وجلَّ يُيَسِّرُ له ما ينقذُه من سقوطِ هذا الجدارِ، كذلك في حوادثِ السَّيَّاراتِ، كم من إنسانٍ حصل عليه حادثٌ عظيمٌ عظيمٌ عظيمٌ وإذا بالله ينجِّيه، أحيانًا تجدُ في الطُّرقاتِ حوادثَ سيَّاراتٍ لا تُصَدِّقُ أنَّ أحدًا ينجو منها، ثُمَّ تُحَدَّثُ أنَّ أصحابَها قد نَجَوْا.

أحيانًا يَرِدُ شيءٌ من أسبابِ النَّجاة لا يخطرُ بالبالِ، حدَّثنا مَنْ نَثِقُ به، ولا بأسَ بالحديثِ في هذا، يقولُ: التقت سيَّارةٌ صغيرةٌ وسيَّارةُ نقلٍ كبيرٍ «**تريلا**» وكانت الكارثةُ، طبعًا السَّيَّارةُ الكبيرةُ عجنت الصَّغيرةَ، فلمَّا حصلت الصَّدمةُ انفتح البابُ الذي عند السَّائقِ، والسَّائقُ بدون اختيارٍ طار، وإذا هو بعيدٌ عن الخطِّ فَسَلِمَ، لا شكَّ أنَّ هذا من لطفِ الله، أنَّه إذا جاءت الأمورُ الصَّعبةُ لا تدري إلَّا واللهُ قد لَطَفَ بك؛ ولهذا قال: «**فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ**»، وأنَّ الأمرَ أمرُه عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**وَالعَبْدُ فِي الغَفَلَاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ**» إي والله، في غفلةٍ، ما أكثر ما نجدُ من عزَّةِ الله عزَّ وجلَّ، ثُمَّ ننجو ويغفل الإنسانُ عن هذا، فلا يذكرُ هذه النِّعمةَ إلَّا حين وجودِها قليلًا.

فصل

٣٣٠٢- وَهُوَ الرَّفِيقُ يُحِبُّ أَهْلَ الرِّفْقِ بَلْ ... يُعْطِيهِمُ بِالرِّفْقِ فَوْقَ أَمَانِ

٣٣٠٣- وَهُوَ القَرِيبُ وَقُرْبُهُ المُخْتَصُّ بِالدْ ... دَاعِي وَعَابِدِهِ عَلَى الإِيمَانِ

٣٣٠٤- وَهُوَ المُجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أُجِبْـ ... ـهُ أَنَا المُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي

٣٣٠٥- وَهُوَ المُجِيبُ لِدَعْوَةِ المُضْطَرِّ إِذْ ... يَدْعُوهُ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

٣٣٠٦- وَهُوَ الجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُو ... دَ جَمِيعَهُ بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

٣٣٠٧- وَهُوَ الجَوَادُ فَلا يُخَيِّبُ سَائِلًا ... وَلَوَ انَّهُ مِنْ أُمَّةِ الكُفْرَانِ

٣٣٠٨- وَهُوَ المُغِيثُ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ ... وَكَذَا يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ

الشرحُ

٣٣٠٢- وَهُوَ الرَّفِيقُ يُحِبُّ أَهْلَ الرِّفْقِ بَلْ ... يُعْطِيهِمُ بِالرِّفْقِ فَوْقَ أَمَانِ

«الرَّفِيقُ»: اسمٌ من أسماءِ الله، لكن هل هذا الاسمُ مأخوذٌ من قول النَّبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**»؟[1] الظَّاهرُ أنَّ حديثَ: «**اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى، اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**»، هكذا وَرَدَ أيضًا يُرَادُ به النَّبيُّون والصِّدِّيقون والشُّهداءُ والصَّالحون؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤١٧٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، رقم (٢١٩١).

مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النِّساء:٦٩]؛ لأنَّ قولَه: «أَلْـحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى»[1] لا يُسْتَعْمَلُ بمعنى: أَلْـحِقْنِي بالله؛ يعني: لو قال: «اللَّهُمَّ أَلْـحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى» إذا قلنا: الرَّفيقُ الأعلى هو اللهُ صار معنى الحديثِ: «اللَّهُمَّ أَلْـحِقْنِي بِالله»، وطلبُ الإلحاقِ للرُّسلِ بالصَّالحين كما قال يوسفُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١]، ويُؤَيِّدُ هذا الرِّوايةُ الأخرى: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»، و«فِي» للظَّرفيَّة، فالصَّحيحُ أنَّ هذا الحديثَ ليس المرادُ به: أَلْـحِقْنِي بنفسِك يا ربِّ، بل أَلْـحِقْنِي بالنَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحين.

أمَّا إنَّ اللهَ رفيقٌ فهذه قد يُقَالُ: إنَّها اسمٌ كما قلنا في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ [البقرة:١٧٣]: إنَّ «الغفورَ» اسمٌ من أسماءِ الله، وقد يُقَالُ: إنَّها صفةٌ بمعنى أنَّها وَصْفٌ له بالرِّفقِ وليست اسمًا؛ لأنَّ الغفورَ وردت نكرةً كما في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٧٣]، ووردت معرفةً كما في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس:١٠٧]، ولا شَكَّ أنَّ المُعَرَّفَ اسمٌ، لكن الذي يُشْكِلُ على بعض النَّاسِ إذا كان مُنكَّرًا مثل: «إِنَّ اللهَ غفورٌ، إِنَّ اللهَ رفيقٌ»، هل نقولُ: إنَّ هذا وصفٌ؛ يعني: أنَّه اسمُ فاعلٍ فقط، وهو كقولنِا: «إِنَّ اللهَ متكلِّمٌ»؛ أي: أنَّه مُخبَرٌ عن الله بأنَّه رفيقٌ، أو أنَّ هذا من أسماءِ الله؟

كلامُ العلماءِ -رحمهم اللهُ- في هذا محتملٌ؛ فمنهم مَنْ يرى أنَّ ما لم يُعَرَّفْ بـ«أل» فليس من الأسماءِ، وما عُرِّفَ بـ«أل» فهو اسمٌ، وهذا القولُ في الحقيقةِ قويٌّ، ومنهم مَنْ قال: ما غلب عليه الوصفُ فهو اسمٌ، وما غلب عليه الفعلُ فهو صفةٌ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (٣٤٩٦)، وابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ، رقم (١٦١٩).

على كُلِّ حالٍ لا شَكَّ أَنَّك تُخْبِرُ عن الله بأنَّه رفيقٌ، وأنَّ مِن وَصْفِه الرِّفقَ، وقد جعله النَّوويُّ -رحمه الله- اسمًا وصفةً.

وهو -جلَّ وعلا- رفيقٌ بعبادِه، ويُحِبُّ أهلَ الرِّفقِ، بل يُحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّه، ويعطي الإنسانَ بالرِّفق فوقَ أمانٍ؛ أي: فوق ما يتمنَّاه؛ يعني: يعطيه فوق أمانيه.

يظنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ الرِّفقَ المقصودَ، وأنَّه دليلٌ على عدمِ الغيرِة، لكنَّ هذا ظنٌّ باطلٌ، بل إنَّ الرِّفقَ يدلُّ على الحكمةِ والتَّروِّي وعدمِ السُّرعةِ؛ ولهذا ثبَت عن النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ «إِنَّ اللهَ يُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ»[1]، وهذا شيءٌ مُشَاهَدٌ، إذا عَامَلْتَ النَّاسَ بالرِّفقِ حصل لك الخيرُ الكثيرُ، وإذا عامَلْتَهم بالعنفِ شردوا عنك وكرهوك وأبغضوك ولم تُحصِّل فائدةً.

والرِّفقُ هو التَّأنِّي في الأمورِ، ومعالجتُها باللِّينِ والرِّقَّةِ وما أشبه ذلك، وضدُّ الرِّفقِ: العنفُ والشِّدَّةُ والصَّلف.

وفي الحديثِ أنَّ يهوديًّا مَرَّ بالنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- وعنده عائشةُ فقال: السَّامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّد، قالها بسرعةٍ، وكَانَ اليَهودُ إذا سَلَّمُوا يَقُولُون: السَّامُ عَلَيْكَ؛ أي: الموت، عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مِنْ مَحَبَّتِها لِلرَّسُولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ- وَغَيْرَتِهَا عَلَيْهِ، قَالَتْ لِلْيَهُودِيِّ: عَلَيْكَ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، رَضِيَ اللهُ عنها أَعْطَتْهُ الصَّاعَ بِصَاعَيْنِ، ولكنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ نَهَاهَا، وَقَالَ لَهَا: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»[2].

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣).

نحن نقولُ: إِذَا قالَ اليهودِيُّ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، نقولُ: وَعَلَيْكُمْ، فنكون أحسنَ ردًّا منهم؛ لأنَّهم صرَّحوا بالسَّامِ بالاسمِ المكروه، أمَّا نحن فقلنا: «وَعَلَيْكُمْ» وهذا أحسنُ، لكن تؤدِّي معناها تمامًا؛ ولهذا أَتَيْنَا بالواوِ العاطفةِ «وَعَلَيْكُمْ»، فيجبُ أن نقولَ في سَلام أهلِ الكتابِ أو غيرِهم من الكُفَّارِ: «وَعَلَيْكُمْ»، ولا نقول: «عَلَيْكُمْ»، والواوُ حرفُ عطفٍ على ما سبق.

فأنت إذا كنتَ رفيقًا نِلْتَ بذلك فائدَتَيْنِ عظيمَتَيْنِ:

أوَّلًا: محبَّة الله عزَّ وجلَّ، فإِنَّ اللهَ يحبُّ الرِّفْقَ وأهلَ الرِّفْقِ.

ثانيًا: أنَّك تنالُ برفْقِكِ ما لا تنالُ بعنفِك، فلا تتعجَّلْ ولا تتسرَّعْ، لا تأخذْك الغَيْرَةُ والعاطفةُ على عدمِ الرِّفق، تأنَّ وارفقْ في كُلِّ أمورِك حتَّى في نفسِك، ارفُقْ بنفسِك.

إِذَنْ عليك بالرِّفقِ، وكم من إنسانٍ أدرك بالرِّفقِ خيرًا كثيرًا سَواءٌ في أهلِه، أو في نفسِه، أو فيمَنْ يدعوهم إلى الله، أو فيمَنْ يَأمرُهم بالمعروفِ ويَنهاهم عن المنكرِ، حتَّى في نفسِك، إذا رَفَقْتَ بنفسِك أَدْرَكْتَ خيرًا كثيرًا، لعلَّه مَرَّ عليكم، وفي حديث عبدِ الله بن عمرو بن العاص أنَّه قال لمحبَّتِه للخيرِ: «وَاللهِ لأَصُومَنَّ النَّهارَ مَا عِشْتُ وَلأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ»، فَدَعَاه الرَّسُولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ونهاه عن هذا، وآخِر ما تنازل معه أنَّه قال: «صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص كَبِرَ وتقدَّمت به السِّنُّ، وكان يتمنَّى أنَّه قَبِلَ رُخْصَةَ الرَّسُولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والرَّسُولُ قَالَ لَهُ: «ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ»، لكن لحماسِه ورغبتِه، قال: لا، أُطيقُ أكثرَ من هذا، قال: لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ[1]، اجتهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ماذا صنع في آخِرِ حَياتِه صار

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم (١٨٧٤)، ومسلم: كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، رقم (١١٥٩).

يصومُ خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا تِبَاعًا، ويُفْطِرُ خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا، ونرجو اللهَ تعالى أن يعفوَ عنه، وإِلَّا فهو فَارَقَ الرَّسولَ على أن يصومَ يومًا ويُفْطِرَ يومًا، لكن شَقَّ عليه ذلك، وصار يصومُ خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا تِباعًا، ويُفْطِرُ خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا تِباعًا.

وكذلك الرِّفقُ في أهلِك أيضًا، انظُر إلى رِفقِ الرَّسولِ ﷺ بأهلِه، كيف يُدْخِلُ عليهم السُّرورَ، يُساعِدُهم في البيتِ، يَخْصِفُ النَّعلَ ويحلبُ الشَّاةَ، ويكونُ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ في البيتِ حتَّى يأتيَ وقت الصَّلاةِ[1]، مَنْ مِنَّا يفعلُ هذا؟!

انظر لـمَّا جاء الحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والرَّسُولُ ﷺ ساجدٌ في الجماعةِ ركب على ظهرِه، جعله راحلةً له، فتركه الرَّسولُ ﷺ حتَّى قضى نهمتَه، ولـمَّا نزل قَامَ[2]، مَنْ مِنَّا يفعلُ هذا؟!

المهمُّ عليك يا أخي بالرِّفق في معاملةِ نفسِك وأهلِك وقومِك، واعلم أنَّه لو لم يكن لك من الرِّفق إِلَّا أنَّ اللهَ يُحِبُّه لكان كافيًا، فكيف وهو يُعْطِي على الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي على العُنْفِ، لا تَحْمِلْكَ الغَيْرَةُ على العُنفِ والشِّدَّةِ، اضبط أعصابَك، لا تتوتَّرْ، وارفقْ في كُلِّ موطنٍ يكونُ فيه الرِّفقُ.

٣٣٠٣- وَهُوَ القَرِيبُ وَقُرْبُهُ المُخْتَصُّ بِالـدْ   دَاعِـي وَعَابِـدِهِ عَـلَى الإِيـمَانِ

من أسماءِ الله تعالى «القريبُ»، وهو موجودٌ في القُرآنِ، و«القريبُ» في اللُّغةِ ضدُّه «البعيدُ»، ونحن نؤمنُ بأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- فوق كُلِّ شيءٍ على عرشِه،

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ- فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ». أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، رقم (٦٤٤).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، رقم (١١٤١).

فكيف يمكنُ أن يكونَ قريبًا بعيدًا؟ والجوابُ على هذا سهلٌ، وهو قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فيمكنُ أن يكونَ قريبًا وهو بعيدٌ كما قال شيخُ الإسلام -رحمه الله- في «العقيدة الواسطيَّة»: «إنَّ اللهَ تعالى ليس كَمِثْلِهِ شيءٌ في جميعِ نعوتِه -أي: جميعِ صفاتِه- وَهوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ»[1]، إذا كانت السَّماواتُ السَّبعُ والأرضون السَّبعُ في كَفِّه -جلَّ وعلا- كخردلةٍ في كفِّ أحدِنا فهو قريبٌ بعيدٌ، فقربُه لا يُنافي علوَّه؛ لأنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيءٌ، ومَنْ قال: إنَّ قربَه ينافي علوَّه فقد شبَّه اللهَ بخلقِه؛ لأنَّ الذي قربُه ينافي علوَّه هم الخلق، أمَّا الخالقُ فلا، فهو قريبٌ مع علوِّه عزَّ وجلَّ.

ولكن هل القُربُ كالمعيَّةِ عامٌّ وخاصٌّ أم القُربُ أخصُّ من المعيَّة؟ الجوابُ: الثَّاني، القربُ أخصُّ من المعيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَذْكُرْ لنفسِه قربًا عامًّا، بل ذَكَرَ قربَه -سبحانه وتعالى- بالدَّاعِي والعابدِ، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]؛ يعني: إذا سألوك، إذا دعوني: هل أنا بعيدٌ أو قريبٌ؟ فأَخْبِرْهُم أنِّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الدَّاعي إذا دعانِ، هذا قُرْبُه من سائلِه وداعيه، وهذا هو **القربُ الأوَّلُ**.

القربُ الثَّاني: قربُه من عابدِه، وعليه يدلُّ قولُه صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**أَقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[2].

فالله قريبٌ من عابدِه ومن داعيه، قريبٌ من داعيه يستجيبُ له، وقريبٌ من عابدِه يقبلُ منه سبحانه وتعالى، قال النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- حين رفع

---

(١) العقيدة الواسطيَّة لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (ص:٨٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

أصحابُه أصواتَهم بالتَّكبيرِ، وأزعجوا أنفسَهم وشقُّوا عليها، قال: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[1]، وعنقُ الرَّاحلةِ وأنت راكبٌ عليها مِنْ أقربِ شيءٍ لك، لكنَّ اللهَ أقربُ إليك من هذا، ولكن لا تظن أنَّ هذا القربَ الذي بَيَّنَه الرَّسولُ -عليه الصَّلاة والسَّلام- يُنافي علوَّ الله؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ محيطٌ بكُلِّ شيءٍ، ولا يُماثِلُه أحدٌ من مخلوقاتِه، صحيحٌ أنَّ الشَّيءَ إذا كان بعيدًا في السَّماءِ فإنَّه ليس قريبًا لك أقرب من عنقِ الرَّاحلةِ، هذا باعتبارِ المخلوقِ، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يُقَاسُ بخلقِه، لا تَظُنُّ أنَّ كونَه فوق عرشِه ينافي كونَه أقربَ إلى الإنسانِ من عنقِ راحلتِه، أبدًا لا تظنُّ هذا، بل قل: آمَنْتُ بالله بعلوِّه وبقربِه؛ لأنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيءٌ في جميعِ نعوتِه، وأنت إذا تصوَّرتَ -ويجبُ أن تتصوَّرَ- أنَّ السَّماواتِ السَّبعَ والأرضين السَّبعَ في كَفِّه عزَّ وجلَّ كالخردلةِ في كَفِّ أحدِنا، إِذَنْ كُلُّ شيءٍ عنده؛ أي: في قبضتِه، وهو قريبٌ من الإنسانِ إذا كان يدعوه أو إذا كان يعبُدُه.

أمَّا قُرْبُه القُرْبُ العامُّ بأن نقولَ: قريبٌ من كُلِّ أحدٍ فلا، لم يَرِدْ هذا في القُرآنِ والسُّنَّةِ؛ لأنَّ القربَ أخَصُّ من المعيَّةِ، هل يمكنُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ قريبٌ من الكافرِ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، لكن نقولُ: إنَّ اللهَ مع الكافرِ بالمعيَّةِ العامَّةِ.

وقال بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ القُرْبَ كالمعيَّةِ ينقسمُ إلى قُرْبٍ عامٍّ وهو قربُ الإحاطةِ بجميعِ الخلقِ، وإلى قُرْبٍ خاصٍّ وهو قربُ الله -تبارك وتعالى- لعابدِه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٢ رقم ١٩٦١٤) واللفظ له، البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، رقم (٢٩٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤).

وداعِيه، واستدلُّوا لقولِهم بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ عامٌّ، والضَّمير «نحن» يعودُ على الله، و ﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو العِرْقُ الغليظُ الذي في رقبتِنا، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥]، وهذا عامٌّ بدليلِ أنَّه جاء بعدها التَّقسيمُ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة:٨٨-٩٢]، ولكنَّ شيخَ الإسلامِ -رحمه الله- ردَّ هذا القولَ وقال في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة:١٨٦]، ﴿قَرِيبٌ﴾ متحمِّلةٌ للضَّميرِ الذي يعودُ على الله عزَّ وجلَّ، «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»، فقال: «مِنْ رَبِّهِ» ولم يقل: من علمِ ربِّه.

ولكن يجبُ أن نعلمَ أنَّ اللهَ لا يُقَاسُ بخَلقِه، فهو فوق كُلِّ شيءٍ، وهو قريبٌ ممَّن يعبدُه ويدعوه، ولا مُنافاةَ؛ لأنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيءٌ، ولأنَّ اللهَ محيطٌ بكُلِّ شيءٍ، والذي في يدِه السَّماواتُ والأرضون كخردلةٍ في يدِ الواحدِ مِنَّا معناه أنَّه محيطٌ بكُلِّ شيءٍ.

وهذه القاعدةُ -أعني: أنَّ اللهَ إذا أَضَافَ الفعلَ أو الوصفَ إلى نفسِه اختصَّ به نفسه- ذكرها ابنُ القيِّم -رحمه الله- في مختصر «الصَّواعق المرسلة»، وهذا هو الواقعُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٤] فالخلقُ صادرٌ منه؛ لأنَّه أَضَافَهُ إلى نفسِه، فكُلُّ شيءٍ أَضَافَهُ اللهُ لنفسِه فهو لنفسِه حقيقةً، ولكنَّه لا ينافي كمالَ صفاتِه، واللهُ أعلمُ.

إِذَنْ ابنُ القيِّم -رحمه الله- هنا قال: إنَّ القربَ خاصٌّ وليس بعامٍّ، فاللهُ قريبٌ من داعيه، قريبٌ من عابدِه، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

٣٣٠٤- وَهُوَ المُجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أُجِبْـ ـهُ أَنَا المُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي

هو عزَّ وجلَّ مجيبُ الدَّعواتِ، فادْعُ اللهَ بإخلاصٍ وافتقارٍ وإيمانٍ بأنَّه عزَّ وجلَّ قادرٌ على أن يُعطيَك فيجيبك، لكن الكلام على صدقِ الدُّعاءِ، لأنَّ بعضَ النَّاسِ يدعو يريدُ أن يُجرِّبَ هل يُجابُ أو لا يُجابُ؟ لكن ادْعُ اللهَ بإخلاصٍ وأنت مُوقِنٌ بالإجابةِ، لكن الإجابةُ لها شروطٌ من أهمِّها اجتنابُ أكلِ الحرامِ، فإنَّ أكلَ الحرامِ يحولُ بين المرءِ وبين إجابةِ الدُّعاءِ، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وإِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ **«الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»**[1]، استبعد النَّبيُّ ﷺ أنْ يستجيبَ اللهُ تعالى لهذا الرَّجُلِ مع أنَّه فَعَلَ أسبابَ الإجابةِ؛ فهو مسافرٌ أشعثُ أغبرُ، رافعٌ يديه إلى الله عزَّ وجلَّ، يقولُ: يا ربِّ يا ربِّ، ومع ذلك لم يُجَبْ.

والآن لا تكادُ تجدُ مَنْ لا يأكلُ الحرامَ إلَّا نادرًا، فإن جِئْتَ للموظَّفِ تجدُ أنَّه رُبَّما لا يحضرُ إلَّا نصفَ الوقتِ أو ثلاثة أرباعِ الوقتِ، وهذا حرامٌ، فما زاد على

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥).

وقتِ الحضورِ فهو حرامٌ، إن جِئْتَ للموظَّفِ وإذا هو يأخُذُ انتِداباتٍ ليس لها أصلٌ ولا يتعدَّى مكانَه، ويُصْرَفُ له، وهذا حرامٌ، إن جِئْتَ للمعاملاتِ فإذا هي غشٌّ وربا وغير ذلك، ولذلك استبعد النَّبيُّ ﷺ أن يُجابَ؛ لأنَّه كان يأكلُ الحرامَ ويتغذَّى به.

«**إِذَنْ مَنْ يَدْعُونِي أُجِبْهُ**» لكن بشروطٍ كما سبق، المهمُّ أنَّ هناك مَوانعَ أخرى أيضًا منها: ضعفُ الإيمانِ واليَقينِ، فقد يدعو النَّاسُ ربَّهم وهم في شَكٍّ من إجابتِه فكيف يجيبُهم؟! ثُمَّ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد يمنعُ الإجابةَ المعيَّنةَ التي طلبها السَّائلُ ويدَّخر له ما هو أفضل، أو تكونُ هناك عقوبةٌ انعقدت أسبابُها فيدفعُها اللهُ عنه بسببِ الدُّعاءِ.

قَوْلُهُ: «**فَأَنَا المُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي**» ولاسيَّما في ثُلُثِ اللَّيلِ الآخِر، فإنَّه -جلَّ وعلا- ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ويقول: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[1].

٣٣٠٥- وَهُوَ الْمُجِيبُ لِدَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ إِذْ ... يَدْعُوهُ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

المضطرُّ هو الذي ألجأَته الضَّرورةُ إلى الدُّعاءِ، وهو في كُلِّ موضعٍ بحسَبِه، ففي قولِه تعالى في أكلِ الميتةِ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة:٣]، «**اضْطُرَّ**»؛ يعني: ألجأَته الضَّرورةُ إلى أكلِ الميتةِ، وهنا ألجأته الضَّرورةُ إلى الدُّعاءِ، وظاهرُ النُّصوصِ أنَّ اللهَ يُجيبُ دعوةَ المضطرِّ ولو كان كافرًا؛ لأنَّه -سبحانه وتعالى-

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

سَبَقَتْ رحمتُه غضبَه، لَدَلِيلَيْن: **الأوَّل**: عامٌّ، وهو قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النَّمل:٦٢]؛ لأنَّ المضطرَّ حين الدَّعوة تجدُ قلبَه مملوءًا بالافتقارِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وبقُدرتِه عزَّ وجلَّ على الإنقاذ فقد تَمَّ الشَّرطان: حاجةُ العبدِ، وقدرةُ الخالقِ، فيجيبه عزَّ وجلَّ.

والثَّاني: خاصٌّ، كما ذكر اللهُ عزَّ وجلَّ عن المشركين أنَّه ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢] فينجيهم، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧]؛ يعني: كُلُّ الآلهةِ التي تدعونها تضيعُ إلَّا الله ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء:٦٧]، يُنجِّيهم اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم مضطرُّون يحييُهم وهو يعلمُ أنَّهم سيرجعون إلى الشِّركِ، فيجيبُ عزَّ وجلَّ دعوةَ المضطرِّ ولهذا أطلق المؤلِّفُ فقال: «**المجُيِبُ لِدَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ إِذْ يَدْعُوه فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ**».

٣٣٠٦- وَهُوَ الجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُو ... دَ جَمِيعَهُ بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ الجَوَادُ**» «**الجَوَادُ**» من أسماءِ الله كما جاء في الحديثِ القُدسيِّ حديثِ أبي ذرٍّ الغفاريِّ الطَّويلِ قال: «**ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ عَطَائِي كَلَامٌ وعَذَابِي كَلَامٌ**»[1]، فهو عزَّ وجلَّ جَوَادٌ؛ أي: كثيرُ الجودِ والكرمِ.

قَوْلُهُ: «**فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُودَ جَمِيعَهُ بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ**»، ومن جودِه ما نراه من النِّعمِ العظيمةِ التي لا نُحْصِي لها تعدادًا.

أيضًا هو جَوَادٌ من وجهٍ آخَرَ، كُلُّ مَنْ قَصَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ بإخلاصٍ يسألُه فإنَّه يُجيبُه لجودِه؛ ولهذا نجدُ جودَ الأجوادِ من بني آدمَ -ولله المثلُ الأعلى- لا يَنْحَصِرُ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، بعد باب ما جاء في صفة أواني الحوض، رقم (٢٤٩٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٧).

على أقاربِهم أو على معارفِهم، وإنَّما يشملُ كُلَّ أحدٍ، تجدُ الرَّجُلَ الكريمَ الجوادَ يجودُ على كُلِّ مَنْ وُجِدَ، وجودُ الله تعالى أعظمُ.

٣٣٠٧- وَهُوَ الجَوَادُ فَلا يُخَيِّبُ سَائِلًا وَلَوَ انَّهُ مِنْ أُمَّةِ الكُفْرَانِ

هو الجوادُ فلا يخيِّبُ سائلًا، ولو كان كافرًا، لكن هذا في حالِ الاضطرارِ، أو فيما إذا دعا الكافرُ وهو مظلومٌ فإنَّ اللهَ يُجِيبُ دعوتَه، والدَّليلُ على ذلك عمومُ قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ»[1]، هذا من جهةِ النَّصِّ، أمَّا من جهةِ المعنى: فاللهُ عزَّ وجلَّ حَكَمٌ عدلٌ، فيزيلُ ظلمَ الظَّالمِ ولو كان المظلومُ كافرًا؛ ولهذا لو تحاكم رجلان: مسلمٌ وكافرٌ عند القاضي، وكان الحقُّ للكافرِ وَجَبَ عليه أن يقضيَ به على المسلمِ.

٣٣٠٨- وَهُوَ المُغِيثُ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ وَكَذَا يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ

قَوْلُهُ: «المُغِيثُ»؛ يعني: المُنْقِذ من الشِّدَّةِ.

«المُغِيثُ» الظَّاهرُ أنَّه وصفٌ من أوصافِ الله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان:٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩]، فإذا كان اللهُ تعالى هو المغيثُ فبأيِّ أحدٍ تستغيثُ عند الشِّدَّةِ؟ الجوابُ: بالله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا ضَلَّ مَنْ يستغيثون بالأولياءِ أو بالأنبياءِ أو بالأقاربِ الأمواتِ؛ لأنَّهم لن يغيثوك، ولكنَّ استغاثةَ الإنسانِ بالإنسانِ في أمرٍ يقدرُ عليه هذه جائزةٌ، قال اللهُ تعالى عن موسى عليه السَّلام: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص:١٥]، أمَّا ما لا يقدرُ عليه إلَّا اللهُ أو كان

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٢٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

المُسْتَغَاثُ لا يقدرُ عليه فهذا لا يجوزُ إلَّا لله وحدَه.

لكن ما الفرقُ بين الشَّطرِ الأوَّلِ والشَّطرِ الثَّاني؟

الجوابُ: الفرقُ بين الشَّطر الأوَّلِ والثَّاني أنَّه يُغيثُ المخلوقاتِ وإن لم تَدْعُ، أمَّا الثَّاني فإنَّه «**يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ**» فهذا إذا دعا، فاللهُ تعالى يُغِيثُ مَنْ يحتاجُ إلى الغوثِ سواءٌ دعا أم لم يَدْعُ.

* * *

فصل

٣٣٠٩- وَهُوَ الوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ ... أَحْبَابُهُ وَالفَضْلُ لِلمَنَّانِ

٣٣١٠- وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ المَحَبَّةَ فِي قُلُو ... بِهِمُ وَجَازَاهُمْ بِحُبٍّ ثَانِي

٣٣١١- هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ حَقًّا لا مُعَا ... وَضَةً وَلا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ

٣٣١٢- لَكِنْ يُحِبُّ شَكُورَهُمْ وَشُكُورَهُمْ ... لا لاحْتِيَاجٍ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ

٣٣١٣- وَهُوَ الشَّكُورُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُمْ ... لَكِنْ يُضَاعِفُهُ بِلا حُسْبَانِ

٣٣١٤- مَا لِلعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ

٣٣١٥- كَلَّا وَلا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ ... إِنْ كَانَ بِالإِخْلاصِ وَالإِحْسَانِ

٣٣١٦- إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ، وَالحَمْدُ لِلمَنَّانِ

الشرحُ

٣٣٠٩- وَهُوَ الوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ ... أَحْبَابُهُ وَالفَضْلُ لِلمَنَّانِ

من أسمائِه عزَّ وجلَّ «الوَدُودُ»، قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤]، وكلمةُ «فَعُول» بمعنى «فاعل»، وبمعنى «مفعول»، بمعنى «فاعلٍ» لقولِه: «يُحِبُّهُمْ»، فهو عزَّ وجلَّ وَادٌّ، وبمعنى «مفعول» لقولِه: «يُحِبُّه أَحْبَابُهُ»، وهو -أيضًا- مودود، والودُّ: خالصُ المحبَّةِ، واللهُ عزَّ وجلَّ وادٌّ؛ أي: يُحِبُّ، ومودودٌ؛ أي: محبوبٌ، فهو عزَّ وجلَّ مُحِبٌّ لأحبابِه، وأحبابُه محبُّون له، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، فهو -جلَّ وعلا- الودودُ بالمعنَيَيْنِ؛ ولهذا قال «**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ أَحْبَابُهُ**»، ولمن الفضلُ؟ الجوابُ: لله عزَّ وجلَّ، فهو الذي جعل المحبَّةَ في قلوبِهم، ثُمَّ مَنَّ عليهم مرَّةً أخرى فأحبَّهم؛ ولهذا قال:

٣٣١٠- وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ المَحَبَّةَ فِي قُلُو ... بِهِمُ وَجَازَاهُمْ بِحُبٍّ ثَانِي

الحُبُّ الثَّانِي؛ أي: من الله عزَّ وجلَّ، فهم أحبُّوا اللهَ فقاموا بطاعتِه واتِّباعِ رسولِه فأحبَّهم، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، نزلت في قومٍ ادَّعوا أنَّهم يحبُّون اللهَ تعالى، فأعطاهم اللهُ تعالى ميزانًا: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: «**اتَّبِعُونِي تَصْدُقُوا فيما قُلْتُم**» مع أنَّ المتوقَّعَ أن يكونَ الجوابُ هكذا: «**اتَّبعوني تَصْدُقُوا فيما قلتم**»، لكنَّه ما قال ذلك، بل قال: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وهذه هي الغايةُ.

إِذَنْ محبَّةُ العبدِ لله عزَّ وجلَّ لها مِيزانٌ، وهو اتِّباعُ الرَّسولِ ﷺ ظاهرًا وباطنًا في العقيدةِ والقولِ والعملِ.

مَنِ ادَّعَى محبَّةَ الرَّسولِ وابتدع في دِينِ الرَّسولِ فهو كاذبٌ، نقولُ: لو كنتَ صادقًا في دعواك محبَّةَ الرَّسولِ ما أَتَيْتَ بالبدعةِ في دِينِهِ؛ لأنَّ بدعتَك في دينِه؛ يعني: تكذيبَ هذه القضيَّة العامَّة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]؛ إذ أنَّ هذا الذي ابتدعه واعتقد أنَّه دينٌ وليس موجودًا في الشَّريعةِ من لازِمه أنَّ الشَّريعةَ ناقصةٌ لم تَكْمُلْ، فيكونُ مضمونُ هذا القولِ ولازمُه -نسألُ اللهَ العافيةَ- تكذيبَ الآيةِ الكريمةِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]؛ ولهذا أهلُ البدعِ على خطرٍ عظيمٍ حتَّى قال بعضُ السَّلفِ: إِنَّ المبتدعَ لا تُقْبَلُ له توبةٌ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يمحوَ

ما حَصَلَ من الأثرِ السَّيِّئ في بدعتِه، لكن على كُلِّ حالٍ القولُ الرَّاجحُ أنَّها تصحُّ توبتُه، وأنَّ البدعةَ أقسامٌ كثيرةٌ، منها المُكَفِّرَةُ ومنها المُفَسِّقَةُ، ومنها التي يُعْذَرُ فيها صاحبُها حسب ما هو معروفٌ عند أهلِ العلمِ.

٣٣١١- هَـذَا هُـوَ الإِحْسَـانُ حَقًّـا لا مُعَـا وَضَـةً وَلا لِتَوَقُّـعِ الشُّـكْرَانِ

قَوْلُهُ: «**هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ حَقًّا**» إي والله هذا هو الإحسانُ، أن يُحْسِنَ أَوَّلًا، ثُمَّ يُحْسِنَ ثانيًا، يُحْسِنُ أَوَّلًا بوضعِ المحبَّة في قلوبِ عبادِه، ثُمَّ ثانيًا بمحبَّتِه لهم.

قَوْلُهُ: «**لَا مُعَاوَضَةً وَلَا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ**»؛ أي: لا يرجو بذلك أن يُعاوضوه ولا يتوقَّعُ منهم أن يشكروه، بمعنى أنَّه لا ينتظرُ أن يشكروه، فهو سبحانه وتعالى يحبُّهم ويُلْقِي في قلوبِهم المحبَّةَ تفضُّلًا.

٣٣١٢- لَكِنْ يُحِبُّ شَكُورَهُمْ وَشُكُورَهُمْ لا لاحْتِيَـاجٍ مِنْـهُ لِلشُّـكْرَانِ

قَوْلُهُ: «**لَكِنْ يُحِبُّ شَكُورَهُمْ وَشُكُورَهُم**»؛ أو «**شُكُورَهُمْ وشَكُورَهُمْ**» أيُّهما؟ الجوابُ: لا يختلفُ المعنى، يعني: سواءً قلت: «**شَكُورَهُم**» وهو الفاعلُ؛ أي: العبد الشَّاكر، «**وشُكُورَهُمْ**» وهو الفعل؛ أي: الشُّكر، أو قَدَّمْتَ الثَّانيَ، فهو يُحِبُّ منهم الشُّكرَ ويُحِبُّ مَنْ شَكَرَ.

قَوْلُهُ: «**لَا لِاحْتِيَاجٍ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ**»؛ لأنَّه غنيٌّ عن كُلِّ مَنْ سواه.

٣٣١٣- وَهُوَ الشَّكُورُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُمْ لَكِـنْ يُضَـاعِفُهُ بِـلا حُسْـبَانِ

هذا أيضًا من شُكرِ الله عزَّ وجلَّ، أنَّه لن يُضَيِّعَ سعيَ العبادِ، بل يُضاعفُ الحسَنةَ بعشرِ أمثالِـها إلى سبعِمئةِ ضعفٍ، وإذا كانت الحسَنةُ تعليمَ الخلقِ فما أكثر ما يُضَاعِفُ كُلُّ مَنِ انتفعَ بعلمِك فلك مِثْلُ أجرِه، ومَن الذي ينتفعُ بالعلمِ؟

الجوابُ: أممٌ؛ ولهذا ما تفعلُه أُمَّةُ النَّبِيِّ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- من خيرٍ إلَّا وله -صلواتُ الله وسلامُه عليه- أجرُه، وكذلك العلماءُ الذين نَفَعَنَا اللهُ بهم، كُلُّ ما انتفعوا به فلهم مِثْلُ أجرِهم، وهذا من شكرِ الله، وإلَّا لكان الإنسانُ يُؤْجَرُ على سعيه الخاصِّ فقط لا على آثارِ سعيِه، ولكن من شكرِ الله عزَّ وجلَّ للعاملِ أنَّه يُثِيبُه حتَّى فيما تَرَتَّبَ على فعلِه.

٣٣١٤- مَــا لِلعِبَــادِ عَلَيْــهِ حَــقٌّ وَاجِــبٌ هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّـانِ

هذه مسألةٌ مهمَّةٌ، هل للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ؟

الجوابُ: لا، ليس للعبادِ على الله حقٌّ واجبٌ؛ لأنَّ العبدَ مخلوقٌ مَرْبوبٌ، فليس له حقٌّ على ربِّه، لكنَّ اللهَ تعالى لكرمِه أَوْجَبَ لعبدِه حقًّا عليه، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، هذا في المذنبين أنَّ الإنسانَ إذا تَابَ وأَصْلَحَ فقد كَتَبَ اللهُ على نفسِه الرَّحمةَ، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنعام:١٢]، فاللهُ تعالى هو الذي أَوْجَبَ الحقَّ على نفسِه، وفي حديثِ مُعاذٍ المشهور أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يا مُعاذُ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى الله عزَّ وجلَّ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1]، فاللهُ هو الذي أَوْجَبَ الحقَّ على نفسِه؛ ولهذا قال: «**هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ**»؛ أي: أَوْجَبَ الأجرَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، رقم (٢٧٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم (٣٠).

العظيمَ الشَّانِ لِـمَنْ أَطَاعَ أو لِـمَنْ تَابَ إليه من المعاصي، إِذَنْ لا ننفي أن يكونَ على الله حقٌّ واجبٌ ولا نثبتُ، بل نُفَصِّلُ كما سَبَقَ.

٣٣١٥- كَـلَّا وَلا عَمَـلٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعٌ إِنْ كَـانَ بِـالإِخْلاصِ وَالإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ**» «**لَدَيْهِ**»؛ أي: من أجلِه؛ أي: ليس هناك عملٌ يضيعُ عند الله عزَّ وجلَّ أبدًا، كُلُّ عملِ الإنسانِ وإن دَقَّ فإنَّه لا يَضِيعُ عند الله، بينما أعمالُ العبادِ للعبادِ قد تضيعُ، فرُبَّما تجتهدُ في العملِ لشخصٍ بمساعدةٍ أو معاونةٍ أو تحضيرِ غائبٍ، أو ما أشبه ذلك، فيضيعُ عملُك.

ولكنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- اشترط شرطين فقال: «**إِنْ كَانَ بِالإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ**» الإخلاصُ لله، والإحسانُ: المتابعةُ لرسولِ الله ﷺ، فكُلُّ عملٍ مَبْنِيٍّ على الإخلاصِ والمتابعةِ فلن يضيعَ، فإن فُقِدَ الإخلاصُ فلا قَبُولَ، وإن فُقِدَتَ المتابعةُ فلا قَبُولَ، فإن كان بغيرِهما فإن فاتا أو أحدُهُما فهو ضائعٌ.

والدَّليلُ من القُرآنِ آياتٌ كثيرةٌ، ومنها قولُه تعالى: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]، ومن السُّنَّةِ قولُ الله تعالى في الحديثِ القُدسيِّ الذي رواه عنه نبيُّه محمَّدٌ ﷺ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]، فهذا العملُ فَقَدَ الإخلاصَ، وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فيما رَوَتْهُ عنه أُمُّ المؤمنينَ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[2]؛ أي: مردودٌ، هذا فُقِدتْ منه المتابعةُ، إِذَنْ لا بُدَّ من إخلاصٍ وإحسانٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

٣٣١٦- إِنْ عُــذِّبُوا فَبِعَدْلِــهِ أَوْ نُعِّمُــوا   فَبِفَضْــلِهِ، وَالحَمْــدُ لِلمَنَّــانِ

قَوْلُهُ: «إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ» فلم يظلمْهم؛ لأنَّه -سبحانه وتعالى- رَكَّبَ فيهم العَقولَ والفطرَ السَّليمةَ، وأرسل إليهم الرُّسلَ، وهداهم، ولم يَحْصُلْ أيُّ قاصرٍ، فإذا كذَّبوا واستكبروا وعذَّبهم على ذلك فهذا عدلٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] لم يقل: «سيِّئة» فقط؛ لئلا يظُنَّ ظانٌّ أنَّها سيِّئةٌ تكونُ أكبرَ من السَّيِّئةِ العاملةِ، بل قال: ﴿سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ لا تزيدُ عليها، ومَنْ عَمِلَ صالحًا فإنه يُجْزَى الحسنةَ بعشر أمثالِها إلى سبعِمئة ضعفٍ لأضعافٍ كثيرة.

نقولُ: هنا بمقتضى التَّقسيمِ العقليِّ حالٌ ثالثةٌ وهي الظُّلم، وهذه ممتنعةٌ على الله، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

قال اللهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، وهذا الاستفهامُ للتَّقريرِ؛ يعني: قد أتى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهرِ لــم يكن شيئًا مذكورًا.

الآن لو سألتكم ما الدُّنيا التي سَبقَتْكُم؟

الجوابُ: لا تُحْصَى، كُلُّ ما مَضَى قَبْلَ ولادتِنا ليس بشيءٍ بالنِّسبة لنا، لسنا شيئًا مذكورًا، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، أداةُ الابتلاءِ والاختبارِ موجودةٌ وهي السَّمعُ والبصرُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان:٣]؛ أي: بيَّنَّا له الطَّريقَ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]؛ يعني: سواءٌ كان شاكرًا أم كفورًا فقد بُيِّنَتِ السَّبيلُ، لكن مِنَ النَّاسِ مَنْ آمَنَ، ومنهم مَنْ كَفَرَ، إِذَنْ إذا حَصَلَ العذابُ على الإنسانِ فإنَّ ذلك بعدلِه، لم يظلم اللهُ عزَّ وجلَّ أحدًا، كُلُّ شيءٍ مُبَيَّنٌ حتَّى إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى-

أرسل الرُّسلَ ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النِّساء:١٦٥].

قَوْلُهُ: «**أَوْ نُعِّمُوا فَبِفَضْلِهِ**» تَفَضَّلَ على مَنْ أَنْعَمَ عليهم أوَّلًا وثانيًا، أوَّلًا بتوفيقِهم، وكم من أناسٍ ضَلُّوا، والذي يَضِلُّ من بني آدمَ تسعُمئةٍ وتسعةٍ وتسعونَ، كُلُّهم ضالُّون في النَّار، وما أكثرَ الضُّلَّالَ، فإذا نُعِّمَ الإنسانُ فبفضلِ الله، **النَّعيمُ الأوَّلُ**: هدايتُه للإسلامِ، **والنَّعيمُ الثَّاني**: الجزاءُ على عملِه، قال اللهُ تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

قَوْلُهُ: «**وَالحَمْدُ لِلْمَنَّانِ**»، وفي نسخةٍ: «**الحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ**»، و«**الحَمْدُ**»؛ يعني: الوصف بالكمالِ والجميلِ مع التَّعظيمِ والمحبَّة للمنَّانِ الذي مَنَّ على عبدِه بالتَّوفيقِ أوَّلا، ثُمَّ بالإثابة ثانيًا.

وهذه الأبياتُ الثَّلاثةُ الأخيرةُ أخذَها المؤلِّفُ من بيتَيْنِ قالهما مَنْ سبقه، وهما:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ، وَهُوَ الكَرِيمُ الوَاسِعُ[1]

لكن كلامُ ابنِ القيِّم أحسنُ بلا شكٍّ؛ لأنَّ ابنَ القيِّمَ لـمَّا قال: «**مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ**» قَيَّدَ فقال: «**مَا لَـهُمْ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هم الذين أوجبوه، أمَّا حقٌّ واجبٌ عليه أَوْجَبَهُ هو فهو ثَابِتٌ**».

أيضًا صاحبُ البيتين أَطْلَقَ، وهنا قَيَّدَ فقال: «**إِنْ كَانَ بِالإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ**».

* * *

(١) البيتان وردا في كثير من كتب العقيدة بلا نسبة.

فصل

٣٣١٧- وَهُوَ الغَفُورُ فَلَوْ أَتَى بِقُرَابِهَا ... مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ بَلْ مِنَ العِصْيَانِ

٣٣١٨- لأَتَاهُ بِالغُفْرَانِ مِلْءَ قُرَابِهَا ... سُبْحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الغُفْرَانِ

٣٣١٩- وَكَذَلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالتَّوْبُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

٣٣٢٠- إِذْنٌ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ وَقَبُولُهَا ... بَعْدَ المَتَابِ بِمِنَّةِ المَنَّانِ

الشرحُ

٣٣١٧- وَهُوَ الغَفُورُ فَلَوْ أَتَى بِقُرَابِهَا ... مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ بَلْ مِنَ العِصْيَانِ

٣٣١٨- لأَتَاهُ بِالغُفْرَانِ مِلْءَ قُرَابِهَا ... سُبْحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الغُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «الغَفُورُ»: هذا اسمٌ من أسماءِ الله، وهو السَّاترُ للذَّنبِ المتجاوزُ عنه؛ لأنَّ «الغفورَ» مشتقٌّ من المِغْفَرِ، والمِغْفَرُ ما يُوضَعُ على الرَّأسِ اتِّقاءَ السِّهامِ، وإذا وُضِعَ على الرأسِ حصَل فيه فائدتان:

الأولى: السَّترُ، الثَّانية: الوقايةُ من السِّهامِ.

فهو عزَّ وجلَّ غفورٌ يغفرُ الذَّنبَ سترًا وعفوًا.

قَوْلُهُ: «لَوْ أَتَى بِقُرَابِهَا»؛ أي: قرابِ الأرضِ؛ أي: ما يُقَارِبُ مِلأَها من العِصيانِ لكن بدون شِركٍ، فإنَّ اللهَ تعالى يغفرُه؛ لقولِه تعالى في الحديث القدسيِّ: «يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ

بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1]، وهذا الاسمُ العظيمُ المتضمِّنُ لهذا المعنى الجليلِ ينبغي للإنسانِ أَنْ يُعَلِّقَ به قَلبَه، وأَنْ يُكثِرَ من الاستغفارِ حتَّى يتحقَّقَ له ما دَلَّ عليه هذا الاسمُ الكريمُ.

٣٣١٩- وَكَـذَلِكَ التَّـوَّابُ مِـنْ أَوْصَـافِهِ   وَالتَّـوْبُ فِي أَوْصَـافِهِ نَوْعَـانِ

٣٣٢٠- إِذْنٌ بِتَوْبَـةِ عَبْـدِهِ وَقَبُولُـهَا   بَعْـدَ المَتَـابِ بِمِنَّـةِ الـمَنَّانِ

وكذلك من أسمائِهِ «التَّوَّابُ»، وليتَ المؤلِّفَ قال: «مِنْ أَسْمَائِهِ»؛ لأنَّ «التَّوَّابَ» من أسماءِ الله بلا شكٍّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٠]، لكنَّه قال: «وَكَذَلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ»؛ يعني: ممَّا تضمَّن أوصافَ التَّوبةِ، وإلَّا فهو اسمٌ.

و«التَّوَّابُ»؛ أي: كثيرُ التَّوبةِ على مَنْ تَابَ مهما أَذْنَبَ العبدُ، إذا تَابَ تَابَ اللهُ عليه، لو فعل الذَّنبَ ثُمَّ تَابَ توبةً حقيقيَّةً ثُمَّ غَلَبَتْهُ نفسُه فَفَعَلَهَا وتَابَ يتوبُ اللهُ عليه، ثُمَّ غَلَبَتْهُ نفسُه فَفَعَلَهَا وتَابَ يتوبُ اللهُ عليه مهما تكرَّر، حتَّى جاء في الحديثِ في رَجُلٍ أَخبَرَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ أَذْنَبَ وَتَابَ، وَأَذْنَبَ وَتَابَ، وَأَذْنَبَ وَتَابَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: «عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»[2]، الله أكبر! نعمةٌ عظيمةٌ، لكن ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أَنَّ التَّوبَةَ في أوصافِ الله؛ يعني: التَّوب الذي دَلَّ عليه التَّوَّابُ، وهو وصفٌ عن التَّوبِ، فالتَّوَّابُ اسمٌ من أسماءِ الله، والصِّفةُ التَّوْبُ، وهي نوعان: الأوَّل: توبةٌ سابقةٌ على توبةِ العبدِ، والثَّاني: توبةٌ لاحقةٌ لتوبةِ العبدِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، رقم (٣٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، رقم (٧٠٦٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، رقم (٢٧٥٨).

توبةُ العبد محفوفةٌ بتوبتين: سابقةٍ ولاحقةٍ، السَّابقةُ يقولُ: «**إِذْنٌ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ**»؛ يعني: أنَّ اللهَ يَأْذَنُ قدرًا بتوبةِ العبدِ فيُوفِّقه للتَّوبةِ، إِذَنْ الإذنُ في كلامِ المؤلِّفِ هنا المرادُ به الإذنُ القدَرِيُّ.

الثاني: قَبولُ التَّوبة، ولهذا نقول: «**قَبولُها**» بالرَّفعِ؛ لأَنَّه هو النَّوع الثَّاني، فتكونُ توبةُ العبدِ إلى الله محفوفةً بتوبَتَيْنِ: توبةٍ سابقةٍ وهي أنَّ اللهَ يُوَفِّقَه للتَّوبةِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد لا يُوفَّقُ للتَّوبةِ، فقد يعمى قلبُه ويُصِرُّ على المعصيةِ وقد يُوَفَّقُ للتَّوبةِ، وتوبةٍ لاحقةٍ وهي أنَّ اللهَ تعالى يقبلُ منه التَّوبةَ.

فإن قال قائلٌ: ما الدَّليلُ على هذا التَّقسيمِ؟ قلنا: الدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التَّوبة:١١٨]، فقولُه: ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ هل تَابَ عليهم توبةً سابقةً أو لاحقةً؟ الجوابُ: توبة سابقة؛ لأَنَّه قال: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾، إذَنْ قولُه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾؛ يعني: أَذِنَ لهم قَدَرًا بالتَّوبةِ فَوَفَّقهم لها ليتوبوا إليه، فيقبلُ منهم التَّوبةَ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشُّورى:٢٥]، وقولُه أيضًا: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التَّوبة:١١٨] معطوفٌ على قولِ الله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [التَّوبة:١١٧]؛ يعني: وَتَابَ على الثَّلاثةِ الذين خُلِّفُوا؛ أي: خَلَّفَهم النَّبيُّ ﷺ ولم يَبُتَّ في أمرِهم، وهم الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تبوك، وهم ثلاثةٌ: هلالُ بنُ أُمَيَّةَ، وكعبُ بنُ مالكٍ، ومرارة بن الرَّبيعِ، تخلَّفوا عن غزوة تبوكٍ بلا عذرٍ، ولَـمَّا قَدِمَ النَّبيُّ ﷺ المدينةَ جلس للنَّاسِ، فَجَاءَهُ المعذِّرون الذين يعتذرون وهم مُنافقون، وبعضهم له الحقُّ، هؤلاء الثَّلاثةُ صَدَقُوا اللهَ وصدقوا رسولَه، وكان كعبُ بنُ مالكٍ أشبَّ القومِ وأجلدَهم وأبينَهم وأجدلَهم، وقد أُوتِي جدلًا يستطيعُ أن يتخلَّصَ، فَجَلَسَ إلى النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قائلًا: إِنَّهُ أُوتِي جَدَلًا، وَلَوْ جَلَسَ عِنْدَ غَيْرِ الرَّسُولِ

لتخلَّصَ، لكنَّه لو تخلَّص عند الرَّسولِ الآن بالجدلِ فرَبُّ الرَّسولِ عزَّ وجلَّ لن يهملَه، يعلمُ بحالِه، وقال: إِنِّي لَا يُمْكِنُ أَنْ أُجادِلَ بشيءٍ؛ يعني: تَقْبَلُه مِنِّي يا رسولَ الله، ثُمَّ يفضحني اللهُ بعد ذلك، وأَخْبَرَ بالصِّدقِ، وقال: عندي راحِلَتَين، وقويٌّ وقادرٌ، ولا عُذرَ لي، قال النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ»، ثُمَّ أمره أن ينصرفَ حتَّى يقضيَ اللهُ فيه ما شاء، وبقوا على هذا خمسين ليلةً منها عشرُ ليالٍ أُمِرَتْ نساؤهم اللَّاتي هُنَّ أَخصُّ النَّاسِ بهم فاعتزلوهم إِلَّا هلال بن أُمَيَّة ومرارة بن الرَّبيع، فكانا شَيْخَيْن كَبيرَيْن، استأذنا أن تبقى زوجاتُهما عندهما للخِدمةِ، ولـمَّا مضت خمسون ليلةً أنزل اللهُ التَّوبةَ عليهم، فكانت هذه أبلغَ من الماءِ للعطشانِ الذي يخاف الدَّركَ؛ ولهذا يقولُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التَّوبة:١١٨]، يعني: على رَحْبَتِهَا وسَعَتِهَا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التَّوبة:١١٨] حتَّى أنفسُهم ضاقت عليهم، وصاروا يَرَوْنَ النَّاسَ وكأنَّهم ليسوا هم النَّاس الذين يعرفونهم، وليست المدينةُ هي المدينة، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة:١١٨]؛ أي: أيقنوا أنَّه لا ملجأَ من الله إِلَّا إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التَّوبة:١١٨]، فقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التَّوبة:١١٨] هذه بمعنى وَفَّقَهم للتَّوبةِ ليتوبوا فيقبلُ اللهُ توبتَهم.

فالحاصلُ: أنَّ توبةَ الله على العبدِ نوعان: توبةٌ سابقةٌ لتوبتِه، وتوبةٌ لاحقةٌ.

وشروطُ التَّوبةِ لا حاجةَ إلى تكْرَارِها؛ لأنَّها معروفةٌ للجميعِ، وهي بعددِ أصابعِ اليدِ؛ أي: خمسةٌ، وهي: الإخلاصُ، والنَّدَم على المعصيةِ، والإقلاعُ عنها، والعزمُ على ألَّا يعودَ، وأن تكونَ التَّوبةُ في وقتٍ تُقْبَلُ فيه.

* * *

فصل

٣٣٢١- وَهُوَ الإِلَـهُ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الَّذِي ... صَمَدَتْ إِلَيْهِ الخَلْقُ بِالإِذْعَانِ

٣٣٢٢- الكَامِلُ الأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الوُجُو ... هِ كَمَالُهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

٣٣٢٣- وَكَذَلِكَ القَهَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... فَالخَلْقُ مَقْهُورُونَ بِالسُّلْطَانِ

٣٣٢٤- لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا عَزِيزًا قَادِرًا ... مَا كَانَ مِنْ قَهْرٍ وَمِنْ سُلْطَانِ

٣٣٢٥- وَكَذَلِكَ الجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

٣٣٢٦- جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلِّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا ... ذَا كَسْرَةٍ فَالجَبْرُ مِنْهُ دَانِي

٣٣٢٧- وَالثَّانِي جَبْرُ القَهْرِ بِالعِزِّ الَّذِي ... لا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانِ

٣٣٢٨- وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهُوَ العُلُوْ ... وُ فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ

٣٣٢٩- مِنْ قَوْلِهِمْ جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ الـ ... ـعُلْيَا الَّتِي فَاتَتْ لِكُلِّ بَنَانِ

الشرحُ

٣٣٢١- وَهُوَ الإِلَـهُ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الَّذِي ... صَمَدَتْ إِلَيْهِ الخَلْقُ بِالإِذْعَانِ

٣٣٢٢- الكَامِلُ الأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الوُجُو ... هِ كَمَالُهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

من أسماءِ الله تعالى: «الإِلهُ» و«السَّيِّدُ» و«الصَّمدُ»، فهو «الإلهُ»؛ أي: المألوهُ المعبودُ محبَّةً وتعظيمًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣]، وأمَّا «السَّيِّدُ»؛

أي: ذو السِّيادةِ المطلقةِ من كُلِّ الوجوه، فقال النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-: «**السَّيِّدُ اللهُ**»[١].

ولذلك خاف الرَّسُولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يجعلوا له السِّيادةَ المطلقةَ لـمَّا قالوا له: «أَنْتَ سَيِّدُنَا»، فَقَالَ: «**قَولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضَ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ**»[٢]، وأمَّا أنَّه ﷺ **السَّيِّدُ** على البشرِ فهذا لا شكَّ فيه، ولذا فالأولى ألَّا يُطْلَقَ «**السَّيِّد**» على النَّبِيِّ ﷺ، وإنما يُقَيَّدُ فيُقَالُ: «**سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**»[٣] كما قال النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

فإن قال قائلٌ: ما حكمُ قولِ البعضِ: السَّيِّد فلانٌ، أو السَّادةُ والسَّيِّداتُ؟
الجوابُ: الظَّاهرُ أنَّ هذه مسلوبةُ المعنى وأنَّها كلمةُ تبجيلٍ فقط.

وأمَّا «**الصَّمَدُ**» ففَسَّره المؤلِّفُ بمعنيين: **المعنى الأوَّل**: قال: «**الَّذِي صَمَدَتْ إِلَيْهِ الخَلْقُ بِالإِذْعَانِ**»، فكُلُّ الخلقِ تَصْمِدُ إلى الله في حوائجِها، فهو صمدٌ لا يحتاجُ إلى أحدٍ ويحتاجُ إليه كُلُّ أحدٍ حتَّى البهائمُ العجمِ والحشراتُ تصمدُ إلى الله سبحانه وتعالى، ويُذْكَرُ أنَّ سليمانَ بن داوَد -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ- خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ يَسْتَسْقِي، فَوَجَدَ نَمْلَةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا رَافِعَةً قَوائِمَهَا إِلَى السَّمَاءِ تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ فَلَا تَمْنَعْ عَنَّا رِزْقَكَ، فَقَالَ: «**ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ**»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح، رقم (٤٨٠٦).
(٢) أخرجه أبو داود، وهو جزء من الحديث السابق.
(٣) كما في حديث: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ». أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٦٢، رقم ٢٩٤٨٧).

إِذَنْ لِـمَنْ تلجأُ الخلائقُ حتَّى الحشراتُ؟ الجوابُ: إلى الله؛ ولهذا فُسِّرَ «**الصَّمَدُ**» بمعنى المفعول؛ يعني: المصمود إليه؛ أي: الذي تَصْمِدُ إليه الخلائقُ كُلُّها في حوائجِها، ولهذا يقولُ المؤلِّفُ: «**الَّذِي صَمَدَتْ إِلَيْهِ الخَلْقُ بِالإِذْعَانِ**» هل المرادُ بالإذعانِ الإذعانُ الشَّرعِيُّ أو الكونِيُّ؟ أمَّا الكافرُ فالكونيُّ، فالكافرُ مذعِنٌ لله عزَّ وجلَّ كونًا، لا يستطيعُ أبدًا أن يُعارِضَ حكمَ الله تعالى فيه، وأمَّا المؤمنُ فهو مذعِنٌ لله كونًا وشرعًا.

المعنى الثَّاني: قال: «**الكَامِلُ الأَوْصَافِ**»؛ يعني: الذي كَمُلَتْ أوصافُه عزَّ وجلَّ كما قال ابنُ عبَّاسٍ: «الصَّمَدُ: السَّيِّدُ الكاملُ في سُؤْدُدِهِ، العليمُ الكَامِلُ في علمِه»[1]، وعَدَّد أشياءَ، فهو إِذَنْ الكاملُ في أوصافِه الذي تصمِدُ إليه جميعُ مخلوقاتِه.

ويدخلُ في كمالِ الأوصافِ أيضًا تفسيرُ «**الصَّمد**» بأنَّه الذي لا جوفَ له، فلا يحتاجُ إلى أكلٍ وشربٍ، فهو لكمالِه ليس له أوعيةُ الأكلِ والشُّربِ؛ ولهذا لو قال قائلٌ: أنا أُثْبِتُ لله مَعًى لكن ليست كأمعائِنا كما أُثْبِتُ له يدًا ليست كأيدِينا، قلنا: هذا خطأٌ؛ لأنَّ ما ذَكَرْتَ من الأمعاءِ إنَّما هي لمن يأكلُ ويشربُ، واللهُ عزَّ وجلَّ لا يأكلُ ولا يشربُ.

إِذَنْ يدورُ «**الصَّمَدُ**» على هذين المعنيَيْن: الكمالِ لله عزَّ وجلَّ، وافتقارِ الخلقِ إليه سبحانه وتعالى.

٣٣٢٣- وَكَـذَلِكَ القَهَّـارُ مِـنْ أَوْصَـافِهِ فَـالخَلْقُ مَقْهُـورُونَ بِالسُّـلْطَانِ

هو «**القَهَّارُ**» أيضًا، وقوله: «**مِنْ أَوْصَافِهِ**»؛ يعني: ممَّا يدلُّ على صفةِ القهرِ،

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٧٤).

وإلَّا فالقهَّارُ من أسمائِه جلَّ وعلا، ومن أشرفِ أسمائِه كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فقولُ المؤلِّف: «مِنْ أَوْصَافِهِ»؛ يعني: أنَّه دَلَّ على وصفِ القهرِ، وإلَّا -لا شكَّ- أنَّه من أسمائِه.

قَوْلُهُ: «فَالخَلْقُ مَقْهُورُونَ بِالسُّلْطَانِ»؛ أي: كُلُّ الخلقِ مَقهورون، لا يمكنُ أنْ يخرجوا عن قهرِ الله عزَّ وجلَّ، واللهُ يتحدَّى الجنَّ والإنسَ فيقولُ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرَّحمن:٣٣]، وهذا لا يمكنُ، ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرَّحمن:٣٣]؛ يعني: ولا سُلطانَ لكم؛ لأنَّه لا أحدَ يَفِرُّ من قَدَرِ الله ولا من قهرِ الله، فكُلُّ الخلقِ مقهورون بسُلطانِ الله الأعظمِ الذي ليس فوقه سلطانٌ ولا يُدانيه سلطانٌ، كُلُّ الخلائقِ مقهورةٌ بالله عزَّ وجلَّ مهما عظمت قوَّتُها، إذا شاء شيئًا قال: «كُنْ فيكون»، عصا من شجرٍ ضُرِبَ به البحرُ فانفلق في لحظةٍ، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشُّعراء:٦٣]، ويغزو الكعبةَ جيشٌ حتَّى إذا كانوا ببيداءَ من الأرضِ خُسِفَ بهم[1]؛ أي: هلكوا عن آخرِهم، فتُجَّارُهم وصاغتُهم والمعتدون منهم كُلُّهم يذهبون في لحظةٍ، فكُلُّ الخلقِ مقهورون بسلطانِ الله عزَّ وجلَّ، هذا في الدُّنيا والنَّاسُ يُشَاهِدونَ، فكيف بالآخرة؟! يكونُ الأمرُ أشدَّ وأشدَّ وأظهرَ.

٣٣٢٤- لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا عَزِيزًا قَادِرًا   مَا كَانَ مِنْ قَهْرٍ وَمِنْ سُلْطَانِ

يعني: أنَّ القهَّارَ يشملُ عِدَّةَ مَعانٍ: الحياة، والعِزَّة، والقُدرة، ولولا هذه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق، رقم (٢٠١٢)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، رقم (٢٨٨٤).

المعاني الثَّلاثة ما صار قَهَّارًا ولا صار له سُلطانٌ، فهو حيٌّ عزيزٌ قادرٌ قاهرٌ.

٣٣٢٥- وَكَذَلِكَ الجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

٣٣٢٦- جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلِّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا ... ذَا كَسْرَةٍ فَالجَبْرُ مِنْهُ دَانِي

٣٣٢٧- وَالثَّانِي جَبْرُ القَهْرِ بِالعِزِّ الَّذِي ... لا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانِ

٣٣٢٨- وَلَهُ مُسَمَّى ثَالِثٌ وَهُوَ العُلُوْ ... وُ فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ الجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ»، ولَيْتَه قال: «مِنْ أَسْمَائِهِ»؛ لأنَّ من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ الجَبَّارَ، ووَصْفُهُ الجَبْرُ، وله ثلاثةُ معانٍ:

المعنى الأوَّل: أنَّه عزَّ وجلَّ يَجْبُرُ الكسيرَ ويجبرُ الضَّعيفَ؛ بمعنى: أنَّه يُزِيلُ العيبَ والنَّقصَ بالجبرِ، قال النَّبيُّ ﷺ: «فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ»[1].

لكن قولُ الدَّاعي: «سُبْحَانَ ذِي العِزَّةِ وَالجَبَرُوتِ» من أيِّهما؟ الجوابُ: من الثَّاني الذي هو جبرُ القهرِ، ويجوزُ أنْ يكونَ من الأوَّل الذي هو جبرُ الضَّعيفِ، فيكونُ قد وَصَفَ اللهَ بالعزَّةِ التي هي القهرُ والجبرُ الذي هو بالنِّسبةِ لنا اللِّينُ واللُّطفُ، وما أشبه ذلك.

المعنى الثَّاني: أنَّه عزَّ وجلَّ جَبَّارٌ بقهرِه؛ أي: قويٌّ قاهرٌ جبَّارٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]، وقولُه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]، فهذا جَبْرُ القهرِ الذي يدلُّ على كمالِ السُّلطانِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، رقم (٢٨٩٦).

فهو سبحانه يقهرُ الخلائقَ؛ لأنَّ عنده جبروتًا وملكوتًا، فهو يجبرُ كُلَّ أحدٍ مهما بلغ جبروتُه، فهذا فرعونُ أعتى عبادِ الله فيما نعلمُ كان جبَّارًا مُتكبِّرًا عنيدًا، وجَبَرَه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ أي: قَهَرَه بأخفِّ الأشياءِ وهو الماء حتَّى أغرقه.

المعنى الثَّالث: جبرُ العلوِّ، فـ«الجَبَّارُ»؛ يعني: العليَّ، وهو أنَّه سبحانه فوق كُلِّ شيءٍ، ولـمَّا كان هذا المعنى خفيًّا ذكر ابنُ القيِّم -رحمه الله- وجهَ اشتقاقِه فقال:

٣٣٢٩- مِـنْ قَوْلِـهِمْ جَبَّـارَةٌ لِلنَّخْلَـةِ الــ ـعُلْيَا الَّتِـي فَاتَـتْ لِكُـلِّ بَنَـانِ

قَوْلُهُ: «**فَاتَتْ**»، وفي نسخةٍ: «**فَاقَتْ**»؛ أي: عَلَتْ.

قَوْلُهُ: «**مِنْ قَوْلِـهِمْ: جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ العُلْيَا**»، وما زال النَّاسُ يقولون هذا، الفلَّاحون الآن يقولون: هذه النَّخلةُ جَبَّارةٌ؛ يعني: طويلة عالية.

وأشار المؤلِّفُ بقولِه: «**مِنْ قَوْلِـهِمْ: جَبَّارَةٌ**» إلى الاشتقاقِ، والاشتقاقُ فنٌّ مهمٌّ جدًّا لطالبِ العلمِ، يعرفُ به طالبُ العلمِ كيف يُرْجِعُ الفروعَ إلى أصولِها؟ وإرجاعُ الفروعِ إلى الأصولِ يُعِينُ على فَهْمِ المعنى؛ ولذلك كثيرًا ما يُشْكِلُ المعنى، فإذا قيل للطَّالبِ: هذا «**فَعْلٌ**» من «**فَعَلَ**» زال عنه الإشكالُ، فَعِلْمُ الاشتقاقِ مهمٌّ جدًّا حتَّى إنَّ بعضَ العلماءِ يقولُ: حتَّى الأسماء الجامدة التي لا تدلُّ على معنى هي في الحقيقةِ مُشتقَّةٌ، وزَعَمَ أنَّ كُلَّ لفظٍ يدلُّ على معناه، حتَّى زَعَمَ أنَّ الأسماءَ الجامدةَ دالَّةٌ على المعنى، فقال: «**حَجَرٌ**» غيرُ مشتقٍّ، لكن تتصوَّرُ أنت إذا قيل: «**حَجَرٌ**» تتصوَّرُ منه القسوةَ والشِّدَّةَ، ولكنَّ هذا خلافُ ما كان عليه الجمهورُ؛ لأنَّه ليس مشتقًّا من معنى، وكونُ الإنسانِ يتخيَّلُ أنَّ الحجرَ فيه قوَّةٌ وشدَّةٌ بناءً على أنَّه قد فَهِمَه وعرف أنَّ الحجرَ صَلْبٌ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

فصار الجبرُ له ثلاثةُ معانٍ: جبرُ القوَّةِ، وجبرُ الرَّحمةِ، وجبرُ العلوِّ، **جبرُ القوَّة**؛ يعني: يجبرُ كُلَّ إنسانٍ مُسْتكْبِرٍ، **وجبرُ الرَّحمة**؛ أي: يجبرُ الضَّعيفَ والمنكَسِرَ، والثَّالث: **جبرُ العلوِّ**، وهو أنَّه -سبحانه وتعالى- فوق كُلِّ شيءٍ.

* * *

فصــل

٣٣٣٠- وَهُــوَ الــحَسِيبُ حِمَايَــةً وَكِفَايَــةً ... وَالـحَسْبُ كَـافِي العَبْـدِ كُـلَّ أَوَانِ

٣٣٣١- وَهُــوَ الرَّشِــيدُ فَقَوْلُــهُ وَفِعَالُــهُ ... رُشْـدٌ وَرَبُّـكَ مُرْشِـدُ الــحَيْرَانِ

٣٣٣٢- وَكِلاهُمَــا حَــقٌّ فَهَــذَا وَصْــفُهُ ... وَالفِعْــلُ لِلإِرْشَــادِ ذَاكَ الثَّــانِي

٣٣٣٣- وَالعَــدْلُ مِــنْ أَوْصَــافِهِ فِي فِعْلِـهِ ... وَمَقَالِـــهِ وَالحُكْـــمُ فِي المِيـــزَانِ

٣٣٣٤- فَعَـلَى الصِّــرَاطِ المُسْـتَقِيمِ إِلَــهُنَا ... قَــوْلًا وَفِعْــلًا ذَاكَ فِي القُــرْآنِ

الشــرحُ

٣٣٣٠- وَهُــوَ الــحَسِيبُ حِمَايَــةً وَكِفَايَــةً ... وَالـحَسْبُ كَـافِي العَبْـدِ كُـلَّ أَوَانِ

الحسيبُ فَسَّره بقولِه: «حِمَايَةً وَكِفَايَةً»، و«الحسيبُ»؛ أي: ذو الحَسْبِ، و«الحَسْبُ»؛ يعني: الكفايةَ، فهو الكافي الذي يحمي عبدَه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلاق:٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩]، وإذا كان هو الحسيب فإلى أيِّ أحدٍ يرجعُ الإنسانُ عند مهمَّاتِه وملمَّاته؟ الجوابُ: إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلاق:٣]، «والحسيبُ» من أوصافِه، فإنَّه تعالى حَسْبُ كُلِّ مَنْ تَوكَّلَ عليه.

٣٣٣١- وَهُــوَ الرَّشِــيدُ فَقَوْلُــهُ وَفِعَالُــهُ ... رُشْـدٌ وَرَبُّـكَ مُرْشِـدُ الــحَيْرَانِ

هو أيضًا «الرَّشيدُ»، و«الرَّشيدُ» لا أعلمُه من أسماءِ الله، لكنَّه لا شكَّ أنَّه من

أوصافِه؛ لأنَّ الرُّشدَ إحسانُ التَّصرُّفِ، وضدُّه السَّفَهُ، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [النِّساء:٦]، و﴿رُشۡدٗا﴾؛ يعني: سدادًا في بيعِهم وشرائِهم وتصرُّفِهم، فلا شَكَّ أنَّ اللهَ تعالى رشيدٌ، وأنَّ الرُّشدَ له معنيان:

الأوَّل: أنَّ قولَه وأفعالَه وأحكامَه كُلُها رشدٌ، فـ«**رشيد**» هنا بمعنى «**راشد**».

الثَّاني: أنَّه مُرْشِدُ الحيرانِ، فتكون «**فعيل**» بمعنى «**مُفْعِل**»؛ يعني: يُرْشِدُ غيرَه، فيكون لِه معنيان: **الأوَّل**: متعلِّقٌ بوصفِه، **والثَّاني**: متعلِّقٌ بخلقِه، فإذا قال قائلٌ: وهل «**فعيلٌ**» تأتي بمعنى مُفْعِل؟

فالجوابُ: نعم، والشَّاهدُ من كلامِ العربِ في قولِ الشَّاعرِ:

أَمِـنْ رَيْحَانَـةِ الـدَّاعِي السَّـمِيعُ ... يُـؤَرِّقُنِي وَأَصْـحَابِي هُجُـوعُ؟[1]

قَوْلُهُ: «**وَرَبُّكَ مُرْشِدُ الحَيْرَانِ**» هذا هو المعنى الثَّاني أنَّه «**مُرْشِدُ الحَيْرَانِ**»، فكم من إنسانٍ حيرانٍ يرشدُه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تَحَيَّرَ يكونُ كالمضطرِّ يسألُ اللهَ الهدايةَ، والحَيْرَةُ قد تكونُ حيرةً في العلمِ، وقد تكونُ في أمرٍ محسوسٍ؛ ففي العلمِ إذا رَأَيْتَ نفسَك متحيِّرًا فالزم الاستغفارَ، فإنَّ الاستغفارَ ممَّا يفتحُ اللهُ به على العبدِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١٠٦].

---

(١) البيتِ لعمرو بن معديكرب، كما في الأصمعيات (ص:١٧٢).

إذا تحيَّرت في مسألةٍ من العلمِ فقُل: «اللَّهُمَّ يا مُفَهِّمَ سليمانَ فَهِّمني، ويا مُعَلِّمَ إبراهيمَ عَلِّمني»[١]، والجأ إلى الله عزَّ وجلَّ يرشدْك، كذلك إرشادُ الحيرانِ في الأمورِ الحِسِّيَّةِ هذهَّ أيضًا يحتاجُها الإنسانُ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، أحيانًا تكونُ في البرِّ وتشتبهُ عليك الطُّرُقُ، ولاسيَّما الطُّرُقُ الموجودةُ في الفَلَاةِ يتحيَّرُ فيها الإنسانُ، يلجأُ إلى الله عزَّ وجلَّ، واستمع إلى موسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لـمَّا توجَّه تلقاءَ مَدْيَنَ قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢]، وكنَّا مع شيخِنا في سنةٍ من السَّنوات حُجَّاجًا، وكان ذلك الوقت ليس فيه خطوطٌ، فتُهْنَا بعضَ الشَّيءِ فجعل يقولُ: «**عسى أن يهديَني ربِّي سواءَ السَّبيلِ**»، فَهُدينا إلى الطَّريقِ، فأنت إذا تَحَيَّرْتَ عليك بهذه الآيةِ: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢]، فإذا قلتها مخلصًا لله مفتقرًا إليه هداك اللهُ عزَّ وجلَّ.

٣٣٣٢- وَكِلاهُمَا حَقٌّ فَهَذَا وَصْفُهُ ... وَالفِعْلُ لِلإِرْشَادِ ذَاكَ الثَّانِي

قَوْلُهُ: «**كِلَاهُمَا حَقٌّ**»؛ يعني: كونُه راشدًا بمقالِه وفعالِه، وكونُه مُرْشِدًا، فكلاهما حقٌّ.

قَوْلُهُ: «**فَهَذَا وَصْفُهُ**»؛ يعني: الرُّشدَ.

أي: إنَّ أقوالَه وأفعالَه وأحكامَه كُلُّها رشدٌ، فالأوَّلُ -وهو كونُه راشدًا- وصفُه، فالرُّشدُ وصفٌ.

قَوْلُهُ: «**الفِعْلُ لِلإِرْشَادِ**»؛ أي: إرشادُه الخلقَ هذا من فعلِه؛ لأنَّه خَلْقٌ.

---

(١) هذا دعاء مأثور عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، انظر: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، لابن عبد الهادي (ص:٤٢).

٣٣٣٣- وَالعَــدْلُ مِــنْ أَوْصَــافِهِ فِي فِعْلِــهِ وَمَقَالِــهِ وَالـــحُكْمُ فِي المِيـــزَانِ

من أوصافِ الله تعالى العدلُ، ودليلُ ذلك أنَّ اللهَ نَفَى الظُّلْمَ عن نفسِه فقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصّلت:٤٦]، وذلك لكمالِ عدلِه عزَّ وجلَّ، هذا العدلُ أنَّه عزَّ وجلَّ لا يُفَرِّقُ بين المتماثِلَيْنِ بل بالميزان، وَلا يَجْمَعُ بين المتفرِّقَيْنِ، لأنَّه لو كان كذلك لم يكن عدلًا.

إِذَنْ من أوصافِ الله تعالى العدلُ، وعَدَّهُ بعضُ العلماءِ من أسمائِه، ولكن لا شكَّ أنَّ العدلَ وصفُه في فعلِه وقولِه وحُكْمِه، ففعلُه كُلُّه عدلٌ، وقولُه كلُّه عدلٌ، وحُكْمُه كُلُّه عدلٌ، وما خَالَفَ حُكْمَه فهو جَوْرٌ وظلمٌ وإِنْ سمَّاه مُشَرِّعوه ما يسمُّونه به من ديمقراطيَّةٍ وغيرِها، فإنَّه لا أعدلَ من حُكْمِ الله عزَّ وجلَّ، فحكمُ الله أعدلُ الأحكامِ، فمن زَعَمَ أنَّ الإسلامَ يظلمُ أحدًا من النَّاسِ، أو يُفَضِّلُ أحدًا على أحدٍ بغيرِ مُوجِبٍ بهذا التَّفضيلِ فإنَّه إمَّا جاهلٌ بالإسلامِ، وإمَّا مُلَبِّسٌ على النَّاسِ.

واعلم أنَّ المتأخِّرين ابتُلوا بكلمةٍ يقولونها بدلَ العدلِ يقولون: «**الدِّينُ الإسلاميُّ دينُ المساواة**»، وهذا على إطلاقِه غيرُ صحيحٍ، الدِّين الإسلاميُّ دينُ العدلِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل:٩٠]؛ ولهذا يجبُ أن نقولَ: الدِّينُ الإسلاميُّ دينُ العدلِ لا دينُ المساواةِ؛ إذ إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ يساوي بين النَّاسِ إذا اتَّفقوا في الاستحقاقِ، وإِلَّا فاللهُ يقولُ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النِّساء:١١]، ويقولُ: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وأكثرُ ما في القرآنِ نفيُ المساواةِ، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد:١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ [الرعد:١٦]،

والآياتُ في هذا كثيرةٌ، فكيف نقولُ: الدِّينُ الإسلاميُّ دينُ المساواةِ، ونصوصُه في أكثرِ الأحيانِ في القرآنِ على نفيِ المساواةِ؟! وكيف نقولُ هذا، ولدينا آيةٌ في كتابِ الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النَّحل:٩٠]، فقال: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾؟! لو أنَّ فقيرًا سرَق وأَمَرْنا بقطعِ يدِه، وغنيًّا سرق ورفعنا عنه الحدَّ هل نقولُ: الدِّينُ الإسلاميُّ يقتضي قطعَ يدِ الغنيِّ؛ لأنَّه دينُ المساواةِ، أو نقولُ: الدِّينُ الإسلاميُّ يقتضي قطعَ يدِ الغنيِّ؛ لأنَّه دينُ العدلِ؟ الجوابُ: الثَّاني لا شكَّ، لكنَّ النَّاسَ ولاسيَّما الكُتَّابُ الذين غالبُ كتاباتِهم أدبيَّة لا ينتبهون لهذا الشَّيءِ.

مسألة: بعضُ النَّاسِ يقولُ: قال الحقُّ -تبارك وتعالى-، فهل هذا جائزٌ؟

الجوابُ: لا شكَّ أنَّ اللهَ هو الحقُّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النُّور:٢٥]، لكن التَّعبيرُ بما لم يعبِّر به السَّلفُ هو الذي ينبغي ألَّا يفعلَه الإنسانُ، والسَّلفُ كانوا يقولون: «**قال اللهُ تعالى**»، «**قال الرَّبُّ جلَّ وعلا**»، وما أشبه ذلك، مثل قول المتأخِّرين إذا أرادوا أن يقولوا: «**قال رسولُ الله**»، قالوا: «**قال المُصْطَفَى**»، أو «**قال محمَّد بنُ عبدِ الله**»، نعم هو المُصْطَفَى وهو محمَّدُ بنُ عبدِ الله، لكن قولوا كما قال الصَّحابةُ، والمُصْطَفَى لا تختصُّ بالرُّسلِ وغيرِهم، وأيضًا قولُهم: «**محمَّدُ بن عبد الله**» إشكالٌ أيضًا؛ لأنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لـمَّا أراد أن يُصالحَ قريشًا، قال: «**اكْتُبْ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله**»، فرفض مندوبُ قريشٍ: وقال: «وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بِنُ عَبْدِ الله»[1]، فلماذا نعدلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٥٨١).

عن الألفاظِ التي كان الصَّحابةُ يستعملونها وهم أشدُّ منَّا تعظيمًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأشدُّ منَّا تعظيمًا للرَّبِّ عزَّ وجلَّ، ونأتي بألفاظٍ خارجةٍ عمَّا يتكلَّمُ به السَّابقون؟! لكن المتأخِّرون يحصلُ فيهم التَّنطُّعُ والتَّعمُّقُ.

٣٣٣٤- فَعَلَى الصِّـرَاطِ المُسْتَقِيمِ إِلَـهُنَا قَـوْلًا وَفِعْـلًا ذَاكَ فِي القُـرْآنِ

وهذا في القرآنِ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [هود:٥٦]، فاللهُ عزَّ وجلَّ في فعالِه وأقوالِه وحُكْمِه على صراطٍ مستقيمٍ، ليس بزائغٍ ولا مُنْحَرِفٍ.

* * *

فصـل

٣٣٣٥- هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ القُدُّوسُ ذُو التـْ ... تَنْزِيهِ بِالتَّعْظِيمِ لِلرَّحْمَنِ

٣٣٣٦- وَهُوَ السَّلامُ عَلَى الحَقِيقَةِ سَالِمٌ ... مِنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَمِنْ نُقْصَانِ

٣٣٣٧- وَالبِرُّ فِي أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ ... هُوَ كَثْرَةُ الخَيْرَاتِ وَالإِحْسَانِ

٣٣٣٨- صَدَرَتْ عَنِ البَرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ ... فَالبَرُّ حِينَئِذٍ لَهُ نَوْعَانِ

٣٣٣٩- وَصْفٌ وَفِعْلٌ فَهْوَ بَرٌّ مُحْسِنٌ ... مُولِي الجَمِيلِ وَدَائِمُ الإِحْسَانِ

٣٣٤٠- وَكَذَلِكَ الوَهَّابُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... فَانْظُرْ مَوَاهِبَهُ مَدَى الأَزْمَانِ

٣٣٤١- أَهْلُ السَّمَاوَاتِ العُلَى وَالأَرْضِ عَنْ ... تِلْكَ المَوَاهِبِ لَيْسَ يَنْفَكَّانِ

٣٣٤٢- وَكَذَلِكَ الفَتَّاحُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالفَتْحُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ

٣٣٤٣- فَتْحٌ بِحُكْمٍ وَهْوَ شَرْعُ إِلَهِنَا ... وَالفَتْحُ بالأقدار فتح ثاني

٣٣٤٤- وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا ... عَدْلًا وَإِحْسَانًا مِنَ الرَّحْمَنِ

٣٣٤٥- وَكَذَلِكَ الرَّزَّاقُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالرِّزْقُ مِنْ أَفْعَالِهِ نَوْعَانِ

٣٣٤٦- رِزْقٌ عَلَى يَدِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ... نَوْعَانِ أَيْضًا ذَانِ مَعْرُوفَانِ

٣٣٤٧- رِزْقُ القُلُوبِ العِلْمُ وَالإِيمَانُ وَالرْ ... رِزْقُ المُعَدُّ لِهَذِهِ الأَبْدَانِ

٣٣٤٨- هَذَا هُوَ الرِّزْقُ الحَلالُ وَرَبُّنَا ... رَزَّاقُهُ وَالفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

٣٣٤٩- وَالثَّانِي سَوْقُ القُوتِ لِلأَعْضَاءِ فِي   تِلْكَ المَجَارِي سَوْقُهُ بِوِزَانِ

٣٣٥٠- هَذَا يَكُونُ مِنَ الحَلالِ كَمَا يَكُو   نُ مِنَ الحَرَامِ كِلاهُمَا رِزْقَانِ

٣٣٥١- وَاللهُ رَازِقُهُ بِهَذَا الإِعْتِبَا   رِ وَلَيْسَ بِالإِطْلاقِ دُونَ بَيَانِ

الشرحُ

٣٣٣٥- هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ القُدُّوسُ ذُو التْـ   تَنْزِيهِ بِالتَّعْظِيمِ لِلرَّحْمَنِ

«القُدُّوسُ» من أوصافِه؛ يعني: مـمَّا دَلَّ على وصفِه بالقُدُّوسيَّةِ، وإلَّا فـ«القُدُّوس» لا شكَّ من أسمائِه، قال اللهُ تعالى في سورة الحشر: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:٢٣]، فما معنى القُدُّوس؟ يقول رحمه الله هو: «ذُو التَّنْزِيهِ بِالتَّعْظِيمِ»؛ يعني: هو المنزَّهُ عن كُلِّ نقصٍ المُعظَّمُ بأكملِ التَّعظيمِ.

٣٣٣٦- وَهُوَ السَّلامُ عَلَى الحَقِيقَةِ سَالِمٌ   مِنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَمِنْ نُقْصَانِ

«السَّلامُ» أيضًا من أسمائِه، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر:٢٣]، فسمَّى اللهُ نفسَه قُدُّوسًا، وسمَّى نفسَه سَلامًا، وبدأ بالقُدُّوسِ؛ لأنَّه تطهيرٌ، وبالسَّلامِ؛ لأنَّه مَنْعٌ من النَّقصِ في المستقبلِ، فالقُدُّوسُ محوٌ للنَّقصِ في الماضي إن قُدِّرَ، والسَّلامُ مَنْعٌ للنَّقصِ في المستقبلِ.

وكان الصَّحابةُ يقولون: «السَّلامُ على الله من عبادِه»؛ لأنَّ السَّلامَ بين النَّاسِ تحيَّةٌ، فكانوا يقولون: السَّلامُ عَلَى الله مِنْ عبادِه، السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ، السَّلَامُ عَلَى مِيكَائِيلَ، السَّلامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فقال النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى الله مِنْ عِبَادِهِ»؛ لأَنَّ السَّلامَ إنَّما يُدْعَى به لِـمَنْ يحتمل أن

يُنَالَ بسوءٍ ونقصٍ، فقال: «لَا تَقُولُوا: السَّلامُ عَلَى الله، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلامُ»، وكان قد علَّمهم ماذا يحيُّون اللهَ به في قولِه: «التَّحِيَّاتُ لله»[1]، إِذَنْ هو السَّلامُ من كُلِّ تمثيلٍ ونقصٍ، فهو لا يماثِلُ المخلوقين، ولا تنقصُ صفاتُه الكاملةُ أبدًا.

٣٣٣٧- وَالـــبِرُّ فِي أَوْصَـــافِهِ سُـــبْحَانَهُ هُـوَ كَثْـرَةُ الخَـيْرَاتِ وَالإِحْسَـانِ

٣٣٣٨- صَدَرَتْ عَنِ البِرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ فَـــالبَرُّ حِينَئِـــذٍ لَـــهُ نَوْعَـــانِ

٣٣٣٩- وَصْــفٌ وَفِعْــلٌ فَهْــوَ بَــرٌّ مُحْسِــنٌ مُـولِي الجَمِيـلِ وَدَائِـمُ الإِحْسَـانِ

«البَرُّ» من أسماءِ الله تعالى، وانظر إلى قولِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطُّور:٢٨]، والبِرُّ هو كثرةُ الخيراتِ وسعتُها، ومنه «البَرُّ» لما خرج عن القرى والمدن؛ لأنَّه واسعٌ منتشرٌ، فالبَرُّ نوعان:

الأوَّل: وصفٌ لله عزَّ وجلَّ، وهو ذو البِرِّ العظيمِ والإحسانِ العميمِ.

الثَّاني: فِعْلٌ له عزَّ وجلَّ؛ أي: مُوصِلٌ للفضلِ والإحسانِ لِـمَنْ شَاءَ من خلقِه، إِذَنْ هو بَرٌّ باعتبارِ الوصفِ، ومحسنٌ باعتبارِ فعلِه؛ لأنَّ الإحسانَ من البِرِّ، إِذَنْ هناك بِرٌّ وهو الإحسانُ، ومنه: بِرُّ الوالدَيْنِ، وهناك «بَرٌّ» على وزن: «فَعْل» وهو اسمُه ووصفُه، فهو وصفٌ وفِعْلٌ.

٣٣٤٠- وَكَــذَلِكَ الوَهَّــابُ مِــنْ أَسْــمَائِهِ فَــانْظُرْ مَوَاهِبَــهُ مَــدَى الأَزْمَــانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ الوَهَّابُ مِنْ أَسْمَائِهِ» «الوَهَّابُ»؛ أي: كثيرُ الهِبَاتِ، فهو صيغةُ مبالغةٍ من وجهٍ، وكذلك اسمُ نسبةٍ من وجهٍ آخرَ، وهو من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢).

قال اللهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]؛ أي: كثيرُ الهبَاتِ.

قَوْلُهُ: «**فَانْظُرْ مَوَاهِبَهُ مَدَى الأَزْمَانِ**» لو نظرنا إلى مواهبه مدى الأزمانِ لوجدنا أنَّها لا تُحْصَى، واسمُ «**الوهَّابِ**» موجودٌ في القرآنِ بهذا اللَّفظِ، وموجودٌ كذلك بالفعلِ في قولِه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشُّورى:٤٩].

٣٣٤١- أَهْلُ السَّمَاوَاتِ العُلَى وَالأَرْضِ عَنْ ... تِلْكَ المَوَاهِبِ لَيْسَ يَنْفَكَّانِ

لا ينفكُّ أهلُ السَّماءِ والأرضِ عن مواهبِ الله عزَّ وجلَّ ونعمِه لحظةً، ولو انفكَّ أحدٌ عن هباتِ الله لحظةً لهلك.

٣٣٤٢- وَكَذَلِكَ الفَتَّاحُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالفَتْحُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ

٣٣٤٣- فَتْحٌ بِحُكْمٍ وَهْوَ شَرْعُ إِلَهِنَا ... وَالفَتْحُ بالأقدار فتح ثاني

٣٣٤٤- وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا ... عَدْلًا وَإِحْسَانًا مِنَ الرَّحْمَنِ

«**الفتَّاحُ**» من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٦]، وذكر أنَّ الفتحَ نوعان: فتحٌ بالشَّرعِ، وفتحٌ بالقَدَرِ، الفتحُ بالشَّرعِ ما يفتحُه اللهُ تعالى على عبادِه من العلمِ النَّافعِ الذي لا مُنْتَهَى له حيث يبلغُه العبدُ، أو هو الحكمُ بين عبادِه بالشَّرعِ؛ ولهذا قال: «**فَتْحٌ بِحُكْمٍ وَهْوَ شَرْعُ إِلَهِنَا**»، ومنه قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩]، فهذا شرعيٌّ؛ يعني: احكم بيننا بالحقِّ، مع أنَّه يصحُّ أن يكونَ كونيًّا أيضًا، ومنه أيضًا: ما يُقَالُ في الدُّعاءِ المعروفِ بين النَّاسِ: «**فَتَحَ اللهُ على قلبِك**» فهذا من الفتحِ الشَّرعيِّ، والفتحُ

ضدُّ الإغلاقِ؛ يعني: هداه وشرحه للإسلامِ، وما أشبه ذلك.

الثَّاني: الفتحُ القَدَرِيُّ وهو ما قَدَّرَه كونًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، هذا فتحُ قَدَرٍ، وقولُه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١]، هذا كونيٌّ أيضًا.

إِذَنْ فاللهُ تعالى فتَّاحٌ بهذا وهذا، فاسأل ربَّك الفتحَ، قل: «اللَّهُمَّ افتحْ لِي» إِذَا دَخَل الإنسانُ المسجدَ قال: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ»، وإذا خرج قال: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»[1].

٣٣٤٥- وَكَـذَلِكَ الـرَّزَّاقُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ ... وَالـرِّزْقُ مِـنْ أَفْعَالِـهِ نَوْعَـانِ

٣٣٤٦- رِزْقٌ عَـلَى يَـدِ عَبْـدِهِ وَرَسُـولِهِ ... نَوْعَـانِ أَيْضًـا ذَانِ مَعْرُوفَـانِ

٣٣٤٧- رِزْقُ القُلُوبِ العِلْمُ وَالإِيمَانُ وَالـرْ ... رِزْقُ المُعَـدُّ لِـهَذِهِ الأَبْـدَانِ

٣٣٤٨- هَـذَا هُـوَ الـرِّزْقُ الحَـلالُ وَرَبُّنَـا ... رَزَّاقُـهُ وَالفَضْـلُ لِلمَنَّـانِ

٣٣٤٩- وَالثَّانِي سَوْقُ القُوتِ لِلأَعْضَـاءِ فِي ... تِلْـكَ المَجَـارِي سَـوْقُهُ بِـوِزَانِ

٣٣٥٠- هَذَا يَكُونُ مِـنَ الحَـلالِ كَـمَا يَكُـو ... نُ مِـنَ الحَـرَامِ كِلاهُمَـا رِزْقَـانِ

«الرَّزَّاقُ» من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذريات:٥٦-٥٨]، وأَتَتْ «الرَّزَّاقُ» بصيغةِ المبالغةِ لكثرةِ رزقِه وكثرةِ مَنْ يرزقُه عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فما

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما يقول عند دخوله المسجد، رقم (٣١٤)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، رقم (٧٧١).

أكثَرَ الذين يرزقُهم اللهُ، ثُمَّ المرزوقُ من عبادِ الله رزقُه كثيرٌ أيضًا، لو أَحْصَيْتَ ما يرزقُك اللهُ عزَّ وجلَّ ما اسْتَطَعْتَ أن تُحْصِيَ له عددًا.

والرِّزقُ نوعان: رزقٌ معنويٌّ، وهو ما به غِذاءُ الرُّوحِ وهو رِزقُ القُلوبِ العلمَ والإيمانَ، وهذا هو الرِّزقُ الذي جعَلَه اللهُ على يدِ رسولِه صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فما بنا من علمٍ فهو من عند الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- على يدِه، وما بنا من إيمانٍ فهو على يدِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، هذا الرِّزقُ معنويٌّ، فالعلمُ والإيمانُ رزقٌ معنويٌّ، علمٌ يَحِلُّ في القلبِ بعده إيمانٌ وهو تصديقٌ وقَبولٌ وإذعانٌ فهذا رزقٌ، وهذا ما تحيا به الرُّوحُ والقلوبُ.

الثَّاني: «**المُعَدُّ لِـهَذِهِ الأَبْدَانِ**» الرِّزقُ الحسِّيُّ الذي يقومُ به البدنُ، هذا الرِّزقُ ينقسمُ إلى قسمين: الرِّزقُ الأوَّلُ: الحصولُ على هذا القوتِ رِزقٌ، كم من إنسانٍ يتمنَّى كسرةَ خبزةٍ ولا يحصلُ عليها!

الرِّزق الثَّاني: سَوْقُ القُوتِ للأعضاءِ في تلك المجاري؛ أي: تفريقُ هذا القوتِ في مجاري البدنِ، لو أراد اللهُ عزَّ وجلَّ لأكلتَ الطَّعامَ ولكن لم يتوزَّع ولم ينتشرِ القوتُ في البدنِ ولَبَقِيَ كالحصاةِ في معدتِك.

إِذَنْ الرِّزقُ الحسِّيُّ نوعان:

الأَوَّلُ: الحصولُ عليه، كم من إنسانٍ لم يحصل عليه.

الثَّاني: تفريقهُ وسَوْقُه في مجاري البدنِ، هذا رزقٌ عظيمٌ أيضًا.

بالمعنى الأوَّلِ رَبُّنا عزَّ وجلَّ رزَّاقُ كُلِّ شيءٍ، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦]، كُلُّ شيءٍ في الأرضِ يدبُّ على الأرضِ رزقُه على الله حتَّى ولو كان من أصغرِ الحشراتِ، أحيانًا تفتحُ

الكتابَ تجد فيه مخلوقًا صغيرًا لا تكادُ تدركُه بعينِك، ومع ذلك مَن الذي رَزَقَهُ في هذا المكانِ؟ الجوابُ: اللهُ عزَّ وجلَّ، وجعل قوتَه يجري في أعضائِه، إنَّك لترى الذَّرَّةَ كيف تُرْزَقُ، وكيف يُيسِّرُ اللهُ لها الرِّزقَ.

وذكَر ابنُ القيِّم -رحمه الله- في كتابه: «مفتاح دار السَّعادة» أنَّه هو حَكَى لشيخِه أنَّ ذرَّةً كانت تلتمسُ الرِّزقَ، فَوَضَعَ رجلٌ أمامَها طُعمًا وقفت عليه، ولكنَّها لا تستطيعُ أن تحملَه، فذهبت إلى أخَواتِها في جُحْرِها ودعتهُنَّ، فأقبلن سراعًا إلى هذا الطُّعم، فلمَّا أَقْبَلْنَ إليه نزعه الرَّجلُ، فجاءت المسكينةُ الأولى تطلبُ وتبحث ولم تجد شيئًا، ثُمَّ رجع أخواتُها إلى الجُحرِ؛ لأنَّهُنَّ لم يجدنَ شيئًا، أمَّا الأولى فبقيت ولم تيأسْ، فَوَضَعَ الطُّعمَ، فلمَّا أَدْرَكَتْهُ يقينًا، ذهبت، وقالت: تَعَالَيْنَ، فجئن إليه سراعًا، فلمَّا أقبلن عليه رفعه، فجعلت تطلبُ وتبحثُ فلم تجد شيئًا، فرجعت أخواتُها إلى الجُحرِ، وبقيت هي لم تيأسْ، فوضع الطُّعمَ للمرَّةِ الثَّالثةِ، فَأَدْرَكَتْهُ تمامًا وذهبت إلى صاحباتِها، وقالت: تَعَالَيْنَ، فجئن للمرَّةِ الثَّالثةِ، فلمَّا أَقْبَلْنَ رفعه، إِذَنْ هذه تلعبُ بعقولِهِنَّ، ما وَجَدْنَ شيئًا، يقول: فاجْتَمَعْنَ عليها فقطَّعْنَها إِرْبًا إِرْبًا، سبحان الله! يقول: حَكَيْتُ هذا لشيخي شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة، قال: سبحان الله! كُلُّ أحدٍ لا يُقِرُّ الكذبَ ولا الظُّلمَ، وهذه كذبت عليهنَّ باعتبارِ أنَّهُنَّ لم يجدن شيئًا، وظلمتهُنَّ؛ لأنَّها أخرجتهُنَّ من جحرِهِنَّ وهُنَّ مستتراتٌ فيه، وربَّما يكونُ ذلك في البردِ، فالمهمُّ أنَّ اللهَ تعالى رزَّاقُ كُلِّ شيءٍ.

وتُحكَى لنا حكاياتٌ عجيبةٌ من هذه النَّاحيةِ، حتَّى حكى لي شخصٌ أنَّه كان في سفرٍ وكان حول بئرٍ تغطَّت فخرج منها ثعبانٌ أعمى ينتصبُ هكذا كالعودِ، فَيُقَيِّدُ اللهُ له طيرًا يقعُ عليه يحسبُ أنَّه عودٌ فيأكله الثُّعبانُ ثُمَّ يرجعُ، يقولُ: أَدْرَكْتُ هذا عدَّةَ أيَّامٍ، سبحان الله! الله أكبر.

وكذلك الطُّيورُ كما قال الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا»؛ أي: في أَوَّلِ النَّهارِ، ليس في بطونِها شيءٌ «وَتَرُوحُ -أي: في آخرِ النَّهارِ- بِطَانًا»[1]؛ يعني: مملوءةَ البطونِ.

فالمهمُّ أنَّ اللهَ تعالى هو الرَّزَّاقُ، فإذا قال قائلٌ: الرِّزقُ الحسِّيُّ هل هو الرِّزقُ الحلالُ أو يشملُ الحلالَ والحرامَ؟ الجوابُ: الثَّاني حتىَّ رِزق قُطَّاعِ الطَّرِيقِ من رِزقِ الله عزَّ وجلَّ، رزقُ أهلِ الرِّبا من رِزقِ الله، رزقُ الكُفَّارِ من رِزقِ الله.

لو أنَّ رجلًا غَصَبَ مالَ رجلٍ هل نقولُ: أَخَذَ رزقَه أو أَخَذَ رزقَ غيرِه؟ نقولُ: أخَذ رِزْقَه، ولكن ذاك سيرزقُه اللهُ، ولكن ما تقولُ في هِرَّةٍ أَخَذَتْ دجاجةً هل لك أن تُنْقذَها من الهِرَّةِ أو إن أَنْقَذْتَها فأنت قَطَعْتَ رزقَها؟ بقولُ: تنقذُها منها؛ لأنَّ حرمةَ الآدمِيِّ أعظمُ من حرمةِ الحيوانِ، وهذا مالُ آدمِيٍّ محترَمٍ، سواءً أنَّ ما أخذته لي أم لغيري.

إِذَنْ الرِّزقُ الماديُّ البدنيُّ يكونُ حلالًا ويكونُ حرامًا، فما لا تَبِعَةَ فيه فهو حلالٌ، وما فيه تَبِعَةٌ فهو حرامٌ، والذي فيه التَّبِعَةُ -أحيانًا- يكون محرَّمًا لعينهِ، وأحيانًا يكونُ محرَّمًا لكسبِه، فالدَّراهمُ المكتسَبةُ عن طريقِ الرِّبا محرَّمةٌ للكسبِ، والخمرُ والخنزيرُ و الميتةُ لعينهِ، ومع ذلك يُسَمَّى رزقًا؛ لأنَّه يكونُ به القوتُ الذي يصلُ إلى المجاري ويحيا به البدنُ، وهل رزقُ الكافرِ حرامٌ أو حلالٌ؟

الجوابُ: حرامٌ لا يَحِلُّ له، قال اللهُ تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم (٤١٦٤).

ﭐلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ [المائدة:٩٣]؛ يعني: وضدُّهم عليهم جُناحٌ فيما طَعِمُوا، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف:٣٢]، أمَّا مَنْ لم يؤمنْ فهي وإن كانت لهم في الدُّنيا فليست خالصةً يومَ القيامةِ؛ ولهذا نقولُ: إنَّ الكافرَ لن يرفعَ لقمةً إلى فمِه ولا جُرْعةً من ماءٍ إلَّا حُوسِبَ عليها يومَ القيامة وعُوقِبَ عليها لماذا؟ لأنَّه كافرٌ، كيف يتمتَّعُ بنعمِ الله ويبارزُه بالكفرِ به؟! ويكونُ هذا أيضًا باعتبارِ البشرِ واعتبارِ البهائمِ، حتَّى البهائمُ لها رزقٌ ماديٌّ يحيا به جسمُها وبدنُها، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦].

مسألةٌ: هل يجوزُ أخذُ مالِ الكافرِ؟ أمَّا المعاهَدُ فلا يجوزُ؛ لأنَّه بيننا وبينه عهدٌ، أمَّا الحربِيُّ فيجوزُ.

٣٣٥١- وَاللهُ رَازِقُــهُ بِهَــذَا الإِعْتِبَـا ... رِ وَلَـيْسَ بِـالإِطْلَاقِ دُونَ بَيَـانِ

يعني: رازقُه باعتبارِ أنَّه آتاه قوتًا يتغذَّى به بدنُه لا باعتبارِ أنَّ هذا القوتَ ليس به تَبِعةٌ.

إذا عَلِمْنَا أنَّ من أسماءِ الله «**الرَّزَّاقَ**»، فإنَّنا لا نريدُ أن نعلمَ علمًا نظريًّا فقط، ونقول: إنَّ اللهَ يرزقُ وإنَّ الرِّزقَ أنواعٌ، بل إنَّنَا نريدُ إذا عَلِمْنَا أنَّ من أسمائِه الرَّزَّاقَ ألَّا نطلبَ الرِّزقَ إلَّا منه وأن نلجأَ إليه دائمًا في طلبِ الرِّزقِ الماديِّ والمعنويِّ، «**اللَّهُمَّ ارزقني علمًا نافعًا وعملًا صالحًا ورزقًا طيِّبًا واسعًا**».

إِذَنْ نقولُ: كُلُّ أسماءِ الله ينبغي لنا أن نستخلصَ منها طريقًا للوصولِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وليس المرادُ أن نفهمَ أنَّ معناها كذا ومعناها كذا، وتنقسمُ إلى كذا وإلى كذا، لا؛ لأنَّ هذا مجرَّدُ علمٍ نظريٍّ، لكنَّنا نريدُ علمًا تربويًّا يتأثَّرُ به الإنسانُ.

إِذَنْ فالفائدةُ ألَّا نطلبَ الرِّزقَ إلَّا من الله، وألَّا نعتمدَ في رزقِنا إلَّا على الله.

كثيرٌ من النَّاسِ الآن -نسألُ اللهَ أن يرزُقَنا وإيَّاهم التوكُّلَ الحقيقيَّ- يقولُ إذا جاء رأسُ الشَّهرِ أو آخرُ الشَّهرِ: «**هل فُتِحَت الماليَّةُ؟**»، فيكون اعتمادُه اعتمادًا كُلِّيًّا على هذا المرتَّبِ، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ له الحقُّ أن يطلبَ حقَّه، لا نقولُ: لا تطلبْه، لكن كونُك تعتمدُ على هذا اعتمادًا كُلِّيًّا وتنسى المُسَبِّبَ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، لولا أنَّ اللهَ يسَّرَ لك هذا الرِّزقَ ما حصل لك، فاعتَمِدْ على الله أوَّلًا، وهذا الرِّزقُ يكونُ سببًا.

* * *

فصل

٣٣٥٢- هَـذَا وَمِـنْ أَوْصَـافِهِ القَيُّـومُ وَالْـ ـــقَيُّومُ فِي أَوْصَـــافِهِ أَمْـــرَانِ

٣٣٥٣- إِحْـــدَاهُمَا القَيُّـــومُ قَـــامَ بِنَفْسِـــهِ وَالكَــوْنُ قَــامَ بِــهِ هُمَــا الأَمْــرَانِ

٣٣٥٤- فَــالأَوَّلُ اسْــتِغْنَاؤُهُ عَــنْ غَــيْرِهِ وَالفَقْــرُ مِــنْ كُــلٍّ إِلَيْــهِ الثَّــانِي

٣٣٥٥- وَالوَصْفُ بِـالقَيُّومِ ذُو شَــأْنٍ كَـذَا مَوْصُــوفُهُ أَيْضًــا عَظِـيمُ الشَّــانِ

٣٣٥٦- وَالحَــيُّ يَتْلُــوهُ فَأَوْصَــافُ الكَــمَا لِ هُمَــا لأُفْــقِ سَــمَائِهِ قُطْبَــانِ

٣٣٥٧- فَــالحَيُّ وَالقَيُّــومُ لَــنْ تَتَخَلَّــفَ الــ أَوْصَـــافُ أَصْـــلًا عَـــنْهُمَا بِبَيَـــانِ

٣٣٥٨- هُوَ قَابِضٌ هُوَ بَاسِطٌ هُــوَ خَــافِضٌ هُــوَ رَافِــعٌ بِالعَــدْلِ وَالإِحْسَــانِ

٣٣٥٩- وَهُــوَ المُعِــزُّ لأَهْــلِ طَاعَتِــهِ وَذَا عِـــزٌّ حَقِيقِـــيٌّ بِـــلا بُطْـــلانِ

٣٣٦٠- وَهُوَ المُذِلُّ لِـمَنْ يَشَــاءُ بِذِلَّــةِ الــدْ دَارَيْـــنِ ذُلَّ شَـــقَا وَذُلَّ هَـــوَانِ

٣٣٦١- هُــوَ مَــانِعٌ مُعْــطٍ فَهَــذَا فَضْــلُهُ وَالمَنْــعُ عَــيْنُ العَــدْلِ لِلمَنَّــانِ

٣٣٦٢- يُعْطِـي بِرَحْمَتِـهِ وَيَمْنَـعُ مَـنْ يَشَـا ءُ بِحِكْمَـــةٍ وَاللهُ ذُو سُـــلْطَانِ

الشـــرحُ

٣٣٥٢- هَـذَا وَمِـنْ أَوْصَـافِهِ القَيُّـومُ وَالْـ قَيُّـــومُ فِي أَوْصَـــافِهِ أَمْـــرَانِ

٣٣٥٣- إِحْــدَاهُمَا القَيُّــومُ قَــامَ بِنَفْسِــهِ   وَالكَــوْنُ قَــامَ بِــهِ هُمَــا الأَمْـرَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ أَوْصَافِهِ القَيُّومُ»؛ أي: مـمَّا يدلُّ على وصفِ القيُّوميَّةِ اسمُه «القيُّوم»؛ لأنَّ «القيّومَ» لا شكَّ أنَّه من أسماءِ الله، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قَوْلُهُ: «إِحْدَاهُمَا القَيُّومُ» هنا عَبَّرَ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- بـ«إِحْدَاهُمَا» عن «أَحَدِهِمَا» من أجل ضِيقِ الوزنِ، وإِلَّا فإنَّه إذا كان المعدودُ مُذكَّرًا فلا يُقَالُ: «إِحْدَاهُمَا»، وإنَّما يُقَالُ: «أَحَدُهُمَا».

والقَيُّومُ له معنيان:

الأوَّلُ: القَائِمُ بنفسِه، وهذا يستلزمُ غناه عزَّ وجلَّ عن كُلِّ أحدٍ، فهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، وهو يُعِزُّ ولا يحتاجُ إلى أحدٍ يُعِزُّه، فهو قَائِمٌ بنفسِه في كُلِّ شيءٍ.

الثَّاني: «الكَوْنُ قَامَ بِهِ»؛ أي: كُلُّ الكونِ قَامَ بالله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥]؛ أي: فهو القَائِمُ بنفسِه القَائِمُ به غيرُه، وإن شِئْتَ فقُلْ: «القَائِمُ بنفسِه، القَائِمُ على غيرِه» كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الرَّعد:٣٣]؛ يعني: وهو اللهُ، كمن لا يقومُ على أحدٍ.

٣٣٥٤- فَــالأَوَّلُ اسْــتِغْنَاؤُهُ عَــنْ غَــيْرِهِ   وَالفَقْــرُ مِــنْ كُــلٍّ إِلَيْــهِ الثَّــانِي

فالأوَّلُ: قيامُه بنفسِه، استغناؤه عن غيرِه، أمَّا نحن فلا نقومُ بأنفسِنا؛ لأنَّنا مفتقرون إلى الأكلِ والشُّربِ واللِّباسِ والسَّكنِ وغيرِ ذلك، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فقد قام بنفسِه.

والثَّاني: «الفَقْرُ مِنْ كُلِّ»؛ أي: الفقرُ من كُلِّ الخلقِ إلى الله هو الثَّاني، وهو الذي قَامَ به غيرُه.

٣٣٥٥- وَالوَصْفُ بِالقَيُّومِ ذُو شَأْنٍ كَذَا مَوْصُوفُهُ أَيْضًا عَظِيمُ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «وَالوَصْفُ بِالقَيُّومِ ذُو شَأْنٍ» ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ الوصفَ بالقيُّومِ له شأنٌ عظيمٌ تَبْطُلُ به جميعُ الآلهةِ؛ لأنَّ الآلهةَ لا يقومُ بها أحدٌ، وهي أيضًا لا تقومُ بنفسِها، بل هي قَائِمَةٌ بالله، فجميعُ الأشياءِ مفتقرةٌ إليه.

قَوْلُهُ: «كَذَا مَوْصُوفُهُ أَيْضًا عَظِيمُ الشَّانِ» موصوفُه هو اللهُ عزَّ وجلَّ، فهو عظيمُ الشَّانِ؛ لأنَّه يتبيَّنُ به أنَّه مُسْتَغْنٍ عن غيرِه.

فالوصفُ ذو شأنٍ عظيمٍ، والموصوفُ أشدُّ وأشدُّ.

٣٣٥٦- وَالحَيُّ يَتْلُوهُ فَأَوْصَافُ الكَمَا لِ هُمَا لأُفْقِ سَمَائِهِ قُطْبَانِ

قَوْلُهُ: «الحَيُّ يَتْلُوهُ»؛ يعني: يتلوه ليس ترتيبًا في القرآنِ، بل يتلوه ذِكْرًا في هذا النَّظمِ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أمَّا في القُرآنِ فإنَّ «القيُّومَ» هو الذي يتلو الحيَّ؛ لأنَّ الحيَّ وصفٌ لازمٌ، وأمَّا القيُّومُ فهو وصفٌ لازمٌ مُتعدٍّ، فباعتبارِ أنَّ معناها أنَّ اللهَ قَامَ بنفسِه لازمٌ، وباعتبار أنَّه قَامَ به غيرُه متعدٍّ.

والحيُّ والقيُّومُ اسمان من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ، وقد ذُكِرَا في القُرآنِ في ثلاثةِ مواضع: في سورة «البقرة»، و«آل عمران»، و«طه».

قَوْلُهُ: «لأُفْقِ سَمَائِهِ قُطْبَانِ»؛ أي: سماءِ الكمالِ، فيصحُّ «لأُفْقِ سَمَائِهِ»، وفي نسخةٍ: «سَمَائِهَا»؛ أي: سماءِ الأوصافِ، فكلاهما صحيحٌ.

قَوْلُهُ: «فَأَوْصَافُ الكَمَالِ هُمَا لأُفْقِ سَمَائِهِ قُطْبَانِ»؛ يعني: كُلُّ أوصافِ الكمالِ تدورُ على هذين القُطْبَيْنِ كما أنَّ نجومَ الأفقِ تدورُ على قطبين: قطبٍ شماليٍّ وقطبٍ جنوبيٍّ، أوصافُ الكمالِ كُلُّها تدورُ على هذين القطبين: «الحيُّ» و«القيُّوم»؛ ولهذا قال:

٣٣٥٧- فَالحَيُّ وَالقَيُّومُ لَنْ تَتَخَلَّفَ الـ أَوْصَافُ أَصْلًا عَنْهُمَا بِبَيَانِ

ولهذا كان هذان الاسمان هما اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أَعْطَى؛ كما ورد بذلك الحديثُ[1]، نسألُ اللهَ يا حيُّ يا قيُّومُ أنْ تهديَنَا صراطَكَ المستقيمَ.

٣٣٥٨- هُوَ قَابِضٌ هُوَ بَاسِطٌ هُوَ خَافِضٌ هُوَ رَافِعٌ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «هُوَ قَابِضٌ هُوَ بَاسِطٌ» هذا أيضًا من أوصافِهِ وهي من أسمائِهِ؛ لأنَّه جاء في حديثِ التَّسعيرِ، قال النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إنَّ اللهَ هُوَ المُسَعِّرُ القَابِضُ البَاسِطُ»[2]، والقبضُ ضدُّ البسطِ، والبسطُ: التَّوسعةُ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرَّعد:٢٦]، ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يُضَيِّقُ، وبهذا نعرفُ خطأَ التَّعبيرِ الذي يقولُ في الشَّيءِ اليسيرِ يقولُ: «إِنَّه بسيطٌ»، هذا غيرُ صحيحٍ، بسيطٌ، أي: واسعٌ، فإذا أردتَ أن تُقَلِّلَ الشَّيءَ قل: يسيرٌ، أو قليلٌ، أو ما أشبه ذلك.

---

(١) يعني حديث: «اسْمُ اللهَّ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:٢]». أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٩٦)، والترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم (٣٤٧٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٦)، وأبو داود: كتاب الإجارة، باب في التسعير، رقم (٣٤٥١)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التسعير، رقم (١٣١٤).

مسألةٌ: بعضُ المدِّرسين يقومُ بتَمثيلِ صِفاتِ الله تعالى بصفاتِ المخلوقين، فيُمَثِّلُ قبضَ السَّماواتِ والأرضِ بيديه، فما الحكمُ؟

الجوابُ: هذا خطأٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أخبرنا أنَّه يقبضُ، ولم يخبرْنا كيف يقبضُ، فنحن لا نعلمُ كيفيَّةَ قبضِ الله تعالى، لكنْ إن أراد أن يُبيِّنَ حقيقةَ القبضِ دون أن ينسبَها إلى الله تعالى بأن يقولَ: حقيقةُ القبضِ هكذا، دون أن يقولَ: إنَّ اللهَ يقبضُ هكذا فلا حرجَ، كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَيَّنَ حقيقةَ الرُّؤيةِ، وقال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عزَّ وجلَّ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ**»[1]، وهذا إنَّما يجوزُ أمامَ التَّلاميذِ لأجلِ التَّعليمِ؛ لأنَّهم رُبَّما لا يفهمون إلَّا بهذه الطَّريقةِ، أمَّا أمامَ العامَّةِ فلا يفعلُ؛ لأنَّهم رُبَّما تنطلقُ أفكارُهم إلى التَّشبيهِ مباشرةً، وهذا محذورٌ.

قَوْلُهُ: «**هُوَ خَافِضٌ هُوَ رَافِعٌ**» هو أيضًا خَافِضٌ رَافِعٌ، خَافِضٌ بيدِه عزَّ وجلَّ، القسطَ يخفضُه ويرفعُه؛ يعني: العدلَ، وكم من أناسٍ خَفَضَهم! وكم من أناسٍ رَفَعَهم! وممَّن يرفعُهم اللهُ: أهلُ العلمِ والإيمانِ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

أراد المؤلِّفُ -رحمه الله- بهذه الأوصافِ المتقابلةِ: «**قابضٌ**» يقابلُه «**بَاسِطٌ**»، و«**خافِضٌ**» يقابلُه «**رَافِعٌ**»، أراد أنَّها: «**بِالعَدْلِ وَالمِيزَانِ**»، فلا يمكنُ أن يرفعَ أحدًا إلَّا وهو يستحقُّ، ولا يخفضُ أحدًا إلَّا وهو يستحقُّ.

٣٣٥٩- وَهُوَ المُعِزُّ لأَهْلِ طَاعَتِهِ وَذَا ... عِزٌّ حَقِيقِيٌّ بِلا بُطْلانِ

وقد بَيَّنَ اللهُ مَنْ هم أهلُ العزِّ فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، مسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

[المنافقون:٨]، هؤلاء هم الذين يستحقُّون العزَّةَ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فعِزُّه ذاتِيٌّ لازمٌ لحياتِه، وأمَّا الرَّسولُ والمؤمنون فعزُّهم ليس ذاتيًّا؛ لأنَّه من الله متعلِّقٌ بمشيئتِه وحكمتِه.

٣٣٦٠- وَهُوَ الْمُذِلُّ لِـمَنْ يَشَـاءُ بِذِلَّـةِ الـدْ دَارَيْـنِ ذُلِّ شَـقَا وَذُلِّ هَـوَانِ

الذُّلُّ ضِدُّ العِزِّ، فهو مُعِزٌّ مُذِلٌّ، والذُّلُّ لِـمَنْ ليس بمؤمنٍ، ولكن قد يُعَزُّ الذَّليلُ أو مَنْ يستحِقُّ الذُّلَّ لحكمةٍ، وهو عزَّ وجلَّ المُعِزُّ المُذِلُّ، وهذا من الصِّفاتِ المتقابلةِ.

٣٣٦١- هُـوَ مَـانِعٌ مُعْـطٍ فَهَـذَا فَضْـلُهُ وَالْمَنْـعُ عَـيْنُ العَـدْلِ لِلْمَنَّـانِ

قَوْلُهُ: «**هُوَ مَانِعٌ مُعْطٍ**»، ونحن نقولُ في أدبارِ الصَّلواتِ: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِـمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِـمَا مَنَعْتَ**»(١)، فاللهُ مانعٌ مُعْطٍ فهذا فضلُه؛ يعني: العطاءَ.

قَوْلُهُ: «**وَالْمَنْعُ عَيْنُ العَدْلِ لِلْـمَنَّانِ**» فهو لا يمنعُ أحدًا حَقًّا له، وإنَّما يمنعُ فضلَه، واللهُ يُؤتي فضلَه مَنْ يشاءُ؛ ولهذا لـمَّا احتجَّ بعضُ المعتزلةِ على رجلٍ من أهلِ السُّنَّةِ قال: أَرَأَيْتَ إن منعني الهدى وَقَضَى عليَّ بالرَّدى أَحْسَنَ إليَّ أم أَسَاءَ؟ يريدُ أن يُلْزِمَ السُّنِّيَّ بالقولِ بأنَّ اللهَ تعالى لا يُقَدِّرُ المعصيةَ؛ لأنَّه يقولُ: إنْ قَدَّرَ عليك المعصيةَ فقد أساء إليه، فقال له السُّنِّيُّ: «**إن منعني ما هو لي فقد أَسَاءَ، وإن منعني ما هو فضلُه فذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ**»، اللهُ أكبر! والجوابُ: مَنَعَهُ فضلَه، فاللهُ عزَّ وجلَّ ذو سُلطانٍ يُعْطِي مَنْ يشاءُ ويتفضَّلُ على مَنْ يشاءُ، ومع ذلك فهو لا يمنعُ إلَّا مَنْ يستحقُّ المنعَ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

[الصَّفّ:٥]، فلم يمنعهم الهدى إِلَّا حين زاغوا والعياذُ بالله، وقدَّموا ضلالَهم على هداهم، أضلَّهم اللهُ وإِلَّا لو عَلِمَ اللهُ فيهم خيرًا لأسْمَعَهم، كُلُّ إنسانٍ يعلمُ اللهُ فيه خيرًا يُسْمِعُه كما جاء في الحديثِ الصَّحيحِ أيضًا ممَّا يُفَسِّرُ الآيَةَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1].

٣٣٦٢- يُعْطِي بِرَحْمَتِهِ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَا ءُ بِحِكْمَةٍ وَاللهُ ذُو سُلْطَانِ

قَوْلُهُ: «يُعْطِي بِرَحْمَتِهِ»، فإذا أعطاك فهو من رحمتِهِ، عليك أن تشكرَ له سبحانه وتعالى.

قَوْلُهُ: «وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَةٍ»؛ يعني: لا يمنعُ ظلمًا، بل بحكمةٍ.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

فصل

٣٣٦٣- وَالنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضًا وَمِنْ ... أَوْصَافِهِ سُبْحَانَ ذِي البُرْهَانِ

٣٣٦٤- قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَلامًا قَدْ حَكَا ... هُ الدَّارِمِيْ عَنْهُ بِلا نُكْرَانِ

٣٣٦٥- مَا عِنْدَهُ لَيْلٌ يَكُونُ وَلا نَهَا ... رٌ قُلْتُ تَحْتَ الفَلْكِ يُوجَدُ ذَانِ

٣٣٦٦- نُورُ السَّمَاوَاتِ العُلَى مِنْ نُورِهِ ... وَالأَرْضِ كَيْفَ النَّجْمُ وَالقَمَرَانِ

٣٣٦٧- مِنْ نُورِ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَكَذَا حَكَاهُ الحَافِظُ الطَّبَرَانِي

٣٣٦٨- فَبِهِ اسْتَنَارَ العَرْشُ وَالكُرْسِيُّ مَعْ ... سَبْعِ الطِّبَاقِ وَسَائِرِ الأَكْوَانِ

٣٣٦٩- وَكِتَابُهُ نُورٌ كَذَلِكَ شَرْعُهُ ... نُورٌ كَذَا المَبْعُوثُ بِالفُرْقَانِ

٣٣٧٠- وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِ الفَتَى ... نُورٌ عَلَى نُورٍ مَعَ القُرْآنِ

٣٣٧١- وَحِجَابُهُ نُورٌ فَلَوْ كَشَفَ الحِجَا ... بَ لأَحْرَقَ السُّبُحَاتِ لِلأَكْوَانِ

٣٣٧٢- وَإِذَا أَتَى لِلفَصْلِ يُشْرِقُ نُورُهُ ... فِي الأَرْضِ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

٣٣٧٣- وَكَذَاكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ العُلَى ... نُورٌ تَلأْلأَ لَيْسَ ذَا بُطْلانِ

٣٣٧٤- وَالنُّورُ ذُو نَوْعَيْنِ مَخْلُوقٌ وَوَصْـ ... ـفٌ مَا هُمَا وَاللهِ مُتَّحِدَانِ

٣٣٧٥- وَكَذَلِكَ المَخْلُوقُ ذُو نَوْعَيْنِ مَحْـ ... ـسُوسٌ وَمَعْقُولٌ هُمَا شَيْئَانِ

٣٣٧٦- احْذَرْ تَزِلَّ فَتَحْتَ رِجْلِكَ هُوَّةٌ ... كَمْ قَدْ هَوَى فِيهَا عَلَى الأَزْمَانِ

٣٣٧٧- مِنْ عَابِدٍ بِالجَهْلِ زَلَّتْ رِجْلُهُ ... فَهَوَى إِلَى قَعْرِ الحَضِيضِ الدَّانِي

٣٣٧٨- لاحَتْ لَهُ أَنْوَارُ آثَارِ العِبَا ... دَةِ ظَنَّهَا الأَنْوَارَ لِلرَّحْمَنِ

٣٣٧٩- فَأَتَى بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَبَلِيَّةٍ ... مَا شِئْتَ مِنْ شَطْحٍ وَمِنْ هَذَيَانِ

٣٣٨٠- وَكَذَا الحُلُولِيُّ الَّذِي هُوَ خِدْنُهُ ... مِنْ هَاهُنَا حَقًّا هُمَا أَخَوَانِ

٣٣٨١- وَيُقَابِلُ الرَّجُلَيْنِ ذُو التَّعْطِيلِ وَالـ ... ـحُجُبِ الكَثِيفَةِ مَا هُمَا سِيَّانِ

٣٣٨٢- ذَا فِي كَثَافَةِ طَبْعِهِ وَظَلامِهِ ... وَبِظُلْمَةِ التَّعْطِيلِ هَذَا الثَّانِي

٣٣٨٣- وَالنُّورُ مَحْجُوبٌ فَلا هَذَا وَلا ... هَذَا لَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ يَرَيَانِ

الشرح

٣٣٦٣- وَالنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضًا وَمِنْ ... أَوْصَافِهِ سُبْحَانَ ذِي البُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضًا وَمِنْ أَوْصَافِهِ**»، لكن لم أرَ حتَّى الآن أنَّ النُّورَ من أسماءِ الله، وإنَّما الذي بلغنا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور:٣٥]، أي: مُنَوِّرِهما، أو هو اللهُ نفسُه فيهما نورٌ؛ لأنَّه في السَّماءِ، ولا يمنعُ أن يُقَالَ: نورُ السَّماواتِ والأرضِ وهو في السَّماواتِ كما قال اللهُ تعالى في القمرِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦] وهو في السَّماءِ الدُّنيا، وليس في السَّماواتِ الأخرى.

المهمُّ أنَّ لها معنيين: **الأوَّل**: أنَّه هو نفسُه النُّورُ فيهما، والثَّاني: أنَّه مُنَوِّرُهما.

فهو نورٌ ومن أوصافِه النُّورُ، لكن لا تُطْلِق «اللهُ نورٌ» على أنَّه اسمٌ، بل اللهُ نورُ السَّماواتِ والأرضِ وذلك بالإضافةِ، وفرقٌ بين هذا وهذا، لكنَّه جاء في

حديث أبي موسى لـمَّا سُئِلَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»[١]، وفي لفظٍ: «رَأَيْتُ نُورًا»[٢]، فيكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ نورًا، وأمَّا أنَّه من أسمائِه على الإطلاقِ بدون إضافةٍ فلا نعلمُه.

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَ ذِي البُرْهَانِ!» «سُبْحَانَ»؛ أي: تنزيهًا له عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «ذِي البُرْهَانِ»؛ أي: ذي الدَّليلِ القاطعِ الجَلِيِّ الواضحِ الذي تَعَرَّفَ لعبادِه بآياتِه حتىَّ أصبح الإنسانُ وكأنَّه يُشَاهِدُ اللهَ، ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ في الإحسانِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَـمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[٣].

٣٣٦٤- قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَلامًا قَدْ حَكَا ... هُ الدَّارِمِيْ عَنْهُ بِلا نُكْرَانِ

٣٣٦٥- مَا عِنْدَهُ لَيْلٌ يَكُونُ وَلا نَهَا ... رٌ قُلْتُ تَحْتَ الفَلْكِ يُوجَدُ ذَانِ

قَوْلُهُ: «قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَلَامًا»؛ يعني: أنَّ ابنَ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَعَالَى لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، نُور السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ»[٤].

قَوْلُهُ: «الفَلْكِ» الظَّاهر أنَّ الصَّوابَ «الفَلْك»؛ لأنَّها مأخوذةٌ من الفَلَكِ لا من الفُلْكِ الذي هو السَّفينةُ.

وبَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه الله- وجهَ ذلك فقال: «قُلْتُ»؛ يعني: نفسَه «تَحْتَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه»، رقم (١٧٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه»، رقم (١٧٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٩).

(٤) أخرجه الطبراني (٩/ ١٧٩، رقم ٨٨٨٦).

الفُلْكِ يُوجَدُ ذَانِ»؛ يعني: تَحْتَ فَلَكِ الشَّمسِ والقمرِ يوجدُ ذانِ؛ يعني: اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لأنَّه من المعروفِ -الآن- أنَّ الليلَ والنَّهارَ يكونُ بتعاقبِ الشَّمسِ على سطحِ الأرضِ، إذا غَابَتْ جاء اللَّيلُ وإذا ظَهَرَتْ جاء النَّهارُ.

فوق السَّماواتِ لا يوجدُ شمسٌ ولا قمرٌ، لكن يوجدُ النُّورُ العظيمُ الذي لا يمكنُ للإنسانِ أنْ يتصوَّرَه؛ لأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- نورُ السَّماواتِ والأرضِ، فاللَّيلُ والنَّهارُ مُكوَّران على الأرضِ، قال اللهُ تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر:٥]، وقال تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف:٥٤]، ونحن نعلمُ جميعًا أنَّ النَّهار من ضوءِ الشَّمسِ، وأنَّ اللَّيلَ من فَقْدِ هذا الضَّوْءِ، والشَّمس تحت السَّماءِ وليست في السَّماءِ.

٢٣٦٦- نُورُ السَّمَاوَاتِ العُلَى مِنْ نُورِهِ وَالأَرْضِ كَيْفَ النَّجْمُ وَالقَمَرَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالأَرْضِ**»؛ أي: ونورُ الأَرْضِ.

قَوْلُهُ: «**كَيْفَ النَّجْمُ وَالقَمَرَانِ؟**»؛ يعني: هما من بابِ أولى.

يعني: هو الذي خَلَقَ فيهما هذا النُّورَ، فنُورُ السَّماواتِ والأرضِ من نورِ اللهِ، نورُ الشَّمسِ والقمرِ من نورِ اللهِ، ومن المعلومِ أنَّ نورَ القمرِ مُستفادٌ من نورِ الشَّمسِ كما لو كان هناك مِرآةٌ تُقابِلُ بها السِّراجَ أو الشَّمسَ صار فيها نورٌ؛ ولذلك كُلَّما قَرُبَ القمرُ من الشَّمسِ ضَعُفَ نورُه لماذا؟ لضَعفِ المقابلةِ؛ لأنَّ نورَه من نورِ الشَّمسِ، فإذا تمَّت المقابلةُ صارَتْ هذه في المشرقِ وهذا في المغرب، أو بالعكس امتلأ القمرُ نورًا؛ لأنَّ السَّماواتِ مِثْلُ القُبَّةِ، فالذي في طرفِها من الجهةِ الغربيَّةِ يُقابِلُ الذي في طَرَفِها من الجهةِ الشَّرقيَّةِ، لكن عندما يقربُ القمرُ من الشَّمسِ يضعفُ نورُه حتَّى إنَّه في ليلة المِحَاق -كما يُسَمُّونها- لا يوجدُ فيه نورٌ أصلًا، ومع

ذلك نقولُ: هذا النُّورُ الذي أَوْدَعَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في الشَّمسِ والقمرِ من نورِ الله عزَّ وجلَّ، لكنَّه ليس من نورِه الذي هو وصفُه، بل هو من نورِه الذي هو خَلْقُهُ عزَّ وجلَّ، فاللهُ هو الذي خَلَقَ نورَ السَّماواتِ والأرضِ، وليس نورُ السَّماواتِ والأرضِ نورَ الله الذي هو وصفُه.

٢٣٦٧- مِنْ نُورِ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَكَذَا حَكَاهُ الحَافِظُ الطَّبَرَانِي

قَوْلُهُ: «مِنْ نُورِ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ» هذا كلامُ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: «وَكَذَا حَكَاهُ الحَافِظُ الطَّبَرَانِي»؛ يعني: حكاه مع الدَّارِمِيِّ، كلاهما رواه عن ابنِ مسعودٍ، ولكن لاحظوا أنَّ هذا النُّورَ المنفصلَ عن ذاتِه نورٌ مخلوقٌ، ليس هو نورَ الله الذي هو نورُ ذاتِه، بل نورُه الذي خَلَقَهُ عزَّ وجلَّ، لكن لـمَّا كان نورًا ووصفُه النُّورَ خَلَقَ النُّورَ.

٢٣٦٨- فَبِهِ اسْتَنَارَ العَرْشُ وَالكُرْسِيُّ مَعْ ... سَبْعِ الطِّبَاقِ وَسَائِرِ الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «وَسَائِرُ الأَكْوَانِ»، ويجوزُ «وَسَائِرِ الأَكْوَانِ»؛ يعني: ومع سائرِ الأكوانِ.

العرشُ والكرسِيُّ شيئان مُتَباينان، العرشُ هو الذي استوى عليه الرَّبُّ جلَّ وعلا، وهو أعظمُ من الكرسِيِّ، والكرسِيُّ موضعُ قَدَمَي الله سبحانه وتعالى، فهو بين يَدَي العرشِ، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ قد وضَع قدميه عليه، ولكن لا لحاجةٍ إلى هذا الكرسِيِّ، واستوى على العرشِ لكن لا لحاجةٍ إلى هذا العرشِ، لكن لبيانِ عظمتِه -جلَّ وعلا- وتمامِ مُلْكِه.

٢٣٦٩- وَكِتَابُهُ نُورٌ كَذَلِكَ شَرْعُهُ ... نُورٌ كَذَا المَبْعُوثُ بِالفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «وَكِتَابُهُ نُورٌ» كتابُ الله نورٌ، لكن مَنْ يستنيرُ به؟ يستنيرُ به مَنْ يعلمُ

كيف يشعلُه، وأمَّا مَنْ لا يعلمُ فلن يستفيدَ منه؛ والدَّليلُ على أنَّ القرآنَ نورٌ قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النِّساء:١٧٤]؛ يعني: بَيِّنًا واضحًا، ومُبَيِّنًا لغيرِه أيضًا، ولكنَّه ليس نورًا حسِّيًّا، بل هو نورٌ معنوِيٌّ، مَنْ مَلأَ اللهُ قلبَه بهذا القرآنِ استنار وصار كما قال اللهُ تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النُّور:٣٥]، وهذا أعلى ما يكونُ مثلًا لضربِ النُّورِ «كَمِشْكَاةٍ»، والمشكاةُ هي الكُوَّةُ.

قَوْلُهُ: «**كَذَلِكَ شَرْعُهُ**»؛ أي: نورٌ يهتدي به الإنسانُ كالعَلَمِ عليه نارٌ يستدلُّ النَّاسُ بها، فالشَّرعُ نورٌ يمشي به الإنسانُ، والعِلْمُ بالشَّرعِ نورٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

قَوْلُهُ: «**كَذَا المَبْعُوثُ بِالفُرْقَانِ**» المبعوثُ بالفرقانِ وهو الرَّسولُ ﷺ يُسَمَّى نورًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى أَنَارَ به الطَّريقَ الموصِلَ إليه، فالنَّاسُ يستضيئون به، وقد قال كَعْبُ بنُ زهيرٍ:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... وَصَارِمٌ مِنْ سُيوفِ الله مَسْلُولُ[1]

ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ نورٌ، والعلماءُ الوارثون للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هم أيضًا أنوارٌ يُضيئون للنَّاسِ كأنَّ في أيديهم شُعلًا يمشون أمامَ النَّاسِ والنَّاسُ من ورائِهم، قال اللهُ تعالى في العلماءِ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٧٠، رقم ٦٤٧٧)، والطبراني (١٩/ ١٧٧)، والبيهقي (١٠/ ٤١٢، ٢١١٤٢).

ونورُ النَّبِيِّ ﷺ نورٌ معنويٌّ وليس نورًا حسِّيًّا، وما رُوِيَ من أنَّه ﷺ يُضيءُ ما حولَه وأنَّه يمشي في الشَّمسِ وليس له ظلٌّ؛ لأنَّ نورَه يطمسُ الظِّلَّ الذي حَصَلَ[1]، فإنَّ هذا كَذِبٌ لا صحَّةَ له، فالنَّبِيُّ ﷺ نورٌ معنويٌّ.

وَقَوْلُهُ: «المَبْعُوثُ بِالفُرْقَانِ» الفرقانُ هو القرآنُ، سُمِيَّ فرقانًا لأنَّ اللهَ تعالى فَرَّقَ فيه بين الحقِّ والباطلِ، بين أولياءِ الله وأعداءِ الله، بين الحلالِ والحرامِ، بين الواجبِ وغيرِ الواجبِ، فهو فرقانٌ في كُلِّ شيءٍ.

فالنَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- نورٌ، وكتابُ الله نورٌ، وشريعتُه نورٌ، ولكنَّ هذا النُّورَ من النُّورِ المعنويِّ؛ لأنَّ النُّورَ ينقسمُ إلى قسمين: نورٍ حسِّيٍّ، ونورٍ معنويٍّ، فالنُّورُ الحسِّيُّ كنورِ الشَّمسِ والقمرِ وما أشبهها، والنُّورُ المعنويُّ نورُ القرآنِ والشَّريعةِ والنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٣٣٧٠- وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِ الفَتَى ... نُورٌ عَلَى نُورٍ مَعَ القُرْآنِ

أيضًا من النُّورِ ما يجعلُه اللهُ في قلبِ العبدِ وهو نورٌ معنويٌّ مخلوقٌ يجعلُه اللهُ تعالى في قلبِ الإنسانِ، فإذا انضاف إلى ذلك نورُ القُرآنِ صار نورًا على نورٍ، وهذا النُّورُ القلبيُّ يكشفُ للإنسانِ من العلومِ والمكاشفاتِ ما لا يحصلُ لغيرِه، حتَّى إنَّه لَيَسْتَنْبِطُ من الدَّليلِ الواحدِ عِدَّةَ مسائلَ وأحكامٍ لا يستنبطُها غيرُه من عدَّةِ

---

(١) مثل حديث عائشة رضي الله عنها قالت: استعرت من حفصة بنت رواحة إبرة كنت أخيط بها ثوب رسول الله ﷺ فسقطت الإبرة فطلبتها فلم أقدر عليها فدخل رسول الله ﷺ فتبينت الإبرة بشعاع نور وجهه فضحكت فقال: «يا حميراء لم ضحكت». قلت: كان كيت وكيت. فنادى بأعلى صوته: «يا عائشة الويل ثم الويل لمن حُرم النظر إلى هذا الوجه ما من مؤمن ولا كافر إلا ويشتهى أن ينظر إلى وجهى». عزاه السيوطي في جامع الأحاديث (٤٠/ ٥٥، رقم ٤٣١٢٢) للديلمي وابن عساكر.

أدلَّةٍ، وهذا بما يُلقيه اللهُ في قلبِه من النُّورِ، ومن ذلك ما جَرَى لعمرَ ابن الخطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مُوافقتِه النَّبيَّ ﷺ في عدَّةِ مسائلَ، بل في مُوافقتِه لله، وكذلك ما جَرَى لأبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في أحلكِ المواطنِ التي جرت للرَّسولِ ﷺ وذلك في صُلحِ الحديبيةِ، فإنَّ صلحَ الحديبيةِ كما هو معروفٌ حَصَلَ فيه شيءٌ من الضَّغطِ على المسلمين، ولم يتحمَّلْ بعضُهم هذا، حتَّى إنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مع أنَّ الإيمانَ راسخٌ في قلبِه قام يجادلُ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ أجابه بجوابٍ كان جوابُ أبي بكرٍ مِثْلَه تمامًا؛ لأنَّ عمرَ لـمَّا رأى نفسَه لم يُقْنِعِ الرَّسولَ ﷺ ذهب إلى أبي بكرٍ لعلَّه يساعدُه على إقناعِ الرَّسولِ ﷺ، فكان جوابُ أبي بكرٍ كجوابِ النَّبيِّ ﷺ تمامًا[1]، فهذا من النُّورِ الذي يضَعُه اللهُ في قلبِ المؤمنِ؛ ولهذا كان من دعاءِ الرَّسولِ ﷺ حين يخرجُ إلى الصَّلاةِ أن يقولَ: «**وَاجْعَلْنِي نُورًا**»[2]، اجعلني أنا نورًا؛ يعني: نورًا يهتدي به النَّاسُ.

٣٣٧١- وَحِجَابُهُ نُورٌ فَلَوْ كَشَفَ الحِجَا ... بَ لأَحْرَقَ السُّبُحَاتِ لِلأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «**وَحِجَابُهُ نُورٌ**» حجابُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ الذي احتجب به نورٌ عظيمٌ يحولُ بين الإنسانِ وبين رؤيةِ الله؛ ولهذا لـمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- هَلْ رَأَيْتَ اللهَ؟ قَالَ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»[3]؛ أي: نورٌ حجبني عنه، وفي روايةٍ: «**رَأَيْتُ نُورًا**»[4]؛ يعني: ولم أرَ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى من وراءِ هذا النُّورِ.

---

(١) هو حديث صلح الحديبية الطويل، وقد أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٥٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٦٣).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه»، رقم (١٧٨).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه»، رقم (١٧٨).

لكن لا تظنُّوا أنَّ النُّورَ المذكورَ كالنُّورِ الذي يكونُ في الشَّمسِ، هو أعظمُ، ولا يمكنُ أن يُدْرِكَ الإنسانُ كيفيَّةَ هذا النُّورِ.

قَوْلُهُ: «فَلَوْ كَشَفَ الحِجَابَ»؛ يعني: لو كشف الرَّبُّ عزَّ وجلَّ الحجابَ بهذا النُّورِ.

قَوْلُهُ: «لأَحْرَقَ السُّبُحَاتُ للأَكْوَانِ» قولُه: **«لأَحْرَقَ»** أصلُه: **«لأَحْرَقَتْ»** بالتَّاء، لكن كُلُّ مجموعٍ سوى جمعِ المؤنَّثِ والمذكَّرِ السَّالمِ يجوزُ فيه التَّذكيرُ والتَّأنيثُ، قال ابنُ مالك:

وَالتَّاءُ مَعْ جَمْعٍ -سِوَى السَّالِمِ مِنْ ... مُذَكَّرٍ- كَالتَّاءِ مَعْ إِحْدَى اللَّبِنْ[1]

فـ«لَبِنَة» مؤنَّثُها مجازِيٌّ يجوزُ فيها التَّذكيرُ والتَّأنيثُ، كذلك سائرُ الجموعِ إلَّا جمعَ المذكَّرِ السَّالمَ، والصَّحيحُ وإلَّا جمعَ المؤنَّثِ السَّالمَ، فإنَّ جمعَ المذكَّرِ السَّالمَ يجبُ فيه التَّذكيرُ وجمعَ المؤنَّثِ السَّالمَ يجبُ فيه التَّأنيثُ، وما عدا ذلك يجوزُ فيه الوجهان.

و**«السُّبُحَاتُ»** هي البهاءُ والعظمةُ والنُّورُ؛ ولهذا قال النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم: **«حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»**[2]، وابنُ القيِّمِ يقولُ: **«لِلأَكْوَانِ»**؛ أي: كُلِّها، والحديث: **«لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»**، ومعلومٌ أنَّ بصرَه ينتهي لكُلِّ المخلوقاتِ، لكن هذا من بابِ المبالغةِ، إِذَنْ لأَحْرَقَت سُبُحَاتُ وجهِه جميعَ خلقِه سبحانه وتعالى.

---

(١) شرح ابن عقيل (٢/ ٩٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، وفي قوله: «حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، رقم (١٧٩).

٢٣٧٢- وَإِذَا أَتَى لِلفَصْلِ يُشْرِقُ نُورُهُ فِي الأَرْضِ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]، ولكن لا تظنُّوا أنَّ هذا النُّورَ كنورِنا هذا، بل هو نورٌ عظيمٌ لا يمكنُ أن يَقْدِرَ قَدْرَه أحدٌ، تُشْرِقُ بنورِ الله عزَّ وجلَّ، ويُؤتَى بالنَّبيِّين والشُّهداءِ من أهل العلمِ فيشهدون بالحقِّ بأنَّ الرُّسلَ أَتَوْا بالحقِّ وأنَّ الأُممَ أُبلِغُوا بالحقِّ كما جاء في الحديثِ[1].

٢٣٧٣- وَكَذَاكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ العُلَى نُورٌ تَلَألَأَ لَيْسَ ذَا بُطْلانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ العُلَى نُورٌ تَلأْلأْ» الجنَّاتُ -جعلَني اللهُ وإيَّاكم من أهلِها- نورٌ تلألأ، ليس فيها ظلمةٌ إطلاقًا، ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣]، ليس فيها شمسٌ، لكنَّها نورٌ يتلألأُ، هذا النُّورُ من النُّورِ الذي يخلقُه اللهُ عزَّ وجلَّ.

وليس لها نظيرٌ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدة:١٧]، وما بين الإنسانِ وهذه الجنَّاتِ -اللَّهُمَّ اجعلنا من أهلِها- إلَّا أن تنقضِيَ الدُّنيا وتقومَ القيامةُ، وهذه المدَّةُ وإن طالت تمرُّ سريعًا ولو كانت آلافَ الملايين كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وإذا شِئْتَ أن تُدْرِكَ هذا فانظر إلى الإنسانِ حال النَّومِ، ينامُ أربعَ

---

(١) كما في حديث: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَالوَسَطُ العَدْلُ». أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح:١]، رقم (٣١٦١).

ساعاتٍ، خمسَ ساعاتٍ، ستَّ ساعاتٍ أو أكثر وكأنَّها لحظةٌ، النَّاسُ في قبورِهم مُمتَّعونَ بما يُمتِّعُهم اللهُ به إن كانوا من أهلِ الخيرِ، أو مُعَذَّبون بما يعذِّبُهم اللهُ به، لكن تمرُّ وكأنَّها لحظاتٌ قليلةٌ.

قَوْلُهُ: «**لَيْسَ ذَا بُطْلَانِ**»؛ أي: ليس هذا الخبرُ بباطلٍ، بل هو حقٌّ.

٣٣٧٤- وَالنُّورُ ذُو نَوْعَيْنِ مَخْلُوقٌ وَوَصْـــفٌ مَا هُمَا وَاللهِ مُتَّحِدَانِ

صحيحٌ، فالنُّور نوعان: نوعٌ مخلوقٌ بائِنٌ عن الله منفصلٌ، ونوعٌ وصفٌ لله عزَّ وجلَّ، وليسا سواءً، خِلافًا لما يدَّعيه أهلُ التَّصوُّفِ حين يظنُّون أنَّ الأنوارَ التي تحدُثُ لهم في قلوبِهم أو يُشاهدونها في الكونِ يظنُّون أنَّها هي نورُ الله عزَّ وجلَّ الذي هو وَصْفُهُ، فإنَّ هذا كَذِبٌ، فهذا النُّورُ المخلوقُ ليس هو النُّورَ الذي وصفُه، فالنُّورُ الذي هو وَصْفُ الله غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ كُلَّ صفاتِ الله غيرُ مخلوقةٍ، لكن ما يشاهدُه النَّاسُ فهذا مخلوقٌ؛ ولهذا أَقْسَمَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّهما غيرُ مُتَّحدَيْنِ.

٣٣٧٥- وَكَذَلِكَ المَخْلُوقُ ذُو نَوْعَيْنِ مَحْـــسُوسٌ وَمَعْقُولٌ هُمَا شَيْئَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَلِكَ المَخْلُوقُ ذُو نَوْعَيْنِ مَحْسُوسٌ وَمَعْقُولٌ**»، فما يكونُ في القلبِ من العلمِ والإيمانِ والطُّمأنينةِ هذا معقولٌ فهو أمرٌ معنويٌّ، وما نُشاهدُه من الإصباحِ في أوَّلِ النَّهارِ فهذا محسوسٌ.

فصار النُّورُ أوَّلًا ينقسمُ إلى قسمين: وصفٍ له ومخلوقٍ له، والمخلوقُ ينقسمُ إلى نوعين: حسِّيٍّ، وعقليٍّ.

٣٣٧٦- احْذَرْ تَزِلَّ فَتَحْتَ رِجْلِكَ هُوَّةٌ كَمْ قَدْ هَوَى فِيهَا عَلَى الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «**احْذَرْ تَزِلَّ**»؛ يعني: احذر أن تَزِلَّ.

قَوْلُهُ: «فَتَحْتَ رِجْلِكَ هُوَّةٌ»، الهُوَّةُ: المكانُ المنخفضُ.

والإنسانُ إذا زَلَّتْ رجلُه وتحته هُوَّةٌ سَقطَ وَهلَكَ، لكن ما هذه؟ يقولُ:

٣٣٧٧- مِنْ عَابِدٍ بِالجَهْلِ زَلَّتْ رِجْلُهُ فَهَوَى إِلَى قَعْرِ الحَضِيضِ الدَّانِي

قَوْلُهُ: «الحَضِيضِ»؛ أي: العميق.

٣٣٧٨- لاحَتْ لَهُ أَنْوَارُ آثَارِ العِبَا دَةِ ظَنَّهَا الأَنْوَارَ لِلرَّحْمَنِ

٣٣٧٩- فَأَتَى بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَبَلِيَّةٍ مَا شِئْتَ مِنْ شَطْحٍ وَمِنْ هَذَيَانِ

هذا يعودُ إلى الصُّوفيَّةِ، الصُّوفيَّةُ عندهم نوعُ عبادةٍ، لكن عندهم ضلالٌ عظيمٌ تلوحُ لهم أنوارٌ أحيانًا نورٌ في القلبِ فيظنُّونَ ذلك نورَ الرَّبِّ، ويدَّعون أنَّ الرَّبَّ حَلَّ فيهم والعياذُ بالله، أو تلوحُ لهم الأنوارُ من خارجٍ وتنشرحُ الصُّدورُ فيظنُّون ذلك نورَ الرَّبِّ، ويدَّعون أنَّه حَلَّ في هذا المكانِ؛ لأنَّه كما هو معلومٌ أنَّ الإنسانَ إذا ضَاقَ صدرُه صار النُّورُ عنده ظلمةً، وإذا اتَّسعَ صدرُه انشرح صدرُه و رأى كُلَّ شيءٍ نورًا.

هؤلاء المتصوِّفةُ -والعياذُ بالله- زيَّنَ لهم الشَّيطانُ أعمالَهم، فكان يَرِدُ على قلوبِهم من الأنوارِ الشَّيطانيَّةِ لا الرَّحمانيَّة ما يجعلُهم يظنُّونَ أنَّ هذا هو نورُ الرَّبِّ، فيُحوِّلون النُّورَ المخلوقَ إلى نورِ الوصفِ «**نور الخالقِ**» عزَّ وجلَّ، فيظنونَّه هو نور الله.

وهذا يُحمَلُ على صوفيٍّ جاهلٍ، وأمَّا الصوفيُّ العالِمُ فإنَّه مهما عَمِلَ من العملِ المخالفِ للسُّنَّةِ فليس بعبادةٍ، لكن الجاهل رُبَّما يتعبَّدُ بالشَّيءِ المبتدَعِ يظنُّه شرعًا وحقًّا فيُثَابُ على نيَّتِهِ، أمَّا المعانِدُ فلا، هؤلاء هم الصُّوفيَّةُ.

والعجيبُ أنَّ هؤلاء الصُّوفيَّةَ لهم فناءٌ صوفيٌّ بدعيٌّ، فناءٌ يَفْنونَ به عن شهودِ ما سوى الله عزَّ وجلَّ، حتَّى إنَّ الإنسانَ يَفْنَى في الله -كما يزعمُ- عن ذكرِ الله، يقولُ: «**لا إلهَ إلَّا اللهُ**» وهو لا يدري؛ لأنَّ قلبَه منشغلٌ بمشاهدةِ المذكور، يعبدُ اللهَ ولكنَّه ساهٍ كالنَّائمِ يعبدُ اللهَ وهو كنائمٍ يعبد الله؛ لأنَّه غابَ قلبُه بالمعبودِ، هذا يسمُّونه «**الفناء الصوفيّ**»، وهو فناءٌ مُبْتَدَعٌ ضلالٌ، ولم يكن عليه الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ولا التَّابعون لهم بإحسانٍ، وليس من شريعةِ النَّبيِّ ﷺ، لكنَّه من إيراداتٍ تَرِدُ على قلوبِهم فيظنُّونها حقًّا، ويغيبُ الواحدُ كالسَّكرانِ حتَّى إنَّ بعضَهم يبدأُ يخبطُ بيديه ورجليه كأنَّه مجنونٌ، ويأخذون عِصيًّا أو أسواطًا يُخبِّطُون بها الأرضَ، وأعظمُهم وأقربُهم مَنْ يتطايرُ الغبارُ مِن ضَرْبِهِ، ولهذا يسمُّون هذا النَّوعَ من الذِّكرِ يسمُّونه «**الغُبَيْرَاء**»؛ لأنَّها تُغبِّرُ، والإنسانُ إذا انفعل يضربُ بقوَّةٍ، فهم لشدَّةِ انفعالِهم يضربون بقوَّةٍ، إذا قال: «**لا إلهَ إلَّا اللهُ**» مَدَّ «الله» خبطوا بهذه العِصيِّ على الأرض كأنَّهم مجانين، وبعضُهم رُبَّما يُصْعَقُ وبعضُهم رُبَّما يموتُ، وهذا لم يَرِدْ عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- ولا عن الصَّحابةِ وهم أكملُ منهم إيمانًا، لكنَّ الشَّياطين تُزَيِّنُ ذلك لهم.

من جملةِ هذا أنَّهم يظنُّون أنَّ النُّورَ الذي يكونُ في قلوبِهم هو نورُ الله، أو الذي يكونُ في الكونِ هو نورُ الله، فيجعلون الصِّفةَ الإلهيَّةَ الذَّاتيَّةَ حالَّةً في المخلوقاتِ.

٣٣٨٠- وَكَذَا الـحُلُولِـيُّ الَّذِي هُوَ خِدْنُـهُ ... مِـنْ هَاهُنَـا حَقًّـا هُمَـا أَخَـوَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا الـحُلُولِـيُّ» الحلوليُّ هو الذي يقولُ: إنَّ اللهَ حالٌّ في كُلِّ شيءٍ؛ يعني: أهلَ وحدةِ الوجودِ.

قَوْلُهُ: «هُوَ خِدْنُهُ» الخِدْنُ: هو الصَّاحبُ الخاصُّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ [المائدة:٥]، فالصَّاحبُ الخاصُّ خِدْنٌ لهذا الصوفِيِّ؛ لأنَّ حقيقةَ أمرِهم أنَّ اللهَ حالٌّ في الكونِ.

٣٣٨١- وَيُقَابِلُ الرَّجُلَيْنِ ذُو التَّعْطِيلِ وَالـ ـحُجُبِ الكَثِيفَةِ مَا هُمَا سِيَّانِ

يُقَابِلُ الرَّجُلَيْنِ أصحابُ التَّعطيلِ الذين يُنكرون أنَّ يكونَ لله -سبحانه وتعالى- صفةٌ، فهم محجوبون عن هذه الصِّفاتِ العظيمةِ لله بحجبِ التَّعطيلِ والبِدَعِ، فالمُعَطِّلُ لم يَسْتَنِرْ قلبُه بالعبادةِ والإيمانِ والعياذُ بالله؛ لأنَّ المُعَطِّلَ يُعَطِّلُ مَنْ لا صفات له، بل ولا وجودَ له في الحقيقةِ؛ لأنَّه لا يَصِفُ اللهَ بأيِّ صِفةٍ من الصِّفاتِ، ويقولُ: إنَّ اللهَ تعالى ليس فوقُ ولا تحتُ ولا يمينُ ولا يسارُ، ولا هو مُباينٌ ولا مُتَّصِلٌ، فهو في الحقيقةِ قد فَقَدَ النُّورَ من أصلِه، وهو كما نعلمُ يعبدُ عدمًا.

٣٣٨٢- ذَا فِي كَثَافَةِ طَبْعِهِ وَظَلَامِهِ وَبِظُلْمَةِ التَّعْطِيلِ هَذَا الثَّانِي

يعني: كلاهما في ظُلمةٍ، الأوَّلُ الذي هو الصوفيُّ والحلوليُّ عنده كثافةُ طَبْعٍ، وهذا عنده ظلمةُ تعطيلِ الخالقِ عزَّ وجلَّ من أوصافِه.

٣٣٨٣- وَالنُّورُ مَحْجُوبٌ فَلا هَذَا وَلا هَذَا لَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ يَرَيَانِ

النُّورُ محجوبٌ عن الصِّنفَيْن جميعًا، فلا هذا ولا هذا من الظُّلمةِ يَرَى؛ لأنَّ الأوَّلَ أَظْلَمَ قلبُه بالحلولِ، وهذا أَظْلَمَ قلبُه بالتَّعطيلِ.

وَقَوْلُهُ: «مِنْ ظُلْمَةٍ» «مِنْ» هذه للتَّعليلِ؛ يعني: فلا هذا ولا هذا يَرَى من أجلِ الظُّلمةِ التي أَحَاطَتْ بهما.

وهنا نُنَبِّهُ على أنَّ مسائلَ الغيبِ لا يمكنُ أن نقولَ فيها: كيف؟ ليس فيها إلَّا التَّصديقُ والتَّسليمُ، أمَّا «**كيف**» فهذا ليس إلينا، امنع لسانَك عن شَيْئَيْنِ: عن «**كيف**»، و«**لِـمَ**»، أمَّا «**بِمَ**» فهذا لا بأسَ به، إذا قلتُ: اعمل: فقل: بِمَ أعملُ؟ ولا تقلْ: لِـمَ أعملُ؟ ولا تقلْ: كيف أعملُ؟ لأنَّ هذا هو حقيقةُ التَّسليمِ، فكذلك أيضًا الأمورُ الخبريَّةُ، هذا النُّورُ العظيمُ الذي خَلَقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ واحتجب به عن العبادِ لا نعلمُ كيفيَّتَه، فإذا كانت الجنَّةُ وهي منازلُنا لا نعلمُ عن كيفيَّتِها كما قال اللهُ تعالى: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِـحِينَ مَالَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1]، وهو معَدٌّ لنا إن شاء الله، فكيف نقولُ في نورٍ خلقه اللهُ عزَّ وجلَّ يحتجبُ به عن عبادِه؟! فلا ندري، فهذا شيءٌ فوق تصوُّرِنا.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).



فصل



٣٣٨٤- وَهُوَ المُقَدِّمُ وَالمُؤَخِّرُ ذَانِكَ الصْـ ... ـصِفَتَانِ لِلأَفْعَالِ تَابِعَتَانِ

٣٣٨٥- وَهُمَا صِفَاتُ الذَّاتِ أَيْضًا إِذْ هُمَا ... بِالذَّاتِ لا بِالغَيْرِ قَائِمَتَانِ

٣٣٨٦- وَلِذَاكَ قَدْ غَلِطَ المُقَسِّمُ حِينَ ظَنْـ ... ـنَ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

٣٣٨٧- إِنْ لَمْ يُرِدْ هَذَا وَلَكِنْ قَدْ أَرَا ... دَ قِيَامَهَا بِالفِعْلِ ذِي الإِمْكَانِ

٣٣٨٨- وَالفِعْلُ وَالمَفْعُولُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... عِندَ المُقَسِّمِ مَا هُمَا شَيْئَانِ

٣٣٨٩- فَلِذَاكَ وَصْفُ الفِعْلِ لَيْسَ لَدَيْهِ إِلْـ ... ـلَا نِسْبَةٌ عَدَمِيَّةٌ بِبَيَانِ

٣٣٩٠- فَجَمِيعُ أَسْمَاءِ الفِعَالِ لَدَيْهِ لَيْـ ... ـسَتْ قَطُّ ثَابِتَةً ذَوَاتِ مَعَانِي

٣٣٩١- مَوْجُودَةٌ لَكِنْ أُمُورٌ كُلُّهَا ... نِسَبٌ تُرَى عَدَمِيَّةَ الوِجْدَانِ

٣٣٩٢- هَذَا هُوَ التَّعْطِيلُ لِلأَفْعَالِ كَالتْـ ... ـتَعْطِيلِ لِلأَوْصَافِ بِالمِيزَانِ

الشرحُ

٣٣٨٤- وَهُوَ المُقَدِّمُ وَالمُؤَخِّرُ ذَانِكَ الصْـ ... ـصِفَتَانِ لِلأَفْعَالِ تَابِعَتَانِ

يقول المؤلِّفُ رحمه الله: من أسماءِ الله: «المُقَدِّمُ» و«المُؤَخِّرُ»، أو من أوصافِه: «المُقَدِّمُ» و«المُؤَخِّرُ»، فهو قد سمَّاه النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- فقال: «أَنْتَ

الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ»[١]، والتَّقديمُ والتَّأخيرُ صفتان ثابتتان لله عزَّ وجلَّ، متعلِّقتان بأفعالِه، كالمحيي والمميت، فالمحيي والمميتُ صفتان من صفاتِ الله، والإحياءُ والإماتةُ متعلِّقتان بأفعالِه، فهما من صفاتِ الأفعالِ، وهما من صفاتِ الذَّاتِ من وجهٍ، فَمِنْ وجهِ قيامِهما بالله هما من صفاتِ الذَّاتِ، ومن وجهِ تعلُّقِهما بالمخلوقِ الحادثِ هما من صفاتِ الأفعالِ؛ ولهذا قال:

٣٣٨٥- وَهُمَا صِفَاتُ الذَّاتِ أَيْضًا إِذْ هُمَا ... بِالذَّاتِ لا بِالغَيْرِ قَائِمَتَانِ

فهما صفاتُ ذاتٍ وصفاتُ أفعالٍ.

واعلم أنَّ التَّقديمَ والتَّأخيرَ نوعان: حسِّيَّان ومعنويَّان، أمَّا الحِسِّيَّان بأن يُقَدِّمَ اللهُ ولادةَ هذا قبلَ هذا، وموتَ هذا قبلَ هذا، ومرضَ هذا قبلَ هذا، ويُقَدِّمَ مجيءَ المطرِ ويُؤَخِّرَ مجيءَ المطرِ، يُقَدِّمَ النَّصرَ ويؤَخِّرَ النَّصرَ، وهذا كثيرٌ جدًّا، فكُلُّ أفعالِ الله فيها تقديمٌ وتأخيرٌ، وأمَّا المعنى فمِثْلُ قولِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- حين رَأى رِجَالًا مُتأخِّرين في المسجدِ: «لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ»[٢]، وَرُبَّ شَخْصٍ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ فِي الصَّلَاةِ وهو عند الله مُؤَخَّرٌ، فهو مُتَقَدِّمٌ حِسًّا لكن مُتَأَخِّرٌ معنى، فالتَّقديمُ والتَّأخيرُ نوعان: حِسِّيٌّ ومعنويٌّ، وهما من صفاتِ الأفعالِ باعتبارِ تعلُّقِهما بالمخلوقِ، ومن صفاتِ الذَّاتِ باعتبارِ تعلُّقِهما بالخالقِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب التهجد بالليل وقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]، رقم (١٠٦٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الاستهام على الأذان، رقم (٦١٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول، رقم (٤٣٧).

٣٣٨٦- وَلِذَاكَ قَدْ غَلِطَ الْمُقَسِّمُ حِينَ ظَنْ ... نَ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

قَوْلُهُ: «المُقَسِّمُ» يريدُ بذلك الأشاعرةَ حيث قَسَّموا الصِّفاتِ إلى نوعين:

النَّوع الأوَّل: صفاتُ ذاتٍ، وتُسَمَّى عندهم صفاتِ المعاني، وهي السَّبعُ التي أثبتوها، وزعموا أنَّ العقلَ دَلَّ عليها وهي: الحياة، والسَّمع، والبصرُ، والكلامُ، والعلمُ، والإرادةُ، والقدرةُ، هذه الصِّفاتُ المعنويَّةُ عندهم صفاتٌ قَائِمَةٌ بذاتِ الله عزَّ وجلَّ.

النَّوع الثَّاني: صفاتُ الأفعالِ، فيقولون: إنَّها غيرُ قائمةٍ بالله سواءٌ كانت متعديَّةً أم لازمةً، لماذا؟ قالوا: لأنَّ الأفعالَ حادثةٌ، والحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، فَوَجَبَ نفيُها عنه؛ ولهذا أنكروا نُزولَ الله للسَّماءِ الدُّنيا؛ لأنَّها فِعْلٌ، والفعلُ عندهم حادثٌ، والحادثُ لا يقومُ إلَّا بحادثٍ، فأنكروه، كذلك أيضًا الأفعالُ المتعدِّيةُ للغيرِ أنكروها: خَلْقُه ورَزْقُه وإحياؤه وإماتتُه، كُلُّ هذه عند الأشاعرةِ مُنْكَرَةٌ؛ يعني: يُنكرونَ أن تقومَ بالله، فالإحياءُ عندهم ليست صفةً متعلِّقةً بالذَّاتِ، ولا يمكنُ أن تكونَ متعلِّقةً بالذَّاتِ؛ لأنَّها حادثةٌ، هذا يُحْيَا اليوم مثلًا، والثَّاني يُماتُ اليوم، فهي صفاتٌ حادثةٌ لا يمكنُ أن تكونَ متعلِّقةً بذاتِ الخالقِ عزَّ وجلَّ، إذ لو كانت متعلِّقةً به لكان -على زعمِهم- حادثًا، وهذا محالٌ.

إِذَنْ عند الأشاعرةِ الصِّفاتُ معنويَّةٌ وفعليَّةٌ؛ المعنويَّةُ يُثبتونها، والفعليَّةُ يُنكرونها لأنَّها حادثةٌ، والحادثُ لا يقومُ إلَّا بحادثٍ، إِذَنْ لا تُنْسَبُ إلى الله نسبةَ ذاتٍ.

قالوا لهم: هناك صفاتُ أفعالٍ متعلِّقةٌ بذاتِ الله مثل: النُّزولِ والاستواءِ على العرشِ والمجيءِ يوم القيامةِ، وأنكروا أن يكونَ كلامُه مترتِّبًا، قالوا: هذه لا نُثْبِتُهَا، فلا نُثْبِتُ الاستواءَ على العرشِ، ولا النُّزولَ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ولا الإتيانَ يوم القيامةِ.

فَرَدَّ المؤلِّفُ عليهم وقال: «وَلِذَاكَ قَدْ غَلِطَ الْمُقَسِّمُ حِينَ ظَنَّ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ».

قَوْلُهُ: «نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ» هذا على لغةِ مَنْ يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ مطلقًا، لغة للعربِ، يقولون: إنَّ المثنَّى بالألفِ دائمًا، فما أولى الذين يلحنون بهذه اللُّغةِ! فكُلَّما لَـحَنْتَ ونَصَبْتَ، وجَعَلْتَ المثنَّى بالألفِ وهو منصوبٌ فاعتذر بأنَّ هذه لغةٌ.

ونقولُ للمؤلِّف رحمه الله: ليس لك حقٌّ أن تذهبَ إلى لغةٍ غيرِ مشهورةٍ أو غيرِ لغةِ قريشٍ، لكن ألزمته قافيةُ القصيدةِ أن يأتيَ بالألفِ فقال: «نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ».

٣٣٨٧- إِنْ لَــمْ يُـرِدْ هَـذَا وَلَكِـنْ قَـدْ أَرَا ... دَ قِيَامَهَــا بِالفِعْــلِ ذِي الإِمْكَــانِ

٣٣٨٨- وَالفِعْــلُ وَالمَفْعُــولُ شَيْءٌ وَاحِــدٌ ... عِنْــدَ المُقَسِّــمِ مَــا هُمَــا شَــيْئَانِ

يعني: أنَّه قال: إنَّ الصِّفاتِ نوعان: معنويَّةٌ وفعليَّةٌ، ومع هذا لم يَصِفِ اللهَ حقًّا بالصِّفاتِ الفعليَّةِ، بل قال: إنَّ الفعلَ والمفعولَ شيءٌ واحدٌ، ففعلُ الله هو مفعولُه، وإحياؤه نُسِبَ إليه وهو في الحقيقةِ المُحْيَا، ورَزْقُه نُسِبَ إليه وهو في الحقيقةِ المرزوقُ، وهلمَّ جرًّا.

٣٣٨٩- فَلِذَاكَ وَصْفُ الفِعْلِ لَيْسَ لَدَيْهِ إِلْـ ... ـلَا نِسْـبَةٌ عَدَمِيَّــةٌ بِبَيَــانِ

يعني: أنَّه أُضِيفَ إلى الله على سبيلِ النِّسبةِ والإضافةِ، لا على سبيلِ الحقيقةِ، وإلَّا فالفعلُ والمفعولُ شيءٌ واحدٌ، فـ«خلقُ السَّماواتِ» هل اتَّصفَ اللهُ بصفةٍ هي الخلقُ عندهم؟ الجوابُ: لا، ولكنَّه فعل مفعولًا هو السَّماوات، والفعلُ عندهم هو عينُ المفعولِ.

٣٣٩٠- فَجَمِيعُ أَسْمَاءِ الفِعَالِ لَدَيْهِ لَيْـ ـسَتْ قَطُّ ثَابِتَةً ذَوَاتِ مَعَانِي

٣٣٩١- مَوْجُودَةً لَكِنْ أُمُورٌ كُلُّهَا نِسَبٌ تُرَى عَدَمِيَّةَ الوِجْدَانِ

سبحان الله! إذا قيل لهم: هذا غيرُ ممكنٍ، المفعولاتُ موجودةٌ، قالوا: إنَّها أُضِيفَت إلى الله على سبيلِ النِّسبةِ والإضافةِ، وليست حقيقةً هي فعل الله، بل هي مفعولُه، وحينئذٍ يلزمُهم أن يقولوا بوجودِ مفعولٍ بدون فعلٍ، وهذا مكابرةٌ، هل يُوجَدُ فاعلٌ بلا فعلٍ؟ الجوابُ: لا يُوجَدُ، ولا فعلٌ بلا فاعلٍ، ولا مفعولٌ بلا فاعلٍ أبدًا، لكن هم يكابرون.

٣٣٩٢- هَذَا هُوَ التَّعْطِيلُ لِلأَفْعَالِ كَالتَّـ ـعْطِيلِ لِلأَوْصَافِ بِالمِيزَانِ

تعطيلُ الأشاعرةِ لصفاتِ الأفعالِ كتعطيلِ المعتزلةِ للأوصافِ مطلقًا، هؤلاء مُعَطِّلَةُ الأفعالِ، والمعتزلةُ مُعَطِّلَةُ الأوصافِ، فإنَّ مذهبَ المعتزلةِ إثباتُ الأسماءِ دون الصِّفاتِ، ومعلومٌ أنَّ مذهبَهم باطلٌ أيضًا، يقولون: إنَّ اللهَ سميعٌ ولا سمع، بصيرٌ ولا بصر، عليمٌ ولا علم، حيٌّ ولا حياة، وهلمَّ جرًّا، يُنكرون أن يكونَ لله صفةٌ إمَّا؛ لأنَّ الصِّفةَ لا تقومُ إلَّا بجسمٍ والأجسامُ متماثلةٌ، وإمَّا؛ لأنَّنا لو أَثْبَتْنَا صفةً قديمةً لَزِمَ تعدُّدُ القدماءِ، وهذا مستحيلٌ على زعمِهم.

قَوْلُهُ: «كَالتَّعْطِيلِ للأَوْصَافِ بِالمِيزَانِ»؛ يعني: سواءً بسواءٍ.

* * *

٣٣٩٣- فَالحَقُّ أَنَّ الوَصْفَ لَيْسَ بِمَوْرِدِ التَّـ ـقْسِيمِ هَذَا مُقْتَضَى البُرْهَانِ

٣٣٩٤- بَلْ مَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مَا قَدْ قَامَ بِالذْ ذَاتِ الَّتِي لِلوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

٣٣٩٥- فَهُمَا إِذَنْ نَوْعَانِ أَوْصَافٌ وَأَفْـ ـعَالٌ فَهَذِي قِسْمَةُ التِّبْيَانِ

٣٣٩٦- فَالوَصْفُ بِالأَفْعَالِ يَسْتَدْعِي قِيَا ... مَ الفِعْلِ بِالمَوْصُوفِ بِالبُرْهَانِ

٣٣٩٧- كَالوَصْفِ بِالمَعْنَى سِوَى الأَفْعَالِ مَا ... إِنْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ

٣٣٩٨- وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّهُمْ رَدُّوا عَلَى ... مَنْ أَثْبَتَ الأَسْمَاءَ دُونَ مَعَانِي

٣٣٩٩- قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ هَذَا مُحَا ... لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ

٣٤٠٠- وَأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ بِاسْمِ الفِعْلِ قَا ... لُوا لَمْ تَقُمْ بِالوَاحِدِ الدَّيَّانِ

٣٤٠١- فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ أَبْطَلُوا الأَصْلَ الَّذِي ... رَدُّوا بِهِ أَقْوَالَهُمْ بِوِزَانِ

٣٤٠٢- إِنْ كَانَ هَذَا مُمْكِنًا فَكَذَاكَ قَوْ ... لُ خُصُومِكُمْ أَيْضًا فَذُو إِمْكَانِ

٣٤٠٣- وَالوَصْفُ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ كَوْ ... نِيٌّ وَدِينِيٌّ هُمَا نَوْعَانِ

٣٤٠٤- وَكِلاهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ وَنِسْـ ... ـبِيٌّ وَلا يَخْفَى عَلَى الأَذْهَانِ

٣٤٠٥- وَاللهُ قَدَّرَ ذَاكَ أَجْمَعَهُ بِإِحْـ ... ـكَامٍ وَإِتْقَانٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٣٣٩٣- فَالحَقُّ أَنَّ الوَصْفَ لَيْسَ بِمَوْرِدِ التْـ ... ـتَقْسِيمِ هَذَا مُقْتَضَى البُرْهَانِ

٣٣٩٤- بَلْ مَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مَا قَدْ قَامَ بِالذْ ... ذَاتِ الَّتِي لِلوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

٣٣٩٥- فَهُمَا إِذَنْ نَوْعَانِ أَوْصَافٌ وَأَفْـ ... ـعَالٌ فَهَذِي قِسْمَةُ التِّبْيَانِ

يقولُ: ليس موردُ التَّقسيمِ ما ذَهَبَ إليه هذا المعطِّلُ للأفعالِ حيث يقولُ: إنَّ اللهَ موصوفٌ بأفعالٍ لكنَّها لا تتعلَّقُ بذاتِه، وموصوفٌ بصفاتٍ معنويَّةٍ تتعلَّقُ

بذاتِه، هذا ليس بصحيحٍ، بل موردُ التَّقسيمِ ما قاله المؤلِّفُ رحمه الله: إِنَّ الأفعالَ نوعان: قَائِمٌ بذاتِ الله، وقَائِمٌ بغيرِها؛ يعني: مُتعدِّيًا إلى الغيرِ، ولازمًا، فالاستواءُ على العرشِ لا يتعدَّى إلى الغيرِ، النُّزولُ إلى السَّماءِ الدُّنيا لا يتعدَّى إلى الغيرِ، الخَلْقُ يتعدَّى للغيرِ، فَخَلْقٌ لا بُدَّ فيه من مخلوقٍ، والنُّزولُ لا بُدَّ فيه من نازلٍ فقط.

فهم أنكروا ذلك وحرَّفوه، ولكنَّهم لم يتفطَّنوا لكلامِ الشَّيخِ -رحمه الله- أنَّ هناك فرقًا بين قيامِ هذه الأشياءِ بالمخلوقِ، وقيامِها بالخالقِ، فقيامُها بالخالقِ نوعٌ من أنواعِ فعلِه، فاستواءُ الله على العرشِ نوعٌ من أنواعِ فعلِه، لكن المخلوقُ الذي قَامَتْ به هو الحادثُ، فهناك فرقٌ بين إضافتِها إلى الله وإضافتِها إلى المخلوقِ.

إِذَنْ يقولُ ابنُ القيِّمِ: ليس موردُ التَّقسيمِ أنَّ هذا وصفٌ وهذا فعلٌ، والوصفُ ثابتٌ، والفعلُ غيرُ ثابتٍ، بل موردُ التَّقسيمِ أنَّ الأفعالَ نوعان هما: لازمٌ وهو مالا يتجاوزُ الذَّاتَ، ومتعدٍّ وهو ما يتجاوزُها إلى غيرِها.

٣٣٩٦- فَالوَصْفُ بِالأَفْعَالِ يَسْتَدْعِي قِيَا مَ الفِعْلِ بِالمَوْصُوفِ بِالبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «**فَالوَصْفُ بِالأَفْعَالِ يَسْتَدْعِي قِيَامَ الفِعْلِ بِالمَوْصُوفِ**» مَنْ هو الموصوفُ؟ الفاعلُ، فـ«**الوَصْفُ بِالأَفْعَالِ**»؛ يعني: إذا وُصِفَ موصوفٌ بفعلٍ فإِنَّه يستدعي قيامَ الفعلِ به؛ أي: بالموصوفِ.

وهذا صحيحٌ، إذا قيل: فلانٌ فاعلٌ، ولنُمَثِّل بـ«**ضارب**»، «**زيدٌ ضاربٌ عَمْرًا**» هنا «**ضَارِبٌ**» مشتقٌّ من الضَّربِ، وهذا يستدعِي أنَّ زيدًا موصوفٌ بالضَّربِ باعتبارِ صدورِه منه، و«**عَمْرًا**» موصوفٌ به باعتبارِ وقوعِه عليه، هم يُنكرون المعنى الأوَّل، يقولون: إنَّ اللهَ لا يقومُ به وصفٌ باعتبارِه صادرًا منه، وإِنَّما يقومُ به الوصفُ باعتبارِه واقعًا على غيرِه؛ ولهذا قالوا: فعلُ الله هو عينُ مفعولِه، وليس

هناك فعلٌ صادرٌ من الله، بل هناك مفعولٌ صادرٌ منه، فابنُ القيِّم يَرُدُّ عليهم فيقول: كيف يمكنُ أن يكونَ فعلٌ بدونِ فاعلٍ؟!

٣٣٩٧- كَالوَصْفِ بِالمَعْنَى سِوَى الأَفْعَالِ مَا إنْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «**كَالوَصْفِ بِالمَعْنَى سِوَى الأَفْعَالِ**»؛ يعني: كالوصف بالمعنى الذي ليس بفعلٍ، مثل: الحياة والعلم والقدرة.

٣٣٩٨- وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّهُمْ رَدُّوا عَلَى مَنْ أَثْبَتَ الأَسْمَاءَ دُونَ مَعَانِي

قَوْلُهُ: «**ومن العجائب أنهم**» يعني: الذين عَطَّلُوا صفاتِ الأفعالِ، وقالوا: إنَّ الفعلَ هو عينُ المفعولِ، وإضافتُه إلى الله عزَّ وجلَّ نسبيَّةٌ وليست حقيقيَّةً، هؤلاء رَدُّوا على مَنْ أَثْبَتَ الأسماءَ دون معانٍ وهم المعتزلة الذين أثبتوا لله الأسماءَ دون المعاني، فقالوا: إنَّ اللهَ سميعٌ بلا سمعٍ، وبصيرٌ بلا بصرٍ، وقالوا: إنَّ هذه الأسماءَ أسماءٌ جامدةٌ كـ«**حجرٍ، وبقرٍ، وجملٍ، وشاةٍ**»، وما أشبهها، لا تدلُّ على معنىً، فيقولُ المؤلِّفُ رحمه اللهُ:

٣٣٩٩- قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ هَذَا مُحَا لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «**قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ**»؛ يعني: دونَ معانٍ قامت بِمَنْ هي وصفُه، فقوله: «**قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ**» الجملةُ صفةٌ لقولِه: «**مَعَانِي**»؛ أي: دون معانٍ قَامَتْ بمَنْ هي وصفُه.

قَوْلُهُ: «**هَذَا مُحَالٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ**» مَنْ الذين يقولون: هذا محالٌ؟ الجواب: الأشاعرةُ، يقولون: محالٌ أن تكونَ الأسماءُ دون معانٍ قامتْ بمَنْ هي وصفُه، هذا محالٌ غيرُ معقولٍ لذي الأذهانِ.

٣٤٠٠- وَأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ بِاسْمِ الفِعْلِ قَا لُوا لَمْ تَقُمْ بِالوَاحِدِ الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «وَأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ» من هؤلاء؟ هؤلاء الأشاعرةُ قالوا: إنَّ صفاتِ الفعلِ لم تَقُمْ بالله، فهو خالقٌ لكن بدون خلقٍ، والمرادُ بالخَلْقِ نفسُ المخلوقِ كما سبق أنَّهم يَرَوْنَ أنَّ الفعلَ عينُ المفعولِ.

قَوْلُهُ: «وَأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ بِاسْمِ الفِعْلِ» يريدُ بذلك الصِّفاتِ الفعليَّةَ.

قَوْلُهُ: «قَالُوا» الضَّميرُ يعودُ على الأشاعرةِ.

٣٤٠١- فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ أَبْطَلُوا الأَصْلَ الَّذِي رَدُّوا بِهِ أَقْوَالَهُمْ بِوَزَانِ

هم قالوا للمعتزلةِ: لا يمكنُ أن تُوجَدَ أسماءٌ بدونِ مَعانٍ قَامَتْ بمَنْ هي وصفُه، ثُمَّ قالوا: يمكنُ أن تُوجَدَ أفعالٌ لم تَقُمْ بِمَنْ هي وصفُه فيكون الفعلُ عينَ المفعولِ.

٣٤٠٢- إِنْ كَانَ هَذَا مُمْكِنًا فَكَذَاكَ قَوْ لُ خُصُومِكُمْ أَيْضًا فَذُو إِمْكَانِ

يعني: إِنْ كان ما قلتم من أنَّه موصوفٌ بصفاتِ أفعالٍ غيرِ قائمةٍ به فقولُ خصومِكم أنَّه مُتَّصِفٌ بأوصافٍ لم تَقُمْ به هو أيضًا ذو إمكانٍ.

إِذَنْ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- قال لهم: كيف تُنكرون على هؤلاء وتقولون: لا يمكنُ أن تقومَ الصِّفةُ إلَّا بموصوفٍ، وأنتم تقولون: إنَّ الفعلَ لا يقومُ بالله، فأنتم -الآن- رددتم عليهم على أصلٍ هو في الحقيقةِ رَدٌّ عليهم، فلا فرقَ؛ ولهذا أَطَالَ المؤلِّفُ في هذا؛ لأنَّه جديرٌ بالإطالةِ؛ إذ أنَّ إنكارَ قيامِ الأفعالِ بالله عزَّ وجلَّ تعطيلٌ محضٌ، ولا فرقَ بينه وبين إنكارِ قيامِ الصِّفاتِ به؛ لأنَّ الأصلَ واحدٌ، فإمَّا أن يُثْبَتَ الجميعُ، وإمَّا أن يُنْكَرَ الجميعُ.

انتهى المؤلِّفُ -رحمه الله- من الكلامِ على مناقشةِ مذهبِ المعتزلةِ ومذهبِ الأشاعرةِ، ثُمَّ رجع إلى معنى المُقَدِّم والمُؤَخِّر، فقال:

٣٤٠٣- وَالوَصْفُ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ كَوْ نِيٌّ وَدِينِيٌّ هُمَا نَوْعَانِ

التَّقديمُ يكون كونيًّا مثل: سَبْقِ اللَّيلِ النَّهارَ، وسبقِ الحوادثِ بعضها لبعضٍ، ويكون دِينيًّا «شرعيًّا» مثل: تقديمِ العلماءِ وأهلِ الإيمانِ على مَنْ سواهم، تقديمِ المهاجرين على الأنصارِ، وهكذا.

فإذَن المُقَدِّمُ والمُؤَخِّرُ متعلِّقٌ بالأمورِ الكونيَّةِ وبالأمورِ الشَّرعيَّةِ الدِّينيَّةِ.

٣٤٠٤- وَكِلاهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ وَنِسْـ ـبِيٌّ وَلا يَخْفَى عَلَى الأَذْهَانِ

٣٤٠٥- وَاللهُ قَدَّرَ ذَاكَ أَجْمَعَهُ بِإِحْـ ـكَامٍ وَإِتْقَانٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «كِلَاهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ»؛ يعني: أنَّ بعضَ الشَّيءِ مُقَدَّمٌ على بعضٍ.

قَوْلُهُ: «وَنِسْبِيٌّ» بمعنى: أنَّ المؤخَّرَ عن شيءٍ قد يكونُ سابقًا على غيرِه مثل: واحد، اثنين، ثلاثة؛ فاثنان مُؤَخَّرٌ عن الواحِدِ، ولكنَّه مُقَدَّمٌ على الثَّلاثةِ، هذا معنى قوله: «حَقِيقِيٌّ وِنسْبِيٌّ»، وحقيقيٌّ ونسبِيٌّ؛ وذلك؛ لأنَّ الأحداثَ تتوالى وتَتْرَى، فكُلُّ شيءٍ يحدثُ يكون قبلَه شيءٌ وبعدَه شيءٌ.

وخُلاصةُ هذا الفصلِ: الكلامُ على المُقَدِّم والمُؤَخِّر، وأنَّهما اسمان متقابلان.

* * *

فصل

٣٤٠٦- هَـذَا وَمِـنْ أَسْـمَائِهِ مَـا لَـيْسَ يُفْــ ـــرَدُ بَـلْ يُقَـالُ إِذَا أَتَـى بِقِـرَانِ

٣٤٠٧- وَهِـيَ الَّتِـي تُـدْعَى بِمُزْدَوَجَاتِهَـا إِفْرَادُهَــا خَطَــرٌ عَــلَى الإِنْسَــانِ

٣٤٠٨- إِذْ ذَاكَ مُوهِمُ نَوْعِ نَقْصٍ جَلَّ رَبْـ ـبُ العَرْشِ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانِ

٣٤٠٩- كَالْمَانِعِ المُعْطِي وَكَالضَّـارِ الَّـذِي هُــوَ نَــافِعٌ وَكَمَالُــهُ الأَمْــرَانِ

٣٤١٠- وَنَظِيرُ هَذَا القَابِضُ المَقْرُونُ بِاسْــ ـــمِ البَاسِـطِ اللَّفْظَـانِ مُقْتَرِنَـانِ

٣٤١١- وَكَـذَا المُعِـزُّ مَـعَ المُـذِلِّ وَخَـافِضٍ مَـعَ رَافِـعٍ لَفْظَـانِ مُزْدَوِجَـانِ

٣٤١٢- وَحَدِيثُ إِفْرَادِ اسْـمِ مُنْتَقِمٍ فَمَـوْ قُـوفٌ كَـمَا قَـدْ قَـالَ ذُو العِرْفَـانِ

٣٤١٣- مَـا جَـاءَ فِي القُـرْآنِ غَـيْرَ مُقَيَّـدٍ بِـالمُجْرِمِينَ وَجَـا بِــ«ذُو» نَوْعَـانِ

الشــرحُ

هذه من الأسماءِ المُزْدَوجَةِ التي يقترنُ بعضُها ببعضٍ كما قال ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ: هناك أسماءٌ لا بُدَّ أن تقولَها جميعًا، فإن أفردتَها أَوْهَمَتْ معنًى ناقصًا.

٣٤٠٦- هَـذَا وَمِـنْ أَسْـمَائِهِ مَـا لَـيْسَ يُفْــ ـــرَدُ بَـلْ يُقَـالُ إِذَا أَتَـى بِقِـرَانِ

أي: بمقارنةٍ للاسمِ الآخَرِ.

٣٤٠٧- وَهِيَ الَّتِي تُدْعَى بِمُزْدَوَجَاتِهَا إِفْرَادُهَا خَطَرٌ عَلَى الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَهْيَ الَّتِي تُدْعَى بِمُزْدَوَجَاتِهَا» مُزْدَوِجَة؛ يعني: أَنَّ بعضَها مع بعضٍ.

قَوْلُهُ: «إِفْرَادُهَا خَطَرٌ عَلَى الإِنْسَانِ»، والسَّببُ في ذلك ما قاله:

٣٤٠٨- إِذْ ذَاكَ مُوهِمُ نَوْعِ نَقْصٍ جَلَّ رَبْ بُ العَرْشِ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ ذَاكَ مُوْهِمُ نَوْعِ نَقْصٍ» لو أَفْرَدْتَهَا لكان يُوهِمُ النَّقصَ في الله عزَّ وجلَّ.

٣٤٠٩- كَالمَانِعِ المُعْطِي وَكَالضَّارِ الَّذِي هُوَ نَافِعٌ وَكَمَالُهُ الأَمْرَانِ

قَوْلُهُ: «كَالمَانِعِ المُعْطِي» فلو قلتَ: إِنَّ اللهَ مانعٌ ولم تقيِّدْه، فلم تقل: إِنَّ اللهَ مانعٌ كذا، فهذا يُوهِمُ النَّقصَ أَنَّ من أسمائِه المانعَ؛ يعني: وليس يُعْطِي بل يمنعُ دائمًا؛ لأَنَّ المنعَ بخلٌ وشحٌّ، واللهُ عزَّ وجلَّ مُنَزَّهٌ عن ذلك، فإذا قَرَنْتَ المانعَ بالمُعْطِي حَصَلَ من الجمع بينهما معنىً غير الحاصلِ بإفرادِ كُلٍّ منهما، وهو تمامُ التَّصرُّفِ، أَنَّه لكمالِ تصرُّفِهِ وسلطانِه كان مانعًا معطيًا.

لكن قولُ المؤلِّفِ رحمه الله فيما سبق: «إِفْرَادُهَا خَطَرٌ» ليس على إطلاقه، مرادُه: إفرادُ ما يقتضي النَّقصَ منها، فمثلًا «المُعْطِي» لو أفردناه يجوزُ؛ لأَنَّ «المُعْطِي» وحدَه لا يُوهِمُ نقصًا، الذي يُوهِمُ هو أن تُفْرِدَ المانعَ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ مُعْطٍ»[1]، فإفرادُ ما يقتضي النَّقصَ فقط خطرٌ، وحينئذٍ نقولُ: هذه إِمَّا أن تُقَالَ جميعًا، وإِمَّا أن يُفْرَدَ منها ما يدلُّ على الكمالِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

قَوْلُهُ: «**وَكَالضَّارِ الَّذِي هُوَ نَافِعٌ**»؛ يعني: لا بُدَّ أن تقولَ: «**الضَّارُّ النَّافعُ**»، إذا قلت: «**الضَّارُّ**» فقل: «**النَّافِع**»؛ لأنَّك لو قلت: «**اللهُ هو الضَّارُّ**» فهذا فيه نقصٌ أنَّه لا يتَّصفُ عزَّ وجلَّ بالنَّافعِ، وهو أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ موصوفٌ بالضَّررِ على الإطلاقِ، ولكن إذا قلتَ: «**الضَّار النَّافع**» صار معنى ذلك أنَّه الكاملُ التَّصرُّفِ والسُّلطانِ، فهو يضرُّ وينفعُ، فلا بُدَّ أن تقولَ: «**الضَّارُّ النافعُ**»، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧].

قَوْلُهُ: «**وَكَمَالُهُ الأَمْرَانِ**»؛ أي: كمالُ الله عزَّ وجلَّ بالأمرين جميعًا، وكذلك بأحدِهما وهو ما دلَّ على الكمالِ وهو «**النَّافِعُ**» ؛ لأنَّ العِلَّةَ منتفيةٌ.

٣٤١٠- وَنَظِيرُ هَذَا القَابِضُ المَقْرُونُ بِاسْـ ـمِ البَاسِطِ اللَّفْظَانِ مُقْتَرِنَانِ

قَوْلُهُ: «**القَابِضُ البَاسِطُ**»، لا تقل: إنَّ اللهَ قابضٌ؛ لأنَّ القبضَ نقصٌ، بل قل: «**القابض الباسط**»؛ حتَّى يكونَ اجتماعُهما دالًا على كمالِ تصرُّفِه عزَّ وجلَّ، لكن لو قلتَ: «**الباسط**» وحدَه فالظَّاهرُ الجوازُ، وذلك؛ لأنَّه كمالٌ.

٣٤١١- وَكَذَا المُعِزُّ مَعَ المُذِلِّ وَخَافِضٍ مَعَ رَافِعٍ لَفْظَانِ مُزْدَوِجَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَا المُعِزُّ مَعَ المُذِلِّ**»؛ يعني: لا تقل: «**المُذِلُّ**» وحدَه، بل قل: «**المُعِزُّ المُذِلُّ**» حتَّى يُفيدَا كمالَ سلطانِ الله تعالى وتصرُّفِه في عبادِه إلَّا إذا قَيَّدْتَه بشيءٍ مثل أن تقولَ: «**المُذِلُّ لأعدائِه**»، لكن لو قلت: «**المُعِزُّ**» فالظَّاهرُ أنَّه لا مانعَ؛ لأنَّه لا يُوهِمُ نقصًا.

قَوْلُهُ: «**وَخَافِضٌ مَعَ رَافِعٍ**» «**الخافضُ الرَّافعُ**»، لا تقل: «**الخافضُ**» فقط؛ لأنَّ

هذا يُوهِمُ نقصًا، بل اجمعْ بينها وبين «الرَّافع»، أو أَطْلِق «الرَّافع» وحدَه، لأنَّ هذا كمالٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

٣٤١٢- وَحَدِيثُ إِفْرَادِ اسْمِ مُنْتَقِمٍ فَمَوْ قُوفٌ كَمَا قَدْ قَالَ ذُو العِرْفَانِ

مَنْ عَدُّوا أسماءَ الله عَدُّوا «المنتقم»، لكن لا يصحُّ، و«المنتقِمُ» لم تأتِ مفردةً إلَّا في حديثٍ موقوفٍ على الصَّحابيِّ[1]، والموقوفُ ليس بحجَّةٍ، لكن لو قلتَ: «العفوُّ المنتقمُ» صار من الأسماءِ المُزْدَوَجَةِ؛ لأنَّ العفوَ يُقَابِلُ الانتقامَ.

لكن ما الذي جاء في القرآنِ؟ قال المؤلِّف رحمه الله:

٣٤١٣- مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِالمُجْرِمِينَ وَجَا بِـ«ذُو» نَوْعَانِ

قَوْلُهُ: «مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِالمُجْرِمِينَ»؛ يعني: جاء في القرآنِ مُقَيَّدًا بالمجرمين، قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السَّجدة:٢٢] فَقَيَّدَ، والمُقَيَّدُ ليس كالمطلَقِ؛ لأنَّ المطلقَ يفيدُ اتِّصافَ الله بالصِّفةِ على الإطلاقِ بخلافِ المقيَّدِ.

قَوْلُهُ: «وَجَا بِـ«ذُو» نَوْعَانِ»؛ يعني: أنَّهما نوعان: نوعٌ مُقَيَّدٌ بالمجرمين، ونوعٌ جاء بـ«ذو» في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (٣٥٠٧)، وقال: هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كبير شيء من الروايات ذِكر الأسماء إلا في هذا الحديث، وقد روى آدم بن أبي إياس، هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء، وليس له إسناد صحيح.

وَقَوْلُهُ: «**وَجَا بِـ«ذُو» نَوْعَانِ**» كيف رَفَعَ «**نَوْعَانِ**» و «**ذُو**» مُضافةٌ إليها؟ نقولُ: ما أُضِيفَتْ؛ و«**نَوْعَانِ**»: خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: «**هُمَا نَوْعَانِ**» إِمَّا مُقَيَّدٌ وإِمَّا بِـ«**ذُو**»؛ لأنَّ معنى كلامِهِ: «**وَجَاءَ بِذُو**»؛ يعني: هذا الوصفُ جَاءَ بـ«**ذُو**»؛ أي: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤].

* * *

فصل

٣٤١٤- وَدَلالَـةُ الأَسْـمَاءِ أَنْـوَاعٌ ثَـلا ... ثٌ كُلُّهَـا مَعْلُومَـةٌ بِبَيَـانِ

٣٤١٥- دَلَّـتْ مُطَابَقَـةً كَـذَاكَ تَضَـمُّنًا ... وَكَـذَا التِزَامًـا وَاضِـحَ البُرْهَـانِ

٣٤١٦- أَمَّـا مُطَابَقَـةُ الدَّلالَـةِ فَهْـيَ أَنْ ... نَ الإِسْـمَ يُفْهَـمُ مِنْـهُ مَفْهُومَـانِ

٣٤١٧- ذَاتُ الإِلَهِ وَذَلِكَ الوَصْـفُ الَّـذِي ... يُشْـتَقُّ مِنْـهُ الإِسْـمُ بِـالمِيزَانِ

٣٤١٨- لَكِـنْ دَلالَتُـهُ عَـلَى إِحْـدَاهُمَا ... بِتَضَـمُّنٍ فَافْهَمْـهُ فَهْـمَ بَيَـانِ

٣٤١٩- وَكَـذَا دَلالَتُـهُ عَـلَى الصِّـفَةِ الَّتِـي ... مَـا اشْـتُقَّ مِنْهَـا فَـالتِزَامٌ دَانِي

٣٤٢٠- وَإِذَا أَرَدْتَ لِـذَا مِثَـالًا بَيِّنًـا ... فَمِثَـالُ ذَلِـكَ لَفْظَـةُ الـرَّحْمَنِ

٣٤٢١- ذَاتُ الإِلَـهِ وَرَحْمَـةٌ مَدْلُولُـهَا ... فَهُـمَا لِـهَذَا اللَّفْـظِ مَـدْلُولانِ

٣٤٢٢- إِحْدَاهُمَا بَعْضٌ لِذَا المَوْضُوعِ فَهْـ ... ـيَ تَضَـمُّنٌ ذَا وَاضِـحُ التِّبْيَـانِ

٣٤٢٣- لَكِنَّ وَصْفَ الحَيِّ لازِمُ ذَلِـكَ الـ ... ـمَعْنَى لُـزُومَ العِلْـمِ لِلـرَّحْمَنِ

٣٤٢٤- فَلِـذَا دَلالَتُـهُ عَلَيْـهِ بِـالتِزَا ... مٍ بَـيِّنٍ وَالحَـقُّ ذُو تِبْيَـانِ

الشرحُ

٣٤١٤- وَدَلالَـةُ الأَسْـمَاءِ أَنْـوَاعٌ ثَـلا ... ثٌ كُلُّهَـا مَعْلُومَـةٌ بِبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «دَلَالَةُ الأَسْمَاءِ» يريدُ بذلك أسماءَ الله، ولكنَّ هذا الحُكْمَ ثابتٌ في جميعِ

دلالاتِ الكلماتِ والألفاظِ، أنواعُها ثلاثةٌ.

٣٤١٥- دَلَّـتْ مُطَابَقَـةً كَـذَاكَ تَضَـمُّنًا وَكَـذَا التِزَامًـا وَاضِـحَ البُرْهَـانِ

يعني: أنَّ الدَّلالاتِ ثلاثةٌ: دلالةُ مُطَابَقَةٍ، ودلالةُ تضمُّنٍ، ودلالةُ التزامٍ.

فدلالةُ المُطَابَقَةِ: هي دلالةُ الاسمِ على جميعِ معناه، فتدلُّ على الذَّاتِ والوصفِ الذي اشْتُقَّ منه هذا الاسمُ.

والتَّضمُّن: دلالةُ الاسمِ على بعضِ معناه؛ بأن يَدُلَّ على الذَّاتِ وحدَها أو على الصِّفةِ وحدَها.

والالتزامُ: دلالتُه على أمرٍ خارجٍ لازمٍ لا يدلُّ عليه اللَّفظُ من حيث الاشتقاقُ، لكنَّه لازمٌ للمعنى.

٣٤١٦- أَمَّـا مُطَابَقَـةُ الدَّلالَـةِ فَهْـيَ أَنْ نَ الإِسْـمَ يُفْهَـمُ مِنْـهُ مَفْهُومَـانِ

٣٤١٧- ذَاتُ الإِلَهِ وَذَلِكَ الوَصْفُ الَّـذِي يُشْـتَقُّ مِنْـهُ الإِسْـمُ بِـالمِيزَانِ

قَوْلُهُ: «الإِسْمَ»؛ أي: الاسم من أسماءِ الله.

أفاد المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- أنَّ أسماءَ الله مشتقَّةٌ لقولِه: «**الَّذِي يُشْتَقُّ مِنْهُ الإِسْمُ بِالمِيزَانِ**» وهو كذلك، فإنَّ أسماءَ الله تعالى مشتقَّةٌ من مَعانٍ يتضمَّنُها الاسمُ، ولا يُسْتَثْنَى من ذلك شيءٌ، خِلافًا لِـمَنْ قَالَ من أهلِ العلمِ: إنَّ لفظَ «الله» غيرُ مشتقٍّ، بل هو مشتقٌّ وأمُّ المشتقَّاتِ في الحقيقةِ، مشتقٌّ من الألوهيَّةِ.

إِذَنْ دلالةُ الاسمِ على الذَّاتِ والوصفِ جميعًا يُسمَّى دلالةَ مطابقةٍ.

٣٤١٨- لَكِــنْ دَلالَتُــهُ عَــلَى إِحْــدَاهُمَا بِتَضَــمُّنٍ فَافْهَمْــهُ فَهْــمَ بَيَــانِ

قَوْلُهُ: «عَلَى إِحْدَاهُمَا»؛ أي: الذَّاتِ أو الوصفِ؛ يعني: دلالة على الذَّاتِ وحدَها بقطعِ النَّظرِ عن الوصفِ، أو على الوصفِ وحدَه بقطعِ النَّظرِ على الذَّاتِ، هذا يُسَمَّى دلالةَ تضمُّنٍ.

وجهُ التَّسميةِ «**مطابقةً**» هو أنَّ اللَّفظَ طَابَقَ معناه تمامًا، ووجهُ الثَّاني: «**تضمُّنًا**» أنَّ اللفظَ متضمِّنٌ لهذا المعنى وزائدٍ عليه.

٣٤١٩- وَكَــذَا دَلالَتُــهُ عَــلَى الصِّــفَةِ الَّتِــي مَــا اشْــتُقَّ مِنْهَــا فَــالتِزَامٌ دَانِي

دلالتُه على الصِّفةِ التي لم يُشْتَقَّ منها هذا دلالةُ التزامٍ.

وَقَوْلُهُ: «دَانِي»؛ يعني: أنَّ الالتزامَ يكونُ قريبًا، ويكونُ بعيدًا، ويكونُ وسَطًا، والمؤلِّفُ يرى أنَّ الدَّلالةَ المؤكَّدةَ المتيقَّنةَ هي الالتزامُ الدَّاني القريبُ، أمَّا البعيدُ الذي لا يُفْهَمُ من اللَّفظِ إلَّا بكلفةٍ فهذا قد يُنَازَعُ في دلالةِ اللَّفظِ عليه.

المهمُّ: أنَّ دلالةَ الالتزامِ هي أن يدلَّ اللَّفظُ على صفةٍ لم يُشْتَقَّ منها، ولكنَّها لازمةٌ للمعنى المشتقِّ منه، ولهذا سمَّيناها دلالةَ التزامٍ.

٣٤٢٠- وَإِذَا أَرَدْتَ لِــذَا مِثَــالًا بَيِّنًــا فَمِثَــالُ ذَلِــكَ لَفْظَــةُ الــرَّحْمَنِ

يعني: إذا أردتَ أن تضربَ مَثَلًا فمثالُ ذلك لفظةُ: «**الرَّحمن**».

٣٤٢١- ذَاتُ الإِلَــهِ وَرَحْمَــةٌ مَدْلُولُــهَا فَهُــمَا لِــهَذَا اللَّفْــظِ مَــدْلُولانِ

لفظةُ «**الرَّحمنُ**» دَلَّت على ذاتٍ وهو «**الله**»، وعلى صفةٍ وهي «**الرَّحمة**»، دلالتُها عليهما جميعًا مطابقةٌ، وعلى «**الرَّحمةِ**» وحدَها تضمُّنٌ، وعلى الذَّاتِ وحدَها وهو اللهُ عزَّ وجلَّ تضمُّنٌ.

٣٤٢٢- إِحْدَاهُمَا بَعْضٌ لِذَا المَوْضُوعِ فَهْـ ـيَ تَضَمُّنٌ ذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

إحدى الدَّلالتين بعضٌ لهذا المدلولِ، ودلالةُ البعضِ تُسَمَّى دلالةَ تضمُّنٍ.

٣٤٢٣- لَكِنَّ وَصْفَ الحَيِّ لازِمُ ذَلِكَ الـ ـمَعْنَى لُزُومَ العِلْمِ لِلرَّحْمَنِ

٣٤٢٤- فَلِذَا دَلالَتُهُ عَلَيْهِ بِالتِزَا مٍ بَيِّنٍ وَالحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

«**الرَّحمنُ**» لا بُدَّ أن يكونَ حيًّا، فكونُه رحمانًا يستلزمُ أن يكونَ حيًّا؛ لأنَّ الميِّتَ لا يرحمُ، فلا توجدُ صفةُ رحمةٍ، إِذَنْ إذا قلت: «**الرَّحمن**» دَلَّت على ذاتٍ موصوفةٍ بالرَّحمةِ، وعلى رحمةٍ اتَّصفت بها تلك الذَّاتُ، وعلى حياةِ تلك الذَّاتِ.

دلالتُها على الذَّاتِ وحدَها تضمُّنٌ، وعلى الرَّحمةِ وحدَها تضمُّنٌ، وعليهما مطابقةٌ، وعلى الحياةِ بالالتزامِ، فمن لازمِ الرَّحيمِ أن يكونَ حيًّا.

أيضًا «**العلمُ**» من لازمِ الرَّحمةِ، فلا يمكنُ رحمةٌ بلا علم؛ إذ إنَّ الرَّحمةَ إيصالُ الرَّحمةِ إلى المرحومِ، وهذا لا بُدَّ أن يكونَ عن علمٍ، ودلالةُ «**الرَّحمن**» على العلمِ والحياةِ دلالةُ التزامٍ.

وأيضًا «**الخلَّاق**» دَالٌّ على ذاتِ الله وعلى الخلقِ بالمطابقةِ، وعلى أحدِهما تضمُّنًا، وعلى العلمِ والقُدرةِ دلالةُ التزامٍ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطَّلاق:١٢]؛ يعني: أَعْلَمْنَاكم بأنَّنا خَلَقْنَا السَّماواتِ والأرضَ لتعلموا أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ اللهَ قد أَحَاطَ بكُلِّ شيءٍ علمًا؛ لأنَّه لولا العلمُ ما خَلَقَ، ولولا القدرةُ ما خَلَقَ، إِذَنْ دلالةُ الخلقِ على العلمِ والقدرةِ دلالةُ التزامٍ؛ لأنَّ «عَلِمَ» «وقَدَرَ» لم تُشْتَقَّ من الخلقِ؛ ولهذا دلالةُ الالتزامِ بعيدةٌ عن اشتقاقِ اللَّفظِ الذي دَلَّ عليها.

إذا قلنا: «هذه دارٌ»، كلمة «دار» تدلُّ على البيتِ وما فيه دلالةُ مطابقةٍ؛ يعني: تشملُ ما يسمُّونه بالحوش والغُرَف والحُجَر والصَّالةِ والمَجْلِس، فتدلُّ على الجميعِ دلالةَ مطابقةٍ، وتدلُّ على المجلِس وحدَه بالتَّضمُّنِ، وتدلُّ على بانٍ لها بالالتزامِ؛ لأنَّه لا بُدَّ لهذا البيتِ من بانٍ.

أمَّا دلالةُ المطابقةِ ودلالةُ التَّضمُّنِ فلا أحدَ يعجزُ عنهما، فكُلُّ إنسانٍ يُدْرِكُ أنَّك إذا قلتَ: اللهُ هو السَّميعُ، فالسَّميعُ تدلُّ على ذاتٍ مُتَّصفةٍ بالسَّمعِ، لكن دلالةُ الالتزامِ هي التي يختلفُ فيها العلماءُ كثيرًا؛ لأنَّها مَبْنِيَّةٌ على الفَهْمِ الصَّحيحِ، والنَّاسُ في الأفهامِ يختلفون ويتفاوتون، قد يعرفُ الإنسانُ من هذا الدَّليلِ عدَّةَ مسائلَ من لازمِ الدَّليلِ، ويأتي إنسانٌ آخَرُ بليدٌ لا يفهمُ منها هذه اللَّوازمَ، فاللَّوازمُ يختلفُ النَّاسُ فيها كثيرًا؛ ولهذا رُبَّما نجدُ شخصًا يستنبطُ من دليلٍ واحدٍ مسائلَ متعدِّدةً كثيرةً، وآخرَ لا يستطيعُ أن يستنبطَ إلَّا مسألةً واحدةً أو مسألتَيْنِ، كُلُّ هذا بسببِ الفَهْمِ والالتزامِ الذي يلزمُ من النَّصِّ والذي يتفرَّعُ عليهما.

إِذَنْ أسماءُ الله كُلُّها دالَّةٌ على أمرين ولا بُدَّ، وهما: الذَّاتُ والصِّفةُ التي اشْتُقَّ منها الاسمُ، أمَّا الالتزامُ فقد يكونُ الالتزامُ متعدِّدًا كـ«**الرَّحمن**» -كما قال المؤلِّفُ- دَلَّ على الحياةِ والعلمِ، وقد يكونُ واحدًا، وقد لا يَفْهَمُ منه أحدٌ شيئًا، فالالتزامُ ليس واضحًا لكُلِّ أحدٍ، بل يختلفُ النَّاسُ فيه اختلافًا كثيرًا.

وعند المعتزلةِ الأسماءُ لا تدلُّ إلَّا على الذَّاتِ فقط، فلا تدلُّ على الصِّفاتِ؛ لأنَّهم لا يُقِرُّون بأنَّ اللهَ تعالى موصوفٌ بأيِّ صفةٍ، وعلى هذا فقد منعوا أو كسروا أحدَ جَنَاحَي الدَّلالةِ وهي دلالة التَّضمُّنِ وهي الصِّفة، ولا شكَّ أنَّ المشتقَّ يدلُّ على ذاتٍ وعلى صفةٍ اتَّصفت بها هذه الذَّاتُ واشْتُقَّ منها هذا الاسمُ.

ومن هنا نعرفُ أنَّه ليس في أسماءِ الله ما هو جامدٌ، وهذا مأخوذٌ من قولِه: «**ذَاتُ الإِلَهِ**»، «**وَذَلِكَ الوَصْفُ الَّذِي يُشْتَقُّ مِنْهُ الإِسْمُ**»، كُلُّ اسمٍ من أسماءِ الله فهو متضمِّنٌ للدَّلالةِ على الذَّاتِ وعلى الصِّفةِ ولا بُدَّ، وليس هناك شيءٌ من أسماءِ الله يكونُ جامدًا أبدًا.

وهل دلالةُ الالتزامِ تكونُ في كلامِ المخلوقين؟

الجوابُ: نعم، تكونُ في كلامِ المخلوقين، ولكن هل يُلْزَمُ القائلُ بهذا اللَّازمِ ويُجْعَلُ قولًا له؟ الصَّحيحُ أنَّه لا يكونُ قولًا له، وإن كان لازمَ كلامِه؛ وذلك لأمورٍ:

الأوَّل: أنَّ هذا القائلَ الذي لَزِمَ من قولِهِ كذا وكذا قد لا يلتزمُ بهذا اللَّازمِ.

الثَّاني: وقد يكونُ حين الكلام غائبًا عنه، وقد يلتزمُ بهذا اللَّازمِ ثُمَّ يرجعُ عن قولِه؛ ولهذا لا يُلْزَمُ به الجهميَّةُ وغيرُهم من المعاني الفاسدةِ المترتِّبةِ على أقوالِهم إذا لم يلتزموها، فإنَّنا نقولُ: هي لازمٌ لكم، لكن قد يَلتزمون بها، ثُمَّ يرجعون عن قولِهم، وقد لا يلتزمون بها ويُنكرون أن تكونَ لازمَ قولِهم، ويقولون: نحن نقولُ بكذا ولكن لا نقولُ بهذا اللَّازم.

الثَّالث: أن يكونَ قد ذهل عن هذا اللَّازمِ وغفل عنه حين قال هذا القولَ، ولو أنَّه ذُكِّرَ بهذا اللَّازمِ الفاسدِ لرَجَعَ، وهذا قد سبق، وهو هل لازمُ القولِ قولٌ أو لا؟ فنقول: أمَّا لازمُ قولِ الله ورسولِه فهو قولٌ وحقٌّ؛ ولهذا ما زَالَ العلماءُ يستنبطون من كلامِ الله ورسولِه أحكامًا كثيرةً، كُلُّها تكونُ باللَّازمِ، وأمَّا لازمُ قولِ غيرِهما فليس بقولٍ.

فهو إذا لم يلتزم فلا نُلْزِمُه، لكن إذا لم يلتزمْ واللُّزومُ واضحٌ فإنَّه يكونُ مُكابِرًا، فاللَّازمُ قد يكونُ واضحًا، فمثلًا هؤلاء الذين يقولون: إنَّ اللهَ تعالى ليس

له صفاتٌ، من لازمِ ذلك أن يكونَ موصوفًا بأعظمِ النَّقصِ، الذَّاتُ التي ليس لها صفاتٌ ماذا تكونُ؟! هم قد لا يلتزمون بها، قد يَرَوْنَ أنَّ نفيَ الصِّفاتِ كمالٌ، لكن هل يُطَاعُونَ في هذا؟ الجوابُ: لا يُطَاعُونَ.

إِذَنْ مُرادُ المؤلِّفِ -رحمه الله- بهذا الفصلِ أنَّك إذا أَثْبَتَّ اسمًا من أسماءِ الله فَأَثْبِتْ كُلَّ ما يدلُّ عليه من صفةٍ سواءٌ كان بالتَّضمُّن بأن يكونَ الاسمُ دالًّا على الصِّفةِ التي اشْتُقَّ منها، أو بالالتزامِ؛ لأنَّ دلالةَ الاسمِ على الصِّفةِ وحدَها دلالةُ تضمُّنٍ، فعليه يَتَبَيَّنُ خطأُ مَنْ قالوا: إِنَّ اللهَ تعالى يُسَمَّى بالاسمِ ولكن بدون صفةٍ، ألم تعلموا أنَّ بعضَ النَّاسِ قال: إِنَّ اللهَ سميعٌ بلا سمعٍ، وبصيرٌ بلا بصرٍ، وعليمٌ بلا علمٍ، وهلمَّ جرًّا، إِذَنْ هل نقصوا من دلالةِ اللَّفظِ أو لا؟ الجوابُ: نعم نقصوا ما دَلَّ عليه بالتَّضمُّنِ وهو الصِّفة، ومعلومٌ أنَّهم إذا أنكروا ما دَلَّ عليه الاسمُ بالتَّضمُّن فسيُنكرون ما يدلُّ عليه بالالتزامِ من بابِ أَوْلَى.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ رَبِّ العَالَمِينَ وَذِكْرِ انْقِسَامِ المُلْحِدِينَ

٣٤٢٥- أَسْمَاؤُهُ أَوْصَافُ مَدْحٍ كُلُّهَا ... مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعَانِي

٣٤٢٦- إِيَّاكَ وَالإِلْحَادَ فِيهَا إِنَّهُ ... كُفْرٌ مَعَاذَ اللهِ مِنْ كُفْرَانِ

٣٤٢٧- وَحَقِيقَةُ الإِلْحَادِ فِيهَا المَيْلُ بِالـ ... إِشْرَاكِ وَالتَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

٣٤٢٨- فَالمُلْحِدُونَ إِذَنْ ثَلاثُ طَوَائِفٍ ... فَعَلَيْهِمُ غَضَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

٣٤٢٩- المُشْرِكُونَ لأَنَّهُمْ سَمُّوا بِهَا ... أَوْثَانَهُمْ قَالُوا إِلَهٌ ثَانِي

٣٤٣٠- هُمْ شَبَّهُوا المَخْلُوقَ بِالخَلَّاقِ عَكْـ ... ـسَ مُشَبِّهِ الخَلَّاقِ بِالإِنْسَانِ

٣٤٣١- وَكَذَاكَ أَهْلُ الإِتِّحَادِ فَإِنَّهُمْ ... إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَقْرَبِ الإِخْوَانِ

٣٤٣٢- أَعْطُوا الوُجُودَ جَمِيعَهُ أَسْمَاءَهُ ... إِذْ كَانَ عَيْنَ اللهِ ذِي السُّلْطَانِ

٣٤٣٣- وَالمُشْرِكُونَ أَقَلُّ شِرْكًا مِنْهُمُ ... هُمْ خَصَّصُوا ذَا الإِسْمَ بِالأَوْثَانِ

٣٤٣٤- وَلِذَاكَ كَانُوا أَهْلَ شِرْكٍ عِنْدَهُمْ ... لَوْ عَمَّمُوا مَا كَانَ مِنْ كُفْرَانِ

الشرحُ

الإلحادُ ذَكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في أسماءِ الله وفي آياتِ الله، فقال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]،

وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ [فصلت:٤٠]، وسيلقون في النَّارِ، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت:٤٠].

٣٤٢٥- أَسْمَاؤُهُ أَوْصَافُ مَدْحٍ كُلُّهَا مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعَانِي

أسماءُ الله عزَّ وجلَّ كُلُّها أوصافُ مَدْحٍ، وأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- تَوَعَّدَ المُلْحِدينَ فيها فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وهذا أمرٌ للتَّهديدِ كقولِه: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ [المدثر:١١]، يعني: فَسأَفْتِكُ به، وكذلك: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ يعني: اتركوهم لي فأنا أُعاقِبُهم؛ ولهذا قال: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

٣٤٢٦- إِيَّاكَ وَالإِلْحَادَ فِيهَا إِنَّهُ كُفْرٌ مَعَاذَ الله مِنْ كُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «**إِيَّاكَ وَالإِلْحَادَ**» «**إِيَّاكَ**» يُسمِّيها النَّحويُّون مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ على سبيلِ التَّحذيرِ، وأصلُه: «**أُحَذِّرُكَ**» ولكن حُذِفَ الفعلُ، ولـمَّا حُذِفَ الفعلُ لَزِمَ انفصالُ الضَّميرِ؛ لأنَّ الضَّميرَ المتَّصلَ لا يمكنُ أن يبقى متَّصلًا بدون عاملٍ، فلمَّا انفصل الضَّميرُ بعد حذفِ الفعلِ صار بهذا اللَّفظِ «**إِيَّاكَ**».

وأمَّا «**الواو**» فهي العاطفةُ، لكنَّها تفيدُ معنى المعيَّة؛ يعني: إيَّاك أن تُجامِعَ الإلحادَ.

المؤلِّفُ -رحمه الله- أراد أن يُبيِّنَ الإلحادَ في الأسماءِ وبَيَّنَ أنَّه كفرٌ، لكن هل هو كفرٌ مخرجٌ عن الملَّةِ أو هو كفرٌ دون كفرٍ؟ هذا على حسب نوعِ الإلحادِ؛ فقد يكونُ كفرًا مخرجًا عن الملَّةِ، وقد يكونُ غيرَ مخرجٍ، ثُمَّ استعاذ المؤلِّفُ رَبَّهُ عزَّ وجلَّ من

الكفرانِ؛ ولذا قال: «مَعَاذَ اللهِ مِنْ كُفْرَانِ»، ثُمَّ بَيَّنَ حقيقةَ الإلحادِ في الأسماءِ فقال:

٣٤٢٧- وَحَقِيقَةُ الإِلْحَادِ فِيهَا المَيْلُ بِالْـ ... إِشْرَاكِ وَالتَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

قَوْلُهُ: «الإِلْحَادِ» الإلحادُ: مصدرُ أَلْحَدَ يُلْحِدُ، وهو مأخوذٌ من الميلِ.

فحقيقةُ الإلحادِ هو الميلُ عمَّا يجبُ فيها، هذا الضَّابطُ، وهو مشتقٌّ من لحدِ القبرِ، واللَّحدُ كما نعرفُ جميعًا هو عبارةٌ عن حفرةٍ تكونُ في قبلةِ القبرِ يُوضَعُ فيها الميِّتُ، فهي إِذَنْ غيرُ متوسِّطةٍ، فهي مائلةٌ إلى جانبِ القبرِ القبليِّ، هذا هو أصلُ الإلحادِ، فمن قال: «إِنَّ اللهَ عليمٌ لكن لا علمَ له» فهو مُلْحِدٌ، ومن قال: «إِنَّ اللهَ أبٌ»، وسمَّى اللهَ الأبَ فهو مُلْحِدٌ، فمَنْ سَمَّاه بغيرِ ما سَمَّى به نفسَه فهو مُلْحِدٌ، ومَنْ أنكر اسمًا من أسمائِه فهو مُلْحِدٌ.

قَوْلُهُ: «المَيْلُ بِالإِشْرَاكِ وَالتَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ» هذه ثلاثةُ أشياء: الإشراكُ والتَّعطيلُ والنُّكرانُ، أمَّا الإشراكُ فيها فيكونُ إمَّا بالتَّمثيلِ، أو باستعارةِ أسمائِه للأصنامِ، وما أشبه ذلك، والتَّعطيلُ؛ يعني: أن يُعَطِّلَ ما دلَّت عليه من الصِّفاتِ، والنُّكرانُ؛ يعني: يُنكرُها، ويقولُ: ليس لله أسماءٌ كما هو مذهبُ غلاةِ الغلاةِ من الجهميَّةِ ونحوهِم.

٣٤٢٨- فَالمُلْحِدُونَ إِذَن ثَلاثُ طَوَائِفٍ ... فَعَلَيْهِمُ غَضَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «طَوَائِفٍ» لماذا نوَّنَّاها وصَرَفْنَاها وهي مما يَمْتَنِعُ من الصَّرفِ؟ الجوابُ: لضرورةِ الشِّعرِ، قال ابنُ مالكٍ:

وَلِاضْطِرَارٍ أَوْ تَنَاسُبٍ صُرِفْ ... ذُو المَنْعِ وَالمَصْرُوفُ قَدْ لَا يَنْصَرِفْ[1]

---

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ٣٣٨).

قَوْلُهُ: «فَعَلَيْهِمُ غَضَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ» عليهم غضبٌ؛ لأنَّهم عَلِمُوا الحقَّ ولم يتَّبعوه، وكُلُّ مَنْ عَلِمَ الحقَّ ولم يتَّبعْه فإنَّه من أصحابِ الغضبِ، وكُلُّ مَنْ جَهِلَ الحقَّ فهو من أصحابِ الضَّلالِ.

٣٤٢٩- الـمُشْرِكُونَ لأَنَّهُمْ سُمُّوا بِهَا　　أَوْثَانَهُمْ قَالُوا إِلَهٌ ثَانِي

هؤلاء مُلْحِدُون سَمَّوْا أوثانَهم بأسماءِ الله، كاشتقاقِ اللَّاتِ من «**الإله**»، والعُزَّى من «**العزيز**»، ومناة من «**المَنَّان**»، فهذا إلحادٌ.

٣٤٣٠- هُمْ شَبَّهُوا المَخْلُوقَ بِالخَلَّاقِ عَكْـ　　ـسَ مُشَبِّهِ الخَلَّاقِ بِالإِنْسَانِ

شَبَّهوا المخلوقَ بالخلَّاقِ؛ لأنَّهم شَبَّهوا هذه الأصنامَ بالله عكس مَنْ يُشَبِّهُ الخالقَ بالمخلوقِ، فيقول مثلًا: لله يدٌ كيدي، ووجهٌ كوجهي، وعينٌ كعيني، وما أشبه ذلك.

إِذَنْ هؤلاء مُشَبِّهةٌ لكن اختلف وجهُ التَّشبيهِ، فالمشركون شَبَّهوا المخلوقَ بالخالقِ، وهؤلاء شَبَّهوا الخالقَ بالمخلوقِ.

٣٤٣١- وَكَذَاكَ أَهْلُ الإِتِّحَادِ فَإِنَّهُمْ　　إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَقْرَبِ الإِخْوَانِ

أهلُ الاتِّحادِ الذين يقولون بوحدة الوجودِ؛ أي أنَّ الخالقَ والمخلوقَ شيءٌ واحدٌ هم إخوانُ هؤلاء المشركين.

٣٤٣٢- أَعْطُوا الوُجُودَ جَمِيعَهُ أَسْمَاءَهُ　　إِذْ كَانَ عَيْنَ اللهِ ذِي السُّلْطَانِ

أهلُ الوحدةِ -والعياذُ بالله- جعلوا أسماءَ الله أسماءً للوجودِ كُلِّه لماذا؟ لأنَّ الوجودَ عندهم هو عينُ المُوجِدِ، فالخلقُ عينُ الخالقِ، فإذا كان الخلقُ عينَ الخالقِ كانت أسماءُ الخالقِ أسماءً للخلقِ.

٣٤٣٣- وَالـــمُشْرِكُونَ أَقَـلُّ شِرْكًـا مِـنْهُمُ   هُمْ خَصَّصُوا ذَا الإِسْـمَ بِالأَوْثَـانِ

المشركون إِذَنْ مُلْحِدُون؛ لأنَّهم سَمَّوْا بعضَ المخلوقاتِ بأسماءِ الله، الاتِّحاديُّون أشدُّ شركًا؛ لأنَّهم سَمَّوْا جميعَ الوجودِ بأسماءِ الله؛ ووجهُ ذلك أنَّهم جعلوا المخلوقَ عينَ الخالقِ، فإذا كان المخلوقُ عينَ الخالقِ صارت أسماءُ الخالقِ أسماءً للمخلوقِ.

٣٤٣٤- وَلِذَاكَ كَـانُوا أَهْـلَ شِرْكٍ عِنْـدَهُمْ   لَـوْ عَمَّمُـوا مَـا كَـانَ مِـنْ كُفْـرَانِ

المشركون أهلُ شركٍ عند أهلِ الاتِّحادِ، وأهلُ الاتِّحادِ أهلُ توحيدٍ لماذا؟ قال: إنَّ المشركين أشركوا؛ لأنَّهم خصُّوا الإلهَ بالوثنِ، ففرعونُ كافرٌ؛ لأنَّه خصَّصَ فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾ [النازعات:٢٤]، لو قال: «**الكونُ كُلُّه ربُّكم**» لكان موحِّدًا، المشركون قالوا: «**اللَّاتُ ومناة والعُزَّى آلـهةٌ**»، لو قالوا: «**كُلُّ الموجوداتِ آلـهةٌ**» صاروا موحِّدين ولم يكونوا مشركين.

انظر -والعياذُ بالله- الذي يخصِّصُ الألوهيَّةَ بشخصٍ أو بطائفةٍ أو ما أشبهَ ذلك هذا مشركٌ عند أهلِ الاتِّحادِ، والذي يقولُ: «**كُلُّ الكونِ إلهٌ**» هذا مُوَحِّدٌ.

وهذه والله عقولٌ منكوسةٌ والعياذُ بالله، ولهذا ابنُ عربيٍّ وأمثالُه يقولون: إنَّما كَفَرَ آلُ فرعونَ بتخصيصِهم الإلهَ بفرعون، ولو كانوا عمَّموا لكانوا موحِّدين.

إِذَنْ إلحادُ هذه الطَّائفةِ أنَّهم نقلوا أسماءَ الله إلى المخلوقِ، فسمَّوْه إلهًا، وعبدوه من دون الله.

* * *

٣٤٣٥- وَالمُلْحِدُ الثَّانِي فَذُو التَّعْطِيلِ إِذْ … يَنْفِي حَقَائِقَهَا بِلا بُرْهَانِ

٣٤٣٦- مَا ثَمَّ غَيْرُ الإِسْمِ أَوَّلَهُ بِمَا … يَنْفِي الحَقِيقَةَ نَفْيَ ذِي بُطْلانِ

٣٤٣٧- فَالقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى الحَقِيـ … ـقَةِ فَاجْتَهِدْ فِيهِ بِلَفْظِ بَيَانِ

٣٤٣٨- عَطِّلْ وَحَرِّفْ ثُمَّ أَوِّلْ وَانْفِهَا … وَاقْذِفْ بِتَجْسِيمٍ وَبِالكُفْرَانِ

٣٤٣٩- لِلمُثْبِتِينَ حَقَائِقَ الأَسْمَاءِ وَالـ … أَوْصَافِ بِالأَخْبَارِ وَالقُرْآنِ

٣٤٤٠- فَإِذَا هُمُ احْتَجُّوا عَلَيْكَ فَقُلْ لَهُمْ … هَذَا مَجَازٌ وَهْوَ وَضْعٌ ثَانِي

٣٤٤١- فَإِذَا غُلِبْتَ عَلَى المَجَازِ فَقُلْ لَهُمْ … لا يُسْتَفَادُ حَقِيقَةُ الإِيقَانِ

٣٤٤٢- أَنَّى وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ … عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ مُنْذُ زَمَانِ

٣٤٤٣- فَإِذَا تَضَافَرَتِ الأَدِلَّةُ كَثْرَةً … وَغُلِبْتَ عَنْ تَقْرِيرِ ذَا بِبَيَانِ

٣٤٤٤- فَعَلَيْكَ حِينَئِذٍ بِقَانُونٍ وَضَعْـ … ـنَاهُ لِدَفْعِ أَدِلَّةِ القُرْآنِ

٣٤٤٥- وَلِكُلِّ نَصٍّ لَيْسَ يَقْبَلُ أَنْ يُؤَوْ … وَلَ بِالمَجَازِ وَلا بِمَعْنًى ثَانِي

٣٤٤٦- قُلْ عَارَضَ المَنْقُولَ مَعْقُولٌ وَمَا الـ … أَمْرَانِ عِنْدَ العَقْلِ يَتَّفِقَانِ

٣٤٤٧- مَا ثَمَّ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ أَرْبَعٍ … مُتَقَابِلاتٍ كُلُّهَا بِوِزَانِ

٣٤٤٨- إِعْمَالُ ذَيْنِ وَعَكْسُهُ أَوْ تَلْغِيَ الـ … مَعْقُولَ مَا هَذَا بِذِي إِمْكَانِ

٣٤٤٩- العَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ وَهْوَ أَبُوهُ إِنْ … تُبْطِلْهُ يَبْطُلْ فَرْعُهُ التَّحْتَانِي

٣٤٥٠- فَتَعَيَّنَ الإِعْمَالُ لِلمَعْقُولِ وَالـ … إِلْغَاءُ لِلمَنْقُولِ بِالبُرْهَانِ

٣٤٥١- إِعْمَالُــهُ يُفْضِــي إِلَى إِلْغَائِــهِ فَـاهْجُرْهُ هَجْـرَ الـتَّرْكِ وَالنِّسْـيَانِ

٣٤٥٢- وَاللهِ لَــمْ نَكْـذِبْ عَلَـيْهِمْ إِنَّنَـا وَهُــمُ لَــدَى الـرَّحْمَنِ مُخْتَصِـمَانِ

٣٤٥٣- وَهُنَاكَ يُجْزَى المُلْحِدُونَ وَمَنْ نَفَى الـ إِلْــحَادَ يُجْـزَى ثَـمَّ بِـالغُفْرَانِ

٣٤٥٤- فَاصْـبِرْ قَلِـيلًا إِنَّـمَا هِـيَ سَـاعَةٌ يَـا مُثْبِـتَ الأَوْصَـافِ لِلـرَّحْمَنِ

٣٤٥٥- فَلَسَوْفَ تَجْنِي أَجْرَ صَبْرِكَ حِينَ يَجْـ ـنِي الغَـيْرُ وِزْرَ الإِثْـمِ وَالعُـدْوَانِ

٣٤٥٦- فَـاللهُ سَـائِلُنَا وَسَـائِلُهُمْ عَـنِ الـ إِثْبَـاتِ وَالتَّعْطِيـلِ بَعْـدَ زَمَـانِ

٣٤٥٧- فَأَعِــدَّ حِينَئِــذٍ جَوَابًــا كَافِيًــا عِنْـدَ السُّـؤَالِ يَكُـونُ ذَا تِبْيَـانِ

الشَّـرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ تعالى- في القسمِ الثَّاني من المُلْحِدين:

٣٤٣٥- وَالمُلْحِـدُ الثَّـانِي فَـذُو التَّعْطِيـلِ إِذْ يَنْفِــي حَقَائِقَهَــا بِــلا بُرْهَــانِ

المُعَطِّلُ مُلْحِدٌ؛ لأنَّه مَالَ بالألفاظِ عمَّا يجبُ لها عن حقائقِها؛ لأنَّه ينفي الحقائقَ؛ فمثلًا يقولُ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ يعني: استولى، وهذا تعطيلٌ للاستواءِ الحقيقيِّ وإلحادٌ بدلالةِ النُّصوصِ «بِلَا بُرْهَانِ»؛ أي: بلا دليلٍ.

٣٤٣٦- مَـا ثَـمَّ غَـيْرُ الإِسْـمِ أَوَّلَـهُ بِـمَا يَنْفِــي الحَقِيقَــةَ نَفْـيَ ذِي بُطْـلانِ

يعني: لا يُوجَدُ إلَّا الاسمُ فقط، فأَوِّلْه بكُلِّ ما يَنفي الحقيقةَ، واخترْ ما شِئْتَ من المعاني، المهمُّ ألَّا تحملَه على الحقيقةِ، وهذا من أظلمِ الظُّلمِ؛ إذ يَنْفُونَ الحقيقةَ التي هي ظاهرُ اللَّفظِ، ويقولون: أَثْبِتْ ما شِئْتَ من المعاني الأخرى، وهذا لا شكَّ أنَّه ظلمٌ وجورٌ وإلحادٌ.

ثُمَّ ذكر المؤلِّفُ -رحمه الله- مراتبَ الأدلَّةِ عندهم فقال:

٣٤٣٧- فَالقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى الحَقِيـ ـقَةِ فَاجْتَهِدْ فِيهِ بِلَفْظِ بَيَانِ

قَوْلُهُ: «**فَالقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى الحَقِيقَةِ**» وبِئْسَ هذا القصدُ؛ يعني: أنَّ مقصودَهم بسلوكِ هذه الطَّريقِ دفعُ النَّصِّ عن معناه الحقيقيِّ.

قَوْلُهُ: «**فَاجْتَهِدْ فِيهِ بِلَفْظِ بَيَانِ**» «**اجْتَهِدْ فِيهِ**»؛ أي: في دفعِ النَّصِّ عن معناه الحقيقيِّ بكُلِّ لفظٍ يكونُ ذا بيانٍ وسِحْرٍ.

٣٤٣٨- عَطِّلْ وَحَرِّفْ ثُمَّ أَوِّلْ وَانْفِهَا وَاقْذِفْ بِتَجْسِيمٍ وَبِالكُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «**عَطِّلْ**»؛ يعني: عَطِّلِ اللهَ عزَّ وجلَّ من صفاتِه.

قَوْلُهُ: «**وحَرِّفْ**»؛ أي: حَرِّفِ النَّصَّ عن معناه الحقيقيِّ.

قَوْلُهُ: «**وَأَوِّلْ**»؛ أي: ائتِ له بمعنى مُؤَوَّل خلاف الظَّاهرِ.

قَوْلُهُ: «**وَانْفِهَا**»؛ أي: انفِ الحقيقةَ، وهذه النَّتيجةُ.

فمثلًا قولُ الله -تبارك وتعالى-: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، يقولُ: ليس المرادُ به «اليد» الحقيقيَّةَ، فيُعَطِّلُ «اليدَ» ثُمَّ يُحَرِّفُ النَّصَّ، ويقولُ: «**اليدُ**» هي القدرةُ مثلًا، ويؤوِّلـهُا؛ يعني: يصرفُ المعنى الظَّاهرَ إلى معنى آخرَ بخلافِه، وانفِ «**اليد**»، وهذه النَّتيجةُ.

قَوْلُهُ: «**اقْذِفْ**»؛ يعني: ارْمِ بالتَّجسيمِ والكفرِ لِـمَنْ؟

قال رحمه الله:

٣٤٣٩- لِلْمُثْبِتِينَ حَقَائِقُ الأَسْمَاءِ وَالـ أَوْصَافِ بِالأَخْبَارِ وَالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**لِلْمُثْبِتِينَ حَقَائِقَ الأَسْمَاءِ وَالأَوْصَافِ**» أَثْبَتُوهَا بماذا؟ بالأخبار؛ أي: بالأحاديثِ.

وَقَوْلُهُ: «**بِالأَخْبَارِ**»: مُتعلِّقٌ بالمثبتين؛ يعني: الذين أثبتوها بالأخبارِ والقرآنِ.

فجَنَوْا على النُّصوصِ وجَنَوْا على مُثْبِتي النُّصوص، قالوا للمُثبتين: إنَّهم مُجَسِّمَةٌ، وقالوا: إنَّهم مُمَثِّلَةٌ، وقالوا: إنَّهم كُفَّارٌ، ورَمَوْهُم بكُلِّ سبٍّ وشتمٍ؛ لأنَّهم أثبتوا الحقائقَ بالقرآنِ والأخبارِ الثَّابتةِ عن الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

٣٤٤٠- فَإِذَا هُمُ احْتَجُّوا عَلَيْكَ فَقُلْ لَهُمْ ... هَذَا مَجَازٌ وَهْوَ وَضْعٌ ثَانِي

إذا احتجَّ عليك أهلُ السُّنَّةِ بظاهرِ اللَّفظِ، وقالوا: ظاهرُ اللَّفظِ في ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ [البقرة:٢٩]؛ يعني: علا العرشَ، قل: هذا مجازٌ، ويدُ الله مجازٌ.

والمجازُ كما عرَّفه أهلُ البلاغةِ: «**استعمالُ اللَّفظِ بوضعٍ ثانٍ**»؛ أي: استعمالُ اللفظِ في غيرِ ما وُضِعَ له أوَّلًا؛ لعَلاقةٍ بقرينةٍ تمنعُ من المعنى الحقيقيِّ، إذَنْ هل المجازُ وضعٌ ثانٍ أو أوَّلٍ؟ الجوابُ: ثانٍ، فـ«**أسد**» وُضِعَ أوَّلًا للحيوانِ المفترسِ، ثُمَّ وُضِعَ ثانيًا للرَّجُلِ الشُّجاعِ، أمَّا الحقيقةُ فهي الوضعُ الأوَّلُ.

٣٤٤١- فَإِذَا غُلِبْتَ عَلَى المَجَازِ فَقُلْ لَهُمْ ... لا يُسْتَفَادُ حَقِيقَةُ الإِيقَانِ

قَوْلُهُ: «**فَإِذَا غُلِبْتَ عَلَى المَجَازِ**»؛ يعني: إذا هم رَدُّوا عليك وصار المجازُ غيرَ مناسبٍ ولا مقبولٍ، فمثلًا لو قال لك: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] قال: لا يمكنُ أن يكونَ المرادُ باليدِ القُدرةَ أو النِّعمةَ؛ لأنَّه لو قال هكذا: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، لقال إبليسُ: وأنا يا ربُّ خلقتني بيدِك؛ أي: بقدرتِك، فإذا هم ردُّوا عليك وغُلِبْتَ عن المجازِ بحيث تعذَّرت القرينةُ الدَّالَّةُ على المجازِ فانْتَقِلْ إلى مرتبةٍ

أخرى، وقل لهم: «**لَا يُسْتَفَادُ حَقِيقَةُ الإِيقَانِ**»؛ يعني: أنَّ هذا اللَّفظَ لا يُفِيدُ الحقيقةَ اليقينيَّةَ، لماذا؟ قال:

٣٤٤٢- أَنَّـى وَتِلْـكَ أَدِلَّـةٌ لَفْظِيَّـةٌ   عُزِلَـتْ عَـنِ الإِيقَـانِ مُنْـذُ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «أَنَّى»؛ يعني: أَنَّى يُسْتَفَادُ؟!

نسألُ اللهَ العافيةَ، يقولون: إنَّ الأدلَّةَ اللَّفظيَّةَ لا تُفيدُ اليقينَ؛ إمَّا من حيثُ الثُّبوتُ وإمَّا من حيث الدَّلالةُ، وهذا قانونٌ فاسدٌ باطلٌ، إمَّا من حيث الثُّبوتُ؛ يعني: بأن يكونَ الذين نقلوها أفرادًا؛ ولهذا عندهم لا يُقْبَلُ خبرُ الآحادِ في إثباتِ العقائدِ؛ لأنَّ العقائدَ يُطْلَبُ فيها اليقينُ، وخبرُ الآحادِ لا يُفِيدُ اليقينَ.

إِذَنْ خبرُ الآحادِ ظَنِّيٌّ على زعمِهم فلا يُقْبَلُ، قل: والله، هذا خبرُ آحادٍ لا نقبلُه؛ لأنَّه ظَنِّيٌّ من حيثُ الثُّبوتُ ومن حيثُ الدَّلالةُ، وهذا إذا عَجَزْتَ عن إثباتِ المجازِ.

لكن بأيِّها يُبْدَأُ بالثُّبوتِ أو بالدَّلالةِ؟ يُبْدَأُ بالثبوتِ أوَّلًا؛ لأنَّه إذا لم يَثْبُتْ كُفِيتَ البحثَ، وإذا ثَبَتَ ابدأ بالدَّلالةِ، إِذَنْ نبدأُ أوَّلًا بالنُّصوصِ بثبوتِها ثُمَّ بدلالتِها، هم يقولون: إن لم يمكنْ الطَّعنُ في الثُّبوتِ فالطَّعنُ في الدَّلالة.

فإذا كان الخبرُ ثابتًا يقينًا كالقُرآنِ الكريمِ والمتواترِ من السُّنَّةِ، فقل لهم: هو ظَنِّيُّ الدَّلالةِ؛ يعني: أنَّ دلالتَه على المعنى ليست يقينيَّةً؛ إذ ما من لفظٍ إلَّا ويحتملُ معنى غير ظاهرٍ إمَّا قريبٌ وإمَّا بعيدٌ، أنا أقولُ هذا مُقرِّرًا قاعدتَهم وإلَّا فإنَّنا لا نُسَلِّمُ لهم بهذا كُلِّه.

فنقول: أمَّا ما ادَّعيتم من أنَّ الأدلَّةَ اللَّفظيَّةَ لا تفيدُ اليقينَ إمَّا في الثُّبوتِ أو في الدَّلالةِ فهذا كَذِبٌ، بل هي تفيدُ اليقينَ في الثُّبوتِ وتفيدُ اليقينَ في الدَّلالةِ، فإنَّ

دلالةَ الألفاظِ على معناها تكونُ قطعيَّةً في بعضِ الأحيانِ، ولا تحتملُ معنىً آخرَ؛ ولهذا قال أهلُ الأصولِ: «**إنَّ النَّصَّ يكونُ صَريحًا ويكونُ ظاهرًا**»؛ يعني: يكون صريحًا لا يحتملُ إلَّا معنىً واحدًا، وهذا دلالتُه يقينيَّةٌ، وله دلالةٌ ظاهرةٌ تحتملُ التَّأويلَ، فزعمُكم أنَّ الأدلَّةَ اللَّفظيَّةَ لا تفيدُ اليقينَ؛ لأنَّها إمَّا ظنِّيَّةٌ في ثبوتِها وإمَّا ظنِّيَّةٌ في دلالتِها، هذا كذبٌ، ويا سبحان الله العظيم! لو جاء أحدٌ من أئمَّتِكم وألَّفَ كتابًا وتكَلَّمَ، ألستم تقولون: إنَّ دلالةَ اللَّفظِ على هذا المعنى الذي أراده هذا الكاتبُ أو هذا المؤلِّفُ يقينيَّةٌ؟ سيقولون: بلى، يقينيَّةٌ، ويُجادلون، وإنْ أحدٌ حَرَّفَ الكلامَ فقال: هذا خلافُ ظاهرِ كلامِ سيِّدِنا، لا يمكنُ، فكيف بكلامِ الله رَبِّ العالمين وكلامِ رسولِه ﷺ الأمين؟! ولهذا يقولون: «**أَنَّى وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ**» أي: من حيث الثُّبوتُ ومن حيث الدَّلالةُ.

٣٤٤٣- فَـإِذَا تَضَـافَرَتِ الأَدِلَّـةُ كَثْـرَةً وَغُلِبْـتَ عَـنْ تَقْرِيـرِ ذَا بِبَيَـانِ

يعني: إذا كان لا يمكنُ دعوى الظَّـنِّـيَّةِ لا في ثبوتِها ولا في دلالتِها فماذا نقولُ؟ قال:

٣٤٤٤- فَعَلَيْـكَ حِينَئِـذٍ بِقَـانُونٍ وَضَعْـ ـنَاهُ لِـدَفْعِ أَدِلَّـةِ القُـرْآنِ

يعني: إذا لم يمكنْك الطَّعنُ في الدَّلالةِ أو الطَّعنُ في المدلولِ من حيث ثبوتُه، والطَّعنُ في الدَّلالةِ من حيث النَّصِّيَّة، فعليك بالقانونِ الذي وضعناه، لماذا؟ قال: «**لِدَفْعِ أَدِلَّةِ القُرْآنِ**» نسألُ اللهَ العافيةَ؛ يعني: ندفعُ به أدلَّةَ القرآنِ.

٣٤٤٥- وَلِكُلِّ نَـصٍّ لَـيْسَ يَقْبَـلُ أَنْ يُـؤَوْ وَلَ بِالمَجَـازِ وَلا بِمَعْنًـى ثَـانِي

يعني: وندفعُ به أيضًا كُلَّ نصٍّ لا يقبلُ التَّأويلَ بالمجازِ، «**وَلَا بِمَعْنًى ثَانِي**» لكن ما هذا القانونُ؟

٣٤٤٦- قُلْ عَارَضَ المَنْقُولَ مَعْقُولٌ وَمَا الـ   أَمْــرَانِ عِنْــدَ العَقْــلِ يَتَّفِقَــانِ

قَوْلُهُ: «قُلْ: عَارَضَ المَنْقُولَ مَعْقُولٌ» «المَنْقُولَ»: مفعولٌ مُقَدَّمٌ، و«مَعْقُولٌ»: فاعلٌ مؤخَّرٌ.

قَوْلُهُ: «قُلْ: عَارَضَ المَنْقُولَ مَعْقُولٌ»؛ يعني: عَارَضَ الأدلَّةَ النَّقليَّةَ أدلَّةٌ عقليَّةٌ؛ يعني: إذا لم يمكنْ رَدُّ الأدلَّةِ لكثرتِها، ولا يمكنُ حملُها على المجازِ فعليك بآخرِ المراحلِ، وقُلْ: «هذه الأدلَّةُ يعارضُها المنقولُ»، والعقلُ يمنعُ هذا.

قَوْلُهُ: «وَمَا الأَمْرَانِ عِنْدَ العَقْلِ يَتَّفِقَانِ» ما الأمران يتَّفقان، بل بينهما الخلافُ؛ يعني: لا يمكنُ أن يتَّفقَ العقلُ والنَّقلُ في قَبولِ هذا، فالعقلُ يُنْكِرُ والنَّقلُ يُثْبِتُ، ولا يمكنُ أن يجتمعَ مثبتٌ ونافٍ، إِذَنْ مَنْ نُقَدِّمُ؟ يَرَوْنَ تقديمَ العقلِ، ثُمَّ ذَكَرَ المؤلِّفُ الأحوالَ الأربعَ فقال:

٣٤٤٧- مَــا ثَــمَّ إِلَّا وَاحِــدٌ مِــنْ أَرْبَــعٍ   مُتَقَــابِلاتٍ كُلُّهَــا بِــوِزَانِ

٣٤٤٨- إِعْمَالُ ذَيْنِ وَعَكْسُـهُ أَوْ تَلْغِـيَ الـ   مَعْقُــولَ مَــا هَــذَا بِــذِي إِمْكَــانِ

يعني: إِمَّا أن نُعْمِلَ الأمرين جميعًا، وهما: الدَّليلُ العقليُّ والدَّليلُ النقليُّ، أو «عَكْسُهُ» وهو إهمالُهما جميعًا، فلا نأخذُ بدليلٍ عقليٍّ ولا بدليلٍ نقليٍّ، أو «تُلْغِيَ المَعْقُولَ» ونأخذ بالدَّليلِ النَّقليِّ ونُلْغِي الدَّليلَ العقليَّ، يقولُ: هذا غيرُ ممكنٍ، «مَا هَذَا بِذِي إِمْكَانِ»؛ يعني: لا يمكنُ أن نُلْغِيَ المعقولَ، إِذَنْ نُلْغِي المنقولَ.

فإذا لم يتَعارَضا أعمَلْناهما جميعًا، وإذا تعارضا إِمَّا أن نعملَهما جميعًا أو نُهملَهما جميعًا، أو نُعْمِلَ المعقولَ وندعَ المنقولَ، أو نُعْمِلَ المنقولَ وندعَ المعقولَ، فهذه أربعُ حالاتٍ منها: إعمالُ المنقولِ وإهمالُ المعقولِ، يقولُ: وهذا غيرُ ممكنٍ،

لماذا؟ قال:

٣٤٤٩- العَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ وَهْوَ أَبُوهُ إِنْ تُبْطِلْهُ يَبْطُلُ فَرْعُهُ التَّحْتَانِي

لأَنَّه من المعلومِ أنَّه إذا عُدِمَ الأبُ فلا يمكنُ أن يكونَ الابنُ، إذَنْ يكونُ العقلُ هو الأصلَ، فإذا قلتَ: النَّقلُ مُقَدَّمٌ على العقلِ، قال: هذا لا يمكنُ؛ لأنَّ العقلَ هو الأصلُ.

٣٤٥٠- فَتَعَيَّنَ الإِعْمَالُ لِلمَعْقُولِ وَالـ إِلْغَاءُ لِلمَنْقُولِ بِالبُرْهَانِ

يقولُ: العِلَّةُ أنَّنا لا نُلْغي المعقولَ بل نُلغي المنقولَ؛ لأنَّ العقلَ أصلُ النَّقلِ وهو أبوه إنْ أَبْطَلْتَهُ بَطَلَ الفرعُ؛ أي: إنْ أَبْطَلْتَ العقلَ الذي هو أصلُ النَّقلِ بطل الفرعُ، هكذا ادَّعوا، فإذا كان الأمرُ هكذا فتعيَّن الإعمالُ للمعقولِ والإلغاءُ للمنقولِ بالبرهان.

ولكن نجيبُ على هذا بأمورٍ:

أوَّلًا: إعمالُ العقلِ في بابِ السَّمعيَّاتِ مخالفٌ للعقلِ، وجهُ ذلك: أنَّ الأمورَ السَّمعيَّةَ تعتمدُ على مجرَّدِ الخبرِ، والخبرُ في الأمورِ الغيبيَّةِ التي ليس لها نظيرٌ يجبُ فيه التَّلقِّي من الخبرِ المحضِ، ولا مجالَ للعقلِ فيه، فإذا أَعْمَلْنَا العقلَ في مُخْبَرِ ذلك الخبرِ كان ذلك مخالفًا للعقلِ؛ لأنَّ هذا خبرٌ محضٌ لا يدخلُه القياسُ حتَّى نقولَ: إنَّنا نُعمِلُ العقلَ فيه، فالعقلُ إذَنْ في هذا هو تحكيمُ النَّقلِ؛ لأنَّ هذا خبرٌ محضٌ عن شيءٍ غائبٍ لا نظيرَ له، فمقتضى العقلِ الصَّريحِ أن تُحَكِّمَ النَّقلَ فقط، هذا مع أنَّ هذا الكلامَ متناقضٌ؛ لأنَّ أصحابَ العقولِ الذين يَرَوْنَ أنَّهم يُحَكِّمونَ العقلَ متناقضون، قال الإمامُ مالكٌ رحمه الله: «بأيِّ شيءٍ يُوزَنُ الكتابُ والسُّنَّةُ، أفكلَّما

جاءنا رجلٌ أَجْدَلُ من رجلٍ تركنا قولَنا لقولِ هذا الجدليِّ؟!»[١].

هم بأنفسِهم متناقضون؛ أحيانًا يقولُ بعضُهم: هذا العقلُ يمنعُ هذه الصِّفةَ، والثَّاني يقولُ: العقلُ يُوجبُها، والثَّالثُ يقولُ: العقلُ يُجوِّزُها، ثلاثةُ أقوالٍ، بل إِنَّ الواحدَ من هؤلاء المتكلِّمين يتناقضُ في نفسِه، فتجدُه يُؤلِّفُ كتابًا يُثْبِتُ فيه ما يُثْبِتُ من الصِّفاتِ، ويقولُ: إِنَّ العقلَ دَلَّ عليها، ثُمَّ يُؤلِّفُ كتابًا آخرَ ينقضُه، إِذَنْ إلى أيِّ عقلٍ نرجعُ؟ هل إلى عقلِ زيدٍ أو عقلِ عمرٍو، أو عقلِ زيدٍ في أوَّل عمرِه أو عقلِه في آخِرِ عُمُرِه؟ لا ندري، ففيه تناقضٌ.

ثانيًا: الرُّجوعُ إلى العقلِ يستلزمُ القولَ على الله بلا علم نفيًا وإثباتًا، فتجدُ الذي يُحكِّمُ عقلَه في بابِ الصِّفاتِ يقولُ: هذه الصِّفةُ ممنوعةٌ؛ لأنَّ العقلَ يمنعُها، فينفي عن الله ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه، ويكونُ هذا قولًا على الله بلا علمٍ، أو يُثْبِتُ صفةً لم يثبتْها اللهُ لنفسِه فيكون قائلًا على الله بلا علمٍ.

ثالثًا: الرُّجوعُ إلى العقلِ في بابِ الصِّفاتِ مخالفٌ لما كان عليه النَّبيُّ ﷺ، فهو بدعةٌ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: **«كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»**[٢]، فتبيَّن الآن أنَّهم مُخطئون.

رابعًا: دعواهم أنَّ العقلَ أصلُ النَّقلِ في هذا البابِ خطأٌ، وليس بصحيحٍ، بل الأصلُ في بابِ صفاتِ الله النَّقلُ، والعقلُ تابعٌ له.

خامسًا: كذلك لو قلنا: **«إنَّ العقلَ دليلٌ»** فلا حاجةَ للرُّسلِ؛ لأنَّ إرسالَ الرُّسلِ حينئذٍ يكونُ لا فائدةَ منه؛ لأنَّ النَّقلَ يُلْغَى عند تعارضِه مع العقلِ؛ لأنَّ

(١) انظر: أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، لمرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (ص:٢٣٥).
(٢) أخرجه النسائي: كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٧٨).

هذا شيءٌ -كما سبق في أوَّلِ رَدٍّ- شيءٌ يعتمدُ على النَّقلِ المحضِ أو الخبرِ المحضِ، ولا مجالَ للعقلِ فيه، فهذه خمسةُ وجوهٍ.

٣٤٥١- إِعْمَالُـــهُ يُفْضِـــي إِلَى إِلْغَائِـــهِ فَـاهْجُرْهُ هَجْـرَ الـتَّرْكِ وَالنِّسْـيَانِ

يعني: أنَّ إعمالَ النَّقلِ وتقديمَه على العقلِ يُفْضِي إلى إلغائِه فاهجرْه، وقوله: «**إِلَى إِلْغَائِهِ**» يحتملُ أنَّه يريدُ إلغاءَ العقلِ؛ يعني: لو أنَّنا أَعْمَلْنَا النَّقلَ عند التَّعارضِ مع العقلِ لَزِمَ من إعمالِ النَّقلِ إلغاءُ العقلِ؛ ولذا قال: «**فَاهْجُرْهُ هَجْرَ التَّرْكِ وَالنِّسْيَانِ**»؛ أي: اهجر النَّقلَ هجرَ التَّركِ والنِّسيان؛ أي: واتركه وتناسَه كأنَّه لم يكن والعياذُ بالله.

وأنا أعجبُ لهؤلاء القومِ الذين يقولون: إنَّنا نتبعُ العقلَ، هل يرضى أحدٌ منهم أن يصفَه بصفاتٍ ليست فيه، أو يُنْكِرَ من صفاتِه ما هو فيه؟ الجوابُ: لا يرضى أبدًا، لو يأتي إنسانٌ يَصِفُ هذا العاقلَ الذي يدَّعي أنَّه عاقلٌ بما ليس فيه أو يُنْكِرُ الصِّفاتِ التي يتَّصفُ بها لم يَرْضَ بذلك، فإذا كان لا يرضى بذلك كيف يرضى بهذا لربِّ العالمين؟! يصفُ اللهَ بما لم يصفْ به نفسَه أو يُنْكِرُ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه؟! هذه جرأةٌ عظيمةٌ، إذا كنتَ لا ترضاها لنفسِك كيف ترضاها لربِّك؟! ولكن -والعياذُ بالله- نحن نقولُ بصريحِ القولِ: إنَّهم ليسوا عقلاءَ، ولكنَّهم أهلُ أهواءٍ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، هذه حقيقةُ حالِهم أنَّهم ذوو أهواءٍ، فما موقفُنا نحن وقد مَنَّ اللهُ علينا -ولله الحمدُ- بعقيدةٍ سليمةٍ؟

موقفُنا يدورُ على أمرين:

أوَّلًا: الثَّباتُ على ما نحن عليه؛ لأنَّنا على حقٍّ.

ثانيًا: تفنيدُ ما هم عليه؛ لأنَّهم على باطلٍ، وحينئذٍ لا بُدَّ أن نعرفَ من أدلَّتِهم ما نستطيعُ أن نرميَهم به؛ لأنَّ رَمْيَ الإنسانِ بسهمِه الذي صنعه بيدِه خيرٌ من رميه بسهمٍ آخرَ جديدٍ، وأظنُّكم تعرفون أنَّ كُلَّ واحدٍ من هؤلاء المعطِّلةِ يُنْكِرُ على الآخرِ ما يكونُ هذا القانونُ الذي أنكر به على الآخَرِ قانونًا للرَّدِّ عليه هو، ومَرَّ علينا في كلامِ ابنِ القيِّمِ قريبًا مثل هذه المسألةِ في تعطيلِ الله تعالى عن وصفِ الأفعالِ من أهلِ الكلامِ، وتفنيدِهم على المعتزلةِ في إثباتِ الأسماءِ بدون أوصافٍ، وقلنا: إِنَّ القانونَ الذي ردُّوا به على المعتزلةِ هو قانونٌ يردُّون به على أنفسِهم.

٣٤٥٢- وَاللهِ لَـــمْ نَكْــذِبْ عَلَــيْهِمْ إِنَّنَــا وَهُـــمُ لَــدَى الــرَّحْمَنِ مُخْتَصِــمَانِ

أَقْسَمَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّه ما كذب على هؤلاء في أنَّهم يتَواصَوْنَ بما ذكرنا، بأنَّ المسألةَ مَجَازٌ، فإن لم يمكنُ المجازُ فإِنَّ هذه أدلَّةٌ ظنِّيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ، فإن لم يمكنْك ذلك فهاتِ القانونَ الذي وضعناه وهو تقديمُ العقلِ على النَّقلِ، إِذَنْ فالمراتبُ ثلاثُ.

أيُّ عقلٍ يأخذون به؛ لأنَّ العقولَ مختلفةٌ، هذا يقولُ: هذا شيءٌ واجبٌ، والثَّاني يقولُ: هذا مستحيلٌ، وانظر كتبَهم، بل قال شيخُ الإسلامِ: «إِنَّ الواحدَ منهم يتناقضُ في نفسِه، فيقول في كتابٍ: هذا واجبٌ على الله، وفي كتابٍ آخرَ يقولُ: هذا مستحيلٌ، أين العقلُ؟!»[1].

٣٤٥٣- وَهُنَاكَ يُجْزَى الْمُلْحِدُونَ وَمَنْ نَفَى الـ إِلْــحَادَ يُجْــزَى ثَــمَّ بِــالْغُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُنَاكَ يُجْزَى الْمُلْحِدُونَ»، وفي نسخةٍ: «**يُخْزَى**» وهو الصَّوابُ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣١٣).

٣٤٥٤- فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ ... يَا مُثْبِتَ الأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

٣٤٥٥- فَلَسَوْفَ تَجْنِي أَجْرَ صَبْرِكَ حِينَ يَجْـ ... ـنِي الغَيْرُ وِزْرَ الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ

٣٤٥٦- فَاللهُ سَائِلُنَا وَسَائِلُهُمْ عَنِ الـ ... إِثْبَاتِ وَالتَّعْطِيلِ بَعْدَ زَمَانِ

٣٤٥٧- فَأَعِدَّ حِينَئِذٍ جَوَابًا كَافِيًا ... عِنْدَ السُّؤَالِ يَكُونُ ذَا تِبْيَانِ

فتبيَّنَ الآن أنَّ مصدرَ القولِ فيما يتعلَّقُ بأسماءِ الله وصفاتِه هو النَّقلُ، ولكن هل يمكنُ أن يأتيَ صحيحُ النَّقلِ بما يُخالِفُ صريحَ العقلِ؟ الجوابُ: لا، لا يمكنُ أن يأتيَ في صحيحِ النَّقلِ ما يخالفُ صريحَ العقلِ ويناقضُه، واقرأ كتابَ: «**درء تعارض العقلِ والنَّقلِ**»؛ لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله، تجد العجبَ العُجَابَ، حتىَّ إِنَّ ابنَ القيِّم قال في الثَّناءِ عليه: «**مَا فِي الوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِي**»؛ يعني: ممَّا أُلِّفَ في بابِه.

يقولُ: سوف يسألُنا اللهُ عزَّ وجلَّ ويحكمُ بيننا يومَ القيامةِ، نحن المثبتين وأولئك المعطِّلين، فيجب أن نُعِدَّ جوابًا شافيًا كافيًا، ولا أَشْفَى ولا أَكْفَى من أن نقولَ: يا ربَّنا قَرَأْنَا كتابَك فآمَنَّا به وصَدَّقْنَا، وبلَّغَنَا رسولُك فآمَنَّا به وصَدَّقْنَا، هذا الجوابُ كافٍ، وهو الحُجَّةُ، قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢]، وهذا سؤالٌ عن التَّوحيدِ، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، هذا سؤالٌ عن الرِّسالةِ، فأَعِدَّ لهذا جوابًا، أَعِدَّ لهذا جوابًا ما دُمْتَ في زمنِ الإمكانِ قبل ألَّا تستطيعَ الجوابَ.

لكن ما جوابُ هؤلاء إذا قال اللهُ لهم يومَ القيامة: لقد قلتُ في كتابي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [الرَّحمن:٥]، وقلتم أنتم: لا استواءَ ولكن استيلاء، لقد

قلتُ في كلامي: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وقلتم: لا يدان ولكن نعمتان أو قدرتان أو ما أشبه ذلك، وإذا قلتُ: لقد قلتُ في كتابي: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] وقلتم: لا عين، ما جوابُهم على هذا؟ ليس هناك جوابٌ، هم وإن أوتوا جدلًا في الدُّنيا لكن لا يمكنُ أن يُعْطَوْا جدلًا في الآخرةِ، ثُمَّ جدلُهم في الدُّنيا أيضًا لا يفيدُ إنَّما يلتبسُ على العُميان، أمَّا ذوو البصائرِ فإنَّ جدلَهم هذا لا يفيدُهم، بل هو خزيٌ لهم -والعياذُ بالله- كما حصل -ولله الحمدُ- من أئمَّةِ الهدى في الرَّدِّ على هؤلاء المعطِّلةِ من الجهميَّةِ والمعتزلةِ وغيرِهم.

فالحاصلُ أنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- أوصانا -جزاه اللهُ خيرًا- وصيةً نافعةً ليست في نصوصِ الصِّفاتِ فقط حتىَّ في الأمورِ العمليَّةِ فقال: «**فَأَعِدَّ حِينَئِذٍ جَوَابًا كَافِيًا عِنْدَ السُّؤَالِ يَكُونُ ذَا تِبْيَانِ**».

قال اللهُ تعالى للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤]، أنت وقومُك تُسْأَلُونَ عن هذا الكتابِ، هل قمتم بحقِّه؟ هل بلَّغتموه الأممَ؟ هل جاهدتم به الكافرين؟ ... إلخ.

في الحقيقةِ أنَّ الأمرَ شديدٌ والمسئوليةَ شديدةٌ ولا تحتاجُ إلَّا إلى العزيمةِ الصَّادقةِ والاستعانةِ بالله عزَّ وجلَّ.

* * *

٣٤٥٨- هَـــذَا وَثَـــالِثُهُمْ فَنَافِيهَـــا وَنَـــا	فِي مَـــا تَـــدُلُّ عَلَيْـــهِ بِالبُهْتَـــانِ
٣٤٥٩- ذَا جَاحِدُ الـرَّحْمَنِ رَأْسًا لَـمْ يُقِرْ	رَ بِخَـــالِقٍ أَبَـــدًا وَلا رَحْمَـــنِ
٣٤٦٠- هَذَا هُـوَ الإِلْــحَادُ فَاحْـذَرْهُ لَعَلْ	لَ اللهَ أَنْ يُنْجِيـــكَ مِـــنْ نِـــيرَانِ

٣٤٦١- وَتَفُوزُ بِالزُّلْفَى لَدَيْهِ وَجَنَّةِ الـ ... ـمَأْوَى مَعَ الغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ

٣٤٦٢- لَا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الوَرَى ... فَالنَّاسُ كَالأَمْوَاتِ فِي الحُسْبَانِ

٣٤٦٣- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الـ ... ـغُرَبَاءَ حَقًّا عِنْدَ كُلِّ زَمَانِ

٣٤٦٤- قُلْ لِي مَتَى سَلِمَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ ... وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ عَلَى الإِحْسَانِ

٣٤٦٥- مِنْ جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وَمُنَافِقٍ ... وَمُحَارِبٍ بِالبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ

٣٤٦٦- وَتَظُنُّ أَنَّكَ وَارِثٌ لَهُمُ وَمَا ... ذُقْتَ الأَذَى فِي نُصْرَةِ الرَّحْمَنِ

٣٤٦٧- كَلَّا وَلا جَاهَدْتَ حَقَّ جِهَادِهِ ... فِي اللهِ لا بِيَدٍ وَلا بِلِسَانِ

٣٤٦٨- مَنَّتْكَ وَاللهِ المُحَالَ النَّفْسُ فَاسْـ ... ـتَحْدِثْ سِوَى ذَا الرَّأْيِ وَالحُسْبَانِ

٣٤٦٩- لَوْ كُنْتَ وَارِثَهُ لَآذَاكَ الأُلَى ... وَرِثُوا عِدَاهُ بِسَائِرِ الأَلْوَانِ

الشرحُ

٣٤٥٨- هَذَا وَثَالِثُهُمْ فَنَافِيهَا وَنَا ... فِي مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ بِالبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «وَثَالِثُهُمْ»؛ أي: الثَّالثُ من المُلْحِدِينَ الذين نَفَوُا الصِّفاتِ وآياتِها وما تدلُّ عليه.

٣٤٥٩- ذَا جَاحِدُ الرَّحْمَنِ رَأْسًا لَمْ يُقِرْ ... رَ بِخَالِقٍ أَبَدًا وَلا رَحْمَنِ

هذا مُلْحِدٌ، وهذا هو الذي يُسمَّى مُلْحِدًا في عرفِ النَّاسِ اليوم، إذا قيل: «فلانٌ مُلْحِدٌ» عند النَّاسِ اليومَ فالمفهوم عندهم أنَّه مُنْكِرٌ لله، مع أنَّ المُلْحِدَ أعمُّ

من المُنْكِرِ لله عزَّ وجلَّ، فالمُنْكِرُ لله واحدٌ من المُلْحِدينَ، نوعٌ من أنواعِ الإنكارِ لله عزَّ وجلَّ.

٣٤٦٠- هَذَا هُوَ الإِلْحَادُ فَاحْذَرْهُ لَعَلْ ... لَ اللهَ أَنْ يُنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ

يعني: إذا حذرْتَه وتجنَّبْتَه -اللَّهُمَّ أَعِنَّا على الحذرِ منه- وآمَنْتَ بالله وآياتهِ على ما أرادها اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُه فـ«**لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ**».

٣٤٦١- وَتَفُوزُ بِالزُّلْفَى لَدَيْهِ وَجَنَّةِ الْـ ... ـمَأْوَى مَعَ الغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ

قَوْلُهُ: «**مَعَ الغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ**» الغفرانُ للذُّنوبِ، والرِّضوانُ بالطَّاعاتِ؛ لأَنَّك بمغفرةِ الذُّنوبِ تنجو من النَّارِ، وبالرِّضا بالطَّاعاتِ تدخلُ الجنَّةَ.

يعني: إذا سَلِمْتَ من الإلحادِ في أسماءِ الله وآياتِه حَصَلَ لك هذا، ثُمَّ قال جزاه اللهُ خيرًا وصيةً من مُخْلِصٍ:

٣٤٦٢- لَا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الوَرَى ... فَالنَّاسُ كَالأَمْوَاتِ فِي الحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «**لَا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الوَرَى**»؛ يعني: لا تتوحَّشْ إذا كنتَ غريبًا بين النَّاسِ، فإذا كان النَّاسُ فُسَّاقًا وكنتَ مطيعًا فأنت غريبٌ، وإذا كان النَّاسُ معطِّلَةً وأنت مُثْبِتٌ كنت غريبًا، لا تستوحشْ من هذا؛ لأنَّ الإنسانَ حقيقةً إذا لم يرَ معه أحدًا رُبَّما يستوحشُ أو يتوقَّفُ أو يرجعُ عمَّا هو عليه من الهدى؛ ولهذا أخبر النَّبيُّ ﷺ عن أيَّام الصَّبرِ أنَّ العاملَ فيهنَّ لهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ[1]؛ لأنَّ الإنسانَ إذا

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٤).

رأى مَنْ حولَه وهم كُلُّهم على طريقٍ فلا يستوحشُ ولا يتعبُ ولا يَزِلُّ، لكن أيَّام الصَّبرِ كُلُّ النَّاسِ على خلافِه فتصعبُ عليه الطَّاعةُ وتشقُّ لكنَّه صابرٌ راسخُ القدمَيْن؛ ولذا قال: «**لَا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الوَرَى**»، وهذا -والله- هو الحقُّ، فما دُمْتَ على نورٍ من الله فمن أين تأتيك الوحشةُ؟! لا وحشةَ، فأنت على دينٍ، وأنت على حقٍّ، لا يهمنَّك أحدٌ، إنَّك سَتُدْفَنُ وحدَك وهم يُدْفنون وحدَهم، وسَتُبْعَثُ يومَ القيامةِ بلا مالٍ ولا بنينَ؛ ولذا لا تستوحشْ من هذا؛ لأنَّ أمامَك أنسًا لا وحشةَ بعده، لكن إذا أَنِسْتَ مع النَّاسِ في مخالفةِ الشَّرعِ فهذا أنسٌ بعدَه وحشةٌ طويلةٌ.

الوحشة الآن بين الغُرباءِ تزولُ وما هي إلَّا ساعةٌ كما قال المؤلِّف: «**فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّما هِيَ سَاعَةٌ**» ثُمَّ تنقضي، لكنَّ الشَّأنَ كُلَّ الشَّأنِ في الأنسِ بعد هذه الوحشةِ.

قَوْلُهُ: «**فَالنَّاسُ كَالأَمْوَاتِ فِي الحُسْبَانِ**» وفي نسخةٍ: «**فِي الحَيَّانِ**» أو «**فِي الأَحْيَاءِ**» إمَّا أن يكونَ معنى البيتِ: النَّاسُ أمواتٌ في أثوابِ أحياء، أو النَّاسُ أمواتٌ، يعني: حسابُهم حسابُ موتى القلوبِ لا يفهمون ولا يَعُون.

فالنَّاسُ كالأمواتِ وصاحبُ الحقِّ حيٌّ، بل إنَّ صاحبَ الحقِّ حيٌّ بعد موتِه كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

أهلُ العلمِ الآن أحياءٌ بيننا، ألسنا كُلَّ يومٍ نقرأُ في كتب شيخِ الإسلام مثلًا؟! الجوابُ: بلى، فهو يُعَلِّمُنا، هو شيخُنا، أستاذُنا، وهذه هي الحياةُ، ولهذا قال الشَّاعرُ:

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ، وَفُضُولُ العَيْشِ أَشْغَالُ[1]

---

(١) البيت للمتنبي، كما في زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق القيرواني (١/ ٣١٢).

فهذه هي الحياةُ حقيقةً، أمَّا بقاؤك في الدُّنيا فهي ساعاتٌ وأيامٌ تمشي وتمضي.

٣٤٦٣- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الـ ـغُرَبَاءَ حَقًّا عِنْدَ كُلِّ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «**أَوَ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الغُرَبَاءُ حَقًّا؟**» الجوابُ: بلى، والله أهلُ السُّنَّةِ هم الغُرَباء حقًّا في كُلِّ مكانٍ، اللَّهُم اجعلنا من هؤلاء الغرباءِ.

فأهلُ السُّنَّةِ هم الغُرباءُ حقيقةً، ولو تأمَّلْتَ التَّاريخَ لوجدتَ أنَّ الأمرَ كذلك، ففي الخلافاتِ والآراءِ والعقائدِ والمللِ تجدُ صاحبَ السُّنَّةِ كغرَّةِ وجهِ الفرسِ غريبًا بين النَّاسِ، ثُمَّ يسألُ متحدِّيًا فيقولُ:

٣٤٦٤- قُلْ لِي مَتَى سَلِمَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ عَلَى الإِحْسَانِ

٣٤٦٥- مِنْ جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وَمُنَافِقٍ وَمُحَارِبٍ بِالبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ

يعني: متى سَلِمُوا من هؤلاء؟؛ يعني: هل سَلِمُوا؟ الجوابُ: ما سَلِمَ الرَّسولُ ولا الصَّحابةُ من الأذى، بل إنَّ ثلاثةً من خلفائِه وهم عمرُ وعثمانُ وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قُتِلُوا على أيدي أعدائِهم، فما سَلِمُوا من جاهلٍ ومعاندٍ ومنافقٍ ومحاربٍ بالبغي والطُّغيانِ، فهؤلاء أربعةُ أصنافٍ كُلُّهم مستعدُّون لأذى الرَّسولِ ﷺ وصحبِه وأتباعِه:

الأوَّل: جاهلٌ لا يعلمُ، أُمِّيٌّ يؤذي أهلَ الحقِّ ويَرُدُّ قولَهم.

الثَّاني: معاندٌ عنده شيءٌ من الحقِّ، عنده شيءٌ من العلمِ، لكن متعصِّبٌ معاندٌ.

الثَّالث: منافقٌ، يأخذُ بالتَّقيَّة، والمنافقُ هو أشرُّهم، والمنافقُ كما قال الشَّاعرُ:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ   وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهْوَ العَقْرَبُ[(١)]

المنافقُ هو البلاءُ، إذا كَلَّمْتَه قال: هذا هو الحقُّ، الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لنهتدِيَ لولا أن هدانا اللهُ، لكن إذا خَلَوْا إلى شياطِينِهم قالوا: إنَّا معكم إنَّما نحن مستهزئون، هؤلاء قلوبُهم سليمةٌ ينطلي عليهم الحقُّ، آمِنُوا إذا لقيتموهم، وإذا خلا بعضُكم إلى بعضٍ فاكفروا.

الرَّابع: المحاربُ، هذا شديدٌ أيضًا، و«مُحَارِبٌ»؛ يعني: أنَّه عَرَّضَ رقبتَه للسَّيفِ من أجلِ أن يقيمَ ما هو عليه من الباطلِ، ولم يبالِ، فهو معلنٌ بالعداوةِ.

هل سَلِمَ الرَّسول -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- من هذه الأصنافِ الأربعةِ؟ الجوابُ: لا.

٣٤٦٦- وَتَظُنُّ أَنَّكَ وَارِثٌ لَهُمُ وَمَا   ذُقْتَ الأَذَى فِي نُصْرَةِ الرَّحْمَنِ

يعني: هل تظنُّ أنَّك وارثُ الرَّسولِ -عليه الصَّلاة والسَّلام- ولم تذق الذي ذاق؟! إن كنتَ تظنُّ ذلك فقد خَابَ ظَنُّكَ؛ لأنَّ الإرثَ يقتضي تلقِّي ما تركه المُورِّثُ من كُلِّ شيءٍ: في الدَّعوةِ، والعملِ، والصَّبرِ على الأذى، وإرخاص الدُّنيا كُلِّها من أجلِ تحقيقِ هذه الدَّعوةِ.

والله هذا ظنٌّ خاطئٌ خَائِبٌ؛ يعني: تَظُنُّ أنَّك وارثُ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ولم يُصبْك ما أصابَه؟! أين الإرثُ؟ إذا لم يُصِبْك ما أصابَه أو شيءٌ منه أو من نوعِه، فإنَّك قاصرٌ في إرثِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولا يمكنُ أن

---

(١) البيتان بلا نسبة في حياة الحيوان للدميري (١/ ٥١)، ونسبه في جواهر الأدب (٢/ ٤٢٩) لقيس ابن الخطيم.

تُفْرَشَ الأرضُ زهورًا وورودًا لإنسانٍ مُتمسِّكٍ بالسُّنَّةِ كما ينبغي أبدًا، فَمَنْ رَامَ ذلكَ فقد رَامَ المحالَ، وفَتِّش في التَّاريخِ، ما من إنسانٍ قَامَ لله عزَّ وجلَّ بحقٍّ إلَّا وَجَدَ أذىً، لكن هذا الأذى يختلفُ، قد يكونُ مَنْ يريدُ الأذى لا يتمكَّنُ لقوَّةِ السُّلطانِ مثلًا، أو لا يتمكَّنُ لشرفِ الرَّجلِ وجاهِه عند النَّاسِ أو لموانعَ أخرى، لكن لا بُدَّ أن يجدَ أذيَّةً.

٣٤٦٧- كَـلَّا وَلا جَاهَـدْتَ حَـقَّ جِهَـادِهِ فِي الله لا بِيَـــدٍ وَلا بِلِسَـــانِ

يعني: لا جاهدتَ بيدٍ، وجهادُ اليدِ يكونُ بالقلمِ ويكونُ بالسَّيفِ وبالرُّمحِ والقوسِ، «وَلَا بِلِسَانِ»، وجهادُ اللِّسانِ يكونُ بالقولِ، وتريدُ أن تكونَ وارثًا للرَّسولِ ﷺ! لا، إن كنت تريدُ هذا أو تظنُّ أنَّك وارثُه فقد خَابَ ظنُّك.

٣٤٦٨- مَنَّتْكَ وَالله المُحَـالَ الـنَّفْسُ فَاسْـ ـتَحْدِثْ سِوَى ذَا الرَّأْيِ وَالحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «**مَنَّتْكَ وَالله المُحَالَ النَّفْسُ**» نعم، فـ«**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِـمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِي**»[1]، فأنت إذا كنت تُمَنِّيك نفسُك أن تصلَ إلى درجةِ النَّبيِّين ووارثِ النَّبيِّين، وأنت لم تقم بما قام به النَّبيُّون من الدَّعوةِ والصَّبرِ على الأذى فيها، فإنَّ نفسَك تُمنِّيكَ المُحالَ؛ يعني: هذا شيءٌ مستحيلٌ، وأنت إذا نَظَرْتَ إلى الذين قاموا بالدَّعوةِ إلى الله وجدتَهم أشدَّ النَّاسِ أذيَّةً من غيرِهم، وإن كانت الأذيَّةُ تختلفُ، وقد يُوجَدُ لها موانعُ، لكن لا بُدَّ منها، فهذا الإمامُ أحمدُ إمامُ أهلِ السُّنَّةِ يُجَرُّ بالبغلةِ في السُّوقِ، إمامٌ ويُضْرَبُ بالسِّياط حتىَّ يُغْمَى عليه وهو صابرٌ على كلمتِه ثابتٌ.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة آنية الحوض، رقم (٢٤٥٩).

وهذا شيخُ الإسلام يُطَافُ به على العربةِ في السُّوقِ ويُزَجُّ في السِّجنِ، ويُمْنَعُ عنه الورقُ والمِدَادُ، ويُمْنَعُ عنه حتىَّ الكتابة في الجدرانِ؛ لأنَّه -رحمه الله- لـمَّا مُنِعَ المدادَ والورقَ جعل يكتبُ في الجدرانِ فمنعوا ذلك عنه، وبالتَّالي منعوا زُوَّارَه، لا يأتيه أحدٌ، ولم يحضرْه عند وفاتِه إلَّا أخوه عبدُ الرَّحمنِ، ومثل هؤلاء الأئمَّةِ وغيرِهم من أئمَّةٍ أُوذُوا في الله عزَّ وجلَّ، فإذا تَأَمَّلْتَ التَّاريخَ وجدتَ أنَّ كُلَّ مَنْ كان أقومَ لله كان أشدَّ أذيَّةً من أعداءِ الله، وهذا شيءٌ مُسَلَّمٌ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، فَيَلْزَمُ أن يَجْعَلَ لكُلِّ تابعِ نبيٍّ عدوًّا من المجرمين؛ لأنَّ أعداءَ الرُّسلِ ليسوا يُعَادُون الرَّسلَ لأشخاصِهم، كان محمَّدٌ ﷺ قبل الرِّسالةِ: الصَّادقَ الأمينَ عند قريشٍ، فكان مُعَظَّمًا مُبَجَّلًا، ولـمَّا جاء بالرِّسالةِ صار الكاذبَ الخائنَ الشَّاعرَ الكاهنَ السَّاحرَ.

إذا كان المجرمون لا يُعَادُون الرُّسلَ لأشخاصِهم، وإنَّما لِـمَا جاؤوا به من الحقِّ، فهذا الحقُّ إذا بَقِيَ وقامَ به مَنْ يقومُ من النَّاسِ صار المجرمون أعداءً له إرثًا بإرثٍ، وإذا شِئْتَ الدَّليلَ فكم من بني آدمَ يضلُّ؟ الجوابُ: تسعُمئةٍ وتسعةٌ وتسعون بالألفِ، أتظنُّ هؤلاء الضَّالِّين يحبُّون المهتدين؟! الجوابُ: لا يحبُّونهم أبدًا، وإن أظهروا المحبَّةَ لهم فهو نفاقٌ، كيف تحبُّه وهو على غيرِ طريقِك؟! هذا مستحيلٌ.

قَوْلُهُ: «فَاسْتَحْدِثْ سِوَى ذَا الرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ» «ذَا» هنا اسمُ إشارةٍ، وليست بمعنى «صَاحِب»؛ يعني: ابحث رأيًا غيرَ هذا.

٣٤٦٩- لَـوْ كُنْـتَ وَارِثَـهُ لآذَاكَ الأُلَـى   وَرِثُـوا عِـدَاهُ بِسَـائِرِ الأَلْـوَانِ

قَوْلُهُ: «لَوْ كُنْتَ وَارِثَهُ لآذَاكَ الأُلَى وَرِثُوا عِدَاهُ» وهذا صحيحٌ؛ يعني:

لو كنتَ وارثَ الرَّسولِ ﷺ حقيقةً وقَائِمًا بما قَامَ به لآذاك أعداؤه الذين كانوا يُؤذونه، والمرادُ هنا جنسُهم، وليس المرادُ أشخاصَهم؛ لأنَّهم ماتوا.

قَوْلُهُ: «بِسَائِرِ الأَلْوَانِ» «بِسَائِرِ» مُتعلِّقٌ بـ«آذَاكَ»؛ يعني: بِسَائِرِ الألوانِ من الأذى.

المهمُّ: أنَّ الإلحادَ في أسماءِ الله هو الميلُ بها عمَّا يجبُ ولها، ويكونُ بتحريفِها وتعطيلِها، والإلحادُ في آياتِ الله أيضًا الميلُ عمَّا يجبُ لها، ويكونُ إمَّا باعتقادِ شريكٍ مع الله فيها كخلقِ السَّماواتِ، أو باعتقادِ مُنْفَرِدٍ خَلَقَ بعضَ المخلوقاتِ، أو يكونُ باعتقادِ مُعِينٍ لله عزَّ وجلَّ فيها، وهذا يجمعُه قولُ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢]؛ يعني: لا يملكون استقلالًا، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ:٢٢]؛ أي: مشاركة، والثَّالث: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، كُلُّ هذه منتفيةٌ عن الآلهةِ، بقيت الشَّفاعةُ هل تشفعُ هذه الآلهةُ أو لا؟ قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣].

* * *

فصـــل

فِي النَّوْعِ الثَّانِي مِنْ نَوْعَيْ تَوْحِيدِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ المُخَالِفِ لِتَوْحِيدِ المُعَطِّلِينَ وَالمُشْرِكِينَ

٣٤٧٠- هَـذَا وَثَـانِي نَـوْعَيِ التَّوْحِيـدِ تَـوْ ... حِيـدُ العِبَـادَةِ مِنْـكَ لِلـرَّحْمَنِ

٣٤٧١- أَلَّا تَكُـونَ لِغَـيْرِهِ عَبْـدًا وَلا ... تَعْبُـدْ بِغَـيْرِ شَرِيعَـةِ الإِيـمَانِ

٣٤٧٢- فَتَقُـومُ بِالإِسْـلامِ وَالإِيـمَانِ وَالـ ... إِحْسَـانِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْـلانِ

٣٤٧٣- وَالصِّدْقُ وَالإِخْلاصُ رُكْنَا ذَلِكَ التَّـ ... ـوْحِيدِ كَـالرُّكْنَيْنِ لِلْبُنْيَـانِ

٣٤٧٤- وَحَقِيقَةُ الإِخْـلاصِ تَوْحِيـدُ المُرَا ... دِ فَـلا يُزَاحِمُـهُ مُـرَادٌ ثَـانِي

٣٤٧٥- لَكِـنْ مُـرَادُ العَبْـدِ يَبْقَـى وَاحِـدًا ... مَـا فِيـهِ تَفْرِيـقٌ لَـدَى الإِنْسَـانِ

٣٤٧٦- إِنْ كَـانَ رَبُّـك وَاحِـدًا سُـبْحَانَهُ ... فَاخْصُصْهُ بِالتَّوْحِيدِ مَـعْ إِحْسَـانِ

٣٤٧٧- إِنْ كَانَ رَبُّك وَاحِـدًا أَنْشَـاكَ لَـمْ ... يُشْـرِكْهُ إِذْ أَنْشَـاكَ رَبٌّ ثَـانِي

٣٤٧٨- فَكَـذَاكَ أَيْضًـا وَحْـدَهُ فَاعْبُـدْهُ لَا ... تَعْبُـدْ سِـوَاهُ يَـا أَخَـا العِرْفَـانِ

الشــرحُ

٣٤٧٠- هَـذَا وَثَـانِي نَـوْعَيِ التَّوْحِيـدِ تَـوْ ... حِيـدُ العِبَـادَةِ مِنْـكَ لِلـرَّحْمَنِ

سَبَقَ لنا في الفصولِ السَّابقةِ التَّوحيدُ العلميُّ الخبريُّ، أمَّا هذا النَّوعُ فهو

التَّوحيدُ الحكميُّ الطلبيُّ، فما سَبَقَ كُلُّه فيما يتعلَّقُ بالرَّحمنِ -جلَّ وعلا- من أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، أمَّا الآن فهو فيما يتعلَّقُ بأفعالِ الإنسانِ الذي وُجِّه إليه الطَّلبُ؛ فلهذا يقولُ:

٣٤٧١- أَلَّا تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا وَلا تَعْبُدْ بِغَيْرِ شَرِيعَةِ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «**أَلَّا تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا**»؛ يعني: أن تكونَ لله عبدًا، فلا تعبدْ غيرَه، فلا تعبدْ لا المَلِكَ ولا الرَّئيسَ ولا الأميرَ ولا الوزيرَ ولا الرَّسولَ ولا المَلَكَ، ولا الأبَ ولا العمَّ، بل ولا تعبد الدِّينارَ ولا الدِّرهمَ ولا الخميصةَ ولا الخميلةَ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ**»[1]، لا تكن عبدًا لغيرِ الله عزَّ وجلَّ، ألم تعلموا أنَّ من النَّاسِ مَنْ يعبدُ البقرَ؟ الجوابُ: بلى، فيهم مَنْ يعبدُ البقرَ، فيهم مَنْ يعبدُ الشَّمسَ، فيهم مَنْ يعبدُ القمرَ، فيهم مَنْ يعبدُ الفَرْجَ، إلى هذا الحدِّ، والعياذُ بالله، لا تكن لغيرِ الله عبدًا، تعلُّقُ القلبِ بغيرِ الله تعلُّقًا يساوي تعلُّقَ القلبِ بالله يُعتبرُ شركًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

قَوْلُهُ: «**وَلَا تَعْبُدْ بِغَيْرِ شَرِيعَةِ الإِيمَانِ**» هذا إشارةٌ إلى المتابعةِ، مع أنَّ العبادةَ بغيرِ شريعةِ الإيمانِ نوعٌ من الشِّركِ؛ فإنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة:٣١]؛ لأنَّهم يُشَرِّعُونَ لهم فيَتَّبِعُونَهم.

لا تعبدْ أحدًا، بل اعبد اللهَ وحدَه؛ فهو الذي له الذُّلُّ المُطْلَقُ والحُبُّ المُطْلَقُ، الحبُّ المُطْلَقُ الذي لا يعتريه شيءٌ من الكراهةِ والبُغضِ، والذُّلُّ المُطْلَقُ الذي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو، رقم (٢٨٨٦).

لا يعتريه ترفُّعٌ، إنَّما هو لله وحدَه، اجعل الذُّلَّ له والمحبَّةَ له حتَّى تكونَ عابدًا حقيقةً؛ ولهذا قال: «**أَلَّا تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا**»؛ أي: لا تكونَ لغيرِ الله عبدًا أبدًا، اعبد اللهَ، واعلم أنَّ الإنسانَ قد يعبدُ هواه، وما أكثرَ عبادةَ الهوى! ومن ذلك أن يكتمَ الحقَّ إرضاءً للنَّاسِ، أو أن يقولَ الباطلَ إرضاءً للنَّاسِ، فهذا حقيقةً إنَّما عَبَدَ غيرَ الله ولم يعبدِ اللهَ، فالذي يعبدُ اللهَ يَذِلُّ لله مهما كان الغيرُ معاديًا له، يلتمسُ رضا الله قبلَ كُلِّ شيءٍ؛ ولهذا قال: «**أَلَّا تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا**».

والشَّطرُ الأوَّلُ من البيتِ فيه الإخلاصُ، والثَّاني فيه المتابعةُ.

٣٤٧٢- فَتَقُومُ بِالإِسْلامِ وَالإِيمَانِ وَالـ ... إِحْسَانِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلانِ

قَوْلُهُ: «**فَتَقُومَ بِالإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ**» هذه الأمورُ الثَّلاثةُ هي الدِّينُ؛ لأنَّ جبريلَ سَأَلَ النَّبيَّ ﷺ عنها، ثُمَّ قال النَّبيُّ ﷺ: «**هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[1]، الإسلامُ: الأعمالُ الظَّاهرةُ، والإيمانُ: الأعمالُ الباطنةُ، وأمَّا الإحسانُ فيشملُ هذا وهذا، يشملُ إحسانَ السَّرائرِ وإحسانَ الظَّواهرِ.

قَوْلُهُ: «**فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ**»؛ يعني: سواء كان ذلك في الخفاءِ عن أعينِ النَّاسِ أم في الإعلانِ.

٣٤٧٣- وَالصِّدْقُ وَالإِخْلاصُ رُكْنَا ذَلِكَ التْـ ... ـتَوْحِيدِ كَالرُّكْنَيْنِ لِلبُنْيَانِ

الصِّدقُ سيأتي معناه في كلامِ المؤلِّفِ، وهو الجِدُّ في الطَّلبِ؛ لأنَّ كُلَّ مَنْ كان صادقًا في القصدِ فلا بُدَّ أن يكونَ جادًّا في الطَّلبِ، لو قلتَ مثلًا لشخصٍ: «**أنا أريدُ أن أسافرَ إلى مكَّةَ**»، إذا كنت صادقًا في إرادة السَّفرِ إلى مكَّةَ، ماذا تعملُ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨).

الجوابُ: تسعى بقدرِ ما تستطيعُ إلى الوصولِ إلى مكَّةَ.

إِذَنْ الصِّدقُ معناه: الجِدُّ في الطَّلبِ لوصولِ المقصودِ، ومن قال: «إنِّي صادقٌ»، ولكن ليس عنده جِدٌّ فهو كاذبٌ.

أمَّا الإخلاصُ فهو التَّوحيدُ: أن تُوَحِّدَ المقصودَ ولا تقصد سواه.

٣٤٧٤- وَحَقِيقَةُ الإِخْلاصِ تَوْحِيدُ المُرَا ... دِ فَلا يُزَاحِمُهُ مُرَادٌ ثَانِي

الإخلاصُ توحيدُ المرادِ، مَنِ المرادُ؟ اللهُ عزَّ وجلَّ تُوَحِّدُه، لا يزاحمُه مرادٌ ثانٍ.

فمثلًا: إذا صلَّى الإنسانُ يريدُ رضا الله، هذا مُوَحِّدٌ، وإذا صلَّى يريدُ أن يمدحَه النَّاسُ فهذا مشركٌ غيرُ مُوَحِّدٍ.

وَحِّدِ اللهَ عزَّ وجلَّ في قصدِك وفي عملِك.

٣٤٧٥- لَكِنْ مُرَادُ العَبْدِ يَبْقَى وَاحِدًا ... مَا فِيهِ تَفْرِيقٌ لَدَى الإِنْسَانِ

لـمَّا قال: «**فَلَا يُزَاحِمُهُ مُرَادٌ ثَانِي**» اسْتَدْرَكَ فقال: «**لَكِنْ**»، وهذا استدراكٌ على قولِه: «**فَلَا يُزَاحِمُهُ**» لكن مَنِ المرادُ بالواحدِ في العبادةِ؟ الجوابُ: اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال:

٣٤٧٦- إِنْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا سُبْحَانَهُ ... فَاخْصُصْهُ بِالتَّوْحِيدِ مَعْ إِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «**إِنْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا**»، وفي نسخة: «**إِذْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا**»، فعلى النُّسخةِ الأولى يكونُ المعنى: إذا كنتَ تعتقدُ أنَّ ربَّكَ واحدٌ فالواجبُ أن تخصَّه بالتَّوحيدِ والإحسانِ، وعلى نسخة: «**إِذْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا**» فالمعنى أنَّه كالتَّعليلِ.

والرَّبُّ عزَّ وجلَّ واحدٌ، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، فاللهُ تعالى وَاحِدٌ؛ ولهذا قال: «**إِنْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا**»؛ يعني: إن كنتَ تعتقد هذا وأنت صادقٌ «**فَاخْصُصْهُ بِالتَّوْحِيدِ مَعْ إِحْسَانِ**»، واخْصُصْهُ بِالتَّوحِيدِ؛ أي: بالإخلاصِ، و«**مَعْ إِحْسَانِ**»؛ أي: بالمتابعةِ.

٣٤٧٧- إِنْ كَانَ رَبُّك وَاحِدًا أَنْشَاكَ لَمْ ... يُشْرِكْهُ إِذْ أَنْشَاكَ رَبٌّ ثَانِي

وهل هذا مُسَلَّمٌ أو غيرُ مُسَلَّمٍ؟ فالذي أنشأني واحدٌ وهو اللهُ، ما خَلَقَتْنِي أُمِّي ولا أبي ولا أحدٌ من النَّاسِ، الذي خَلَقَنِي هو اللهُ عزَّ وجلَّ وحدَه، فإذا كان واحدًا فاخصصه بالعبادةِ؛ ولهذا قال:

٣٤٧٨- فَكَذَاكَ أَيْضًا وَحْدَهُ فَاعْبُدْهُ لَا ... تَعْبُدْ سِوَاهُ يَا أَخَا العِرْفَانِ

المؤلِّفُ -رحمه الله- ذَكَرَ سَبَبَيْنِ لوجوبِ الإخلاصِ:

السَّبب الأوَّل: أنَّك تعتقدُ أنَّ اللهَ واحدٌ.

السَّبب الثَّاني: أنَّك تعتقدُ أنَّ اللهَ وحدَه هو الذي أنشأك، فإذا كان الأمرُ كذلك، فهل يحقُّ لك بعد هذا أن تجعلَ معه شريكًا في العبادةِ؟ الجوابُ: لا.

* * *

٣٤٧٩- وَالصِّدْقُ تَوْحِيدُ الإِرَادَةِ وَهْوَ بَذْ ... لُ الجُهْدِ لا كَسَلًا وَلا مُتَوَانِي

٣٤٨٠- وَالسُّنَّةُ المُثْلَى لِسَالِكِهَا فَتَوْ ... حِيدُ الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السُّلْطَانِي

٣٤٨١- فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ ... أَعْنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

٣٤٨٢- هَـذِي ثَـلاثٌ مُسْـعِدَاتٌ لِلَّـذِي ... قَـدْ نَالَـهَا وَالفَضْـلُ لِلمَنَّـانِ

٣٤٨٣- فَإِذَا هِـيَ اجْتَمَعَـتْ لِـنَفْسٍ حُـرَّةٍ ... بَلَغَـتْ مِـنَ العَلْيَـاءِ كُـلَّ مَكَـانِ

٣٤٨٤- لله قَلْـبٌ شَـامَ هَاتِيـكَ الـبُرُو ... قَ مِـنَ الخِيَـامِ فَهَـمَّ بِـالطَّيَرَانِ

٣٤٨٥- لَـوْلا التَّعَلُّـلُ بِالرَّجَـاءِ تَصَـدَّعَتْ ... أَعْشَـارُهُ كَتَصَـدُّعِ البُنْيَـانِ

٣٤٨٦- وَتَـرَاهُ يَبْسُـطُهُ الرَّجَـاءُ فَيَنْثَنِـي ... مُـتَمَايِلًا كَتَمَايُـلِ النَّشْـوَانِ

٣٤٨٧- وَيَعُـودُ يَقْبِضُـهُ الإِيَـاسُ لِكَوْنِـهِ ... مُتَخَلِّفًـا عَـنْ رُفْقَـةِ الإِحْسَـانِ

٣٤٨٨- فَتَرَاهُ بَيْنَ القَبْضِ وَالبَسْـطِ اللَّذَيْـ ... ـنِ هُمَـا لِأُفْـقِ سَمَائِهِ قُطْبَـانِ

٣٤٨٩- وَبَدَا لَهُ سَعْدُ السُّعُودِ فَصَـارَ مَسْـ ... ـرَاهُ عَلَيْـهِ لا عَـلَى الـدَّبَرَانِ

٣٤٩٠- لله ذَيَّـاكَ الفَرِيـقُ فَـإِنَّهُمْ ... خُصُّـوا بِخَالِصَـةٍ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٣٤٩١- شُـدَّتْ رَكَـائِبُهُمْ إِلَى مَعْبُـودِهِمْ ... وَرَسُـولِهِ يَـا خَيْبَـةَ الكَسْـلانِ!

الشـرحُ

٣٤٧٩- وَالصِّدْقُ تَوْحِيدُ الإِرَادَةِ وَهْـوَ بَـذْ ... لُ الجُهْـدِ لا كَسَـلًا وَلا مُتَـوَانِي

الصِّدقُ أن تبذلَ الجهدَ في الوصولِ إلى المرادِ، وأن تكونَ جادًّا في العملِ؛ فلا تكن كسلانَ ولا متوانيًا؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِي»[1]، وَقَال ﷺ:

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة آنية الحوض، رقم (٢٤٥٩).

«**الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ**»[1]؛ ولهذا حتَّى فيما بين النَّاسِ إذا قيل: «**فلانٌ يريدُ كذا وكذا**» وهو كسلانُ لم يعمل، قيل: أبدًا، لو كان صادقًا لَفعَلَ، قال: «**فلانٌ يحبُّك ويحبُّ أن يزورَك دائمًا**» ولكنَّه لا يراه بالسَّنةِ إلَّا مرَّةً، ماذا يقولُ؟ يقول: لو كان صادقًا أنَّه يُحِبُّ الزِّيارةَ لَزارَنا.

٣٤٨٠- وَالسُّنَّةُ الْمُثْلَى لِسَالِكِهَا فَتَوْ ... حِيدُ الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السُّلْطَانِي

الله أكبر، هذا توحيدُ الطَّريقِ؛ لأنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ هو المقصودُ والمرادُ، فلا بُدَّ من الإخلاصِ له، ولا بُدَّ من الصِّدقِ في طلبِه، ولا بُدَّ أيضًا من سلوكِ الطَّريقِ المُوصِلِ إليه.

لو قال إنسانٌ: أنا -والله- أُحِبُّ بكُلِّ قلبي أن أصلَ إلى مكَّةَ، وهَيَّأَ الرَّاحلةَ، ثُمَّ ذهب إلى الشَّرقِ، وقال: أنا ذاهبٌ إلى مكَّةَ؟

نقولُ: هذا غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّه لم يسلك الطَّريقَ الموصلَ إلى الله، فلا بُدَّ من سلوكِ الطَّريقِ الذي يُوصِلُك إلى الله، وما هو الطَّريقُ؟ ليس هناك إلَّا طريقٌ واحدٌ، وهو طريقُ رسولِ الله ﷺ، أسألُ اللهَ أن يُوفِّقَنا وإيَّاكم لسلوكِه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فالطُّرقُ سوى الطَّريقِ الأعظمِ كُلُّها ضلالاتٌ، ولهذا قال: «**وَالسُّنَّةُ الْمُثْلَى**»؛ يعني: العُلْيَا في المَثَلِ التي هي خيرُ الهدي لسالكِها، فتوحيدُ الطَّريقِ الأعظمِ السُّلطاني.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

٣٤٨١- فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ ... أَعْنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «فَلِوَاحِدٍ» الواحدُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، وذلك بالإخلاصِ.

قَوْلُهُ: «كُنْ وَاحِدًا»؛ أي: في صدقِك وجِدِّك واجتهادِك.

قَوْلُهُ: «فِي وَاحِدٍ»؛ أي: وَحِّدْ نفسَك لله عزَّ وجلَّ في طريقٍ واحدٍ وهو طريقُ النَّبِيِّ ﷺ وذلك بالمتابعةِ.

٣٤٨٢- هَذِي ثَلاثٌ مُسْعِدَاتٌ لِلَّذِي ... قَدْ نَالَهَا وَالفَضْلُ لِلمَنَّانِ

قَوْلُهُ: «هَذِي ثَلَاثٌ مُسْعِدَاتٌ»، وهي: الأولى: الإخلاصُ، والثَّانية: الصِّدقُ، والثَّالثة: المتابعةُ، اللَّهُمَّ اجعلنا مِمَّنْ ينالُها.

٣٤٨٣- فَإِذَا هِيَ اجْتَمَعَتْ لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ... بَلَغَتْ مِنَ العَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ

هذا بيتٌ لرجلٍ سبق ابنَ القيِّم وهو المتنبِّي حيث قال:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ ... هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثَّانِي

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ... بَلَغَتْ مِنَ العَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ[1]

إِلَّا أنَّ المؤلِّفَ يقولُ: «فَإِذَا هِيَ اجْتَمَعَتْ»، والمتنبِّي يقولُ: «فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا»؛ لأنَّ الضَّميرَ يعودُ على ما قبلَه في البيتَيْنِ.

وهذان البيتان من حِكَمِ المتنبِّي، وكُلُّ ديوانِ المتنبِّي إِلَّا القليل منه كُلُّه حِكَمٌ عظيمةٌ جدًّا، ومِمَّا أنشدناه شيخُنا رحمه اللهُ حيث قال:

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَى ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

(١) نهاية الأرب (٦/ ٧٧).

قَوْلُهُ: «النَّدَى»؛ أي: العطاء.

قَوْلُهُ: «فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَى مُضِرٌّ»؛ أي: مُضِرٌّ بالعُلَى، والمعنى: أنَّ موضعَ السَّيفِ مُضِرٌّ بالعُلَى كوضعِ السَّيفِ في موضعِ النَّدى، فليس بصحيحٍ أن تضربَ عنقَ إنسانٍ جاء يستجديك ولم تأتِ منه خطيئةٌ.

المهمُّ أنَّ هذه الثَّلاثَ هي سببُ سعادةِ المرءِ، فإذا اجتمعت لنفسٍ حُرَّةٍ بَلَغَتْ من العلياءِ كُلَّ مكانٍ.

٣٤٨٤- لله قَلْبٌ شَامَ هَاتِيكَ البُرُو ... قَ مِنَ الخِيَامِ فَهَمَّ بِالطَّيَرَانِ

قَوْلُهُ: «شَامَ»؛ أي: نَظَرَ، ومنه قولُ الشَّاعرِ:

أَقُولُ لِعَبْدِ الله لَـمَّا سِقَاؤُنَا ... وَنَحْنُ بِوَادِي عَبْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمِ

وهذا فيه لغزٌ أيضًا، وهو قولُه: «وَهَاشِمِ»؛ لأنَّ أصلَها «وَهَى»؛ يعني: ضَعُفَ.

والمعنى: لـمَّا وَهَى سقاؤنا وضَعُفَ ولم يكن فيه ماءٌ، أقولُ له: شِمْ؛ يعني: انظر إلى البرقِ؛ لأنَّ البرقَ يكونُ فيه الرَّعدُ والمطرُ.

هذا قلبُ إنسانٍ في الخيامِ فرأى البرقَ بعد مُدَّةٍ طويلةٍ لم يره تجد قلبَه من شدَّةِ شوقِه إلى البرقِ يَهِمُّ بالطَّيرانِ.

٣٤٨٥- لَوْلا التَّعَلُّلُ بِالرَّجَاءِ تَصَدَّعَتْ ... أَعْشَارُهُ كَتَصَدُّعِ البُنْيَانِ

قَوْلُهُ: «أَعْشَارُهُ» الظَّاهر لي -واللهُ أعلمُ- أنَّ أعشارَ البيتِ (الخيمة) أنَّها جوانبُها.

وَقَوْلُهُ: «أَعْشَارُهُ»، وفي نسخة: «أَحْشَاؤُهُ».

فلو أنَّ الإنسانَ -ونحن قاصرون- يرجو العفوَ من الله عزَّ وجلَّ عن التَّفريطِ في الطَّاعاتِ والغفرانِ للسَّيِّئاتِ لولاه لتصدَّعت الأحشاءُ وهلك الإنسانُ، وهذا صحيحٌ.

٣٤٨٦- وَتَـرَاهُ يَبْسُـطُهُ الرَّجَـاءُ فَيَنْثَنِـي ... مُـتَمَايِلًا كَتَمَايُـلِ النَّشْـوَانِ

٣٤٨٧- وَيَعُـودُ يَقْبِضُـهُ الإِيَـاسُ لِكَوْنِـهِ ... مُتَخَلِّفًـا عَـنْ رُفْقَـةِ الإِحْسَـانِ

يعني: قلبُه أحيانًا ينفتحُ له الرَّجاءُ فيفرحُ ويطربُ سواء تمايلت حِسًّا أو معنىً، ويقولُ: وَصَلْتُ إلى الغايةِ، وأحيانًا يقبضُه اليأسُ، وهذا ليس من قِبَلِ الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ اللهَ أهلُ الكرمِ لكن من قِبَلِ العبدِ؛ لأنَّه متخلِّفٌ عن رفقةِ الإحسانِ، يجدُ نفسَه يقولُ: أين أنا من قومٍ لا ينامون اللَّيلَ، يُحيونه رُكَّعًا وسُجَّدًا وقيامًا لله عزَّ وجلَّ، فمتى أَصِلُ إلى منازلِ هؤلاء؟ وأحيانًا يبسطُه الرَّجاءُ فيقولُ: إنَّ عفوَ الله أوسعُ من عقوبتِهِ، ويحملُه الرَّجاءُ على أن ينشرحَ صدرُه ويفرحَ ويطربَ، ولهذا قال المؤلِّف رحمه الله:

٣٤٨٨- فَتَرَاهُ بَيْنَ القَبْضِ وَالبَسْـطِ اللَّذَيْـ ... ـنِ هُمَـا لِأُفْـقِ سَـمَائِهِ قُطْبَـانِ

يعني: قلبُه بين القبضِ والبسطِ، يَبسطُ عند الرَّجاء، وينقبضُ عند اليأسِ والخوفِ، ولهذا اختلف أهلُ العلم -رحمهم اللهُ- في السَّائرِ إلى الله عزَّ وجلَّ هل يُغَلِّبُ الرَّجاءَ أو يُغَلِّبُ الخوفَ؛ لأنَّه إنْ غلَّب الرَّجاءَ وقع في محذورٍ وهو الأمنُ من مكرِ الله، وإن غَلَّب الخوفَ وقع في محذورٍ وهو اليأسُ من رحمةِ الله، فهو بين محذورين؟

قال الإمامُ أحمدُ -رحمه الله-: ينبغي أن يكونَ خوفُه ورجاؤه واحدًا، فأيُّهما غلب هلك صاحبُه، وشَبَّهَه بعضُ العلماءِ بالطَّائرِ يطيرُ بين جناحَيْنِ: جناحِ الرَّجاءِ

وجناحِ الخوفِ، إن مال أحدُهما هوى وسَقَطَ.

وفَصَّلَ بعضُ أهلِ العلمِ فقال: ينبغي إذا حَدَّثَتْهُ نفسُه بالمعصيةِ أن يُغَلِّبَ جانبَ الخوفِ لِئَلَّا يقعَ فيه؛ لأَنَّه قد تَحْمِلُه نفسُه على الرَّجاءِ، فيقولُ: أفعلُ المعصيةَ واللهُ غفورٌ رحيمٌ، وإذا فَعَلَ الطَّاعةَ فليُغَلِّبْ جانبَ الرَّجاءِ؛ لأَنَّه إذا فَعَلَ الطَّاعةَ فلا ينبغي أن يقولَ: «**لا تُقْبَلُ منِّي**»، بل يُرَجِّحُ جانبَ القَبولِ وهو جانبُ الرَّجاءِ حتَّى يكونَ محسنًا للظَّنِّ بالله عزَّ وجلَّ، هذان قولان.

القولُ الثَّالثُ: يقولُ: ينبغي أن يكونَ الرَّجاءُ والخوفُ مَبْنِيًّا على اختلافِ الجهةِ، فإذا نَظَرْتَ إلى أفعالِك فَغَلِّبْ جانبَ الخوفِ سواء كانت طاعةً أم معصيةً، وإذا نَظَرْتَ إلى فضلِ الله فَغَلِّبْ جانبَ الرَّجاءِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى «كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ»(1)، أَمَّا أنت فأنت محَلُّ التُّهمة، متى نَظَرْتَ إلى نفسِك فغَلِّبْ جانبَ الخوفِ ليحملكَ هذا الجانبُ على تركِ المحرَّماتِ وفعلِ الطَّاعاتِ.

القولُ الرَّابعُ: في حالِ الصِّحَّةِ والنَّشاطِ يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ، وفي حال المرضِ -ولاسيَّما المرضُ المزمن الذي يظنُّ المرءُ أَنَّه قريبُ الأجلِ- يُغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ حتَّى يموتَ وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله عزَّ وجلَّ، واللهُ تعالى عند ظنِّ عبدِه به.

والحقيقةُ أَنَّ الإنسانَ ينبغي له -فيما نرى- أن يَنظرَ حالَه، إذا رأى نفسَه تميلُ إلى الرَّجاءِ فتحملُه على التَّهاونِ بالطَّاعاتِ وعلى فعلِ المحرَّماتِ فيجبُ أن يَكْبَحَ جِمَاحَها فيردَّها إلى جانبِ الخوفِ، وإذا غلب على نفسِه الخوفُ حتَّى يكادَ ييأس من أنَّ اللهَ قَبِلَ منه طاعةً، أو أَنَّه أتى بطاعةٍ تُرْضِي ربَّه فهنا يُغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ، والإنسانُ الذي يُوفِّقُه اللهُ عزَّ وجلَّ يكونُ طبيبَ نفسِه، يعرفُ نفسَه.

---

(1) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، رقم (٦٩٨٦).

٣٤٨٩- وَبَدَا لَهُ سَعْدُ السُّعُودِ فَصَارَ مَسْـ ـرَاهُ عَلَيْهِ لا عَلَى الدَّبَرَانِ

«**الدَّبَرَانِ**»: نجمٌ أحمرُ من النُّجومِ الفصليَّةِ يسيرُ دُبُرَ الثُّرَيَّا، والثُّرَيَّا معروفةٌ، وبمجيء الدَّبَرَانِ يكونُ ابتداءُ الحرِّ في الغالبِ، أمَّا «**سَعْدُ السُّعُودِ**» فهو السَّعدُ الثَّالثُ من السُّعداءِ الثَّلاثةِ، وهي ما يُسَمَّى عند العامَّةِ في لغتنا «**العقرب**»، أتعرفون العقاربَ التي تقومُ في آخرِ الشِّتاءِ؟ سعد الذَّابح، وسعد بُلَع، وسعد السُّعودِ، آخرُها سعدُ السُّعود وبه ينتهي فصلُ الشِّتاءِ ويدخلُ فصلُ الرَّبيعِ؛ ولهذا يكونُ طالعُه جيِّدًا بمعنى أنَّه إذا دخل هذا النَّجمُ عند العامَّةِ قالوا: الآنَ أقبل الخيرُ، ليس لأنَّ النَّجمَ يأتي بالخيرِ أو بالشَّرِّ، فهو لا يُفِيدُ سعادةً ولا شقاءً، ولا عَلاقةَ لتغيُّرِ الأفلاكِ السَّماويةِ بالحوادثِ الأرضيَّةِ، لكنَّه علامةٌ على حُسْنِ الفصلِ أو الطَّقسِ كما يقولون باللُّغة الحاضرة، فهذا سعدُ السُّعُودِ.

٣٤٩٠- للهِ ذَيَّاكَ الفَرِيقُ فَإِنَّهُمْ خُصُّوا بِخَالِصَةٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٦-٤٧]، وما أسعدَ الذي يُخْلِصُه اللهُ بخالصةٍ، وهذا الفريقُ خُصَّ بخالصةٍ، لكن عندنا إشكالٌ في قوله: «**للهِ ذَيَّاكَ الفَرِيقُ**»، «**ذَيَّاكَ**» تصغيرٌ مع أنَّ رُتبتَهم عاليةٌ لكن التَّصغيرُ قد يُرَادُ به التَّمليحُ، وعندنا حتَّى في اللغة العامِّيَّة يقول: «**يا حِليلُهْ**»، ومنه قولُ الرَّسولِ لابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «**يا غُلَيِّمُ**»[1] تمليحًا.

وقد ذكر ابنُ القيِّم -رحمه الله- في النُّونيَّةِ لـمَّا ذَكَرَ السَّماعَ في الجنَّةِ قال:

وَاهًا لِذَيَّاكَ السَّمَاعِ وَلَمْ أَقُلْ ذَيَّاكَ تَصْغِيرًا لَهُ بِلِسَانِي

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧، رقم ٢٨٠٤).

فهنا لم يقل تصغيرًا لهذا الفريقِ، وهذا الفريقُ هم أفضلُ الفرق.

٣٤٩١- شُـدَّتْ رَكَـائِبُهُمْ إِلَى مَعْبُـودِهِمْ وَرَسُـولِهِ يَـا خَيْبَـةَ الكَسْـلانِ!

قَوْلُهُ: «شَدَّتْ رَكَائِبُهُمْ إِلَى مَعْبُودِهِمْ»؛ أي: بالإخلاصِ، وإلى «رَسُولِهِ»؛ أي: بالمتابعة.

قَوْلُهُ: «يَا خَيْبَةَ الكَسْلَانِ!» كيف ناداها؟ هل هي تعقلُ حتَّى تُنَادَى؟ أَنْزَلَـهَا منزلةَ العاقلِ؛ أي: يا خيبةَ الكسلان احْضرِي، فإِنَّ الكسلانَ ليس له إِلَّا الخيبةُ والنَّدمُ، نسأَلُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم من أهلِ العملِ لا من أهلِ الكسلِ.

* * *

فصل

٣٤٩٢- وَالشِّرْكَ فَاحْذَرْهُ فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ ذَا القِسْمُ لَيْسَ بِقَابِلِ الغُفْرَانِ

٣٤٩٣- وَهُوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ لِلرَّحْمَنِ أَيْـ ـيًا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ

٣٤٩٤- يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ

٣٤٩٥- وَاللهِ مَا سَاوَوْهُمُ بِاللهِ فِي خَلْقٍ وَلا رِزْقٍ وَلا إِحْسَانِ

٣٤٩٦- فَاللهُ عِنْدَهُمُ هُوَ الخَلَّاقُ وَالرْ رَزَّاقُ مُولِي الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

٣٤٩٧- لَكِنَّهُمْ سَاوُوهُمُ بِاللهِ فِي حُبٍّ وَتَعْظِيمٍ وَفِي إِيمَانِ

٣٤٩٨- جَعَلُوا مَحَبَّتَهُمْ مَعَ الرَّحْمَنِ مَا جَعَلُوا المَحَبَّةَ قَطُّ لِلرَّحْمَنِ

٣٤٩٩- لَوْ كَانَ حُبُّهُمُ لِأَجْلِ اللهِ مَا عَادُوا أَحِبَّتَهُ عَلَى الإِيمَانِ

٣٥٠٠- وَلَمَا أَحَبُّوا سُخْطَهُ وَتَجَنَّبُوا مَحْبُوبَهُ وَمَوَاقِعَ الرِّضْوَانِ

٣٥٠١- شَرْطُ المَحَبَّةِ أَنْ تُوَافِقَ مَنْ تُحِبْ بُ عَلَى مَحَبَّتِهِ بِلا عِصْيَانِ

٣٥٠٢- فَإِذَا ادَّعَيْتَ لَهُ المَحَبَّةَ مَعْ خِلا فِكَ مَا يُحِبُّ فَأَنْتَ ذُو بُهْتَانِ

٣٥٠٣- أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الحَبِيبِ وَتَدَّعِي حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ

٣٥٠٤- وَكَذَا تُعَادِي جَاهِدًا أَحْبَابَهُ أَيْنَ المَحَبَّةُ يَا أَخَا الشَّيْطَانِ

الشـرحُ

لـمَّا ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- التَّوحيدَ ذَكَرَ الشِّركَ المضادَّ لتوحيدِ العبادةِ الذي نُسمِّيه بتوحيدِ الطَّلبِ؛ لأنَّ توحيدَ الخبرِ سبق الكلامُ عليه وانتهى، يقولُ:

٣٤٩٢- وَالشِّـرْكَ فَاحْذَرْهُ فَشِـرْكٌ ظَـاهِرٌ ذَا القِسْـمُ لَـيْسَ بِقَابِـلِ الغُفْـرَانِ

نَصَحَ -رحمه الله- وأخلص في نُصحِه حيث حَذَّرَ من الشِّركِ كُلِّه الظَّاهرِ والخفيِّ؛ لأنَّ الشِّركَ هو البلاءُ، وقَسَّمَه إلى قسمين: شركٍ ظاهرٍ وشركٍ خفيٍّ، فالشِّركُ الظَّاهرُ هو الشِّركُ الأكبرُ، وهذا القسمُ لا يقبلُ الغفرانَ لقولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء:٤٨]، واختلف العلماءُ -رحمهم اللهُ- في الشِّركِ الأصغرِ كالحلفِ بغيرِ الله ويسيرِ الرِّياءِ وما أشبه ذلك، هل يغفرُه اللهُ أو لا؟ فمنهم مَنْ قال: إنَّه لا يُغْفَرُ؛ لعمومِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء:٤٨]، وهو ظاهرُ لفظِ القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، «**أَنْ**» وما دخلت عليه في تأويلِ مصدرٍ تقديرُه: «**إشراكًا به**»، وهذا عامٌّ؛ لأنَّه نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، وإن كانت ليست نكرةً صريحةً بل بالتَّأويلِ، ومَنْ نَظَرَ إلى المعنى وأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢]، وهذا بالاتِّفاقِ المرادُ به الشِّركُ الأكبرُ، قال: إنَّ الآيةَ التي في النِّساءِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ هذا في الشِّركِ الأكبرِ، ولكن على كُلِّ حالٍ فالإنسانُ على خطرٍ ويجبُ عليه أن يتوبَ من الشِّركِ الأصغرِ إذ يُخْشَى إن مات بدون توبةٍ منه أن يُعَذَّبَ به.

ومنهم مَنْ قال: بل يُغْفَرُ؛ لأنَّ الشِّركَ الذي لا يُغْفَرُ هو الذي قال اللهُ عنه:

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وهذا الثَّاني هو ظاهرُ كلام ابنِ القيِّم رحمه اللهُ؛ ولهذا قال: «**فَشِرْكُ ظَاهِرٌ ذَا القِسْمُ**»؛ يعني: الشِّركُ الظَّاهرُ «**لَيْسَ بِقَابِلِ الغُفْرَانِ**».

ثُمَّ ذَكَرَ منه أمثلةً فقال:

٣٤٩٣- وَهُوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ لِلرَّحْمَنِ أَيْـ ... ـيًا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ

اتِّخاذُ النِّدِ؛ أي: النَّظيرِ والمثيلِ والشَّبيهِ لله سواء كان من حجرٍ أم إنسانٍ أم مَلَكٍ مهما كان.

أمَّا الحجرُ فيُوجَدُ مَن يتَّخذُ نِدًّا من الأحجارِ، يُعَظِّمُ الحجرَ أكثرَ مِمَّا يُعَظِّمُ اللهَ أو مِثْلَ تعظيمِ الله، «**اللَّات والعُزَّى ومناة وهُبَل**»، وثلاثمائة وستين صنمًا كَسَّرَها النَّبيُّ ﷺ بيدِه في الكعبةِ[1].

أمَّا الإنسانُ فما أكثرَ الذين يعبُدون الإنسانَ، ولكن ليست العبادةُ أن تركعَ وتسجدَ له، إذا جَعَلْتَ محبَّتَه كمحبَّةِ الله وتعظيمَه كتعظيمِ الله فهذا شركٌ، ويدلُّ لهذا علاماتٌ: أن تُقَدِّمَ ما يحبُّه هذا على ما يُحِبُّه اللهُ، فإذا قال: «**لا تُصَلِّ**» لم تُصَلِّ، وإذا أمرك بشيءٍ من معصيةِ الله أَطَعْتَه، وإذا نهاك عن شيءٍ مِمَّا يحبُّه اللهُ تَرَكْتَهُ، فهذا شركٌ.

٣٤٩٤- يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ ... وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «**يَدْعُوهُ**»؛ يعني: دعاءَ مسألةٍ أو دعاءَ عبادةٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر، أو تخرق الزقاق، رقم (٢٣٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة، رقم (١٧٨١).

قَوْلُهُ: «يَرْجُوهُ» كرجاءِ الله.

قَوْلُهُ: «يَخَافُهُ» كمخافةِ الله.

قَوْلُهُ: «يُحِبُّهُ» كمحبَّة الله، وهذا يُوجَدُ من أناسٍ يُحِبُّونَ المخلوقَ كمحبَّةِ الله عزَّ وجلَّ أو أشدُّ.

وكُلُّ هذا شركٌ.

٣٤٩٥- وَاللهِ مَا سَاوَوْهُمُ بِاللهِ فِي خَلْقٍ وَلا رِزْقٍ وَلا إِحْسَانِ

يعني: بذلك: المشركين، يقولُ: إِنَّهم ما ساووهم بالله؛ يعني: ما ساوَوْا أصنامَهم بالله في هذه الأمور: في الخلقِ والرِّزْقِ والإحسانِ، فهؤلاء المشركون لا يقولون: إنَّ هذه الأصنامَ تخلقُ كما يخلقُ اللهُ أو تَرْزُقُ كما يرزقُ اللهُ؛ ولهذا لو سألتَهم: مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ؟ لقالوا: الله كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وكما قال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١]، فهم مُقِرُّون بأنَّ الخلقَ والرِّزْقَ كُلَّه لله عزَّ وجلَّ، ولم يساووا أصنامَهم بالله في ذلك.

٣٤٩٦- فَاللهُ عِنْدَهُمُ هُوَ الخَلَّاقُ وَالرْ رَزَّاقُ مُولِي الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

٣٤٩٧- لَكِنَّهُمْ سَاوُوهُمُ بِاللهِ فِي حُبٍّ وَتَعْظِيمٍ وَفِي إِيمَانِ

ففي مسألةِ الرُّبوبيَّةِ لم يساووهم بالله، وفي مسألة العبادةِ والتَّألُّهِ ساوَوْهم بالله، وفي الحُبِّ والتَّعظيمِ والإيمانِ جعلوا محبَّتَهم كمحبَّةِ الله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، كذلك في

التَّعظيمِ تجدُ الواحدَ منهم يقومُ يُصلِّي بين يدي الله، وله حركاتٌ قلبيَّةٌ وحركاتٌ بصريَّةٌ وحركاتٌ سمعيَّةٌ وحركاتُ جوارح، فله حركاتٌ قلبيَّةٌ فتجدُه في كُلِّ وادٍ، وله حركاتٌ بصريَّةٌ، فكُلُّ مَنْ مَرَّ أَتْبَعَ بصرَه إيَّاه، حركاتٌ سمعيَّةٌ تجدُه إذا سَمِعَ كلامًا قام يُنْصِتُ ويسمعُ ماذا يقولون؟ حتىَّ إِنَّه إذا سَمِعَ أغنيَّةً أَنْصَتَ لها وهو يُصَلِّي، وهذا موجودٌ، نسأَلُ اللهَ العافيةَ.

٣٤٩٨- جَعَلُوا مَحَبَّتَهُمْ مَعَ الرَّحْمَنِ مَا جَعَلُوا المَحَبَّةَ قَطُّ لِلرَّحْمَنِ

يعني: أنَّ محبَّةَ هؤلاءِ مساويةٌ عندهم لمحبَّةِ الله، فهم لم يجعلوا المحبَّةَ لله وحدَه، ولم يُخْلِصوا لله وحدَه، وهذه هي المحبَّةُ الشِّركيَّةُ، أمَّا المحبَّةُ في الرَّحمنِ فهي محبَّةٌ إيمانيَّةٌ؛ ولهذا يُفَرِّقُ بين الحُبِّ في الله والحُبِّ مع الله، الحُبُّ مع الله شِركٌ، والحُبُّ في الله أو لله هذا إيمانٌ، فمن تمامِ الإيمانِ أن تُحِبَّ الشَّخصَ لا تحبُّه إلَّا لله.

٣٤٩٩- لَوْ كَانَ حُبُّهُمُ لِأَجْلِ اللهِ مَا عَادُوا أَحِبَّتَهُ عَلَى الإِيمَانِ

وهذا صحيحٌ، فلو كانوا يحبُّون اللهَ حقًّا ما عادَوْا أحبَّةَ الله، ما عادَوُا الرُّسلَ ولا عادَوْا أتباعَ الرُّسلِ؛ لأَنَّهم مؤمنون، وقولُه: «عَلَى الإِيمَانِ»؛ يعني: لكونهم مؤمنين.

٣٥٠٠- وَلَمَا أَحَبُّوا سُخْطَهُ وَتَجَنَّبُوا مَحْبُوبَهُ وَمَوَاقِعَ الرِّضْوَانِ

وهذا صحيحٌ أيضًا، فمن لازمِ محبَّتِهم لله أن يتَّبِعوا ما يرضيه، أمَّا أن يتَّبِعوا ما يُسخِطُ اللهَ فإنَّهم وإن ادَّعَوا المحبَّةَ فهم كاذبون في ذلك، ثُمَّ قال المؤلِّفُ رحمه اللهُ:

٣٥٠١- شَرْطُ المَحَبَّةِ أَنْ تُوَافِقَ مَنْ تُحِـبْـ ـبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ بِلا عِصْيَانِ

وهذا صحيحٌ، فشرطُ المحبَّةِ الدَّالُّ على صدقِها أن تُوافِقَ مَنْ تُحِبُّ على محبَّتِهِ؛ يعني: على ما يُحِبُّه بلا عصيانٍ.

وأنت لو جَرَّبْتَ هذا فيما بينك وبين النَّاسِ وقلتَ لشخصٍ: «والله إنِّي أُحبُّك حُبًّا شديدًا»، وفي يومٍ من الأيَّامِ جاء إليك وقال: «افعل كذا وكذا، اذهب إلى فلان كَلِّمْه»، فقال: «والله لا أذهب»، هل هذا يدلُّ على محبَّتِهِ لك؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّك لو كنتَ صادقًا لَذَهَبْتَ، والإنسانُ الذي يُحِبُّ الشَّخصَ يتشرَّفُ ويفرحُ إذا أمره ولا يخالفُه، بل إنَّه يقتدي به في أفعالِه وأخلاقِه حتىَّ وإنْ لم يأمرْه بذلك لموافقةِ الطِّباعِ.

٣٥٠٢- فَإِذَا ادَّعَيْتَ لَهُ المَحَبَّةَ مَعْ خِلا فِكَ مَا يُحِبُّ فَأَنْتَ ذُو بُهْتَانِ

أي: ذو كذبٍ، إذ كيف تَعصي الإلهَ وتدَّعِي أنَّك تُحبُّه؟!

٣٥٠٣- أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الحَبِيبِ وَتَدَّعِي حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ

وهذا صحيحٌ، إنسانٌ يدَّعِي أنَّه يُحِبُّ شخصًا وهو يُحِبُّ أعداءَه، هل هذا صحيحٌ؟ الجوابُ: غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّه لو كان يُحِبُّه حقًّا ما أحبَّ أعداءَه، بل لكان عدوًّا لأعدائِه، حتىَّ الصِّبيان في الأسواقِ الآن إذا أراد أن يختبرَك هل أنت تحبُّه أو لا، وكان له عدوٌّ من الصِّبيان الآخَرين يأتي إليك ويقولُ: هل أنت معي أو معه؟ يعني: هل أنت من أوليائي أو من أوليائِه؟ إذا قال: لا، أنا معك، ولكنَّه في آخِرِ النَّهارِ وَجدَه مع الثَّاني فإنَّه يعتبُ عليه ويقولُ له: أنت كذَّابٌ، كيف تقولُ بأنَّك معي وأنك تحبُّني وتذهب تحبُّ عدوِّي؟ فهذا شيءٌ في الفِطَرِ، فنحن ما تعلَّمنا هذا، لكنَّه شيءٌ في الفِطَرِ، لا يمكنُ أن تُحِبَّ أعداءَ شخصٍ وأنت صادقٌ في محبَّتِهِ أبدًا.

٣٥٠٤- وَكَـذَا تُعَـادِي جَاهِـدًا أَحْبَابَـهُ   أَيْـنَ المَحَبَّـةُ يَـا أَخَـا الشَّـيْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا تُعَادِي جَاهِدًا أَحْبَابَهُ»؛ يعني: تُحِبُّ أعداءَه وتُعادي جاهدًا أحبابَه بقدرِ ما تستطيعُ.

قَوْلُهُ: «أَيْنَ المَحَبَّةُ يَا أَخَا الشَّيْطَانِ؟» ليست موجودةً؛ ولهذا من علامةِ محبَّةِ الإنسانِ لله أن يُحِبَّ مَنْ يعبدُ اللهَ، فإذا رَأَيْتَ في نفسِك كراهةً لأحدٍ من عبادِ الله فإنَّه يجبُ عليك أن تُصحِّحَ إيمانَك ومحبَّتَك لله.

لكن لاحظوا أنَّ بعضَ النَّاسِ قد يكرهُ بعضَ المستقيمين لشخصِه وليس لأجل استقامتِه، وهذا يقعُ كثيرًا، كثيرًا ما ينقمُ على بعض المستقيمين فِعْلَ شيءٍ لو فعله غيرُهم لَقَبِلَهُ لكن يكرهُه مِنْ هذا الشَّخصِ، هذا ما يُحْكَمُ عليه بأنَّه كَرِهَ السُّنَّةَ أو قَدَحَ في السُّنَّةِ، وهذه مسألةٌ يجبُ التَّنبُّه لها، فلو فرضنا أنَّ شخصًا استهزأ بشخصٍ؛ لأنَّه أعفى لحيتَه، فلا يعني ذلك أنَّ هذا الرَّجلَ يكرهُ إعفاءَ اللِّحى مطلقًا؛ ولهذا تجده يقبلُ الإعفاءَ ولو طال من شخصٍ آخرَ دون الثَّاني، ولو أنَّ إنسانًا استهزأ بتقصيرِ الثَّوبِ إلى نصفِ السَّاقِ من شخصٍ لكن لو فعله آخرُ لَقَبِلَهُ منه كما هو موجودٌ فعلًا، لا نقولُ: إنَّ هذا الرَّجلَ استهزأ بالسُّنَّةِ، لكنَّه استهزأ بمَنْ تلبَّسَ بالسُّنَّةِ لعينِه، فهذا فرقٌ يجبُ التَّنبُّهُ له؛ ولهذا لو كَرِهَ السُّنَّةَ وإن لم يَعْمَلْ بها أحدٌ كان على خطرٍ، فلو فرضنا أنَّ كُلَّ مَنْ حوله يحلقون لحاهم ولكنَّه يستهزئ بمن يرخي لحيتَه لكان هذا مستهزئًا بإرخاءِ اللِّحيةِ، فهذا قد نقولُ: إنَّه خرج من الإسلامِ؛ ولهذا نرى أنَّ أبعدَ النَّاسِ عن محبَّةِ الله مَنْ يُبغضون صحابةَ رسولِ الله ﷺ، فإنَّ الذي يُبْغِضُ الصَّحابةَ لاشكَّ أنَّه لا يُحِبُّ اللهَ؛ لأنَّ الصَّحابةَ من أولياءِ الله وهم خيرُ القرونِ[1] نصًّا من

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٤٥١)،

الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فإذا أبغضهم شخصٌ فكيف يقولُ: أنا أُحِبُّ اللهَ؟!
إذا أبغضهم شخصٌ وسبَّهم فهو في الحقيقةِ قد طعن فيهم، وطعن برسولِ الله ﷺ وطعن بشريعةِ الله، وطعن بالله.

طَعَنَ فيهم وذلك بسبِّهم، وهذا واضحٌ، طَعَنَ بالشَّريعةِ؛ لأنَّ الشَّريعةَ متلقَّاةٌ مِن عنده، مَن الذي أوصل الشَّريعةَ إلى الأُمَّة إلَّا الصَّحابةُ، فإذا طُعِنَ فيهم وجُعِلُوا غيرَ عدولٍ فكيف نَثِقُ بشريعةٍ تأتي من طريقٍ ليس أهلُه بعدولٍ؟!

طعنٌ بالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ هؤلاءِ أصحابُه، والمرءُ مَعْ مَنْ أَحَبَّ، ويُسْتَدَلُّ على المرءِ بقرينِهِ، ولهذا قال الحكيمُ الشَّاعرُ:

عَنِ المَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي[1]

طعنٌ بالله: وذلك أنَّ اللهَ اختار هؤلاء الفسَقةَ -على زَعمِهم والعياذُ بالله- لصحبةِ خيرِ الخلقِ عند الله، وهل الحكمةُ تأبى ذلك أو تؤيِّدُ ذلك؟ الجوابُ: تأبى ذلك غايةَ الإباءِ، فالمُهِمُّ أنَّ كُلَّ أحدٍ يدَّعِي محبَّةَ الله ثُمَّ يُحِبُّ أعداءَ الله ويُبْغِضُ أولياءَ الله فإنَّه كاذبٌ فيما يقولُ.

* * *

٣٥٠٥- لَيْسَ العِبَادَةُ غَيْرَ تَوْحِيدِ المَحَبْـ ... ـبَةِ مَعْ خُضُوعِ القَلْبِ وَالأَرْكَانِ

٣٥٠٦- وَالحُبُّ نَفْسُ وِفَاقِهِ فِيمَا يُحِبْـ ... ـبُ وَبُغْضُ مَا لا يَرْتَضِي بِجَنَانِ

٣٥٠٧- وَوِفَاقُهُ نَفْسُ اتِّبَاعِكَ أَمْرَهُ ... وَالقَصْدُ وَجْهُ اللهِ ذِي الإِحْسَانِ

= ومسلم: كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

(١) البيت لعدي بن زيد، كما في العقد الفريد (٢/ ٢٣٠).

٣٥٠٨- هَـذَا هُـوَ الإِحْسَـانُ شَرْطٌ فِي قَبُـو ... لِ السَّـعْيِ فَافْهَمْـهُ مِـنَ القُـرْآنِ

٣٥٠٩- وَالإِتِّبَـاعُ بِـدُونِ شَرْعِ رَسُـولِهِ ... عَـيْنُ المُحَـالِ وَأَبْطَـلُ الـبُطْلانِ

٣٥١٠- فَـإِذَا نَبَـذْتَ كِتَابَـهُ وَرَسُـولَهُ ... وَتَبِعْـتَ أَمْـرَ الـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ

٣٥١١- وَتَخِـذْتَ أَنْـدَادًا تُحِـبُّهُمْ كَحُـبْـ ... ـبِ الله كُنْـتَ مُجَانِـبَ الإِيـمَانِ

الشـرحُ

تقدَّم أنَّه -رحمه الله تعالى- قال: إنَّ العبادةَ لها ركنان أساسان هما: الصِّدقُ والإخلاصُ مع متابعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعَلى آله وسلَّم، وهذا أيضًا مَبْنِيٌّ على المحبَّةِ والتَّعظيمِ، فلا يمكنُ عبادةٌ بدون محبَّةٍ أبدًا، ولا يمكنُ استقامةٌ بدون تعظيمٍ.

٣٥٠٥- لَيْسَ العِبَـادَةُ غَـيْرَ تَوْحِيدِ المَحَبْـ ... ـبَةِ مَعْ خُضُوعِ القَلْبِ وَالأَرْكَـانِ

معنى توحيد المحبَّةِ: ألَّا تُحِبَّ أحدًا كمحبَّةِ الله، وكُلَّما كانت محبَّتُك تابعةً لمحبَّةِ الله كان ذلك أصدقَ في عبادتِك، أن تحبَّ في الله وتبغض في الله، وتواليَ في الله وتعادِيَ في الله، هذا هو العبادة، لكن يقول: «**مَعْ خُضُوعِ القَلْبِ وَالأَرْكَانِ**» يعني: الجوارحَ.

٣٥٠٦- وَالـحُبُّ نَفْسُ وِفَاقِـهِ فِـيمَا يُحِبْـ ... ـبُ وَبُغْضُ مَا لا يَرْتَضِي بِجِنَـانِ

قَوْلُهُ: «بِجَنَانِ» الجَنَانُ: القلبُ.

الحبُّ الصَّادقُ أن تُوافقَ اللهَ عزَّ وجلَّ فيما يُحِبُّ، وتبغضَ ما لا يرتضي، فمَنْ قال: أنا أحبُّ اللهَ لكن لا أحبُّ الصَّلاةَ، قلنا له: كَذَبْتَ، ومَنْ قال: أنا أحبُّ اللهَ

ولكن لا أكرهُ الزِّنا، قلنا: كَذَبْتَ، فالذي يُحِبُّ اللهَ لا بُدَّ أن يُحِبَّ ما يحبُّه اللهُ، ولا بُدَّ أن يكرهَ ما يكرهُه اللهُ.

٣٥٠٧- وَوِفَاقُـهُ نَفْـسُ اتِّبَاعِـكَ أَمْـرَهُ   وَالقَصْـدُ وَجْـهُ الله ذِي الإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «وَالقَصْدُ وَجْهُ الله» وهو الإخلاصُ، إذا قيل: ما هو الوفاقُ؟ نقولُ: أن تتَّبعَ أوامرَه قاصدًا وجهَه، فاتِّباعُ الأمرِ هو اتِّباعُ الشَّرعِ، هذا هو الموافقةُ لله عزَّ وجلَّ.

٣٥٠٨- هَـذَا هُـوَ الإِحْسَـانُ شَرْطٌ فِي قَبُـو   لِ السَّـعْيِ فَافْهَمْـهُ مِـنَ القُـرْآنِ

لا يقبلُ اللهُ -سبحانه وتعالى- شيئًا بدون إحسانٍ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، فعملٌ ليس فيه إحسانٌ غيرُ مقبولٍ عند الله، ودليلُه قولُه تعالى أيضًا: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ [البقرة:١١٢]، فقولُه تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ هذا الإخلاصُ، وقولُهُ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، هذا الاتِّباعُ.

٣٥٠٩- وَالإِتِّبَـاعُ بِـدُونِ شَرْعِ رَسُـولِهِ   عَـيْنُ المُحَـالِ وَأَبْطَـلُ الـبُطْلَانِ

لو قال: أنا مُتَّبِعٌ، وابْتَدَعَ في دينِ الله ما ليس منه، قلنا: هذا محالٌ، كيف تقولُ: إِنَّك مُتَّبِعٌ وأنت مبتدعٌ، ولهذا نقولُ: كُلُّ مَنْ جاء ببدعةٍ في دينِ الله فقد نَقَصَ من اتِّباعِه دينَ الله بقدرِ ما أتى به من البدعةِ سواء في العقيدة أم في القولِ أم في الفعلِ، فمثلًا: مَنْ حَرَّفَ النُّصوصَ في العقائدِ فهو مبتدعٌ، وفاتَه من الاتِّباع بقدر ما حَرَّفَ، مَنْ أتى بأقوالٍ، بأذكارٍ، بصلواتٍ على الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بأدعيةٍ مخالفةٍ لما جاءت به الشَّريعةُ فهو مبتدعٌ، ولو قال: إِنَّه يُحِبُّ اللهَ ويُحِبُّ

الوصولَ إليه ونقص من اِتِّباعه بقدر ما جاء به من البدعةِ، وكذلك لو فَعَلَ أفعالًا خلاف ما جاءت به الشَّريعةُ فإنَّه مُبْتَدِعٌ.

٣٥١٠- فَـإِذَا نَبَـذْتَ كِتَابَـهُ وَرَسُـولَهُ وَتَبِعْـتَ أَمْـرَ الـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ

٣٥١١- وَتَخِـذْتَ أَنْـدَادًا تُحِـبُّهُمُ كَحُـبْـ ـبِ الله كُنْـتَ مُجَانِـبَ الإِيـمَانِ

وهذا واضحٌ؛ لأنَّه ليس هناك اتِّباعٌ مع هذه الأحوالِ التي ذَكَرَ المؤلِّفُ.

* * *

٣٥١٢- وَلَقَدْ رَأَيْنَا مِـنْ فَرِيـقٍ يَـدَّعِي الـ إِسْـلامَ شِرْكًـا ظَـاهِرَ التِّبْيَـانِ

٣٥١٣- جَعَلُوا لَهُ شُرَكَـاءَ وَالُـوهُمْ وَسَـوْ وَوْهُـمْ بِـهِ فِي الحُـبِّ لا السُّـلْطَانِ

٣٥١٤- وَالله مَـا سَـاوَوْهُمُ بِـالله بَـلْ زَادُوا لَـهُمْ حُبًّـا بِـلا كِـتْمَانِ

٣٥١٥- وَالله مَا غَضِـبُوا إِذَا انْتُهِكَـتْ مَحَـا رِمُ رَبِّهِـمْ فِي السِّـرِّ وَالإِعْـلانِ

٣٥١٦- حَتَّى إِذَا مَـا قِيـلَ فِي الـوَثَنِ الَّـذِي يَدْعُونَـهُ مَـا فِيـهِ مِـنْ نُقْصَـانِ

٣٥١٧- فَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ غَضَبٍ وَمِـنْ حَرْبٍ وَمِـنْ شَـتْمٍ وَمِـنْ عُـدْوَانِ

٣٥١٨- وَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ ضَرْبٍ وَتَعْـ ـزِيرٍ وَمِـنْ سَـبٍّ وَمِـنْ تَسْـجَانِ

٣٥١٩- وَالله لَـوْ عَطَّلْـتَ كُـلَّ صِـفَاتِهِ مَـا قَـابَلُوكَ بِـبَعْضِ ذَا العُـدْوَانِ

٣٥٢٠- وَالله لَـوْ خَالَفْـتَ نَـصَّ رَسُـولِهِ نَصًّـا صَرِيحًـا وَاضِـحَ التِّبْيَـانِ

٣٥٢١- وَتَبِعْتَ قَوْلَ شُيُوخِهِمْ أَوْ غَـيْرِهِمْ كُنْـتَ المُحَقِّـقَ صَـاحِبَ العِرْفَـانِ

٣٥٢٢- حَتَّـى إِذَا خَالَفْـتَ آرَاءَ الرِّجَـا لِ لِسُـنَّةِ المَبْعُـوثِ بِـالقُرْآنِ

٣٥٢٣- نَادَوْا عَلَيْكَ بِبِدْعَةٍ وَضَلالَةٍ ... قَالُوا وَفِي تَكْفِيرِهِ قَوْلانِ

٣٥٢٤- قَالُوا تَنَقَّصْتَ الكِبَارَ وَسَائِرَ الـ ... ـعُلَمَاءِ بَلْ جَاهَرْتَ بِالبُهْتَانِ

٣٥٢٥- هَذَا وَلَمْ نَسْلُبْهُمُ حَقًّا لَهُمْ ... لِيَكُونَ ذَا كَذِبٍ وَذَا عُدْوَانِ

الشرحُ

٣٥١٢- وَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ يَدَّعِي الـ ... إِسْلامَ شِرْكًا ظَاهِرَ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «شِرْكًا»: مفعولُ «رَأَيْنَا».

رَأَيْنَا من فريقٍ يدَّعي أنَّه مسلمٌ، وهو مشركٌ شِركًا ظاهرًا، لكنَّه مشركٌ ليس في العبادةِ، ولكن في الاتِّباعِ كما سَيُبيِّنُ رحمه الله.

٣٥١٣- جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ وَالَوهُمْ وَسَوْ ... وَوْهُمْ بِهِ فِي الحُبِّ لا السُّلْطَانِ

أَحبُّوهم كما أحبُّوا اللهَ، ولكنَّهم لم يجعلوا لهم سلطانًا كسلطانِ الله، لو سَأَلْتَهُم: مَنْ رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ؟ قالوا: اللهُ، لكن تجدُ قلوبَهم مملوءةً بمحبَّةِ أوليائِهم ومتبوعيهم كمحبَّةِ الله أو أشدُّ، وسيتَبيَّنُ -فيما بعد- أنَّهم يحبُّون متبوعيهم أشدَّ من محبَّةِ الله.

٣٥١٤- وَاللهِ مَا سَاوَوْهُمُ بِاللهِ بَلْ ... زَادُوا لَهُمْ حُبًّا بِلا كِتْمَانِ

يعني: ما أحبُّوهم كما أحبُّوا اللهَ، بل جعلوهم أشدَّ حبًّا لله، قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقوله: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ أي: من هؤلاء لله أو مِن هؤلاء لأندادِهم؟ فيها قولان: فمنهم مَنْ قال: أشدُّ حبًّا لله من هؤلاء

لأندادِهم، ومنهم مَنْ قال: أشَدُّ حبًّا لله من هؤلاء لله؛ لأنَّ محبَّةَ هؤلاءِ لله محبَّةٌ مشروكةٌ ومحبَّةَ المؤمنين محبَّةٌ خالصةٌ.

٣٥١٥- وَاللهِ مَا غَضِبُوا إِذَا انْتُهِكَتْ مَحَا ... رِمُ رَبِّهِمْ فِي السِّرِّ وَالإِعْلانِ

٣٥١٦- حَتَّى إِذَا مَا قِيلَ فِي الوَثَنِ الَّذِي ... يَدْعُونَهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

قَوْلُهُ: «مَا» بمعنى الذي، وليست النَّافية؛ يعني: حتَّى إذا قيل في الوثنِ الذي يدْعونه الذي فيه من النُّقصانِ فَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ.

وَقَوْلُهُ: «إِذَا مَا قِيلَ» تنطبقُ عليها قاعدة:

يَا طَالِبًا خُذْ فَائِدَهْ ... بَعْدَ إِذَا «مَا» زَائِدَهْ

يكون تقديرُ الكلام: «حَتىَّ إِذَا قِيلَ».

٣٥١٧- فَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ غَضَبٍ وَمِنْ ... حَرْبٍ وَمِنْ شَتْمٍ وَمِنْ عُدْوَانِ

٣٥١٨- وَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ ضَرْبٍ وَتَعْـ ... ـزِيرٍ وَمِنْ سَبٍّ وَمِنْ تَسْجَانِ

إذا قُلْتَ في الوثنِ الذي يدعونه ما فيه من النُّقصانِ وبَيَّنْتَ نقصَه وعيبَه فأجارك الرَّحمنُ من غضبٍ؛ يعني: أنَّهم يغضبون عليك، «وَمِنْ حَرْبٍ» يحاربونك، «وَمِنْ شَتْمٍ» يشتمونك، «وَمِنْ عُدْوَانِ» عليك بالضَّربِ أو بأخذِ المالِ أو ما أشبه ذلك، «وَأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ ضَرْبٍ» يضربونك، و«مِنْ تَعْزِيرٍ» يُعزِّرونك إمَّا بالضَّربِ أو بغيرِه، «وَمِنْ سَبٍّ» يسبُّونك، فيُطلقون ألسنتَهم فيك، «وَمِنْ تَسْجَانِ» أي: سجن يسجنونك فيه؛ لأنَّك عِبْتَ آلهتَهم.

٣٥١٩- وَاللهِ لَوْ عَطَّلْتَ كُلَّ صِفَاتِهِ ... مَا قَابَلُوكَ بِبَعْضِ ذَا العُدْوَانِ

لو عَطَّلْتَ كُلَّ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ ما قابلوك ببعضِ ذا العدوانِ.

٣٥٢٠- وَاللهِ لَوْ خَالَفْتَ نَصَّ رَسُولِهِ نَصًّا صَرِيحًا وَاضِحَ التِّبْيَانِ

٣٥٢١- وَتَبِعْتَ قَوْلَ شُيُوخِهِمْ أَوْ غَيْرِهِمْ كُنْتَ المُحَقِّقَ صَاحِبَ العِرْفَانِ

نعوذُ بالله، إذا خَالَفْتَ النَّصَّ الصَّريحَ تبعًا لقولِ شيوخِهم قالوا: هذا العارفُ، هذا الذي عنده العلمُ، أنت المُحقِّقُ، أنت صاحبُ المعرفةِ، لكن لو خَالَفْتَ قولَ شيوخِهم بكتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه قالوا: هذا جاهلٌ.

٣٥٢٢- حَتَّى إِذَا خَالَفْتَ آرَاءَ الرِّجَا لِ لِسُنَّةِ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

٣٥٢٣- نَادَوْا عَلَيْكَ بِبِدْعَةٍ وَضَلالَةٍ قَالُوا وَفِي تَكْفِيرِهِ قَوْلانِ

وهذا عجيبٌ، إذا خَالَفْتَ آراءَ الرِّجالِ وقولَ شيوخِهم لكتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه قالوا: هذا مُبْتَدِعٌ ضالٌّ، ثُمَّ قالوا: وفي تكفيرِه عندَنا قولان: مِنَّا مَنْ قال: إِنَّه كافرٌ، ومِنَّا مَنْ قال: إِنَّه مُبْتَدِعٌ ضالٌّ، ونبرأُ إلى الله أن نُطْلِقَ عليه الكفرَ، وهؤلاء وَرِعون، فهم تورَّعُوا من الكفرِ، أمَّا الآخَرون فهم أشجعُ منهم؛ كَفَّروا هذا الذي خَالَفَ آراءَ الشُّيوخِ لكلامِ الله وكلامِ رسولِه.

٣٥٢٤- قَالُوا تَنَقَّصْتَ الكِبَارَ وَسَائِرَ الـ ـعُلَمَاءِ بَلْ جَاهَرْتَ بِالبُهْتَانِ

وهذا لا شَكَّ أَنَّه واقعٌ، لكن نحن في بلادِنا -والحمدُ لله- لا نُحِسُّ به؛ لأَنَّه لا يُوجَدُ، لكن اخرُج إلى البلادِ الأخرى في البلادِ الإسلاميَّةِ، أو اقرأ ما جرى في التَّاريخِ تجدُ أن هذا أمرٌ محقَّقٌ، إذا خَالَفْتَ أمرَ الشُّيوخِ يُنادون عليك بالصِّياحِ والعويلِ: أنت مُبْتَدِعٌ ضالٌّ، أنت مُتَنَقِّصٌ للعلماءِ، أنت فاعلٌ كذا... إلخ.

٣٥٢٥- هَـذَا وَلَـمْ نَسْـلُبْهُمُ حَقًّـا لَـهُمْ لِيَكُـونَ ذَا كَـذِبٍ وَذَا عُـدْوَانِ

أنَّه قال:

هَذَا وَلَـمْ تَسْـلُبْهُمُ حَقًّـا لَـهُمْ لِتكُـونَ ذَا كَـذِبٍ وَذَا عُـدْوَانِ

لو أنَّه قال ذلك لكان أَحْسَنَ؛ لأنَّه قال: «**بَلْ جَاهَرْتَ بِالبُهْتَانِ**»؛ يعني: هذا مع أنَّك لم تَسْلُبْهُم حقَّهم ولم تكن كاذبًا فيما قلت فيهم.

* * *

٣٥٢٦- وَإِذَا سَـلَبْتَ صِـفَاتِهِ وَعُلُـوَّهُ وَكَلامَـهُ جَهْـرًا بِـلا كِـتْمَانِ

٣٥٢٧- لَـمْ يَغْضَبُوا بَلْ كَانَ ذَلِكَ عِنْـدَهُمْ عَيْنَ الصَّوَابِ وَمُقْتَضَى الإِحْسَانِ

٣٥٢٨- وَالأَمْـرُ وَاللهِ العَظِـيمِ يَزِيـدُ فَـوْ قَ الوَصْفِ لا يَخْفَى عَلَى العُمْيَانِ

٣٥٢٩- وَإِذَا ذَكَـرْتَ اللهَ تَوْحِيـدًا رَأَيْـ ـتَ وُجُوهَهُمْ مَكْسُوفَةَ الأَلْـوَانِ

٣٥٣٠- بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ شَـزْرًا مِثْـلَ مَـا نَظَرَ التُّيُوسُ إِلَى عَصَا الـجَوْبَانِ

٣٥٣١- وَإِذَا ذَكَـرْتَ بِمِدْحَـةٍ شُرَكَـاءَهُمْ يَتَبَـاشَرُونَ تَبَـاشُرَ الفَرْحَـانِ

٣٥٣٢- وَاللهِ مَـا شَـمُّوا رَوَائِـحَ دِينِـهِ يَـا زَكْمَـةً أَعْيَـتْ طَبِيـبَ زَمَـانِ

الشَّـرحُ

٣٥٢٦- وَإِذَا سَـلَبْتَ صِـفَاتِهِ وَعُلُـوَّهُ وَكَلامَـهُ جَهْـرًا بِـلا كِـتْمَانِ

٣٥٢٧- لَـمْ يَغْضَبُوا بَلْ كَانَ ذَلِكَ عِنْـدَهُمْ عَيْنَ الصَّوَابِ وَمُقْتَضَى الإِحْسَانِ

إذا جَحَدْتَ صفاتِ الله وكلامَه وعلوَّه لم يغضبوا، بل كان ذلك عندهم عينَ الصَّوابِ ومقتضى الإحسانِ؛ لأنَّهم يُنكرون الصِّفاتِ، يُنكرون الكلامَ، يُنكرون العلوَّ، فمَنْ أَثْبَتَهُ فهو ضالٌّ مُبْتَدِعٌ، ومَنْ نفاه فهو الذي قال الصَّوابَ.

٣٥٢٨- وَالأَمْـرُ وَاللهِ العَظِـيمِ يَزِيـدُ فَـوْ ... قَ الوَصْفِ لا يَخْفَى عَلَى العُمْيَـانِ

أمرُ هؤلاءِ يزيدُ على الوصفِ حتىَّ على ما قاله رحمه الله.

٣٥٢٩- وَإِذَا ذَكَـرْتَ اللهَ تَوْحِيـدًا رَأَيْـ ... ـتَ وُجُوهَهُمْ مَكْسُـوفَةَ الأَلْـوَانِ

نعوذُ بالله، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزُّمر:٤٥].

٣٥٣٠- بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ شَـزْرًا مِثْـلَ مَـا ... نَظَرَ التُّيُوسُ إِلَى عَصَـا الـجَوْبَانِ

وهذا تشبيهٌ جيِّدٌ، ينظرون إليك إذا ذَكَرْتَ اللهَ وحدَه نظر التَّيْسِ إلى عصا الرَّاعي الذي يضربُه بها؛ أي: نظرَ كراهةٍ؛ لأنَّ التَّيْسَ يكرهُ العصا مع الجوبانِ يخشى أن يضربَه بها.

٣٥٣١- وَإِذَا ذَكَـرْتَ بِمِدْحَـةٍ شُرَكَـاءَهُمْ ... يَتَبَـاشَرُونَ تَبَـاشُرَ الفَرْحَـانِ

٣٥٣٢- وَاللهِ مَـا شَـمُّوا رَوَائِـحَ دِينِـهِ ... يَـا زَكْمَـةً أَعْيَـتْ طَبِيـبَ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «يَتبَاشَرُونَ»، وفي نسخة: «يَسْتَبْشِرُونَ» وهذا أقربُ للقرآنِ، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزُّمر:٤٥]، نسألُ اللهَ العافيةَ، هل هؤلاء مُوَحِّدون؟ هل هؤلاء عابدون اللهَ حقًّا؟ أبدًا، لو عبدوا اللهَ حقًّا لأحبُّوا اللهَ، ولو أحبُّوا اللهَ لالتزموا شرعَه.

فصـــل

فِي صَفِّ العَسْكَرَيْنِ، وَتَقَابُلِ الصَّفَّيْنِ وَاسْتِدَارَةِ رَحَى الحَرْبِ العَوَانِ، وَتَصَاوُلِ الأَقْرَانِ

٣٥٣٣- يَا مَنْ يَشُبُّ الحَرْبَ جَهْلًا مَا لَكُمْ ... بِقِتَالِ حِزْبِ الله قَطُّ يَدَانِ

٣٥٣٤- أَنَّى تَقُومُ جُنُودُكُمْ لِجُنُودِهِمْ ... وَهُمُ الهُدَاةُ وَعَسْكَرُ القُرْآنِ

٣٥٣٥- وَجُنُودُكُمْ مَا بَيْنَ كَذَّابٍ وَدَجْـ ... ـالٍ وَمُحْتَالٍ وَذِي بُهْتَانِ

٣٥٣٦- مِنْ كُلِّ أَرْعَنَ يَدَّعِي المَعْقُولَ وَهْـ ... ـوَ مُجَانِبٌ لِلعَقْلِ وَالإِيمَانِ

٣٥٣٧- أَوْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ وَجَهْمِيٍّ غَدَا ... فِي قَلْبِهِ حَرَجٌ مِنَ القُرْآنِ

٣٥٣٨- أَوْ كُلِّ مَنْ دَانَ دِين شُيُوخِ أَهْـ ... ـلِ الإِعْتِزَالِ البَيِّنِ البُطْلانِ

٣٥٣٩- أَوْ قَائِلٍ بِالإِتِّحَادِ وَأَنَّهُ ... عَيْنُ الإِلَهِ وَمَا هُنَا شَيْئَانِ

٣٥٤٠- أَوْ مَنْ غَدَا فِي دِينِهِ مُتَحَيِّرًا ... أَتْبَاعَ كُلِّ مُلَدِّدٍ حَيْرَانِ

الشَّرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي صَفِّ العَسْكَرَيْنِ، وَتَقَابُلِ الصَّفَّيْنِ، وَاسْتِدَارَةِ رَحَى الحَرْبِ العَوَانِ وَتَصَاوُلِ الأَقْرَانِ» عناوينُ المؤلِّفِ -رحمه الله- كُلُّها عناوينُ شجاعةٍ وتحمُّسٍ، وكأنَّك بين الصَّفَّيْنِ إذا سَمِعْتَ هذه العناوين، والمؤلِّفُ -رحمه الله- عَقَدَ هذا الفصلَ ليُبيِّنَ الجنودَ والأحزابَ، والجنودُ والأحزابُ نوعان: جندُ الله وحزبُه، وجندُ الشَّيطانِ وحزبُه.

٣٥٣٣- يَا مَنْ يَشُبُّ الحَرْبَ جَهْلًا مَا لَكُمْ ... بِقِتَالِ حِزْبِ الله قَطُّ يَدَانِ

ويعني بذلك: أهلَ البدعِ والضَّلالِ والإشراكِ، ليس لهم بقتالِ حزبِ الله «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، أهلِ التَّوحيدِ» «قَطُّ يَدَانِ» «يَدَانِ»؛ أي: قوَّة.

٣٥٣٤- أَنَّى تَقُومُ جُنُودُكُمْ لِجُنُودِهِمْ ... وَهُمُ الهُدَاةُ وَعَسْكَرُ القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَعَسْكَرُ القُرْآنِ»، وفي نسخةٍ: «وَنَاصِرُو الرَّحْمَنِ».

وهذا الاستفهامُ للإنكارِ؛ يعني: لا يمكنُ أن تقومَ جنودُكم لجنودِهم في هذه الحالِ حيث يكونون هداةً وعسكرًا للقُرآنِ الكريمِ.

٣٥٣٥- وَجُنُودُكُمْ مَا بَيْنَ كَذَّابٍ وَدَجْـ ... ـجَالٍ وَمُحْتَالٍ وَذِي بُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «كَذَّابٍ»: صيغةُ مبالغةٍ من الكذب، وهو الإخْبارُ بخلافِ الواقعِ.

قَوْلُهُ: «دَجَّالٍ»: صيغةُ مبالغةٍ من الدَّجَل، وهو التَّمويهُ والخداعُ، إذ يدَّعي أنَّه على حقٍّ ويأتي بالشُّبهاتِ.

قَوْلُهُ: «وَمُحْتَالٍ»: المحتالُ هو صاحبُ الحيلةِ الذي يحتالُ ليَصطادَ النَّاسَ بحيلتِه بعد أن يُمَوِّهَ عليهم، فهو يَتَحيَّنُ الفرصَ حتَّى إذا حانت له الفرصةُ تَكَلَّمَ، وإذا لم يجد مقالًا سكت وداهَنَ.

قَوْلُهُ: «ذِي بُهْتَانٍ»؛ أي: ذي كذبٍ.

والظَّاهر أنَّ هذا من باب عطفِ المترادِفَيْنِ كقولِ الشَّاعرِ:

فقَدَّدَتِ الأَدِيمَ لراهِشَيْهِ ... فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا[1]

---

(١) البيت لعدي بن زيد، كما في لسان العرب، مادة: «مين».

والمَيْنُ هو الكذبُ.

ذكر -رحمه الله- أنَّ جنودَ الشَّيطانِ وأحزابَ الشَّيطانِ ما بين كذَّابٍ ودجَّالٍ ومحتالٍ وذي بهتانٍ، ومَن اتَّصف بهذه الصِّفاتِ فهو إلى الخِذلان أقربُ منه إلى النَّصرِ.

٣٥٣٦- مِنْ كُلِّ أَرْعَنَ يَدَّعِي المَعْقُولَ وَهْـ ـوَ مُجَانِبٌ لِلعَقْلِ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ كُلِّ أَرْعَنَ يَدَّعِي المَعْقُولَ» «**الأَرْعَنُ**» هو الجبانُ شديدُ الجُبنِ، «**يَدَّعِي المَعْقُولَ**»؛ يعني: يدَّعِي أنَّه صاحبُ العقلِ.

ولنضرب لهذا مثلًا بأهلِ التَّعطيلِ، أهلُ التَّعطيلِ من أشعريَّةٍ ومعتزلةٍ وجهميَّةٍ وأشباهِهم يَدَّعون أنَّهم هم أصحابُ العقولِ، وأنَّ العقلَ دَلَّ على أنَّ اللهَ ليس متَّصفًا بهذه الصِّفاتِ.

فهم يرجعون في باب أسماءِ الله وصفاتِه إلى العقلِ، وبَيَّنَّا أنَّ رجوعَهم إلى العقلِ مخالفٌ للعقلِ؛ لأنَّ العقلَ يقتضي أنَّ الأمورَ الغيبيَّةَ يجبُ الاستسلامُ فيها للنَّقلِ، ولا يتعرَّضُ لها الإنسانُ؛ لأنَّها أمورٌ غائبةٌ، كيف تُحَكِّمُ العقلَ؟ هذه واحدة.

ثانيًا: إلى أيِّ عقلٍ نرجعُ؟ وأصحابُ العقلِ الذين يدَّعون العقلَ كُلُّهم متنازعون، يُضَلِّلُ بعضُهم بعضًا، ويقول أحدُهم: إنَّ هذا الحكمَ يوجِبُه العقلُ، والثَّاني يقولُ: إنَّ هذا الحكمَ يمنعُه العقلُ، بل إنَّ الواحدَ منهم يتناقضُ في مؤلَّفاتِه فتجدُه يُؤلِّفُ مُؤلَّفًا يقولُ: العقلُ يُوجِبُ أن يكونَ اللهُ كذا، وفي مُؤلَّفٍ آخرَ يقولُ: العقلُ يمنعُ أن يكونَ اللهُ كذا وكذا، وإذا أردتَ أن تطَّلعَ على هذا رَاجِعْ كتبَ المناقشاتِ في هذا البابِ ككتبِ شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّةَ -رحمه الله- يتبيَّن لك،

والإمامُ مالكٌ -رحمه الله- يقولُ: «بأيِّ عقلٍ يُوزَنُ الكتابُ والسُّنَّةُ؟ أفكلَّما جاءنا رجلٌ أجدلُ من رجلٍ تركنا قولَه وتركنا الكتابَ والسُّنَّةَ من أجل قولِه؟»[1]، هذا لا يمكنُ.

٣٥٣٧- أَوْ كُــلِّ مُبْتَـدِعٍ وَجَهْمِـيٍّ غَــدَا فِي قَلْبِــهِ حَــرَجٌ مِــنَ القُــرْآنِ

نسألُ اللهَ العافيةَ، قولُه: «**مُبْتَدِعٍ**» هذا عامٌّ، قوله: «**جَهْمِيٍّ**» من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الجهميَّةَ -لا شَكَّ- مبتدعةٌ، وهم أتباعُ الجهمِ بن صفوان، والجهمُ بن صفوان ليس هو رأسَ الجهميَّة، رأسُ الجهميَّةِ هو الجعدُ بن درهمٍ، لكنَّ الجعدَ بنَ درهمٍ لم يكن لقولِه انتشارٌ، ولكنَّه أسَّس القاعدةَ وقال: (**إنَّ اللهَ لم يتَّخذ إبراهيمَ خليلًا، ولم يُكَلِّمْ موسى تكليمًا**)، فبدأ بنفي هاتين الصِّفَتَيْنِ: المحبَّةِ والكلامِ، ومعلومٌ أنَّه إذا انتفت هاتان الصِّفتان بطل الشَّرعُ، إذا كان اللهُ لم يتكلَّم بالقرآنِ ولم يُكَلِّمْ الرُّسلَ بطل القرآنُ، ثُمَّ إنَّ الجهمَ بنَ صفوان تتلمذَ عليه، وبئس التِّلميذُ والأستاذُ، تتلمذ عليه ونشر المذهبَ، ونُسِبَ المذهبُ إلى الجهمِ؛ لأنَّه ناشرُه لا لأنَّه مُنْشِئهُ؛ إذ أنَّ المُنْشِئَ له هو الجعدُ بن درهمٍ.

المهمُّ: أنَّ هؤلاء غَدَا في قلوبِهم ضيقٌ من القرآنِ لاسيَّما في أسماءِ الله وصفاتِه حتَّى إنَّهم في وقتٍ من الأوقاتِ كتبوا على كسوةِ الكعبةِ (**ليس كمثلِهِ شيء وهو العزيزُ الحكيمُ**) لماذا؟ لأنَّ السَّميعَ البصيرَ لا يريدونها؛ لأنَّها تُثْبِتُ السَّمعَ وتُثْبِتُ البصرَ، وهم ينكرون ذلك، وأهمُّ شيءٍ أنَّهم حَرَّفُوا القرآنَ، فهم في قلوبِهم حَرَجٌ من القرآنِ حتَّى قال بعضُهم: أتمنَّى أن تكونَ لي قدرةٌ حتَّى أَحُكَّ من القرآنِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] والعياذُ بالله؛ لأنَّه يُنْكِرُ الاستواءَ.

---

(١) انظر: أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص:٢٣٥).

٣٥٣٨- أَوْ كُلِّ مَـنْ دَانَ ديـن شُـيُوخِ أَهْـــ ـــلِ الإِعْتِـزَالِ البَـيِّنِ الـبُطْلَانِ

المعتزلةُ أصحابُ عمرو بن عبيد وواصلِ بن عطاء، سُمُّوا بذلك لأنَّهم اعتزلوا مسجدَ الحسنِ البصريِّ رحمه الله، وكان أصلُه أنَّ النَّاسَ في ذلك الوقتِ اختلفوا في فاعلِ الكبيرةِ، فاعلُ الكبيرةِ هل هو كافرٌ أو غيرُ كافرٍ؟ الخوارجُ يقولون: إنَّه كافرٌ مُخَلَّدٌ في النَّارِ كمَن يعبدُ الصَّنمَ، وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يقولون: هو مؤمنٌ إلَّا أنَّه ناقصُ الإيمانِ، وكان الحسنُ البصريُّ -رحمه الله- يُقَرِّرُ هذا في مجلسِه، فنازَعه عمرو بن عبيدٍ وقال: لا يمكنُ، الإيمانُ لا ينقصُ ولا يزيدُ، ولا يمكنُ أن نقولَ: إنَّه مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، لكن نقولُ: إنَّه في منزلةٍ بين منزلتين، ليس مؤمنًا ولا كافرًا، فحصل جِدالٌ بينهما، ثُمَّ قام إلى جهةِ المسجدِ الأخرى فاعتزله، وجعل يُقَرِّرُ هذا المذهبَ أنَّه في منزلةٍ بين منزلتين، فأثبت قسمًا ثالثًا لم يُثْبِته اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، ولم يذكر قسمًا ثالثًا، فَمِنْ ثَمَّ سُمِّي معتزليًّا، وتَسَمَّوْا بأنَّهم أهلُ العدلِ وأهلُ التَّوحيدِ تزييفًا على النَّاسِ وإضلالًا لهم، وقالوا: إنَّهم هم أصحابُ العقلِ، أصحابُ الذَّكاءِ، لكنَّهم كما قال شيخُ الإسلامِ: «أوتوا ذكاءً ولم يُؤتوا زكاءً»[1]، ما زَكَّوْا أنفسَهم، ولا اتَّبعوا منهجَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وأصحابِه، هم أذكياء لا شكَّ، لكنَّهم ضَلُّوا والعياذُ بالله.

والمعتزلةُ يشاركون الجهميَّةَ في بعضِ الأشياءِ ويُخالفونهم في بعضِ الأشياءِ، ففي الصِّفاتِ أقوالُهم متقاربةٌ، كُلُّهم بَنَوْا مذهبَهم على التَّعطيلِ، لكن في بابِ القَدَرِ على طَرَفَيْ نقيضٍ، المعتزلةُ يُنكرون أن يكونَ لتقديرِ الله عَلاقةٌ في فعلِ الإنسانِ، والجهميَّةُ بالعكسِ يَرَوْنَ أنَّ العبدَ مُجْبَرٌ وأنَّه يسيرُ جبرًا ليس له إرادةٌ،

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١١٩).

كذلك في بابِ أسماءِ الإيمانِ والدِّين، الجبريَّةُ يقولون: إنَّ فاعلَ الكبيرةِ مؤمنٌ كاملُ الإيمانِ، والمعتزلةُ يقولون: ليس بمؤمنٍ وليس بكافرٍ أيضًا، فَأَتَوْا بقسمٍ ثالثٍ ما أنزل اللهُ به من سلطانٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، ولم يذكر قسمًا ثالثًا، هم قالوا: هناك قسمٌ ثالثٌ: لا مؤمنٌ ولا كافرٌ، وفي الأحكام يقولُ الجهميَّةُ: إنَّ فاعلَ الكبيرةِ لا يدخلُ النَّارَ؛ لأنَّه لم يفعل ما يستحقُّ دخولَ النَّارِ، والمعتزلةُ يقولون: فاعلُ الكبيرةِ مُخَلَّدٌ في النَّارِ، فافترقوا في ثلاثةِ أبوابٍ، واتَّفقوا في بابِ الصِّفاتِ ليس بينهم اختلافٌ إلَّا يسيرٌ.

٣٥٣٩- أَوْ قَائِـــلٍ بِالإِتِّحَــادِ وَأَنَّـــهُ عَـيْنُ الإِلَـهِ وَمَـا هُنَـا شَـيْئَانِ

والقائلُ بهذا هو أخبثُهم، أهلُ الاتِّحاد سبق أنَّهم يقولون: إنَّ الكونَ والمُكَوِّنَ شيءٌ واحدٌ، فالرَّبُّ هو العبدُ، والعبدُ هو الرَّبُّ، وليس هناك شيئان.

٣٥٤٠- أَوْ مَـنْ غَـدَا فِي دِينِـهِ مُتَحَـيِّرًا أَتْبَـاعَ كُـلِّ مُلَـدِّدٍ حَـيْرَانِ

قال العلماءُ: «**أكثرُ النَّاسِ شكًّا عند الموتِ هم أهلُ الكلام**»؛ لأنَّهم لم يهتَدُوا للمنقولِ ولا للمعقولِ الصَّريحِ، بل المعقول المشوب بالشُّبهاتِ والشُّكوكِ؛ ولهذا كان بعضُهم في آخِرِ وقتِهِ يقولُ: «إنِّي خُضْتُ البحرَ الخِضَمَّ وفعلتُ وفعلتُ، وها أنا الآن أموتُ على عقيدةِ أُمِّي»[1]، أمُّه العجوزُ الجاهلةُ! وهذا إقرارٌ منهم بأنَّهم لم يستفيدوا من الخوضِ في علمِ الكلامِ شيئًا.

ويقولُ الآخرُ:

لَعَمْرِي لَقَـدْ طُفْـتُ المَعَاهِـدَ كُلَّهَـا وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْـكَ الـمَعَالِـمِ

(١) هذا قول أبي المعالي الجويني، كما في شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٨).

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ[(١)]

وأَقَرُّوا على أنفسِهم بأنَّهم أخطؤوا خطأً عظيمًا، وضلُّوا ضلالًا بعيدًا، وعلى رأسِهم الشَّيخُ الكبيرُ الرازِيُّ الذي أَقَرَّ بأنَّه لم يستفِدْ من بحثِهِ طولَ عمرِه سوى أن جمعنا فيه قِيلَ وقالوا.

هؤلاء أصحابُ الشَّكِّ المتحيِّرون الذين لا يدرون أهم على حقٍّ أم على ضلالٍ؟ والعياذُ بالله، ويرفضون أن يدينوا بأيِّ دينٍ؛ لأنَّه ليس عندهم عقيدةٌ، وهذا رُبَّما يَرِدُ على قلبِ المؤمن الخالصِ من الشَّيطانِ الرَّجيمِ ما يجعلُه في شكٍّ وحَيْرَةٍ، ولكنَّ دواءَ ذلك أن تستعيذَ بالله من الشَّيطانِ الرَّجيمِ، وأن تنتهيَ عن هذه التَّقديراتِ؛ كما أرشد إلى ذلك النَّبِيُّ ﷺ حين شكا إليه الصَّحابةُ ما يجدون في نفوسِهم من هذه الأنواعِ من الوساوسِ، فأمرهم بالانتهاءِ والاستعاذةِ بالله من الشَّيطانِ الرَّجيمِ[(٢)].

* * *

٣٥٤١- وَجُنُودُهُمْ جِبْرِيلُ مَعْ مِيكَالَ مَعْ بَاقِي المَلَائِكِ نَاصِرِي القُرْآنِ

٣٥٤٢- وَجَمِيعُ رُسْلِ الله مِنْ نُوحٍ إِلَى خَيْرِ الوَرَى المَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانِ

٣٥٤٣- فَالقَلْبُ خَمْسَتُهُمْ أُولُو العُزْمِ الأُلَى فِي سُورَةِ الشُّورَى أَتَوْا بِبَيَانِ

---

(١) هذا قول أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، كما في شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٨).

(٢) كما في حديث: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ». أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣١٠٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

٣٥٤٤- فِي أَوَّلِ الأَحْـزَابِ أَيْضًـا ذِكْـرُهُمْ ... هُـمْ خَـيْرُ خَلْـقِ اللهِ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٥٤٥- وَلِـوَاؤُهُمْ بِيَـدِ الرَّسُـولِ مُحَمَّـدٍ ... وَالكُـلُّ تَحْـتَ لِـوَاءِ ذِي الفُرْقَـانِ

٣٥٤٦- وَجَمِيعُ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عِصَابَةِ الـ ... إِسـلامِ أَهْـلِ العِلْـمِ وَالإِيـمَانِ

٣٥٤٧- وَالتَّـابِعُونَ لَـهُمْ بِإِحْسَـانٍ عَـلَى ... طَبَقَـاتِهِمْ فِي سَـائِرِ الأَزْمَـانِ

٣٥٤٨- أَهْلُ الحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ وَأَئِمَّـةُ الـ ... ـفَتْوَى وَأَهْـلُ حَقَـائِقِ العِرْفَـانِ

٣٥٤٩- العَـارِفُونَ بِـرَبِّهِمْ وَنَبِـيِّهِمْ ... وَمَرَاتِـبِ الأَعْـمَالِ فِي الرُّجْحَـانِ

٣٥٥٠- صُوفِيَّـةٌ سُنِّيَّـةٌ نَبَوِيَّـةٌ ... لَيْسُـوا أُولِي شَـطْحٍ وَلا هَـذَيَانِ

الشَّـرحُ

٣٥٤١- وَجُنُودُهُمْ جِبْرِيلُ مَعْ مِيكَالَ مَعْ ... بَـاقِي المَلائِـكِ نَـاصِرِي القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «وجنودهم»؛ أي: جنودُ أهلِ الحقِّ.

فالملائكةُ هم جنودُ أصحابِ السُّنَّةِ والجماعةِ يُؤيِّدونهم؛ ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ لحسان بن ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو يدافعُ عن الإسلامِ قال: «**اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ**»[1]؛ أي: جبريلَ عليه السَّلامُ، والملائكةُ قاتلت مع النَّبِيِّ ﷺ إثباتًا للحقِّ.

وهل يمكن أنْ تقاومَ جنودُ الشَّياطين لجنودِ الله عزَّ وجلَّ وملائكتِه؟ الجوابُ: أبدًا، فمَنْ معه الملائكةُ أقوى ممَّن معه الشَّياطينُ لاشكَّ في هذا، وهاكَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٠٤٠)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رقم (٢٤٨٥).

مثالًا واقعًا لـمَّا قال سليمانُ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨]، مع أنَّ عرشَ بلقيسَ في اليمنِ وسليمانَ في الشَّامِ، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النَّمل:٣٩] هذا جِنِّيٌّ؛ يعني: يريدُ أن يأتيَ بالعرشِ من اليمنِ إلى الشَّامِ قبل أن يقومَ من مقامِه، وكان سليمانُ له عادةٌ يقومُ من مقامِه في وقتٍ معيَّنٍ معروفٍ، ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النَّمل:٤٠]؛ أي: مُدَّ طرفَك هكذا وردَّه فإذا هو عندك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النَّمل:٤٠]، قال النَّحويُّون: كيف يكونُ مستقِرًّا والقاعدةُ أنَّ متعلَّقَ الظَّرفِ والجارِ والمجرور لا يُذْكَرُ؟! ولذا يقولُ ابنُ مالكٍ -رحمه الله- في ألفيَّته:

وَأَخْــبَرُوا بِظَــرْفٍ اَوْ بِحَــرْفِ جَــرّْ   نَــاوِينَ مَعْنَــى كَــائِنٍ أَوِ اسْــتَقَرّْ

الشَّاهد قولُه: «نَاوِينَ مَعْنَى كَائِنٍ أَوِ اسْتَقَرّ»، لا يَذْكُرونَ «كَائِن» ولا «اسْتَقَرَّ» ولا «مُسْتَقَرّ»، فهنا قال: لما رآه مستقِرًّا؟ أجابوا عن هذا بأنَّ هذا الاستقرارَ ليس الاستقرارَ المطلقَ، وإنَّما يُرَادُ به استقرارٌ خاصٌّ، فإذا قلتَ: «**زيدٌ في البيتِ**» فهو مُسَتقِرٌّ في البيتِ، لكن رُبَّما يكونُ في قلقٍ، ويصحُّ أن يقولَ: «**زيدٌ في البيتِ**»، لكن إذا قلتَ: «**زيدٌ مستقِرٌّ في البيتِ**» هذا معنى جديد خاصٌّ، ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النَّمل:٤٠]، لو قال: «**فَلَمَّا رَآهُ عِنْدَهُ**» رُبَّما يكونُ عنده لكنَّه ليس مستقِرًّا؛ هذا جاء به ووضعه كأنَّه وضعه قبل عشرين يومًا.

فـ«**مُسْتَقِرٌّ**»؛ أي: منضبطٌ تمامًا، أنت الآن إذا أَتَيْتَ بكرسيٍّ وكان بعضُ أرجله قصيرًا ووضعتَه رُبَّما يحتاجُ إلى تعديلٍ كأن تضعَ حصاةً تحت رِجْلِه القصيرة، لكن هذا وجده مُستقِرًّا، فهذا الاستقرارُ إنَّما ذُكِرَ لأنَّه استقرارٌ خاصٌّ،

ليس الاستقرارَ العامَّ، على كُلِّ حالٍ تَبَيَّنَ الآن أنَّ الملائكةَ أقوى من الجنِّ؛ لأنَّ الجنِّيَّ وَعَدَ أن يأتيَ به قبل أن يقومَ من مقامِه لكن هذا قبل أن يرتدَّ إليه طرفُه، وفعلًا حَصَلَ.

فهؤلاء الذين جنودُهم جبريلُ وميكائيلُ وباقي الملائكةِ هل يمكنُ أن يُقاومَهم عساكرُ الشَّياطين؟ الجوابُ: أبدًا، لكن إنَّما يُخْذَلُ أهلُ الحقِّ بتقصيرِهم إمَّا في التوكُّلِ والاعتمادِ على الله، وإما بتخلُّفِ بعضِ الأسبابِ، فلهذا قد يُغْلَبُون.

٣٥٤٢- وَجَمِيـعُ رُسْـلِ الله مِـنْ نُـوحٍ إِلَى   خَيْرِ الوَرَى المَبْعُـوثِ مِـنْ عَـدْنَانِ

أي: وجنودُهم أيضًا جميعُ رسلِ الله من نوحٍ إلى خَيْرِ الوَرَى -أي: خَيْرِ الخَلْقِ- المبعوثِ من عدنان، وهو محمَّدٌ رسولُ الله ﷺ فهو أخرُهم، أسألُ اللهَ أن يجعلنيُ وإيَّاكم من أتباعِه، وأن يحشرَنا تحت لوائِه.

ونِعْمَ الرِّجالُ، نِعْمَ الجنودُ، رسلُ الله من نوحٍ إلى محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، إِذَنْ جميعُ الرُّسلِ جنودُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وأهلُ السُّنَّةِ جنودُهم أيضًا، فالكُلُّ ناصرٌ للآخَرِ.

وأفادنا المؤلِّفُ -رحمه الله- في قولِه: «مِنْ نُوحٍ إِلَى...» أنَّ آدمَ ليس برسولٍ وأنَّ ما يُذْكَرُ من أنَّ إدريسَ جَدُّ نوحٍ كَذِبٌ، فإدريسُ ليس قبلَ نوحٍ، بل إدريسُ بعدَه، والظَّاهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّه من بني إسرائيلَ، فمَنْ زَعَمَ أنَّ إدريسَ جَدٌّ لنوحٍ وأنَّه قبله، أو أنَّ شيئًا -أو ما أشبه ذلك من الأقوالِ- قبل نوحٍ فقد ضَلَّ وكَذَبَ وخَالَفَ القُرآنَ والسُّنَّةَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النِّساء:١٦٣]، فلو كان قبل نوحٍ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أحدٌ لقال: «إلى فُلَانٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِه»، لكن ليس قبلَه أحدٌ.

وانتبهوا إلى شجرةِ الأنبياءِ المكتوبةِ والتي تُبَاعُ أحيانًا، مكتوبٌ فيها إدريسُ قبل نوحٍ، هذا كَذِبٌ، ويجبُ على مَنْ شاهدها أنْ يُمَزِّقَها؛ لأنَّه سَيُحوِّلُ عقيدةَ المسلمين إلى خطأٍ، سيُحوِّلُ العقيدةَ إلى أن نعتقدَ أنَّ نوحًا مسبوقٌ برسولٍ، وهذا كَذِبٌ، ففي القرآن: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النِّساء:١٦٣]، وفي القرآنِ أيضًا: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]، إِذَنْ لا يمكنُ أن تُوجَدَ نُبوَّةٌ وكتابٌ قبل نوحٍ، والمرادُ بالنُّبوَّةِ هنا نُبوَّةُ الرِّسالةِ، وفي السُّنَّةِ الصَّحيحةِ: «أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نُوحٍ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»(١)، وهذا صريحٌ، فحينئذٍ نقولُ: إنَّ ما نُشِرَ من هذه الشَّجرةِ باطلٌ.

إِذَنْ من العقيدةِ الواجبةِ على كُلِّ مسلمٍ أن يعتقدَ أنَّ نوحًا هو أوَّلُ الرُّسلِ، وأنَّه لا رسولَ قبلَه، أمَّا النُّبوَّة فنعم ثَبَتَتْ لآدمَ؛ كما جاء في الحديثِ الصَّحيحِ الذي صحَّحه جماعةٌ من العلماءِ أنَّ آدمَ «نبيٌّ مُكَلَّمٌ»(٢)، لكنَّه لم يُرْسَلْ؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا قليلين ولا يفتنهم شيءٌ، ولم يقع بينهم خلافٌ، فبمجرَّد ما يشاهدون آدمَ يتعبَّدُ لله بعبادةٍ يتعبَّدون لله بها؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقد قرأ بعضُ السَّلفِ: «**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا**»، وهذه القراءةُ يدلُّ عليها قولُه: ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [نوح:١]، رقم (٣١٦٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨، رقم ٢١٥٨٦).

٣٥٤٣- فَالقَلْبُ خَمْسَتُهُمْ أُولُو العُـزْمِ الأُلَى   فِي سُــورَةِ الشُّــورَى أَتَــوْا بِبَيَــانِ

٣٥٤٤- فِي أَوَّلِ الأَحْـزَابِ أَيْضًــا ذِكْــرُهُمْ   هُــمْ خَـيْرُ خَلْـقِ اللهِ مِــنْ إِنْسَــانِ

«القَلْبُ»؛ أي: قَلْبُ الجيشِ خمسةُ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهم على التَّرتيبِ بالأفضليَّةِ: مُحَمَّدٌ، إبراهيمُ، موسى، ثُمَّ عيسى ونوح في مرتبةٍ واحدةٍ، ومِن النَّاسِ مَنْ فَضَّلَ نوحًا، ومنهم مَنْ فَضَّلَ عيسى، فَمَنْ فَضَّلَ «نوحًا» قال: لأنَّه أُوذِي وبَقِيَ في قومِه ألفَ سنةٍ وتَعِبَ مع قومِه، والذين قدَّموا «عيسى» قدَّموه من جهةٍ أخرى، فهذا له مَقامُ صبرٍ، وهذا له مقامُ شُكرٍ، والأَوْلَى التَّوقُّف، إنَّما الثَّلاثةُ الأوَّلون: محمَّد، وإبراهيم، وموسى، هذه رُتبتُهم.

قَوْلُهُ: «فِي سُورَةِ الشُّورَى» هو قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشُّورى:١٣].

قَوْلُهُ: «فِي أَوَّلِ الأَحْزَابِ أَيْضًا ذِكْرُهُمْ» وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧]، ففي هذين الموضعين ذُكِرَ أولو العزمِ الخمسةِ، وهم خيرُ خلقِ الله من إنسانٍ.

٣٥٤٥- وَلِــوَاؤُهُمْ بِيَــدِ الرَّسُــولِ مُحَمَّــدٍ   وَالكُــلُّ تَحْــتَ لِـوَاءِ ذِي الفُرْقَــانِ

قَوْلُهُ: «وَالكُلُّ تَحْتَ لِوَاءِ ذِي الفُرْقَانِ»؛ يعني: محمَّدًا صلى الله عليه وسلم.

يعني: هؤلاء الذين يحملون ألويةَ الحقِّ ألويةَ التَّوحيدِ ومعهم الملائكةُ هل يمكن لأحدٍ أن يقاومَهم؟ الجوابُ: لا -واللهِ- لا يمكنُ أبدًا.

٣٥٤٦- وَجَمِيعُ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عِصَابَةِ الـ إِسْلامِ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ

جميعُ أصحابِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كُلُّهم جنودٌ لعساكرِ القرآنِ، كُلُّهم جنودٌ لأهلِ السُّنَّةِ، وهم أهلُ العلمِ والإيمانِ، لا شَكَّ والله هم أهلُ العلمِ والإيمانِ، وليس في الأُمَّةِ مَنْ يساويهم في علمِهم وإيمانهم.

٣٥٤٧- وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «**التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ**» ينبغي إذا ذَكَرْتَ التَّابعينَ أن تُقَيِّدَ «بِإِحْسَانٍ»؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَنْ يَدَّعِي أنَّه تابعٌ وليس بتابعٍ، فإذا لم يكن تابعًا على الإحسانِ فليس بتابعٍ، واقرأ قولَ الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التَّوبة:١٠٠]، لم يقل: «**الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ**» فقط، بل قال: ﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، والإحسانُ هنا الإخلاصُ والمتابعةُ، وعلى هذا فجميعُ أهلِ البدعِ لم يتَّبِعوهم بإحسانٍ، فقد يُحسنون في شيءٍ ولا يُحسنون في شيءٍ آخرَ، لكن لم يتَّبعوهم بإحسانٍ على الإطلاقِ، ولذلك إذا قلت: «**اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ على محمَّدٍ وأصحابِه والتَّابعين**»، قَيِّد فقل: «**والتَّابعين بإحسانٍ**» حتىَّ تُوافِقَ القرآنَ، والقرآنُ -لا شكَّ- أنَّ عباراتِه خيرُ العباراتِ.

٣٥٤٨- أَهْلُ الحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ وَأَئِمَّةُ الـ ـفَتْوَى وَأَهْلُ حَقَائِقِ العِرْفَانِ

كُلُّ هؤلاء جنودٌ، هل يُقَابِلونَ جنودَ أولئك الكفرةِ أو المبتدعةِ؟ هل تقاومُهم تلك الجنودُ؟ الجوابُ: لا.

قَوْلُهُ: «وَأَئِمَّةُ الفَتْوَى» لا يعني ذلك أنَّ فتواهم مقبولةٌ أخطؤوا أم أصابوا، ولكنَّهم هم أئمَّةُ الفتوى؛ ولذلك تجدُ أنَّ العلماءَ مِن بعد هؤلاء الأئمَّةِ يقولون:

قال الإمامُ أحمدُ، قال الإمامُ الشَّافعيُّ، قال الإمامُ أبو حنيفةَ، قال الإمامُ مالكٌ، قال الإمامُ سفيانُ... وهكذا، فهم الأئمَّةُ المرجعُ، لكن مع ذلك فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ لا يعتقدون العِصمةَ في أئمَّتِهم بخلافِ الرَّافضةِ، فالرَّافضةُ يدَّعون أنَّ أئمَّتَهم معصومون، حتىَّ إنَّ زعيمَهم يقولُ: إنَّ من أصولِ عقيدتِنا أنَّ لأئمَّتِنا منزلةً لا ينالُها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وأنَّهم معصومون من كُلِّ خطأٍ، أين هذا؟ إذا كان أئمَّةُ المسلمين المشهودُ لهم بالصَّلاحِ والعلم والإيمانِ لا يُعْصَمُون من الخطأ فَمَنْ دونَهم بمراتبٍ لا يُعْصَمُ من الخطأِ، كُلٌّ يخطِئ إلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ كالرُّسلِ فيما يُبَلِّغون به عن الله.

٣٥٤٩- العَارِفُونَ بِرَبِّهِمْ وَنَبِيِّهِمْ وَمَرَاتِبِ الأَعْمَالِ فِي الرُّجْحَانِ

يعرفون الرَّاجحَ من المرجوحِ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ الأعمالَ تتفاضلُ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»(١)، والنُّصوصُ في هذا كثيرةٌ من القرآنِ والسُّنَّةِ تدلُّ على تفاضلِ الأعمالِ وتفاضلِ العاملِ أيضًا.

٣٥٥٠- صُوفِيَّةٌ سُنِّيَّةٌ نَبَوِيَّةٌ لَيْسُوا أُولِي شَطْحٍ وَلا هَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «سُنِّيَّةٌ»؛ أي: لتمسُّكِهم بها.

قَوْلُهُ: «صُوفِيَّةٌ سُنِّيَّةٌ» هل يمكنُ أن تكونَ الصُّوفيَّةُ سُنِّيَّةً؟ الجوابُ: نعم؛ لأنَّ الصُّوفيَّةَ مبناها على الزُّهدِ في الدُّنيا وتركِ ما لا ينفعُ في الآخرةِ، وهذا هو السَّببُ أنَّهم سُمُّوا صوفيَّةً؛ لأنَّهم لا يلبسون إلَّا الصُّوفَ، وليست من الصَّفاءِ كما يدَّعي بعضُهم، لو كانت من الصَّفاءِ لكانت النِّسبةُ صفويَّةً، ولكنَّها من الصُّوفِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب وسمى النبي ﷺ الصلاة عملا، رقم (٧٠٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

وكان أوَّلُهم لزهدِهم لا يلبسُ الكتَّانَ ولا الألبسةَ الجميلةَ لكن يقتصرُ على الصُّوفِ، فقولُ ابنِ القيِّم: «صُوفِيَّةٌ» يريدُ بذلك الزَّهادةَ في الدُّنيا لا طريقةَ الشَّطحِ والهذيان.

وكان ابنُ القيِّم -رحمه الله- في أوَّلِ أمرِه كان من الصُّوفيَّة حتَّى قَيَّضَ اللهُ له هذا الإمامَ العظيمَ أحمد ابنَ تيميَّةَ -رحمه الله- فلازمه، فهداه اللهُ على يدِه، وقد ذَكَرَ ذلك -رحمه الله- في هذه القصيدةِ نفسِها أنَّ اللهَ تعالى مَنَّ عليه بشيخٍ أتى من أرضِ حرَّان، فهداه اللهُ به وإلَّا لهلك مع الصُّوفيَّة.

قَوْلُهُ: «نَبِويَّةٌ»؛ لأنَّ طريقتَهم طريقةُ النَّبيِّ ﷺ، وليست كصوفيَّةٍ ذي الشَّطحِ والهذيان، فالصُّوفيَّةُ الذين عندهم من الشَّطحِ والهذيان هؤلاء بعيدون عن السُّنَّة.

* * *

٣٥٥١- هَـذَا كَلامُهُـمُ لَـدَيْنَا حَـاضِرٌ ... مِـنْ غَـيْرِ مَـا كَـذِبٍ وَلا كِـتْمَانِ

٣٥٥٢- فَاقْبَلْ حِوَالَـةَ مَـنْ أَحَـالَ عَلَـيْهِمُ ... هُـمْ أَمْلِيَـاؤُهُمُ أُولُـو إِمْكَـانِ

٣٥٥٣- فَـإِذَا بَعَثْنَـا غَـارَةً مِـنْ أُخْرَيَـا ... تِ العَسْـكَرِ المَنْصُـورِ بِـالقُرْآنِ

٣٥٥٤- طَحَنَتْكُمُ طَحْنَ الرَّحَى لِلحَبِّ حَتْـ ... ـتَى صِرْتُـمُ كَـالبَعْرِ فِي القِيعَـانِ

٣٥٥٥- أَنَّى يُقَـاوِمُ ذِي العَسَـاكِرَ طَمْطَـمٌ ... أَوْ تنكلُوشَّـا أَوْ أَخُـو اليُونَـانِ

٣٥٥٦- أَعْنِـي أَرِسْـطُو عَابِـدَ الأَوْثَـانِ أَوْ ... ذَاكَ الكَفُـورَ مُعَلِّـمَ الأَلْـحَانِ

٣٥٥٧- ذَاكَ المُعَلِّـمُ أَوَّلًا لِلحَـرْفِ وَالثْـ ... ـثَانِي لِصَـوْتٍ بِئْسَـتِ العِلْـمَانِ

٣٥٥٨- هَذَا أَسَاسُ الفِسْقِ وَالحَرْفِ الَّذِي ... وَضَعُوا أَسَاسَ الكُفْرِ وَالـهَذَيَانِ

٣٥٥٩- أَوْ ذَلِكَ المَخْدُوعُ حَامِلُ رَايَةِ الـ ... إِلْحَادِ ذَاكَ خَلِيفَةُ الشَّيْطَانِ

٣٥٦٠- أَعْنِي ابْنَ سِينَا ذَلِكَ المَحْلُولَ مِنْ ... أَدْيَانِ أَهْلِ الأَرْضِ ذَا الكُفْرَانِ

٣٥٦١- وَكَذَا نَصِيرُ الشِّرْكِ فِي أَتْبَاعِهِ ... أَعْدَاءِ رُسْلِ اللهِ وَالإِيمَانِ

٣٥٦٢- نَصَرُوا الضَّلالَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ ... وَغَزَوْا جُيُوشَ الدِّينِ وَالقُرْآنِ

٣٥٦٣- فَجَرَى عَلَى الإِسْلامِ مِنْهُمْ مِحْنَةٌ ... لَمْ تَجْرِ قَطُّ بِسَالِفِ الأَزْمَانِ

٣٥٦٤- أَوْ جَعْدٌ اَوْ جَهْمٌ وَأَتْبَاعٌ لَهُ ... هُمْ أُمَّةُ التَّعْطِيلِ وَالبُهْتَانِ

٣٥٦٥- أَوْ حَفْصٌ اَوْ بِشْرٌ أَوِ النَّظَّامُ ذَا ... كَ مُقَدِّمُ الفُسَّاقِ وَالمُجَّانِ

٣٥٦٦- وَالجَعْفَرَانِ كَذَاكَ شَيْطَانٌ وَيُدْ ... عَى الطَّاقَ لا حُيِّيتَ مِنْ شَيْطَانِ

٣٥٦٧- وَكَذَلِكَ الشَّحَّامُ وَالعَلَّافُ وَالنْـ ... نَجَّارُ أَهْلُ الجَهْلِ بِالقُرْآنِ

٣٥٦٨- وَاللهِ مَا فِي القَوْمِ شَخْصٌ رَافِعٌ ... بِالوَحْيِ رَأْسًا بَلْ بِرَأْيِ فُلانِ

٣٥٦٩- وَخِيَارُ عَسْكَرِكُمْ فَذَاكَ الأَشْعَرِيْ ... يُ القِرْمُ ذَاكَ مُقَدَّمُ الفُرْسَانِ

٣٥٧٠- لَكِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَنْتُمْ عَلَى ... إِثْبَاتِهِ وَالحَقُّ ذُو بُرْهَانِ

الشرحُ

٣٥٥١- هَذَا كَلامُهُمُ لَدَيْنَا حَاضِرٌ ... مِنْ غَيْرِ مَا كَذِبٍ وَلا كِتْمَانِ

٣٥٥٢- فَاقْبَلْ حِوَالَةَ مَنْ أَحَالَ عَلَيْهِمُ ... هُمْ أَمْلِيَاؤُهُمُ أُولُو إِمْكَانِ

كلامُ السَّلفِ حاضرٌ، فاقبل حوالةَ مَنْ حوَّلَكَ عليه؛ لأنَّه حوَّلَكَ على مَلِيء،

ولقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «وَإِذَا أُتْبِعَ -يعني: إذا أُحِيلَ بِدَيْنٍ- أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ»(١)، إذا أَحَالَنَا على كلامِ هؤلاء الأئمَّةِ فقد أَحَالَنَا على مَلِيٍّ وَفِيٍّ.

٣٥٥٣- فَإِذَا بَعَثْنَا غَارَةً مِنْ أُخْرَيَا ... تِ العَسْكَرِ المَنْصُورِ بِالقُرْآنِ

٣٥٥٤- طَحَنَتْكُمُ طَحْنَ الرَّحَى لِلحَبِّ حَتْـ ... ـتَى صِرْتُمُ كَالبَعْرِ فِي القِيعَانِ

والله عجيبٌ تصوُّرُه هذا؛ يقولُ: إذا بعثنا غارةً وليست من مقدِّماتِ الجيشِ بل من أُخرياتِ الجيشِ، وعادةً أنَّ المُقَدَّمَ من الجيوشِ أقوى وأشجعُ، لكن ما نعطيكم من مُقَدِّمات الجيشِ، بل نبعثُ غارةً من أُخرياتِ الجيشِ على هؤلاء المبتدعةِ والملحدين وما أشبههم، وهذا هو تمامُ الشَّجاعةِ، طَحَنَتْكُم طَحْنَ الرَّحَى، ومعلومٌ ماذا تفعلُه الرَّحى في الحَبِّ؟ وإذا فعلت ذلك فإنَّهم يصيرون دقيقًا، وهو -رحمه الله- مَثَّلَ أبلغَ من الدَّقيق فقال: «**حَتَّى صِرْتُمُ كَالبَعْرِ فِي القِيعَانِ**» «البعر»؛ أي: روث الإبل في القيعانِ؛ يعني: ليس له قيمةٌ، فالبعرُ في القيعانِ يتفتَّتُ، ولا يمكنُ أن يقابلَ شيئًا، حتَّى الهواء يمكنُ أن يفرِّقَه.

٣٥٥٥- أَنَّى يُقَاوِمُ ذِي العَسَاكِرَ طَمْطَمٌ ... أَوْ تنكلُوشًا أَوْ أَخُو اليُونَانِ

نعم، لا يُمكن أن يُقَاوِمَ، لكن من هو أخو اليونان؟ قال رحمه الله:

٣٥٥٦- أَعْنِي أَرِسْطُو عَابِدَ الأَوْثَانِ أَوْ ... ذَاكَ الكَفُورَ مُعَلِّمَ الأَلْحَانِ

٣٥٥٧- ذَاكَ المُعَلِّمُ أَوَّلًا لِلحَرْفِ وَالثْـ ... ـثَانِي لِصَوْتٍ بِئْسَتِ العِلْمَانِ

قَوْلُهُ: «**أَرِسْطُو**» مُعَلِّمُ الحرفِ، والثَّاني: مُعَلِّمٌ للصَّوتِ «**التَّلحين**».

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب البيوع، باب مطل الغني، رقم (٤٦٨٨).

٣٥٥٨- هَذَا أَسَاسُ الفِسْقِ وَالحَرَفِ الَّذِي ... وَضَعُوا أَسَاسَ الكُفْرِ وَالـهَذَيَانِ

٣٥٥٩- أَوْ ذَلِكَ المَخْدُوعُ حَامِلُ رَايَةِ الـ ... إِلْـحَادِ ذَاكَ خَلِيفَةُ الشَّيْطَانِ

٣٥٦٠- أَعْنِي ابْنَ سِينَا ذَلِكَ المَحْلُولَ مِنْ ... أَدْيَانِ أَهْلِ الأَرْضِ ذَا الكُفْرَانِ

هذا ابنُ سينا، وهو الآن مُعَظَّمٌ عندَ كثيرٍ من النَّاسِ، ورُبَّما يُسَمُّون المدارسَ باسمِهِ؛ لأَنَّه طبيبٌ، ولم يراعوا أَنَّه كافرٌ، وابنُ القيِّم وكذا شيخُه -رحمهما اللهُ- يُصَرِّحانِ بأَنَّه كافرٌ، بل قائدُ الكفرِ أيضًا؛ ولذلك لا يجوزُ أن نرفعَ من شأنِ هؤلاءِ، نحن أُمَّةٌ مسلمةٌ نرفعُ شأنَ مَنْ كان إمامًا في الدِّين، أمَّا مَنْ كان إمامًا في الكفرِ فإنَّه تحت أقدامِنا ولو كان عنده من علمِ الطِّبِّ أو الصِّناعة ما عنده، هذا هو الواجبُ؛ ولهذا يقولُ: «**أَعْنِي: ابْنَ سِينَا ذَلِكَ المَحْلُولَ مِنْ أَدْيَانِ أَهْلِ الأَرْضِ ذَا الكُفْرَانِ**»، تَنبَّهوا يا إخوان، تنبَّهوا، لا يغرنَّكم مَنْ يُقَدِّسُ أمثالَ هؤلاءِ وهم أئمَّةُ الكفرِ الذين قادوا الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ إلى الهاوية، وماذا يُغني طبُّ الأبدانِ إذا ماتت القلوبُ؟! الجوابُ: لا يُغني شيئًا، والله إنَّ طبَّ الأبدانِ وصلاحَ المجتمع في صلاحِ القلبِ وفي حياةِ القلبِ، أمَّا إذا مَاتَ القلبُ أو مَرِضَ فماذا تنفعُ صحَّةُ الجسمِ؟!

٣٥٦١- وَكَذَا نَصِيرُ الشِّرْكِ فِي أَتْبَاعِهِ ... أَعْـدَاءِ رُسْـلِ اللهِ وَالإِيـمَانِ

٣٥٦٢- نَصَرُوا الضَّلالَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ ... وَغَزَوْا جُيُوشَ الدِّينِ وَالقُرْآنِ

٣٥٦٣- فَجَرَى عَلَى الإِسْلامِ مِنْهُمْ مِحْنَةٌ ... لَـمْ تَجْرِ قَطُّ بِسَالِفِ الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «**فَجَرَى عَلَى الإِسْلَامِ مِنْهُمْ مِحْنَةٌ**»، وفي نسخةٍ: «**أَعْظَمُ مِحْنَةٍ**»، والنِّسخةُ التي بأيدينا أحسنُ؛ لأنَّ قوله: «**لَـمْ تَجْرِ قَطُّ**» تدلُّ على أنَّها أعظمُ محنةٍ.

نصيرُ الشِّركِ يريدُ بذلك مَنْ يُسَمَّى نصيرَ الدِّين الطوسيَّ، هذا الخبيثُ الذي جَرَى على الإسلامِ منه أعظمُ محنةٍ، وسَيُصَوِّرُ المؤلِّفُ -رحمه الله- بعضًا منها أيضًا، وسقطت الخلافةُ العباسيَّةُ على يدِه، وأوغل التَّتارُ في القتلِ في المسلمينِ وهتكِ الأعراضِ، وما أشبه ذلك.

٣٥٦٤- أَوْ جَعْــدٌ اَوْ جَهْــمٌ وَأَتْبَــاعٌ لَــهُ   هُــمْ أُمَّــةُ التَّعْطِيــلِ وَالبُهْتَــانِ

الجوابُ: كُلُّ هذا بـ«لا»؛ يعني: هؤلاء لا يُقَاوِمُونَ جنودَ الرَّحمنِ.

٣٥٦٥- أَوْ حَفْـصٌ اَوْ بِشْــرٌ أَوِ النَّظَّـامُ ذَا   كَ مُقَــدَّمُ الفُسَّــاقِ وَالمُجَّــانِ

٣٥٦٦- وَالجَعْفَـرَانِ كَـذَاكَ شَـيْطَانٌ وَيُـدْ   عَى الطَّاقَ لا حُيِّيتَ مِـنْ شَـيْطَانِ

٣٥٦٧- وَكَذَلِكَ الشَّحَّامُ وَالعَـلَّافُ وَالنْـ   نَجَّــارُ أَهْــلُ الجَهْــلِ بِــالقُرْآنِ

٣٥٦٨- وَاللهِ مَـا فِي القَـوْمِ شَـخْصٌ رَافِـعٌ   بِـالوَحْيِ رَأْسًـا بَـلْ بِـرَأْيِ فُـلانِ

٣٥٦٩- وَخِيَارُ عَسْكَرِكُمْ فَذَاكَ الأَشْعَرِيْ   يُ القِــرْمُ ذَاكَ مُقَــدَّمُ الفُرْسَــانِ

٣٥٧٠- لَكِــنَّكُمْ وَاللهِ مَــا أَنْــتُمْ عَــلَى   إِثْبَاتِــهِ وَالــحَقُّ ذُو بُرْهَــانِ

كُلُّ هذه أسماءٌ لشيوخِ المعتزلةِ، والأشعريُّ -رحمه الله- هو خيرُ القومِ، كان في أوَّلِ أمرِه معتزليًّا، مَضَى عليه أربعون سنةً وهو معتزليٌّ، ثُمَّ مَنَّ اللهُ عليه بالهدايةِ، فرجع عن مذهبِ المعتزلةِ وأعلن بطلانَه، وَرَدَّ عليه علنًا بعد صلاةِ الجمعةِ، ثُمَّ كان على مذهبٍ وسطٍ بين مذهبِ المعتزلةِ وأهلِ السُّنَّةِ، ثُمَّ تَبَيَّنَ له بعد هذا أنَّ الحقَّ في مذهبِ السَّلفِ وتَبِعَ الإمامَ المُبَجَّلِ أحمدَ رحمه الله، لكنَّ قومَه الذين انتسبوا إليه بَقَوْا على مذهبِه الذي هو دون الاعتزالِ، ولكنَّه لم يبلغْ إلى مذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ.

٣٥٧١- هُوَ قَالَ إِنَّ اللهَ فَوْقَ العَرْشِ وَاسْـ ـتَوْلَى مَقَالَـةُ كُـلِّ ذِي بُهْتَـانِ

٣٥٧٢- فِي كُتْبِهِ طُـرًّا وَقَـرَّرَ قَـوْلَ ذِي الـ إِثْبَـاتِ تَقْرِيـرًا عَظِـيمَ الشَّـانِ

٣٥٧٣- لَكِـنَّكُمْ أَكْفَرْتُمُـوهُ وَقُلْـتُمُ مَـنْ قَـالَ هَـذَا فَهْـوَ ذُو كُفْـرَانِ

٣٥٧٤- فَخِيَـارُ عَسْـكَرِكُمْ فَـأَنْتُمْ مِـنْهُمُ بُـرَآءُ إِذْ قَرُبُـوا مِـنَ الإِيـمَانِ

٣٥٧٥- هَذِي العَسَاكِرُ قَدْ تَلاقَـتْ جَهْـرَةً وَدَنَـا القِتَـالُ وَصِـيحَ بِـالأَقْرَانِ

٣٥٧٦- صُفُّوا الجُيُوشَ وَعَبِّئُوهَا وَابْـرُزُوا لِلحَـرْبِ وَاقْتَرِبُـوا مِـنَ الفُرْسَـانِ

٣٥٧٧- فَهُـمُ إِلَى لُقْيَـاكُمُ بِالشَّـوْقِ كَـيْ يُوفُـوا بِنَـذْرِهِمُ مِـنَ القُرْبَـانِ

٣٥٧٨- وَلَـهُمْ إِلَيْكُمْ شَـوْقُ ذِي قِـرْمٍ فَـمَا يَشْـفِيهِ غَـيْرُ مَوَائِـدِ اللُّحْـمَانِ

٣٥٧٩- تَبًّـا لَكُـمْ لَـوْ تَعْقِلُـونَ لَكُنْـتُمُ خَلْفَ الخُدُورِ كَأَضْعَفِ النِّسْـوَانِ

٣٥٨٠- مِنْ أَيْنَ أَنْـتُمْ وَالـحَدِيثُ وَأَهْلُـهُ وَالـوَحْيُ وَالمَعْقُـولُ بِالبُرْهَـانِ

٣٥٨١- مَا عِنْدَكُمْ إِلَّا الـدَّعَاوَى وَالشَّـكَا وَى أَوْ شَـهَادَاتٌ عَـلَى البُهْتَـانِ

٣٥٨٢- هَـذَا الَّـذِي وَاللهِ نِلْنَـا مِـنْكُمُ فِي الحَـرْبِ إِذْ يَتَقَابَـلُ الصَّـفَّانِ

٣٥٨٣- وَاللهِ مَـا جِئْـتُمْ بِقَـالَ اللهُ أَوْ قَـالَ الرَّسُـولُ وَنَحْـنُ فِي المَيْـدَانِ

٣٥٨٤- إِلا بِجَعْجَعَـةٍ وَفَرْقَعَـةٍ وَغَمْـ ـمَـةٍ وَقَعْقَعَـةٍ بِكُـلِّ لِسَـانِ

٣٥٨٥- وَيَحِـقُّ ذَاكَ لَكُـمْ وَأَنْـتُمْ أَهْلُـهُ أَنْـتُمْ بِحَاصِـلِكُمْ أُولُـو عِرْفَـانِ

٣٥٨٦- وَبِحَقِّكُـمْ تَحْمُـوا مَنَاصِـبَكُمْ وَأَنْ تَحْمُـوا مَـآكِلَكُمْ بِكُـلِّ سِـنَانِ

٣٥٨٧- وَبِحَقِّنَا نَحْمِي الـهُدَى وَنَذُبُّ عَنْ ... سُنَنِ الرَّسُولِ وَمُقْتَضَـى القُـرْآنِ

٣٥٨٨- قَـبَحَ الإِلَـهُ مَنَاصِـبًا وَمَـآكِلًا ... قَامَـتْ عَـلَى العُـدْوَانِ وَالطُّغْيَـانِ

٣٥٨٩- وَاللهِ لَـوْ جِئْـتُمْ بِقَـالَ اللهُ أَوْ ... قَالَ الرَّسُـولُ كَفِعْـلِ ذِي الإِيـمَانِ

٣٥٩٠- كُنَّا لَكُـمْ شَـاوِيشَ تَعْظِـيمٍ وَإِجْـ ... ـلالٍ كَشَـاوِيشٍ لِـذِي سُـلْطَانِ

٣٥٩١- لَكِـنْ هَجَـرْتُمْ ذَا وَجِئْـتُمْ بِدْعَـةً ... وَأَرَدْتُـمُ التَّعْظِـيمَ بِالبُهْتَـانِ

الشَّـرحُ

٣٥٧١- هُوَ قَالَ إِنَّ اللهَ فَوْقَ العَرْشِ وَاسْـ ... ـتَوْلَى مَقَالَـةُ كُـلِّ ذِي بُهْتَـانِ

الأشاعرةُ الآن لا يقولون: إنَّ اللهَ استوى على العرشِ، والإمامُ الذي ينتسبون إليه يقولُ: «**إنَّ اللهَ استوى على العرشِ**»، ويقولُ: «**اسْتَوْلَى» مَقَالَةُ كُلِّ ذِي بُهْتَانِ**»، وهذا من العجبِ أن ينتسبوا إلى إمامٍ ثُمَّ يخالفوا قولَه، فيُقَالُ: إذا كنتم صادقين فهذه كتبُه، فـ«**الإبانةُ عن أصولِ الدِّيانة**» صَرَّحَ فيه بمذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ على وجهِ التَّفصيلِ.

٣٥٧٢- فِي كُتْبِهِ طُـرًّا وَقَـرَّرَ قَـوْلَ ذِي الـ ... إِثْبَـاتِ تَقْرِيـرًا عَظِـيمَ الشَّـانِ

٣٥٧٣- لَكِـنَّكُمْ أَكْفَرْتُمُـوهُ وَقُلْـتُمُ ... مَـنْ قَـالَ هَـذَا فَهْـوَ ذُو كُفْـرَانِ

أتباعُه الآن لا يُكفِّرونه، فلا يقولون: إنَّه كافرٌ، وهم يدَّعون أنَّهم مُتَّبعوه، لكن يقولون: «**مَنْ قال هذا فهو كافرٌ**».

ولهذا ففي الأشاعرة مذهب يُنكرون ما يُنْسَبُ لأبي الحسنِ الأشعريِّ من كتاب: «**الإبانة**»، و«**مقالات الإسلاميِّين**»، وما أشبه ذلك، يقولون: هذه منسوبةٌ إليه،

وليست بصحيحةٍ؛ لأنَّها تُخَالِفُ ما كانوا عليه، ولذا فينكرونها كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النَّمل:١٤]، والسَّببُ أنَّهم أخذوا بمذهبِه الوسط الذي بين الاعتزالِ وبين مذهبِ السَّلفِ، أخذوه وقرَّروه، وبقَوْا عليه.

٣٥٧٤- فَخِيَارُ عَسْكَرِكُمْ فَأَنْتُم مِنْهُمُ ... بُرَآءُ إِذْ قَرُبُوا مِنَ الإِيمَانِ

يعني: أنَّ المعتزلةَ فيهم بعضُ الأئمَّةِ منهم قد قربوا من الحقِّ، ولكن مع ذلك لا يقبلونه، يذكرون أقوالَهم على أنَّها أقوالٌ مهجورةٌ.

٣٥٧٥- هَذِي العَسَاكِرُ قَدْ تَلاقَتْ جَهْرَةً ... وَدَنَا القِتَالُ وَصِيحَ بِالأَقْرَانِ

يُصوِّرُ المسألةَ كأنَّ الملاقاةَ حصلت ودنا القتالُ وصِيحَ بالأقرانِ، والأقرانُ هم الذين يتكافؤون في الشَّجاعةِ والإقدامِ.

٣٥٧٦- صُفُّوا الجُيُوشَ وَعَبِّئُوهَا وَابْرُزُوا ... لِلحَرْبِ وَاقْتَرِبُوا مِنَ الفُرْسَانِ

٣٥٧٧- فَهُمُ إِلَى لُقْيَاكُمُ بِالشَّوْقِ كَيْ ... يُوفُوا بِنَذْرِهِمُ مِنَ القُرْبَانِ

فهم مشتاقون إلى لقياكم من أجلِ أن يتقرَّبوا إلى الله بقتلِكم.

٣٥٧٨- وَلَهُمْ إِلَيْكُمْ شَوْقُ ذِي قِرْمٍ فَمَا ... يَشْفِيهِ غَيْرُ مَوَائِدِ اللُّحْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَهُمْ إِلَيْكُمْ شَوْقُ ذِي قَرَمٍ» القَرَمُ، يُقَال: «قَرِمَتْ نفسي لأكلِ اللحمِ أو لكذا وكذا»؛ يعني: اشتاقت بشدَّةٍ.

٣٥٧٩- تَبًّا لَكُمْ لَوْ تَعْقِلُونَ لَكُنْتُمُ ... خَلْفَ الخُدُورِ كَأَضْعَفِ النِّسْوَانِ

يعني: لو تعقلون ما أنتم عليه وأنَّه لا يمكنُ أن تُقَاوِمُوا لكنتم خلفَ الخدورِ مثل النِّساءِ، بل مثل أضعفِ النِّساءِ.

٣٥٨٠- مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ وَالحَدِيثُ وَأَهْلُهُ ... وَالوَحْيُ وَالمَعْقُولُ بِالبُرْهَانِ

يعني: لستم بشيءٍ مع أهلِ الحديثِ وأهلِ الوحي وأهلِ المعقولِ بالبرهانِ.

٣٥٨١- مَا عِنْدَكُمْ إِلَّا الدَّعَاوَى وَالشَّكَا ... وَى أَوْ شَهَادَاتٌ عَلَى البُهْتَانِ

٣٥٨٢- هَذَا الَّذِي وَاللهِ نِلْنَا مِنْكُمُ ... فِي الحَرْبِ إِذْ يَتَقَابَلُ الصَّفَّانِ

ومعلومٌ أنَّ الدَّعَاوَى والشَّكاوَى والشَّهاداتِ بالكذبِ لا تُحِقُّ حقًّا ولا تُبطلُ باطلًا، لكن هذا ديدنُهم، يرفعون الأمرَ إلى السُّلطانِ ويكذبون على أهلِ السُّنَّةِ حتىَّ إنَّ السَّلاطين تحبسُ أهلَ السُّنَّةِ وتضربُهم كما هو معروفٌ فيما صنعوا بالإمامِ أحمدَ، وبشيخِ الإسلامِ، وبابنِ القيِّم، وبغيرِهم رحمهم اللهُ.

٣٥٨٣- وَاللهِ مَا جِئْتُمْ بِقَالَ اللهُ أَوْ ... قَالَ الرَّسُولُ وَنَحْنُ فِي المَيْدَانِ

وهذا صحيحٌ، فإذا قَرَأْتَ كتبَهم تُقلِّب الصَّفحاتِ العديدةَ لا تجدُ قال اللهُ ولا قال رسولُ الله.

٣٥٨٤- إلا بِجَعْجَعَةٍ وَفَرْقَعَةٍ وَغَمْـ ... غَمَةٍ وَقَعْقَعَةٍ بِكُلِّ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «إِلَّا بِجَعْجَعَةٍ»؛ يعني: ما أتيتم إلَّا بجعجعةٍ.

وَقَوْلُهُ: «بِجَعْجَعَةٍ وَفَرْقَعَةٍ وَغَمْغَمَةٍ وَقَعْقَعَةٍ» كُلُّ هذه معناها أنَّها لا تُغني شيئًا.

قَوْلُهُ: «وَقَعْقَعَةٍ بِكُلِّ لِسَانِ»، وفي نسخة: «بِكُلِّ شِنَانِ» جمع «شَنَّة»، ولا بأسَ، والمعنى أنَّهم يُقَعْقِعُونَ بالشِّنانِ الباليةِ التي لا تنفعُ.

فكُلُّ هذه الصَّيْحاتِ لا تفيدُ؛ فالجعجعةُ، والفرقعةُ مثل: التَّصفيقِ، والغمغمة كُلُّ هذه لا تُفيدُ.

٣٥٨٥- وَيَحِقُّ ذَاكَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ ... أَنْتُمْ بِحَاصِلِكُمْ أُولُو عِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَحِقُّ ذَاكَ»؛ يعني: الجعجعة والفرقعة والغمغمة والقعقعة.

قَوْلُهُ: «وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ»؛ أي: وأنتم أهلٌ له.

قَوْلُهُ: «أَنْتُمْ بِحَاصِلِكُمْ أُولُو عِرْفَانِ»؛ يعني: أنتم بحسب ما تعتقدون وتظنُّون أنَّكم أصحابُ عرفانٍ، ومع ذلك ليس عندكم إلَّا الجعجعةُ.

٣٥٨٦- وَبِحَقِّكُمْ تَحْمُوا مَنَاصِبَكُمْ وَأَنْ ... تَحْمُوا مَآكِلَكُمْ بِكُلِّ سِنَانِ

هذا الذي هم يدافعون عنه، يدافعون عن المناصبِ والمآكلِ؛ يعني: أنَّهم لا يريدون إلَّا أن يكونوا عند ذَوِي السُّلطانِ وأصحابِ الجاهِ والمآكلِ، أمَّا نحن فنقول:

٣٥٨٧- وَبِحَقِّنَا نَحْمِي الهُدَى وَنَذُبُّ عَنْ ... سُنَنِ الرَّسُولِ وَمُقْتَضَى القُرْآنِ

وفَرْقٌ بين هذا وهذا، فَرْقٌ بين مَنْ يصولُ ويجولُ من أجل القرآنِ ونصرةِ الحقِّ، ومَنْ يصولُ ويجولُ من أجلِ المنصبِ والأكلِ.

٣٥٨٨- قَبَحَ الإِلَهُ مَنَاصِبًا وَمَآكِلًا ... قَامَتْ عَلَى العُدْوَانِ وَالطُّغْيَانِ

قَوْلُهُ: «قَبَحَ» بمعنى قَبَّحَ.

٣٥٨٩- وَاللهِ لَوْ جِئْتُمْ بِقَالَ اللهُ أَوْ ... قَالَ الرَّسُولُ كَفِعْلِ ذِي الإِيمَانِ

٣٥٩٠- كُنَّا لَكُمْ شَاوِيشَ تَعْظِيمٍ وَإِجْـ ... ـلَالٍ كَشَاوِيشٍ لِذِي سُلْطَانِ

قَوْلُهُ: «كُنَّا لَكُمْ شَاوِيشَ تَعْظِيمٍ» «الشَّاوِيشُ»؛ يعني: الرِّجالَ والأتباعَ.

يعني: لو أنَّكم تقولون: قال اللهُ وقال الرسولُ لكنَّا أتباعًا وجنودًا لكم.

٣٥٩١- لَكِـنْ هَجَـرْتُمْ ذَا وَجِئْـتُمْ بِدْعَـةً وَأَرَدْتُـمُ التَّعْظِـيمَ بِالبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «هَجَرْتُمْ ذَا»؛ يعني: قال اللهُ وقال رسولُه.

يقولُ: لكنَّكم هجرتم «**قال اللهُ وقال رسولُه**»، وأتيتم ببدعةٍ وأردتم التَّعظيمَ أن يُعَظِّمَكُم النَّاسُ بالبهتانِ والكذبِ، إذا كانت هذه حال هؤلاء وتلك حال أولئك فمن المعلومِ أنَّه لا يمكنُ لهؤلاء المبتدعةِ والملحدين وجنودِ الشَّياطين أن يُقَاوِمُوا أهلَ السُّنَّةِ وأهلَ الحقِّ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم منهم.

* * *

فصل

٣٥٩٢- العِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُو العِرْفَانِ

٣٥٩٣- مَا العِلْمُ نَصْبُكَ لِلخِلافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلانِ

٣٥٩٤- كَلَّا وَلَا جَحْدُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا ... فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالسُّبْحَانِ

٣٥٩٥- كَلَّا وَلَا نَفْيُ العُلُوِّ لِفَاطِرِ الـ ... أَكْوَانِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

٣٥٩٦- كَلَّا وَلَا عَزْلُ النُّصُوصِ وَأَنَّهَا ... لَيْسَتْ تُفِيدُ حَقَائِقَ الإِيمَانِ

٣٥٩٧- إِذْ لَا تُفِيدُكُمْ يَقِينًا لَا وَلَا ... عِلْمًا فَقَدْ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ

٣٥٩٨- وَالعِلْمُ عِنْدَكُمُ يُنَالُ بِغَيْرِهَا ... بِزِبَالَةِ الأَفْكَارِ وَالأَذْهَانِ

٣٥٩٩- سَمَّيْتُمُوهُ قَوَاطِعًا عَقْلِيَّةً ... تَنْفِي الظَّوَاهِرَ حَامِلاتِ مَعَانِي

٣٦٠٠- كَلَّا وَلَا إِحْصَاءُ آرَاءِ الرِّجَا ... لِ وَضَبْطُهَا بِالحَصْرِ وَالحُسْبَانِ

٣٦٠١- كَلَّا وَلَا التَّأْوِيلُ وَالتَّبْدِيلُ وَالتْـ ... ـتَحْرِيفُ لِلوَحْيَيْنِ بِالبُهْتَانِ

٣٦٠٢- كَلَّا وَلَا الإِشْكَالُ وَالتَّشْكِيكُ وَالْـ ... ـوَقْفُ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ عِرْفَانِ

٣٦٠٣- هَذِي عُلُومُكُمُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا ... عَادَيْتُمُونَا يَا أُولِي العِرْفَانِ

الشرحُ

سبق أنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- ذَكَرَ وَصْفَ المُعَسْكَرَيْنِ واستدارةِ رَحَى الحربِ العوان بين الصَّفَّيْنِ، ثُمَّ انتهى إلى الفصلِ الذي قال فيه: «فَصْلٌ».

٣٥٩٢- العِلْـــمُ قَـــالَ اللهُ قَـــالَ رَسُـــولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ هُـمْ أُولُـو العِرْفَـانِ

العلمُ النَّافعُ الشَّرعيُّ هو المبنيُّ على هذه المصادرِ الثَّلاثةِ:

الأوَّل: قولُ الله عزَّ وجلَّ، وهو ما جاء في كتابِهِ.

الثَّاني: قولُ النَّبيِّ ﷺ، وهو ما صَحَّ عنه من سنَّتِه.

الثَّالث: قولُ الصَّحابةِ؛ أي: إجماعُ الصَّحابةِ لا شكَّ فيه.

فلنسأل: هل أجمع الصَّحابةُ على إجراءِ نصوصِ الصِّفاتِ على ظاهرِها؟ نعم، أجمعوا على ذلك، ما منهم أحدٌ فَسَّرَ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] بـ«**استولى عليه**»، ولا أحدٌ منهم فَسَّرَ ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٦٤] بقدرتِه، ولا أحدٌ فَسَّرَ ﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] بثوابِه أبدًا، وعلى هذا فهم مُجْمِعون على ظاهرِ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ إذ لو كان عندهم خلافُ الظَّاهرِ لتكلَّموا به، مَنْ يمنعُهم؟! ولهذا إذا أردتَ أن تُقَرِّرَ إجماعَ الصَّحابةِ على هذه المسألةِ المهمَّةِ فقل: إنِّي أُقَرِّرُ إجماعَهم بأنَّه لم يَرِدْ عنهم قولٌ بخلافِها وهم يقرؤونها صباحًا و مساءً، ولو كانوا يعتقدون خلافَها لبيَّنوه.

فهذه الثَّلاثةُ أدلَّةُ المسلمين: كلامُ الله، وكلامُ رسولِه، وكلامُ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، أعني: الإجماعَ، أمَّا إذا جاء عن واحدٍ من الصَّحابةِ فقد اختلف العلماءُ في حُجِّيَّتِهِ؛ فقال أكثرُ أهلِ العلمِ: إنَّه ليس حُجَّةً، وقال آخرون: بل هو حُجَّةٌ لكن بشرط ألَّا يخالفَ نصًّا وألَّا يخالفَ صحابيًّا آخرَ، فإن خالف نصًّا فالمُعَوَّلُ على النَّصِّ، وإن خالف صحابيًّا آخرَ طُلِبَ التَّرجيحُ، فكان القولُ الرَّاجحُ هو الحقَّ، وهذا أقربُ إلى الصَّوابِ؛ لأنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أفقهُ النَّاسِ في دينِ الله؛ وذلك لقربِهم من رسولِ الله ﷺ وبُعْدِهم من الاختلافِ، و سلامةِ عقيدتِهم إلى غيرِ ذلك من المُرَجِّحَاتِ، ولهذا قال المؤلِّفُ: «**هُمْ أُولُو العِرْفَانِ**»؛ أي: أصحابُ المعرفةِ.

٣٥٩٣- مَا العِلْمُ نَصْبُكَ لِلخِلافِ سَفَاهَةً   بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلانِ

قَوْلُهُ: «**مَا العِلْمُ نَصْبَكَ**» «**نَصْبَكَ**» بالفتحِ بناءً على أنَّ «مَا» حجازيَّةٌ، ولغةُ الحجازِ هي اللُّغةُ المشهورةُ المعتمدةُ.

وصدق رحمه اللهُ، فليس العلمُ أن تَنْصِبَ الخلافَ بينك وبين رسولِ الله ﷺ وتكون جدليًّا تُجادلُ بالباطلِ لإدحاضِ الحقِّ، فهؤلاء الذين يأتون بالقرآنِ أو بالسُّنَّةِ ثُمَّ ينصبون الخلافَ بين قولِ الله ورسولِه وقولِ أئمَّتِهم ويقولون: قال الإمامُ كذا مخالفًا للكتابِ والسُّنَّةِ، فهذا ليس بعلمٍ، بل هذا -والله- هو الجهلُ.

٣٥٩٤- كَلَّا وَلَا جَحْدُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا   فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالسُّبْحَانِ

يعني: وليس العلمُ أن تجحدَ صفاتِ الله تدَّعي أنَّك تُنَزِّهُ اللهَ، فهؤلاء المعطِّلةُ الذين عطَّلوا النُّصوصَ يدَّعون أنَّهم مُنزِّهون لله عزَّ وجلَّ عن مشابهةِ الحوادثِ؛ ولهذا كان من عقائدِهم التي يرتكزون عليها أنَّ اللهَ مخالفٌ للحوادثِ، من أين أَتَوْا بهذا الكلامِ «**مخالفٌ للحوادثِ**»؟ وهل هو مخالفٌ للحوادثِ بصفةٍ جيِّدةٍ أو بصفةٍ رديئةٍ؟ الجوابُ: لا ندري، «**مخالفٌ للحوادثِ**» هذه لا تُعطِي أيَّ شيءٍ، ولو أنَّهم أحلُّوا محلَّها قولَ الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشُّورى:١١] لأصابوا.

هؤلاء الذين جَحَدُوا الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ، لماذا جحدوها؟

الجوابُ: لاعتقادِهم أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ يستلزمُ التَّشبيهَ، وقالوا: إنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن الشَّبيهِ، وإذا كان مُنَزَّهًا عن الشَّبيهِ لزم إنكارُ الصِّفاتِ؛ ولهذا نقولُ: كُلُّ معطِّلٍ فهو مُمَثِّلٌ جامعٌ بين التَّمثيلِ والتَّعطيلِ لماذا؟ لأنَّه إنَّما عَطَّلَ لظنِّه أنَّ الإثباتَ يستلزمُ التَّمثيلَ فَمَثَّلَ أوَّلًا وعَطَّلَ ثانيًا، فهم قالوا: إنَّ اللهَ لا يستوي على العرشِ،

كيف يستوي على العرشِ؟ لا ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، لا يأتي للفصلِ بين عبادِه، ليس له وجهٌ ولا عينٌ ولا يدٌ؛ لأنَّ هذه لو أَثْبَتْنَاها لَزِمَ أن يكونَ اللهُ مماثلًا للمخلوقِ، إِذَنْ إذا كان هذا اللَّازمُ باطلًا بطلَ الملزومُ ولا نُثْبِتُه، فَيُقَالُ لهم: سبحان الله! أليس لك وجهٌ أَيُّها الرَّجُلُ؟

فيقولُ: بلى، أليس للجملِ وجهٌ؟ سيقولُ: بلى، هل وجهُك مماثلٌ لوجهِ الجملِ؟ يلزمُه أن يقولَ: إنَّ وجهَه مماثلٌ لوجهِ الجملِ، أو لأخبثِ دابَّةٍ على وجهِ الأرضِ، وإِلَّا تَنَاقَضَ، فلا يلزمُ إذا قلنا: «**لله وجهٌ**» أن يكونَ وجهُه كوجوهِنا، أو «**لله يدٌ**» نقولُ: «**ألك يدٌ؟**» يقولُ: نعم، هل للهِرِّ يدٌ؟ سيقولُ: نعم، هل يدُك مثلُ يدِ الهرِّ؟ يقولُ: لا، قطعًا، نقولُ: إِذَنْ أَثْبِتْ لله يدًا، وقل: ليست كأيدي المخلوقين؛ لأنَّه إذا كانت أيدي المخلوقاتِ تتفاوتُ تفاوتًا عظيمًا، فكيف بين الخالقِ والمخلوقِ؟! لكن مع ذلك يلعبون بعقولِ النَّاسِ، ويقولون: نحن ننكرُ هذا تنزيهًا لله عزَّ وجلَّ عن التَّمثيلِ، ولهذا قال: «**فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالسُّبْحَانِ**».

المهمُّ أنَّ هؤلاء الذين يجادلون في صفاتِ الله فيجحدونها بزعمِهم تنزيهًا لله عزَّ وجلَّ عن مشابهةِ الحوادثِ لا شكَّ أنَّه لا علمَ عندهم، وهم في الحقيقةِ وقعوا فيما فرُّوا منه؛ لأنَّهم إذا نَفَوُا الصِّفاتِ شَبَّهُوا اللهَ عزَّ وجلَّ بالخالي منها، ومعلومٌ أنَّ الصِّفاتِ التي أثبتها اللهُ لنفسِه صفاتُ كمالٍ، فإذا سلبوا صفاتِ الكمالِ عنه لَزِمَ أن يكونَ متَّصفًا بالنَّقصِ، فمثلًا إذا قالوا: إِنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ليس فوقَ العرشِ، لَزِمَ أن يكونَ إمَّا أنَّه ليس في مكانٍ إطلاقًا أو أنَّه في كُلِّ مكانٍ، وكلاهما نقصٌ كما مَرَّ هذا علينا كثيرًا، فهؤلاء الذين يجادلون ويدَّعون أنَّهم أهلُ الكلامِ وأهلُ المعرفةِ، نقولُ: ليس عندكم إِلَّا الكلامُ كما سمَّيتم أنفسَكم.

٣٥٩٥- كَـلَّا وَلَا نَفْـيُ العُلُـوِّ لِفَـاطِرِ الـ ... أَكْـوَانِ فَـوْقَ جَمِيـعِ ذِي الأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «**كَلَّا**»؛ يعني: وليس لهم أيضًا.

هذا أيضًا ما ذهب إليه أهلُ التَّعطيلِ الذين ينكرون علوَّ الله بذاتِه على كُلِّ شيءٍ.

وسبق لنا أنَّهم انقسموا قسمين:

القسم الأوَّل قال: إنَّ اللهَ نفسَه بكُلِّ مكانٍ، كُلُّ مكانٍ فاللهُ فيه، سبحان الله! كيف هذا؟ قال: نعم، إن كنت في المسجدِ فاللهُ في المسجدِ، في السُّوقِ فاللهُ في السُّوقِ، في الجوِّ، في الطَّائرةِ فاللهُ في الطَّائرةِ، في كُلِّ مكانٍ، في الحمَّامِ، يَلْزَمُهم أن يقولوا: إنَّ اللهَ في الحمَّامِ على قاعدتِهم في كُلِّ مكانٍ، تعالى اللهُ عن قولِهم علوًّا كبيرًا، وإذا قلنا بهذا لَزِمَ أحدُ أمرين ولا بُدَّ، إمَّا أن يكونَ اللهُ مُتعدِّدًا بتعدُّدِ الأمكنةِ، وإذا كانت النَّصارى كفروا بقولِهم: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، فما ظَنُّكَ بالذي يقول: إنَّه لا يُحْصَى، في كُلِّ مكانٍ إلهٌ، أو يلزمُ أن يتجزَّأَ اللهُ عزَّ وجلَّ، بعضُه هنا وبعضُه هنا وبعضُه هناك، تعالى اللهُ عن قولِهم علوًّا كبيرًا، ونسألُ اللهَ لهم الهدايةَ، وهذا واضحٌ.

القسم الثَّاني قالوا: لا يجوزُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ فوق السَّماءِ ولا في الأرضِ ولا في أيِّ مكانٍ، بل يجبُ أن نعتقدَ أنَّه لا فوقَ ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متَّصلٌ بالعالَمِ ولا منفصلٌ بالعالَمِ، إِذَنْ يكونُ عدمًا، ولهذا أنكر ابن سبكتكين -رحمه الله- على محمَّد بن فورَك، وقال له: «**أنت إذا قلت: هذا وَصْفُ ربِّك فهو عدُم**»، وَصَدَقَ رحمه اللهُ، هذا هو العدمُ تمامًا.

أهلُ السُّنَّةِ -جعلنا اللهُ وإيَّاكم منهم- أثبتوا لله أنَّه فوق كُلِّ شيءٍ وأنَّه -سبحانه وتعالى- وَسِعَ كُرسيُّه السَّماواتِ والأرضَ، وقالوا: هذا الحقُّ، هذا السُّلطانُ، هذا القهرُ، هذه العظمةُ أن يكونَ فوق كُلِّ شيءٍ؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ خالقُ كُلِّ شيءٍ.

٣٥٩٦- كَـلَّا وَلَا عَـزْلُ النُّصُـوصِ وَأَنَّهَـا لَيْسَـتْ تُفِيـدُ حَقَـائِقَ الإِيـمَانِ

هذا أيضًا من مذهبِ المتكلِّمين أنَّ أدلَّةَ النُّصوصِ أدلَّةٌ لفظيَّةٌ، هم يقولون مثلًا: «العرشُ» له عشرةُ معانٍ في اللُّغةِ العربيَّةِ، و«الاستواءُ» له كذا وكذا من المعاني في اللُّغةِ العربيَّةِ، ويشكِّكون فيقولون: الأدلَّةُ اللفظيَّةُ لا تفيدُ اليقينَ، ما هي الأدلَّةُ القطعيَّةُ عندهم؟ العقلُ، هو الذي يفيدُ الأدلَّةَ القطعيَّةَ، أمَّا هذه النُّصوصُ فكُلُّها ظواهرُ لا تفيدُ إلَّا الظَّنَّ، والظَّنُّ لا يُغني من الحقِّ شيئًا.

إِذَنْ هؤلاء يقولون: إنَّ النُّصوصَ لا تفيدُ اليقينَ ولا تفيدُ الحقيقةَ، بل هي مجازٌ، فيقولون: قولُه تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، هذا مجازٌ عن القدرةِ والنِّعمةِ وما أشبهَ ذلك، ولا تفيدُ الحقيقةَ.

٣٥٩٧- إِذْ لَا تُفِيـدُكُمْ يَقِينًـا لَا وَلَا عِلْـمًا فَقَـدْ عُزِلَـتْ عَـنِ الإِيقَـانِ

يقولون: هذه دلالتُها ظنِّيَّةٌ ولا تفيدُ اليقينَ.

٣٥٩٨- وَالعِلْـمُ عِنْـدَكُمُ يُنَـالُ بِغَيْرِهَـا بِزِبَالَـةِ الأَفْكَـارِ وَالأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «العِلْمُ عِنْدَكُمُ يُنَالُ بِغَيْرِهَا» يُخَاطِبُ أهلَ التَّعطيلِ جميعًا، يقولُ: العلمُ -عندكم- يُنَالُ بغيرِ هذه الأدلَّةِ الثَّلاثةِ، وهي: الكتاب، والسُّنَّة، وأقوال الصَّحابةِ رضي الله تعالى عنهم.

قَوْلُهُ: «بِزُبَالَةِ الأَفْكَارِ وَالأَذْهَانِ» الزُّبالةُ هي مُلْقَى الأوساخِ والأذى والقذرِ.

٣٥٩٩- سَـمَّيْتُمُوهُ قَوَاطِعًـا عَقْلِيَّـةً تَنْفِـي الظَّـوَاهِرَ حَـامِلاتِ مَعَـانِي

قَوْلُهُ: «سَمَّيْتُمُوهُ قَوَاطِعًا عَقْلِيَّةً»؛ يعني: سمَّيتم الدَّليلَ الذي يفيدُ العلمَ واليقينَ قواطعَ عقليَّةً.

وَقَوْلُهُ: «قَوَاطِعًا» منصرفةٌ لأجلِ الضَّرورةِ كما قال ابنُ مالكٍ رحمه اللهُ:

وَلِاضْطِرَارٍ اوْ تَنَاسُبٍ صُرِفْ

ذُو الْـمَنْعِ، وَالْـمَصْرُوفُ قَدْ لَا يَنْصَرِفْ(١)

قَوْلُهُ: «تَنْفِي الظَّوَاهِرَ»، وفي نسخةٍ: «وَهِيَ الظَّوَاهِرُ»؛ يعني: هذه الزُّبالةُ زُبالةُ الأفكارِ سَمَّوْهَا قواطعَ عقليَّةً.

قَوْلُهُ: «تَنْفِي الظَّوَاهِرَ حَامِلَاتِ مَعَانِي»؛ يعني: تنفي الظَّاهرَ؛ ولهذا يقولون: إنَّ ظاهرَ النُّصوصِ في الصِّفاتِ غيرُ مرادٍ.

فهم يقولون: كُلُّ نصٍّ في الصِّفاتِ فإنَّ ظاهرَه غيرُ مرادٍ، والحقيقةُ أنَّ هذه الجملةَ خطأٌ على كُلِّ حالٍ، ووجهُ ذلك أن نقولَ لهم: ماذا تريدون بالظَّاهرِ؟ هل تُريدون بالظَّاهرِ ما يظهرُ من النُّصوصِ من المعاني اللَّائقةِ باللهِ؟ إن قالوا: نعم، فماذا نقولُ؟ نعم، لكن أخطأتم في قولِكم: «غَيْرُ مُرَادٍ»، فالآن يقولون: «**ظاهرُ نصوصِ الصِّفاتِ غيرُ مرادٍ**» هذه الجملةُ، الجملةُ لها صدرٌ ولها عَجُزٌ، صدرُها: «**ظاهرُ النُّصوصِ**»، وعَجُزُها «**غيرُ مرادٍ**»، نسألُهم أوَّلًا: ماذا تُريدون بالظَّاهرِ الذي هو صدرُ الجملةِ؟ إن قالوا: نريدُ بالظَّاهرِ التَّمثيلَ؛ يعني: نُريدُ أنَّ التَّمثيلَ ليس مرادًا، نقولُ: أَصَبْتُم في قولِكم: «**غيرُ مرادٍ**»، لكن أخطأتم في قولِكم: إنَّ هذا هو ظاهرُ النُّصوصِ.

فإن أرادوا بالظَّاهرِ ما يظهرُ من النُّصوصِ من المعاني اللَّائقةِ باللهِ، إذا قالوا: هذا هو ظاهرُ النُّصوصِ؛ يعني: ظاهرُ النُّصوصِ أنَّ للهِ يدًا لا تُماثِلُ أيدي المخلوقين،

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ٣٣٨).

ماذا نقولُ لهم؟ نقولُ: أَصَبْتُم في قولِكم: إنَّ هذا هو الظَّاهرُ لكن أخطأتم في قولكم: «غيرُ مرادٍ».

فصارت هذه الجملةُ خطًا على كُلِّ تقديرٍ، ويظهرُ ذلك بالمثالِ، إذا قالوا: ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] إثباتُ يدين اثنتين لله، وهذا غيرُ مرادٍ، بماذا أخطؤوا؟ بقولهِم: غيرُ مرادٍ، وإلَّا فنحن معهم بأنَّ ظاهرَ الآيةِ إثباتُ يَدَيْنِ لله عزَّ وجلَّ، وإذا قالوا: ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] إثباتُ يَدَيْنِ تُماثِلُ أيدي المخلوقين، وهذا غيرُ مرادٍ، نقولُ: قولُكم: «**إنَّ هذا ظاهرُ النُّصوصِ**» خطأٌ، ليس هذا ظاهرَ النُّصوصِ؛ لأنَّ اللهَ أضاف اليدَ إلى نفسِه، وإضافةُ اليدِ إلى نفسِه عزَّ وجلَّ كسائرِ صفاتِه، كإضافةِ العلمِ إلى نفسِه، فكما أنَّ علمَه ليس كعلمِ المخلوقِ، فيدُه ليست كيدِ المخلوقِ.

فدعواكم أنَّ ظاهرَ قولِه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] إثباتُ يَدَيْنِ تُماثِلُ أيدي المخلوقين، هذه دعوى كاذبةٌ، وقولُكم: «**غيرُ مرادٍ**»، يعني: هذا المعنى غيرُ مرادٍ نوافقُ عليه فنقولُ: هذا الذي زعمتم أنَّه ظاهرُ النُّصوصِ نحن معكم في أنَّه غيرُ مرادٍ، لكن أخطأتم في أنَّ هذا هو ظاهرُ النَّصِّ.

فصارت هذه الجملةُ التي يتناقلُها المتكلِّمون من أنَّ ظاهرَ نصوصِ الصِّفاتِ غيرُ مرادٍ خطًا على كُلِّ تقديرٍ؛ لأنَّهم إن فسَّروا الظَّاهرَ بمعنًى يليقُ بالله فقد أخطؤوا بقولهِم: «**غيرُ مرادٍ**»، وإن فسَّروه بما يقتضي التَّمثيلَ فقد أخطؤوا في هذا التَّفسيرِ؛ إذ ليس ظاهرُ النُّصوصِ تمثيلَ الله عزَّ وجلَّ بالخلقِ.

٣٦٠٠- كَــلَّا وَلَا إِحْصَــاءُ آرَاءِ الرِّجَــا ... لِ وَضَبْطُهَا بِالـحَصْرِ وَالـحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «كَلَّا»؛ يعني: وليس العِلْمُ أيضًا.

يعني: أنَّ العلمَ ليس تجميعَ آراءِ الرِّجالِ، تقولُ: هذه المسألةُ فيها مئةُ قولٍ، نقولُ: ما الفائدةُ من مئة قولٍ؟ أهلُ الكلام عندهم طريقةٌ يقولون مثلًا: «**استوى على العرشِ**» اختلف النَّاسُ في الاستواءِ على خمسة أقوالٍ، واختلفوا في العرشِ على عشرين قولًا، يُوقعونك في الشَّكِّ والحَيْرَةِ، هذا ليس هو العلم، العلمُ أن تحصرَ الحقَّ في قولٍ واحدٍ فقط، أمَّا جمعُ الآراءِ: قال فلانٌ كذا، وقال فلانٌ كذا، بدون أن يكون هناك برهانٌ فهذا ليس بعلمٍ.

٣٦٠١- كَلَّا وَلَا التَّأْوِيلُ وَالتَّبْدِيلُ وَالتْـ ـتَحْرِيفُ لِلْوَحْيَيْنِ بِالبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «**التَّأْوِيلَ وَالتَّبْدِيلَ وَالتَّحْرِيفَ**» وهذا موجودٌ عند الذين لا يُثْبِتُونَ ما أَثْبَتَهُ أهلُ السُّنَّةِ في أسماءِ الله وصفاتِه.

«**التَّأويلُ**» للمعنى تحريفُ المعنى، و«**التَّبديلُ**» للكلمةِ رأسًا، و«**التَّحريفُ**» للفظِ في الشَّكْلِ.

وإنَّما فَسَّرَنا هذا التَّفسيرَ؛ لأنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- جَمَعَ بين هذه الثَّلاثةِ وإلَّا فواحدٌ منها يكفي عن الباقي، فالتَّأويلُ إذا كان بدليلٍ فهو حقٌّ، وبغيرِ دليلٍ يُسَمَّى تحريفًا، والتَّبديلُ؛ يعني: إبدالُ الكلمةِ مكانَ كلمةٍ، هذا أيضًا لا يمكنُ، هؤلاء قالوا: «**استوى**» بمعنى: «**استولى**»، فبعضُهم قد يقرؤها بهذا اللَّفظِ «**استولى على العرشِ**».

والتَّحريف؛ أي: باللَّفظِ، ولا أقولُ: بالمعنى؛ لأنَّ المؤلِّفَ قال بالأوَّل: «**التَّأْويلُ**».

٣٦٠٢- كَلَّا وَلَا الإِشْكَالُ وَالتَّشْكِيكُ وَالْـ ـوَقْفُ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ عِرْفَانِ

صحيحٌ، العلمُ ليس إشكالًا، الإنسانُ الذي يقولُ: «**أَشْكَلَتْ عَلَيَّ هذه المسألةُ**»

هل هو عالـمٌ؟ لا، إِذَنْ ليس الإشكالُ علمًا، فإذا قال قائلٌ: «**أَشْكَلَتْ عليَّ هذه المسألةُ**»، وهذا أيضًا من ديدنِ أهلِ التَّعطيل يقولون: هذه مشكلةٌ.

كذلك «**التَّشكيك**» بأن يُشَكِّكَ المُخَاطَبَ، يقول: يحتملُ كذا، ويحتملُ كذا، بدون ترجيحٍ.

الثَّالث: «**الوقف**» يقولُ: أنا مُتوقِّفٌ، ومعلومٌ أنَّ الوقفَ لا يدلُّ على العلمِ؛ لأنَّ المتوقِّفَ، إمَّا أن يكونَ جاهلًا بالأدلَّةِ وإمَّا أن تكونَ الأدلَّةُ عنده متكافئةً، فيتوقَّفُ في التَّرجيحِ.

إِذَنْ «**الإشكالُ**» بالنِّسبة للإنسانِ، و«**التَّشكيكُ**» بالنِّسبة لغيرِه، و«**الوقفُ**» حيرانٌ، وهذا الذي يتوقَّفُ أهونُ من الذي عنده إشكالٌ أو تشكيكٌ.

٣٦٠٣- هَذِي عُلُومُكُمُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا عَادَيْتُمُونَا يَا أُولِي العِرْفَانِ

يعني: هذه علومُكم: التَّشكيكُ، والإشكالُ، والوقفُ، وحصرُ آراءِ الرِّجالِ، وهذه المسألةُ فيها كذا وكذا من الأقوالِ، ثُمَّ سَخِرَ بهم فقال: «**يَا أُولِي العِرْفَانِ**» هل مَنْ كانت هذه طريقَه يُعْتَبَرُ عارفًا؟ الجوابُ: أبدًا، بل هو من أجهلِ عبادِ الله؛ ولذا تَهَكَّمَ بهم فقال: «**يَا أُولِي العِرْفَانِ**»، وحُقَّ له أن يَتَهَكَّمَ بهم؛ لأنَّهم أهلٌ للتَّهكُّمِ، نسألُ اللهَ لنا ولهم الهدايةَ.

* * *

فصــل

فِي عَقْدِ الهُدْنَةِ وَالأَمَانِ الوَاقِعِ بَيْنَ المُعَطِّلَةِ وَأَهْلِ الإِلْحَادِ حِزْبِ جِنْكِيزْ خَانِ

٣٦٠٤- يَا قَوْمُ صَالَحْتُمْ نُفَاةَ الذَّاتِ وَالـ ... أَوْصَافِ صُلْحًا مُوجِبًا لِأَمَانِ

٣٦٠٥- وَأَغَرْتُمُ وَهْنًا عَلَيْهِمْ غَارَةً ... قَعْقَعْتُمُ فِيهَا لَهُمْ بِشِنَانِ

٣٦٠٦- مَا كَانَ فِيهَا مِنْ قَتِيلٍ مِنْهُمُ ... كَلَّا وَلَا فِيهَا أَسِيرٌ عَانِي

٣٦٠٧- وَلَطَفْتُمُ فِي القَوْلِ أَوْ صَانَعْتُمُ ... وَأَتَيْتُمُ فِي بَحْثِكُمْ بِدِهَانِ

٣٦٠٨- وَجَلَسْتُمُ مَعَهُمْ مَجَالِسَكُمْ مَعَ الـ ... أُسْتَاذِ بِالآدَابِ وَالمِيزَانِ

٣٦٠٩- وَضَرَعْتُمُ لِلقَوْمِ كُلَّ ضَرَاعَةٍ ... حَتَّى أَعَارُوكُمْ سِلَاحَ الجَانِي

٣٦١٠- فَغَزَوْتُمُ بِسِلَاحِهِمْ لِعَسَاكِرِ الـ ... إِثْبَاتِ وَالآثَارِ والقرآن

٣٦١١- وَلِأَجْلِ ذَا صَانَعْتُمُوهُمْ عِنْدَ حَرْ ... بِكُمُ لَهُمْ بِاللُّطْفِ وَالإِذْعَانِ

٣٦١٢- وَلِأَجْلِ ذَا كُنْتُمْ مُخَانِيثًا لَهُمْ ... لَمْ تَنْفَتِحْ مِنْكُمْ لَهُمْ عَيْنَانِ

٣٦١٣- حَذَرًا مِنِ اسْتِرْجَاعِهِمْ لِسِلَاحِهِمْ ... فَتُرَوْنَ بَعْدَ السَّلْبِ كَالنِّسْوَانِ

الشرحُ

أراد المؤلِّفُ -رحمه الله- في هذا الفصلِ أن يُبيِّنَ أنَّ بين أهلِ الإلحادِ والنُّفاةِ تشابهًا، فأهلُ الإلحادِ نَفَوْا ذاتَ الإلهِ ووصفَه، ولم يُقِرُّوا بالله عزَّ وجلَّ، والنُّفاةُ

أقرُّوا بالذَّاتِ ولكن سلبوها الأوصافَ، فصار الطَّرفان كلاهما مُتَّفقٌ على نفيِ الحقائقِ، لكن في الصِّفاتِ وذاك في الذَّاتِ، فإذَن هذه هدنةٌ، اجتمع الطَّرفان على أهلِ الإثباتِ وكفَّروهم، وقالوا: مُجَسِّمَةٌ مُشَبِّهَةٌ إلى آخرِ الألقابِ التي لقَّبوا بها أهلَ الحقِّ كما لقَّبت أعداءُ الرُّسلِ الرُّسلَ بمثلِ ذلك، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذَّاريات:٥٢]، هكذا أعداءُ الرُّسلِ هم أعداءٌ لأتباعِ الرُّسلِ لا شكَّ.

إِذَنْ صار بين أهلِ التَّعطيلِ وبين أهلِ الإثباتِ حربٌ، وبينهم وبين أهلِ الإلحادِ سِلْمٌ وهدنةٌ؛ ولذا يقولُ رحمه الله:

٣٦٠٤- يَا قَوْمُ صَالَحْتُمْ نُفَاةَ الذَّاتِ وَالـ ـــ أَوْصَافِ صُلْحًا مُوجِبًا لِأَمَانِ

قَوْلُهُ: «**يَا قَوْمُ**» الخطابُ للمعطِّلةِ.

قَوْلُهُ: «**صَالَحْتُمْ نُفَاةَ الذَّاتِ وَالأَوْصَافِ**» وهم المُلحدون الذين يُنكرون وجودَ الله عزَّ وجلَّ، ووجودَ صفاتِه، صالحتموهم صلحًا مُوجِبًا لأَمَانٍ، أي: بين المعطِّلةِ وبين أهلِ الإلحادِ.

٣٦٠٥- وَأَغَرْتُمُ وَهْنًا عَلَيْهِمْ غَارَةً ـــ قَعْقَعْتُمُ فِيهَا لَهُمْ بِشِنَانِ

يعني: أغرتم على أهلِ الإلحادِ لكنَّها غارةُ ضعفٍ لا غارةُ قوَّةٍ؛ لأنَّ أهلَ التَّعطيلِ يدَّعون أنَّهم هم الذين دفعوا المعتزلةَ ودفعوا أهلَ الإلحادِ وهم الذين أقاموا عليهم الحُجَّةَ، ولكن سَيُبيِّنُ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ هذه دعوى لا أصلَ لها ولا دليلَ عليها.

٣٦٠٦- مَـا كَـانَ فِيهَـا مِـنْ قَتِيـلٍ مِـنْهُمُ كَـلَّا وَلَا فِيهَـا أَسِـيرٌ عَـانِي

يعني: أنَّ حربَكم عليهم لم تُفِدْ شيئًا، فلم تَقْتُلْ أحدًا من أهلِ الإلحادِ ولا فيها أسيرٌ عَانٍ؛ يعني: ولم تَأْسِرْ، إِذَنْ ما هي إلَّا قعقعةٌ كالذي يُخَبِّطُ بالشَّنِّ البالي من أجل أن يهربَ عدوُّه وليس عنده شيءٌ.

٣٦٠٧- وَلَطَفْـتُمُ فِي القَـوْلِ أَوْ صَـانَعْتُمُ وَأَتَيْـتُمُ فِي بَحْـثِكُمْ بِـدِهَانِ

يعني: أنَّكم معهم تُلَطِّفونَ القولَ وأحيانًا تُصانعونهم، والمصانعةُ: الموافقةُ والمداهنةُ؛ ولهذا قال: «**وَأَتَيْتُمُ فِي بَحْثِكُمْ بِدِهَانِ**»؛ أي: مداهنون لهم، بينما يقولون في أهلِ السُّنَّةِ: إنَّهم حَشْوِيَّةٌ مُجَسِّمةٌ سُذَّج نوابتُ، ويصفونهم بصفاتِ العيبِ التي لا نهايةَ لها.

٣٦٠٨- وَجَلَسْتُمُ مَعَهُمْ مَجَالِسَكُمْ مَعَ الـ أُسْـتَاذِ بِـالآدَابِ وَالمِيـزَانِ

اللهُ المستعانُ؛ يعني: أنَّكم جلستم معهم مجْلِسَ التِّلميذِ المتعلِّمِ من شيخِه.

٣٦٠٩- وَضَرَعْـتُمُ لِلقَـوْمِ كُـلَّ ضَرَاعَـةٍ حَتَّـى أَعَـارُوكُمْ سِـلَاحَ الجَـانِي

أي: تقرَّبتم إليهم وتَودَّدتم إليهم وصِرتم طَرْحَى بين أيدِيهم حتَّى أعاروكم سلاحَ الجاني لِـمَنْ؟ قال:

٣٦١٠- فَغَـزَوْتُمُ بِسِـلَاحِهِمْ لِعَسَـاكِرِ الـ إِثْبَـاتِ وَالآثَـارِ والقـرآن

يعني: أَعطَوْكُم سِلاحًا غرتم به على أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ وأهلِ الحقِّ، إِذَنْ هؤلاء لا يصحُّ أن نقولَ إِنَّهم حاربوا أهلَ الإلحادِ، بل يصحُّ أن نقولَ: إنَّهم تلاميذُ أهلِ الإلحادِ، أخذوا سلاحَهم وغزَوْا به أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ.

٣٦١١- وَلِأَجْلِ ذَا صَانَعْتُمُوهُمْ عِنْدَ حَرْ بِكُمُ لَهُمْ بِاللُّطْفِ وَالإِذْعَانِ

يعني: أنَّ أهلَ التَّعطيلِ إذا بحثوا مع أهلِ الإلحادِ يبحثون بحثَ المُصَانِعِ كأنَّهم يَرَوْنَ أنفسَهم غيرَ قادرين على إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ويأخُذون أيضًا منهم ومن قواعدِهم؛ ولهذا كان انتشارُ بدعةِ التَّعطيلِ بسبب تعريبِ كتبِ اليونانِ كما قال ذلك شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ في «الفتوى الحمويَّة»، قال: «لـمَّا عُرِّبَت الكتبُ اليونانيَّة والرُّوميَّة في عهد المأمون انتشرت البدعُ»[1]؛ لأنَّهم أخذوا من مبادئِهم ومن نظريَّاتِهم.

٣٦١٢- وَلِأَجْلِ ذَا كُنْتُمْ مَخَانِيثًا لَهُمْ لَمْ تَنْفَتِحْ مِنْكُمْ لَهُمْ عَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «**كُنْتُمْ مَخَانِيثًا لَهُمْ**» لماذا؟ الجوابُ: من شدَّةِ الحياءِ، والغالبُ أنَّ المُخَنَّثَ يَسْتَحْيِي أن يفتحَ عينيه على مَنْ كان مُخَنَّثًا له؛ فلهذا يقولُ: «**لَمْ تَنْفَتِحْ مِنْكُمْ لَهُمْ عَيْنَانِ**».

ثُمَّ ذكر أنَّ هؤلاء النُّفاةَ المعطِّلةَ مخانيثُ لأهلِ الإلحادِ، والمخانيثُ ليس معناها الذين تُفْعَلُ بهم الفاحشةُ، لكن الذين صاروا بمنزلة الإناثِ عند هؤلاء، و معلومٌ أنَّ النِّساءَ بالنِّسبة للرِّجال ما هُنَّ إلَّا من أضعفِ الحيوانِ كما هو مُشَاهَدٌ ومعروفٌ.

فإن قال صاحبُ الإثباتِ: إنِّي أُثْبِتُ الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ على الوجهِ اللَّائقِ، به، قالوا له: أنت كافرٌ؛ لأنَّك جَعَلْتَ اللهَ جسمًا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

ومن المعلومِ أنَّ لفظَ الجسمِ لم يَرِدْ في القرآنِ ولا السُّنَّةِ نفيُه ولا إثباتُه، فالواجبُ علينا في هذا اللَّفظِ أن نتوقَّفَ وألَّا نثبتَه ولا ننفيَه، أمَّا بالنِّسبةِ لمعناه

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٨٤).

فنسألُ هذا الذي قال: «إنَّه ليس بجسمٍ» ماذا تريدُ؟ أتريدُ أنَّه ليس قَائِمًا بنفسِه يفعلُ ما يريدُ ويتكلَّمُ ويستوي على العرشِ، ويأتي يومَ القيامةِ للفصلِ بين عبادِه أم تريدُ أنَّه ليس بجسمٍ مماثلٍ للأجسامِ؟ إن أراد الثَّانيَ فحقٌّ، وإن أراد الأوَّلَ فباطلٌ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ له ذاتٌ مُتَّصفةٌ بالصِّفاتِ اللَّائقةِ به عزَّ وجلَّ.

٣٦١٣- حَذَرًا مِنِ اسْتِرْجَاعِهِمْ لِسِلاحِهِمْ ... فَتُرَوْنَ بَعْدَ السَّلْبِ كَالنِّسْوَانِ

وهذا غريبٌ! ابنُ القيِّمِ يُشَدِّدُ عليهم فيقول: إنَّكم تُصانعونهم في هذا حذرًا من استرجاعِهم لسلاحِهم فَتُرَوْنَ بَعْدَ السَّلْبِ كالنِّسوانِ، إذا سَلَبُوا السِّلاحَ منكم لم يكن معكم سلاحٌ، فتكونوا بعد أخذِ السِّلاحِ منكم مثلَ النِّساءِ.

* * *

٣٦١٤- وَبَحَثْتُمُ مَعَ صَاحِبِ الإِثْبَاتِ بِالتْـ ... ـتَكْفِيرِ وَالتَّضْلِيلِ وَالعُدْوَانِ

٣٦١٥- وَقَلَبْتُمُ ظَهْرَ المِجَنِّ لَهُ وَأَجْـ ... ـلَبْتُمْ عَلَيْهِ بِعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ

٣٦١٦- وَاللهِ هَذِي رِيبَةٌ لا يَخْتَفِي ... مَضْمُونُهَا إِلَّا عَلَى الثِّيرَانِ

٣٦١٧- هَذَا وَبَيْنَهُمَا أَشَدُّ تَفَاوُتٍ ... فِئَتَانِ فِي الرَّحْمَنِ يَخْتَصِمَانِ

٣٦١٨- هَذَا نَفَى ذَاتَ الإِلَهِ وَوَصْفَهُ ... نَفْيًا صَرِيحًا لَيْسَ بِالكِتْمَانِ

٣٦١٩- لَكِنَّ ذَا وَصَفَ الإِلَهَ بِكُلِّ أَوْ ... صَافِ الكَمَالِ المُطْلَقِ الرَّبَّانِي

٣٦٢٠- وَنَفَى النَّقَائِصَ وَالعُيُوبَ كَنَفْيِهِ التْـ ... ـتَشْبِيهَ لِلرَّحْمَنِ بِالإِنْسَانِ

٣٦٢١- فَلِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ حَرْبُكُمْ لَهُ ... بِالحَدِّ دُونَ مُعَطِّلِ الرَّحْمَنِ

٣٦٢٢- قُلْنَا نَعَمْ هَذَا المُجَسِّمُ كَافِرٌ ... أَفَكَانَ ذَلِكَ كَامِلَ الإِيمَانِ

٣٦٢٣- لا تَنْطَفِي نِيرَانُ غَيْظِكُمُ عَلَى ... هَذَا المُجَسِّمِ يَا أُولِي النِّيرَانِ

٣٦٢٤- فَاللهُ يُوقِدُهَا وَيُصْلِي حَرَّهَا ... يَوْمَ الحِسَابِ مُحَرِّفَ القُرْآنِ

الشرحُ

٣٦١٤- وَبَحَثْتُمُ مَعَ صَاحِبِ الإِثْبَاتِ بِالتْـ ... ـتَكْفِيرِ وَالتَّضْلِيلِ وَالعُدْوَانِ

هم يُكَفِّرونَ أهلَ الإثباتِ، يقولون: إنَّك إذا أَثْبَتَّ لله اليدَ أو العينَ فقد شَبَّهْتَه بالمخلوقاتِ، وهذا كفرٌ، ويُصَرِّحونَ بذلك، بينما هم مع الفلاسفة يُداهنون ويأخذون منهم حثالةَ أفكارِهم.

٣٦١٥- وَقَلَبْتُمُ ظَهْرَ المِجَنِّ لَهُ وَأَجْـ ... ـلَبْتُمْ عَلَيْهِ بِعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «**وَقَلَبْتُمُ ظَهْرَ المِجَنِّ لَهُ**»؛ يعني: أنَّكم بعد أن كنتم تُسالمون له قلبتم ظهرَ المِجَنِّ فكنتم أعداءً لصاحبِ الإثباتِ.

قَوْلُهُ: «**وَأَجْلَبْتُمْ عَلَيْهِ بِعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ**»؛ يعني: ضممتم إليكم في محاربتِه عسكرَ الشَّيطانِ.

٣٦١٦- وَاللهِ هَذِي رِيبَةٌ لا يَخْتَفِي ... مَضْمُونُهَا إِلَّا عَلَى الثِّيرَانِ

يعني: هذا الذي صنعتم مُوجِبٌ للرِّيبَةِ؛ بأنَّكم على مِنْهَاجِ هؤلاء الفلاسفةِ وإن أظهرتم أنَّكم أعداءٌ لهم.

٣٦١٧- هَذَا وَبَيْنَهُمَا أَشَدُّ تَفَاوُتٍ ... فِئَتَانِ فِي الرَّحْمَنِ يَخْتَصِمَانِ

هذا وبينهما أشدُّ تفاوُتٍ بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ من أهلِ التَّعطيلِ، أَشَدُّ تفاوتٍ، يعني: أعظمُ تفاوتٍ يكونُ بين مُفْتَرِقَيْن وما بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ،

ثُمَّ ذَكَرَ الفرقَ فقال:

٣٦١٨- هَـذَا نَفَـى ذَاتَ الإِلَـهِ وَوَصْـفَهُ ... نَفْيًـا صَرِيحًـا لَـيْسَ بِـالكِتْمَانِ

٣٦١٩- لَكِـنَّ ذَا وَصَـفَ الإِلَـهَ بِكُـلِّ أَوْ ... صَـافِ الكَـمَالِ المُطْلَـقِ الرَّبَّـانِي

وهذا تفاوتٌ عظيمٌ، ففرقٌ بين مَنْ يُثْبِتُ اللهَ عزَّ وجلَّ بأوصافِه الكاملةِ وهم السَّلفُ التَّابعون أهلُ السُّنَّةِ، وبين مَنْ يُنْكِرُ الرَّحمنَ وأوصافَه، وهم الفلاسفةُ وأهلُ الإلحادِ، ومعلومٌ أنَّ نفيَ الذَّاتِ يستلزمُ نفيَ الصِّفاتِ؛ لأنَّه إذا لم تكن ذاتٌ لم تكن صفاتٌ، فبينهما كما بين المشرقِ والمغربِ، ومع ذلك تُداهنون هؤلاء الذين ينكرون ذاتَ الله وصفاتِه وتُعَادون بصراحةٍ ووقاحةٍ مَنْ يثبتون لله الأوصافَ والأسماءَ.

٣٦٢٠- وَنَفَى النَّقَائِصَ وَالعُيُوبَ كَنَفْيِهِ التْـ ... ـتَشْبِيهَ لِلـرَّحْمَنِ بِالإِنْسَـانِ

فلهم نفيان؛ أي: لأهلِ السُّنَّة نفيان: النَّفيُ الأوَّلُ: نفيُ النَّقائصِ والعيوبِ، والنَّفيُ الثَّاني: نفيُ التَّماثُلِ بين الخالقِ والمخلوقِ.

٣٦٢١- فَـلِأَيِّ شَيْءٍ كَـانَ حَـرْبُكُمْ لَـهُ ... بِالـحَدِّ دُونَ مُعَطِّـلِ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «بِالـحَدِّ»، وفي نسخةٍ: «بِالجِدِّ»، ونسخةُ «بِالجِدِّ» أحسنُ.

يعني: لأيِّ شيءٍ تحاربون يا أهلَ التَّعطيلِ تحاربون صاحبَ السُّنَّةِ والآثارِ دون مُعَطِّلِ الرَّحمنِ من أهلِ الفلسفةِ والإلحادِ؟

٣٦٢٢- قُلْنَـا نَعَـمْ هَـذَا المُجَسِّـمُ كَـافِرٌ ... أَفَكَـانَ ذَلِـكَ كَامِـلَ الإِيـمَانِ

يعني: أنَّنا نُجيبُ عنكم فنقولُ: نعم، كنتم حربًا للمُثْبِتِ؛ لأنَّه على زعمِكم مُجَسِّمٌ كافرٌ، فهم يقولون: كُلُّ مُثْبِتٍ للصِّفاتِ مُجَسِّمٌ، وكُلُّ مُجَسِّمٍ كافرٌ، فالمثبتُ

كافرٌ، لكن كُلُّ هذه المقدِّماتِ والنَّتيجة كَذِبٌ، فليس كُلُّ مثبتٍ للصِّفاتِ مُجسِّمًا؛ لأنَّ إثباتَ الصِّفاتِ لا يستلزمُ التَّجسيمَ عقلًا.

فها نحن نقولُ: يومٌ شديدٌ، حَرٌّ شديدٌ، بردٌ شديدٌ، ظلمةٌ شديدةٌ، وكُلُّ هذه غيرُ أجسامٍ، فهذه أوقاتٌ وأزمانٌ، ثُمَّ نقولُ بالنِّسبة للخالقِ عزَّ وجلَّ: إذا وصفناه بالصِّفاتِ فإن لَزِمَ من هذه الصِّفاتِ أن يكونَ جسمًا فاللَّازمُ للحقِّ حقٌّ، وإن لم يَلْزَمْ فإنَّه لا يسوغُ لكم أن تلزمونا بشيءٍ لم نلتزم به وليس لازمًا لصفاتِه.

ثُمَّ نقولُ: ثالثًا: الجسم الذي نفَيْتُم عن الله وأجلبتم عليه بالخيلِ والرَّجِلِ ماذا تريدون به؟ أتريدون به جسمًا مركَّبًا كما تُرَكَّبُ الأجسامُ المخلوقةُ فهذا منتفٍ عن الله أم تريدون به ذاتًا منفصلةً عن الخلقِ بَائِنَةً عن الخلقِ مُتَّصفةً بالصِّفاتِ اللَّائقةِ بها فهذا حقٌّ، فإنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ذاتٌ بلا شَكٍّ، قَائِمَةٌ بنفسِها بَائِنَةٌ من الخلقِ، متَّصفةٌ بالصِّفاتِ اللَّائقةِ بها، ومع هذا انظر كيف هذا الدَّجَل والتَّمويه: كُلُّ مُثبتٍ مُجَسِّمٌ، وكُلُّ مُجَسِّمٌ كافرٌ، كيف هذا؟ من قال هذه القاعدة؟!

٣٦٢٣- لا تَنْطَفِي نِيرَانُ غَيْظِكُمْ عَلَى ... هَذَا الْمُجَسِّمِ يَا أُولِي النِّيرَانِ

نعم؛ أنتم دائمًا في غيظٍ عظيمٍ وحَنَقٍ شديدٍ على هذا المُجسِّمِ؛ ولهذا إذا أَثْبَتَ أحدٌ من صفاتِ الله ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه شَبَّتْ نيرانُ الغيظِ عندهم والبغضاءُ لهذا المُثْبِتِ المُجَسِّمِ على زعمِهم.

٣٦٢٤- فَاللهُ يُوقِدُهَا وَيُصْلِي حَرَّهَا ... يَوْمَ الحِسَابِ مُحَرِّفَ القُرْآنِ

ومَنْ هو مُحرِّفُ القرآنِ؟ هم أهلُ التَّعطيلِ، فأهلُ التَّعطيلِ -والله- حَرَّفُوا القرآنَ، أَثْبَتَ اللهُ لنفسِه الصِّفةَ، وقالوا: لا نُثْبِتُها، حرَّفوا القرآنَ عن مواضعِه،

وقالوا: المرادُ بكذا كذا وكذا ممَّا لا يُريدُه اللهُ، فمن هم أولى صِلِيًّا بالنَّارِ؟ الجوابُ: هم أهلُ التَّحريفِ.

* * *

٣٦٢٥- يَا قَوْمَنَا لَقَدِ ارْتَكَبْتُمْ خُطَّةً ... لَمْ يَرْتَكِبْهَا قَطُّ ذُو عِرْفَانِ

٣٦٢٦- وَأَعَنْتُمُ أَعْدَاءَكُمْ بِوِفَاقِكُمْ ... لَهُمُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ البُطْلَانِ

٣٦٢٧- أَخَذُوا نَوَاصِيَكُمْ بِهَا وَلِحَاكُمُ ... فَغَدَتْ تُجَرُّ بِذِلَّةٍ وَهَوَانِ

٣٦٢٨- قُلْتُمْ بِقَوْلِهِمُ وَرُمْتُمْ كَسْرَهُمْ ... أَنَّى وَقَدْ غَلَقُوا لَكُمْ بِرِهَانِ

٣٦٢٩- وَكَسَرْتُمُ البَابَ الَّذِي مِنْ خَلْفِهِ ... أَعْدَاءُ رُسْلِ اللهِ وَالإِيمَانِ

٣٦٣٠- فَأَتَى عَدُوٌّ مَا لَكُمْ بِقِتَالِهِمْ ... وَبِحَرْبِهِمْ أَبَدَ الزَّمَانِ يَدَانِ

٣٦٣١- فَغَدَوْتُمُ أَسْرَى لَهُمْ بِحِبَالِهِمْ ... أَيْدِيكُمُ شُدَّتْ إِلَى الأَذْقَانِ

٣٦٣٢- حَمَلُوا عَلَيْكُمْ كَالسِّبَاعِ اسْتَقْبَلَتْ ... حُمُرًا مُعَقَّرَةً ذَوِي أَرْسَانِ

٣٦٣٣- صَالُوا عَلَيْكُمْ بِالَّذِي صُلْتُمْ بِهِ ... أَنْتُمْ عَلَيْنَا صَوْلَةَ الفُرْسَانِ

٣٦٣٤- لَوْلَا تَحَيُّزُكُمْ إِلَيْنَا كُنْتُمُ ... وَسْطَ العَرِينِ مُمَزَّقِي اللُّحْمَانِ

٣٦٣٥- لَكِنْ بِنَا اسْتَنْصَرْتُمُ وَبِقَوْلِنَا ... صُلْتُمْ عَلَيْهِمُ صَوْلَةَ الشُّجْعَانِ

٣٦٣٦- وَالَيْتُمُ الإِثْبَاتَ إِذْ صُلْتُمْ بِهِ ... وَعَزَلْتُمُ التَّعْطِيلَ عَزْلَ مُهَانِ

٣٦٣٧- وَأَتَيْتُمُ تَغْزُونَنَا بِسَرِيَّةٍ ... مِنْ عَسْكَرِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

٣٦٣٨- مَنْ ذَا بِحَقِّ اللهِ أَجْهَلُ مِنْكُمُ ... وَأَحَقُّنَا بِالجَهْلِ وَالعُدْوَانِ

٣٦٣٩- تَـالله مَـا يَـدْرِي الفَتَـى بِمُصَـابِهِ وَالقَلْـبُ تَحْـتَ الخَـتْمِ وَالخِـذْلانِ

الشـــرحُ

٣٦٢٥- يَـا قَوْمَنَـا لَقَـدِ ارْتَكَبْـتُمْ خُطَّـةً لَـمْ يَرْتَكِبْهَـا قَـطُّ ذُو عِرْفَـانِ

٣٦٢٦- وَأَعَنْـتُمُ أَعْـدَاءَكُمْ بِوِفَـاقِكُمْ لَـهُمُ عَـلَى شَيْءٍ مِـنَ الـبُطْلانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَوْمَنَا» يريدُ بذلك أهلَ التَّعطيلِ، وهم قومُه وإن كانوا على غير المِلَّةِ التي نحن عليها؛ أي: على غيرِ المنهجِ الذي نحن عليه وهم على الإسلامِ لا شَكَّ إِلَّا مَنْ خرج ببدعتِه عن الإسلامِ، ولكنَّ وصفَ القوميَّةِ لا يستلزمُ الوفاقَ في الدِّين، فهاهمُ الأنبياء يقولون لأقوامِهم: «يا قوم» مع أنَّهم كُفَّارٌ، لكن ينادونهم بالقوميَّةِ من أجل أنَّهم مُتَّفقون معهم في القبيلةِ والقرابةِ.

٣٦٢٧- أَخَذُوا نَوَاصِـيَكُمْ بِهَـا وَلِـحَاكُمُ فَغَـدَتْ تَجُـرُّ بِذِلَّـةٍ وَهَـوَانِ

قَوْلُهُ: «لِـحَاكُمُ» «اللِّحَى» جمعُ «لِـحْيَةٍ».

يعني: أمسكوا الواحدَ من ناصيتِه ولـحيتِه وجَرُّوه يقودونه لِـمَا يُريدون فأوقعوهم في الهلاكِ والعياذُ بالله.

٣٦٢٨- قُلْتُم بِقَوْلِـهِمُ وَرُمْـتُمْ كَسْـرَهُمْ أَنَّـى وَقَـدْ غَلَقُـوا لَكُـمْ بِرِهَـانِ

قَوْلُهُ: «قُلْتُم بِقَوْلِـهِمْ وَرُمْتُمْ كَسْرَهُمْ»؛ يعني: أنَّكم قلتم بقولهم ثُمَّ ادَّعَوْتُم أنَّكم تريدونُ بهذا كَسْرَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: «رُمْتُمْ كَسْرَهُمْ»؛ يعني: قَصدتم كسرَهم؛ ولهذا يدَّعِي أهلُ التَّعطيلِ أنَّهم حربٌ للفلاسفةِ وهم في الحقيقةِ موافقون لـهم من بعضِ الوجوهِ، فأهلُ

التَّعطيلِ عطَّلوا الذَّاتَ والصِّفاتِ، وهم عطَّلوا الصِّفاتِ إمَّا كُلِّيَّةً وإمَّا جزئيَّةً، والسَّلفُ الصَّالحُ أثبتوا الذَّاتَ وأثبتوا الصِّفاتِ.

قَوْلُهُ: «أَنَّى وَقَدْ غَلَقُوا لَكُمْ بِرِهَانٍ»؛ يعني: أَنَّى تكسروهم وقد غلقوا لكم برِهَانٍ، والرَّسُولُ ﷺ يقولُ: «لَا يَغْلَقُ الرَّهْنُ مِنْ صَاحِبِهِ»[1]، لكن هم ارتهنوكم رهنًا أغلقوكم به، وصرتم لا تتمكَّنون من التَّصرُّف كما تشاؤون.

٣٦٢٩- وَكَسَرْتُمُ البَابَ الَّذِي مِنْ خَلْفِهِ ... أَعْدَاءُ رُسْلِ اللهِ وَالإِيمَانِ

٣٦٣٠- فَأَتَى عَدُوٌّ مَا لَكُمْ بِقِتَالِهِمْ ... وَبِحَرْبِهِمْ أَبَدَ الزَّمَانِ يَدَانِ

هم فتحوا البابَ لأهلِ التَّعطيلِ المحضِ، فمثلًا: أهلُ التَّعطيلِ أنكروا وجودَ الله عزَّ وجلَّ، ووجودَ صفاتِه، وأعني بذلك: الفلاسفةَ الذين هم أهلُ التَّخييلِ، قالوا: إنَّ اللهَ ليس موجودًا، وليس هناك صفاتٌ، وليس هناك جنَّةٌ ولا نارٌ، كُلُّ ما ذكره الرُّسلُ من ذلك فهو تخييلٌ لا حقيقةَ له، أرادوا بذلك إصلاحَ الخلقِ؛ لأنَّ النَّاسَ إذا قيل لهم: إنَّ لكم ربًّا عظيمًا ينتقمُ من المجرمِ ويُثِيبُ الطَّائعَ، وإنَّ لكم ثوابًا جزيلًا إذا أطعتم وهو الجنَّةُ التي لا تفنى ولا تبيدُ، وإنَّ لكم عذابًا أليمًا إذا عصيتم وهو النَّارُ، فإنَّ النَّاسَ سوف يستجيبون؛ فلهذا كان الرُّسلُ على زعمِهم عباقرةً، وضعوا خططًا ومنهجًا، وأرادوا من النَّاسِ أن يسلكوا هذا المنهجَ، وقالوا: إنَّ هناك ربًّا وجزاءً ويومًا آخرَ ... إلخ.

فقال هؤلاء الذين سلكوا هذا المسلكَ؛ قالوا لأهلِ التَّعطيلِ: أنتم حرَّفتم نصوصَ الصِّفاتِ، وقلتم: ليس لله وجهٌ، ولا يدٌ ولا عينٌ ولا قَدَمٌ، وليس له استواءٌ، ولا نزولٌ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ولا إتيانٌ ... إلخ، فأنتم أَوَّلتم في هذا، ونحن

(١) أخرجه البيهقي (٦/ ٦٥، رقم ١١٢١٠).

أوَّلنا في هذا، أيُّ فرقٍ بيننا؟ فقال لهم أهلُ التَّعطيلِ الذين يقولون باليومِ الآخرِ قالوا: نحن عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاؤوا بإثباتِ اليوم الآخِرِ، انظر الجوابَ المفحمَ، «**عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاؤوا بإثباتِ اليومِ الآخِرِ**»، وأنَّ الشُّبْهَةَ المانعةَ منه فاسدةٌ، أيُّ شيءٍ يمنعُ من البعثِ؟ الجوابُ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٧٨]، شبهةٌ فاسدةٌ أفسدها اللهُ عزَّ وجلَّ، فإذا جاءت الرُّسلُ به والشُّبهةُ المانعةُ منه فاسدةٌ لَزِمَ القولُ بموجَبِهِ.

وهذا جوابٌ صحيحٌ؛ ولهذا كان قولُ أهلِ التَّعطيلِ في هذا البابِ قولًا صحيحًا، فقال أهلُ السُّنَّةِ: إنَّ إجابتَكم للفلاسفةِ أهلِ التَّخييلِ إجابةٌ صحيحةٌ، ولكنَّا نحن نُلزمكم بها أن تقولوا بالصِّفاتِ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ، وهذا وِزَانُ قولِهم: «**إنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ المعنى**»، وقد علمنا فسادَ الشُّبهةِ المانعةِ منه، ما هي الشُّبهةُ المانعةُ منه على زعمِ أهلِ التَّعطيلِ؟ التَّمثيلُ والتَّجسيمُ وما أشبه ذلك، وهذه الشُّبهةُ فاسدةٌ، فوَجَبَ القولُ بموجَبِهِ.

فصار دليلُ أهلِ السُّنَّةِ على أهلِ التَّعطيلِ في إثباتِ الصِّفاتِ كدليلِ أهلِ التَّعطيلِ على أهلِ الفلاسِفة والتَّخييلِ في إثباتِ المعادِ.

هم لَـمَّا أنكروا الصِّفاتِ وهي في القُرآنِ أكثرُ، فَذِكْرُ الصِّفاتِ في القُرآنِ أكثرُ وتقريرُها أَثْبَتُ، لـمَّا أنكرها أهلُ التَّعطيلِ، قال الفلاسفةُ وأهلُ التَّخييلِ: أنتم أيُّها المعطِّلةُ أبحتم لأنفسِكم تأويلَ آياتِ الصِّفاتِ وإنكارَ مدلولِها فلماذا تُنكرون علينا تأويلَ نصوصِ المعادِ، فنحن وأنتم على حدٍّ سواء؛ لأنَّ البابَ واحدٌ، فكلاهما أمرٌ غيبيٌّ، فإذا كانت عقولُكم لا تتحمَّلُ إثباتَ هذه الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ فإنَّ عقولَنا لا تتحمَّلُ إثباتَ المعادِ، فإمَّا أن توافقونا، وإمَّا أن توافقوا السَّلفَ، اطَّردوا البابَ، أَمَّا أن تتناقضوا فإنَّ هذا ليس من شأنِ العلماءِ.

فانظُر كيف فَتَحَ أهلُ التَّعطيلِ البابَ لأهلِ الفلسفةِ والتَّعطيلِ المحض الذين لا يؤمنون بربٍّ ولا جزاءٍ، إذَنْ الذي فَتَحَ البابَ أهلُ التَّعطيلِ؛ لأنَّ أهلَ التَّخييلِ ألزموهم بأن يقولوا بإنكارِ المعادِ كما قالوا بإنكارِ الصِّفاتِ؛ ولهذا قال المؤلِّفُ رحمه الله:

٣٦٣١- فَغَـدَوْتُمُ أَسْرَى لَــهُمْ بِحِبَالِــهِمْ ... أَيْــدِيكُمُ شُــدَّتْ إِلَى الأَذْقَــانِ

وكيف تكونُ اليدُ إذا شُدَّتْ إلى الأذقانِ؟ الجوابُ: لا يستطيعُ الإنسانُ أن يتحرَّكَ، فأنتم الآن لهم أسرى، أيديكم شُدَّتْ إلى الأذقانِ.

٣٦٣٢- حَمَلُوا عَلَيْكُمْ كَالسِّبَاعِ اسْتَقْبَلَتْ ... حُمُــرًا مُعَقَّــرَةً ذَوِي أَرْسَــانِ

وهذا تشبيهٌ بليغٌ؛ يعني: أنَّ الفلاسفةَ والملاحدةَ حملوا عليكم كحملِ السِّبَاعِ على حُمُرٍ مُعَقَّرةٍ مُرَسَّنَةٍ، فالحمارُ المُعَقَّرُ المُرَسَّنُ إذا حَمَلَ عليه السَّبُعُ لا يستطيعُ أن يفعلَ شيئًا، يأكلُه السَّبُعُ أكلةً واحدةً، ولا يستطيعُ أن يدافعَ عن نفسِه؛ ولهذا حَمَلَ أهلُ التَّخييلِ «**الفلاسفةُ**» على أهلِ التَّعطيلِ حملةً لا يستطيعون ردَّها؛ لأنَّهم يقولون لهم: يلزمكم أن تقولوا بتأويلِ آياتِ المعادِ وتحريفِها كما حرَّفتم آياتِ الصِّفاتِ.

٣٦٣٣- صَالُوا عَلَيْكُمْ بِالَّذِي صُلْتُمْ بِهِ ... أَنْــتُمْ عَلَيْنَــا صَــوْلَةَ الفُرْسَــانِ

صَالَ فلاسفةُ التَّخييلِ على أهلِ التَّعطيلِ بمثل الذي صَالَ به علينا أهلُ التَّعطيلِ؛ لأنَّ أهلَ التَّعطيلِ صالوا علينا فقالوا: لا يمكنُ أن نُثْبِتَ الصِّفاتِ؛ لأنَّ إثباتَها يستلزمُ التَّمثيلَ، هذه شبهتُهم، وأولئك صالوا عليهم فقالوا: إذا كنتم أبحتم لأنفسِكم أن تؤوِّلوا أو تُحَرِّفوا آياتِ الصِّفاتِ فأبيحوا لأنفسِكم أن تؤوِّلوا آياتِ المعادِ و تُحَرِّفوها وإلَّا فأنتم متناقضون.

٣٦٣٤- لَــوْلَا تَحَيُّــزُكُمْ إِلَيْنَــا كُنْــتُمُ   وَسْــطَ العَــرِينِ مُمَزَّقِــي اللُّحْــمَانِ

٣٦٣٥- لَكِــنْ بِنَــا اسْتَنْصَــرْتُمُ وَبِقَوْلِنَــا   صُــلْتُمْ عَلَــيْهِمُ صَــوْلَةَ الشُّــجْعَانِ

بأيِّ شيءٍ صالوا عليهم؟ الجوابُ: بما نقولُه نحن، قال أهلُ التَّعطيلِ لأهلِ التَّخييلِ «**الفلاسفة**»: نحن قد عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ المعادِ وأنَّ الشُّبهةَ المانعةَ منه فاسدةٌ فَلزِمَ القولُ بموجَبِه، نحن -أيضًا- قُلنا لأهلِ التَّعطيلِ كما قالوا هم لأهلِ التَّخييل، قلنا: قد عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ الصِّفاتِ وقد عَلِمْنَا بأنَّ الشُّبهةَ المانعةَ منه فاسدةٌ فَلزِمَ القولُ بموجَبِه.

قَوْلُهُ: «**لَكِنْ بِنَا اسْتَنْصَرْتُمْ وَبِقَوْلِنَا صُلْتُمْ عَلَيْهِمْ**» ما الذي قلناه؟ نحن قلنا لهم: قد عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ الصِّفاتِ، وأنَّ الشُّبهةَ المانعةَ منه فاسدةٌ فَلزِمَ القولُ بموجَبِهِ، هم قالوا نفسَ هذا القولِ لأهلِ الإلحادِ «**للفلاسفةِ**» المنكرين للمعادِ قالوا: قد عَلِمْنَا بأنَّ الرُّسلَ جاءت بإثباتِ المعادِ، وأنَّ الشُّبهةَ المانعةَ منه فاسدةٌ فلَزِمَ القولُ بموجَبِهِ، فصالوا عليهم بما صلنا به عليهم، إِذَنْ استنصروا عليهم بقولِنا وسلاحِنا، فلولا أنَّ اللهَ قَيَّضَنا لهم ما استطاعوا أن يردُّوا قولَ هؤلاء.

٣٦٣٦- وَالَيْــتُمُ الإِثْبَــاتَ إِذْ صُــلْتُمْ بِــهِ   وَعَــزَلْتُمُ التَّعْطِيــلَ عَــزْلَ مُهَــانِ

يعني: أنَّهم أخذوا بالإثباتِ إذا كانت الحُجَّةُ لهم، وعزلوا التَّعطيلَ؛ يعني: أخذوا الإثباتَ وعزلوا التَّعطيلَ عزلَ مُهَانٍ، وهذا بالنِّسبة للمعادِ، فإنَّ أهلَ التَّعطيلِ بالنِّسبة للمعادِ تولَّوا الإثباتَ وعزلوا النَّفيَ والتَّعطيلَ، فقالوا: نحن نؤمنُ بأنَّ نصوصَ المعادِ حقٌّ على حقيقتِها، ونُثْبِتُها على حقيقتِها، ونقولُ: في الدَّارِ الآخرةِ جَنَّةٌ ونارٌ، وفي الجنَّةِ نخلٌ ورمَّانٌ وفاكهةٌ وأنهارٌ، وفي النَّارِ عذابٌ إلى آخرِ

ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ، فهم وَلَّوا الإثباتَ إذ صالوا به وعزلوا التَّعطيلَ حين صولهم بالإثباتِ، وهذا بالنِّسبة لنصوصِ المعادِ.

٣٦٣٧- وَأَتَيْتُمُ تَغْزُونَنَا بِسَرِيَّةٍ مِنْ عَسْكَرِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «**وَأَتَيْتُمُ تَغْزُونَنَا بِسَرِيَّةٍ**»؛ أي: أتيتم تغزوننا بسريَّةٍ دون الجيشِ.

قَوْلُهُ: «**مِنْ عَسْكَرِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ**»؛ يعني: بذلك أنَّ قولَ أهلِ التَّعطيلِ في الصِّفاتِ جزءٌ من قولِ أهلِ الإلحادِ؛ لأنَّ أهلَ الإلحادِ أنكروا اللهَ وأنكروا الصِّفاتِ وأنكروا المعادَ، وأهلَ التَّعطيلِ أثبتوا المعادَ وأثبتوا وجودَ الله وأنكروا الصِّفاتِ، فأَتَوْا بسريَّةٍ إذ أنَّهم أنكروا جزءًا واحدًا من ثلاثةِ أجزاء؛ ولهذا قال:

٣٦٣٨- مَنْ ذَا بِحَقِّ الله أَجْهَلُ مِنْكُمُ وَأَحَقُّنَا بِالجَهْلِ وَالعُدْوَانِ

الجوابُ: هم أجهلُ؛ لأنَّهم مُتَناقِضون؛ يعني: انظر إلى الطَّردِ، فأهلُ التَّخييلِ والملاحدةِ قولُهم مُطَّرِدٌ؛ لأنَّهم أنكروا الحقائقَ هنا وهناك، أنكروا الحقائقَ بالنِّسبةِ لله عزَّ وجلَّ وصفاتِه وبالنِّسبةِ للمعادِ، وهؤلاء أنكروا الحقائقَ بالنِّسبةِ لصفاتِ الله وأثبتوها بالنِّسبةِ للمعادِ، فكانوا متناقِضين، والسَّلفُ الصَّالحُ أثبتوا الحقائقَ لله وصفاتِه وللمَعَادِ.

إِذَنْ الاطِّرادُ في الإثباتِ عند السَّلفِ وفي الإنكارِ عند الفلاسفةِ وأهلِ التَّخييلِ، والتَّناقضُ عند أهلِ التَّعطيلِ للصِّفاتِ.

٣٦٣٩- تَاللهِ مَا يَدْرِي الفَتَى بِمُصَابِهِ وَالقَلْبُ تَحْتَ الخَتْمِ وَالخِذْلانِ

صدَق رحمه اللهُ، الفتى لا يعرفُ المصيبةَ إذا كان قلبُه مختومًا عليه مخذولًا والعياذُ بالله؛ لأنَّ الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبِهم لا يدرون ماذا يصيبُهم من المصائبِ؟

الذي يدري بالمصيبةِ مَنْ قلبُه حيٌّ، أمَّا الميِّت فكما قال المتنبِّي:

مَـنْ يَهُـنْ يَسْـهُلِ الـهَوَانُ عَلَيْـهِ مَـا لِـجُرْحٍ بِمَيِّـتٍ إِيـلَامُ[1]

ولهذا تجدُ الإنسانَ كُلَّما قَسَا قلبُه لا يتأثَّرُ بالمعصيةِ، لكن إذا كان قلبُه حيًّا وفَعَلَ المعصيةَ تجدُه يحزنُ ويندمُ ويخجلُ ويُحْدِثُ توبةً، فإذا وجدتَ من نفسِك أنَّ قلبَك لا يتأثَّرُ بمعصيةِ الله فاعلم أنَّه مختومٌ عليه -والعياذُ بالله- وإذا رَأَيْتَهُ يتأثَّرُ كُلَّما عَصَى أَحَسَّ بالذَّنبِ، ورجع إلى الله، وأناب إليه، واستغفر ربَّه، فاعلم أنَّ قلبَك حيٌّ؛ لأنَّ الميِّتَ لو أتيت بِشُواظٍ من نارٍ وأَصَبْتَ به جسدَه هل يتأثَّرُ؟ أبدًا، ولا يُحِسُّ، والحيُّ يُحِسُّ، فهكذا القلوبُ متى أحسَّت بالمعصيةِ وتركِ الطَّاعةِ فاعلم أنَّ فيها حياةً، ومتى لم تُحِسَّ فاعلم أنَّها ميِّتةٌ وأنَّها قد خُتِمَ عليها، وانظر إلى كلام الله عزَّ وجلَّ أشرفِ الكلامِ وأعظمِ الكلامِ وأشدِّه تأثيرًا، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥] لا يتأثَّرُ بها، بل يقولُ: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥]، والأسطورةُ هي الكلماتُ التي تُحْكَى وليس لها أصلٌ وتسمَّى عندنا «**سواليف**» أو «**سباحيل**»؛ لأنَّها تُبْدَأُ بالتَّسبيحِ، وعند الإخوانِ في غير البلادِ السعوديَّةِ تُسمَّى «**حدوتة**».

على كُلِّ حالٍ هو لكونِه لا يتأثَّرُ بالقرآنِ -والعياذُ بالله- يقولُ: هذه أساطيرُ الأوَّلينِ، قصصٌ وحكاياتٌ، ماذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ؟ كلا، ليست أساطيرَ الأوَّلين، ولكن البلاءُ به هو، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، فلم يعرفوا الحقَّ ولم يتأثَّرُوا به، وهذا ميزانٌ ينبغي لنا أن نتعاهدَه دائمًا، أن ننظرَ هل قلوبُنا تتأثَّرُ عند فعلِ المعصيةِ وتركِ الطَّاعةِ أو لا؟ إن كانت تتأثَّر ففيها حياةٌ

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني (ص:١٦٥).

نحافظُ على هذه الحياةِ، وإن لم تتأثَّرْ فهي ميِّتةٌ قد رَانَ عليها ما كَسَبَتْ من المعاصي، نسألُ الله أن يعاملَنا وإيَّاكم بعفوِه.

الخلاصةُ من هذا كُلِّه هو أنَّ أهلَ الإلحادِ والتَّعطيلِ كلاهما حربٌ على أهلِ الإثباتِ، لكنَّه -رحمه الله- عنده تخيُّلٌ كبيرٌ وتصوُّرٌ عجيبٌ.

* * *

فصل

فِي مَصَارِعِ النُّفَاةِ وَالمُعَطِّلِينَ بِأَسِنَّةِ أُمَرَاءِ الإِثْبَاتِ المُوَحِّدِينَ

٣٦٤٠- وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى مَصَارِعَ مَنْ خَلا ... مِنْ أُمَّةِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

٣٦٤١- وَتَرَاهُمُ أَسْرَى حَقِيرًا شَأْنُهُمْ ... أَيْدِيهِمُ غُلَّتْ إِلَى الأَذْقَانِ

٣٦٤٢- وَتَرَاهُمُ تَحْتَ الرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مَا فِيهِمُ مِنْ فَارِسٍ طَعَّانِ

٣٦٤٣- وَتَرَاهُمُ تَحْتَ السُّيُوفِ تَنُوشُهُمْ ... مِنْ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِ

٣٦٤٤- وَتَرَاهُمُ انْسَلَخُوا مِنَ الوَحْيَيْنِ وَالْـ ... ـعَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُقْتَضَى القُرْآنِ

٣٦٤٥- وَتَرَاهُمُ وَاللهِ ضُحْكَةَ سَاخِرٍ ... وَلَطَالَمَا سَخِرُوا مِنَ الإِيمَانِ

٣٦٤٦- قَدْ أَوْحَشَتْ مِنْهُمْ رُبُوعٌ زَادَهَا الْـ ... ـجَبَّارُ إِيحَاشًا مَدَى الأَزْمَانِ

٣٦٤٧- وَخَلَتْ دِيَارُهُمُ وَشُتِّتَ شَمْلُهُمْ ... مَا فِيهِمُ رَجُلانِ مُجْتَمِعَانِ

٣٦٤٨- قَدْ عَطَّلَ الرَّحْمَنُ أَفْئِدَةً لَهُمْ ... مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ

٣٦٤٩- إِذْ عَطَّلُوا الرَّحْمَنَ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالعَرْشَ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

٣٦٥٠- بَلْ عَطَّلُوهُ عَنِ الكَلامِ وَعَنْ صِفَا ... تِ كَمَالِهِ بِالجَهْلِ وَالبُهْتَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «النُّفَاةِ» جمع «نَافٍ».

قَوْلُهُ: «المُعَطِّلِينَ» جمع «مُعَطِّل».

قَوْلُهُ: «أَسِنَّةِ» جمعُ «سِنَان»، وهو الرُّمحُ الذي في طرفِهِ زُجٌّ؛ يعني: حديدة مُدَبَّبة أعلاها دقيقٌ ينفذ.

قَوْلُهُ: «بِأَسِنَّةِ أُمَرَاءِ الإِثْبَاتِ المُوَحِّدِينَ» فجعلَ أهلَ الإثباتِ أمراءً؛ لأنَّ المقامَ مقامُ حربٍ، والأميرُ في الحربِ غيرُ العالِمِ في السِّلمِ، فأمراءُ الحروبِ هم الذين يأمرون ويُنَفِّذُون.

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه الله- في هذا الفصلِ ما كان أهلُ السُّنَّةِ والإثباتِ يُصنِّفونه ويُؤلِّفونه من الكتبِ التي تدفعُ حججَ هؤلاء المعطِّلةِ، فقال رحمه الله:

٣٦٤٠- وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى مَصَارِعَ مَنْ خَلا ... مِنْ أُمَّةِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى» التَّقديرُ: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَرَى»، وهذا التَّركيبُ جائزٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الرُّوم:٢٤]؛ أي: أن يُرِيَكم البرقَ.

٣٦٤١- وَتَرَاهُمُ أَسْرَى حَقِيرًا شَأْنُهُمْ ... أَيْدِيهِمُ غُلَّتْ إِلَى الأَذْقَانِ

قَوْلُهُ: «أَسْرَى» جمعُ «أسير».

قَوْلُهُ: «حَقِيرًا شَأْنُهُمْ»؛ أي: ليسوا مُكْرَمِين ولا مُعظَّمين.

٣٦٤٢- وَتَرَاهُمُ تَحْتَ الرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مَا فِيهِمُ مِنْ فَارِسٍ طَعَّانِ

قَوْلُهُ: «دَرِيئَةً» «فعيلة» بمعنى مفعولة، من الدَّرْءِ وهو الدَّفعُ؛ أي: مدفوعين لا يستطيعون المقاومةَ.

أي: تراهم تحت رماحِ جنودِ الله عزَّ وجلَّ مدفوعين لا يستطيعون المقاومةَ.

٣٦٤٣- وَتَرَاهُمُ تَحْتَ السُّيُوفِ تَنُوشُهُمْ مِنْ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِ

أي: تأتيهم السُّيوفُ من كُلِّ جانبٍ تُمَزِّقُهم.

٣٦٤٤- وَتَرَاهُمُ انْسَلَخُوا مِنَ الوَحْيَيْنِ وَالْـ ـعَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُقْتَضَى القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «الوَحْيَيْنِ»؛ أي: الكتابِ والسُّنَّةِ.

قَوْلُهُ: «العَقْلِ الصَّحِيحِ»، وفي نسخةٍ: «العَقْلِ الصَّرِيحِ» وهو الصَّوابُ؛ لأنَّ الصِّحَّةَ يُوصَفُ بها النَّقلُ، فنقول: النَّقلُ الصَّحيحُ، والصَّراحةُ يُوصَفُ بها العقلُ.

قَوْلُهُ: «وَمُقْتَضَى القُرْآنِ»؛ أي: ما يقتضيه القرآنُ.

٣٦٤٥- وَتَرَاهُمُ وَاللهِ ضِحْكَةَ سَاخِرٍ وَلَطَالَمَا سَخِرُوا مِنَ الإِيمَانِ

أي: تراهم محَلًّا لِضَحكِ مَنْ يَسْخَرُ بهم؛ لأنَّهم سقطوا تحت جهادِ أولياءِ الله عزَّ وجلَّ.

٣٦٤٦- قَدْ أَوْحَشَتْ مِنْهُمْ رُبُوعٌ زَادَهَا الْـ ـجَبَّارُ إِيحَاشًا مَدَى الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «رُبُوعٌ» جمع: «ربع» وهو ما يكونُ بمعنى الحيِّ أو القومِ.

يعني: قد أَوْحَشَتْ منهم الدِّيارُ، زادها اللهُ عزَّ وجلَّ إيحاشًا؛ لأنَّهم فقراءٌ من الوحي والعقلِ الصَّريحِ.

٣٦٤٧- وَخَلَتْ دِيَارُهُمُ وَشُتِّتَ شَمْلُهُمْ مَا فِيهِمُ رَجُلانِ مُجْتَمِعَانِ

قَوْلُهُ: «خَلَتْ دِيَارُهُمُ» خلت ديارُهم منهم؛ لأنَّهم فرُّوا من جنودِ الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «وَشُتِّتَ شَمْلُهُمْ» تفرَّقُوا وتمزَّقوا.

٣٦٤٨- قَدْ عَطَّلَ الرَّحْمَنُ أَفْئِدَةً لَهُمْ مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ

أعوذُ بالله، يعني: أنَّ اللهَ عَطَّلَ قلوبَهم من معرفةِ الله والإيمانِ به، فصاروا في وحشةٍ عظيمةٍ وتَشتُّتٍ.

٣٦٤٩- إِذْ عَطَّلُوا الرَّحْمَنَ مِنْ أَوْصَافِهِ وَالعَرْشَ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

وذلك بإنكارهم لاستواءِ الله على العرشِ.

٣٦٥٠- بَلْ عَطَّلُوهُ عَنِ الكَلامِ وَعَنْ صِفَا تِ كَمَالِهِ بِالجَهْلِ وَالبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ عَطَّلُوهُ عَنِ الكَلَامِ وَعَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ»؛ أي: عطَّلوه عن الكلامِ والكمالِ، قالوا: لا يتكلَّمُ، وقالوا: ليس له صفاتُ كمالٍ، كما مرَّ علينا كثيرًا.

قَوْلُهُ: «بِالجَهْلِ وَالبُهْتَانِ» الجهلُ: عدمُ العلمِ، والبُهتانُ: عدمُ الصِّدقِ، فكلامُهم خالٍ من العلمِ، وخالٍ من الصِّدقِ، فكُلُّه جهلٌ وكُلُّه بهتانٌ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

* * *

٣٦٥١- فَاقْرَأْ تَصَانِيفَ الإِمَامِ حَقِيقَةً شَيْخِ الوُجُودِ العَالِمِ الرَّبَّانِي

٣٦٥٢- أَعْنِي أَبَا العَبَّاسِ أَحْمَدَ ذَلِكَ الـ ـبَحْرَ المُحِيطَ بِسَائِرِ الخُلْجَانِ

٣٦٥٣- وَاقْرَأْ كِتَابَ «العَقْلِ وَالنَّقْلِ» الَّذِي مَا فِي الوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِي

٣٦٥٤- وَكَذَاكَ «مِنْهَاجٌ» لَهُ فِي رَدِّهِ قَوْلَ الرَّوَافِضِ شِيعَةِ الشَّيْطَانِ

٣٦٥٥- وَكَذَاكَ أَهْلُ الإِعْتِزَالِ فَإِنَّهُ أَرْدَاهُمُ فِي حُفْرَةِ الجَبَّانِ

٣٦٥٦- وَكَذَلِكَ «التَّأْسِيسُ» أَصْبَحَ «نَقْضُهُ» أُعْجُوبَةً لِلعَالِمِ الرَّبَّانِي

٣٦٥٧- وَكَـذَاكَ «أَجْوِبَـةٌ» لَـهُ مِصْـرِيَّةٌ ... فِي سِـتِّ أَسْـفَارٍ كَتِـبْنِ سِـمَانِ

٣٦٥٨- وَكَذَا «جَوَابٌ لِلنَّصَارَى» فِيهِ مَا ... يَشْـفِي الصُّـدُورَ وَإِنَّـهُ سِـفْرَانِ

٣٦٥٩- وَكَـذَاكَ «شَرْحُ عَقِيـدَةٍ لِلأَصْـبَهَا ... نِي» شَارِحِ «المَحْصُولِ» شَرْحَ بَيَانِ

٣٦٦٠- فِيهَـا «النُّبُـوَّاتُ» الَّتِـي إِثْبَاتُهَـا ... فِي غَايَـةِ التَّقْرِيـرِ وَالتِّبْيَـانِ

٣٦٦١- وَاللهِ مَـا لأُولِي الكَـلامِ نَظِـيرُهُ ... أَبَـدًا وَكُتْـبُهُمْ بِكُـلِّ مَكَـانِ

٣٦٦٢- وَكَذَا حُدُوثُ العَالَمِ العُلْوِيِّ وَالسْـ ... ـسُفْلِيِّ فِيـهِ فِي أَتَـمِّ بَيَـانِ

٣٦٦٣- وَكَـذَا قَوَاعِـدُ «الاسْـتِقَامَةِ» إِنَّهَـا ... سِـفْرَانِ فِـيمَا بَيْنَنَـا ضَـخْمَانِ

٣٦٦٤- وَقَـرَأْتُ أَكْثَرَهَـا عَلَيْـهِ فَـزَادَنِي ... وَاللهِ فِي عِلْـمٍ وَفِي إِيـمَانِ

٣٦٦٥- هَـذَا وَلَـوْ حَـدَّثْتُ نَفْسِـي أَنَّـهُ ... قَبْلِـي يَمُـوتُ لَكَـانَ غَـيْرَ الشَّـانِ

الشـرحُ

٣٦٥١- فَـاقْرَأْ تَصَـانِيفَ الإِمَـامِ حَقِيقَـةً ... شَـيْخِ الوُجُـودِ العَالِـمِ الرَّبَّـانِي

اقرأ تصانيفَ الإمامِ حقيقةً، وهنا وَصَفَ شيخَه ابنَ تيميَّةَ بأنَّه إمامٌ، وأنَّ إمامتَه حقيقيَّةٌ، وصَدَقَ رحمهُ الله، فإنَّه كان إمامًا مُدافِعًا عن عقيدةِ السَّلفِ بما أَلَّفه من الكتبِ والرَّسائلِ الكبيرةِ والصَّغيرةِ، إذا قَرَأْتَ تصانيفَه عَرَفْتَ ما أنعمَ اللهُ به عليه من النِّعمةِ العظيمةِ في الحِفظِ والوعيِ والفَهْمِ وقوَّةِ الجدلِ، حتَّى إنَّه يأتي للقومِ بأدلَّةٍ عقليَّةٍ لا يأتون بها هم ثُمَّ يُفَنِّدُها ويَرُدُّ عليها.

٣٦٥٢- أَعْنِي أَبَا العَبَّاسِ أَحْمَدَ ذَلِكَ الـ ـبَحْرَ المُحِيطَ بِسَائِرِ الـخُلْجَانِ

قَوْلُهُ: «أَعْنِي أَبَا العَبَّاسِ» «أبو العبَّاس» كُنيةٌ لشيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة.

قَوْلُهُ: «ذَلِكَ البَحْرُ المُحِيطُ بِسَائِرِ الخُلْجَانِ» بحرٌ محيطٌ بسائرِ الخُلجانِ؛ يعني: علومُ النَّاسِ عنده كنسبةِ الخُلْجَانِ إلى البحارِ.

وهو -رحمه الله- ليس له ولدٌ، وليس له زوجةٌ، فقِيلَ: لعلَّه ليس فيه ما في الرِّجالِ من شهوةٍ للنِّساءِ، وقِيلَ: لأنَّه كان مشتغلًا بالدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ والجهادِ باللِّسانِ والبنانِ والسِّنانِ، وهذا هو الأقربُ، بل هو المتعيِّنُ؛ لأنَّ الرَّجلَ -وأعني به ابن تيميَّةَ رحمه الله- إذا تكلَّم عن الجماعِ تعرفُ أنَّه يتكلَّمُ عن علمٍ ودرايةٍ، ومثلُ هذا لا يقعُ ممَّن ليس له شهوةٌ في النِّساءِ، لكنَّه مشغولٌ، ولعلَّه كما قال القائلُ:

تَـأَلَّقَ الـبَرْقُ نَجْـدِيًّا فَقُلْـتُ لَـهُ يَا أَيُّهَا الـبَرْقُ إِنِّي عَنْـكَ مَشْـغُولُ[1]

وهو -رحمه الله تعالى- له قبرٌ معروفٌ، حدَّثني أخونا محمَّدُ بنُ منصور الزَّامل وزميلُنا عند شيخِنا عبد الرَّحمن السِّعديِّ رحمه الله، وهو أكبرُ مِنَّا، حَدَّثَنَا أَنَّه زار دمشقَ ذاتَ يومٍ، وصَلَّى في الجامعِ الأمويِّ، وجاءه المزوِّرون، وقالوا: أتريدُ أن تُسَلِّمَ على شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة؟ قال: نعم، قالوا: هذا قبرُه، وهذا قبرُ وَلَدِه، والرَّجلُ ليس له زوجةٌ أصلًا، لكن هكذا المزوِّرون، المهمُّ أنَّ أبا العبَّاس -رحمه الله- وَصَفَهُ ابنُ القيِّمِ بأنَّه بحرٌ محيطٌ وَمَنْ سواه خُلْجَانٌ، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ.

---

(١) البيت في لباب الآداب لأبي المظفر الكناني (ص:١٩٨) بلا نسبة.

٣٦٥٣- وَاقْرَأْ كِتَابَ «العَقْلِ وَالنَّقْلِ» الَّذِي مَا فِي الوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِي

كتابُ «**العقل والنَّقل**» له اسمٌ مشهورٌ به وهو: «**العقلُ والنَّقلُ**»، وله اسمٌ مكتوبٌ على هذا المؤلَّفِ اسمُه: «**موافقةُ صريحِ المعقولِ لصحيحِ المنقولِ**» وهو معروفٌ، يقولُ ابنُ القيِّم عنه: «**مَا فِي الوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانٍ**»؛ يعني: مِـمَّا كُتِبَ وأُلِّفَ، وإِلَّا فمعلومٌ أنَّ كتابَ الله عزَّ وجلَّ لا نظيرَ له وهو في الوجودِ، فهو أعظمُ منه، وكذلك ما صَحَّ من سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ أعظمُ منه، لكن فيما كُتِبَ وأُلِّف في بابِه ليس له نظيرٌ.

٣٦٥٤- وَكَذَاكَ «مِنْهَاجٌ» لَهُ فِي رَدِّهِ قَوْلَ الرَّوَافِضِ شِيعَةِ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَاكَ «مِنْهَاجٌ» لَهُ**»، أي: «**مِنْهاجُ السُّنَّةِ**» في الرَّدِّ على الشِّيعة على الكتابِ المُعَظَّمِ عندهم كتاب «**مِنْهاج الكرامةِ في إثباتِ الإمامةِ**»، وشيخُ الإسلامِ يقولُ: يستحِقُّ أن يُسَمَّى هذا الكتابُ «**منهاجَ النَّدامةِ**»، وصدَق رحمه اللهُ، هذا الكتابُ لا يُوجَدُ له نظيرٌ فيما نعلمُ في الرَّدِّ على الرَّوافضِ، كُلُّ ما يستدلُّون به اليومَ موجودٌ في كتاب «**المنهاج**» مردودٌ عليه.

وفي هذا العامِ التقَى بنا رجلٌ يقولُ: إِنَّه كان مُتذبذِبًا بين منهجِ السُّنَّةِ ومنهجِ الشِّيعةِ، وإِنَّهُ متردِّدٌ ويريدُ الحَقَّ، فأتى بأحاديثَ في فضلِ آل البيتِ فوجدنا هذه الأحاديثَ موجودةً في «**المِنْهَاجِ**»، وقد رَدَّ عليها شيخُ الإسلامِ رحمه الله، وكان يُركِّزُ في أوَّل ما يَرُدُّ عليهم يقولُ: «**نقولُ في الرَّدِّ أو في الجوابِ: أَوَّلًا: المطالبةُ بصحَّةِ النَّقلِ، هذا هو الأصلُ؛ لأنَّه إذا لم يصحَّ النَّقلُ فقد كُفِينَا، ولا نحتاج أن نتعبَ في توجيهِه أو حملِه على كذا وكذا**»، وهذا هو الحقيقة؛ لأَنَّه إذا سَقَطَ الأصلُ سَقَطَ الفرعُ.

قَوْلُهُ: «**فِي رَدِّهِ قَوْلَ الرَّوَافِضِ**» الرَّوافضُ جمع «**رافضٍ**» أو «**رافضةٍ**»، وسُمُّوا بذلك لأنَّهم رفضوا زيدَ بنَ عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالبٍ، حيث جاؤوا يسألونه عن أبي بكرٍ وعمرَ، يريدون منه أن يَسُبَّهما ويَذُمَّهما فقال فيهما خيرًا، وقال: «هُمَا وَزِيرَا جَدِّي»[1]؛ يعني: الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كان الرَّسولُ يقولُ دائمًا: خَرَجْتُ أنَا وأبو بَكْرٍ وعمرُ، جِئْتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ؛ ولهذا دُفِنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى جنبِه، يقومون جميعًا يومَ القيامةِ من هذا المكان، وهذه منقبةٌ لا ينالُها أحدٌ، فأثنى عليهما، فلمَّا أثنى عليهما رفضوه وعادوه وقلبوا له ظهرَ المِجَنِّ، ومن ذلك اليوم سُمُّوا رافضةً.

قَوْلُهُ: «**شِيعَةِ الشَّيْطَانِ**»؛ أي: هم مُساعدوه وناصِروه؛ يعني: أنَّهم ليسوا شيعةً لآلِ البيتِ؛ لأنَّ آلَ البيتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يُمكِنُ أن يُقِرُّوا ما صنع هؤلاء الشِّيعةُ فيهم من الغلوِّ ودعوى الألوهيَّةِ، وتفضيل بعضِهم حتىَّ على رسولِ الله ﷺ، وهم يقولون: إنَّ لهم أئمَّةً من آلِ البيتِ يدَّعون أنَّه لا يمكنُ أن تتحرَّكَ ذرَّةٌ في الكونِ إلَّا من تحت إرادتِهم، فجعلوهم شركاءَ مع الله في الرُّبوبيَّة التي نفاها المشركون؛ أي: نَفَوُا الشِّركَ في الرُّبوبيَّةِ وهؤلاء أثبتوها؛ ولهذا وَصَفَهُم -رحمه الله- بأنَّهم شيعةُ الشَّيطانِ، وصدَق رحمه الله في وصفِهم، هؤلاء الشِّيعةُ لا يزالون يستدلُّون بقولِ أشياخِهم وما يروونه من الأحاديثِ التي بعضُها صحيحٌ وبعضُها غيرُ صحيحٍ.

والعجبُ أنَّ مُتأخِّريهم يستدلُّون بالأدلَّةِ التي استدلَّ بها المتقدِّمون، وردُّها موجودٌ في هذا الكتابِ «**منهاج أهلِ السُّنَّة**»، فمَن أراد أن يتشبَّعَ بالرَّدِّ عليهم فعليه بهذا الكتابِ، فإنَّه يجدُ كلَّ ما يحتجُّون به من الأدلَّةِ النَّقليَّةِ أو العقليَّةِ في هذا الكتابِ، ويجدُ الرَّدَّ عليهم من هذا العالِـمِ البحرِ، رحمه الله.

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية، لشمس الدين السفاريني (١/ ٨٥).

٣٦٥٥- وَكَـذَاكَ أَهْـلُ الإِعْتِـزَالِ فَإِنَّـهُ ... أَرْدَاهُـمُ فِي حُفْـرَةِ الـجَبَّانِ

المعتزلةُ أرداهم شيخُ الإسلامِ -رحمه الله- في حُفرة الجَبَّان، وحفرةُ الجَبَّانِ؛ أي: القبر، فالجَبَّانُ صاحبُ الجَبَّانةِ التي هي المقبرة، وحفرتُه قبورٌ؛ يعني: قَبَرَهم.

٣٦٥٦- وَكَذَلِكَ «التَّأْسِيسُ» أَصْبَحَ «نَقْضُـهُ» ... أُعْجُوبَـةً لِلعَالِـمِ الرَّبَّـانِي

كتاب «**التَّأسيس**» للرَّازيِّ كتابٌ مُقَدَّسٌ عند أهلِ الكلامِ، وشيخُ الإسلامِ -رحمه الله- نَقَضَ هذا «**التَّأسيس**»، وصار يأتي به جملةً وينقضُه نقضًا تامًّا بالنَّقلِ وبالعقلِ.

٣٦٥٧- وَكَـذَاكَ «أَجْوِبَـةٌ» لَـهُ مِصْـرِيَّةٌ ... فِي سِـتِّ أَسْـفَارٍ كَتِـبْنَ سِـمَانِ

قَوْلُهُ: «**سِمَانِ**»؛ يعني: ضخمةً، من السِّمن.

الأجوبة المصريَّةُ هذه لا نعرفُها ولم نطَّلع عليها إلى الآن، وهذه غيرُ «**الفتاوى المصريَّة**»، هذه أجوبةٌ في العقيدةِ، وليست بالفتاوى المصريَّة، وأمَّا قولُ الشَّيخِ الهرَّاسِ رحمه الله بأنَّها الفتاوى المصريَّة[١] فهذه على أبوابِ الفقه؛ أي: «**الفتاوى المصريَّة**»، ولعلَّ الشَّيخَ هرَّاسَ اطَّلع على هذه الفتاوى، أمَّا الأجوبةُ فهي في بابِ العقيدةِ لا شَكَّ؛ لأنَّ ابن القيِّمِ الآن يتكلَّمُ عن العقيدةِ.

٣٦٥٨- وَكَذَا «جَوَابٌ لِلنَّصَارَى» فِيـهِ مَـا ... يَشْـفِي الصُّـدُورَ وَإِنَّـهُ سِـفْرَانِ

قَوْلُهُ: «**سِفْرَانِ**»؛ أي: في مجلدَيْنِ، ولعلَّه يشيرُ إلى: «**الجواب الصَّحيح فيمَنْ بَدَّلَ دينَ المسيحِ**».

---

(١) شرح القصيدة النُّونيَّة للشَّيخ محمد خليل هرَّاس رحمه الله تعالى (٢/ ١٧٥) ط: دار المنهاج بالقاهرة.

٣٦٥٩- وَكَـذَاكَ «شَرْحُ عَقِيـدَةٍ لِلأَصْـبَهَا نِي» شَارِحِ «المَحْصُولِ» شَرْحَ بَيَانِ

هذ موجودٌ أيضًا في الفتاوى القديمة، وهو في الحقيقةِ شرحٌ مختصرٌ لكن مفيدٌ جدًّا، وكُلُّ الكلامِ فيه مَبْنِيٌّ على العقلِ الصَّحيحِ، وليس على عقلِ أهلِ الكلامِ، وقد قرأناه على شيخِنا عبد الرَّحمن بن سعديٍّ رحمه الله؛ لأنَّه كتابٌ مُخْتَصَرٌ وليس بطويلٍ.

٣٦٦٠- فِيهَـا «النُّبُـوَّاتُ» الَّتِـي إِثْبَاتُهَـا فِي غَايَـةِ التَّقْرِيـرِ وَالتِّبْيَـانِ

قَوْلُهُ: «فِيهَا»؛ أي: في شرح الإصبهانيَّة.

قَوْلُهُ: «النُّبُوَّاتُ»؛ يعني: إثباتَها.

٣٦٦١- وَاللهِ مَـا لأُولِـي الكَـلامِ نَظِـيرُهُ أَبَـدًا وَكُتْـبُهُمْ بِكُـلِّ مَكَـانِ

يعني: لم يُؤلِّفوا نظيرَ هذا الكتابِ، وكتبُهم موجودةٌ في كُلِّ مكانٍ، مَنْ أراد أن يطَّلِعَ عليها حتىَّ يعرفَ الفرقَ بين ما كتبه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ وما كتبه أهلُ الكلامِ فلينظُرْ.

٣٦٦٢- وَكَذَا حُدُوثُ العَالَـمِ العُلْوِيِّ وَالسْـ ـسُفْلِيِّ فِيـهِ فِي أَتَـمِّ بَيَـانِ

يعني: في شرح عقيدةِ الإصبهانيِّ إثباتُ حدوثِ العالَـمِ العلويِّ والسُّفليِّ في أتمِّ بيانٍ.

٣٦٦٣- وَكَـذَا قَوَاعِـدُ «الاسْـتِقَامَةِ» إِنَّهَـا سِـفْرَانِ فِـيمَا بَيْنَنَـا ضَـخْمَانِ

كتابُ «الاستقامة» مطبوعٌ معروفٌ، وهو سِفْرَانِ كما قال المؤلِّفُ رحمه الله؛ أي: مجلدان، وهو كتابٌ جيِّدٌ في موضوعِهِ.

٣٦٦٤- وَقَــرَأْتُ أَكْثَرَهَــا عَلَيْــهِ فَــزَادَنِي وَاللهِ فِي عِلْـــــمٍ وَفِي إِيــــمَانِ

رحمه اللهُ، ورَحِمَ شيخَه، يقولُ: إنَّه قرأ أكثرَ هذه الكتبِ عليه، وإنَّه -رحمه الله- زاده علمًا وزاده إيمانًا، وهذا فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ، وهكذا فائدةُ العالِـمِ ألَّا يحقنَ طلابَه علمًا فقط، بل ينبغي أن يُضِيفَ إلى ذلك الإيمانَ، فيأتي بالأشياءِ التي تُقَوِّي إيمانَهم ما استطاع.

٣٦٦٥- هَــذَا وَلَــوْ حَــدَّثْتُ نَفْسِــي أَنَّــهُ قَبْلِـي يَمُـوتُ لَكَـانَ غَـيْرَ الشَّـانِ

يقولُ: لو حَدَّثْتُ نفسي أنَّه يموتُ قبلي لكان غيرُ الشَّأنِ؛ يعني: غير عملي معه؛ يعني: لَكُنْتُ أُلازمُه ليلًا ونهارًا وآخُذُ منه وأقرأُ عليه الكتبَ أكثرَ مـمَّا كان، ولاجتهدتُ في قِراءةِ كُتبِه كُلِّها عليه، وهو إشارةٌ إلى أنَّه -رحمه الله تعالى- كان يرى أنَّ قراءتَه على شيخِه فُرصةُ العُمرِ، لكنَّه ظَنَّ أنَّ الأمدَ طويلٌ، فَأَضَاعَ بعضَ الوقتِ.

* * *

٣٦٦٦-وَكَـذَاكَ تَوْحِيـدُ الفَلاسِـفَةِ الأُلَى تَوْحِيـدُهُمْ هُـوَ غَايَـةُ الكُفْـرَانِ

٣٦٦٧- سِفْرٌ لَطِيفٌ فِيهِ نَقْـضُ أُصُولِــهِمْ بِحَقِيقَــةِ الــمَعْقُولِ وَالبُرْهَــانِ

٣٦٦٨- وَكَــذَاكَ «تِسْــعِينِيَّةٌ» فِيهَــا لَــهُ رَدٌّ عَــلَى مَــنْ قَــالَ بِالنَّفْسَــانِي

٣٦٦٩- تِسْــعُونَ وَجْهًــا بَيَّنَــتْ بُطْلانَــهُ أَعْنِـي كَـلامَ الـنَّفْسِ ذَا الوِحْـدَانِ

٣٦٧٠- وَكَــذَا «قَوَاعِــدُهُ» الكِبَــارُ وَإِنَّهَــا أَوْفَى مِـنَ الــمِئَتَيْنِ فِي الــحُسْبَانِ

٣٦٧١- لَـمْ يَتَّسِـع نَظْمِـي لَــهَا فَأَسُـوقَهَا فَــأَشَرْتُ بَعْـضَ إِشَــارَةٍ لِبَيَــانِ

٣٦٧٢- وَكَـذَا رَسَـائِلُهُ إِلَى البُلْـدَانِ وَالـ   أَطْـرَافِ وَالأَصْـحَابِ وَالإِخْـوَانِ

٣٦٧٣- هِـيَ فِي الـوَرَى مَبْثُوثَـةٌ مَعْلُومَـةٌ   تُبْتَـاعُ بِالغَـالِي مِـنَ الأَثْـمَانِ

٣٦٧٤- وَكَـذَا فَتَـاوَاهُ فَـأَخْبَرَنِي الَّـذِي   أَضْـحَى عَلَيْهَـا دَائِـمَ الطَّوَفَـانِ

٣٦٧٥- بَلَـغَ الَّـذِي أَلْفَـاهُ مِنْهَـا عِـدَّةَ الـ   أَيَّـامِ مِـنْ شَـهْرٍ بِـلا نُقْصَـانِ

٣٦٧٦- سِـفْرٌ يُقَابِـلُ كُـلَّ يَـوْمٍ وَالَّـذِي   قَـدْ فَـاتَنِي مِنْهَـا بِـلا حُسْـبَانِ

٣٦٧٧- هَذَا وَلَيْسَ يُقَصِّرُ «التَّفْسِيرُ» عَـنْ   عَشْـرٍ كِبَـارٍ لَـيْسَ ذَا نُقْصَـانِ

٣٦٧٨- وَكَذَا المَفَارِيـدُ الَّتِـي فِي كُـلِّ مَسْـ   ـأَلَةٍ فَسِـفْرٌ وَاضِـحُ التِّبْيَـانِ

٣٦٧٩- مَا بَـيْنَ عَشْـرٍ أَوْ تَزِيـدُ بِضِـعْفِهَا   هِـيَ كَـالنُّجُومِ لِسَـالِكٍ حَـيْرَانِ

الشـــرحُ

٣٦٦٦- وَكَـذَاكَ تَوْحِيـدُ الفَلاسِـفَةِ الأُلَى   تَوْحِيـدُهُمْ هُـوَ غَايَـةُ الكُفْـرَانِ

هذا أيضًا ردٌّ على توحيدِ الفلاسفةِ، لكنَّه يقولُ:

٣٦٦٧- سِفْرٌ لَطِيفٌ فِيهِ نَقْـضُ أُصُولِـهِمْ   بِحَقِيقَـةِ الـمَعْقُولِ وَالبُرْهَـانِ

ولعلَّه يشيرُ إلى «نقد المنطق»، وهذا غيرُ «الرَّدِّ على المنطقيِّين»، و«نقدُ المنطقِ» كتابٌ لطيفٌ كما قال ابنُ القيِّم، لكن فيه قواعدُ عظيمةٌ في إبطالِ كلامِ أهلِ المنطقِ وقواعِدِهم، وهو أيضًا مطبوعٌ.

٣٦٦٨- وَكَـذَاكَ «تِسْـعِينِيَّةٌ» فِيهَـا لَـهُ   رَدٌّ عَـلَى مَـنْ قَـالَ بِالنَّفْسَـانِي

٣٦٦٩- تِسْـعُونَ وَجْهًـا بَيَّنَـتْ بُطْلانَـهُ   أَعْنِـي كَـلامَ الـنَّفْسِ ذَا الوِحْـدَانِ

له كتابٌ اسمُه «التِّسعينيِّة» رَدَّ فيه على الأشاعرةِ الذين يقولون: إنَّ كلامَ الله ليس بحرفٍ ولا صوتٍ مسموعٍ لكنَّه المعنى القَائِمُ بنفسِه، رَدَّ هذا القولَ من تسعين وجهًا، ونحن لو أردنا أن نتتبَّعَ الأوجهَ ما نُحَصِّلَ عُشرَ ما قال، لكن على كُلِّ حالٍ شيخُ الإسلامِ كما قال ابنُ القيِّم عنه: بحرٌ، وعلومُ مَنْ دونه خُلْجَانٌ.

٣٦٧٠- وَكَـذَا «قَوَاعِـدُهُ» الكِبَـارُ وَإِنَّهَـا   أَوْفَى مِـنَ الـمِئَتَيْنِ فِي الـحُسْبَانِ

«قَوَاعِدُهُ الكِبَارُ» لا أعرفُها، لكن هي قواعدُ، يقولُ: إنَّها زادت على المئتين في الحُسْبَانِ، وسمَّاها قواعدَ كبارًا، وهي بلا شكٍّ في العقيدةِ؛ لأنَّ كُلَّ كلامِ المؤلِّف فيما أَلَّفَه شيخُه في العقائدِ.

٣٦٧١- لَـمْ يَتَّسِـع نَظْمِـي لَـهَا فَأَسُـوقَهَا   فَـأَشَرْتُ بَعْـضَ إِشَـارَةٍ لِبَيَـانِ

٣٦٧٢- وَكَـذَا رَسَـائِلُهُ إِلَى البُلْـدَانِ وَالـ   أَطْـرَافِ وَالأَصْـحَابِ وَالإِخْـوَانِ

٣٦٧٣- هِـيَ فِي الـوَرَى مَبْثُوثَـةٌ مَعْلُومَـةٌ   تُبْتَـاعُ بِالغَـالِي مِـنَ الأَثْـمَانِ

يعني: لم يقتصر على التَّأليفِ العامِّ، بل له رسائلُ خاصَّةٌ إلى إخوانِه وإلى الأمراءِ وإلى الزُّعماءِ، وهذا معلومٌ في بعضِ المجموعاتِ التي جُمِعَت لشيخِ الإسلام ابن تيميَّة، وكذلك أيضًا في الكتب التي كُتِبَتْ في حياتِه، وهذه الرَّسائلُ موجودةٌ.

٣٦٧٤- وَكَـذَا فَتَـاوَاهُ فَـأَخْبَرَنِي الَّـذِي   أَضْـحَى عَلَيْهَـا دَائِـمَ الطَّوَفَـانِ

٣٦٧٥- بَلَـغَ الَّـذِي أَلْفَـاهُ مِنْهَـا عِـدَّةَ الـ   أَيَّـامِ مِـنْ شَـهْرٍ بِـلا نُقْصَـانِ

٣٦٧٦- سِفْرٌ يُقَابِلُ كُلَّ يَوْمٍ وَالَّذِي   قَدْ فَاتَنِي مِنْهَا بِلا حُسْبَانِ

فتاواه كثيرةٌ أيضًا، والفتاوى الكثيرةُ ليست بمُؤلَّفاتٍ، بل فتوى يكتبُها في ورقةٍ يُمليها على شخصٍ، يقول: «أَخْبَرَنِي الَّذِي أَضْحَى عَلَيْهَا دَائِمَ الطَّوَفَانِ».

قَوْلُهُ: «سِفْرٌ يُقَابِلُ كُلَّ يَوْمٍ»، إِذَنْ تكونُ هذه الفتاوى في ثلاثين مجلَّدًا.

٣٦٧٧- هَذَا وَلَيْسَ يُقَصِّرُ «التَّفْسِيرُ» عَنْ   عَشْرٍ كِبَارٍ لَيْسَ ذَا نُقْصَانِ

أيضًا له تفسيرٌ يبلغُ عشرَ مجلَّداتٍ، ولكن لا أدري: هل هذا التَّفسيرُ شاملٌ لكُلِّ القُرآنِ أو لبعضِ الآياتِ والسُّورِ، وقد طُبِعَ منه -على ما أظنُّ- ستَّةُ مجلَّدات.

٣٦٧٨- وَكَذَا المَفَارِيدُ الَّتِي فِي كُلِّ مَسْـ   ـأَلَةٍ فَسِفْرٌ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

٣٦٧٩- مَا بَيْنَ عَشْرٍ أَوْ تَزِيدُ بِضِعْفِهَا   هِيَ كَالنُّجُومِ لِسَالِكٍ حَيْرَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ تَزِيدُ بِضِعْفِهَا»؛ أي: عشرين.

كُلُّ هذه مؤلَّفاتٌ لشيخِه[1] رحمه الله، وهي عظيمةٌ مفيدةٌ غاية الفائدةِ.

* * *

٣٦٨٠- وَلَهُ المَقَامَاتُ الشَّهِيرَةُ فِي الوَرَى   قَدْ قَامَهَا لله غَيْرَ جَبَانِ

٣٦٨١- نَصَرَ الإِلَهَ وَدِينَهُ وَكِتَابَهُ   وَرَسُولَهُ بِالسَّيْفِ وَالبُرْهَانِ

٣٦٨٢- أَبْدَى فَضَائِحَهُمْ وَبَيَّنَ جَهْلَهُمْ   وَأَرَى تَنَاقُضَهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ

---

(١) لابن القيِّم -رحمه الله- مصنَّفٌ لطيفٌ جَمَعَ فيه أسماءَ مؤلَّفاتِ شيخ الإسلام ابن تيميَّة، تحقيق د.صلاح الدِّين المنجد، ط: دار الكتاب العربيِّ الجديد، بيروت، لبنان.

٣٦٨٣- وَأَصَارَهُمْ وَالله تَحْتَ نِعَالِ أَهْـ ـلِ الحَقِّ بَعْدَ مَلابِسِ التِّيجَانِ

٣٦٨٤- وَأَصَارَهُمْ تَحْتَ الحَضِيضِ وَطَالَـمَا كَـانُوا هُـمُ الأَعْـلامَ لِلبُلْـدَانِ

٣٦٨٥- وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّـهُ بِسِلاحِهِمْ أَرْدَاهُـمُ تَحْتَ الحَضِيضِ الدَّانِي

٣٦٨٦- كَانَـتْ نَوَاصِينَا بِأَيْـدِيهِمْ فَـمَا مِنَّـا لَـهُمْ إِلَّا أَسِـيرٌ عَـانِي

٣٦٨٧- فَغَـدَتْ نَوَاصِيهِمْ بِأَيْـدِينَا فَـلَا يَلْقَوْنَنَـا إِلَّا بِحَبْـلِ أَمَـانِ

٣٦٨٨- وَغَـدَتْ مُلُـوكُهُمُ مَـمَالِيكًا لِأَنْـ ـصَارِ الرَّسُـولِ بِمِنَّـةِ الـرَّحْمَنِ

٣٦٨٩- وَأَتَتْ جُنُودُهُمُ الَّتِي صَالُوا بِهَا مُنْقَـادَةً لِعَسَـاكِرِ الإِيـمَانِ

٣٦٩٠- يَـدْرِي بِهَـذَا مَـنْ لَـهُ خُـبْرٌ بِـمَا قَـدْ قَالَـهُ فِي رَبِّـهِ الفِئَتَـانِ

٣٦٩١- وَالقَـدْمُ يُوحِشُـنَا وَلَـيْسَ هُنَـاكُمُ فَحُضُـورُهُ وَمَغِيبُـهُ سِـيَّانِ

الشـرحُ

في هذه الأبيات انتقل المؤلِّفُ إلى مواقفَ أخرى للشَّيخِ غير المؤلَّفاتِ والرَّسائلِ فقال:

٣٦٨٠- وَلَهُ المَقَامَاتُ الشَّهِيرَةُ فِي الـوَرَى قَـدْ قَامَهَـا لله غَـيْرَ جَبَـانِ

له مقاماتٌ يُخَاطِبُ بها الملوكَ والرُّؤساءَ والزُّعماءَ، ويُقَاتِلُ التَّتارَ وغيرَهم، مقاماتٌ عظيمةٌ شهيرةٌ وهي أنَّه رجلٌ شجاعٌ مقدامٌ في الحربِ، يقودُ النَّاسَ، ويخُوضُ غمارَ صفوفِ الأعداءِ حتَّى إنَّه لـمَّا حاصَرَ التَّتارُ أهلَ الشَّامِ في رمضانَ، ورأى من المصلحةِ أن يُفطِرَ الجنودُ ليتقوَّوْا على الجِهادِ أفتاهم -رحمه الله- بأنَّه

يجوزُ لهم الفطرُ ليتقوَّوْا على القتالِ؛ لأنَّ الإنسانَ سوف يتعبُ مع الصَّومِ، لكن العلماء قالوا: لا يجوزُ الفطرُ؛ لأنَّه لا يوجدُ سفرٌ ولا مرضٌ، والفِطرُ إنما يكونُ في السَّفرِ أو المرضِ، فاستَدلَّ عليهم -رحمه الله- بقولِ النَّبيِّ ﷺ في غزوةِ الفتحِ بأنَّه كان يَأمُرهم أنْ يفطروا أثناء السَّفرِ، ولـمَّا قربوا من مكَّةَ قال: «**أَفْطِرُوا فَإِنَّ الفِطْرَ أَقْوَى لَكُمْ**»[1]، ولم يقل: «أفطروا فإنَّكم مسافرون»، بل قال: «**الفِطْر أَقْوَى لَكُمْ**»، فدَلَّ هذا على أنَّه إذا كان الفطرُ أقوى على العدوِّ فإنَّه جائزٌ، ثُمَّ أَخَذ معه كسرًا من الخبزِ وجعل يأكلُها بين صفوفِ المقاتلين من أجلِ أنْ يطمئنُّوا إلى الاقتداءِ والتَّأَسِّي به، رحمهم اللهُ وجزاهم عن الإسلامِ خيرًا، ونسأَلُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم معهم في جنَّاتِ النَّعيمِ.

٣٦٨١- نَصَـرَ الإِلَـهَ وَدِينَـهُ وَكِتَابَـهُ   وَرَسُـولَهُ بِالسَّـيْفِ وَالبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**بِالسَّيْفِ**»؛ أي: في قتالِ الكُفَّارِ.

قَوْلُهُ: «**وَالبُرْهَانِ**»؛ أي: في مجادلةِ المنافقين والمؤلَّفاتِ التي ألَّفها.

٣٦٨٢- أَبْـدَى فَضَـائِحَهُمْ وَبَـيَّنَ جَهْلَهُـمْ   وَأَرَى تَنَاقُضَـهُمْ بِكُـلِّ زَمَـانِ

٣٦٨٣- وَأَصَـارَهُمْ وَاللهِ تَحْـتَ نِعَـالِ أَهْـ   ـلِ الـحَقِّ بَعْـدَ مَلابِـسِ التِّيجَـانِ

وهذا الفخرُ، فقد كانوا في أوَّل الأمرِ لهم السَّيطرةُ على كثيرٍ من العلماءِ في شُبهاتِهم وحُجَجِهم الباطلة، وكانوا يلبسون التِّيجانَ كالملوكِ، فلمَّا جاء شيخُ الإسلامِ -رحمه الله- وبَيَّنَ ما هم عليه من الباطلِ، وبَيَّنَ فضائحَهم وجهلَهم وتناقضَهم صاروا تحت نعالِ أهلِ الحقِّ، وناهيك بهذا الذُّلِّ والعياذُ باللهِ، وهذا من

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل، رقم (١١٢٠).

نعمةِ الله -سبحانه وتعالى- على المسلمين عمومًا، وإلَّا لتطاولَ هؤلاء الأشرارُ على دينِ الله وعلى عبادِ الله.

٣٦٨٤- وَأَصَارَهُمْ تَحْتَ الحَضِيضِ وَطَالَـمَا كَـانُوا هُـمُ الأَعْـلامَ لِلبُلْـدَانِ

قَوْلُهُ: «الأَعْلَامَ» جمعُ «عَلَمٍ»؛ أي: الجبالُ الشَّامخةُ.

فبعدَ أن كانوا في عُلوٍّ نزلوا إلى السُّفلِ والحضيضِ.

٣٦٨٥- وَمِـنَ العَجَائِـبِ أَنَّـهُ بِسِـلاحِهِمْ أَرْدَاهُـمُ تَحْـتَ الحَضِيضِ الـدَّانِي

صحيحٌ، هذا -والله- من العجائبِ، أخذ سلاحَهم من أيديهم وجعل يقاتلُهم به، فمن العجائبِ أنَّه جَعَلَ أدلَّتَهم أدلَّةً عليهم؛ لأنَّ كُلَّ الأشياءِ التي يُعلِّلون بها صارت حُجَّةً عليهم، حتَّى إنَّه قال في أوَّل كتاب: «العقل والنَّقل»: «أنا مستعدٌّ وملتزمٌ أنَّه ما من شخصٍ يستدلُّ بآيةٍ أو حديثٍ صحيحٍ على باطلِه إلَّا جَعَلْتُهُ دليلًا عليه»[1]، وهذا قلبٌ للدَّليلِ، يجعلُ الدَّليلَ الذي يُسْتَدَلُّ به على الباطلِ يجعلُه دليلًا عليه؛ لأنَّ القرآنَ وصحيحَ السُّنَّةِ لا يمكنُ أن يدلَّا على باطلٍ أبدًا؛ ولهذا قال:

٣٦٨٦- كَانَـتْ نَوَاصِـينَا بِأَيْـدِيهِمْ فَـمَا مِنَّـا لَـهُمْ إِلَّا أَسِـيرٌ عَـانِي

٣٦٨٧- فَغَـدَتْ نَوَاصِـيهِمْ بِأَيْـدِينَا فَـلَا يَلْقَوْنَنَـا إِلَّا بِحَبْـلِ أَمَـانِ

قَوْلُهُ: «فَلَا يَلْقَوْنَنَا إِلَّا بِحَبْلِ أَمَانِ»؛ يعني: يقولون: أَمِّنَّا، كالأسيرِ يطلبُ مِمَّن أَسَرَهُ أن يُؤَمِّنَه.

انقلبت الأمورُ، كانوا بالأوَّل هم القادةَ، وهم الذين لهم الكلمةُ، ولهم الغلبةُ ونواصي النَّاسِ بأيديهم، فصاروا بعد أن أَظْهَرَ اللهُ هذا الرَّجُلَ الحَبْرَ، ومَنَّ به على

(١) انظر: مقدمة درء تعارض العقل والنقل.

الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ ونَصَرَ به الحقَّ فصارت نواصيهم بأيدينا، فلا يلقوننا إلَّا بحبل أمانٍ، يعني: أنَّهم لا يقومون لنا إلَّا إذا أعطيناهم الأمانَ وذلك لِذُلِّـهم ورعبِهم.

٣٦٨٨- وَغَـدَتْ مُلُـوكُهُمُ مَـمَالِيكًا لِأَنْـ ـصَارِ الرَّسُـولِ بِمِنَّـةِ الـرَّحْمَنِ

الحمدُ لله انقلبت الأمورُ، ملوكُهم صاروا مماليكَ، فالمَلِكُ صار مملوكًا.

٣٦٨٩- وَأَتَتْ جُنُودُهُمُ الَّتِي صَالُوا بِهَا مُنْقَـادَةً لِعَسَـاكِرِ الإِيـمَانِ

أي: بعد أن كانت تُهاجِمُ جاءت منقادةً.

٣٦٩٠- يَـدْرِي بِهَـذَا مَـنْ لَـهُ خُـبْرٌ بِـمَا قَـدْ قَالَـهُ فِي رَبِّـهِ الفِئَتَـانِ

٣٦٩١- وَالفَـدْمُ يُوحِشُـنَا وَلَـيْسَ هُنَـاكُمُ فَحُضُـورُهُ وَمَغِيبُـهُ سِـيَّانِ

قَوْلُهُ: «الفَدْمُ»؛ يعني: العيُّ الذي لا يستطيعُ أن يُعَبِّرَ، أو: الغليظ الجاهل.

المهمُّ: أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قَيَّضَ للإسلامِ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ ومَنْ على شاكِلَتِه، فَنَصَرَ اللهُ بهم دينَه وأَذَلَّ أعداءَه، وهذا من نعمةِ الله أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- يُقَيِّضُ عند كُلِّ بدعةٍ وفتنةٍ مَنْ يُبَيِّنُ هذه البدعةَ ويُظْهِرُهَا.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ أَنَّ الْمُصِيبَةَ الَّتِي حَلَّتْ بِأَهْلِ التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ مِنْ جِهَةِ الأَسْمَاءِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

٣٦٩٢- يَا قَوْمُ أَصْلُ بَلائِكُمْ أَسْمَاءُ لَمْ ... يُنْزِلْ بِهَا الرَّحْمَنُ مِنْ سُلْطَانِ

٣٦٩٣- هِيَ عَكَّسَتْكُمْ غَايَةَ التَّعْكِيسِ وَاقْـ ... ـتَلَعَتْ دِيَارَكُمُ مِنَ الأَرْكَانِ

٣٦٩٤- فَتَهَدَّمَتْ تِلْكَ القُصُورُ وَأَوْحَشَتْ ... مِنْكُمْ رُبُوعُ العِلْمِ وَالإِيمَانِ

٣٦٩٥- وَالذَّنْبُ ذَنْبُكُمُ قَبِلْتُمْ لَفْظَهَا ... مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ وَلا فُرْقَانِ

٣٦٩٦- وَهِيَ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى أَمْرَيْنِ مِنْ ... حَقٍّ وَأَمْرٍ وَاضِحِ البُطْلانِ

٣٦٩٧- سَمَّيْتُمُ عَرْشَ المُهَيْمِنِ حَيِّزًا ... وَالإِسْتِوَاءَ تَحَيُّزًا بِمَكَانِ

٣٦٩٨- وَجَعَلْتُمُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ العُلَى ... جِهَةً وَسُقْتُمْ نَفْيَ ذَا بِوِزَانِ

٣٦٩٩- وَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَشْبِيهًا وَتَجْـ ... ـسِيمًا وَهَذَا غَايَةُ البُهْتَانِ

٣٧٠٠- وَجَعَلْتُمُ المَوْصُوفَ جِسْمًا قَابِلَ الـ ... أَعْرَاضِ وَالأَكْوَانِ وَالأَلْوَانِ

٣٧٠١- وَجَعَلْتُمُ أَوْصَافَهُ عَرَضًا وَهَـ ... ذَا كُلُّهُ جِسْرٌ إِلَى النُّكْرَانِ

٣٧٠٢- وَكَذَاكَ سَمَّيْتُمْ حُلُولَ حَوَادِثٍ ... أَفْعَالَهُ تَلْقِيبَ ذِي عُدْوَانِ

٣٧٠٣- إِذْ تَنْفِرُ الأَسْمَاعُ مِنْ ذَا اللَّفْظِ نُفْـ ... ـرَتَهَا مِنَ التَّشْبِيهِ وَالنُّقْصَانِ

٣٧٠٤- فَكَسَـوْتُمُ أَفْعَالَـهُ لَفْـظَ الـحَوَا   دِثِ ثُـمَّ قُلْـتُمْ قَـوْلَ ذِي بُطْـلانِ

٣٧٠٥- لَيْسَتْ تَقُومُ بِهِ الحَـوَادِثُ وَالـمُرَا   دُ النَّفْـيُ لِلأَفْعَـالِ لِلـدَّيَّانِ

٣٧٠٦- فَـإِذَا انْتَفَـتْ أَفْعَالُـهُ وَصِـفَاتُهُ   وَكَلامُـهُ وَعُلُـوُّ ذِي السُّـلْطَانِ

٣٧٠٧- فَبِـأَيِّ شَيْءٍ كَـانَ رَبًّـا عِنْـدَكُمْ   يَـا فِرْقَـةَ التَّحْقِيـقِ وَالعِرْفَـانِ

٣٧٠٨- وَالقَصْدُ نَفْيُ فِعَالِهِ عَنْـهُ بِـذَا التْـ   ـتَلْقِيبِ فِعْـلَ الشَّـاعِرِ الفَتَّـانِ

الشَّرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي بَيَانِ أَنَّ الْمُصِيبَةَ الَّتِي حَلَّتْ بِأَهْلِ التَّعْطِيلِ وَالْكُفْرَانِ مِنْ جِهَةِ الأَسْمَاءِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ»؛ يعني: أنَّ هذه المصيبةَ الَّتي حلَّت بهم أنَّهم أحدثوا أسماءً ما أنزل اللهُ بها من سلطانٍ، فصار هذا الإحداثُ مُوجبًا للتَّشكُّكِ والتَّشكيكِ والتَّلبيسِ، فالمؤلِّفُ الآن يريدُ أن يتكلَّمَ على أسماءٍ يُشَبِّهُ بها أهلُ التَّعطيلِ، يقولون: لو كان كذا لكان كذا، لو ثَبَتَتْ له الصِّفاتُ لكان محلًّا للحوادثِ، والصِّفاتُ عَرَضٌ، ولو قامت به الصِّفاتُ لكان جسمًا، وما أشبه ذلك.

يقولُ ابنُ القيِّم: هي اشتملت على أمرين: **الأوَّل**: حقٌّ، **والثَّاني**: أمرٌ واضحُ البُطلانِ، وأنتم أطلقتموها بدون تفصيلٍ، وهذا أصلُ البلاءِ، فلو أنَّكم فَصَّلتم لزال الإشكالُ؛ ولذا قال رحمه الله:

٣٦٩٢- يَا قَوْمُ أَصْـلُ بَلائِكُـمْ أَسْـمَاءُ لَـمْ   يُنْـزِلْ بِهَـا الـرَّحْمَنُ مِـنْ سُـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «أَسْمَاءُ» بلا تنوينٍ من أجل استقامةِ الوزنِ، أمَّا إذا لم يكن هناك ضرورةٌ فإنَّ الواجبَ التَّنوينُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النَّجم:٢٣]،

لكن تأتي «أسماءُ» غيرَ منوَّنةٍ إذا كانت الألفُ فيها للتَّأنيثِ مثل: «أسماء» اسم امرأة؛ ولهذا يغلطُ بعضُ النَّاسِ فيقولُ: «إِنَّ هؤلاءِ أسماءَ حَسَنَةً»، إذا قال ذلك صار المعنى يختلفُ اختلافًا عظيمًا، تكونُ «أسماءُ» هنا بمعنى امرأة.

فالحاصلُ أنَّ «أسماءً» جمعُ «اسمٍ»، منوَّنةٌ مصروفةٌ، لكن في كلام المؤلِّفِ هنا لا تُنَوَّنُ لإقامةِ الوزنِ.

٣٦٩٣- هِيَ عَكَّسَتْكُمْ غَايَةَ التَّعْكِيسِ وَاقْـ ... ـتَلَعَتْ دِيَارَكُمُ مِنَ الأَرْكَانِ

قَوْلُهُ: «عَكَّسَتْكُمْ»؛ يعني: جَعَلَتْ أمورَكم ترجعُ إلى الوراءِ؛ لأنَّ عكسَ الشَّيءِ ما يكونُ مقابلًا له على وجهِ الضِّدِّ.

٣٦٩٤- فتَهَدَّمَتْ تِلْكَ القُصُورُ وَأَوْحَشَتْ ... مِنْكُمْ رُبُوعُ العِلْمِ وَالإِيمَانِ

٣٦٩٥- وَالذَّنْبُ ذَنْبُكُمُ قَبِلْتُمْ لَفْظَهَا ... مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ وَلا فُرْقَانِ

يعني: سبب إنعكاسِكم وتهدُّمِ بنيانِكم أنتم بأنفسِكم؛ لأنَّكم قبلتم لفظَها بدون تفصيلٍ.

٣٦٩٦- وَهِيَ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى أَمْرَيْنِ مِنْ ... حَقٍّ وَأَمْرٍ وَاضِحِ البُطْلانِ

يعني: أنَّ هذه الألفاظَ التي أحدثتموها اشْتَمَلَتْ على أمرين: حقٍّ وباطلٍ، فأنتم قبلتموها على سبيلِ الإطلاقِ فدخل عليكم الباطلُ، أو نفيتموها على سبيلِ الإطلاقِ فنفيتم الحقَّ، واللَّفظُ إذا كان يحتملُ معنًى حقًّا ومعنى باطلًا فالواجبُ التَّفصيلُ.

٣٦٩٧- سَمَّيْتُمُ عَرْشَ المُهَيْمِنِ حَيِّزًا ... وَالإِسْتِوَاءَ تَحَيُّزًا بِمَكَانِ

هذا مثالٌ، يقولون: لو أنَّنا أَثْبَتْنَا أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- على العرشِ لكان

العرشُ حيِّزًا، يحوزُ الشَّيءَ كما يحوزُ الإناءُ الماءَ، وجعَلتُم اللهَ عزَّ وجلَّ إذا كان مستندًا عليه جعلتموه مُتَحَيِّزًا، وقلتم: إنَّ الحَيِّزَ والتَّحيُّزَ ممتنعٌ؛ لأنَّه على زعمِهم يقتضي التَّجسيمَ والتَّشبيهَ؛ ولهذا نَفَوُا الحَيِّزَ والتَّحيُّزَ، وهذا نفيٌ للفظٍ يحتملُ معنى حقًّا ومعنى باطلًا، فإذا أطلقوا نفيَه دَخَلَ فيه نفيُ الحقِّ.

والجوابُ أن نقولَ: أوَّلًا: كلمة «حيِّز» نفيًا أو إثباتًا لم تَرِدْ في الكتابِ ولا في السُّنَّةِ، وموقفُنا منها أن نتوقَّفَ، أمَّا من حيثُ المعنى فإن أردتم بالحَيِّزِ أنَّ اللهَ تحوزُه المخلوقاتُ فهذا باطلٌ، ونحن معكم على نفيِ هذا المعنى، وإن أردتم أنَّ اللهَ منحازٌ عن المخلوقاتِ فوق كُلِّ شيءٍ فإنَّنا لا نوافقُكم على نفيه، بل نقولُ: إنَّ اللهَ -جلَّ وعلا- منحازٌ عن مخلوقاتِه؛ لم يَحِلَّ فيها ولم تَحِلَّ فيه.

٣٦٩٨- وَجَعَلْتُمُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ العُلَى ... جِهَةً وَسُقْتُمْ نَفْيَ ذَا بِوِزَانِ

قلتم: إذا قلنا: إنَّ اللهَ فوقَ السَّماواتِ لَزِمَ أن يكونَ في جهةٍ، وإذا كان في جهةٍ فقد أَحَاطَتْ به الجهةُ، وهذا يستلزمُ أن يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ محاطًا به، إِذَنْ فننفي أن يكونَ فوقَ السَّماءِ؛ لأنَّ ذلكَ يستلزمُ الجهةَ.

وسبحان الله! هؤلاء الذين يقولون ذلك إمَّا أن يقولوا: إنَّ اللهَ تعالى ليس فوقَ العالَمِ ولا تحتَه ولا يمينه ولا يساره ولا مُتَّصلًا ولا مُنفَصلًا، فنقولُ: أنتم الآن نفَيْتم وجودَ الله، وإمَّا أن يقولوا: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، وحينئذٍ جعلوا اللهَ تعالى مَحُوزًا بالمخلوقاتِ، إذا كان في الحجرةِ صارت جدرانُ الحجرةِ محيطةً به، فأنتم فررتم من شيءٍ ووقعتم في أشدَّ منه.

والجوابُ عن هذا أن نقولَ: إن أردتم جهةً محيطةً بالله، فهذا ممنوعٌ بلا شكٍّ، ونوافقُكم على نفيه، وإن أردتم جهةً؛ أي: ما فوق العالمِ، فهذا لا نُوافقُكم على

نفيه، ونقولُ: إنَّ أَفْصَحَ الخلقِ وأعلمَهم بالله محمَّدًا رسولَ الله ﷺ قال للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟»، و«أَيْنَ» يُسْتَفْهَمُ بها عن المكانِ والجهةِ، وأقرَّها حين قالت: «فِي السَّمَاءِ»(١).

٣٦٩٩- وَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَشْبِيهًا وَتَجْـ ... ـسِيمًا وَهَـذَا غَايَـةُ البُهْتَانِ

قلتم: مَنْ أَثْبَتَ فقد شَبَّهَ؛ لأنَّ الإثباتَ يستلزمُ التَّجسيمَ، كيف؟ قالوا: الصِّفاتُ عَرَضٌ، والعَرَضُ لا يقومُ إلَّا بالجسمِ، والأجسامُ متماثلةٌ، فإذا أَثْبَتْنَا صفةً لَزِمَ إثباتُ جسمٍ، وإذا أَثْبَتْنَا جسمًا لَزِمَ التَّشبيهُ، فَنَفَوُا الصِّفاتِ من هذه الحيثيَّة.

إِذَنْ الذي غَرَّهم هنا إطلاقُ نفي الجسمِ، ولو أنَّهم فَصَّلُوا لاستقامت أمورُهم، ولكنَّهم أطلقوا النَّفيَ فأنكروا من أجلِ هذا الإطلاقِ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

٣٧٠٠- وَجَعَلْتُمُ المَوْصُوفَ جِسْمًا قَابِلَ الـ ... أَعْـرَاضِ وَالأَكْـوَانِ وَالأَلْـوَانِ

فهم جعلوا الموصوفَ -وهو اللهُ، عزَّ وجلَّ- جسمًا قابلَ الأعراضِ والأكوانِ والألوانِ.

٣٧٠١- وَجَعَلْـتُمُ أَوْصَـافَهُ عَرَضًـا وَهَـ ... ـذَا كُلُّـهُ جِسْـرٌ إِلَى النُّكْـرَانِ

قالوا: الصِّفاتُ أعراضٌ، والأعراضُ حوادثُ؛ لأنَّ العَرَضَ ما يَعْرِضُ ثُمَّ يزولُ، والحوادثُ لا تقومُ بالأزليِّ الأبديِّ، فالحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، وقد سَبَقَ بيانُ زَيْفِ هذه الحُجَّةِ، وأنَّها باطلةٌ، لكنَّهم يقولون هذا، ولهذا عندهم من أذكارِهم الشَّريفة: «سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّهَ عن الأعراضِ والأغراضِ والأبعاضِ»

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

«**الأعراض**»: الصِّفاتُ، و«**الأغراض**»: الحكمةُ، و«**الأبعاض**»: اليدُ والوجهُ والعينُ وما أشبهها، كُلُّ هذا من أجل أن ينفوا ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه من الصِّفاتِ الكاملةِ.

٣٧٠٢- وَكَذَاكَ سَمَّيْتُمْ حُلُولَ حَوَادِثٍ ... أَفْعَالَهُ تَلْقِيبَ ذِي عُدْوَانِ

يعني: جعلتم أفعالَ الله حلولَ حوادثٍ بالله، وقلتم: لا تَحِلُّ الحوادثُ إِلَّا بحادثٍ تمنعُ الأفعالَ.

٣٧٠٣- إِذْ تَنْفِرُ الأَسْمَاعُ مِنْ ذَا اللَّفْظِ نُفْـ ... ـرَتَهَا مِنَ التَّشْبِيهِ وَالنُّقْصَانِ

٣٧٠٤- فَكَسَوْتُمُ أَفْعَالَهُ لَفْظَ الحَوَا ... دِثِ ثُمَّ قُلْتُمْ قَوْلَ ذِي بُطْلَانِ

٣٧٠٥- لَيْسَتْ تَقُومُ بِهِ الحَوَادِثُ وَالمُرَا ... دُ النَّفْيُ لِلأَفْعَالِ لِلدَّيَّانِ

إِذَنْ نَفَوْا أفعالَ الله بِحُجَّةِ أَنَّ الأفعالَ حادثةٌ، ومن أفعالِ الله: الاستواءُ، النُّزولُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، الضَّحكُ، الفرحُ، العجبُ، وما أشبه ذلك، قالوا: هذه حوادثُ لا تقومُ إِلَّا بحادثٍ، واللهُ عزَّ وجلَّ أَزَلِيٌّ أبدِيٌّ ليس بحادثٍ، ولا يَفْنَى، ومعلومٌ أَنَّ العامِّيَّ إذا سَمِعَ هذا الكلامَ فإِنَّه يظنُّ أَنَّ هذا حقٌّ، ولكنَّهم لم يقولوا: هذه أفعالٌ، ومن كمالِ الذَّاتِ أن تقومَ بها الأفعالُ، وهذا هو الحقُّ، هي أفعالٌ وليست حوادثَ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

٣٧٠٦- فَإِذَا انْتَفَتْ أَفْعَالُهُ وَصِفَاتُهُ ... وَكَلَامُهُ وَعُلُوُّ ذِي السُّلْطَانِ

٣٧٠٧- فَبِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ رَبًّا عِنْدَكُمْ ... يَا فِرْقَةَ التَّحْقِيقِ وَالعِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «**يَا فِرْقَةَ التَّحْقِيقِ وَالعِرْفَانِ**» هل هذا على وجهِ الحقيقة؟ الجوابُ: على وجهِ السُّخريَّةِ والاستهزاءِ بهم، وهم أهلٌ لأن يُسْخَرَ بهم ويُسْتَهْزَأَ بهم.

نَفَوُا الأفعالَ بحُجَّةِ أنَّها حوادثُ، والحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، نَفَوُا الصِّفاتِ بِحُجَّةِ أنَّها أعراضٌ، والأعراضُ لا تقومُ إلَّا بأجسامٍ، والأجسامُ متماثلةٌ، نَفَوُا الفوقيَّةَ فقالوا: لأنَّ هذا يستلزمُ أن يكونَ اللهُ في جهةٍ، والجهةُ تحيطُ بما فيها، فيجبُ نفيُ العلوِّ، نَفَوْا الاستواءَ على العرشِ، قالوا: لأنَّ العرشَ حَيِّزٌ؛ أي: مكانٌ يَحوزُ مَنْ فيه، فإذا أَثْبَتْنَا استواءَه على العرشِ لَزِمَ أن يكونَ اللهُ متحيِّزًا فيجب نفيُ استواءِ الله على العرشِ.

وسبق أنَّهم نَفَوُا الكلامَ، فإذا نَفَوْا أفعالَه وصفاتِه وكلامَه وعلوَّه فماذا يبقى؟!

٣٧٠٨- وَالقَصْدُ نَفْيُ فِعَالِهِ عَنْهُ بِذَا التْـ ـتَلْقِيبِ فِعْلَ الشَّاعِرِ الفَتَّانِ

هذا القصدُ، القصدُ أنَّكم تنفون أفعالَه بهذا التَّلقيبِ، وهو أنَّ الحوادثَ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، ومعلومٌ أنَّنا إذا نَفَيْنَا أن يكونَ عزَّ وجلَّ فاعلًا لَزِمَ أن يكونَ أشلَّ لا يفعلُ، والشَّللُ نقصٌ، فهم فرُّوا بزَعمِهم عن إثباتِ النَّقصِ ووقعوا في نقصٍ أَشدَّ، كما أنَّهم إذا نَفَوُا الكلامَ لَزِمَ أن يكونَ أخرسَ، والخَرَسُ نقصٌ، والذين أثبتوا الكلامَ لكنَّهم جعلوه كلامًا نفسيًّا لا كلامًا حقيقةً بحرفٍ وصوتٍ قد سَبَقَ أنَّ ابنَ القيِّمِ -رحمه الله- ذَكَرَ أنَّ شيخَ الإسلام رَدَّ عليهم من تسعين وجهًا في كتابٍ سمَّاه: «التِّسعينيَّة».

* * *

٣٧٠٩- وَكَــذَاكَ حِكْمَــةَ رَبِّنَــا سَــمَّيْتُمُ عِلَــلًا وَأَغْرَاضًــا وَذَانِ اسْــمَانِ

٣٧١٠- لا يُشْـعِرَانِ بِمِدْحَـةٍ بَـلْ ضِـدِّهَا فَيَهُــونُ حِينَئِــذٍ عَــلَى الأَذْهَــانِ

٣٧١١- نَفْيُ الصِّفَاتِ وَحِكْمَةِ الخَلَّاقِ وَالــ أَفْعَــالِ إِنْكَــارًا لِــهَذَا الشَّــانِ

٣٧١٢- وَكَذَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ العَرْشِ قُلْـ ـــتُمْ إِنَّــهُ التَّرْكِيــبُ ذُو بُطْــلانِ

٣٧١٣- وَكَذَاكَ وَجْـهُ الـرَّبِّ جَـلَّ جَلالُـهُ وَكَــذَاكَ لَفْـظُ يَـدٍ وَلَفْـظُ يَـدَانِ

٣٧١٤- سَــمَّيْتُمُ ذَا كُلَّــهُ الأَعْضَــاءَ بَـلْ سَــمَّيْتُمُوهُ جَــوَارِحَ الإِنْسَــانِ

٣٧١٥- وَسَـطَوْتُمُ بِـالنَّفْيِ حِينَئِـذٍ عَلَيْــ ــهِ كَنَفْيِنَـا لِلعَيْـبِ مَـعْ نُقْصَـانِ

٣٧١٦- قُلْتُمْ نُنَزِّهُـهُ عَـنِ الأَعْـرَاضِ وَالْـ أَغْـرَاضِ وَالأَبْعَـاضِ وَالــجُثْمَانِ

٣٧١٧- وَعَـنِ الــحَوَادِثِ أَنْ تَحُـلَّ بِذَاتِـهِ سُـبْحَانَهُ مِـنْ طَـارِقِ الــحَدَثَانِ

٣٧١٨- وَالقَصْــدُ نَفْــيُ صِــفَاتِهِ وَفِعَالِـهِ وَالإِسْــتِوَاءِ وَحِكْمَــةِ الــرَّحْمَنِ

٣٧١٩- وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ بِسِجْنِ اللَّفْـظِ مَحْـ ــبُوسُونَ خَـوْفَ مَعَـرَّةِ السَّـجَّانِ

٣٧٢٠- وَالكُــلُّ إِلَّا الفَــرْدَ يَقْبَــلُ مَــذْهَبًا فِي قَالَــــبٍ وَيَــــرُدُّهُ فِي ثَــــانِي

٣٧٢١- وَالقَصْدُ أَنَّ الذَّاتَ وَالأَوْصَافَ وَالــ أَفْعَــالَ لا تُنْفَــى بِــذَا الــهَذَيَانِ

٣٧٢٢- سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الـ أَسْــمَاءِ بَــلْ فِي مَقْصِــدٍ وَمَعَــانِي

٣٧٢٣- كَمْ ذَا تَوَسَّلْتُمْ بِلَفْظِ الجِسْمِ وَالتَّــ ــتَجْسِيمِ لِلتَّعْطِيــلِ وَالكُفْــرَانِ

٣٧٢٤- وَجَعَلْتُمُوهُ الـتُّرْسَ إِنْ قُلْنَـا لَكُـمْ اللهُ فَــوْقَ العَــرْشِ وَالأَكْــوَانِ

٣٧٢٥- قُلْتُمْ لَنَا جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ تَعَا لَى اللهُ عَنْ جِسْمٍ وَعَنْ جُثْمَانِ

الشرحُ

٣٧٠٩- وَكَذَاكَ حِكْمَةَ رَبِّنَا سَمَّيْتُمُ عِلَلًا وَأَغْرَاضًا وَذَانِ اسْمَانِ

٣٧١٠- لا يُشْعِرَانِ بِمِدْحَةٍ بَلْ ضِدِّهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى الأَذْهَانِ

٣٧١١- نَفْيُ الصِّفَاتِ وَحِكْمَةِ الخَلَّاقِ وَالـ أَفْعَالِ إِنْكَارًا لِـهَذَا الشَّانِ

قَوْلُهُ: «**لَا يُشْعِرَانِ**» الضَّميرُ يعودُ على العللِ والأغراضِ.

قَوْلُهُ: «**نَفْيُ الصِّفَاتِ وَحِكْمَةِ الخَلَّاقِ وَالأَفْعَالِ**»؛ أي: ونفيُ الأفعالِ.

قَوْلُهُ: «**إِنْكَارًا لِـهَذَا الشَّانِ**»؛ أي: لهذا اللَّفظِ الذي أحدثوه يُنَفِّرون النَّاسَ عن إثباتِ هذا المعنى لله عزَّ وجلَّ.

سبحان الله! أيضًا نَفَوُا الحكمةَ، وإذا انتفت حِكمةُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ لَزِمَ أن تكونَ أفعالُه كُلُّها لَعِبًا وسُدًى؛ لأنَّ مَنْ لا حكمةَ له لو أصاب الحكمةَ فقد أصابها عن غير قصدٍ، وإِلَّا فالأصلُ أنَّ أفعالَه كُلَّها سفهٌ، لكن لماذا نَفَوُا الحكمةَ؟ قالوا: لو أَثْبَتْنَا الحكمةَ لَزِمَ أن تكونَ إرادةُ الله متعلِّقةً بالأغراضِ؛ يعني: أنَّ له غرضًا، واللهُ عزَّ وجلَّ ليس له غرضٌ، وليس يفعلُ لعلَّةٍ، إِذَنْ أفعالُه لا حكمةَ لها، فهو ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [النَّحل:٩٣] لغيرِ حكمةٍ، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النَّحل:٩٣] لغيرِ حكمةٍ، يوجبُ أشياءَ لغيرِ حكمةٍ، يُحَرِّمُ أشياءَ لغيرِ حكمةٍ، فليس له حكمةٌ إطلاقًا؛ لأنَّ الحكمةَ غرضٌ، أنت عندما تفعلُ شيئًا لشيءٍ معناه أنَّك فَعَلْتَ هذا لهذا، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن الأغراضِ، ولذا فمن سجعِهم في الثَّناءِ على الله: «**سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّهَ**

عن **الأعراضِ والأغراضِ والأبعاضِ**»، وهذا سجعٌ له رنينٌ في الأذن، لكنَّه يخرقُ الأذنَ فيفسد الدِّماغَ، فقولهُم: «**مَنْ تَنَزَّهَ عن الأعراضِ**»؛ يعني به: نفيَ الحكمةِ، و«**الأغراض**»: الصِّفات، و «**الأبعاض**»: اليد، والوجه، والعين، وما أشبه ذلك.

فَيُقَالُ لهم إن كانوا ممَّن يثبتون الإرادةَ: والإرادةُ أيضًا إنَّما تكونُ من أجلِ أن ينالَ بها المُريدُ ما يقصدُه، فالحكمةُ التي لا يكونُ فعلٌ من أفعالِ الله تعالى إلَّا مقرونًا بها ليست غَرَضًا يعودُ نفعُه إلى الله، بل هي حكمةٌ يعودُ نفعُها إلى المخلوقِ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فإنَّه غَنِيٌّ عنها، لا يحتاجُ إليها، قال اللهُ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمر:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]، لكن الحكمة التي تقتضي أفعالَ الله عزَّ وجلَّ هي حكمةٌ تتعلَّقُ بمصالحِ المخلوقِ ودفعِ الضَّررِ عنه، وليست غرضًا ينتفعُ به الفاعلُ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، إذَنْ إن أردتم بالأغراضِ الأغراضَ التي يحتاجُها فهذا باطلٌ وليس مُرادًا، وإن أردتم بالأغراضِ مصلحةَ العبادِ فهذا حقٌّ، وسمُّوه ما شئتم.

إذَنْ هم سَمَّوُا الحكمةَ عِلَّةً وغرضًا من أجلِ تنفيرِ النَّاسِ عن إثباتِ الحكمةِ، وسبحان الله أن يُسَمُّوا الحكمةَ اللَّذيذةَ على السَّمعِ السَّلِسةَ على اللِّسانِ يُسمُّونها عِلَّةً ويسمُّونها غَرَضًا؛ من أجلِ أن يُنَفِّروا النَّاسَ عن قَبولِها، نسألُ اللهَ العافيةَ، فهم جَنَوْا على أنفسِهم وجَنَوْا على غيرِهم.

٣٧١٢- وَكَذَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ العَرْشِ قُلْـ ـــتُمْ إِنَّــهُ التَّرْكِيــبُ ذُو بُطْــلانِ

استواءُ الله على العرشِ قالوا: إنَّه من التَّركيبِ «تركيب جوار» على زعمِهم كما سبق في أقسامِ التَّركيبِ، وليس تركيبَ اختلاطٍ، ونحن نقولُ: أين التَّركيبُ؟ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ مُسْتَغْنٍ عن العرشِ وعن غيرِه، والعرشُ قَائِمٌ بالله، فلولا اللهُ ما قام

العرشُ، فأين التَّركيبُ الذي يفتقرُ فيه الجارُ إلى جارِه؟ اللهُ عزَّ وجلَّ غنيٌّ عن العرشِ وعن غيرِه، لكنَّهم يقولون: هذا أيضًا من العللِ التي نَفَوْا بها الاستواءَ أنَّه يلزمُ منه التَّركيبُ، وهذا لا شكَّ أنَّه معنًى باطلٌ؛ لأنَّ التَّركيبَ هنا غيرُ واردٍ إطلاقًا.

٣٧١٣- وَكَذَاكَ وَجْهُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَكَذَاكَ لَفْظُ يَدٍ وَلَفْظُ يَدَانِ

٣٧١٤- سَمَّيْتُمُ ذَا كُلَّهُ الأَعْضَاءَ بَلْ سَمَّيْتُمُوهُ جَوَارِحَ الإِنْسَانِ

قالوا: إذا قلنا: إنَّ لله وجهًا، وإنَّ له يدًا أو يَدَيْنِ، لَزِمَ أن نُثْبِتَ له أبعاضًا وأعضاءً، واللهُ مُنَزَّهٌ عن ذلك، أو يُسمُّونه جوارحَ، فيقولون: «**اليدُ جارحةٌ كجارحةِ الإنسانِ**»، واليدُ جارحةٌ للإنسانِ؛ أي: كاسبةٌ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة:٤]؛ أي: من الكواسبِ، فجعلتم يدَ الله كيدِ المخلوقِ، ولو أنَّهم سَلِمُوا من التَّشبيهِ لعلموا أنَّ لله يدًا ليست كأيدي المخلوقِ.

إذا قالوا: إنَّ اليدَ عضوٌ، أو إنَّ اليدَ بعضُ الكُلِّ، وما أشبه ذلك، فماذا نقولُ؟ نقولُ: نحن نُثْبِتُ لله ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه من اليدِ، ولا نقولُ: إنَّها بعضُ الله، ولا عضوُ الله وإن كان نظيرُ مسمَّاها بالنِّسبة إلينا بعضًا وعضوًا، لكن بالنِّسبة لله لا نقولُ: بعضٌ، ولا نقولُ: عضوٌ، بل نقولُ: يدُ الله، وهي حقٌّ على حقيقتِها، ونحن إذا لَزِمْنَا الأدبَ مع الله ومع رسولِه ﷺ وأَثْبَتْنَا ما أَثْبَتَهُ اللهُ بدون أن نزيدَ سَلِمْنَا من هذه التَّقديراتِ.

ولعلَّ سائلًا يسأل فيقولُ: جاء في القرآنِ الكريمِ لفظُ «**يد**»، و«**يدان**»، و«**أيد**»، فلفظُ: «**يد**» كما في قولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، ولفظُ «**يدان**» كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، ولفظُ «**أيدٍ**» كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس:٧١]، وليس من ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ

بَنَيْنَهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذَّاريات:٤٧]، فإنَّه يَحْرُمُ أن نُفَسِّرَها بأنَّها يدُ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ لم يُضِفْهَا لنفسِه، فلم يقل: «بأيدينا»، وأنت إذا أَضَفْتَهَا إلى الله فقد افْتَرَيْتَ على الله كذبًا، إِذَنْ المرادُ بقولِه: ﴿بَنَيْنَهَا بِأَيْيْدٍ﴾؛ أي: بقوَّةٍ، فهي مصدر من «آدَ يَئِيدُ» كقولِهِم: «بَاعَ يَبِيعُ»، و«نَالَ يَنَالُ نَيْلًا»، وما أشبه ذلك من المصادرِ، فهي مصدرٌ، وليست تُعَبِّرُ عن يدِ الله سبحانه وتعالى.

فإذا قال قائلٌ: كيف نجمعُ بين المثنَّى والجمعِ والمفردِ؟

نقولُ: الحمدُ لله، ليس هناك تناقضٌ، فالجمعُ للتَّعظيمِ، والمفردُ المضافُ للعمومِ، والمثنَّى هو الواقعُ أنَّ اللهَ له يدان اثنتان لا تُشْبِهَانِ أيدي المخلوقين.

٣٧١٥- وَسَطَوْتُمُ بِالنَّفْيِ حِينَئِذٍ عَلَيْـــهِ كَنَفْيِنَا لِلعَيْبِ مَعْ نُقْصَانِ

معناه: أنَّكم نفيتم نفيًا قاطعًا لهذه الصِّفاتِ كما ننفي العيبَ والنُّقصانَ.

٣٧١٦- قُلْتُمْ نُنَزِّهُهُ عَنِ الأَعْرَاضِ وَالْـــأَغْرَاضِ وَالأَبْعَاضِ وَالجُثْمَانِ

٣٧١٧- وَعَنِ الحَوَادِثِ أَنْ تَحُلَّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ طَارِقِ الحَدَثَانِ

يقولون: «**نُنَزِّهُهُ عَنِ الأَعْرَاضِ وَالأَغْرَاضِ وَالأَبْعَاضِ وَالجُثْمَانِ**»؛ يعني: الجسمَ، «**وَعَنِ الحَوَادِثِ أَنْ تَحِلَّ بِذَاتِهِ**» يريدون بذلك نفيَ الأفعالِ.

قَوْلُهُ: «**سُبْحَانَهُ**»؛ يعني: تنزيهًا له «**مِنْ طَارِقِ الحِدْثَانِ**»؛ يعني: سبحانه أن يطرقَه شيءٌ حادثٌ!

وكُلُّ هذا -والعياذُ بالله- يُقصَدُ به نفيُ ما جاء في الكتابِ والسُّنَّةِ من صفاتِ الله؛ ولهذا قال:

٣٧١٨- وَالقَصْدُ نَفْيُ صِفَاتِهِ وَفِعَالِهِ وَالإِسْتِوَاءِ وَحِكْمَةِ الرَّحْمَنِ

والذي يسمعُ قولَهم هذا: «**نُنَزِّهُه عن الأَعْرَاضِ وَالأَغْرَاضِ وَالأَبْعَاضِ**» يغترُّ بهذا، ويظنُّ أنَّه حقٌّ، وابنُ القيِّمِ يقولُ: قصدُكم بهذا نفيُ أربعةِ أشياء: نفيُ الصِّفاتِ، والأفعالِ، والاستواءِ، وحكمةِ الرَّحمنِ، ثمَّ قال قولًا ينبغي لنا أن نفهمَه جيِّدًا قال:

٣٧١٩- وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ بِسِجْنِ اللَّفْظِ مَحْـ ... ـبُوسُونَ خَوْفَ مَعَرَّةِ السَّجَّانِ

وهذا صحيحٌ، فبعضُ النَّاسِ بل أكثرُهم يعتمدُ على اللَّفظِ فيغترُّ به إثباتًا أو نفيًا، فتجدُه محبوسًا بسجنِ اللَّفظِ، لا ينظرُ للمعنى، ولا ينظرُ للهدفِ، ولا ينظرُ للمقصودِ، بل ينظرُ لظاهرِ اللَّفظِ، وذلك خَوْفَ مَعَرَّةِ السَّجَّانِ؛ أي: خوفًا من أن يُخَالِفَ فَيُسْجَن سجنًا جسديًّا، لكنَّه في الحقيقةِ مسجونٌ سجنًا ذهنيًّا وعقليًّا.

٣٧٢٠- وَالكُلُّ إِلَّا الفَرْدَ يَقْبَلُ مَذْهَبًا ... فِي قَالَبٍ وَيَرُدُّهُ فِي ثَانِي

الله أكبر؛ صحيحٌ، الذين يعتمدون على مجرَّدِ اللَّفظِ إذا أَتَيْتَهُ بالمعنى في لفظٍ ثُمَّ أَتَيْتَ به في لفظٍ ثانٍ قَبِلَه في اللَّفظِ الأوَّلِ ورَدَّه في اللَّفظِ الثَّاني، مع أنَّ المعنى واحدٌ لكن؛ لأنَّه لفظيٌّ لا يعرفُ المعنى ولا يُدْرِكُه يعتمدُ على مجرَّدِ اللَّفظِ، فإذا قلتَ مثلًا: «**إِنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن الأَبْعَاضِ**» يقولُ: سُبْحَانَهُ! ويُسَبِّحُ اللهَ، ويُقدِّسُ اللهَ، ويقولَ: سبحانَ مَنْ لا بعضَ له! لكن لو قلت: «**إِنَّ اللهَ لَيْسَتْ لَهُ يدٌ**» قال: أعوذُ باللهِ، تُنْكِرُ يدَ الله وقد أَثْبَتَهَا اللهُ لنفسِه، مع أنَّ المعنى واحدٌ، لكنَّ اللَّفظَ مختلفٌ، لكن في القَالبِ الأوَّل قَبِلَهَا.

وإذا قيل له: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يحتاجُ إلى أحدٍ، فهو مُنَزَّهٌ عن الأغراضِ، يقول: هذا صحيحٌ، وإذا قيل له: إنَّ اللهَ يفعلُ الشَّيءَ لا لحكمةٍ بل يفعلُه سَفَهًا وعَبَثًا،

فيقول: هذا غيرُ صحيحٍ، مع أنَّ المعنى واحدٌ، لكنَّه لا يُقَدِّسُ إلَّا اللَّفظَ فقط.

وهذا يقعُ كثيرًا، وما أكثرَه عند أهلِ الحِيَلِ! أهلُ الحِيَلِ -وما أدراك ما الحِيَلُ- تجدُ الإنسانَ يصوغُ الشَّيءَ في قَالَبٍ هو معنى الشَّيءِ الممنوعِ، مثل: حيل النَّاسِ على الرِّبا وغيره، إذا نَظَرْتَ إلى ظاهرِ الفعلِ قلت: صحيحٌ ولا شيءَ فيه، لكن معناهُ والمرادُ منه فاسدٌ، كُلُّه سوءٌ، هكذا الألفاظُ أيضًا يتلاعبُ بها بعضُ النَّاسِ حتَّى يُغْرِيَ الآخرين.

٣٧٢١- وَالقَصْدُ أَنَّ الذَّاتَ وَالأَوْصَافَ وَالـ ... أَفْعَالَ لا تُنْفَى بِذَا الهَذَيَانِ

وصدَق رحمه اللهُ؛ يعني: ذاتُ الله وصفاتُه وأفعالُه لا تُنْفَى بمثلِ هذا الهذيان، ولا يمكنُ أن ينطليَ هذا الهذيانُ إلَّا على شخصٍ ليس له عقلٌ وتفكيرٌ.

٣٧٢٢- سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الـ ... أَسْمَاءِ بَلْ فِي مَقْصِدٍ وَمَعَانِي

الأسماءُ لا تُغيِّرُ الحقائقَ؛ ولهذا أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّه يَأْتِي أناسٌ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا[1]، فأكثرُ النَّاسِ محبوسون على اللَّفظ، فالآن عند الكُفَّارِ والفُسَّاقِ والفُجَّارِ يسمُّون الخَمرَ الشَّرابَ الرُّوحيَّ، ولكنَّه الشَّرابُ الجُنونيُّ في الواقعِ؛ لأنَّه يجعلُ الإنسانَ في جنونٍ، بل أخبث.

٣٧٢٣- كَمْ ذَا تَوَسَّلْتُمْ بِلَفْظِ الجِسْمِ وَالتَّـ ... ـجْسِيمِ لِلتَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

يعني: جعَلتُم لفظَ الجسمِ إثباتًا أو نفيًا، ولفظَ التَّجسيمِ إثباتًا أو نفيًا جعلتموه وسيلةً للتَّعطيلِ والكفرانِ، والفَرْقُ بين «**الجسمِ**» و«**التَّجسيمِ**» الفَرْقُ بينهما ظاهرٌ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الداذي، رقم (٣٦٨٩)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب منزلة الخمر، رقم (٥٦٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم (٤٠٢٠). والإمام أحمد (٤/ ٢٣٧، رقم ١٨٠٩٨).

فالجسمُ منفصلٌ عن المتكلِّمِ، والتَّجسيمُ قولُ المتكلِّمِ بأن يقولَ بلسانِه و يعتقدَ بقلبِه الجسمَ.

٣٧٢٤- وَجَعَلْتُمُوهُ التُّرْسَ إِنْ قُلْنَا لَكُمْ   اللهُ فَوْقَ العَرْشِ وَالأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «جَعَلْتُمُوهُ»؛ يعني: الجسمَ والتَّجسيمَ.

قَوْلُهُ: «التُّرْسَ»؛ يعني: الوقاية التي يَتَوقَّى بها الإنسانُ عند القتالِ، وهو شيءٌ من جلدٍ قويٍّ يُصْنَعُ على مثل صاج الخبز يُمْسِكُه الفارسُ أو المقاتِلُ بيدِه اليسرى ويجعلُ السَّيفَ والرُّمحَ في يدِه اليمنى، فإذا رأى أحدًا قد كَرَّ عليه قال بيدِه هكذا، يتَّقي به السِّهامَ.

هم جعلوا التُّرسَ مثل هذه الألفاظِ، إذا قلنا: «إنَّ اللهَ فوقَ العرشِ»، قالوا: هذا جسمٌ، لا يجوزُ.

٣٧٢٥- قُلْتُمْ لَنَا جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ تَعَا   لَى اللهُ عَنْ جِسْمٍ وَعَنْ جُثْمَانِ

قَوْلُهُ: «قُلْتُمْ»: القائلُ هم المعطِّلةُ المنكرون للاستواءِ.

قَوْلُهُ: «جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ تَعَالَى اللهُ عِنْ جِسْمٍ وَعَنْ جُثْمَانِ» ما أعظمَ هذه الكلمةَ! لاسيَّما إذا صَرَخَ بها عند العامَّةِ، فهذا رجلٌ من أهلِ السُّنَّةِ جاء يُقَرِّرُ قائلًا: «إنَّ اللهَ استوى على العرشِ استواءً يليقُ بجلالِه»، وعنده رجلٌ معطِّلٌ قال: أعوذُ باللهِ، تقول: إنَّ اللهَ مستوٍ على العرشِ، قال: نعم، قال: أعوذُ باللهِ! «جسمٌ على جسمٍ» تعالى اللهُ، يَرفعُ صوتَه جدًّا، ماذا يقولُ العامَّةُ؟ العامَّةُ يصيحون مثلما صاح، ويَضربون بأيديهم على رؤوسِهم، يقولون: كيف يقولُ: «إنَّ اللهَ جسمٌ على جسمٍ؟»، مع أنَّ «جسمٌ على جسمٍ» يقابلُها في المعنى الصَّحيحِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى

ﭐلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، لكن هو قال: «جسمٌ على جسمٍ» من أجل تنفيرِ العامَّةِ، أمَّا لو قال: «إنَّ اللهَ استوى على العرشِ» لقال العامَّةُ كُلُّهم: صَدَقْتَ.

يعني: إذا قُلنا: «إنَّ اللهَ فوقَ العرشِ» قالوا: جسمٌ على جسمٍ! وقولُهم: «على جسمٍ» هذا صحيحٌ؛ لأنَّ العرشَ جسمٌ بلا شكٍّ، جسمٌ هو اللهُ، نحن قلنا: إنَّنا لا نقولُ: إنَّ اللهَ جسمٌ، ولا إنَّه ليس بجسمٍ حتَّى نستفصلَ عن المعنى، ماذا تريدُ بأنَّ اللهَ جسمٌ؟ إذا قال: أريدُ أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- جسمٌ كالأجسامِ، نقولُ: هو بهذا المعنى باطلٌ، لا نقولُ بأنَّ اللهَ جسمٌ، وإذا قال: أريدُ أنَّ اللهَ جسمٌ؛ أي: له ذاتٌ متميِّزةٌ عن غيرِها، بَائِنةٌ متَّصفةٌ بالصِّفاتِ اللَّائقةِ بها، قلنا: هذا حقٌّ.

***

٣٧٢٦- وَكَـذَاكَ إِنْ قُلْنَـا القُـرَانُ كَلامُـهُ ... مِنْـهُ بَـدَا لَـمْ يَبْـدُ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٧٢٧- كَـلَّا وَلَا مَلَـكٌ وَلَا لَـوْحٌ وَلَـ ... ـكِنْ قَالَـهُ الـرَّحْمَنُ قَـوْلَ بَيَـانِ

٣٧٢٨- قُلْـتُمْ لَنَـا إِنَّ الكَـلامَ قِيَامُـهُ ... بِالجِسْـمِ أَيْضًـا وَهْـوَ ذُو حَـدَثَانِ

٣٧٢٩- عَرَضٌ يَقُومُ بِغَيْرِ جِسْمٍ لَـمْ يَكُـنْ ... هَـذَا بِمَعْقُـولٍ لِـذِي الأَذْهَـانِ

٣٧٣٠- وَكَـذَاكَ حِـينَ نَقُـولُ يَنْـزِلُ رَبُّنَـا ... فِي ثُلْـثِ لَيْـلٍ آخِـرٍ أَوْ ثَـانِي

٣٧٣١- قُلْـتُمْ لَنَـا إِنَّ النُّـزُولَ لِغَـيْرِ أَجْـ ... ـسَامٍ مُحَـالٌ لَـيْسَ ذَا إِمْكَـانِ

٣٧٣٢- وَكَـذَاكَ إِنْ قُلْنَـا يُـرَى سُـبْحَانَهُ ... قُلْـتُمْ أَجِسْـمٌ كَـيْ يُـرَى بِعِيَـانِ

٣٧٣٣- أَمْ كَـانَ ذَا جِهَـةٍ تَعَـالَى رَبُّنَـا ... عَـنْ ذَا فَلَـيْسَ يَـرَاهُ مِـنْ إِنْسَـانِ

الشــرحُ

٣٧٢٦- وَكَـذَاكَ إِنْ قُلْنَـا القُـرَانُ كَلامُـهُ مِنْـهُ بَـدَا لَـمْ يَبْـدُ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٧٢٧- كَـلَّا وَلَا مَلَـكٌ وَلَا لَـوْحٌ وَلَـ ـكِنْ قَالَـهُ الـرَّحْمَنُ قَـوْلَ بَيَـانِ

إذا قلنا: إنَّ القرآنَ كلامُه، منه بدَا لم يَبْدُ من إنسانٍ، خِلافًا لِـمَنْ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدَّثِّر:٢٥]، فقوله: «لَـمْ يَبْدُ مِنْ إِنْسَانِ» كالنَّبيِّ ﷺ، وكما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النَّحل:١٠٣]، «وَلَـمْ يَبْدُ مِنْ مَلَكٍ» خلافًا لِـمَنْ قال: إنَّ جبريلَ هو الذي تكلَّم به ولم يتكلَّمْ به اللهُ، «وَلَا لَوْحٍ» خلافًا لِـمَنْ قال: إنَّ اللهَ خلق حروفًا في اللَّوحِ المحفوظِ، فأخذها جبريلُ من اللَّوحِ.

نحن نقولُ: القرآنُ تَكَلَّمَ اللهُ به حقيقةً، وسَمِعَه جبريلُ، ونَزَلَ به على قلبِ النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام- فوعاه، وقد التزم اللهُ -سبحانه وتعالى- أن يُبَيِّنَ ما قرأه جبريلُ على النَّبيِّ ﷺ فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٧]، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا قَرَأَ عليه جِبْرِيلُ القرآنَ يتعجَّلُ لئلَّا يَنْسَى[1]، فقال اللهُ له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾؛ يعني: لن يتفرَّقَ عليك ولن تنساه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ [القيامة:١٨]؛ يعني: قرأه جبريلُ عليه السَّلامُ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]؛ يعني: بعد ما ينتهي، ثُمَّ تَكَفَّلَ اللهُ به فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٩]، لكنَّهم يقولون: اللهُ لا يتكلَّمُ.

فإن قال قائلٌ: أليس اللهُ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠] في مَوْضِعَيْنِ من كتابِه؟ فالجوابُ: بلى، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة، رقم (٤٤٨).

بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١]، فالرَّسولُ الكريمُ في هذه الآيةِ محمَّدٌ ﷺ، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠] وهذا جبريلُ، فهل يُعْقَلُ أنَّ كلامًا واحدًا يُنْسَبُ لمتكلِّمَيْنِ؟! الجوابُ: لا؛ إِذَنْ ليس كلامًا لهذا، ولا كلامًا لهذا، ولكنَّه كلامُ الله عزَّ وجلَّ، وإنَّما أُضِيفَ إلى الرَّسُولَيْنِ؛ لأنَّهما بلَّغاه، وإلَّا فإنَّ الكلامَ يُضَافُ إلى مَنْ قاله أوَّلًا.

٣٧٢٨- قُلْتُمْ لَنَا إِنَّ الكَلامَ قِيَامُهُ ... بِالجِسْمِ أَيْضًا وَهْوَ ذُو حَدَثَانِ

قَوْلُهُ: «قُلْتُمْ لَنَا إِنَّ الكَلَامَ قِيَامُهُ بِالجِسْمِ أَيْضًا»، فإذا أَثْبَتَّ أنَّ اللهَ يتكلَّمُ فقد أَثْبَتَّ أنَّه جسمٌ، والجسمُ عندهم ممنوعٌ، فيتمنعُ على هذا الكلامُ، ثُمَّ يقولون أيضًا: والكلامُ «ذُو حَدْثَانِ»، وهذا لا يقولُه الأشاعرةُ؛ لأنَّ الأشاعرةَ عندهم أنَّ الكلامَ هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، لكن يقولُه الجهميَّةُ والمعتزلةُ ومَنْ شَابَهَهُم، يقولون: إنَّ القرآنَ حادثٌ، فيقولون: إِذَنْ وَصَفْتُم اللهَ تعالى بأنَّه تقومُ به الحوادثُ -إذا أثبتم الكلامَ- ونحن لا نقولُ به.

٣٧٢٩- عَرَضٌ يَقُومُ بِغَيْرِ جِسْمٍ لَمْ يَكُنْ ... هَذَا بِمَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ

يعني: هم يقولون: إنَّ الكلامَ عَرَضٌ، ولا يمكنُ أن يقومَ عَرَضٌ بغير جسمٍ، من أجل أن ينكروا أن يكونَ اللهُ جسمًا حتَّى يتوصَّلوا به بذلك إلى إنكارِ الصِّفاتِ.

فانظر كيف كان عاقبةُ هؤلاء الذين يُؤَصِّلون قواعدَ يَرَوْنَها عقليَّةً وهي وهميَّةٌ، كيف أدَّى بهم هذا إلى إنكارِ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه؟! نسألُ اللهَ لنا ولكم الثَّباتَ.

٣٧٣٠- وَكَذَاكَ حِينَ نَقُولُ يَنْزِلُ رَبُّنَا ... فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِي

أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يقولون: إنَّ اللهَ ينزلُ نفسُه إلى السَّماءِ الدُّنيا في ثلثِ

اللَّيل الآخِر أو ثلُثِ اللَّيل الأوسط؛ ولهذا قال: «ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِي»، وقوله: «فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ»؛ يعني: الثَّلث الأخير، «أَوْ ثَانِي»؛ يعني: الثُّلث الأوسط؛ لأنَّه في بعض الأحاديث أنَّه يَنْزِلُ حين يبقى نصفُ الليلِ[1].

٣٧٣١- قُلْتُمْ لَنَا إِنَّ النُّزُولَ لِغَيْرِ أَجْـ ـسَامٍ مُحَالٌ لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

يعني: فإذا أثبتُّم النّزولَ أَثْبَتُّم أنَّه جسمٌ، والجسمُ عندهم ممنوعٌ؛ لأنَّ الأجسامَ متماثلةٌ.

ذكر المؤلِّفُ عدَّةَ صفاتٍ منها: النُّزولُ إلى السَّماءِ الدُّنيا وهذا ثَبَتَ في الصَّحيحين وغيرِهما من حديث أبي هريرة وغيرِه أنَّه ينزلُ عزَّ وجلَّ هو نفسُه إلى السَّماءِ الدُّنيا[2].

واعلم أنَّ القاعدةَ المستقرَّةَ أنَّ كُلَّ شيءٍ يُضَافُ إلى الله فهو يعني: نفسَه، هذا الأصلُ، كما قَرَّرَ ذلك ابنُ القيِّم في: «مختصر الصواعق» وهو ظاهرُ اللَّفظِ، فما أضافه اللهُ إلى نفسِه فهو لنفسِه هذا هو الأصل إلَّا أن يمنعَ مانعٌ، فإذا جاء في الحديث «يَنْزِلُ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»[3]، كان المرادُ بالنُّزولِ نزولَ الله نفسِه، لكنَّ أهلَ التَّحريفِ أَبَوْا إلَّا أن يقولوا: «يَنْزِلُ رَبُّنَا»؛ يعني: ينزلُ أمرُه.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

والرَّدُّ عليهم أن نقولَ: أمرُ الله ينزلُ إلى الأرضِ وإلى السَّماواتِ في كُلِّ وقتٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السَّجدة:٥] قالوا: إنَّ الذي ينزلُ رحمتُه، قلنا: هذا كالأوَّل، الرَّحمةُ تنزلُ كُلَّ وقتٍ، ولا تنتهي بالسَّماءِ، تنتهي بالأرضِ، ونزولُ رحمةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا لا فائدةَ لنا منه، قالوا: ينزلُ مَلَكٌ من ملائكتِه، قلنا: المَلَكُ لا يمكنُ أن يقولَ: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ**»؛ لأنَّ المَلَكَ لو قال هذا الكلامَ لكان كفرًا، حيث جعل المَلَكُ نفسَه إلـهًا مُجيبًا، إِذَنْ يَتَعيَّنُ أنَّ الذي ينزلُ هو اللهُ، ولكن هل نقولُ بكيفيَّةٍ معيَّنةٍ لنزولِه؟ الجوابُ: لا، هذا حرامٌ، هل نقولُ: إذا نزل صارت السَّماءُ الدُّنيا فوقَه؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ اللهَ له العلوُّ المطلقُ، فهو ينزلُ وإن كان في العلوِّ.

فإذا قال قائلٌ: هذا غيرُ معقولٍ؟ قلنا: هو غيرُ معقولٍ بالنِّسبة للمخلوقِ، أمَّا بالنِّسبة للخالقِ فإنَّه لا يُحاطُ بصفاتِه، والواجبُ علينا أن نقولَ: ينزلُ وهو فوق كُلِّ شيءٍ.

فإن قال قائلٌ: هل يخلو منه العَرْشُ إذا نزل؟ قلنا: هذا السُّؤالُ سؤالُ بدعةٍ كما قال مالكٌ فيمن قال: كيف استوى؟ ولهذا كان القولَ الرَّاجحَ في هذه المسألة هو ألَّا نسألَ: هل يخلو منه العرشُ أو لا؟

٣٧٣٢- وَكَـذَاكَ إِنْ قُلْنَـا يُـرَى سُـبْحَانَهُ   قُلْـتُمْ أَجِسْـمٌ كَـيْ يُـرَى بِعِيَـانِ

قَوْلُهُ: «أَجِسْمٌ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ» هذا الاستفهامُ للإنكارِ؛ يعني: هل هو جسمٌ حتَّى يُرَى؟! وإذا كان كذلك فقد نَفَوُا الرُّؤيةَ.

ويُنكرون القُرآنَ والسُّنَّةَ وإجماعَ الصَّحابةِ في ثبوتِ الرُّؤيةِ، ولَيْتَهم يحضرون ونقولُ لهم: لندعوا اللهَ عزَّ وجلَّ: «**اللَّهُمَّ مَنْ أنكر رؤيتَك في الآخرةِ فاحرِمْه منها**»

ولا أظنُّ أن تَثْبُتَ أقدامُهم على هذا أبدًا؛ لأنَّهم يعرفون أنَّ المسألةَ ليست هيِّنةً، لكن من أجلِ زعمائِهم وأئمَّتِهم الذين ينكرون هذا صاروا ينكرون رؤيةَ الله عزَّ وجلَّ.

هذه رؤيةُ الله عزَّ وجلَّ؛ فاللهُ تعالى يُرَى في الآخرة، أمَّا في الدُّنيا فلا يُرَى، لم نعلم أنَّ أحدًا رآه إلَّا النَّبيَّ ﷺ في المنامِ، أمَّا في اليقظةِ فلم يَرَهْ أحدٌ؛ ولهذا لما قال موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فإذا كان الجبلُ -وهو الأصمُّ الحجريُّ- لم يستقم لرؤيةِ الله فما بالُك بالبشرِ؟!؛ ولهذا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف:١٤٣] من هَوْلِ ما رَأَى، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، أمَّا في الآخرةِ فيُرَى، وقد جاءت الآياتُ القرآنيَّةُ والأحاديثُ النَّبويَّةُ صريحةً في ذلك؛ ولهذا حَكَمَ بعضُ السَّلفِ بكفرِ من أنكرَ رؤيةَ الله في الآخرةِ؛ لأنَّه أنكر شيئًا صريحًا، ففي القرآنِ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] «ناضرة» بالضَّاد؛ يعني: حَسَنَةً، من النَّضارة وهي الحُسْنُ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ من النَّظرِ؛ ولهذا تجدون الأولى مكتوبةً بالضَّادِ، والثَّانيةَ مكتوبةً بالظَّاء؛ لأنَّها من النَّظر، وقال تعالى في أصحابِ الجحيمِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، فلمَّا حَجَبَ هؤلاء في حال الغضبِ دَلَّ على أنَّ الآخرين غيرُ محجوبين.

أمَّا السُّنَّة فإنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا»[1]، وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٥).

القِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟» قالوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ...»(١)، وهذا لا يمكنُ أن يُرَادَ به المجازُ؛ لأنَّه صريحٌ واضحٌ «عِيَانًا» بالعينِ، وكذا «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»؛ أي: كما تَرَوْنَ القمرَ وكما تَرَوْنَ الشَّمسَ، والتَّشبيهُ هنا ليس تشبيهًا للمرئيِّ بالمرئيِّ، ولكن للرُّؤيةِ بالرُّؤيةِ كما تقولُ مثلًا: «رَأَيْتُ الجملَ كرؤيتي لهذا البابِ»، أو «رَأَيْتُ سيَّارةَ فلانٍ كما أرى سيَّارتَك»، فلا يلزمُ من هذا تساوي المرئيِّ.

٣٧٣٣- أَمْ كَانَ ذَا جِهَةٍ تَعَالَى رَبُّنَا ... عَنْ ذَا فَلَيْسَ يَرَاهُ مِنْ إِنْسَانِ

أيضًا هم قالوا: إنَّكم إذا قلتم: إنَّ اللهَ يُرَى لَزِمَ أن يكونَ في جهةٍ، وإذا لَزِمَ هل يمنعُ؟ نحن نقولُ: إنَّ اللهَ في جهةٍ؛ أي: في جهةِ العلوِّ، لكن هذه الجهةُ لا تُحِيطُ به، فهو فوق كُلِّ شيءٍ، والفوقيَّةُ المطلقةُ عَدَمٌ، وهذا معناه أنَّه ليس هناك شيءٌ يُحاذي اللهَ ولا فوق الله عزَّ وجلَّ.

* * *

٣٧٣٤- أَمَّا إِذَا قُلْنَا لَهُ وَجْهٌ كَمَا ... فِي النَّصِّ أَوْ قُلْنَا كَذَاكَ يَدَانِ

٣٧٣٥- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا كَمَا فِي النَّصِّ إِنْ ... نَ القَلْبَ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

٣٧٣٦- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا الأَصَابِعُ فَوْقَهَا ... كُلُّ العَوَالِمِ وَهْيَ ذُو رَجَفَانِ

٣٧٣٧- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَدَاهُ لِأَرْضِهِ ... وَسَمَائِهِ فِي الحَشْرِ قَابِضَتَانِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

٣٧٣٨- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا سَيَكْشِفُ سَاقَهُ   فَيَخِرُّ ذَاكَ الجَمْعُ لِلأَذْقَانِ

٣٧٣٩- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَجِيءُ لِفَصْلِهِ   بَيْنَ العِبَادِ بِعَدْلِ ذِي سُلْطَانِ

٣٧٤٠- قَامَتْ قِيَامَتُكُمْ كَذَاكَ قِيَامَةُ الـ   آتِي بِهَذَا القَوْلِ فِي الرَّحْمَنِ

٣٧٤١- وَاللهِ لَوْ قُلْنَا الَّذِي قَالَ الصَّحَا   بَةُ وَالأُلَى مِنْ بَعْدِهِمْ بِلِسَانِ

٣٧٤٢- لَرَجَمْتُمُونَا بِالحِجَارَةِ إِنْ قَدَرْ   تُمْ بَعْدَ رَجْمِ الشَّتْمِ وَالعُدْوَانِ

٣٧٤٣- وَاللهِ قَدْ كَفَّرْتُمُ مَنْ قَالَ بَعْـ   ـضَ مَقَالِهِمْ يَا أُمَّةَ العُدْوَانِ

الشرحُ

٣٧٣٤- أَمَّا إِذَا قُلْنَا لَهُ وَجْهٌ كَمَا   فِي النَّصِّ أَوْ قُلْنَا كَذَاكَ يَدَانِ

يعني: فكذلك تنكرون، فهم ينكرون أن يكونَ لله وجهٌ، ويقولون: المرادُ بـ«**الوجه**» الثَّوابُ، فقولُه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمن:٢٧]، يقولون: أي: ثوابُ ربِّك، وهذا صريحٌ بأنَّ الذي يبقى وجهُ الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٢٧]، وقال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ﴾ [الرَّحمن:٧٨] فَفَرَّقَ، فالاسمُ لا يُوصَفُ بالجلالِ، الذي يُوصَفُ بالجلالِ هو الرَّبُّ، الوجهُ يُوصَفُ بالجلالِ، وإذا كان اسمُ الله لا يُوصَفُ بالجلال فما بالُك بالثَّوابِ؟ الثَّوابُ لا يُمكِن أن يُوصَفَ بالجلالِ، والسُّنَّةُ واردةٌ في ذلك أيضًا: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ**»[1].

كذلك أيضًا اليدان صريحةٌ في القرآنِ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

---

(١) أخرجه الطبراني (١٣/ ٧٣).

٣٧٣٥- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا كَمَا فِي النَّصِّ إِنْ ... نَ القَلْبَ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

أيضًا أنكرتم ذلك، فإذا قُلنا: إِنَّ القلبَ بين أصابعِ الرَّحمنِ، قلتم: سُبْحَانَ الله! الرَّحمنُ له أصابعُ؟! نقولُ: هكذا قال أعلمُ الخلقِ به وهو رسولُ الله ﷺ، القلبُ بين أصابعِ الرَّحمنِ، سبحانَ ذي العزَّةِ والجبروت! كُلُّ قلوبِ بني آدمَ الذين لا يُحصيهم إِلَّا خالقُهم كُلُّها بين أصبعَيْن من أصابعِ الرَّحمنِ كقلبٍ واحدٍ، وهذا حقٌّ كما قال النَّبيُّ ﷺ[1]، ولا نشكُّ في هذا، لكن ضَلَّ في هذا طائفتان:

الطَّائفةُ الأولى: أنكرَتْ هذا الشَّيءَ، وقالت: لا يمكنُ هذا، فإنَّنا لا نحسُّ بأنَّ أصابعَ الرَّحمنِ في صدورِنا، وكذلك إذا كان بين أصابعِ الرَّحمنِ فمقتضى ذلك أن تكونَ أصابعُ الله في أجوافِنا؟ فالجوابُ: أنَّ هذا ليس بلازم؛ لأنَّ البينيَّةَ لا تقتضي الملامسةَ أو المماسَّةَ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]، ومع ذلك فإنَّ السَّحابَ لا يمسُّ الأرضَ ولا يمسُّ السَّماءَ، وجعله اللهُ بينهما، وتقولُ مثلًا: «**بَدْرٌ بين مكَّةَ والمدينةِ**»، وهل هي مماسَّةٌ للمدينةِ أو لمكَّةَ؟ الجوابُ: لا؛ إِذَنْ بين أصابعِ الرَّحمنِ، فلا يَلْزَمُ من ذلك المماسَّةُ، فإذا كان لا يلزمُ وَجَبَ أن نؤمنَ به، إِذَنْ القلوبُ بين أصابعِ الرَّحمنِ لكن على كيفيَّةٍ لا نعلمُها.

وقد قِيلَ لأعرابيٍّ: بِمَ عَرَفْتَ ربَّك؟ قال: «بنقضِ العزائمِ وصرفِ الهممِ»[2]، نقضُ العزائم بأن يعزمَ الإنسانُ على الشَّيءِ، يقولُ مثلًا: سأسافرُ غدًا، وإذا بعزيمتِه تنتقضُ بدون أن يقولَ له أحدٌ شيئًا، مَنْ الذي نَقَضَ هذه العزيمةَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم (٢٦٥٤).

(٢) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى إعجاز القرآن ومعترك الأقران، للسيوطي (٣/ ٣٨١).

إلَّا اللهُ، وأمَّا «صرف الهمم» فمثاله: أن يكونَ إنسانٌ له هِمَّةٌ قويَّةٌ على شراءِ شيءٍ أو على دراسةِ كتابٍ مُعَيَّنٍ، وإذا به تنتقضُ هذه الهِمَّةُ فينصرف عنها، لولا أنَّ القلوبَ بيدِ الله عزَّ وجلَّ، بل إنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤] أيُّ شيءٍ أبلغُ من هذا؟! اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قلوبَنا.

الطَّائفةُ الثَّانية: مَثَّلَت كذبًا وزورًا، فجعلوا يقولون: بين أصابعِ الرَّحمنِ، ويمسكون بأصابِعهم هكذا، نسألُ اللهَ العافيةَ؛ لأنَّ هذا قولٌ على الله بلا علمٍ، مَن الذي أعلمهم أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- جعل الأصابعَ هكذا تَقْبِضُ القلوبَ؟! الجوابُ: لا أحدَ، لكنَّهم قالوا: الرَّسولُ لـمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النِّساء:٥٨] جعل إبهامَه وسبَّابتَيْهِ على أُذنيه وعَيْنَيْهِ؟[1] قلنا: الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قال ذلك؛ لإثباتِ البصرِ والرُّؤيةِ وإثباتِ السَّمعِ، لا أنَّ له أذنًا، ولولا أنَّ اللهَ أَثْبَتَ أنَّ له عينًا لم يلزم من رؤيتِهِ أن يكون له عينٌ.

فالمهم: أنَّني سَمِعْتُ عن بعض النَّاسِ المثبتةِ أنَّهم يُمَثِّلُونَ، ويقولون: القلبُ بين أصابعِ الرَّحمنِ هكذا، فنقول: سُبْحَانَهُ وتعالى! أعندكَ علمٌ من هذا؟ هل قال الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هكذا؟! إنَّك قد افْتَرَيْتَ على الله كذبًا إذا مَثَّلْتَه على هذا الوجهِ، فعليك بما جاء به النَّصُّ، فهل الرَّسولُ فَعَلَ هذا وهو أحرصُ مِنك على إفهامِ النَّاسِ وتعليمِهم؟!

---

(١) كما في حديث أبي يونس سليم بن جبير مولى أبي هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨] قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقْرَؤُهَا وَيَضَعُ إِصْبَعَيْهِ»، قال ابن يونس: قال المقرئ: يعني: إن الله سميع بصير، يعني أن لله سمعًا وبصرًا، قال أبو داود: وهذا رد على الجهمية. أخرجه أبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٨).

٣٧٣٦- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا الأَصَابِعُ فَوْقَهَا كُلُّ العَوَالِمِ وَهْيَ ذُو رَجَفَانِ

كما جاء في الحديث في يومِ القيامةِ «أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ...»[1].

٣٧٣٧- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَدَاهُ لِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ فِي الحَشْرِ قَابِضَتَانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمر:٦٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

٣٧٣٨- وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا سَيَكْشِفُ سَاقَهُ فَيَخِرُّ ذَاكَ الجَمْعُ لِلأَذْقَانِ

الذي يكشفُ ساقَه هو اللهُ عزَّ وجلَّ، وهذا له دليلٌ صريحٌ من السُّنَّةِ في حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ»[2]؛ لأنَّ حجابَ الله النُّورُ، لا يُرى عزَّ وجلَّ من الأنوارِ التي حوله، ولكنَّه إذا شاء كَشَفَ هذا النُّورَ فبَانَ ما يُريدُه عزَّ وجلَّ، أمَّا في القرآنِ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، وهذه الآيةُ استدلَّ بها مَنْ أَثْبَتَ لله السَّاقَ، ولكن إذا تَأَمَّلْتَ لم تجد فيها دليلًا على ثبوتِ السَّاقِ لله؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ولم يُضِفْهَا إلى نفسِه، وإذا لم يُضِفْهَا اللهُ إلى نفسِه فإنَّه لا يحلُّ لنا أن نضيفَها إلى نفسِه، فقال: ﴿سَاقٍ﴾ ولم يُبيِّن ساقَ مَنْ؟ ولهذا فسَّرها ابنُ عبَّاسٍ بأنَّه الشِّدَّة كما

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٩١]، رقم (٤٥٣٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، رقم (٧٠٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

يُقَالُ: «كَشَفَتِ الحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا»[١].

لكن هناك قولٌ آخَرُ يقولُ: المرادُ بِالسَّاقِ ساقُ الله عزَّ وجلَّ، ولا يستدلُّ بلفظِ الآيةِ، بل يقولُ: إنَّ سِياقَ الآيةِ يُطَابِقُ تمامًا حديثَ أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القرآنَ، فإذا تَأَمَّلْتَ الآيةَ والحديثَ وجدتَ سياقَهما يدلُّ على معنًى واحدٍ، وحينئذٍ نُثْبِتُ السَّاقَ لله بهذه الآيةِ لكن بإضافتِها إلى الحديثِ، ويتمُّ الاستدلالُ حينئذٍ، فيكونُ الحديثُ دالًا على أنَّ المرادَ بذلك ساقُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، ولولا الحديثُ لقلنا: يَحْرُمُ أن تقولَ: إنَّ هذا ساقُ الله، لكن مادام الحديثُ قد جاء عن النَّبِيِّ ﷺ بما يدلُّ على أنَّ المرادَ ساقُ الله عزَّ وجلَّ، فالواجبُ علينا أن نؤمنَ بهذا ولكنَّها كسائرِ الصِّفاتِ، فهي ساقٌ لا يماثلُها ساقٌ، فهي تليقُ بالله عزَّ وجلَّ، ولا يمكنُ للإنسانِ أن يتصوَّرَها ولا أن يُحيطَ بها.

٢٧٣٩- وَكَـذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَجِيءُ لِفَصْلِهِ ... بَيْنَ العِبَادِ بِعَدْلِ ذِي سُلْطَانِ

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان:٢٥] لنزولِ الله عزَّ وجلَّ ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٥-٢٦].

٢٧٤٠- قَامَتْ قِيَامَتُكُمْ كَذَاكَ قِيَامَةُ الـ ... آتِي بِهَذَا القَوْلِ فِي الرَّحْمَنِ

إذا قلنا هذا وما سبق قَامَتْ قيامتُكم؛ يعني: أنكرتم علينا غايةَ الإنكارِ، وقيامةُ الآتي بهذا القولِ في الرَّحمنِ تقومُ أيضًا، فيحصل بذلك من النِّزاعِ والخصومةِ ما لا يعلمُه إلَّا اللهُ.

---

(١) حكاه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٨٧) عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قَالَ: «هُوَ يَوْمُ حَرْبٍ وَشِدَّةٍ».

٣٧٤١- وَاللهِ لَوْ قُلْنَا الَّذِي قَالَ الصَّحَا ... بَةُ وَالأُلَى مِنْ بَعْدِهِمْ بِلِسَانِ

٣٧٤٢- لَرَجَمْتُمُونَا بِالحِجَارَةِ إِنْ قَدَرْ ... تُمْ بَعْدَ رَجْمِ الشَّتْمِ وَالعُدْوَانِ

سبحان الله! يقولُ: لو قلنا ما قاله الصَّحابةُ في هذا وغيرِه لرجمتمونا بالقولِ وبالفعلِ، بالقولِ بالسَّبِّ والشَّتمِ، والفعلِ بالحجارةِ.

٣٧٤٣- وَاللهِ قَدْ كَفَّرْتُمُ مَنْ قَالَ بَعْـ ... ـضَ مَقَالِهِمْ يَا أُمَّةَ العُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «كَفَّرْتُمْ مَنْ قَالَ بَعْضَ مَقَالِهِمْ»؛ يعني: بعضَ مقالِ أهلِ الإثباتِ لِصفاتِ الله عزَّ وجلَّ، فكيف بِمَنْ قال كُلَّ القولِ؟! ولهذا من شأنِ أهلِ البدعِ أنَّ بعضَهم يُكَفِّرُ مَنْ سواهم من أهل البدعِ الآخرِين، ويُكَفِّرُ أهلَ السُّنَّةِ، ولا يبالون في هذا، فالتَّكفيرُ عندهم كالتَّهليلِ والتَّسبيحِ، فهو من أسهلِ ما يكونُ، بخلافِ أهلِ السُّنَّةِ، فأهلُ السُّنَّةِ لا يُكَفِّرونَ إلَّا بدليلٍ صَريحٍ ولا يُضلِّلون إلَّا بدليلٍ صريحٍ، وإذا احتمل الكفرَ أو التَّضليلَ حملوه على التَّضليلِ؛ لأنه مُتيقَّن، والكفرُ شيءٌ زائدٌ كما ذكره شارحُ الطَّحاويَّةِ وغيرُه على أنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ هو التَّأنِّي والتَّثبُّتُ والتَّوقُّفُ في التَّكفيرِ.

* * *

٣٧٤٤- وَجَعَلْتُمُ الجِسْمَ الَّذِي قَدَّرْتُمُ ... بُطْلانَهُ طَاغُوتَ ذَا البُطْلانِ

٣٧٤٥- وَوَضَعْتُمُ لِلجِسْمِ مَعْنًى غَيْرَ مَعْـ ... ـرُوفٍ بِهِ فِي وَضْعِ كُلِّ لِسَانِ

٣٧٤٦- وَبَنَيْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ عَلَيْهِ فَاجْـ ... ـتَمَعَتْ لَكُمْ إِذْ ذَاكَ مَحْذُورَانِ

٣٧٤٧- كَذِبٌ عَلَى لُغَةِ الرَّسُولِ وَنَفْيُ إِثْـ ... ـبَاتِ العُلُوِّ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ

٣٧٤٨- وَرَكِبْتُمُ إِذْ ذَاكَ تَحْـرِيفَيْنِ تَحْـ ... ـرِيفَ الحَدِيثِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

٣٧٤٩- وَكَسَبْتُمُ وِزْرَيْنِ وِزْرَ النَّفْيِ وَالتْـ ... ـتَحْرِيفِ فَاجْتَمَعَتْ لَكُمْ كِفْلانِ

٣٧٥٠- وَعَدَاكُمُ أَجْرَانِ أَجْرُ الصِّدْقِ وَالْـ ... إِيمَانِ حَتَّى فَاتَكُمْ حَظَّانِ

٣٧٥١- وَكَسَبْتُمُ مَقْتَيْنِ مَقْتَ إِلَهِكُمْ ... وَالمُؤْمِنِينَ فَنَالَكُمْ مَقْتَانِ

٣٧٥٢- وَلَبِسْتُمُ ثَوْبَيْنِ ثَوْبَ الجَهْلِ وَالظْـ ... ـظُلْمِ القَبِيحِ فَبِئْسَتِ الثَّوْبَانِ

٣٧٥٣- وَتَخِذْتُمُ طِرْزَيْنِ طِرْزَ الكِبْرِ، وَالتْـ ... ـتِيهِ العَظِيمِ فَبِئْسَتِ الطِّرْزَانِ

٣٧٥٤- وَمَدَدْتُمُ نَحْوَ العُلَى بَاعَيْنِ لَـ ... ـكِنْ لَمْ تَطُلْ مِنْكُمْ لَهَا البَاعَانِ

٣٧٥٥- وَأَتَيْتُمُوهَا مِنْ سِوَى أَبْوَابِهَا ... لَكِنْ تَسَوَّرْتُمْ مِنَ الحِيطَانِ

٣٧٥٦- وَغَلَقْتُمُ بَابَيْنِ لَوْ فُتِحَا لَكُمْ ... فُزْتُمْ بِكُلِّ بِشَارَةٍ وَتَهَانِي

٣٧٥٧- بَابَ الحَدِيثِ وَبَابَ هَذَا الوَحْيِ مَنْ ... يَفْتَحْهُمَا فَلْيَهْنِهِ البَابَانِ

الشرحُ

٣٧٤٤- وَجَعَلْتُمُ الجِسْمَ الَّذِي قَدَّرْتُمُ ... بُطْلانَهُ طَاغُوتَ ذَا البُطْلانِ

قَوْلُهُ: «وَجَعَلْتُمُ الجِسْمَ»؛ يعني: قولهم: «لو كان اللهُ فوقُ لكان جسمًا»، ولو كان متَّصفًا بالصِّفاتِ لكان جسمًا، وهكذا.

يعني: أنَّ الجسمَ جعلوه هو المِعْوَلَ الذي يَهْدِمُون به جميعَ نصوصِ الصِّفاتِ، فجعلتموه طاغوتَ الهدمِ؛ أي: هدم ما جاء به القرآنُ والسُّنَّةُ من الصِّفاتِ؛ ولهذا قال:

٣٧٤٥- وَوَضَعْتُمُ لِلجِسْمِ مَعْنًى غَيْرَ مَعْـ ... رُوفٍ بِهِ فِي وَضْعِ كُلِّ لِسَانِ

لأنَّهم يقولون: إنَّ الجسمَ هو ما قَامَ بغيرِه بمعنى: أنَّه مخلوقٌ، ثُمَّ شَرَعُوا ينفون كُلَّ هذا.

٣٧٤٦- وَبَنَيْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ عَلَيْهِ فَاجْـ ـتَمَعَتْ لَكُمْ إِذْ ذَاكَ مَحْذُورَانِ

٣٧٤٧- كَذِبٌ عَلَى لُغَةِ الرَّسُولِ وَنَفْيُ إِثْـ ـبَاتِ العُلُوِّ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ

إِذَنْ ركبوا مفسدتَيْنِ:

المفسدة الأولى: الكذبُ على اللُّغةِ، حيث وضعوا للجسمِ معنى لا يُعْرَفُ في اللُّغةِ العربيَّةِ، وهذا كذِبٌ عليها، والكذبُ على اللُّغةِ العربيَّةِ يقتضي إبطالَ دلالةِ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ لأنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ إنَّما كانا باللُّغةِ العربيَّةِ.

والمفسدة الثَّانية: نفيُ ما جاء به القرآنُ والسُّنَّةُ من إثباتِ العلوِّ لفاطرِ الأكوانِ؛ لأنَّهم قالوا: إذا كان في العلوِّ وهو على العرشِ صار جسمًا على جسمٍ، والجسمُ محدودٌ، وما أشبه ذلك من الـهَذَيَانِ.

٣٧٤٨- وَرَكِبْتُمُ إِذْ ذَاكَ تَحْرِيفَيْنِ تَحْـ ـرِيفَ الحَدِيثِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

إِذَنْ حَرَّفُوا القرآنَ، وحرَّفوا السُّنَّةَ، فهذان تحريفان.

٣٧٤٩- وَكَسَبْتُمُ وِزْرَيْنِ وِزْرَ النَّفْيِ وَالتْـ ـتَحْرِيفِ فَاجْتَمَعَتْ لَكُمْ كِفْلانِ

قَوْلُهُ: «وَكَسَبْتُمُ وِزْرَيْنِ وِزْرَ النَّفْيِ وَالتَّحْرِيفِ» الوزر الأوَّل: وزر النَّفيِ، والوزر الثَّاني: وزر التَّحريفِ.

قَوْلُهُ: «فَاجْتَمَعَتْ لَكُمْ كِفْلَانِ»؛ يعني: من الإثمِ والوزرِ، والعياذُ بالله، قال اللهُ تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النِّساء:٨٥].

٣٧٥٠- وَعَدَاكُمُ أَجْرَانِ أَجْرُ الصِّدْقِ وَالـ إِيـمَانِ حَتَّـى فَـاتَكُمْ حَظَّـانِ

سبحان الله! كُلُّها اثنان اثنان.

قَوْلُهُ: «وَعَدَاكُمُ أَجْرَانِ أَجْرُ الصِّدْقِ وَالإِيمَانِ»؛ أي: أجرُ الصِّدقِ فيما تقولون، والثَّاني: أجرُ الإيمانِ، حتَّى فاتكم حظَّان.

٣٧٥١- وَكَسَبْتُمُ مَقْتَيْنِ مَقْتَ إِلَـهِكُمْ وَالـمُؤْمِنِينَ فَنَالَكُمْ مَقْتَانِ

المقتُ أشدُّ البُغْضِ، فهم نالوا بتعطيلِهم وتحريفِهم مَقْتَيْنِ: مقت الله عزَّ وجلَّ، والثَّاني: مقت المؤمنين.

٣٧٥٢- وَلَبِسْتُمُ ثَوْبَيْنِ ثَوْبَ الجَهْلِ وَالظُّـ ـلْمِ القَبِيحِ فَبِئْسَتِ الثَّوْبَانِ

الثَّوب الأوَّل: الجهل؛ لأنَّهم جَهِلُوا كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِه ﷺ، فوصفوا اللهَ عزَّ وجلَّ بما لم يَصِفْ به نفسَه فضلُّوا.

والثَّاني: ثوب الظُّلْمِ والعدوانِ؛ لأنَّهم كانوا يسبُّون أهلَ السُّنَّةِ، ويَرْمُونَهم بألقابِ السُّوءِ، فيقولون: هم حَشْوِيَّةٌ مُجَسِّمَةٌ نوابتُ غثاءٌ عامَّةٌ، وما أشبه ذلك، وهذا ظلمٌ قبيحٌ.

٣٧٥٣- وَتَخِذْتُمُ طِرْزَيْنِ طِرْزَ الكِبْرِ، وَالتْـ ـتِيهِ العَظِيمِ فَبِئْسَتِ الطِّرْزَانِ

هذا أيضًا فعلوه، الكِبْرُ، وهو عدمُ قَبولِ الحقِّ، قال النَّبيُّ ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[1]، والتِّيهُ التَّرفُّعُ على النَّاسِ، والإعجابُ بالنَّفسِ حتىَّ ظنُّوا أنَّهم المعصومون، وأنَّ غيرَهم هم الضالُّون.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

٣٧٥٤- وَمَدَدْتُمُ نَحْوَ العُلَى بَاعَيْنِ لَـ ـكِنْ لَمْ تَطُلْ مِنْكُمْ لَهَا البَاعَانِ

قَوْلُهُ: «وَمَدَدْتُمُ نَحْوَ العُلَى بَاعَيْنِ» «العُلَى»: معالي الرُّتبِ، وهم يظنُّون أنَّهم هم أهلُ الحقِّ وأهلُ العدلِ.

يعني: أنَّهم مَدُّوا باعَيْنِ لينالوا العُلَى، ولكن عجزوا عن نيلِ العُلَى؛ لأنَّهم ما صدقوا، لو صدقوا لنالوا العُلَى؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، لكنَّهم لم يصدقوا في هذا، إنَّما أرادوا انتصارَ قولِهم فقط.

٣٧٥٥- وَأَتَيْتُمُوهَا مِنْ سِوَى أَبْوَابِهَا لَكِنْ تَسَوَّرْتُمْ مِنَ الحِيطَانِ

قَوْلُهُ: «أَتَيْتُمُوهَا مِنْ سِوَى أَبْوَابِهَا»؛ أي: أتيتم المسألةَ من سوى أبوابِها، وإذا أتى الإنسانُ الشَّيءَ من سوى أبوابِه فلا بُدَّ أن يتسوَّرَ الجدرانَ تسوُّرًا، والدَّاخلُ على هذه الصِّفةِ ليس بداخلٍ دخولًا مشروعًا مستقِرًّا، ومعلومٌ أنَّ اللهَ تعالى أرشدنا أن نأتيَ البيوتَ من أبوابِها.

٣٧٥٦- وَغَلَقْتُمُ بَابَيْنِ لَوْ فُتِحَا لَكُمْ فُزْتُمْ بِكُلِّ بِشَارَةٍ وَتَهَانِي

٣٧٥٧- بَابَ الحَدِيثِ وَبَابَ هَذَا الوَحْيِ مَنْ يَفْتَحْهُمَا فَلْيَهْنِهِ البَابَانِ

يعني: أنَّكم غَلَّقْتُم على أنفسِكم بابَيْنِ: بابَ السُّنَّةِ وبابَ القُرآنِ؛ لأنَّهم رجعوا -فيما يُثبتون ويَنْفُون عن الله- إلى العقلِ، وتركوا الكتابَ والسُّنَّةَ، ضربوا عنهما صفحًا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

* * *

٣٧٥٨- وَفَتَحْتُمُ بَابَيْنِ مَنْ يَفْتَحْهُمَا تُفْتَحْ عَلَيْهِ مَوَاهِبُ الشَّيْطَانِ

٣٧٥٩- بَابُ الكَلَامِ وَقَدْ نُهِيتُمْ عَنْهُ وَالـ ـبَابُ الحَرِيقُ فَمَنْطِقُ اليُونَانِ

٣٧٦٠- فَدَخَلْتُمُ دَارَيْنِ دَارَ الـجَهْلِ فِي الدْ ... دُنْيَـا وَدَارَ الـخِزْيِ فِي النِّـيرَانِ

٣٧٦١- وَطَعِمْتُمُ لَوْنَيْنِ لَوْنَ الشَّـكِّ وَالتْـ ... تَشْـكِيكِ بَعْـدُ فَبِئْسَـتِ اللَّوْنَـانِ

٣٧٦٢- وَرَكِبْـتُمُ أَمْـرَيْنِ كَـمْ قَـدْ أَهْلَكَـا ... مِـنْ أُمَّـةٍ فِي سَـالِفِ الأَزْمَـانِ

٣٧٦٣- تَقْـدِيمُ آرَاءِ الرِّجَـالِ عَـلَى الَّـذِي ... قَـالَ الرَّسُـولُ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

٣٧٦٤- وَالثَّانِي نِسْبَتُهُمْ إِلَى الإِلْغَـازِ وَالتْـ ... تَلْبِـيسِ وَالتَّـدْلِيسِ وَالكِـتْمَانِ

٣٧٦٥- وَمَكَـرْتُمُ مَكْـرَيْنِ لَـوْ تَـمَّا لَكُـمْ ... لَتَفَصَّـمَتْ فِينَـا عُـرَى الإِيـمَانِ

٣٧٦٦- أَطْفَـأْتُمُ نُـورَ الكِتَـابِ وَسُـنَّةِ الـ ... هَادِي بِـذَا التَّحْرِيـفِ وَالـهَذَيَانِ

٣٧٦٧- لَكِـنَّكُمْ أَوْقَـدْتُمُوا لِلحَـرْبِ نَـا ... رًا بَـيْنَ طَـائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَـانِ

٣٧٦٨- وَاللهُ مُطْفِيهَـا بِأَلْسِـنَةِ الأُلَى ... قَـدْ خَصَّـهُمْ بِـالعِلْمِ وَالإِيـمَانِ

٣٧٦٩- وَاللهِ لَوْ غَرِقَ الـمُجَسِّمُ فِي دَمِ التْـ ... تَجْسِـيمِ مِـنْ قَـدَمٍ إِلَى الآذَانِ

٣٧٧٠- فَالنَّصُّ أَعْظَـمُ عِنْـدَهُ وَأَجَـلُّ قَـدْ ... رًا أَنْ يُعَارِضَـهُ بِقَـوْلِ فُـلانِ

الشـرحُ

٣٧٥٨- وَفَتَحْـتُمُ بَـابَيْنِ مَـنْ يَفْـتَحْهُمَا ... تُفْـتَحْ عَلَيْـهِ مَوَاهِـبُ الشَّـيْطَانِ

وبِئْسَتِ المواهبُ، لكن ما هما البابان؟ قال:

٣٧٥٩- بَابُ الكَلامِ وَقَدْ نُهِيتُمْ عَنْـهُ وَالـ ... ـبَابُ الـحَرِيقُ فَمَنْطِقُ اليُونَـانِ

هذان البابان، فَتَحُوا على أنفسِهم بابَ الكلامِ، والكلامُ كما سبق هو إثباتُ

العقائدِ بالعقولِ المبنيَّةِ على المجادلاتِ والمناظراتِ؛ ولهذا سُمُّوا أهلَ الكلامِ؛ لكثرةِ كلامِهم وثرثرتِهم وخوضِهم في أمورٍ لا تَعْنِيهم، في أمورٍ يَصْدُقُ عليها قولُ النَّبيِّ ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»[١]، ولو أنَّهم أخذوا العقيدةَ من أبوابِها بسهولتِها ويُسْرِها وعدمِ التَّنطُّعِ فيها لكان أسلمَ لهم.

الباب الثَّاني: باب المنطقِ والفلسفة المتلقَّاة من اليونانِ، والذي صار سببًا لردِّ نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ.

فهم فتحوا علينا البابَيْنِ: بابَ الكلامِ وبابَ المنطق، وأغلقوا بابَيْنِ: بابَ الكتابِ وبابَ السُّنَّةِ.

وقول المؤلِّف: «وَقَدْ نُهِيتُمْ عَنْهُ» مَنْ الذي نهاهم؟ إن شِئنا قُلنا: نَهى عنه النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- حيث قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ»[٢]، وإن شِئنا قُلنا: نَهى عنه السَّلفُ وحذَّروا منه، حتَّى إنَّ الشَّافعيَّ -رحمه الله- قال: «حُكْمِي في أهلِ الكلامِ أن يُضْرَبُوا بالجريدِ والنِّعالِ، ويُطَافَ بهم في العشائرِ والأسواقِ، ويُقَالَ: هذا جزاءُ مَنْ تَرَكَ الكتابَ والسُّنَّةَ، وأقبلَ على علمِ الكلامِ»[٣]، هذا حُكمُ الشَّافعيِّ -رحمه الله- في أهلِ الكلامِ، وهذا حكمٌ صارمٌ يدلُّ على شدَّةِ نهيِهم -رحمهم اللهُ ورَضِيَ عنهم- عن علمِ الكلامِ، ثُمَّ إنَّه يدخلُ في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»[٤]، فمثلًا الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لـمَّا قال لهم النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِيْنَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).
(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم ١٧١٤٤). وأبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السُّنَّة، رقم (٤٦٠٧).
(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٩).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ»[1]، سَلَّموا واستسلموا وآمنوا، أمَّا أهلُ الكلامِ فقالوا: كيف ينزلُ وهو على العرشِ؟ كيف ينزلُ والسَّماواتُ ليست بشيءٍ بالنِّسبةِ له، هي كالخردلةِ في يدِ أحدِنا؟ كيف يكونُ هذا؟ فأوردوا وشكَّكوا وسدُّوا على أنفسِهم بابَ اليقينِ، ولو أنَّهم سَلَّموا كما سَلَّمَ الصَّحابةُ لَسَلِمُوا، لكنَّهم -والعياذُ بالله- تنطَّعوا فَهَلَكُوا.

٣٧٦٠- فَدَخَلْتُمُ دَارَيْنِ دَارَ الـجَهْلِ فِي الدْ ... دُنْيَـا وَدَارَ الـخِزْيِ فِي النِّـيرَانِ

لـمَّا فتحوا بابينَ: بابَ الكلامِ والمنطقِ دخلوا دارَيْنِ:

الدَّار الأولى: دار الجهل في الدُّنيا؛ لأنَّ أهلَ الكلامِ وأهلَ المنطقِ أجهلُ النَّاسِ بالله، نسألُ اللهَ العافيةَ، وأعلمُ النَّاسِ بالله مَن اتَّبع الكتابَ والسُّنَّةَ.

الدَّار الثَّانية: «دَارَ الخِزْيِ فِي النِّيرَانِ» وهي جهنَّمُ، فهي دارُ الخزيِ والذُّلِّ.

٣٧٦١- وَطَعِمْتُمُ لَوْنَيْنِ لَوْنَ الشَّـكِّ وَالتْـ ... تَشْـكِيكِ بَعْـدُ فَبِئْسَـتِ اللَّوْنَـانِ

طَعِمُوا لونَ الشَّكِّ والتَّشكيكِ، الشَّكُّ في أنفسِهم والتَّشكيكُ لغيرِهم؛ ولهذا تجدُ كتبَهم كُلَّها مملوءةً بالتَّشكيكِ النَّاتج عن شَكِّهم، فأكثرُ النَّاسِ شكًّا هم أهلُ الكلامِ ولاسيَّما عند فراقِ الدُّنيا، فتجدُ الواحدَ منهم -نسألُ اللهَ لنا ولكم الحمايةَ- عند فراق الدُّنيا يشكُّ، بل رُبَّما يصلُ به الشَّكُّ إلى الشَّكِّ في الخالقِ جلَّ وعلا، تجدُ كتبَ أهلِ السُّنَّةِ ككتبِ شيخِ الإسلامِ وابنِ القيِّمِ كُلَّها مملوءةً باليقينِ والاستدلالِ والإيمانِ، نسألُ اللهَ أن يُثبِّتَنا وإيَّاكم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

٣٧٦٢- وَرَكِبْتُمُ أَمْرَيْنِ كَمْ قَدْ أَهْلَكَا ... مِنْ أُمَّةٍ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

٣٧٦٣- تَقْدِيمُ آرَاءِ الرِّجَالِ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الرَّسُولُ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

يُخَاطِبُ هؤلاءَ المعطِّلَةَ بأنَّهم رَكِبُوا أمرين أهلكا الأممَ في سالفِ الأزمانِ وهما:

الأمر الأوَّل: تقديم آراءِ الرِّجالِ على الكتابِ والسُّنَّةِ لقولِه: «**تَقْدِيمَ آرَاءِ الرِّجَالِ عَلَى الَّذِي قَالَ الرَّسُولُ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ**»؛ يعني: «**وَعَلَى مُحْكَمِ القُرْآنِ**»، فإذا أَتَيْتَهم بدليلٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ، قالوا: قال فلانٌ كذا وكذا، فعارضوا قولَ الله ورسولِه بقولِ فلانٍ، ويُرْوَى عن ابن عَّباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»(١).

فهذا أبو بكرٍ وعمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا عَارَضَ أحدٌ قولَ رسولِ الله ﷺ بقولِهما فإنَّه يُوشِكُ أن تنزلَ عليه حجارةٌ من السَّماءِ، فكيف بِمَنْ يُعَارِضُ قولَ الله ورسولِه بقولِ من هو أدنى منهما بكثيرٍ؟! يكونُ هذا أقربَ إلى العقوبةِ ممَّن عَارَضَ قولَ الله ورسولِه بقولِ أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما.

الأمر الثَّاني: يقولُ:

٣٧٦٤- وَالثَّانِي نِسْبَتُهُمْ إِلَى الإِلْغَازِ وَالتْـ ... ـتَلْبِيسِ وَالتَّدْلِيسِ وَالكِتْمَانِ

لأنَّهم إذا عَطَّلُوا النُّصوصَ عن المرادِ بها صارت النُّصوصُ في ظواهِرِها تلبيسًا وألغازًا، وليست دالَّةً على الهدى في ظاهِرِها، وإنَّما تدلُّ على الضَّلالِ على

(١) أخرج الإمام أحمد نحوه بلفظ: «أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ». أخرجه أحمد (١/ ٣٣٧)، رقم (٣١٢١).

زعمِهم؛ لأنَّهم إنَّما أوَّلوها ظنًّا منهم أنَّها تستلزمُ التَّشبيهَ فأوَّلوها لهذا السَّببِ؛ لأنَّه إذا كان قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]؛ أي: «**جَاءَ أَمْرُ رَبِّك**» فهذا لغزٌ لا يفهمُه أحدٌ؛ لأنَّ المفهومَ منه أنَّ اللهَ جاء بنفسِه.

وإذا قالوا: المرادُ باليدِ: «**القدرةُ**» أو «**القوَّةُ**» أو «**النِّعمةُ**» أو ما أشبه ذلك، فقد جعلوا هذا القرآنَ ألغازًا؛ لأنَّ مَنْ يفهمُ أنَّ المرادَ بها القدرةُ أو النِّعمةُ أو القوَّةُ، وظاهرُها أنَّها اليدُ الحقيقيَّةُ.

فهم رَكبوا شيئين: **أوَّلًا**: تقديم آراء الرِّجال على الوحيِ: «**الكتاب والسُّنَّة**»، **والثَّاني**: نسبة الكتابِ والسُّنَّةِ إلى الإلغازِ والتَّلبيسِ والتَّدليسِ والكتمانِ؛ لأنَّه إذا كان الحقُّ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]: إذا كان حقًّا أنَّه «**جَاءَ أمرُ ربِّك**» فهذا يُعْتَبَرُ ألغازًا وتلبيسًا وتدليسًا وكتمًا للحقِّ؛ لأنَّه لم تأتِ آيةٌ أخرى تدلُّ على أنَّ المرادَ: «**جَاءَ أَمْرُ ربِّك**».

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فليس من هذا البابِ، بل المرادُ أمرُ الله تعالى الكونيُّ الذي سيكونُ يومَ القيامةِ والذي كانوا يقولون: متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين؟

٣٧٦٥- وَمَكَـرْتُمُ مَكْـرَيْنِ لَـوْ تَـمَّا لَكُـمْ ... لَتَفَصَّـمَتْ فِينَـا عُـرَى الإِيـمَانِ

٣٧٦٦- أَطْفَـأْتُمُ نُـورَ الكِتَـابِ وَسُـنَّةِ الـ ... هَادِي بِـذَا التَّحْرِيـفِ وَالـهَذَيَانِ

٣٧٦٧- لَكِـنَّكُمْ أَوْقَـدْتُمُوا لِلحَـرْبِ نَـا ... رًا بَـيْنَ طَـائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَـانِ

قَوْلُهُ: «**بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَانِ**» هذا غريبٌ من المؤلِّف، لكنَّه -رحمه الله- يأتي مرَّةً بالكلامِ على لغةٍ، ومرَّةً على لغةٍ، فهنا مثلًا: «**بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ**» أَعْرَبَ المثنَّى على

الإعرابِ المشهورِ أنَّه يُجَرُّ بالياء، ثُمَّ قال: «مُخْتَلِفَانِ»: صفةٌ لـ«طَائِفَتَيْنِ»، لكنَّها بالألفِ بناءً على لغة مَنْ يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ مطلقًا، فبعضُ العرب يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ مطلقًا، ومنه قولُ الشَّاعرِ:

وَاهًــا لِرَيَّــا ثُــمَّ وَاهًــا وَاهَــا   يَــا لَيْــتَ عَيْنَاهَــا لَنَــا وَفَاهَــا[1]

ولو مشى على المشهورِ لقال: «عَيْنَيْهَا»، وقد يكونُ أرادَ أن يقولَ: «مُخْتَلِفَتَيْنِ» لكن لضيقِ النَّظمِ قال: «مُخْتَلِفَانِ».

هم مكروا مَكْرَيْنِ: أطفؤوا نورَ الكتابِ والسُّنَّةِ، وأوقدوا نارَ الحربِ بين الطَّوائفِ.

قَوْلُهُ: «بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَانِ» الطَّائفتان المختلفتان هما أهلُ التَّعطيلِ وأهلُ التَّمثيلِ، أهلُ التَّعطيلِ غَلَوْا في التَّنزيهِ، وأهلُ التَّمثيلِ غَلَوْا في الإثباتِ.

فهم أطفؤوا نورَ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ لأنَّه إذا صُرِفَت نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ عن ظاهرِها زَالَ رونقُها و زال نورُها، وصارت كلماتٍ ممزوجةً لا تفيدُ اليقينَ.

٣٧٦٨- وَاللهُ مُطْفِيهَــا بِأَلْسِــنَةِ الأُلَى   قَــدْ خَصَّــهُمْ بِــالعِلْمِ وَالإِيــمَانِ

ولا شَكَّ أنَّ الذين أوقدوا الحربَ بين الأُمَّةِ بهذه التَّحريفاتِ وهذا التَّعطيلِ أنَّهم أوقدوها، ولكنَّ اللهَ أطفأها بألسنةِ الأُلَى؛ يعني: «الذين» قد خَصَّهم بالعلمِ والإيمانِ.

٣٧٦٩- وَاللهِ لَوْ غَرِقَ الـمُجَسِّمُ فِي دَمِ التْـ   تَجْسِــيمِ مِــنْ قَــدَمٍ إِلَى الآذَانِ

(١) البيت لأبي النجم، كما في صحاح الجوهري (٦/ ٢٢٥٧).

٣٧٧٠- فَالنَّصُّ أَعْظَـمُ عِنْـدَهُ وَأَجَـلُّ قَـدْ رًا أَنْ يُعَارِضَـــهُ بِقَــوْلِ فُــلانِ

الله أكبر، المُجَسِّمُ -على زَعمِهم- يقولُ: لو غَرِقَ في دمِ التَّجسيمِ من قدَمِه إلى أُذنِه بتمويهِكم وتمثيلِكم عنه لكان النَّصُّ عنده أعظمَ وأجلَّ قدرًا من أن يُعْارِضَه بقولِ فلانٍ؛ يعني: فقولوا ما شئتم، لا يهمُّنا أن ترمونا بالتَّجسيمِ وأن تجعلونَنا من القدمِ إلى الآذان مُجَسِّمَةً، لا يهمُّنا هذا، فلن نُقَدِّمَ قَولَ أحدٍ على قولِ الله ورسولِه.

وهذا ثناءٌ من المؤلِّف -رحمه الله تعالى- على أهلِ الإثباتِ بالثَّباتِ، وعدمِ معارضةِ النُّصوصِ بالآراءِ.

* * *

فصــل

فِي كَسْرِ الطَّاغُوتِ الَّذِي نَفَوْا بِهِ صِفَاتِ ذِي المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ

٣٧٧١- أَهْوِنْ بِذَا الطَّاغُوتِ لا عَـزَّ اسْـمُهُ ... طَاغُوتُ ذِي التَّعْطِيـلِ وَالكُفْـرَانِ

٣٧٧٢- كَمْ مِنْ أَسِيرٍ بَلْ جَرِيحٍ بَـلْ قَتِيــ ... ـلٍ تَحْتَ ذَا الطَّاغُوتِ فِي الأَزْمَـانِ

٣٧٧٣- وَتَرَى الـجَبَانَ يَكَادُ يُخْلَعُ قَلْبُهُ ... مِـنْ لَفْظِـهِ تَبًّـا لِكُـلِّ جَبَـانِ

٣٧٧٤- وَتَرَى المُخَنَّثَ حِينَ يُقْـرَعُ سَـمْعُهُ ... تَبْـدُو عَلَيْـهِ شَـمَائِلُ النِّسْـوَانِ

٣٧٧٥- وَيَظَـلُّ مَنْكُوحًـا لِكُـلِّ مُعَطِّـلٍ ... وَلِكُـلِّ زِنْـدِيقٍ أَخِـي كُفْـرَانِ

٣٧٧٦- وَتَرَى صَبِيَّ العَقْلِ يُفْزِعُـهُ اسْـمُهُ ... كَـالغُولِ حِـينَ يُقَـالُ لِلصِّـبْيَانِ

٣٧٧٧- كُفْـرَانَ هَـذَا الإِسْـمِ لَا سُـبْحَانَهُ ... أَبَـدًا وَسُـبْحَانَ العَظِـيمِ الشَّـانِ

٣٧٧٨- كَمْ ذَا التَّتَرُّسُ بِالـمَحَالِ أَمَا تَـرَى ... قَـدْ مَزَّقَتْـهُ كَثْـرَةُ السَّـهْمَانِ

٣٧٧٩- جِسْـمٌ وَتَجْسِـيمٌ وَتَشْـبِيهٌ أَمَــا ... تَعْيُـونَ مِـنْ فَشْـرٍ وَمِـنْ هَـذَيَانِ

٣٧٨٠- أَنْتُمْ وَضَعْتُمْ ذَلِكَ الطَّـاغُوتَ ثُـمْ ... مَ بِـهِ نَفَيْـتُمْ مُوجِـبَ القُـرْآنِ

٣٧٨١- وَجَعَلْتُمُـوهُ شَـاهِدًا بَـلْ حَاكِـمًا ... هَـذَا عَـلَى مَـنْ يَـا أُولِي العُـدْوَانِ

٣٧٨٢- أَعَـلَى كِتَـابِ الله ثُـمَّ رَسُـولِهِ ... بِـالله فَاسْـتَحْيُوا مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٣٧٨٣- فَقَضَاؤُهُ بِالـجَوْرِ وَالعُـدْوَانِ مِثْــ ... ـلُ قِيَامِـهِ بِـالزُّورِ وَالعُـدْوَانِ

٢٧٨٤- وَقِيَامُـهُ بِـالزُّورِ مِثْـلُ قَضَـائِهِ ... بِالْـجَوْرِ وَالعُـدْوَانِ وَالبُهْتَـانِ

الشــرحُ

قَوْلُهُ: «الطَّاغُوت» أصلُ الطَّاغوتِ من الطُّغيانِ، وهو مجاوزةُ الحدِّ، ومعلومٌ أنَّ الطَّاغوتَ فيه تاءٌ زائدةٌ؛ لأنَّه إذا كان من الطُّغيانِ فأصولُ الحروفِ: طاءٌ، وغينٌ، وياءٌ، والتَّاءُ زائدةٌ، وتُزَادُ التَّاءُ في آخرِ الكلمةِ للمبالغةِ أحيانًا كما في قولِهم: «فلانٌ علَّامةٌ»؛ أي: كثيرُ العلمِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النَّحل:١٢٠]؛ أي: إمامًا، لكنَّه أهلٌ للإمامةِ، فما هو الطَّاغوتُ؟ قال رحمه الله:

٢٧٧١- أَهْوِنْ بِذَا الطَّاغُوتِ لا عَـزَّ اسْـمُهُ ... طَاغُوتُ ذِي التَّعْطِيـلِ وَالكُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «أَهْوِنْ بِذَا» صيغةُ تعجُّبٍ؛ يعني: ما أهونَهُ! ومثلُ هذه الصِّيغةِ قولُه تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨]؛ يعني: ما أسمعَهم وما أبصرَهم يَوْمَ يأتوننا!

قَوْلُهُ: «لَا عَزَّ اسْمُهُ»؛ أي: لا ارتفع وغَلَبَ.

٢٧٧٢- كَمْ مِنْ أَسِيرٍ بَلْ جَرِيحٍ بَـلْ قَتِيـ ... ـلٍ تَحْتَ ذَا الطَّاغُوتِ فِي الأَزْمَـانِ

يعني: أنَّ هذا الطَّاغوتَ كان منه الأسرى، وكان منه الجَرْحَى، وكان منه القَتْلَى، فتَرَقَّى المؤلِّفُ -رحمه الله- من الأهونِ إلى الأعظمِ.

٢٧٧٣- وَتَرَى الـجَبَانَ يَكَـادُ يُخْلَـعُ قَلْبُـهُ ... مِـنْ لَفْظِـهِ تَبًّـا لِكُـلِّ جَبَـانِ

تَرَى الجبانَ يَكَادُ يُخْلَعُ قلبُه من هذا اللَّفظِ، ثُمَّ قال: «تَبًّا»؛ أي: خسارًا لكُلِّ جبانٍ.

٣٧٧٤- وَتَرَى الْمُخَنَّثَ حِينَ يُقْرَعُ سَمْعُهُ تَبْدُو عَلَيْهِ شَمَائِلُ النِّسْوَانِ

الْمُخَنَّثُ؛ يعني: الذي سَلَبَ الذُّكوريَّةَ عن نفسِه وجَعَلَ نفسَه بمنزلةِ النِّسوانِ، إذا سَمِعَ هذا الطَّاغوتَ تبدو عليه شمائلُ النِّسوان؛ أي: صفاتُ النِّسوان.

٣٧٧٥- وَيَظَلُّ مَنْكُوحًا لِكُلِّ مُعَطِّلٍ وَلِكُلِّ زِنْدِيقٍ أَخِي كُفْرَانِ

يعني: أنَّهم يجعلونه بمنزلةِ المرأةِ، يُهينونه بالنِّكاحِ.

٣٧٧٦- وَتَرَى صَبِيَّ العَقْلِ يُفْزِعُهُ اسْمُهُ كَالغُولِ حِينَ يُقَالُ لِلصِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَتَرَى صَبِيَّ العَقْلِ يُفْزِعُهُ اسْمُهُ» «صَبِيُّ العَقْلِ»؛ يعني: الذي عقلُه صغيرٌ لم يشتدَّ يفزعُه اسمُه.

قَوْلُهُ: «كَالغُولِ حِينَ يُقَالُ لِلصِّبْيَانِ» الغولُ يُخَوَّفُ به الصِّبيانُ، يُقَالُ للصَّبيِّ: اسكت حتى لا يأتيك الغولُ، والغولُ هذا ليس له أصلٌ.

٣٧٧٧- كُفْرَانَ هَذَا الإِسْمِ لَا سُبْحَانَهُ أَبَدًا وَسُبْحَانَ العَظِيمِ الشَّانِ

المؤلِّف في الأوَّل قال: «لَا عَزَّ اسْمُهُ»، وقال: «أَهْوِنْ بِذَا»، وهنا صرَّحَ بأنَّه كافرٌ بهذا الطَّاغوتِ، وأنَّه لا يُنزِّهُه ولا يُعَظِّمُه ولا يراه شيئًا، وسبحانَ العظيمِ الشَّانِ!

٣٧٧٨- كَمْ ذَا التَّتَرُّسُ بِالمَحَال أَمَا تَرَى قَدْ مَزَّقَتْهُ كَثْرَةُ السُّهْمَانِ

يعني: كم تترَّسوا بهذا المُحَالِ! ولكن سُهمانُ أهلِ الحقِّ تُخَرِّقُه وتُمَزِّقُه لكن ما هذا الذي يتكلَّمُ عنه المؤلِّفُ حتَّى جعلنا نشتاقُ ونتطلَّعُ، ما هذا الطَّاغوتُ؟ يقولُ:

٣٧٧٩- جِسْمٌ وَتَجْسِيمٌ وَتَشْبِيهٌ أَمَا تَعْيُونَ مِنْ فَشْرٍ وَمِنْ هَذَيَانِ

هذا هو الطَّاغوتُ، إذا قلتَ: «إِنَّ اللهَ استوى على العرشِ» وضع يديه على رأسِه متعجِّبًا مستنكرًا، قال: أعوذُ بالله، جسمٌ على جسمٍ! إذا قلتَ: «يأتي» قال: أعوذُ بالله، جسمٌ، اتَّقِ اللهَ! خفِ اللهَ! لا تصفِ اللهَ بالتَّجسيمِ، صبيُّ العقلِ يتوحَّشُ من هذا، والجبانُ يهربُ منه، يقول: إِذَنْ أعوذُ بالله، أنا لا أُجَسِّمُ، هل إذا قلتُ: «استوى على العرشِ» أكونُ مُجَسِّمًا؟ قال: نعم، قال: إِذَنْ أعوذُ بالله من ذلك، إِذَنْ أَبْلِغْنِي -جزاكَ اللهُ خيرًا- ما معنى استوى على العرشِ؟ قال: معناه «استولى»، قال ذلك حتَّى لا يُجَسِّمُ، لأَنَّه لَعِبَ به، قال: أنت إذا أَثْبَتَّ هذا صِرْتَ مُجَسِّمًا، وصِرْتَ من أهلِ التَّجسيمِ والتَّشبيهِ، والإنسانُ الذي ليس عنده إدراكٌ صغيرُ العقلِ يظنُّ أنَّ هذا الكلامَ حقيقةٌ فيتوقَّف، ويقولُ: أعوذُ بالله من التَّجسيمِ ومن كُلِّ شيءٍ يستلزمُ التَّجسيمَ، ثُمَّ يُنْكِرُ الصِّفاتِ التي أَثْبَتَهَا اللهُ لنفسِه بهذه الحُجَّةِ الباطلةِ.

إِذَنْ ابنُ القيِّم بَيَّنَ لنا بعد أن جعلنا نشتاقُ إلى معرفةِ هذا الطَّاغوتِ بأنَّ الطَّاغوتَ هو التَّجسيمُ، الغارةُ على أهلِ السُّنَّةِ بالتَّجسيمِ.

وتقدَّم أنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- ذكَر أنَّ أهلَ التَّعطيلِ ارتكبوا طاغوتًا اعتَدْوا به على أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، واستطالوا به على النُّصوصِ، هذا الطَّاغوتُ هو الجسمُ والتَّجسيمُ، فجعلوه كالغولِ عند الصِّبيانِ أمامَ العامَّةِ، وقالوا: من باب التَّشويهِ للمثبتةِ قالوا: إِنَّهم مُجَسِّمَةٌ، يقولونه أمامَ العالَمِ، والعامَّةُ يظنُّون أنَّ هذه الكلمةَ تعني أنَّ اللهَ تعالى مماثِلٌ للخلقِ، فالمؤلِّفُ بَيَّنَ أنَّ هذا خطأٌ فقال:

٣٧٨٠- أَنْتُمْ وَضَعْتُمْ ذَلِكَ الطَّاغُوتَ ثُمْ مَ بِهِ نَفَيْتُمْ مُوجِبَ القُرْآنِ

٣٧٨١- وَجَعَلْتُمُوهُ شَاهِدًا بَلْ حَاكِمًا هَذَا عَلَى مَنْ يَا أُولِي العُدْوَانِ

جعَلُوه حاكمًا وشاهدًا على الله سبحانه وتعالى، فقالوا مثلًا: إنَّ اللهَ إذا قال في كتابه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، ولو أَثْبَتْنَا المعنى على ظاهرِه لَزِمَ أن يكونَ اللهُ جسمًا، وعلى هذا فننفي الاستواءَ، فجعلوا هذا الطَّاغوتَ حاكمًا على كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، وجعلوه حَكَمًا يَرْجِعون إليه في هذا الباب؛ ولهذا قال: «**عَلَى مَنْ يَا أُولِي العُدْوَانِ**».

٣٧٨٢- أَعَلَى كِتَابِ الله ثُمَّ رَسُولِهِ بِالله فَاسْتَحْيُوا مِنَ الرَّحْمَنِ

يعني: أتجعَلونه حَكَمًا على كتابِ الله وعلى رسولِ الله ﷺ؟! استحيوا من الله عزَّ وجلَّ، ولكن مَنْ كان قَدْرُ الله عنده موزونًا بعقلِه فإنَّه لم يستحي من الله، لأنَّ قَدْرَ الله موزونٌ بالوحي «**بالكتابِ والسُّنَّةِ**».

٣٧٨٣- فَقَضَاؤُهُ بِالجَوْرِ وَالعُدْوَانِ مِثْـلُ قِيَامِهِ بِالزُّورِ وَالعُدْوَانِ

٣٧٨٤- وَقِيَامُهُ بِالزُّورِ مِثْلُ قَضَائِهِ بِالجَوْرِ وَالعُدْوَانِ وَالبُهْتَانِ

معنى كلامِ المؤلِّفِ: أنَّ هؤلاءِ قَضَوْا بالجَوْرِ والعدوانِ كما أنَّهم تكلَّموا بالزُّورِ والبهتانِ، فقَضَوْا بالجَوْرِ والعدوانِ حيث جعلوا عقولَهم حَكَمًا على كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، ثُمَّ قَضَوْا بالزُّورِ والبهتانِ حيثُ نَفَوْا ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه وأَثْبَتَهُ رسولُه ﷺ، وقالوا: إنَّ هذا يقتضي التَّجسيمَ، فجمعوا بين الزُّورِ والبهتانِ في القولِ وبين الجَوْرِ والعدوانِ في الحُكْمِ.

* * *

٣٧٨٥- كَمْ ذِي الجَعَاجِعَ لَيْسَ شَيْءٌ تَحْتَهَا ... إِلَّا الصَّدَى كَالْبُومِ فِي الخِرْبَانِ

٣٧٨٦- وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ مُلْحِدِكُمْ وَقَدْ ... جَحَدَ الصِّفَاتِ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ

٣٧٨٧- لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ مُرَكَّبًا ... فَالوَصْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ

٣٧٨٨- ذَا المَنْجَنِيقُ وَذَلِكَ الطَّاغُوتُ قَدْ ... هَدَمَا دِيَارَكُمُ إِلَى الأَرْكَانِ

٣٧٨٩- وَاللهُ رَبِّي قَدْ أَعَانَ بِكَسْرِ ذَا ... وَبِقَطْعِ ذَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ

٣٧٩٠- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ هَذَا لازِمٌ ... لِمَقَالِكُمْ حَقًّا لُزُومَ بَيَانِ

٣٧٩١- فَلَنَا جَوَابَاتٌ ثَلاثٌ كُلُّهَا ... مَعْلُومَةُ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

٣٧٩٢- مَنْعُ اللُّزُومِ وَمَا بِأَيْدِيكُمْ سِوَى ... دَعْوَى مُجَرَّدَةٍ عَنِ البُرْهَانِ

٣٧٩٣- لا يَرْتَضِيهَا عَالِمٌ أَوْ عَاقِلٌ ... بَلْ تِلْكَ حِيلَةُ مُفْلِسٍ فَتَّانِ

الشَّرحُ

٣٧٨٥- كَمْ ذِي الجَعَاجِعَ لَيْسَ شَيْءٌ تَحْتَهَا ... إِلَّا الصَّدَى كَالْبُومِ فِي الخِرْبَانِ

قَوْلُهُ: «الجَعَاجِعَ» تَقَدَّمَ معناها وهي الأصواتُ التي لا تفيدُ شيئًا، ومنه المَثَلُ المعروفُ: «**أَسْمَعُ جَعْجَعَةً وَلَا أَرَى طِحْنًا**»؛ يعني: أَسْمَعُ أصواتًا مُزْعِجَةً من هذا الرَّحَى ولكن لا أَرَى طِحْنًا؛ يعني: لا أرى طحينًا، وهنا يقول: «**إِلَّا الصَّدَى كَالْبُومِ فِي الخِرْبَانِ**»؛ يعني: البوم في المواضعِ الخَرِبَةِ تُصَوِّتُ وتُدَوِّي ولكن لا تفيدُ شيئًا، فهذه أصواتُكم كأصواتِ البومِ في المواضع الخَرِبَةِ لا تفيدُ شيئًا.

٣٧٨٦- وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ مُلْحِدِكُمْ وَقَدْ ... جَحَدَ الصِّفَاتِ لِفَاطِرِ الأَكْوَانِ

٣٧٨٧- لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ مُرَكَّبًا فَالوَصْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ

هذا طاغوتٌ آخَرُ أيضًا، وهو أنَّه لو كان مُتَّصِفًا بالصِّفاتِ لكان مركَّبًا من الصِّفةِ والذَّاتِ، والتَّركيبُ ممتنعٌ على الله؛ لأنَّ التَّركيبَ يستلزمُ الحدوثَ وافتقارَ المركَّبَيْنِ بعضِهما إلى بعضٍ، وحينئذٍ يجبُ إنكارُ الصِّفاتِ.

٣٧٨٨- ذَا المَنْجَنِيقُ وَذَلِكَ الطَّاغُوتُ قَدْ هَدَمَا دِيَارَكُمْ إِلَى الأَرْكَانِ

المؤلِّفُ -رحمه الله- جعل التَّجسيمَ طاغوتًا، وجعل القولَ بأنَّ الوصفَ يلزمُ منه التَّركيبُ جعله منجنيقًا، والمعنى أو المؤدَّى واحدٌ؛ لأنَّ المقصودَ بالتَّجسيمِ والتَّركيبِ هو رَدُّ ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ من صفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

٣٧٨٩- وَاللهُ رَبِّي قَدْ أَعَانَ بِكَسْرِ ذَا وَبِقَطْعِ ذَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ

أعان اللهُ عزَّ وجلَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ على كسرِ الطَّاغوتِ وعلى قطعِ المنجنيق فتَهَدَّمَ -ولله الحمدُ- بنيانُهم، وصاروا يُخْرِبُون بيوتَهم بأيدِيهم وأيدي المؤمنين، ثُمَّ بدأ المؤلِّفُ يُبيِّنُ الكسرَ والقطعَ فقال:

٣٧٩٠- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ هَذَا لازِمٌ لِمَقَالِكُمْ حَقًّا لُزُومَ بَيَانِ

٣٧٩١- فَلَنَا جَوَابَاتٌ ثَلاثٌ كُلُّهَا مَعْلُومَةُ الإِيضَاحِ وَالتِّبْيَانِ

ثُمَّ ذَكَرَ الجوابَ الأوَّلَ فقال:

٣٧٩٢- مَنْعُ اللُّزُومِ وَمَا بِأَيْدِيكُمْ سِوَى دَعْوَى مُجَرَّدَةٍ عَنِ البُرْهَانِ

٣٧٩٣- لا يَرْتَضِيهَا عَالِمٌ أَوْ عَاقِلٌ بَلْ تِلْكَ حِيلَةُ مُفْلِسٍ فَتَّانِ

يعني: إذا قالوا: إنَّه يلزمُ من ثُبوتِ الصِّفةِ أن يكونَ جِسمًا، نقولُ: لا يلزمُ؛

لأنَّه ليس عندهم إلَّا دعوى فقط، والدَّعْوَى لنا أن نمنعَها كما أنَّه لو ادَّعى شخصٌ على آخَرَ بمئةِ ريالٍ فللمُدَّعَى عليه أن يمنعَ ويقولُ: «هاتِ البيِّنَةَ»، فالأوَّلُ يقولُ: «مَنْعُ اللُّزُومِ».

إِذَنْ الجوابُ الأوَّلُ: هو منعُ اللُّزومِ، ونقولُ: لا تَلازُمَ بين ثُبوتِ الصِّفةِ والجسمِ؛ إذ قد تثبتُ الصِّفاتُ لغيرِ الأجسامِ، أَلَسْنَا نقولُ: هذا يومٌ طويلٌ؟ وهذا فصلٌ حارٌّ؟ الجوابُ: بلى، هل اليوم جسمٌ؟ لا، بل هو زمنٌ ووقتٌ، فإذا قلتم: يلزمُ من ثبوتِ الصِّفةِ أن يكونَ جسمًا، قلنا: هذا ليس بلازمٍ، وهذه دعوى مجرَّدةٌ منكم لا يقبلُها عالـمٌ ولا عَاقِلٌ.

* * *

٣٧٩٤- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ مَنْعَ لُزُومِهِ ... مِنْكُمْ مُكَابَرَةٌ عَلَى البُطْلانِ

٣٧٩٥- فَجَوَابُنَا الثَّانِي امْتِنَاعُ النَّفْيِ فِيـ ... ـمَا تَدَّعُونَ لُزُومَهُ بِبَيَانِ

٣٧٩٦- إِنْ كَانَ ذَلِكَ لَازِمًا لِلنَّصِّ وَالـ ... ـمَلْزُومُ حَقٌّ وَهْوَ ذُو بُرْهَانِ

٣٧٩٧ وَالحَقُّ لَازِمُهُ فَحَقٌّ مِثْلُهُ ... أَنَّى يَكُونُ الشَّيْءُ ذَا بُطْلانِ

٣٧٩٨- وَيَكُونَ مَلْزُومًا بِهِ حَقًّا فَذَا ... عَيْنُ المُحَالِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

٣٧٩٩- فَتَعَيَّنَ الإِلْزَامُ حِينَئِذٍ عَلَى ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

٣٨٠٠- وَجَعَلْتُمُ أَتْبَاعَهُ مَا نَسْتُرَا ... خَوْفًا مِنَ التَّصْرِيحِ بِالكُفْرَانِ

٣٨٠١- وَاللهِ مَا قُلْنَا سِوَى مَا قَالَهُ ... هَذِي مَقَالَتُنَا بِلا كِتْمَانِ

٣٨٠٢- فَجَعَلْتُمُونَا جُنَّةً وَالقَصْدُ مَفْهُـ ... ـومٌ فَنَحْنُ وِقَايَةُ القُرْآنِ

الشـــرحُ

٣٧٩٤- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ مَنْـعَ لُزُومِـهِ   مِـنْكُمْ مُكَـابَرَةٌ عَـلَى الـبُطْلانِ

يعني: لو قلتم: إنَّ هذه مكابرةٌ، ما هي المكابرة؟ منعُ اللُّزوم؛ يعني: منع التَّلازُم؛ يعني: لو قالوا لنا: بل هذا لازمٌ بلا شكٍّ، وكونُكم تقولون: إنَّه ليس بلازم مكابرةٌ، وقد تَقَدَّمَ أنَّ قولَنا بمنعِ التَّلاُزمِ ليس بمكابرةٍ، ووجهُه أنَّه قد يُوصَفُ الشَّيءُ بالصِّفةِ وليس بجسمٍ، فمنعُنا هذا صحيحٌ وليس مكابرةً؛ لأَنَّنا نقولُ: يومٌ طويلٌ، وحرٌّ شديدٌ، وما أشبه ذلك، وهذه ليست أجسامًا، فمنعُنا للتَّلازُمِ ليس بمكابرةٍ؛ لأَنَّنا وجدنا أنَّه يصحُّ، فلا يكونُ مكابرةً، ولكن مع ذلك على التَّنزُّلِ:

٣٧٩٥- فَجَوَابُنَا الثَّـانِي امْتِنَـاعُ النَّفْـيِ فِيـ   ـــمَا تَـــدَّعُونَ لُزُومَـــهُ بِبَيَـــانِ

٣٧٩٦- إِنْ كَانَ ذَلِـكَ لَازِمًـا لِلـنَّصِّ وَالـ   ـمَلْزُومُ حَـقٌّ وَهْـوَ ذُو بُرْهَـانِ

٣٧٩٧ وَالــحَقُّ لَازِمُـــهُ فَحَـــقٌّ مِثْلُـــهُ   أَنَّـى يَكُـونُ الشَّـيْءُ ذَا بُطْـلانِ

٣٧٩٨- وَيَكُـونَ مَلْزُومًـا بِـهِ حَقًّـا فَـذَا   عَـيْنُ المُحَـالِ وَلَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

الجوابُ الثَّاني أن نقولَ: إذا قلتم: إنَّنا مُكَابِرون وأنَّه لا بُدَّ أن يكونَ الموصوفُ جسمًا، فإنَّنا نقولُ: إذا كان كذلك فإنَّنا لا نمنعُ الجسمَ؛ لأَنَّه إذا كان ثبوتُ الجسمِ لازمًا لقولِ الله وقولِ رسولِه؛ فإنَّ قولَ الله وقولَ رسولِه حقٌّ، ولازمُ الحقِّ حقٌّ، ولا يمكنُ أن يكونَ لازمُ الحقِّ باطلًا أبدًا، كما أنَّه لا يمكنُ أن يكونَ لازمُ الباطلِ حقًّا، فأنتم الآن إذا قلتم: يلزمُ من ثُبوتِ الصِّفةِ التي أَثْبَتَهَا اللهُ لنفسِه أن يكونَ اللهُ جسمًا، قلنا مَن الذي أَثْبَتَهُ؟ الجوابُ: اللهُ، وكلامُ الله حقٌّ، وحينئذٍ يكونُ الجسمُ حقًّا؛ لأنَّ لازمَ الحقِّ حقٌّ، ولا يمكنُ أن يكونَ لازمُ الباطلِ باطلًا.

إِذَنْ نلقمُهم حجرًا، نقولُ: إذا كان إثباتُ الصِّفاتِ التي أَثْبَتَها اللهُ لنفسِه يستلزمُ التَّجسيمَ، والتَّجسيمُ حقٌّ ونفيُكم إيَّاه خطأٌ، لماذا كان حقًّا؟ لأنَّه لازمٌ للحقِّ، ولازمُ الحقِّ حقٌّ، لا يمكنُ أن يكونَ اللَّازمُ باطلًا والملزومُ حقًّا أبدًا، ولا يمكنُ العكسُ، وهذا في الحقيقةِ حُجَّةٌ تُلقمُهم حجرًا؛ ولهذا قال: «**فَجَوَابُنَا الثَّانِي امْتِنَاعُ النَّفْيِ فِيمَا تَدَّعُونَ لُزُومَهُ بِبَيَانِ**»، ما هو الذي يدَّعون لزومَه التَّجسيم أو الجسميَّة؟ نقولُ: نحن لا ننفيه، ونقولُ: هو ثابتٌ؛ لأنَّه لازمُ الحقِّ على زعمِكم، ولازمُ الحقِّ حقٌّ؛ ولهذا قال: «**إِنْ كَانَ ذَلِكَ لازمًا لِلنَّصِّ وَالْمَلْزُومُ حَقٌّ**»، وَالحَقُّ لَازِمُهُ فَحَقٌّ ما هو الملزوم؟ النَّصُّ، واللَّازمُ على قولِهم: «**الجسم**».

قَوْلُهُ: «**أَنَّى يَكُونُ الشَّيءُ ذَا بُطْلَانِ؟!**» الشَّيءُ الذي يكونُ ذا بطلانٍ على كلامِهم التَّجسيمُ، فلازمُ الحقِّ حقٌّ، ولا يمكنُ أن يكونَ لازمُ الحقِّ باطلًا، فإذا كان «**الجسمُ**» لازمًا مـمَّا أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه فهو حقٌّ، وإن لم يكن لازمًا فإنَّه لا يصحُّ أن تلزمونا به.

٣٧٩٩- فَتَعَــيَّنَ الإِلْــزَامُ حِينَئِــذٍ عَــلَى ... قَــوْلِ الرَّسُــولِ وَمُحْكَــمِ القُــرْآنِ

على كُلِّ حالٍ الآن تبيَّن أنَّ قولَـهم هذا باطلٌ، **الجوابُ الأوَّل**: أن نمنعَ اللُّزومَ، ونقولَ: هذا مجرَّدُ دعوى، فعليكم بالدَّليلِ.

الثَّاني: سَلَّمْنَا جدلًا أنَّه لازمٌ، فإذا كان لازمًا على قولِ الله وقولِ رسولِه فهو حقٌّ؛ لأنَّ لازمَ الحقِّ حقٌّ، وحِينئذٍ يلزمُكم أن تقولوا به، ونحن إذا قُلنا به فليس علينا حَرَجٌ، وهذا من أهمِّ ما يكونُ، وهو مُفيدٌ للإنسانِ في بابِ المناظرةِ، فإذا نَاظَرْتَ كافرًا أو مُبْتَدِعًا انتفع بهذا التَّقريرِ، بقي الجوابُ الثَّالثُ وسيأتي -إن شاءَ اللهُ- بعد ذلك.

٣٨٠٠- وَجَعَلْتُمُ أَتْبَاعَهُ مَانَسْتُرَا   خَوْفًا مِنَ التَّصْرِيحِ بِالكُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «بِالْكُفْرَانِ»، وفي نسخةٍ: «وَالْكُفْرَانِ»، والأوَّلُ أقربُ إلى الصَّواب إذا جعلنا «مَانَسْتُرَا» هذا اسمَ رجلٍ.

قَوْلُهُ: «جَعَلْتُمُ أَتْبَاعَهُ»؛ أي: أتباعَ الرَّسولِ، والخطابُ الآن للمُعَطِّلَةِ.

على كُلِّ حالٍ هم جعلوا أتباعَ الرَّسولِ كَفَرَةً؛ لأنَّهم يَرَوْنَ أنَّ التَّجسيمَ كفرٌ وأنَّ إثباتَ الصِّفاتِ كفرٌ، يلزمُ مِن هذا أنَّ مَنْ أَثْبَتَ الصِّفاتِ فهو كافرٌ.

٣٨٠١- وَاللهِ مَا قُلْنَا سِوَى مَا قَالَهُ   هَذِي مَقَالَتُنَا بِلا كِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ مَا قُلْنَا سِوَى مَا قَالَهُ» «مَا قُلْنَا»؛ أي: نحن المثبتين للصِّفاتِ «سِوَى مَا قَالَهُ هَذِي مَقَالَتُنَا بِلَا كِتْمَانِ».

٣٨٠٢- فَجَعَلْتُمُونَا جُنَّةً وَالقَصْدُ مَفْهُـ   ـومٌ فَنَحْنُ وِقَايَةُ القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «جَعَلْتُمُونَا جُنَّةً»؛ يعني: صبَبْتُم اللَّوْمَ علينا، وقلتم: أنتم كفرةٌ، والحقيقةُ أنَّكم تَسبُّون الرَّسولَ والقرآنَ؛ لأنَّنا مُتَّبعون للكتابِ والسُّنَّةِ، فجعلتم اللَّوْمَ علينا، والمقصودُ الرَّسولُ والقرآنُ؛ ولهذا قال: «فَجَعَلْتُمُونَا جُنَّةً» تتَّقون بها.

* * *

٣٨٠٣- هَذَا وَثَالِثُ مَا نُجِيبُ بِهِ هُوَ اسْـ   ـتِفْسَارُكُمْ يَا فِرْقَةَ العِرْفَانِ

٣٨٠٤- مَاذَا الَّذِي تَعْنُونَ بِالجِسْمِ الَّذِي   أَلْزَمْتُمُونَا أَوْضِحُوا بِبَيَانِ

٣٨٠٥- تَعْنُونَ مَا هُوَ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ أَوْ   عَالٍ عَلَى العَرْشِ العَظِيمِ الشَّانِ

٣٨٠٦- أَوْ ذَا الَّذِي قَامَتْ بِهِ الأَوْصَافُ أَوْ   صَافُ الكَمَالِ عَدِيمَةُ النُّقْصَانِ

٣٨٠٧- أَوْ مَا تَرَكَّبَ مِنْ جَوَاهِرِ فَرْدَةٍ ... أَوْ صُورَةٌ حَلَّتْ هِيُولِي ثَانِي

٣٨٠٨- أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ الَّذِي فِي العُرْفِ أَوْ ... فِي الوَضْعِ عِنْدَ تَخَاطُبٍ بِلِسَانِ

٣٨٠٩- أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ الَّذِي فِي الذِّهْنِ ذَا ... كَ يُقَالُ تَعْلِيمٌ لِذِي الأَذْهَانِ

٣٨١٠- مَاذَا الَّذِي فِي ذَاكَ يَلْزَمُ مِنْ ثُبُو ... تِ عُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ

٣٨١١- فَأَتَوْا بِتَعْيِينِ الَّذِي هُوَ لازِمٌ ... فَإِذَا تَعَيَّنَ ظَاهِرُ التِّبْيَانِ

٣٨١٢- فَأَتَوْا بِبُرْهَانَيْنِ بُرْهَانِ اللُّزُو ... مِ وَنَفْيِ لازِمِهِ فَذَانِ اثْنَانِ

٣٨١٣- وَاللهِ لَوْ نَشَرَتْ لَكُمْ أَشْيَاخُكُمْ ... عَجَزُوا وَلَوْ وَاطَاهُمُ الثَّقَلَانِ

الشرحُ

٣٨٠٣- هَذَا وَثَالِثُ مَا نُجِيبُ بِهِ هُوَ اسْـ ... ـتِفْسَارُكُمْ يَا فِرْقَةَ العِرْفَانِ

وهذا تهكُّمٌ بهم وسُخريةٌ؛ يعني: أنتم أصحابُ معرفةٍ وأصحابُ علمٍ، وإذا لم تقتنعوا بالجوابِ الأوَّل والثَّاني فإنَّنا نستفسرُكم؛ يعني: نطلبُ منكم التَّفسيرَ، وأنتم أهلٌ للتَّفسيرِ؛ لأنَّكم ذوو عرفانٍ، ولا تهكُّمَ أبلغُ من هذا.

٣٨٠٤- مَاذَا الَّذِي تَعْنُونَ بِالجِسْمِ الَّذِي ... أَلْزَمْتُمُونَا أَوْضِحُوا بِبَيَانِ

٣٨٠٥- تَعْنُونَ مَا هُوَ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ أَوْ ... عَالٍ عَلَى العَرْشِ العَظِيمِ الشَّانِ

نسألُهم: ماذا تريدون بالجسمِ؟ هل تريدون ما هو قَائِمٌ بالنَّفسِ أو عالٍ على العرشِ؟ إن أرادوا ذلك فالجسمُ حقٌّ؛ لأنَّ اللهَ قَائِمٌ بنفسِه عالٍ على عرشِه، وهل يلزمُ من هذا فسادٌ أو نقصٌ؟ أبدًا، أَوْ تَعْنُونَ:

٣٨٠٦- أَوْ ذَا الَّذِي قَامَتْ بِهِ الأَوْصَافُ أَوْ صَـافُ الكَـمَالِ عَدِيمَـةُ النُّقْصَـانِ

إذا قالوا: نعم، نريدُ بالجسمِ ما قامت به الأوصافُ، نقولُ: هو اللهُ، اللهُ تعالى قَامَتْ به الأوصافُ، وما الذي يضرُّ إذا أَثْبَتْنَا جسمًا بهذا المعنى، هذا ليس فيه نقصٌ بوجهٍ من الوجوهِ.

٣٨٠٧- أَوْ مَـا تَرَكَّـبَ مِـنْ جَـوَاهِرِ فَـرْدَةٍ أَوْ صُـورَةٌ حَلَّـتْ هِيُـولِي ثَـانِي

إن أرادوا ذلك فإنَّنا نمنعُهم؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يكن جسمًا بهذا المعنى؛ يعني: جسمًا مركَّبًا من جواهرَ فردةٍ أو صورة حَلَّت هَيُولَى ثاني، والهَيُولَى: مثل: الشَّكل والهيئة.

٣٨٠٨- أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ الَّذِي فِي العُـرْفِ أَوْ فِي الوَضْـعِ عِنْـدَ تَخَاطُـبٍ بِلِسَـانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ؟»؛ يعني: أو تعنون: «مَا هُوَ الجِسْمُ؟».

قَوْلُهُ: «الوَضْعِ» يعني: اللُّغة العربيَّة، إذا أُطلِقَ الوضعُ عند العلماءِ في أصولِ الفقهِ أو غيرِها فالمرادُ بالوضعِ، يعني: اللُّغةَ العربيَّةَ.

قَوْلُهُ: «فِي العُرْفِ»؛ يعني: لغة أهلِ العرفِ.

يعني: تعنون الجسمَ الذي في العرفِ أو في الوضع عند تخاطبٍ بلسانٍ، الجسمُ عند النَّاسِ جسدُ الإنسانِ، والجسمُ بالوضعِ قد يكونُ أعمَّ، كُلُّ ما له ثِقَلٌ.

٣٨٠٩- أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ الَّذِي فِي الذِّهْنِ ذَا كَ يُقَـالُ تَعْلِـيمٌ لِـذِي الأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ؟»؛ يعني: أو تعنون الجسمَ الذي في الذِّهنِ؟

قَوْلُهُ: «ذَاكَ يُقَالُ تَعْلِيمٌ لِذِي الأَذْهَانِ»؛ يعني: يريدون الجسمَ «الكُلِّيَّة» أو

الكُلِّيَّات الذِّهنيَّة، وهذا كما سبق مِرارًا ليس له وجودٌ، الكُلِّيَّةُ الذِّهنيَّةُ ليس لها وجودٌ، مثالُها: «**الحيوان**»، الحيوان كلمةٌ تشملُ كُلَّ ذي حياةٍ من إبلٍ وبقرٍ وغنمٍ وحمرٍ، وغيرِها، وقد يتخيَّلُ الذِّهنُ أنَّ هناكَ حيوانيَّةً عامَّةً تجمعُ هذه الأجناسَ، هذا الذي يتصوَّرُه الذِّهنُ ليس له حقيقةٌ في الخارجِ، ولكنَّه شيءٌ يفرضُه الذِّهنُ، يتخيَّلُ أنَّ الحيوانيَّةَ شملت هذه الأنواعَ.

«**البشريَّة**» أيضًا معنى كُلِّيٌّ يفرضُه الذِّهنُ، وإلَّا فبشريَّتي أنا غيرُ بشريَّتِكِ أنت، لكن الذِّهنُ يتخيَّلُ أنَّ هناك معنى كُلِّيًّا فيه يشتركُ فيه كُلُّ بشرٍ.

يقولُ: هل تعنون بالجسمِ الجسمَ الذِّهنيَّ الذي يتصوَّرُه الذِّهنُ ولا حقيقةَ له في الخارجِ؟ هذا معنى قوله: «**يُقَالُ تَعْلِيمٌ لِذِي الأَذْهَانِ**».

٣٨١٠- مَاذَا الَّـذِي فِي ذَاكَ يَلْـزَمُ مِـنْ ثُبُـو ... تِ عُلُـوِّهِ مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

انعطف الآن المؤلِّفُ على المعنى الأوَّل، ما هو الجسمُ؟ أنَّه القَائِمُ بنفسِه العالِي على عرشِه، ما الذي يلزمُ؟ هل يلزمُ نقصٌ؟ الجوابُ: أبدًا، أو هل يلزمُ مماثلةٌ للمخلوقين؟ الجوابُ: أبدًا.

٣٨١١- فَـأْتُوا بِتَعْيِـينِ الَّـذِي هُـوَ لازِمٌ ... فَـإِذَا تَعَـيَّنَ ظَـاهِرُ التِّبْيَـانِ

٣٨١٢- فَـأْتُوا بِبُرْهَـانَيْنِ بُرْهَـانِ اللُّـزُو ... مِ وَنَفْـيِ لازِمِـهِ فَـذَانِ اثْنَـانِ

معناه: إذا ادَّعَيْتُم أنَّه يلزمُ من ثبوتِ علوِّ الله فوق كُلِّ شيءٍ يلزمُ من ذلك النَّقصُ فَأْتُوا بهذا، عيِّنوه، فإذا تَعَيَّنَ وبيَّنتموه فإنَّنا نطلبُ منكم برهانين: أوَّلًا: برهانَ اللُّزومِ، والثَّاني: نفيَ لازمِه، فإذا أتيتم ببرهانِ اللُّزومِ ونفيِ اللَّازمِ حينئذٍ نقبلُ كلامَكم، ومعنى «**بُرْهَانِ اللُّزُومِ**»؛ يعني: أن تأتوا بأنَّ هذا لازمٌ لهذا، هذا

واحدٌ، ثُمَّ تقولون: وهذا اللَّازمُ منفيٌّ، فلا بُدَّ من أمرين إذَنْ:

الأوَّل: إثبات أنَّ هذا لازمٌ لهذا، والثَّاني: نفي هذا اللَّازمِ، فمثلًا إذا قالوا يلزمُ من هذا النَّقصُ، قلنا: أثْبِتُوا هذا اللَّازمَ، ثُمَّ أَثْبِتُوا أنَّ هذا النَّوعَ من اللَّوازمِ منتفٍ، فإن لم تُثْبِتُوا هذا ولا هذا فقد عجزتم عن الجوابِ.

إذَنْ هذا الذي يدَّعِي اللَّازمَ مُطَالَبٌ بإثباتِ أنَّ هذا لازمٌ، فإذا أَثْبَتَ أنَّ هذا لازمٌ يُطَالَبُ بطلبٍ آخرَ وهو أنَّ هذا اللَّازمَ يلزمُ نفيُه، هذا معنى كلامِ المؤلِّف.

٣٨١٣- وَالله لَوْ نَشَرَتْ لَكُمْ أَشْيَاخُكُمْ ... عَجَزُوا وَلَوْ وَاطَاهُمُ الثَّقَلَانِ

لو أنَّ أشياخَكم الذين تُقلِّدونهم الآن وتتَّبعونهم نُشِرُوا وأحياهم اللهُ عجزوا عن إثباتِ ذلك.

* * *

٣٨١٤- إنْ كُنْتُمُ أَنْتُمْ فُحُولًا فَابْرُزُوا ... وَدَعُوا الشَّكَاوَى حِيلَةَ النِّسْوَانِ

٣٨١٥- وَإِذَا اشْتَكَيْتُمْ فَاجْعَلُوا الشَّكْوَى إِلَى الـ ... ـوَحْيَيْنِ لَا القَاضِي وَلا السُّلْطَانِ

٣٨١٦- فَنُجِيبُ بِالتَّرْكِيبِ حِينَئِذٍ جَوَا ... بًا شَافِيًا فِيهِ هُدَى الحَيْرَانِ

٣٨١٧- الحَقُّ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ وَنَفْيُهَا ... عَيْنُ المُحَالِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ

٣٨١٨- فَالجِسْمُ إِمَّا لَازِمٌ لِثُبُوتِهَا ... فَهُوَ الصَّوَابُ وَلَيْسَ ذَا بُطْلَانِ

٣٨١٩- أَوَلَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ ... فَشَنَاعَةُ الإِلْزَامِ بِالبُهْتَانِ

٣٨٢٠- فَالمَنْعُ فِي إِحْدَى المُقَدِّمَتَيْنِ مَعْـ ... ـلُومُ البَيَانِ إِذَن بِلا نُكْرَانِ

٣٨٢١- الـــمَنْعُ إِمَّـــا فِي اللُّـــزُومِ أَوِ انْتِفَـــا ءِ الـــلَّازِمِ المَنْسُـــوبِ لِلـــبُطْلَانِ

٣٨٢٢- هَذَا هُوَ الطَّاغُوتُ قَدْ أَضْحَى كَـمَا أَبْصَرْتُـــمُوهُ بِمِنَّـــةِ الـــرَّحْمَنِ

الشـــرحُ

٣٨١٤- إِنْ كُنْـتُمْ أَنْـتُمْ فُحُـولًا فَـابْرُزُوا وَدَعُوا الشَّكَاوَى حِيلَـةَ النِّسْـوَانِ

وهذا تحدٍّ، هكذا ينبغي أن يكونَ الإنسانُ قويًّا أمامَ الباطلِ، يقولُ: «**إِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ فُحُولًا فَابْرُزُوا وَدَعُوا الشَّكَاوَى حِيْلَةَ النِّسْوَانِ**»؛ لأنَّ أعداءَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أكثر ما يعتمدون على الشَّكاوى إلى السَّلاطين والخلفاءِ، يشكون هذا إلى الخليفةِ، يقولون: هذا أَضَلَّ النَّاسَ، هذا فَعَلَ، هذا فَعَلَ، ثُمَّ الخليفةُ جاهلٌ يأمرُ بحبسِه، أو يأمرُ بجرِّه في الأسواقِ في ذيولِ الخيولِ أو البغالِ، أو ما أشبه ذلك، كما فعل المأمونُ في الإمامِ أحمدَ رحمه الله.

٣٨١٥- وَإِذَا اشْتَكَيْتُمْ فَاجْعَلُوا الشَّكْوَى إِلَى الـ ـوَحْيَيْنِ لَا القَاضِي وَلا السُّـلْطَانِ

وهذا صحيحٌ، هل الإنسانُ المُحِقُّ يذهبُ إذا عجز عن مناظرتي وعن مُقاوَمتي يذهبُ إلى القاضي أو إلى الحاكمِ «**السُّلطان**»؟! هذا يدلُّ على ضَعفِه، إذا كان صادقًا فليتفضَّل، فهذا القُرآنُ وهذه السُّنَّةُ، فالشَّكوى إلى القُرآنِ والسُّنَّةِ لا إلى القاضي والسُّلطانِ.

٣٨١٦- فَنُجِيـبُ بِالتَّرْكِيـبِ حِينَئِـذٍ جَـوَا بًـا شَـافِيًا فِيـهِ هُـدَى الحَـيْرَانِ

قَوْلُهُ: «**فَنُجِيبُ بِالتَّرْكِيبِ**»، يعني: بجوابٍ مُركَّبٍ من إثباتٍ ونفيٍ كما سَيُبيِّنُه.

٣٨١٧- الحَـقُّ إِثْبَـاتُ الصِّـفَاتِ وَنَفْيُهَـا عَـيْنُ المُحَـالِ وَلَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «الحَقُّ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ» هذا واحدٌ.

قَوْلُهُ: «وَنَفْيُهَا عَيْنُ المُحَالِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ» هذه القاعدةُ.

الحقُّ إثباتُ الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ، ونفيُ الصِّفاتِ عنه عينُ المحالِ؛ أي: مستحيلٌ أن تنتفيَ صفاتُ الكمالِ عنه.

٣٨١٨- فَالجِسْـــمُ إِمَّـــا لَازِمٌ لِثُبُوتِهَـــا فَهُـوَ الصَّـوَابُ وَلَـيْسَ ذَا بُطْـلَانِ

وهذا صحيحٌ، إن كان الجسمُ لازمًا لثبوتِ الصِّفاتِ فهو حقٌّ وصوابٌ، وليس ذا بطلانٍ.

٣٨١٩- أَوَلَيْسَ يَلْـزَمُ مِـنْ ثُبُـوتِ صِـفَاتِهِ فَشَـــنَاعَةُ الإِلْـــزَامِ بِالبُهْتَـــانِ

إن كان لا يلزمُ من إثباتِ الصِّفاتِ الجسمُ فتشنيعكم علينا به بهتانٌ وكَذِبٌ.

٣٨٢٠- فَالـمَنْعُ فِي إِحْدَى الـمُقَدِّمَتَيْنِ مَعْـ ـــلُومُ البَيَـانِ إِذَن بِـلا نُكْـرَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، إحدى المقدِّمَتَيْنِ، نقولُ: إن كان إثباتُ الصِّفاتِ يستلزمُ التَّجسيمَ فهو صوابٌ وحقٌّ، وإن كان لا يستلزمُه فتشنيعكم علينا كَذِبٌ وبهتانٌ، لا بُدَّ إِمَّا هذا وإمَّا هذا.

٣٨٢١- الـــمَنْعُ إِمَّـا فِي اللُّـزُومِ أَوِ انْتِفَـا ءِ الـــلَّازِمِ المَنْسُـــوبِ لِلـــبُطْلانِ

قَوْلُهُ: «المَنْعُ إِمَّا فِي اللُّزُومِ»؛ يعني بأن نقولَ: هذا ليس بلازمٍ، لو ألزمتمونا به فإنَّه ليس بلازمٍ.

قَوْلُهُ: «أَوِ انْتِفَاءِ اللَّازِمِ المَنْسُوبِ لِلْبُطْلَانِ»؛ يعني: أو نقولَ: هو لازمٌ لكن

ليس باطلًا، ننفي اللَّازمَ المنسوبَ للبطلانِ.

٣٨٢٢- هَذَا هُوَ الطَّاغُوتُ قَدْ أَضْحَى كَمَا   أَبْصَرْتُمُوهُ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «أَضْحَى»؛ أي: أَضْحَى صَرِيعًا؛ تقولُ: «**أَضْحَى صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ**»؛ أي: طَاحَ على وجهِه ويديه، فما بَقِيَتْ له حركةٌ.

الخلاصة: أنَّ هذا الطَّاغوتَ هو الجسمُ أو التَّجسيمُ، وتَبَيَّنَ الآن في الجواب عنه ثلاثةُ أوجهٍ:

أوَّلًا: منعُ اللُّزوم، وهل يحقُّ لنا أن نمنعَه؟ الجوابُ: نعم؛ لأنَّ مُدَّعِي اللَّزوم يحتاجُ إلى إثباتٍ، فهو مُدَّعٍ، «**والْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي**»[1].

ثانيًا: على فرضِ أنَّه لازمٌ فإنَّه حقٌّ؛ لأنَّ قولَ الله ورسولِه حقٌّ، ولازمُ الحقِّ حقٌّ، ولا يمكنُ أن يكونَ الملزومُ حقًّا، واللَّازمُ باطلًا، أو بالعكسِ لا يمكنُ.

ثالثًا: التَّفصيلُ، نقولُ: ماذا تعنون بالجسمِ؟ إن أردتم بالجسمِ: القَائِمَ بنفسِه، العاليَ على خَلْقِه، الكاملَ في صفاتِه، فنحن نُقِرُّه وليس فيه شيءٌ، ما الذي يلزمُ؟ وإن أردتم بالجسمِ المُركَّب من الهَيُولَى والصُّورةِ وما أشبه ذلك، أو من الجواهرِ الفردةِ فإنَّنا نمنعُ ذلك، ونقولُ: هذه حُجَّةٌ لا نلتزمُ بها.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه، رقم (١٣١٤).

فصـــل

فِي مَبْدَأِ العَدَاوَةِ الوَاقِعَةِ بَيْنَ المُثْبِتِينَ المُوَحِّدِينَ وَبَيْنَ النُّفَاةِ المُعَطِّلِينَ

٣٨٢٣- يَـا قَـوْمُ تَـدْرُونَ العَـدَاوَةَ بَيْنَنَـا ... مِـنْ أَجْـلِ مَـاذَا فِي قَـدِيمِ زَمَـانِ

٣٨٢٤- إِنَّـا تَحَيَّزْنَـا إِلَى القُـرْآنِ وَالنْـ ... ـنَقْلِ الصَّحِيحِ مُفَسِّـرِ القُـرْآنِ

٣٨٢٥- وَكَذَا إِلَى العَقْلِ الصَّرِيحِ وَفِطْرَةِ الرْ ... رَحْمَـنِ قَبْـلَ تَغَـيُّرِ الإِنْسَـانِ

٣٨٢٦- هِـيَ أَرْبَـعٌ مُتَلازِمَـاتٌ بَعْضُـهَا ... قَـدْ صَـدَّقَتْ بَعْضًـا عَـلَى مِيـزَانِ

٣٨٢٧- وَاللهِ مَـا اجْتَمَعَـتْ لَـدَيْكُمْ هَـذِهِ ... أَبَـدًا كَـمَا أَقْـرَرْتُمْ بِلِسَـانِ

٣٨٢٨- إِذْ قُلْتُمُ العَقْلُ الصَّحِيحُ يُعَارِضُ الْـ ... مَنْقُـولَ مِـنْ أَثَـرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

٣٨٢٩- فَنُقَدِّمُ المَعْقُـولَ ثُـمَّ نُصَـرِّفُ الْـ ... ـمَنْقُولَ بِالتَّأْوِيـلِ ذِي الأَلْـوَانِ

٣٨٣٠- فَـإِذَا عَجَزْنَـا عَنْـهُ أَلْفَيْنَـاهُ لَـمْ ... نَعْبَـأْ بِـهِ قَصْـدًا إِلَى الإِحْسَـانِ

الشَّـرحُ

قَوْلُهُ: «المُثْبِتِينَ»؛ أي: الذين يُثبتون الصِّفاتِ.

قَوْلُهُ: «المُعَطِّلِينَ»؛ أي: الذين ينفون الصِّفاتِ.

٣٨٢٣- يَـا قَـوْمُ تَـدْرُونَ العَـدَاوَةَ بَيْنَنَـا ... مِـنْ أَجْـلِ مَـاذَا فِي قَـدِيمِ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَـوْمُ»، أو «يَا قَـوْمِ» يجوزُ الوجهان، يجوز أن تُراعِيَ المحذوفَ

فتقول: «يَا قَوْمِ»، وأن تنويَ القطعَ عن الإضافةِ فتقول: «يَا قَوْمُ»، لكن الذي في القرآنِ مراعاةُ المحذوفِ كما قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ [الصَّف:٥].

يعني: هل تعلمون ما سببُ العداوةِ التي كانت بيننا من قديمِ الزَّمانِ؛ أي: التي كانت بين المثبتين والمعطِّلين؟ لأنَّ كُلَّ عداوةٍ لا بُدَّ لها من سببٍ، والأسبابُ متعدِّدةٌ، بَيَّنَها رحمه اللهُ في قولِه:

٣٨٢٤- إِنَّـــا تَحَيَّزْنَـــا إِلَى القُـــرْآنِ وَالنْـــ ـــنَقْلِ الصَّـــحِيحِ مُفَسِّـــرِ القُـــرْآنِ

٣٨٢٥- وَكَذَا إِلَى العَقْلِ الصَّرِيحِ وَفِطْرَةِ الـرْ رَحْمَـــنِ قَبْـــلَ تَغَـــيُّرِ الإِنْسَـــانِ

هذه أربعةُ أدلَّةٍ تحيَّزنا إلى القُرآنِ وهو كلامُ الله، والنَّقلِ الصَّحيحِ عن رسولِ الله ﷺ، **والثَّالث**: العقلِ الصَّريحِ؛ أي: السَّالمِ من الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، **الشُّبهات**: التباسُ الحقِّ على الإنسانِ والعياذُ بالله، بحيثُ لا ينجلِي له الحقُّ، وهذا يقعُ كثيرًا، لا ينجلِي للإنسانِ الحقُّ وسببُه الذُّنوبُ، انظر إلى الذي قال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣]، قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليست أساطيرَ الأولين ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]، فمنعتهم أن يَرَوُا الحقَّ حقًّا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

وأمَّا الشَّهواتُ فمعناها الميلُ والإرادةُ، وليس المرادُ بها شهوةَ الجنسِ «**شهوةَ الجماعِ**»، بل المرادُ بالشَّهواتِ الميلُ والإرادةُ، يكون الإنسانُ عنده علمٌ لكن عنده سوءُ قصدٍ لا يريدُ الحقَّ، بل يتبعُ هوى نفسِه.

إِذَنْ العقلُ الصَّريحُ، يعني: السَّالـمُ من الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، سالـمٌ من الشُّبهاتِ؛ يعني: عنده علمٌ، والشَّهوات؛ يعني: عنده إرادةٌ حسنةٌ، والخللُ يأتي إمَّا من الأوَّلِ، وإمَّا من الثَّاني؛ ولذلك لا تجدُ أحدًا خالَفَ الحقَّ إلَّا لقصورٍ في

فهمِه، أو نقصٍ في علمِه، أو تقصيرٍ في طلبِه، أو سوءٍ في قصدِه، هذه أسبابُ قصورِ الإنسانِ أو أسبابُ عدمِ العلمِ.

الرَّابع: «**وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ قَبْلَ تَغَيُّرِ الإِنْسَانِ**» وهي الفطرةُ التي ركَّبَها اللهُ تعالى في قلوبِ العبادِ قبل تغيُّرِ الإنسانِ؛ لأنَّ هؤلاءِ المبتدعةَ تغيَّرت فِطَرُهم والعياذُ بالله، وإلَّا فالفطرةُ السَّليمةُ تُوجِبُ إثباتَ ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه ونَفيَ ما نفى عن نفسِه والسُّكوتَ عمَّا لم يَرِدْ إثباتُه ولا نفيُه، فهذه هي القاعدةُ، فالفطرةُ السَّليمةُ تُؤيِّدُ العقلَ الصَّريحَ والنَّقلَ الصَّحيحَ والقرآنَ.

وَقَوْلُهُ: «**قَبْلَ تَغَيُّرِ الإِنْسَانِ**» أشار رحمه اللهُ إلى الحديثِ الثَّابتِ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1].

٣٨٢٦- هِـيَ أَرْبَـعٌ مُتَلازِمَـاتٌ بَعْضُـهَا قَـدْ صَـدَّقَتْ بَعْضًـا عَـلَى مِيـزَانِ

قَوْلُهُ: «**هِيَ أَرْبَعٌ مُتَلَازِمَاتٌ**» الأربعُ هي: الكتابُ، والسُّنَّةُ، والعقلُ الصَّريحُ، والفِطْرَةُ، هذه أربعٌ متلازماتٌ يُصَدِّقُ بعضُها بعضًا، ويشهدُ بعضُها لبعضٍ؛ ولهذا قال: «**بَعْضُهَا قَدْ صَدَّقَتْ بَعْضًا عَلَى مِيزَانِ**».

٣٨٢٧- وَاللهِ مَـا اجْتَمَعَـتْ لَـدَيْكُمْ هَـذِهِ أَبَـدًا كَـمَا أَقْـرَرْتُمْ بِلِسَـانِ

يقولُ: إنَّ هذه الأربعَ التي اعتمدنا عليها في إثباتِنا لا توجدُ لديكم، فإنَّهم أقرُّوا بأنَّه لا رُجوعَ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ في إثباتِ الصِّفاتِ أو نفيِها، وإنَّما الرُّجوعُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم (١٣٥٨). ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

إلى العقلِ، فإذا تَعارَضَ العقلُ والنَّقلُ قُدِّمَ العقلُ على كلامِهم؛ ولهذا قَالَ المؤلِّفُ:

٣٨٢٨- إِذْ قُلْتُمُ العَقْلُ الصَّحِيحُ يُعَارِضُ الـ   مَنْقُولَ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

٣٨٢٩- فَنُقَدِّمُ المَعْقُولَ ثُمَّ نُصَرِّفُ الـ   ـمَنْقُولَ بِالتَّأْوِيلِ ذِي الأَلْوَانِ

قَوْلُهُ: «فَنُقَدِّمُ المَعْقُولَ»؛ يعني: المعلومَ بالعقلِ.

قَوْلُهُ: «ثُمَّ نُصَرِّفُ المَنْقُولَ بِالتَّأْوِيلِ ذَي الأَلْوَانِ» نُصَرِّفُهُ بالتَّأويلِ بألوانٍ شتَّى؛ تارةً يُقَالُ: إنَّه مجازٌ، أو استعارةٌ، أو تمثيلٌ، أو ما أشبه ذلك ممَّا يقولون.

وقول المؤلِّف: «بِالتَّأْوِيلِ» حقيقةُ هذا التَّأويلِ الذي سلكه المعطِّلون حقيقتُه التَّحريفُ؛ لأنَّهم حَرَّفُوا الكَلِمَ عن مواضعِه؛ ولهذا لـمَّا حصلت المناظرةُ بين شيخِ الإسلامِ -رحمه الله- وخصومِه على العقيدةِ الواسطيَّةِ بَيَّنَ أنَّه عَبَّرَ بالتَّحريفِ فقال: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ»، فقال: لأنَّ التَّأويلَ لا يمكنُ، مع صرفِ الكَلِمِ عمَّا أراد اللهُ، بل يُسَمَّى هذا تحريفًا.

وابنُ القيِّم الآن لا يدلُّ سِياقُ كلامِه على أنَّه وافَقَهُم على أنَّه تأويلٌ؛ لأنَّه يحكي كلامَهم، فقولُه: «فَنُقَدِّمُ المَعْقُولَ ثُمَّ نُصَرِّفُ المَنْقُولَ بِالتَّأْوِيلِ» هذا قولُ المعطِّلةِ.

٣٨٣٠- فَإِذَا عَجَزْنَا عَنْهُ أَلْفَيْنَاهُ لَمْ   نَعْبَأْ بِهِ قَصْدًا إِلَى الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا عَجَزْنَا عَنْهُ أَلْفَيْنَاهُ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ»؛ يعني: وجدناه شيئًا لا نَعْبَأُ به ولا نهتمُّ به، هذا على نسخة: «أَلْفَيْنَاهُ»، وعلى نسخة: «أَلْقَيْنَاهُ» بالقافِ؛ يعني: تركناه وَرَمَيْنَا به.

قَوْلُهُ: «قَصْدًا إِلَى الإِحْسَانِ»؛ يعني: مريدين بذلك الإحسانَ بالتَّوفيقِ بين

المعقولِ والمنقولِ، فقالوا: نُثْبِتُ ما دلَّ عليه المعقولُ، وما خَالَفَهُ من المنقولِ نُحَرِّفُه -أو على عبارتِهم- نُؤوِّلُه ليوافقَ المعقولَ، فنكون بذلك أَحْسَنَّا صُنعًا ووفَّقنا بين الأدِلَّةِ العقليَّةِ والنَّقليَّة.

***

٣٨٣١- وَلَكُمْ بِذَا سَلَفٌ لَـهُمْ تَـابَعْتُمُ ... لَـمَّا دُعُـوْا لِلأَخْـذِ بِـالقُرْآنِ

٣٨٣٢- صَـدُّوا فَلَـمَّا أَنْ أُصِـيبُوا أَقْسَـمُوا ... لِـمُرَادِنَا تَوْفِيـقَ ذِي الإِحْسَـانِ

٣٨٣٣- وَلَقَـدْ أُصِـيبُوا فِي قُلُـوبِهِمُ وَفِي ... تِلْـكَ العُقُـولِ بِغَايَـةِ النُّقْصَـانِ

٣٨٣٤- فَـأَتَوْا بِـأَقْوَالٍ إِذَا حَصَّـلْتَهَا ... أَسْمَعْتَ ضِحْكَةَ هَـازِلٍ مَـجَّانِ

٣٨٣٥- هَذَا جَزَاءُ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الـهُدَى ... مُتَعَوِّضِـينَ زَخَـارِفَ الـهَذَيَانِ

الشَّـرحُ

٣٨٣١- وَلَكُمْ بِذَا سَلَفٌ لَـهُمْ تَـابَعْتُمُ ... لَـمَّا دُعُـوْا لِلأَخْـذِ بِـالقُرْآنِ

٣٨٣٢- صَـدُّوا فَلَـمَّا أَنْ أُصِـيبُوا أَقْسَـمُوا ... لِـمُرَادِنَا تَوْفِيـقَ ذِي الإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «وَلَكُمْ بِذَا سَلَفٌ لَـهُمْ تَابَعْتُمُ» «لَكُمْ» الخطابُ للمعطِّلةِ بهذا العملِ أو بهذا الصَّنيعِ.

يُشيرُ -رحمه الله- إلى قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ

إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَـٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ [النِّساء:٦٠- ٦٢]، وهؤلاء المعطِّلةُ كذلك يقولون: نحن آمنَّا بالله ورسولِه ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾، وهؤلاء المعطِّلةُ تحاكموا إلى الطَّاغوتِ «إلى العقلِ» الذي أبطلوا به السَّمعَ، ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾؛ يعني: أُمِرَ هؤلاء أن يكفروا بالطَّاغوتِ وأن يتحاكموا إلى الله ورسولِه، وهؤلاء المعطِّلةُ أُمِرُوا أن يرجعوا في إثباتِ الصِّفاتِ ونفيِها إلى الكتابِ والسُّنَّةِ، ولكنَّهم أَبَوْا ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدٗا﴾؛ أي: عن الحقِّ بما ارتكبوه من المخالفاتِ، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ تراهم يصدُّون: يُبْعِدون، فلو قلت: تَعَالَوْا أَثْبِتُوا ما أَثْبَتَهُ الكتابُ والسُّنَّةُ صدُّوا وأعرضوا، ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ واطُّلِع عليهم وعُثِرَ عليهم ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَـٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾، ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ ؛ يعني: ما أردنا إلَّا إحسانًا وتوفيقًا بين الطَّاغوتِ وبين حكمِ الله فيمَنْ تَحدَّثَ اللهُ عنهم، وهؤلاء يقولون: ما أردنا إلَّا الإحسانَ والتَّوفيقَ بين الأدلَّةِ العقليَّةِ والنَّقليَّةِ، لأنَّنا إذا أوَّلنا القرآنَ والسُّنَّةَ ليطابقَ المعقولَ عندنا تَوَافقَت الأدلَّةُ العقليَّةُ والنَّقليَّةُ.

٣٨٣٣- وَلَقَـدْ أُصِيبُوا فِي قُلُوبِهِمُ وَفِي ... تِلْكَ العُقُولِ بِغَايَةِ النُّقْصَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَقَدْ أُصِيبُوا»؛ يعني: هؤلاء المعطِّلة في قلوبِهم وفي عقولِهم، «في قلوبِهم»؛ لأنَّهم لم يريدوا الرُّجوعَ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ، و«وفي عقولِهم»؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّ ما قالوه عقليَّاتٌ وهي في الحقيقةِ وهميَّاتٌ ليس لها حقيقةٌ؛ ولهذا قال:

٣٨٣٤- فَأَتَوْا بِأَقْوَالٍ إِذَا حَصَّلْتَهَا ... أَسْمَعْتَ ضِحْكَةَ هَازِلٍ مَجَّانِ

٣٨٣٥- هَذَا جَزَاءُ المُعْرِضِينَ عَنِ الـهُدَى   مُتَعَوِّضِينَ زَخَارِفَ الـهَذَيَانِ

جزاءُ مَنْ أَعْرَضَ عن كتابِ الله أن تكونَ أقوالُه ضُحْكَةً وهزءًا للنَّاسِ يسخرون بها ولا يعرفون لها قَدْرًا.

* * *

٣٨٣٦- وَاضْرِبْ لَـهُمْ مَثَلًا بِشَيْخِ القَوْمِ إِذْ   يَأْبَى السُّجُودَ بِكِبْرِ ذِي طُغْيَانِ

٣٨٣٧- ثُمَّ ارْتَضَى أَنْ صَارَ قَوَّادًا لِأَرْ   بَابِ الفُسُوقِ وَكُلِّ ذِي عِصْيَانِ

٣٨٣٨- وَكَذَاكَ أَهْلُ الشِّرْكِ قَالُوا كَيْفَ ذَا   بَشَرٌ أَتَى بِالوَحْيِ وَالقُرْآنِ

٣٨٣٩- ثُمَّ ارْتَضُوا أَنْ يَجْعَلُوا مَعْبُودَهُمْ   مِنْ هَذِهِ الأَحْجَارِ وَالأَوْثَانِ

٣٨٤٠- وَكَذَاكَ عُبَّادُ الصَّلِيبِ حَمَوْا بَتَا   رِكَهُمْ مِنَ النِّسْوَانِ وَالوِلْدَانِ

٣٨٤١- وَأَتَوْا إِلَى رَبِّ السَّمَاوَاتِ العُلَى   جَعَلُوا لَهُ وَلَدًا مِنَ الذُّكْرَانِ

٣٨٤٢- وَكَذَلِكَ الجَهْمِيُّ نَزَّهَ رَبَّهُ   عَنْ عَرْشِهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الأَكْوَانِ

٣٨٤٣- حَذَرًا مِنَ الحَصْرِ الَّذِي فِي ظَنِّهِ   أَوْ أَنْ يُرَى مُتَحَيِّزًا بِمَكَانِ

٣٨٤٤- فَأَصَارَهُ عَدَمًا وَلَيْسَ وُجُودُهُ   مُتَحَقِّقًا فِي خَارِجِ الأَذْهَانِ

الشرحُ

٣٨٣٦- وَاضْرِبْ لَـهُمْ مَثَلًا بِشَيْخِ القَوْمِ إِذْ   يَأْبَى السُّجُودَ بِكِبْرِ ذِي طُغْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَاضْرِبْ لَـهُمْ مَثَلًا بِشَيْخِ القَوْمِ» شيخُ القومِ هو إبليسُ.

قَوْلُهُ: «إِذْ يَأْبَى السُّجُودَ بِكِبْرِ ذَي طُغْيَانِ»؛ لأنَّه قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف:١٢]، وهذا كِبْرٌ.

٣٨٣٧- ثُمَّ ارْتَضَى أَنْ صَارَ قَوَّادًا لِأَرْ ... بَابِ الفُسُوقِ وَكُلِّ ذِي عِصْيَانِ

لم يَذِلَّ لله، لكنَّه صار قوَّادًا لأهلِ الفسقِ والعصيانِ.

٣٨٣٨- وَكَذَاكَ أَهْلُ الشِّرْكِ قَالُوا كَيْفَ ذَا ... بَشَرٌ أَتَى بِالوَحْيِ وَالقُرْآنِ

أنكروا رسالةَ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٣٨٣٩- ثُمَّ ارْتَضُوا أَنْ يَجْعَلُوا مَعْبُودَهُمْ ... مِنْ هَذِهِ الأَحْجَارِ وَالأَوْثَانِ

أعوذُ باللهِ؛ يعني: كُلُّ إنسانٍ يخالفُ الحقَّ لا بُدَّ أن يأتيَ بما يُضْحِكُ العقلاءَ، هؤلاء لم ينقادوا إلى البشرِ، قالوا: كيف يكونُ رسولًا وهو بشرٌ؟! لكنَّهم لم يقولوا: «كيف يكونُ معبودًا وهو حجرٌ؟!»، رضوا بأن يكونَ معبودُهم حجرًا، ولم يرضوا أن يكونَ رسولُهم بشرًا.

٣٨٤٠- وَكَذَاكَ عُبَّادُ الصَّلِيبِ حَمَوْا بَتَا ... رِكَهُمْ مِنَ النِّسْوَانِ وَالوِلْدَانِ

البِطْرِيقُ عندهم أظنُّه لا يتزَّوجُ؛ لأنَّه مُنَزَّهٌ عن أن يكونَ له ولدٌ، ولكن ربُّ العالمين لا بأسَ أن يكونَ له ولدٌ؛ ولهذا قال:

٣٨٤١- وَأَتَوْا إِلَى رَبِّ السَّمَاوَاتِ العُلَى ... جَعَلُوا لَهُ وَلَدًا مِنَ الذُّكْرَانِ

مع أنَّ البِطْرِيقَ لا يتزوَّجُ، ولا يُولَدُ له، مُنَزَّهٌ عن الزَّوجةِ والولدِ، وربُّ العالمينِ ليس مُنَزَّهًا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٣٨٤٢- وَكَذَلِكَ الجَهْمِيُّ نَزَّهَ رَبَّهُ ... عَنْ عَرْشِهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الأَكْوَانِ

٣٨٤٣- حَذَرًا مِنَ الـحَصْرِ الَّـذِي فِي ظَنِّـهِ أَوْ أَنْ يُـــرَى مُتَحَيِّـــزًا بِمَكَـــانِ

قال الجهميُّ: إِنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن أن يكونَ فوق العرشِ؛ لأَنَّه إذا كان فوق العرشِ صار محدودًا على محدودٍ، فهو إِذَنْ محصورٌ، أو صار متحيِّزًا في مكانٍ، وهذا أيضًا عندهم ممتنعٌ: ولهذا قال: «أَوْ أَنْ يُرَى مُتَحَيِّـزًا بِمَكَانِ».

٣٨٤٤- فَأَصَـارَهُ عَـدَمًا وَلَـيْسَ وُجُـودُهُ مُتَحَقِّقًـا فِي خَـارِجِ الأَذْهَـانِ

فَأَصَارَهُ عَدَمًا، فقال: هو لا فوقَ العالمِ ولا تحتَه، ولا يمينٌ ولا شمالٌ، ولا متَّصلٌ ولا منفصلٌ، ولا مباينٌ ولا محايثٌ، إِذَنْ صار عدمًا.

* * *

٣٨٤٥- لَكِـنَّما قُـدَمَاؤُهُمْ قَـالُوا بِـأَنْ نَ الذَّاتَ قَدْ وُجِدَتْ بِكُـلِّ مَكَـانِ

٣٨٤٦- جَعَلُوهُ فِي الآبَارِ وَالأَنْجَاسِ وَالـ ـحَانَاتِ وَالخَرِبَـاتِ وَالقِيعَـانِ

٣٨٤٧- وَالقَصْـدُ أَنَّكُـمُ تَحَيَّـزْتُمْ إِلَى الـ آرَاءِ وَهْـيَ كَثِـيرَةُ الـهَذَيَانِ

٣٨٤٨- فَتَلَوَّنَـتْ بِكُـمُ فَجِئْـتُمْ أَنْـتُمُ مُتَلَـوِّنِينَ عَجَائِـبَ الأَكْـوَانِ

٣٨٤٩- وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي قَـدْ قَالَـهُ الأَشْـيَاخُ عَـرْضَ وِزَانِ

٣٨٥٠- وَجَعَلْـتُمُ أَقْوَالَـهُمْ مِيـزَانَ مَـا قَـدْ قَالَـهُ وَالقَـوْلُ فِي المِيـزَانِ

٣٨٥١- وَوَرَدْتُمُ سَفْلَ الـمِيَاهِ وَلَـمْ نَكُـنْ نَـرْضَى بِـذَاكَ الـوِرْدَ لِلظَّمْـآنِ

٣٨٥٢- وَأَخَذْتُمُ أَنْتُمْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ وَنَحْـ ـنُ سِرْنَا فِي الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السلطان

٣٨٥٣- وَجَعَلْتُمُ تُـرْسَ الكَـلامِ مِـجَنَّكُمْ تَبًّـا لِـذَاكَ الـتُّرْسِ عِنْـدَ طِعَـانِ

الشــرحُ

٣٨٤٥- لَكِـــنَّمَا قُـــدَمَاؤُهُمْ قَـــالُوا بِـــأَنْ   نَ الذَّاتَ قَدْ وُجِدَتْ بِكُـلِّ مَكَـانِ

أعوذُ باللهِ، الجهميَّةُ الأوائلُ قالوا: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، والأواخرُ الذين يُقَالُ لهم: «**محقِّقون**» جعلوه عَدَمًا محضًا لا وجودَ له.

٣٨٤٦- جَعَلُوهُ فِي الآبَارِ وَالأَنْجَاسِ وَالـ   ـحَانَاتِ وَالخَرِبَـاتِ وَالقِيعَـانِ

٣٨٤٧- وَالقَصْـدُ أَنَّكُـمُ تَحَيَّـزْتُمْ إِلَى الـ   آرَاءِ وَهْـيَ كَثِـيرَةُ الـهَذَيَانِ

٣٨٤٨- فَتَلَوَّنَـتْ بِكُـمُ فَجِئْـتُمْ أَنْـتُمُ   مُتَلَـوِّنِينَ عَجَائِـبَ الأَكْـوَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، فهم تحيَّزوا إلى الآراءِ فتلوَّنوا، قدماؤهم أَثْبَتُوه في كُلِّ مكانٍ، ومُتأخِّروهم نَفَوْه عن كُلِّ مكانٍ، وهذا تلونٌ عجيبٌ؛ لأنَّهم يتَّبعون ما يدَّعونه عقليَّاتٍ وهي وهميَّاتٌ.

٣٨٤٩- وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي   قَـدْ قَالَـهُ الأَشْـيَاخُ عَـرْضَ وِزَانِ

يعني: عرضتم قولَ الرَّسولِ على أقوالِ الشُّيوخِ عرضَ موازنةٍ لا عرضَ مفاضلةٍ، لو عرضوه عَرْضَ مفاضلةٍ وقالوا: «**الفضلُ لقولِ الرَّسولِ**» لكان هذا صحيحًا، لو عرضوا قولَ الرَّسولِ على قولِ أشياخِهم عرضَ مفاضلةٍ على أنَّ الفضلَ لقولِ الرَّسولِ، لكان هذا حقًّا، لكن عرضوه عرضَ موازنةٍ، ثُمَّ فَضَّلوا أقوالَ شيوخِهم، وهذه مشكلةٌ أيضًا.

٣٨٥٠- وَجَعَلْـتُمُ أَقْوَالَـهُمْ مِيـزَانَ مَـا   قَـدْ قَالَـهُ وَالقَـوْلُ فِي المِيـزَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالقَوْلُ فِي المِيزَانِ**»، وفي نسخةٍ: «**وَالعَدْلُ فِي المِيزَانِ**»، أو «**وَالعَدْلَ فِي**

المِيزَانِ»؛ يعني: جعلتموه العدلَ؛ أي: المعادلَ، ونسخةُ «العَدْل» أحسنُ.

٣٨٥١- وَوَرَدْتُمُ سَفْلَ المِيَاهِ وَلَمْ نَكُنْ نَرْضَى بِذَاكَ الوِرْدَ لِلظَّمْآنِ

يعني: أنَّهم وَرَدُوا سُفْلَ المياه لا أعلاها النَّقيّ، ولم نكن نرضى بذاك الوِرْدِ للظَّمْآنِ، يعني: وأمَّا نحن فلا نَرْضَى بذاك الوِرْدِ الذي وردتم، بل نشربُ من فوق.

٣٨٥٢- وَأَخَذْتُمُ أَنْتُمْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ وَنَحْـ ـنُ سِرْنَا فِي الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السلطان

الظَّاهر أنَّ صوابَ البيتِ:

وَأَخَذْتُمُ أَنْتُمْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيـ ـقِ وَنَحْنُ سِرْنَا الأَعْظَمَ السُّلْطَانِ

«بُنَيَّات الطَّريقِ»؛ يعني: الطَّرق الصَّغيرة التي لا تُسْلَكُ، والطَّريقُ الأعظمُ هو الطَّريقُ الرئيسُ الذي يسلكُه السُّلطانُ، أو أنَّه الأعظمُ السُّلْطَانِ؛ لأنَّها تتفرَّعُ من الطُّرقِ.

٣٨٥٣- وَجَعَلْتُمْ تُرْسَ الكَلامِ مِجَنَّكُمْ تَبًّا لِذَاكَ التُّرْسِ عِنْدَ طِعَانِ

قَوْلُهُ: «جَعَلْتُمُ تُرْسَ الكَلَامِ مِجَنَّةً»؛ يعني: تترَّستم بعلمِ الكلامِ فيما ذهبتم إليه.

* * *

٣٨٥٤- وَرَمَيْتُمُ أَهْلَ الحَدِيثِ بِأَسْهُمٍ عَنْ قَوْسِ مَوْتُورِ الفُؤَادِ جَبَانِ

٣٨٥٥- فَتَتَرَّسُوا بِالوَحْيِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَتْلُوهُ نِعْمَ التُّرْسِ لِلشُّجْعَانِ

٣٨٥٦- هُوَ تُرْسُهُمْ وَالله مِنْ عُدْوَانِكُمْ وَالتُّرْسُ يَوْمَ البَعْثِ مِنْ نِيرَانِ

٣٨٥٧- أَفَتَارِكُوهُ لِفَشْرِكُمْ وَمُحَالِكُمْ ... لا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

٣٨٥٨- وَدَعَوْتُمُونَا لِلَّذِي قُلْتُمْ بِهِ ... قُلْنَا مَعَاذَ الله مِنْ خِذْلانِ

٣٨٥٩- فَاشْتَدَّ ذَاكَ الحَرْبُ بَيْنَ فَرِيقِنَا ... وَفَرِيقِكُمْ وَتَفَاقَمَ الأَمْرَانِ

٣٨٦٠- وَتَأَصَّلَتْ تِلْكَ العَدَاوَةُ بَيْنَنَا ... مِنْ يَوْمِ أَمْرِ الله لِلشَّيْطَانِ

٣٨٦١- بِسُجُودِهِ فَعَصَى وَعَارَضَ أَمْرَهُ ... بِقِيَاسِهِ وَبِعَقْلِهِ الخَوَّانِ

٣٨٦٢- فَأَتَى التَّلامِيذُ الوَقَاحُ فَعَارَضُوا ... أَخْبَارَهُ بِالفَشْرِ وَالهَذَيَانِ

٣٨٦٣- وَمُعَارِضٌ لِلأَمْرِ مِثْل مُعَارِضِ الـ ... أَخْبَارِ هُمْ فِي كُفْرِهِمْ صِنْوَانِ

الشرحُ

٣٨٥٤- وَرَمَيْتُمُ أَهْلَ الحَدِيثِ بِأَسْهُمٍ ... عَنْ قَوْسِ مَوْتُورِ الفُؤَادِ جَبَانِ

لأنَّهم رَمَوْهم بِأَسْهُمٍ تدلُّ على جبنِهم؛ لأنَّها أَسْهُمٌ غيرُ مَبْنِيَّةٍ على دليلٍ، وإنَّما هي شتمٌ وسبٌّ وعيبٌ كقولِهم في أهلِ الحديثِ: إنَّهم حَشْوِيَّةٌ، مُجَسِّمَةٌ مُمَثِّلَةٌ، وما أشبه ذلك.

إِذَنْ هم رَمَوْا أهلَ الحديثِ بِأَسْهُمٍ، لكنَّها صادرةٌ عن قوسِ رجلٍ موتورِ الفؤادِ جبانٍ، وإذا كان هكذا فإنَّ هذه السِّهامَ لا تُجْدِي شيئًا، ومن الأسهمِ التي رَمَوْا بها أهلَ الحديثِ أنَّهم قالوا: إنَّهم مُجَسِّمَةٌ وإنَّهم حَشْوِيَّةٌ، وإنَّهم نوابتُ، وما أشبه ذلك، لكن هل هذا الوصفُ بالسُّوءِ يقلبُ الحقَّ باطلًا؟ الجوابُ: لا؛ ولهذا حاول أعداءُ الرُّسلِ أن يَصِفُوا دعوتَهم بكُلِّ سوءٍ، بالشِّعرِ والكهانةِ والجنونِ وما أشبه ذلك، ولكنَّ ذلك لم يؤثِّر شيئًا، فكونُهم يقولون: نحن مُجَسِّمَةٌ، نقولُ:

والله إذا كان إثباتُ صفاتِ ربِّنا عزَّ وجلَّ تجسيمًا فنحن مُجَسِّمَةٌ وأهلٌ للتَّجسيمِ.

٣٨٥٥- فَتَتَرَّسُوا بِالوَحْيِ وَالسُّنَنِ الَّتِي   تَتْلُوهُ نِعْمَ التُّرْسِ لِلشُّجْعَانِ

أهلُ السُّنَّةِ وأهلُ الحديثِ تترَّسُوا بالوحي: «**كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ**»، يقولُ المؤلِّفُ: «**نِعْمَ التُّرْسُ لِلشُّجْعَانِ**»، فالتُّرسُ قويٌّ والحاملُ شجاعٌ.

٣٨٥٦- هُوَ تُرْسُهُمْ وَاللهِ مِنْ عُدْوَانِكُمْ   وَالتُّرْسُ يَوْمَ البَعْثِ مِنْ نِيرَانِ

ذكر أنَّ التَّترُّسَ بالكتابِ والسُّنَّةِ تُرْسٌ في مَوْضِعَيْنِ:

الموضع الأوَّل: في الدُّنيا؛ أي: من عُدوانِ هؤلاء الذين يُحاولون أن يردُّوا قولَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا؛ لأنَّ قولَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ مَبْنِيٌّ على الكتابِ والسُّنَّةِ، فهؤلاء إذا احتجُّوا علينا بما يَرَوْنَه معقولًا احْتَجَجْنَا عليهم بما هو منقولٌ، وهذه العلومُ لا تُدْرَكُ إلَّا بالنَّقلِ.

الموضع الثَّاني: التُّرس يوم البعثِ من النِّيرانِ؛ يعني: أنَّه هو الذي يَقِيهم من النِّيران يومَ القيامةِ؛ لأنَّ مَنْ أَثْبَتَ لله ما وَصَفَ به نفسَه فقد أنجى نفسَه من التَّعطيلِ.

وضدُّ ذلك هؤلاء الذين تترَّسوا بعلمِ الكلامِ وغيرِه لن ينفعَهم لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

٣٨٥٧- أَفَتَارِكُوهُ لِفَشْرِكُمْ وَمُحَالِكُمْ   لا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

يعني: أفنتركه من أجلِ فَشْرِكم وهو الكلامُ الذي لا فائدةَ فيه، ومحالِكم الذي تأتون به، «**لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ**»، وهذه الجملةُ دعائيَّةٌ؛ يعني: أسألُ اللهَ تعالى ألَّا يكونَ ذلك.

٣٨٥٨- وَدَعَوْتُمُونَـا لِلَّـذِي قُلْـتُمْ بِـهِ   قُلْنَـا مَعَـاذَ اللهِ مِـنْ خِـذْلانِ

يعني: أنَّكم تدعوننا أن نقولَ ما قُلتم في التَّعطيلِ، ونحن نعوذُ بالله من الخِذلان؛ لأنَّ نزولَ الإنسانِ إلى ما كان عليه هؤلاء المعطِّلةُ لا شكَّ أنَّه من أكبرِ الخِذْلانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٣٨٥٩- فَاشْتَدَّ ذَاكَ الحَرْبُ بَيْنَ فَرِيقِنَا   وَفَـرِيقِكُمْ وَتَفَـاقَمَ الأَمْـرَانِ

٣٨٦٠- وَتَأَصَّـلَتْ تِلْـكَ العَـدَاوَةُ بَيْنَنَـا   مِـنْ يَـوْمِ أَمْـرِ اللهِ لِلشَّـيْطَانِ

٣٨٦١- بِسُجُودِهِ فَعَصَـى وَعَـارَضَ أَمْـرَهُ   بِقِيَاسِـهِ وَبِعَقْلِـهِ الـخَوَّانِ

هذا تشبيهٌ جيِّدٌ؛ يعني: أنَّ العَداوةَ بيننا وبينكم من ذاك الوقتِ من حين عصى الشَّيطانُ ربَّه حين أمره بالسُّجودِ، والأمرُ بالسُّجودِ اعتمادٌ على وحيٍ ونقلٍ، عُورِضَ هذا الأمرُ بقياسٍ باطلٍ ومعقولٍ موهومٍ، قال الشَّيطانُ لـمَّا أمره أن يسجدَ لآدمَ قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وقال هؤلاء لـمَّا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] قالوا: ليس لله يدٌ، هذا محالٌ، والمرادُ باليدِ القدرةُ، و﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] قالوا: محالٌ أن يستويَ على العرشِ، ولكن المراد بـ«استوى» استولى، فعارضوا المنقولَ بالمعقول كما عارض إبليسُ المنقولَ بالمعقولِ عنده، وليس بعقلٍ.

٣٨٦٢- فَأَتَى التَّلامِيـذُ الوَقَـاحُ فَعَارَضُـوا   أَخْبَـارَهُ بِالفَشْـرِ وَالـهَذَيَانِ

تلاميذُ الشَّيطانِ إبليسَ عارَضوا أخبارَ الله التي أَخْبَرَ بها عن نفسِه وأَخْبَرَ بها عنه رسولُه بالفشرِ والـهَذَيَانِ.

٣٨٦٣- وَمُعَارِضٌ لِلأَمْرِ مِثْل مُعَارِضِ الـ أَخْبَارِ هُمْ فِي كُفْرِهِمْ صِنْوَانِ

قَوْلُهُ: «وَمُعَارِضٌ للأَمْرِ» الذي عَارَضَ الأمرَ هو الشَّيطانُ، حيث أُمِرَ أن يسجدَ، فقال: لا، ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، وقَاسَ بقولِه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، وهؤلاء التَّلاميذُ عارَضوا الأخبارَ بعقولِهم، وقالوا: لا يمكنُ أن يستويَ اللهُ على العرشِ، ولا يمكنُ أن يتكلَّمَ بكلامٍ مسموعٍ، ولا يمكنُ أن يكون عاليًا فَوْقَ خَلْقِه، وهكذا، فصار إبليسُ مُعَارِضًا للأمرِ، وهؤلاء مُعارضون للخبرِ، أمَّا في بابِ الأوامرِ فإنَّهم لم يعارضوا، بل يصلُّون ويصومون ويزكُّون ويحجُّون، ويأمرون بالمعروفِ وينْهَوْن عن المنكرِ، لكن في الأخبارِ عارضوا الأخبارَ المنقولةَ بالأوهامِ المعقولةِ.

* * *

٣٨٦٤- مَنْ عَارَضَ المَنْصُوصَ بِالمَعْقُولِ قِدْ مًا أَخْبَرُونَا يَا أُولِي العِرْفَانِ

٣٨٦٥- أَوَمَا عَرَفْتُمْ أَنَّهُ القَدَرِيُّ وَالـ جَبْرِيُّ أَيْضًا ذَاكَ فِي القُرْآنِ

٣٨٦٦- إِذْ قَالَ قَدْ أَغْوَيْتَنِي وَفَتَنْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ مَدَى الأَزْمَانِ

٣٨٦٧- فَاحْتَجَّ بِالمَقْدُورِ ثُمَّ أَبَانَ أَنْ نَ الفِعْلَ مِنْهُ بُغْيَةٌ وَزِيَانِ

٣٨٦٨- فَانْظُرْ إِلَى مِيرَاثِهِمْ ذَا الشَّيْخِ بِالتَّـ ـعْصِيبِ وَالمِيرَاثِ بِالسُّهْمَانِ

٣٨٦٩- فَسَأَلْتُكُمْ بِاللهِ مَنْ وُرَّاثُهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ بَعْدَ ذَا التِّبْيَانِ

٣٨٧٠- هَذَا الَّذِي أَلْقَى العَدَاوَةَ بَيْنَنَا إِذْ ذَاكَ وَاتَّصَلَتْ إِلَى ذَا الآنِ

٣٨٧١- أَصَّلْتُمُ أَصْلًا وَأَصَّلَ خَصْمُكُمْ أَصْلًا فَحِينَ تَقَابَلَ الأَصْلَانِ

٣٨٧٢- ظَهَرَ التَّبَايَنُ فَانْتَشَتْ مَا بَيْنَنَا الـ ـحَرْبُ العَوَانُ وَصِيحَ بِالأَقْرَانِ

الشرحُ

٣٨٦٤- مَنْ عَارَضَ المَنْصُوصَ بِالمَعْقُولِ قِدْ مًا أَخْبَرُونَا يَا أُولِي العِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «قِدْمًا»؛ يعني: مِن سَلَفِ هذه الأُمَّةِ.

هل أحدٌ مِن سَلَفِ هذه الأُمَّةِ عَارَضَ المنقولَ بالمعقولِ، وقال: عقولُنا لا تُصَدِّقُ بهذا؟ أبدًا، هاتوا عن أبي بكرٍ، عن عمرَ، عن عثمانَ، عن عليٍّ، عن ابن مسعودٍ، عن ابن عبَّاسٍ، عن غيرِهم، رَضِيَ اللهُ عن الجميعِ، ما منهم أحدٌ عَارَضَ المنقولَ بالمعقولِ أبدًا.

٣٨٦٥- أَوَمَا عَرَفْتُمْ أَنَّهُ القَدَرِيُّ وَالـ ـجَبْرِيُّ أَيْضًا ذَاكَ فِي القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «أَوَمَا عَرَفْتُمْ أَنَّهُ القَدَرِيُّ وَالجَبْرِيُّ أَيْضًا» مَنْ؟ الجوابُ: إبليسُ قَدَرِيٌّ جَبْرِيٌّ، فكان جبريًّا حين احتجَّ على الله بأنَّ اللهَ أغواه، وكان قَدَرِيًّا حين قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص:٨٢]، وكأَنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- ليس قادرًا على منعِه، فصار الشَّيطانُ إبليسُ جامعًا بين كونِه قدريًّا وكونِه جبريًّا.

٣٨٦٦- إِذْ قَالَ قَدْ أَغْوَيْتَنِي وَفَتَنْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَـهُمْ مَدَى الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ قَالَ قَدْ أَغْوَيْتَنِي» هذا جَبْرٌ.

قَوْلُهُ: «وَفَتَنْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَـهُمْ مَدَى الأَزْمَانِ» هذا قَدَرِيٌّ؛ لأنَّ القَدَرِيَّ معناه هو الذي يجعلُ فِعْلَه لا عَلاقةَ لله به، والجَبْرِيُّ هو الذي يجعلُ فِعْلَه لا عَلاقةَ له بنفسِه، وإنَّما هو مجبورٌ عليه.

٣٨٦٧- فَـاحْتَجَّ بِالمَقْـدُورِ ثُـمَّ أَبَـانَ أَنْ ... نَ الفِعْـلَ مِنْـهُ بُغْيَـةٌ وَزِيَـانِ

قَوْلُهُ: «زِيَانِ» لعلَّها من الزَّيْنِ الذي هو ضدُّ الشَّيْن، و«الغيُّ»: ضدُّ الرُّشدِ.

٣٨٦٨- فَانْظُرْ إِلَى مِيرَاثِهِمْ ذَا الشَّيْخِ بِالتْـ ... ـتَعْصِيبِ وَالمِـيرَاثِ بِالسَّـهْمَانِ

قَوْلُهُ: «ذَا الشَّيْخَ» المرادُ به الشَّيطانُ.

قَوْلُهُ: «بِالتَّعْصِيبِ» وهو ما ليس له سهمٌ مُقَدَّرٌ.

قَوْلُهُ: «المِيرَاثِ بِالسُّهْمَانِ»: أي: بالفرضِ.

يعني: أنَّهم وَرِثُوه فرضًا وتعصيبًا؛ أي: ورثوه بكُلِّ جهاتِ الإرثِ.

٣٨٦٩- فَسَـأَلْتُكُمْ بِـالله مَـنْ وُرَّاثُـهُ ... مِنَّـا وَمِـنْكُمْ بَعْـدَ ذَا التِّبْيَـانِ

لأَنَّنا نحن نُقَدِّمُ المنقولَ ونقولُ: إنَّ الوحيَ حَاكِمٌ على عقولِنا وليست عقولُنا حاكمةً على الوحي، ونقولُ فيما أَخْبَرَنَا اللهُ به عن نفسِه: آمَنَّا وصَدَّقْنَا، ولا نُعارِضُ هذا بعقولِنا.

٣٨٧٠- هَـذَا الَّـذِي أَلْقَـى العَـدَاوَةَ بَيْنَنَـا ... إِذْ ذَاكَ وَاتَّصَـلَتْ إِلَى ذَا الآنِ

٣٨٧١- أَصَّلْتُمْ أَصْـلًا وَأَصَّـلَ خَصْـمُكُمْ ... أَصْـلًا فَحِـينَ تَقَابَـلَ الأَصْـلانِ

٣٨٧٢- ظَهَرَ التَّبَايُنُ فَانْتَشَتْ مَـا بَيْنَنَـا الْـ ... ـحَرْبُ العَوَانُ وَصِيحَ بِـالأَقْرَانِ

وهذا معلومٌ؛ لأنَّه إذا اختلف الأصلان فإنَّه لا يمكنُ أن يتَّفقَ هؤلاء وهؤلاء، بل لا بُدَّ أن تكونَ رَحَى الحربِ بينهم دائرةً إلى أن يصطلحوا بالرُّجوعِ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ.

* * *

٣٨٧٣- أَصَّلْتُمْ آرَا الرِّجَالِ وَخَرْصَهَا ... مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ وَلَا سُلْطَانِ

٣٨٧٤- هَذَا وَكَمْ رَأْيٍ لَهُمْ فَبِرَأْيِ مَنْ ... نَزِنُ النُّصُوصَ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

٣٨٧٥- كُلٌّ لَهُ رَأْيٌ وَمَعْقُولٌ لَهُ ... يَدْعُو وَيَمْنَعُ أَخْذَ رَأْيِ فُلَانِ

٣٨٧٦- وَالخَصْمُ أَصَّلَ مُحْكَمَ القُرْآنِ مَعْ ... قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

٣٨٧٧- وَبَنَى عَلَيْهِ فَاعْتَلَى بُنْيَانُهُ ... نَحْوَ السَّمَا أَعْظِمْ بِذَا البُنْيَانِ

٣٨٧٨- وَعَلَى شَفَا جُرْفٍ بَنَيْتُمْ أَنْتُمُ ... فَأَتَتْ سُيُولُ الوَحْيِ وَالإِيمَانِ

٣٨٧٩- قَلَعَتْ أَسَاسَ بِنَائِكُمْ فَتَهَدَّمَتْ ... تِلْكَ السُّقُوفُ وَخَرَّ لِلأَرْكَانِ

٣٨٨٠- اللهُ أَكْبَرُ لَوْ رَأَيْتُمْ ذَلِكَ الْـ ... ـبُنْيَانَ حِينَ عَلَا كَمِثْلِ دُخَانِ

٣٨٨١- تَسْمُو إِلَيْهِ نَوَاظِرٌ مِنْ تَحْتِهِ ... وَهُوَ الوَضِيعُ وَلَوْ يُرَى بِعِيَانِ

٣٨٨٢- فَاصْبِرْ لَهُ وَهْنًا وَرُدَّ الطَّرْفَ تَلْـ ... ـقَاهُ قَرِيبًا فِي الحَضِيضِ الدَّانِي

الشرحُ

٣٨٧٣- أَصَّلْتُمْ آرَا الرِّجَالِ وَخَرْصَهَا ... مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ وَلَا سُلْطَانِ

قَوْلُهُ: «آرَا»، وفي نسخةٍ: «رَأْي»، والمعنى واحدٌ.

يعني: أنَّكم جعَلتُم الأصلَ آراءَ الرِّجالِ التي يدَّعون أنَّها عقلٌ، وهذه الآراءُ كُلُّها خَرْصٌ وظنٌّ وتخمينٌ، ليس لها حقيقةٌ؛ ولهذا قال: «**مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ وَلَا سُلْطَانِ**».

٣٨٧٤- هَذَا وَكَمْ رَأْيٍ لَهُمْ فَبِرَأْيِ مَنْ نَزِنُ النُّصُوصَ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «كَمْ رَأْيٍ لَهُمْ»؛ يعني: ما أَكْثَرَ آراءَهم!

يعني: أنَّ أصحابَ المعقولِ لهم آراءٌ كثيرةٌ، فبأيِّ رأيٍ نَزِنُ القُرآنَ والسُّنَّةَ؟ هل برأي الأوَّل أو الثَّاني أو الثَّالث أو الخامس، برأيِ مَنْ؟ وهذا معنى قولِ بعضِهم: «**يَا لَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ شَيء يُوزَنُ الكِتَابُ والسُّنَّةُ برأي فلانٍ أو فلانٍ أو فلانٍ؟ ما دمتم أنتم متنازعين في آرائِكم فإلي مَنْ نرجعُ؟**».

٣٨٧٥- كُلٌّ لَهُ رَأْيٌ وَمَعْقُولٌ لَهُ يَدْعُو وَيَمْنَعُ أَخْذَ رَأْيِ فُلانِ

سبحان الله! صارت العقولُ كثيرةً، كُلٌّ له رأيٌ، كُلٌّ له معقولٌ، كُلٌّ يدعو إلى رأيه، ويقولُ: انبذوا رأيَ فلانٍ، بل إنَّ بعضَهم يتناقضُ في نفسِه فتجده يُؤلِّفُ كتابًا اليومَ ثُمَّ يُؤلِّفُ كتابًا ينقضُ ما كتبه بالأمسِ، وهذا مشهورٌ؛ وذلك لأنَّهم لم يبنوا على أصلٍ، إنَّما بَنَوْا على جُرُفٍ هارٍ فَانْهَارَ بهم.

٣٨٧٦- وَالخَصْمُ أَصَّلَ مُحْكَمَ القُرْآنِ مَعْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

٣٨٧٧- وَبَنَى عَلَيْهِ فَاعْتَلَى بُنْيَانُهُ نَحْوَ السَّمَا أَعْظِمْ بِذَا البُنْيَانِ

قَوْلُهُ: «الخَصْمُ»؛ يعني: خصم أهلِ التَّعطيلِ الذي حَكَّمَ الوحيَ.

قَوْلُهُ: «أَصَّلَ مُحْكَمَ القُرْآنِ مَعْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ» ثلاثةُ أشياء، بل والعقل أيضًا؛ لأنَّ العقلَ يدلُّ على وجوبِ الرُّجوعِ إلى الوحي في هذا البابِ؛ إذ أنَّ هذا البابَ يعتمدُ على الخبرِ المحضِ؛ لأنَّه خبرٌ عن أمرٍ غيبيٍّ لا نظيرَ له حتَّى يُقَاسَ عليه، فكان مقتضى العقلِ أن يُرْجَعَ في هذا البابِ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ، فصار أَصْلُ هؤلاءِ -أعني: المثبتةَ- الكتابَ والسُّنَّةَ والفطرةَ والعقلَ، وأولئك ليس

عندهم إلَّا أوهامٌ يظنُّونها عقليَّاتٍ وهي وهميَّاتٌ.

٣٨٧٨- وَعَلَى شَفَا جُرْفٍ بَنَيْتُمْ أَنْتُمُ فَأَتَتْ سُيُولُ الوَحْيِ وَالإِيمَانِ

٣٨٧٩- قَلَعَتْ أَسَاسَ بِنَائِكُمْ فَتَهَدَّمَتْ تِلْكَ السُّقُوفُ وَخَرَّ لِلأَرْكَانِ

٣٨٨٠- اللهُ أَكْبَرُ لَوْ رَأَيْتُمْ ذَلِكَ الـ بُنْيَانَ حِينَ عَلا كَمِثْلِ دُخَانِ

٣٨٨١- تَسْمُو إِلَيْهِ نَوَاظِرٌ مِنْ تَحْتِهِ وَهُوَ الوَضِيعُ وَلَوْ يُرَى بِعِيَانِ

٣٨٨٢- فَاصْبِرْ لَهُ وَهْنًا وَرُدَّ الطَّرْفَ تَلْـ ـقَاهُ قَرِيبًا فِي الحَضِيضِ الدَّانِي

قَوْلُهُ: «وَهْنًا» الظَّاهرُ أنَّ «وَهْنًا» من جنسِ «هُنَيْهَة» كقولِك: «سَكَتَ هُنَيْهَةً».

المهمُّ أنَّ بناءَ هؤلاءِ على جُرُفٍ هارٍ مثل الدُّخانِ تلقاه عاليًا ثُمَّ يتضاءلُ وتذروه الرِّياحُ اليسيرةُ في كُلِّ مكانٍ، أمَّا بناء أهلِ السُّنَّةِ فهو كالجبالِ لا تهزُّه العواصفُ، وهو ثابتٌ باقٍ؛ لأنَّه مَبْنِيٌّ على أصلٍ وهو الكتابُ والسُّنَّةُ.

* * *

فصل

فِي بَيَانِ أَنَّ التَّعْطِيلَ أَسَاسُ الزَّنْدَقَةِ وَالكُفْرَانِ وَالإِثْبَاتَ أَسَاسُ العِلْمِ وَالإِيمَانِ

٣٨٨٣- مَــنْ قَــالَ إِنَّ اللهَ لَــيْسَ بِفَاعِــلٍ فِعْــلًا يَقُــومُ بِــهِ قِيَــامَ مَعَــانِي

٣٨٨٤- كَــلَّا وَلَــيْسَ الأَمْــرُ أَيْضًــا قَــائِمًا بِــالرَّبِّ بَــلْ مِــنْ جُمْلَـةِ الأَكْـوَانِ

٣٨٨٥- كَــلَّا وَلَــيْسَ اللهُ فَــوْقَ عِبَــادِهِ بَــلْ عَرْشُــهُ خِلْــوٌ مِــنَ الــرَّحْمَنِ

٣٨٨٦- فَثَلاثَــةٌ وَاللهِ لا تُبْقِــي مِــنَ الــ إِيــمَانِ حَبَّــةَ خَــرْدَلٍ بِــوِزَانِ

٣٨٨٧- وَقَدِ اسْـتَرَاحَ مُعَطِّـلٌ هَـذِي الـثَّلا ثَ مِــنَ الإِلَــهِ وَجُمْلَــةِ القُــرْآنِ

٣٨٨٨- وَمِنَ الرَّسُولِ وَدِينِـهِ وَشَرِيعَـةِ الـ إِسْــلامِ بَــلْ مِــنْ جُمْلَــةِ الأَدْيَــانِ

٣٨٨٩- وَتَمَــامُ ذَاكَ جُحُــودُهُ لِصِــفَاتِهِ وَالذَّاتِ دُونَ الوَصْفِ ذُو بُطْلانِ

٣٨٩٠- وَتَمَــامُ ذَا الإِيــمَانُ إِقْــرَارُ الفَتَــى بِــاللهِ فَــاطِرِ هَــذِهِ الأَكْــوَانِ

٣٨٩١- فَــإِذَا أَقَــرَّ بِــهِ وَعَطَّــلَ كُــلَّ مَفْــ ـرُوضٍ وَلَـمْ يَتَـوَقَّ مِـنْ عِصْـيَانِ

٣٨٩٢- لَـمْ يَـنْقُصِ الإِيـمَانُ حَبَّـةَ خَـرْدَلٍ أَنَّــى وَلَــيْسَ بِقَابِــلِ النُّقْصَــانِ

الشــرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ تعالى- مُبيِّنًا ما عليه أهلُ التَّعطيلِ من المذاهبِ أو من الأقوالِ المخالفةِ لقولِ السَّلفِ:

٣٨٨٣- مَــنْ قَــالَ إِنَّ اللهَ لَـيْسَ بِفَاعِــلٍ　　فِعْــلًا يَقُــومُ بِــهِ قِيَــامَ مَعَــانِي

٣٨٨٤- كَــلَّا وَلَــيْسَ الأَمْــرُ أَيْضًــا قَــائِمًا　　بِــالرَّبِّ بَــلْ مِــنْ جُمْلَــةِ الأَكْــوَانِ

٣٨٨٥- كَــلَّا وَلَــيْسَ اللهُ فَــوْقَ عِبَــادِهِ　　بَــلْ عَرْشُــهُ خِلْــوٌ مِــنَ الــرَّحْمَنِ

٣٨٨٦- فَثَلاثَــةٌ وَاللهِ لا تُبْقِــي مِــنَ الــ　　إِيــمَانِ حَبَّــةَ خَــرْدَلٍ بِــوِزَانِ

هذه ثلاثةُ أشياء:

أَوَّلًا: مَنْ نَفَى أن تقومَ الأفعالُ الاختياريَّةُ بالله، وقال: إنَّ اللهَ لا يفعلُ، ولا يستوي على العرشِ، ولا ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ولا يأتي للفصلِ بين عبادِه، ولا يضحكُ إلى رَجُلَيْنِ يقتلُ أحدهُما الآخرَ كلاهما يدخلُ الجنَّةَ، ولا يفرحُ بتوبةِ عبدِه المؤمن، ونَفَى جميعَ الأفعالِ الاختياريَّة، إِذَنْ بَقِيَ اللهُ مُعطَّلًا بمنزلةِ الصَّخرةِ والعياذُ بالله، إِذَنْ إذا قال: إنَّ اللهَ ليس بفاعلٍ لَزِمَ أن يكونَ معطَّلًا عن الفعلِ، فأين الرُّبوبيَّةُ؟! أين الرُّبوبيَّةُ مِنْ رَبٍّ لا يقدرُ على الفعلِ؟! إِذَنْ أَنْكَرَ القضاءَ والقدرَ والشَّرَّ والرَّبَّ.

كذلك أيضًا مَنْ قال: إنَّ اللهَ ليس له أمرٌ وإنَّ أمرَه -وهو وحيُه- خَلْقٌ من الأكوانِ، ويقولُ أيضًا عن القرآنِ المشتَمِلِ على الأمرِ والنَّهي يقولُ: إنَّه مخلوقٌ كما أنَّ الأرضَ مخلوقةٌ والسَّماءَ مخلوقةٌ، إِذَنْ بطل الوحيُ؛ لأنَّ الوحيَ صار من جملةِ المخلوقاتِ.

إذا قالوا أيضًا: ليس اللهُ فوقَ عرشِه بل العرشُ خالٍ منه، أين يكونُ؟ ليس فوقَ العالمِ ولا تحته، ولا يمينَه ولا يسارَه، ولا متَّصلًا ولا مُنفصِلًا، أين يكونُ؟ يكونُ عَدَمًا، أو يكونُ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، أيضًا لا يصحُّ أن يكون ربًّا ولا واحدًا.

٣٨٨٧- وَقَدِ اسْتَرَاحَ مُعَطِّلُ هَذِي الثَّلا ... ثَ مِنَ الإِلَهِ وَجُمْلَةِ القُرْآنِ

استراح من الله؛ لأنَّه نَفَى وجودَه بالكُلِّيَّةِ.

٣٨٨٨- وَمِنَ الرَّسُولِ وَدِينِهِ وَشَرِيعَةِ الـ ... إِسْلامِ بَلْ مِنْ جُمْلَةِ الأَدْيَانِ

نعوذُ بالله، إِذَنْ التَّعطيلُ يؤدِّي إلى هذا الأمرِ، لكنَّه يحتاجُ إلى نظرةٍ فاحصةٍ متأمِّلةٍ؛ يعني: قد يقولُ قائلٌ: هذا ابنُ القيِّم خصمٌ، والخصمُ لا يُقْبَلُ كلامُه على خصمِه، فكيف ذلك؟ نقولُ: إذا قالوا: «**إنَّ اللهَ لا يستطيعُ أن يفعلَ أبدًا**» فهذا معناه التَّعطيلُ، معناه أنَّ اللهَ صار إمَّا أشلَّ -والعياذُ بالله- وإمَّا حجرًا كالتَّماثيلِ التي تُعْبَدُ من دون الله.

إذا قال: «**إنَّ اللهَ ليس له أمرٌ وإنَّ الأمرَ هو الخلقُ**» هذا أيضًا معناه أنَّ اللهَ لا يأمرُ ولا يَنْهَى، يخلقُ كلماتٍ ولا تُنْسَبُ إليه قولًا ولا كلامًا، مع أنَّ اللهَ يقولُ في كتابِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَفَرَّقَ بين الخلقِ والأمرِ.

كذلك أيضًا إذا قال: إنَّ اللهَ ليس فوقَ عبادِه، نقولُ: أين هو؟ إن قال: بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، نقولُ: لم تُنَزِّه اللهَ عن أخسِّ الأماكنِ، وإن قال: ليس في شيءٍ، قلنا: هذا هو العَدَمُ المحضُ.

فابنُ القيِّمِ -رحمه الله تعالى- يقولُ: إنَّه إذا وَصَفَ اللهَ بهذه الصِّفاتِ استراح من الله، واستراح من الرَّسولِ، واستراح من القرآنِ، واستراح من الشَّريعةِ كُلِّها، واستراح من الأديانِ كُلِّها، وصار زنديقًا ملحدًا.

٣٨٨٩- وَتَمَامُ ذَاكَ جُحُودُهُ لِصِفَاتِهِ ... وَالذَّاتِ دُونَ الوَصْفِ ذُو بُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «**وَتَمَامُ ذَاكَ جُحُودُهُ لِصِفَاتِهِ**» يتكلَّمُ عن المعتزلةِ، المعتزلةُ يُثْبِتُون الذَّاتَ،

وينكرون الصِّفاتِ، فبالله عليكم هل يُمكن أن توجدَ ذاتٌ بلا صفاتٍ؟ الجوابُ: لا يُوجَدُ، فلا بُدَّ لكُلِّ ذاتٍ من صفةٍ، على أدنى تقديرٍ أن نقولَ: «**صفةُ الوجودِ**» لا بُدَّ أن تكونَ، فما دامت ذاتٌ ثابتةٌ ففيها صفةٌ ولو صفة الوجودِ، مع أنَّه لا بُدَّ أن تكونَ ذاتَ طولٍ وعرضٍ وثقلٍ وحجمٍ، وما أشبه ذلك، فلا يمكنُ أن تُعْقَلَ ذاتٌ بلا وصفٍ؟!

والعجيبُ أنَّ هؤلاءِ الذين يدَّعون أنَّهم عُقَلاءُ يقولون: إنَّ اللهَ موجودٌ لكن بلا وصفٍ، فهل هذا معقولٌ؟ الجوابُ: غيرُ معقولٍ، وأوَّلُ ما يَرِدُ عليهم أنَّهم وَصَفُوا اللهَ بالوصفِ «**الوجود**»، فإن قالوا: لا نَصِفُه بالوجودِ، قلنا: إِذَنْ قد وصفتموه بالعَدَمِ.

والحقيقةُ أنَّ الإنسانَ كُلَّما تأمَّلَ أقوالَهم عَلِمَ أنَّها باطلةٌ عقلًا كما هي باطلةٌ شرعًا، وأنَّ الإنسانَ يخشى على قلبِه، وأنَّه يجبُ أن يسألَ اللهَ دائمًا الثَّباتَ؛ لأنَّه أضَلَّ قومًا أذكياءَ كبارَ العقولِ التي ليست عقولَ الرُّشدِ، بل عقول الإدراكِ، فليسأل اللهَ الثَّباتَ، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

قَوْلُهُ: «**وَالذَّاتُ دُونَ الوَصْفِ ذُو بُطْلَانِ**» هذه جملةٌ مُستَأنفةٌ لبيانِ الرَّدِّ عليهم، وليست معطوفةً على ما سبق، يعني: أنَّ القولَ بوجودِ ذاتٍ دون وصفٍ باطلٌ.

٣٨٩٠- وَتَمَامُ ذَا الإِيمَانُ إِقْرَارُ الفَتَى ... بِاللهِ فَاطِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

هذا أيضًا من تمامِه، «**وَتَمَامُ ذَا الإِيمَانُ**» برفع «**الإِيمَانِ**»؛ أي: «**وَتَمَامُ ذَا**» -أي: التَّعطيلِ- الإيمانُ إقرارُ الفتى بالله؛ يعني: أنَّ الإيمانَ إقرارُ الفتى بالله فاطرِ هذه الأكوانِ.

٣٨٩١- فَـإِذَا أَقَـرَّ بِـهِ وَعَطَّـلَ كُـلَّ مَفْـ ـرُوضٍ وَلَـمْ يَتَـوَقَّ مِـنْ عِصْيَانِ

٣٨٩٢- لَـمْ يَـنْقُصِ الإِيـمَانُ حَبَّـةَ خَـرْدَلٍ أَنَّـى وَلَـيْسَ بِقَابِـلِ النُّقْصَـانِ

هذا مذهبُ مُرجئةِ الجهميَّةِ، الذين يقولون: الإيمانُ هو مجرَّدُ الإقرارِ بالله، فإذا أَقْرَرْتَ بالله فاترُكْ جميعَ الواجباتِ وافعَل جميعَ المحرَّماتِ من كبائرَ وصَغائرَ وأنت مؤمنٌ كاملُ الإيمانِ، فإيمانُك كإيمانِ جبريلَ ومحمَّدٍ، فيقولون: إنَّ أقومَ النَّاسِ بِدِينِ الله وأقواهم طاعةً له مِثْلُ مَنْ لا يقومُ بالطَّاعةِ، فرجلٌ يقومُ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ ويتجنَّبُ المعاصيَ، وآخرُ بالعكس يقومُ بالمعاصي آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ ويتجنَّبُ الطَّاعاتِ، ولكنَّهما مُقِرَّان بأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- موجودٌ، يقولون: إنَّ إيمانَهما سواءٌ، فإيمانُ أفسقِ النَّاسِ كإيمانِ أعدلِ النَّاسِ.

وهذا -لا شكَّ- أنَّه يُبطِلُه العقلُ كما يُبطِلُه النَّقلُ، أعوذُ بالله، هل هذا لائقٌ؟! هل يمكنُ أن يقولَه عاقلٌ؟! هل يمكنُ لشخص يؤمنُ بالله عزَّ وجلَّ، ثُمَّ هو يفعلُ كُلَّ ما نُهِيَ عنه ويتركُ كُلَّ ما أُمِرَ به؟! لا يمكنُ، لكن هم يَرَوْنَ ويقولون أيضًا: إنَّ الإيمانَ لا يمكنُ أن ينقصَ؛ لأنَّ الإيمانَ هو الاعترافُ، والاعترافُ لا يختلفُ، فإذا أَقَرَّ بالله وعَطَّلَ جَميعَ المفروضاتِ من صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وغيرِ ذلك فهو ليس بناقصِ الإيمانِ، بل هو كاملُ الإيمانِ.

* * *

٣٨٩٣- وَتَمَـامُ هَـذَا قَوْلُـهُ إِنَّ النُّبُـوْ ـوَةَ لَـيْسَ وَصْـفًا قَـامَ بِالإِنْسَـانِ

٣٨٩٤- لَكِـنْ تَعَلُّـقُ ذَلِـكَ المَعْنَـى القَدِيـ ـمِ بِوَاحِـدٍ مِـنْ جُمْلَـةِ الإِنْسَـانِ

٣٨٩٥- هَـذَا وَمَـا ذَاكَ التَّعَلُّـقُ ثَابِتًـا فِي خَـارِجٍ بَـلْ ذَاكَ فِي الأَذْهَـانِ

٣٨٩٦- فَتَعَلُّقُ الأَقْوَالِ لا يُعْطِي الَّذِي وَقَفَتْ عَلَيْهِ الكَوْنُ فِي الأَعْيَانِ

٣٨٩٧- هَذَا إِذَا مَا حُصِّلَ المَعْنَى الَّذِي قُلْتُمْ هُوَ النَّفْسِيُّ فِي البُرْهَانِ

٣٨٩٨- لَكِنَّ جُمْهُورَ الطَّوَائِفِ لَمْ يَرَوْا ذَا مُمْكِنًا بَلْ ذَاكَ ذُو بُطْلانِ

٣٨٩٩- مَا قَالَ هَذَا غَيْرُكُمْ مِنْ سَائِرِ النُّـ ـنُظَّارِ فِي الآفَاقِ وَالأَزْمَانِ

٣٩٠٠- تِسْعُونَ وَجْهًا بَيِّنَتْ بُطْلَانَهُ لَوْلَا القَرِيضُ لَسُقْتُهَا بِوِزَانِ

الشرحُ

٣٨٩٣- وَتَمَامُ هَذَا قَوْلُهُ إِنَّ النُّبُوْ وَةَ لَيْسَ وَصْفًا قَامَ بِالإِنْسَانِ

٣٨٩٤- لَكِنْ تَعَلُّقُ ذَلِكَ المَعْنَى القَدِيـ ـمِ بِوَاحِدٍ مِنْ جُمْلَةِ الإِنْسَانِ

٣٨٩٥- هَذَا وَمَا ذَاكَ التَّعَلُّقُ ثَابِتًا فِي خَارِجٍ بَلْ ذَاكَ فِي الأَذْهَانِ

وأيضًا من أقوالِهم السَّيِّئةِ الباطلةِ قولُهم: إنَّ النُّبُوَّةَ ليست وصفًا قَائِمًا بالإنسانِ، وإنَّما هي تَعلُّقُ المعنى القديمِ بواحدٍ من النَّاسِ، والمعنى القديمُ هو كلامُ اللهِ؛ يعني: أنَّ النَّبِيَّ مَنْ تَعَلَّقَ به كلامُ الله الذي هو المعنى القديمُ، وهم لا يُثْبِتُونَ أنَّ كلامَ الله بحروفٍ ينزلُ بها جبريلُ على هذا النَّبِيِّ ويكونُ نبيًّا، لا، يقولون: إنَّ الرَّسولَ هو الذي تَعَلَّقَ به المعنى النفسيُّ، ومع ذلك يقولون: هذا التَّعلُّقُ ليس ثابتًا في الخارجِ، بل هو في الذِّهنِ فقط، وليس موجودًا حقيقةً في الخارجِ، إنَّما هو شيءٌ يفرضُه الذِّهنُ.

فهم يقولون: النُّبوَّةُ أيضًا ليس وصفًا قَامَ بالإنسانِ، لكنَّها أمرٌ خارجٌ، وهذا

أيضًا غيرُ معقولٍ، فهم يقولون مثلًا: الطُّولُ والقصرُ، والحمرةُ والسُّمرةُ، وما أشبه ذلك، هذه من أوصافِ الإنسانِ، أمَّا النُّبوَّة فلا.

فَيُقَالُ: بل هي من أَوصافِ الإنسانِ، مَنَّ اللهُ بها عليهم كالخُلُقِ الحسنِ، فهو مكتسبٌ وهو غريزيٌّ، ومع ذلك نقولُ: من صفتهِ أنَّه حسَنُ الخلقِ كما قال اللهُ عن نبيِّه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

٣٨٩٦- فَتَعَلُّقُ الأَقْوَالِ لا يُعْطِي الَّذِي وَقَفَتْ عَلَيْهِ الكَوْنُ فِي الأَعْيَانِ

يعني: أنَّ المعنى القَائِمَ بالنَّفسِ -وهو كلامُ الله على زَعمِهم- لا يكونُ مُتَعلِّقًا تعلُّقًا خارجيًّا بِمَنْ صار نبيًّا بل هو تعلُّقٌ ذهنِيٌّ فقط.

وأنا لا أتصوَّرُ هذا القولَ في الحقيقةِ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يكونَ نبيًّا إلَّا بوحيٍ ينزلُ عليه؛ ولهذا رَدَّهُ المؤلِّفُ فقال:

٣٨٩٧- هَذَا إِذَا مَا حُصِّلَ المَعْنَى الَّذِي قُلْتُمْ هُوَ النَّفْسِيُّ فِي البُرْهَانِ

يقولون: إنَّ الكلامَ هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ، وليس الشَّيءَ الذي يُسْمَعُ، فهو ليس بصوتٍ وليس بحرفٍ.

٣٨٩٨- لَكِنَّ جُمْهُورَ الطَّوَائِفِ لَمْ يَرَوْا ذَا مُمْكِنًا بَلْ ذَاكَ ذُو بُطْلانِ

يقولُ المؤلِّفُ: كيف يُقَالُ: إنَّه كلامٌ وهو معنى قَائِمٌ بالنَّفسِ؟! وكيف يُقَالُ: إنَّه وحيٌ إلى رسولٍ وهو معنى قَائِمٌ بالنَّفسِ؟! هذا شيءٌ لا يمكنُ، لكنَّهم يقولون: هذا شيءٌ يفرضُه الذِّهنُ وليس موجودًا في الأعيانِ، إذَنْ ما الفائدةُ إذا كان مفروضًا فرضًا ذهنيًّا لا وجودَ له في الخارجِ، فأين الفائدةُ؟!

٣٨٩٩- مَا قَالَ هَذَا غَيْرُكُمْ مِنْ سَائِرِ النْـ ـــنُظَّارِ فِي الآفَـاقِ وَالأَزْمَـانِ

يُخَاطِبُ الأشاعرةَ في هذا الكلام؛ لأنَّ الأشاعرةَ يقولون: إنَّ الكلامَ هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ، أمَّا ما يُسْمَعُ ويُكْتَبُ ويُقْرَأُ فهو من جملةِ الأكوانِ؛ أي: مخلوقٌ.

٣٩٠٠- تِسْعُونَ وَجْهًا بَيَّنَتْ بُطْلَانَهُ لَوْلَا القَرِيضُ لَسُقْتُهَا بِوِزَانِ

قَوْلُهُ: «تِسْعُونَ وَجْهًا بَيَّنَتْ بُطْلَانَهُ»، وقد أَشَارَ إلى هذا فيما سَبَقَ في النُّونيَّةِ نفسِها، وقال: إنَّ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ أَلَّفَ كتابَه: «التِّسعينيَّة» في بيانِ بطلانِ الكلامِ النَّفسيِّ من تسعين وجهًا.

* * *

٣٩٠١- يَا قَوْمُ أَيْنَ الرَّبُّ أَيْنَ كَلَامُهُ أَيْنَ الرَّسُولُ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

٣٩٠٢- مَا فَوْقَ عَرْشِ الرَّبِّ مَنْ هُوَ قَائِلٌ ﴿طه﴾ وَلا حَرْفًا مِنَ القُرْآنِ

٣٩٠٣- وَلَقَدْ شَهِدْتُمْ أَنَّ هَذَا قَوْلُكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ مَعْ أُولِي الإِيمَانِ

٣٩٠٤- وَارَحْمَتَاهُ لَكُمْ غَبَنْتُمْ حَظَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ

٣٩٠٥- وَنَسَبْتُمُ لِلْكُفْرِ أَوْلَى مِنْكُمُ بِاللهِ وَالإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

٣٩٠٦- هَذِي بِضَاعَتُكُمْ فَمَنْ يَسْتَامُهَا فَقَدِ ارْتَضَى بِالجَهْلِ وَالخُسْرَانِ

الشَّرحُ

٣٩٠١- يَا قَوْمُ أَيْنَ الرَّبُّ أَيْنَ كَلَامُهُ أَيْنَ الرَّسُولُ فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله-: إذا قُلتم بالمعنى النَّفسيِّ، فأين اللهُ؟ أين كلامُه؟

أين الرَّسولُ؟ لأنَّ هذا الوحيَ معنى قَائِمٌ بالنَّفسِ، فكيف يُنْقَلُ إلى الرَّسولِ؟! إِذَنْ لا رسولَ في الحقيقةِ، كذلك أيضًا يقولُ -رحمه الله-: أين الرَّبُّ؟ لأنَّهم يُنكرون علوَّ الذَّاتِ، فيقول: أين يكونُ اللهُ إذا أنكرتم أنَّه عالٍ؟ أين كلامُه؟! لأنَّهم يقولون: إنَّ الكلامَ هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ لا يُسْمَعُ ولا يُكْتَبُ، وإنَّما المكتوبُ والمسموعُ عبارةٌ عنه.

٣٩٠٢- مَا فَوْقَ عَرْشِ الرَّبِّ مَنْ هُوَ قَائِلٌ ﴿طه﴾ وَلا حَرْفًا مِنَ القُرْآنِ

لأنَّهم ينكرون العلوَّ، يُنكرون أن يكونَ اللهُ تَكَلَّمَ بالقُرآنِ الذي نقرؤه، ويقولون: هذا عبارةٌ عن كلامِ الله.

٣٩٠٣- وَلَقَدْ شَهِدْتُمْ أَنَّ هَذَا قَوْلُكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ مَعْ أُولِي الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «**شهدتم أَنَّ هَذَا قَوْلُكُمْ**»؛ يعني: اعترفتم بأنَّ هذا قولُكم، واعترافُ الإنسانِ على نفسِه يُسَمَّى شهادةً، قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النِّساء:١٣٥].

٣٩٠٤- وَارَحْمَتَاهُ لَكُمْ غَبَنْتُمْ حَظَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَا رَحْمَتَاهُ لَكُمْ**» ينبغي أن نعلمَ أنَّ لنا نَظَرَيْنِ في أهلِ البدعِ الذين زاغوا عن الصِّراطِ المستقيمِ، وهما:

النَّظرُ الأوَّلُ: نظرٌ بعينِ القَدَرِ، ففي هذه الحالِ نرحمُهم ونَرِقُّ لهم، كما نرحمُ ونَرِقُّ للمريضِ مرضًا جسمانيًّا؛ لأنَّ هؤلاء حُرِمُوا الخيرَ وحُرِمُوا الطُّهرَ فَنَرِقُّ لهم.

النَّظرُ الثَّاني: نظرُ الشَّرعِ، وفي هذه الحالِ يجبُ أن نُجْرِيَ عليهم ما يقتضيه الشَّرعُ؛ ولهذا قال الشَّافعيُّ رحمه الله: «حُكْمي في أهلِ الكلامِ أن يُضْرَبُوا بالجريدِ

والنِّعالِ، ويُطَافَ بهم في الأسواقِ، ويُقَالَ: هذا جزاءُ مَنْ تَرَكَ الكتابَ والسُّنَّةَ وأقبلَ على علمِ الكلامِ»[١].

وكذلك في بقيَّةِ المعاصي ننظُر إلى الزَّاني بعَيْنَيْنِ: عينِ القدرِ، وعينِ الشَّرعِ، فبعين القَدَرِ نَرِقُّ له، نقولُ: هذا مِسكينٌ، ابْتُلِي بهذه المصيبةِ، ابْتُلِي بهذه المعصيةِ، فنرقُّ له ونرحمُه كما لو ابْتُلِيَ بمرضٍ جسميٍّ، والثَّاني: نظرٌ شرعيٌّ فنقيمُ عليه الحدَّ، ونكونُ كما أمرنا اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢]، فقول المؤلِّف: «**وَا رَحْمَتَاهُ لَكُمْ**» نَدَبَ الرَّحمةَ أن تكونَ لهم، وهذا بالنَّظرِ إلى عينِ القدرِ.

قَوْلُهُ: «**غَبَنْتُمْ حَظَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ وَمِنْ إِيمَانِ**»، صَدَقَ رحمه اللهُ؛ فَإِنَّ هذا القولَ الذي قالوه جهلٌ وبعيدٌ عن الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ أن نؤمنَ بأنَّ اللهَ فوقَ العرشِ وأنَّه يتكلَّمُ بكلامٍ مسموعٍ بحرفٍ وصوتٍ، وأنَّ هذا الكلامَ المسموعَ نَزَلَ به جبريلُ على قلبِ النَّبيِّ ﷺ، هذا هو إيمانُنا، كُلُّ هذا قد غُبِنُوه ولم يقولوا به.

٣٩٠٥- وَنَسَبْتُمُ لِلكُفْرِ أَوْلَى مِنْكُمُ ... بِاللهِ وَالإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

يعني: نَسَبْتُمُ للكفرِ مَنْ هو أولى منكم بالله وبالإيمانِ وبالقُرآنِ، لأنَّهم يُكَفِّرونَ مَنْ يقولُ: إنَّ اللهَ يتكلَّمُ بحرفٍ وصوتٍ.

٣٩٠٦- هَذِي بِضَاعَتُكُمْ فَمَنْ يَسْتَامُهَا ... فَقَدِ ارْتَضَى بِالجَهْلِ وَالخُسْرَانِ

الذي يَسُومُ هذه البضاعةَ جاهلٌ خاسرٌ.

* * *

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٩).

٣٩٠٧- وَتَمَــامُ هَــذَا قَــوْلُكُمْ فِي مَبْــدَأٍ ... وَمَعَادِنَــا أَعْنِــي المَعَــادَ الثَّــانِي

٣٩٠٨- وَتَمَــامُ هَــذَا قَــوْلُكُمْ بِفَنَــاءِ دَا ... رِ الــخُلْدِ فَالــدَّارَانِ فَانِيَتَــانِ

٣٩٠٩- يَا قَوْمَنَا بَلَـغَ الوُجُـودَ بِـأَسْرِهِ الـدْ ... دُنْيَـا مَـعَ الأُخْـرَى مَـعَ الإِيـمَانِ

٣٩١٠- وَالخَلْقُ وَالأَمْرُ الـمُنَزَّلُ وَالـجَزَا ... وَمَنَــازِلُ الــجَنَّاتِ وَالنِّــيرَانِ

٣٩١١- وَالنَّـاسُ قَـدْ وَرِثُـوهُ بَعْـدُ فَمِـنْهُمُ ... ذُو السَّــهْمِ وَالسَّــهْمَيْنِ وَالسُّــهْمَانِ

٣٩١٢- بِئْسَ الـمُوَرِّثُ وَالـمُوَرَّثُ وَالـتُّرَا ... ثُ ثَلاثَــةٌ أَهْــلٌ لِكُــلِّ هَــوَانِ

الشــرحُ

٣٩٠٧- وَتَمَــامُ هَــذَا قَــوْلُكُمْ فِي مَبْــدَأٍ ... وَمَعَادِنَــا أَعْنِــي المَعَــادَ الثَّــانِي

٣٩٠٨- وَتَمَــامُ هَــذَا قَــوْلُكُمْ بِفَنَــاءِ دَا ... رِ الــخُلْدِ فَالــدَّارَانِ فَانِيَتَــانِ

يعني: أنَّهم قالوا قولًا مُنْكَرًا في المبدأ والمَعَادِ، ففي المبدأ قالوا بمنعِ تسلسُلِ الحوادثِ في الماضي، فاللهُ تعالى كان فاعلًا بعد أن كان غيرَ فاعلٍ، وفي المَعَادِ قالوا بفَناءِ دار الخلدِ، فالدَّاران فانيتان؛ يعني بذلك: فَنَاءَ الجنَّةِ وفَنَاءَ النَّارِ، فإنَّ المعتزلةَ يقولون بفنائِها وأنَّ النَّار والجنَّة تفنيان، وقد سبق أنَّ بعضَهم وهو العَلَّاف قال: إنَّ الذي تَفْنَى هي الحركاتُ، وأمَّا الذَّواتُ فتبقى.

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يقولون: إنَّ النَّارَ والـجنَّةَ لا تفنيان، وكم من آيةٍ صَرَّحَ اللهُ تعالى فيها بالخلودِ الأبديِّ في الجنَّةِ وفي النَّارِ، ففي النَّارِ صَرَّحَ اللهُ تعالى في ثلاثةِ مواضعَ من كتابه بأنَّ أهلَها خالدون فيها أبدًا، في سورة «النِّساء» قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سورةِ «الأحزاب» قال -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سورة «الجنّ» قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]، وما بعد هذه الآياتِ الثَّلاث قولٌ لقائلٍ؛ لأَنَّه إذا تَأَبَّدَ خلودُ الخالدِ لَزِمَ خلودُ المكانِ الذي هو خالدٌ فيه، أمَّا الجنَّةُ فالآياتُ في التَّأبيدِ فيها كثيرةٌ.

ويظهر أنَّ له في المسألة قَوْلَيْنِ: قولًا يدلُّ على أنَّها تَفْنَى وليس يدلُّ دلالةً صريحةً، لكنَّه سَاقَ أدلَّةً كثيرةً ممَّا يدلُّ على أنَّه يَميلُ إلى القولِ بذلك، ولكن كُلٌّ يُؤْخَذُ من قولِه ويُتْرَكُ؛ لأَنَّه إذا وَرَدَ في القرآنِ صريحًا قولُه تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا نأخذُ بقولِ أحدٍ بعده.

ولقد رأيتُ كتابةً بقلمِ شيخِنا على كتاب: «**شفاء العليل**»؛ لابنِ القيِّم رحمه اللهُ؛ لأَنَّه ذَكَرَ هذه المسألةَ وأطال فيها، قال فيها شيخُنا: «**إنَّ هذا غلطٌ محضٌ**» أو كلمةً نحوها، ثُمَّ استغرب أن يقعَ من ابنِ القيِّمِ مثلُ هذا، وقال: «**لكُلِّ جوادٍ كبوةٌ، ولكُلِّ صارمٍ نَبْوَةٌ**»، وصدق -رحمه الله- فكُلُّ المؤيِّداتِ التي ذَكَرَها لا يمكنُ أن تنقضَ آيةً واحدةً من القرآنِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥] يقولون: إنَّ اللهَ قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٦-١٠٧]، وفي أهل الجنَّة قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، فيُقَالُ: لا فَرْقَ، إنَّما قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؛ لأَنَّها مِنَّةٌ ورحمةٌ وفضلٌ، فأراد عزَّ وجلَّ أن يُبيِّنَ فضلَه، وأمَّا قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾؛ فلأَنَّها عقوبةٌ

وانتقامٌ، فبَيَّنَ أنَّه -سبحانه وتعالى- له الحكمُ وأنَّه يفعلُ ما يريدُ، ولو أبقى هؤلاء في النَّارِ أبدَ الآبدين؛ لأنَّه يفعلُ ما يريدُ، هذا وجهُ الفرقِ بين الآيتَيْنِ.

وأمَّا قولُه: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فهذا مذكورٌ في أهلِ الجنَّة وفي أهلِ النَّارِ، وهذا إمَّا أن يُقَالَ على سبيل المَثَلِ؛ لأنَّ النَّاسَ يقولون في كلامِهم: «**لا أَصْحَبُكَ ما دَامَت السَّماواتُ والأرضُ**»؛ يعني: أبدَ الآبِدين، أو يُقَالَ: «**مَا دَامَت السَّماواتُ والأرضُ إلَّا ما شاء ربُّك**»؛ أي: فوق ذلك، فوق دوامِ السَّماواتِ والأرضِ، وعلى كُلِّ حالٍ إذا تنزَّلنا مع هؤلاء قلنا: هذه الآيةُ من المتشابهِ فتُحْمَلُ على المُحْكَمِ الذي لا شكَّ فيه.

٣٩٠٩- يَا قَوْمَنَا بَلَغَ الوُجُودَ بِأَسْرِهِ الدْ دُنْيَا مَعَ الأُخْرَى مَعَ الإِيمَانِ

معناه: أنَّ صَنِيعَهم بَلَغَ الدُّنيا والآخرةَ، ففي قولِهم فسادُ الدُّنيا وفسادُ الآخرةِ.

٣٩١٠- وَالخَلْقُ وَالأَمْرُ الـمُنَزَّلُ وَالـجَزَا وَمَنَازِلُ الـجَنَّاتِ وَالنِّيرَانِ

كُلُّ هذا يُعْرَفُ مُفَصَّلًا من مَذاهبِ هؤلاء المعطِّلةِ حتَّى إنَّهم قالوا: إنَّ الموازينَ يوم القيامةِ ليست حِسِّيَّةً، والصِّراطَ ليس حِسِّيًّا، والحوضَ ليس حِسِّيًّا، أماَّ الفلاسفةُ الأوَّلون فمعلومٌ قولُهم في الجزاءِ وأنَّه ليس هناك جنَّةٌ ولا نارٌ، وإنَّما هي أمورٌ تخييليَّةٌ.

٣٩١١- وَالنَّاسُ قَدْ وَرِثُوهُ بَعْدُ فَمِنْهُمُ ذُو السَّهْمِ وَالسَّهْمَيْنِ وَالسَّهْمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالنَّاسُ قَدْ وَرِثُوهُ بَعْدُ**»؛ يعني: قد وَرِثُوا هذا التَّعطيلَ وهذا الضَّلالَ.

قَوْلُهُ: «فَمِنْهُمْ ذُو السَّهْمِ وَالسَّهْمَيْنِ وَالسُّهْمَانِ»؛ فواحدٌ أَخَذَ سهمًا، والثَّاني أَخَذَ سهمَيْن، والثَّالث أَخَذَ سهامًا.

٣٩١٢- بِئْسَ الـمُوَرِّثُ وَالـمُوَرَّثُ وَالتُّرَا ... ثُ ثَلاثَــةٌ أَهْــلٌ لِكُــلِّ هَــوَانِ

وصَدَقَ رحمه اللهُ، فَإِنَّ هؤلاء الذين وَرِثُوا الفلاسفةَ والمناطقةَ من أهل الكلامِ وغيرِهم يُقَالُ في إرثِهم وفيما ورثوه ما قاله ابنُ القيِّم -رحمه الله تعالى-: «بِئْسَ الـمُوَرِّثُ وَالـمُوَرَّثُ وَالتُّرَاثُ»، «الـمُوَرِّثُ»: الأوَّل، «الـمُوَرَّثُ»: الثَّاني، و«التُّرَاثُ»: الشَّيءُ الموروثُ، فمثلًا إذا مَاتَ إنسانٌ وخَلَّفَ مالًا وورثةً، الأوَّل: الميِّت وهو المُوَرِّث، والوارثُ «مُوَرَّث»، والمالُ «تراثٌ»، كُلُّ هذه الثَّلاثةِ أهلٌ لكُلِّ هَوَانٍ.

* * *

٣٩١٣- يَـا وَارِثِـينَ نَبِـيَّهُمْ بُشْـرَاكُمُ ... مَـا إِرْثُكُـمْ مَـعَ إِرْثِهِـمْ سِيَّانِ

٣٩١٤- شَـتَّانَ بَـيْنَ الـوَارِثِينَ وَبَـيْنَ مَـوْ ... رُوثَـيْهِمَا وَسِـهَامِ ذِي سُـهْمَانِ

٣٩١٥- يَا قَوْمُ مَا صَاحَ الأَئِمَّـةُ جُهْـدَهُمْ ... بِالـجَهْمِ مِـنْ أَقْطَارِهَـا بِـأَذَانِ

٣٩١٦- إِلَّا لِـمَا عَرَفُـوهُ مِـنْ أَقْوَالِـهِ ... وَمَآلِـهَا بِحَقِيقَـةِ العِرْفَـانِ

٣٩١٧- قَوْلُ الرَّسُولِ وَقَوْلُ جَهْمٍ عِنْـدَنَا ... فِي قَلْـبِ عَبْـدٍ لَـيْسَ يَجْتَمِعَـانِ

٣٩١٨- نَصَـحُوكُمُ وَاللهِ جُهْـدَ نَصِـيحَةٍ ... مَـا فِـيهِمُ وَاللهِ مِـنْ خَـوَّانِ

٣٩١٩- فَخُـذُوا بِهَـدْيِهِمُ فَـرَبِّي ضَـامِنٌ ... وَرَسُـولُهُ إِنْ تَفْعَلُـوا بِجِنَـانِ

٣٩٢٠- فَإِذَا أَبَيْـتُمْ فَالسَّـلامُ عَـلَى مَـنِ اتْـ ... ـتَبَعَ الـهُدَى وَانْقَـادَ لِلقُـرْآنِ

الشَّرحُ

لـمَّا ذَكَرَ هؤلاء المعطِّلةَ من المتكلِّمين وغيرِهم أنَّهم وَرِثُوا الفلاسفةَ والمناطقةَ قال -رحمه الله-:

٣٩١٣- يَا وَارِثِينَ نَبِيَّهُمْ بُشْرَاكُمُ ... مَا إِرْثُكُمْ مَعَ إِرْثِهِمْ سِيَّانِ

قَوْلُهُ: «بُشْرَاكُمُ»؛ يعني: البُشْرَى لكم.

والوارثون للرَّسولِ ﷺ هم الذين وَرِثُوه علمًا وعملًا ودعوةً، وليس الوارثون للرَّسولِ ﷺ هم الذين وَرِثُوا العلمَ فقط؛ لأنَّ العلمَ إذا لم يكن معه عملٌ ودعوةٌ فإنَّه قد يكونُ وبالًا على صاحبِه.

٣٩١٤- شَتَّانَ بَيْنَ الوَارِثِينَ وَبَيْنَ مَوْ ... رُوثَيْهِمَا وَسِهَامِ ذِي سَهْمَانِ

قَوْلُهُ: «شَتَّانَ» بمعنى: بَعُدَ.

يعني: بَعُدَ ما بين الوارثين لهؤلاء وهؤلاء وبين المُوَرِّثين أيضًا.

٣٩١٥- يَا قَوْمُ مَا صَاحَ الأَئِمَّةُ جُهْدَهُمْ ... بِالجَهْمِ مِنْ أَقْطَارِهَا بِأَذَانِ

٣٩١٦- إِلَّا لِمَا عَرَفُوهُ مِنْ أَقْوَالِهِ ... وَمَآلِهَا بِحَقِيقَةِ العِرْفَانِ

العلماءُ في أقطارِ الدُّنيا كُلِّها صَاحَتْ بالجهمِ وَشنَّعَتْ عليه وبَيَّنَتْ بطلانَ مذهبِه؛ لأنَّهم يعرفون ما لهذا المذهبِ من الآثارِ السَّيِّئةِ على الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ؛ فلذلك صاحوا به من كُلِّ مكانٍ.

٣٩١٧- قَوْلُ الرَّسُولِ وَقَوْلُ جَهْمٍ عِنْدَنَا ... فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

لماذا؟ لأنَّ قولَ الرَّسولِ ﷺ قولٌ حقٌّ، وقولَ جهمٍ قولٌ باطلٌ، فلا يجتمعُ

حقٌّ مع باطلٍ بحيث يكونُ كُلٌّ منهما صحيحًا مُعْتَقَدًا، بل قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

٣٩١٨- نَصَحُوكُمُ وَاللهِ جُهْدَ نَصِيحَةٍ   مَا فِيهِمُ وَاللهِ مِنْ خَوَّانِ

نَصَحَكُم أهلُ السُّنَّةِ نصيحةً بالغةً ما فيهم والله من خَوَّانٍ.

٣٩١٩- فَخُذُوا بِهَدْيِهِمُ فَرَبِّي ضَامِنٌ   وَرَسُولُهُ إِنْ تَفْعَلُوا بِجِنَانِ

يعني: إذا أَخَذتم بهَدْيِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ المَبْنِيِّ على قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل على قولِ الله وقولِ رسولِه فإِنَّ اللهَ ورسولَه قد ضَمِنَا لكم الجِنَانَ إن فعلتم ذلك؛ لأَنَّكم على صراطٍ مستقيمٍ.

وصريحُ كلامِ المؤلِّف -رحمه الله- أنَّ المبتدعَ تَصِحُّ توبتُه؛ لأَنَّه قال: «**فَخُذُوا بِهَدْيِهِمُ فَرَبِّي ضَامِنٌ وَرَسُولُهُ إِنْ تَفْعَلُوا** -ضَامِنٌ- **بِجِنَانِ**»؛ يعني: أن تدخلوا الجنَّةَ وهو يُخَاطِبُ الجهميَّةَ، فَدَلَّ ذلك على أنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- يرى أنَّ المبتدعَ له توبةٌ، ولا شكَّ أنَّ هذا هو الصَّوابُ، ومَنْ يحولُ بينَ الإنسانِ وبين توبتِه إلى ربِّه؟! أليس اللهُ -سبحانه وتعالى- يقولُ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر:٥٣]، بلى، والله يقولُ هكذا، فمَنْ يحولُ بين الإنسانِ وبين التَّوبةِ؟! أو ليس أئمَّةُ الكفرِ ودعاةُ الضَّلالِ الذين يسبُّون اللهَ ورسولَه ودينَ الإسلامِ آمنوا فقُبِلَ إيمانُهم، وتابوا إلى الله فَقَبِلَ اللهُ توبتَهم، لكن على المبتدعِ أن يُبَيِّنَ ضلالَه السَّابقَ لا سيَّما إذا انتشر بين النَّاسِ، عليه أن يُبَيِّنَ أنَّه على ضلالةٍ فيما سَبَقَ، وأنَّ السُّنَّةَ والصَّوابَ خلافُ ما قاله أوَّلًا، وقد فَعَلَ ذلك الأئمَّةُ -رحمهم اللهُ- الذين كانوا على البدعةِ في أوَّل الأمرِ كأبي الحسن الأشعريِّ، فإِنَّ أبا الحسن الأشعريَّ -رحمه الله- كان على مذهبِ

المعتزلةِ أربعين سنةً وهو يُدافعُ عن المذهبِ ويُؤيِّدُه، فَمَنَّ اللهُ عليه واهتدى؛ يعني: بقولٍ وسطٍ، فَصَاحَ بعد صلاةِ الجمعةِ مُعْلِنًا بطلانَ مذهبِ المعتزلةِ، وقام يَرُدُّ عليهم، ثُمَّ اهتدى في النِّهاية حتَّى صار على مذهبِ إمامِ أهلِ السُّنَّةِ أحمدَ ابنِ حنبلٍ -رحمه الله-، ومثلُ هذا الرَّجلِ هل يمكنُ أن نقولَ: لا تُقْبَلُ توبتُه؟ لا يمكنُ، خصوصًا وأنَّه أعلن بطلانَ ما كان عليه في المذهبِ الأوَّلِ.

٣٩٢٠- فَإِذَا أَبَيْتُمْ فَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتْـ ـتَبَعَ الهُدَى وَانْقَادَ لِلقُرْآنِ

يعني: فأنتم ضُلَّالٌ، والسَّلامُ على مَن اتَّبَعَ الهدى وانقادَ للقُرآنِ.

* * *

٣٩٢١- سِيرُوا عَلَى نُجُبِ العَزَائِمِ وَاجْعَلُوا بِظُهُورِهَا المَسْرَى إِلَى الرَّحْمَنِ

٣٩٢٢- سَبَقَ المُفَرِّدُ وَهْوَ ذَاكِرُ رَبِّهِ فِي كُلِّ حَالٍ لَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

٣٩٢٣- لَكِنْ أَخُو الغَفَلاتِ مُنْقَطِعٌ بِهِ بَيْنَ المَفَاوِزِ تَحْتَ ذِي الغِيلَانِ

٣٩٢٤- صَيْدُ السِّبَاعِ وَكُلِّ وَحْشٍ كَاسِرٍ بِئْسَ المُضِيفُ لأَعْجَزِ الضِّيفَانِ

٣٩٢٥- وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَصْطَادُ الَّذِي لا يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ كُلَّ أَوَانِ

٣٩٢٦- وَالذِّكْرُ أَنْوَاعٌ فَأَعْلَى نَوْعِهِ ذِكْرُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا المَنَّانِ

٣٩٢٧- وَثُبُوتُهَا أَصْلٌ لِهَذَا الذِّكْرِ وَالنْـ ـنَافِي لَهَا دَاعٍ إِلَى النِّسْيَانِ

٣٩٢٨- فَلِذَاكَ كَانَ خَلِيفَةَ الشَّيْطَانِ ذَا لا مَرْحَبًا بِخَلِيفَةِ الشَّيْطَانِ

٣٩٢٩- وَالذَّاكِرُونَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فَأَعْـ ـلاهُمْ أُولُو الإِيمَانِ وَالعِرْفَانِ

٣٩٢٠- بِصِفَاتِهِ العُلْيَا إِذَا قَامُوا بِحَمْـ ـدِ اللهِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

الشرحُ

يقول المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- في بيانِ أهلِ الذِّكرِ وأهلِ الغفلةِ، يقولُ:

٣٩٢١- سِيرُوا عَلَى نُجُبِ العَزَائِمِ وَاجْعَلُوا بِظُهُورِهَا المَسْرَى إِلَى الرَّحْمَنِ

الخطابُ لأهلِ السُّنَّةِ؛ يعني: لا يهمُّكم هؤلاء، بل «سِيرُوا عَلَى نُجُبِ العَزَائِمِ»، و«نُجُب» جمع نَجِيبَة، وهي النَّاقةُ المختارة التي تفوقُ غيرَها.

٣٩٢٢- سَبَقَ المُفَرِّدُ وَهْوَ ذَاكِرُ رَبِّهِ فِي كُلِّ حَالٍ لَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

قَوْلُهُ: «سَبَقَ المُفَرِّدُ وَهْوَ ذَاكِرُ رَبِّهِ»؛ وذلك كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «سَبَقَ المُفَرِّدُونَ»، قالوا: وَمَا المُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»[1].

قَوْلُهُ: «فِي كُلِّ حَالٍ» أَخَذَه المؤلِّفُ من قولِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»[2]، وفي القرآنِ الكريمِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩١].

٣٩٢٣- لَكِنْ أَخُو الغَفَلاتِ مُنْقَطِعٌ بِهِ بَيْنَ المَفَاوِزِ تَحْتَ ذِي الغِيلَانِ

قَوْلُهُ: «الغَفَلَاتِ»؛ يعني: عن ذكرِ الله عزَّ وجلَّ.

وكُلَّما غفل الإنسانُ عن ذكرِ ربِّه انقطعت به السَّبيلُ، وكُلَّما عَمَرَ قلبُه بذكرِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب هل يتتبع المؤذن فاه ها هنا وها هنا وهل يلتفت في الأذان، ومسلم: كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم (٣٧٣).

ربِّه وَصَلَ إلى الغايةِ، فالذِّكرُ بمنزلةِ النُّورِ يهتدي به الإنسانُ في ظلماتِ الطُّرقِ حتَّى يصلَ إلى غايته.

٣٩٢٤- صَيْدُ السِّبَاعِ وَكُلِّ وَحْشٍ كَاسِرٍ بِئْسَ المُضِيفُ لأَعْجَزِ الضِّيفَانِ

قَوْلُهُ: «صَيْدُ السِّبَاعِ»؛ يعني: هم صيدُ السِّبَاعِ.

قَوْلُهُ: «وَكُلِّ وَحْشٍ كَاسِرٍ»؛ يعني: كُلَّ وحشٍ شديدِ الوحشيَّةِ.

قَوْلُهُ: «بِئْسَ المُضِيفُ لأَعْجَزِ الضِّيفَانِ»، وهذا كقولِ الله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

٣٩٢٥- وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَصْطَادُ الَّذِي لا يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ كُلَّ أَوَانِ

الشَّيطانُ يَصطادُ الغافلين عن ذِكرِ الله؛ ولهذا سُمِّي الخَنَّاس؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [النَّاس:٤]، قال العلماء: هو الذي يَخْنَسُ إذا ذُكِرَ اللهُ عزَّ وجلَّ.

ولهذا كان الغافلُ عن ذِكرِ الله يَتَّبعُ هواه ويضيعُ عليه أمرُه كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]؛ أي: ضياعًا لا بركةَ فيه، لكنَّ ذاكرَ الله عزَّ وجلَّ يُنْزِلُ اللهُ له البركةَ في قولِه وفعلِه وسعيِه وجميعِ أحوالِه.

٣٩٢٦- وَالذِّكْرُ أَنْوَاعٌ فَأَعْلَى نَوْعِهِ ذِكْرُ الصِّفَاتِ لِرَبِّنَا المَنَّانِ

الذِّكرُ أنواعٌ؛ يكونُ بالقلبِ، ويكونُ باللِّسانِ، ويكونُ بالجوارحِ، أمَّا بالقلبِ كأن يكونَ قلبُ الإنسانِ دائمًا متعلِّقًا بربِّه، يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ كُلَّما شَاهَدَ آيةً من آياتِ الله.

وَفِي كُــلِّ شَيءٍ لَــهُ آيَــةٌ تَــدُلُّ عَــلَى أَنَّــهُ وَاحِــدُ[1]

فهو كُلَّما نَظَرَ في الكونِ ذَكَرَ اللهَ عزَّ وجلَّ.

والذِّكرُ باللِّسانِ هو قولُ: لا إلهَ إلَّا الله، وسبحان الله، والحمدُ لله، وما أشبَهَ ذلك، ونَصِفُه بصفةِ العمومِ فنقول: كُلُّ قولٍ يُقَرِّبُ إلى الله فهو من ذكرِ الله، فيشملُ قراءةَ القرآنِ، والأمرَ بالمعروفِ، والنَّهيَ عن المنكرِ، ودراسةَ العلمِ، وغيرَ ذلك.

وأمَّا الذِّكرُ بالجوارحِ فهو التَّعبُّدُ لله تعالى بالجوارحِ، فالصَّلاةُ مثلًا تجمعُ أنواعَ الذِّكرِ؛ لأنَّها ذكرٌ بالقلبِ؛ إذ أنَّ الإنسانَ حين صلاته متعلِّقٌ قلبُه بربِّه عزَّ وجلَّ، وهي ذكرٌ باللِّسانِ؛ لأنَّها تشتملُ على تكبيرٍ وقرآنٍ وتسبيحٍ ودعاءٍ، وهي ذكرٌ أيضًا بالجوارحِ؛ لأنَّ فيها قيامًا وقعودًا وركوعًا وسجودًا، فهي في الحقيقةِ روضةٌ من رياضِ الذِّكرِ لا نظيرَ لها في العباداتِ، ولهذا كانت أفضلَ العباداتِ بعد الشَّهادتين.

٣٩٢٧- وَثُبُوتُهَا أَصْلٌ لِـهَذَا الـذِّكْرِ وَالنْـ ـنَافِي لَـهَا دَاعٍ إِلَى النِّسْـيَانِ

قَوْلُهُ: «وَثُبُوتُهَا أَصْلٌ لِـهَذَا الذِّكْرِ»؛ يعني: ثبوتُ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ أصلُ هذا الذِّكرِ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يذكرَ الإنسانُ ربَّه بصفاتِه إلَّا بعد إثباتِها؛ إذ كيف يذكرُه بصفاتٍ لا يُثْبِتُها؛ ولهذا نجدُ المعطِّلةَ محرومين غايةَ الحرمانِ من لذَّةِ الذِّكرِ؛ لأنَّهم لا يعتقدون لله وجهًا ولا يدًا ولا رحمةً ولا فَرَحًا ولا ضَحِكًا ولا عَجَبًا، فهم -والعياذُ بالله- محرومون من لذَّةِ الذِّكرِ؛ إذ أنَّهم في الحقيقةِ كما قال ابنُ القيِّم في مقدِّمة النُّونيَّة: **«المُعَطِّلُ يعبدُ عَدَمًا والمُمثِّلُ يعبدُ صَنَمًا»**، وصَدَقَ رحمه اللهُ.

---

(١) البيت عزاه في معارج القبول (١/ ١١١) لأبي العتاهية.

قَوْلُهُ: «وَالنَّافِي لَـهَا دَاعٍ إِلَى النِّسْيَانِ»: الذي ينفيها يدعو النَّاسَ إلى نسيانِ ذكرِ الله، وحينئذٍ يضيعُ أمرُه في الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّهم إذا لم يُثبتوا الصِّفاتِ لم يذكروا الله.

٣٩٢٨- فَلِـذَاكَ كَـانَ خَلِيفَـةَ الشَّـيْطَانِ ذَا　　لا مَرْحَبًـا بِخَلِيفَـةِ الشَّـيْطَانِ

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ كَانَ خَلِيفَةَ الشَّيْطَانِ ذَا»؛ أي: هذا الذي يَنْفِي الصِّفاتِ كان خليفةً للشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يصدُّ النَّاسَ عن ذكرِ الله، وهذا يصدُّ النَّاسَ عن إثباتِ الصِّفاتِ، وبالتَّالي عن ذكرِ الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «لَا مَرْحَبًا بِخَلِيفَةِ الشَّيْطَانِ» ولا بالشَّيطانِ، لا مرحبًا بالخليفةِ ولا بالمخلوفِ.

٣٩٢٩- وَالـذَّاكِرُونَ عَـلَى مَـرَاتِبِهِمْ فَأَعْـ　　ـلاهُمْ أُولُـو الإِيـمَانِ وَالعِرْفَـانِ

بماذا؟ قال:

٣٩٣٠- بِصِـفَاتِهِ العُلْيَـا إِذَا قَـامُوا بِحَمْـ　　ـدِ الله فِي سِرٍّ وَفِي إِعْـلانِ

قَوْلُهُ: «إِذَا قَامُوا بِحَمْدِ الله فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ»، وفي نسخةٍ: «إِذْ»، ونسخةُ «إِذَا» هي التي يَتِمُّ بها البيتُ.

الذَّاكرون على مراتبَ بحسَب ما قام في قلوبِهم من تعظيمِ الله عزَّ وجلَّ والتَّعلُّقِ به؛ فأعلاهم أولو الإيمانِ والعرفانِ بصفاتِه العُلْيَا؛ يعني: أعلاهم مَنْ آمَنَ بصفاتِ الله وعَرَفَ صفاتِ الله، فهؤلاء أعلى أهلِ الذِّكرِ منزلةً.

* * *

٣٩٣١- وَأَخَصُّ أَهْلَ الذِّكْرِ بِـالرَّحْمَنِ أَعْـ ـــلَمُهُمْ بِهَـا هُـمْ صَـفْوَةُ الـرَّحْمَنِ

٣٩٣٢- وَكَـذَاكَ كَـانَ مُحَمَّـدٌ وَأَبُـوهُ إِبْـ ـــرَاهِيمُ وَالمَوْلُـودُ مِـنْ عِمْـرَانِ

٣٩٣٣- وَكَذَاكَ نُـوحٌ وَابْـنُ مَـرْيَمَ عِنْـدَنَا هُـمْ خَـيْرُ خَلْـقِ اللهِ مِـنْ إِنْسَـانِ

٣٩٣٤- لِـمَعَارِفٍ حَصَلَتْ لَـهُمْ بِصِـفَاتِهِ لَـمْ يُؤْتَهَـا أَحَـدٌ مِـنَ الإِنْسَـانِ

٣٩٣٥- وَهُمُ أُولُو العَزْمِ الَّذِينَ بِسُورَةِ الـ أَحْـزَابِ وَالشُّـورَى أَتَـوْا بِبَيَـانِ

٣٩٣٦- وَكَـذَلِكَ القُـرْآنُ مَمْلُـوءٌ مِـنَ الـ أَوْصَـافِ وَهْـيَ القَصْـدُ بِـالقُرْآنِ

٣٩٣٧- لِيَصِـيرَ مَعْرُوفًـا لَنَـا بِصِـفَاتِهِ وَيَصِـيرَ مَـذْكُورًا لَنَـا بِجِنَـانِ

٣٩٣٨- وَلِسَـانٍ اَيْضًـا مَـعْ مَحَبَّتِنَـا لَـهُ فَلِأَجْـلِ ذَا الإِثْبَـاتُ فِي الإِيـمَانِ

٣٩٣٩- مِثْلُ الأَسَاسِ مِنَ البِنَاءِ فَمَـنْ يَـرُمْ هَـدْمَ الأَسَـاسِ فَكَيْـفَ بِالبُنْيَـانِ

٣٩٤٠- وَاللهِ مَـا قَـامَ البِنَـاءُ لِـدِينِ رُسْـ ـــلِ اللهِ بِالتَّعْطِيـــلِ لِلـــدَّيَّانِ

٣٩٤١- مَـا قَـامَ إِلَّا بِالصِّـفَاتِ مُفَصَّـلًا إِثْبَاتُهَـا تَفْصِـيلَ ذِي عِرْفَـانِ

٣٩٤٢- فَهِيَ الأَسَاسُ لَـدِينِنَا وَلِكُـلِّ دِيـ ـــنٍ قَبْلَـهُ مِـنْ سَـائِرِ الأَدْيَـانِ

الشـرحُ

٣٩٣١- وَأَخَصُّ أَهْلَ الذِّكْرِ بِـالرَّحْمَنِ أَعْـ ـــلَمُهُمْ بِهَـا هُـمْ صَـفْوَةُ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «أَخَصُّ»: مبتدأٌ، و«أَعْلَمُهُمْ»: خبرُ المبتدأ، أو بالعكس.

يعني: أَخَصُّ أهلِ الذِّكرِ باللهِ عزَّ وجلَّ أعلمُهم بصفاتِ اللهِ.

٣٩٣٢- وَكَــذَاكَ كَــانَ مُحَمَّــدٌ وَأَبُــوهُ إِبْـــ ـــرَاهِيمُ وَالمَوْلُــودُ مِــنْ عِمْــرَانِ

٣٩٣٣- وَكَذَاكَ نُــوحٌ وَابْــنُ مَــرْيَمَ عِنْــدَنَا هُــمْ خَــيْرُ خَلْــقِ اللهِ مِــنْ إِنْسَــانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ كَانَ مُحَمَّدٌ وَأَبُوهُ إِبْرَاهِيمُ» من أولي العزمِ: محمَّدٌ ﷺ، وأبوه إبراهيمُ، قال اللهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، وقال له إبراهيمُ لَـمَّا عُرِجَ به: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ»(١)، فأبوه إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

قَوْلُهُ: «والمَوْلُودُ مِنْ عِمْرَانِ» هو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

يقولُ ابنُ القيِّم -رحمه الله-: إنَّ أولي العزمِ خمسةٌ من الرُّسلِ، وقد رَتَّبَهم على الأفضليَّة، فأفضلُهم محمَّدٌ، ثُمَّ إبراهيمُ، ثُمَّ موسى، ثُمَّ نوحٌ، ثُمَّ ابنُ مريمَ، وهم خيرُ خلقِ الله من إنسانٍ؛ لأنَّهم أفضلُ الرُّسلِ، والرُّسلُ أفضلُ الخلقِ، وإنَّما كان هؤلاء أولى العزمِ لما سيذكرُه.

٣٩٣٤- لِـمَعَارِفٍ حَصَلَتْ لَـهُمْ بِصِـفَاتِهِ لَــمْ يُؤْتَهَــا أَحَــدٌ مِــنَ الإِنْسَــانِ

ولا شكَّ أنَّ هؤلاء الرُّسلَ الخمسةَ نالهم أو أتاهم من العلمِ بالله وأسمائِه وصفاتِه ما لم يحصلْ لغيرِهم، ثُمَّ النَّبيُّون والرُّسلُ على طبقاتٍ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ولقولِه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]، فالرُّسلُ قد فُضِّلَ بعضُهم على بعضٍ، والنَّبيُّون أيضًا قد فُضِّلَ بعضُهم على بعضٍ، وفضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٣).

٣٩٣٥- وَهُمُ أُولُو العَزْمِ الَّذِينَ بِسُورَةِ الـ ... أَحْـزَابِ وَالشُّـورَى أَتَـوْا بِبَيَـانِ

قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧] هذا في «الأحزابِ»، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشُّورى:١٣] هذا في سورة «الشُّورى».

٣٩٣٦- وَكَـذَلِكَ القُـرْآنُ مَمْلُـوءٌ مِـنَ الـ ... أَوْصَـافِ وَهْـيَ القَصْـدُ بِـالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَلِكَ القُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنَ الأَوْصَافِ**»؛ أي: من أوصافِ الله عزَّ وجلَّ، فلا تكادُ تجد آيةً إلَّا وفيها وصفٌ لله، بل إنَّنا نقولُ: كُلُّ آيةٍ فهي وصفٌ لله، كيف ذلك؟ لأنَّها كلامُ الله، فهي وصفُه، بل كُلُّ حرفٍ صفةٌ؛ لأنَّ كُلَّ حرفٍ كلامُ الله عزَّ وجلَّ، تكلَّم اللهُ به بكُلِّ حرفٍ، وعلى هذا فكُلُّ حرفٍ من القرآنِ إثباتُ صفةٍ لله عزَّ وجلَّ، وهي صفةُ الكلامِ الذي به الكمالُ، فللَّهِ دَرُّ ابنِ القيِّم.

قَوْلُهُ: «**وَهْيَ القَصْدُ بِالقُرْآنِ**»؛ يعني: أوصافُ الله عزَّ وجلَّ والإخبارُ بها هي القصدُ من القرآنِ؛ لأنَّ القرآنَ كُلَّه أخبارٌ عن الله، وأخبارٌ عن أحكامِ الله، وأخبارٌ عن عبادِ الله.

٣٩٣٧- لِيَصِـيرَ مَعْرُوفًـا لَنَـا بِصِـفَاتِهِ ... وَيَصِـيرَ مَـذْكُورًا لَنَـا بِجِنَـانِ

قَوْلُهُ: «**لِيَصِيرَ مَعْرُوفًا لَنَا بِصِفَاتِهِ**»؛ أي: ليصيرَ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ معروفًا لنا بصفاتِه.

قَوْلُهُ: «**لِيَصِيرَ مَعْرُوفًا**»؛ يعني: على التَّفصيلِ، أمَّا على الإجمالِ فَإنَّ معرفةَ الخالقِ فطريَّةٌ، قد أخذ اللهُ علينا الميثاقَ بما ركَّز في فِطَرِنا من معرفتِه عزَّ وجلَّ،

لكنَّك لا تعرفُ اللهَ على سبيلِ التَّفصيلِ إلَّا عن طريقِ الوحي.

قَوْلُهُ: «وَيَصِيرَ مَذْكُورًا لَنَا بِجَنَانٍ»، والجَنَانُ؛ أي: القلبُ، وسُمِّي جَنَانًا؛ لأنَّه مستترٌ، وأصلُ المادة: الجيمُ والنُّونُ تدلُّ على الاستتار.

٣٩٣٨- وَلِسَـــانٍ اَيْضًـــا مَـــعْ مَحَبَّتِنَـــا لَـــهُ ....

قَوْلُهُ: «وَلِسَانٍ اَيْضًا» بتنوينٍ وإحفاء الهمزة؛ يعني: وكذلك يصيرُ مذكورًا لنا باللِّسانِ، نذكرُه عزَّ وجلَّ بأسمائِه وصفاتِه بألسنتِنا.

قَوْلُهُ: «مَعْ مَحَبَّتِنَا لَهُ»، وهذا هو الرَّابع: أن نحبَّه سبحانه وتعالى؛ لأنَّنا كُلَّما ذكرنا هذه الأوصافَ أحببناه لتمامِ فضلِه وكمالِ عدلِه، كُلُّ هذا يُعْلَمُ من صفاتِه سبحانه وتعالى، وهذه فوائدُ ذكرِ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

٣٩٣٨- .... فَلِأَجْـــلِ ذَا الإِثْبَـــاتُ فِي الإِيـــمَانِ

٣٩٣٩- مِثْلُ الأَسَاسِ مِنَ البِنَاءِ فَمَـنْ يَـرُمْ هَـدْمَ الأَسَـاسِ فَكَيْـفَ بِالبُنْيَـانِ

يعني: صار الإثباتُ في الإيمانِ كالأساسِ للبناءِ، فهو أساسُ الإيمانِ.

قَوْلُهُ: «فَمَنْ يَرُمْ هَدْمَ الأَسَاسِ فَكَيْفَ بِالبُنْيَانِ؟!» الذي يَهْدِمُ الأساسَ، هل يبقى البنيانُ أولا؟ الجوابُ: لا يبقى، فالذي يرومُ هَدْمَ الأساسِ معناه أنَّه لن يُبْقِيَ للبناءِ شيئًا.

٣٩٤٠- وَاللهِ مَـا قَـامَ البِنَـاءُ لِـدِينِ رُسْـ ـــلِ اللهِ بِالتَّعْطِيـــلِ لِلـــدَّيَّانِ

٣٩٤١- مَـا قَـامَ إِلَّا بِالصِّـفَاتِ مُفَصَّـلًا إِثْبَاتُهَـــا تَفْصِـــيلَ ذِي عِرْفَـــانِ

وصدَق -رحمه الله- فهذه يمينٌ بارَّةٌ، فما قام الإيمانُ بالتَّعطيلِ أبدًا.

٣٩٤٢- فَهِيَ الأَسَاسُ لَـدِينِنَا وَلِكُـلِّ دِيــ ـــنٍ قَبْلَـهُ مِـنْ سَـائِرِ الأَدْيَـانِ

أمَّا كونُها أساسًا لِدِينِنا فهذا أمرٌ معروفٌ مشهودٌ، وأمَّا كونُها أساسًا للأديانِ السَّابقةِ فَلِمَا يَنْقلُ اللهُ -سبحانه وتعالى- عن الكتبِ السَّابقةِ من أسمائِه وصفاتِه.

* * *

٣٩٤٣- وَكَذَاكَ زَنْدَقَةُ العِبَادِ أَسَاسُهَا التْــ ــتَعْطِيلُ يَشْـهَدُ ذَا أُولُـو العِرْفَـانِ

٣٩٤٤- وَاللهِ مَـا فِي الأَرْضِ زَنْدَقَـةٌ بَـدَتْ إِلَّا مِـــنَ التَّعْطِيـــلِ وَالنُّكْـــرَانِ

٣٩٤٥- وَاللهِ مَـا فِي الأَرْضِ زَنْدَقَـةٌ بَـدَتْ مِـنْ جَانِـبِ الإِثْبَـاتِ وَالقُـرْآنِ

٣٩٤٦- هَـذِي زَنَادِقَـةُ العِبَـادِ جَمِـيعِهِمْ وَمُصَـــنَّفَاتُهُمُ بِكُـــلِّ مَكَـــانِ

٣٩٤٧- مَـا فِـيهِمُ أَحَـدٌ يَقُـولُ اللهُ فَـوْ قَ العَرْشِ مُسْتَوْلٍ عَـلَى الأَكْـوَانِ

٣٩٤٨- وَيَقُـــولُ إِنَّ اللهَ جَـــلَّ جَلالُـــهُ مُـــتَكَلِّمٌ بِـــالوَحْيِ وَالقُـــرْآنِ

٣٩٤٩- وَيَقُـــولُ إِنَّ اللهَ كَلَّـــمَ عَبْـــدَهُ مُوسَـــى فَأَسْـــمَعَهُ بِـــذِي الآذَانِ

٣٩٥٠- وَيَقُـولُ إِنَّ النَّقْـلَ غَـيْرُ مُعَـارِضٍ لِلعَقْـــلِ بَـــلْ أَمْـــرَانِ مُتَّفِقَـــانِ

٣٩٥١- وَالنَّقْلُ جَاءَ بِـمَا يَحَارُ العَقْـلُ فِيــ ـــهِ لَا الْمُحَـالِ البَـيِّنِ الـبُطْلانِ

٣٩٥٢- فَانْظُرْ إِلَى الجَهْمِيِّ كَيْـفَ أَتَـى إِلَى أُسِّ الـــهُدَى وَمَعَاقِـلِ الإِيـمَانِ

٣٩٥٣- بِمَعَـاوِلِ التَّعْطِيـلِ يَقْطَعُهَـا فَـمَا يُبْقِـي عَـلَى التَّعْطِيـلِ مِـنْ إِيـمَانِ

٣٩٥٤- يَـدْرِي بِهَـذَا عَـارِفٌ بِمَآخِـذِ الـــ أَقْـوَالِ مُضْـطَلِعٍ بِهَـذَا الشَّـانِ

٣٩٥٥- وَاللهِ لَـــوْ حَـــدَّقْتُمُ لَـــرَأَيْتُمُ هَـذَا وَأَعْظَـمُ مِنْـهُ رَأْيُ عِيَـانِ

٣٩٥٦- لَكِنْ عَلَى تِلْكَ العُيُونِ غِشَاوَةٌ مَا حِيلَةُ الكَحَّالِ فِي العُمْيَانِ

الشـرحُ

٣٩٤٣- وَكَذَاكَ زَنْدَقَةُ العِبَادِ أَسَاسُهَا التْـ ـتَعْطِيلُ يَشْهَدُ ذَا أُولُو العِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «زَنْدَقَةُ» الزَّندقةُ: المروقُ من الإسلامِ.

قَوْلُهُ: «أَسَاسُهَا التَّعْطِيلُ»؛ أي: تعطيلُ الله عزَّ وجلَّ من أوصافِه وأفعالِه، فهذا هو أساسُ الزَّندقة؛ ولهذا قال:

٣٩٤٤- وَالله مَا فِي الأَرْضِ زَنْدَقَةٌ بَدَتْ إِلَّا مِنَ التَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

٣٩٤٥- وَالله مَا فِي الأَرْضِ زَنْدَقَةٌ بَدَتْ مِنْ جَانِبِ الإِثْبَاتِ وَالقُرْآنِ

فهذا القَسَمُ تَضَمَّنَ إثباتًا ونفيًا، إثبات أنَّ الزَّندقةَ بَدَتْ من التَّعطيلِ، ونفي أن تكونَ الزَّندقةُ بَدَتْ من الإثباتِ.

٣٩٤٦- هَـذِي زَنَادِقَةُ العِبَادِ جَمِيعِهِمْ وَمُصَنَّفَاتُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

يعني: فارجع إلى أقوالِ هؤلاءِ الزَّنادقةِ وإلى مُصَنَّفَاتِهم تجد أنَّهم بَنَوْا زندقتَهم على التَّعطيلِ.

٣٩٤٧- مَا فِيهِمُ أَحَدٌ يَقُولُ اللهُ فَوْ قَ العَرْشِ مُسْتَوْلٍ عَلَى الأَكْوَانِ

ما فيهم أحدٌ يقولُ: إنَّ اللهَ فوق العرشِ ومُستَوْلٍ على الأكوانِ، الطَّيِّبُ منهم يقولُ: إنَّ اللهَ مستولٍ على العرشِ كما هو مستولٍ على الأرضِ وعلى السَّماءِ وعلى البَشَرِ وعلى البهائمِ.

وَسَبَقَ لنا أنَّ منهم مَنْ قال: إنَّ اللهَ في كُلِّ مكانٍ، ومنهم مَنْ قال: إنَّ اللهَ لا يُوصَفُ بأيِّ مكانٍ، فلا يُقَالُ: إنَّ اللهَ فوقُ ولا تحتُ ولا يمينُ ولا شمالُ، فالأوَّلُ حلوليَّةٌ، والثَّاني: معطِّلةٌ غايةَ التَّعطيلِ والعياذُ بالله.

٣٩٤٨- وَيَقُــولُ إِنَّ اللهَ جَــلَّ جَلالُــهُ مُــتَكَلِّمٌ بِــالوَحْيِ وَالقُــرْآنِ

يعني: وما فيهم أحدٌ يقولُ: إنَّه متكلِّمٌ بالوحيِ والقرآنِ، منهم مَنْ يقولُ: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ بَائِنٌ من الله، ومنهم مَنْ يقولُ: إنَّ القرآنَ كلامُ الله ولكنَّه كلامٌ نفسيٌّ، وهذه الحروفُ خُلِقَت تعبيرًا عنه.

٣٩٤٩- وَيَقُــولُ إِنَّ اللهَ كَلَّــمَ عَبْــدَهُ مُوسَــى فَأَسْــمَعَهُ بِــذِي الآذَانِ

يعني: ما فيهم أحدٌ يقولُ: إنَّ اللهَ كَلَّمَ موسى -عليه الصلاة والسلام- فأسمعه كلامَه بِأُذُنَيْه.

٣٩٥٠- وَيَقُــولُ إِنَّ النَّقْــلَ غَــيْرُ مُعَــارِضٍ لِلعَقْــلِ بَــلْ أَمْــرَانِ مُتَّفِقَــانِ

قَوْلُهُ: «**وَيَقُولُ: إِنَّ النَّقْلَ غَيْرُ مُعَارِضٍ لِلْعَقْلِ**»؛ يعني: ما فيهم أحدٌ يقولُ: إنَّ النَّقلَ غيرُ معارِضٍ للعقلِ، بل فيهم مَنْ يقولُ: إنَّ النَّقلَ معارِضٌ للعقلِ، وإذا تَعَارَضَ العقلُ والنَّقلُ وَجَبَ تقديمُ العقلِ.

قَوْلُهُ: «**بَلْ أَمْرَانِ مُتَّفِقَانِ**»؛ يعني: بل هما أمران متَّفقان.

مَنْ الذي يقولُ هذا القولَ هل أهلُ الإثباتِ أو أهلُ التَّعطيلِ؟ الذين يقولون: إنَّ النَّقلَ غيرُ معارضٍ للعقلِ، وأنَّهما أمران مُتَّفقان هم أهلُ الإثباتِ، وليس هناك من أهلِ التَّعطيلِ مَنْ يقولُ هذا القولَ.

٣٩٥١- وَالنَّقْلُ جَاءَ بِـمَا يَحَارُ العَقْـلُ فِيـ ـهِ لَا المُحَـالِ البَـيِّنِ الـبُطْلَانِ

يعني: أنَّ النَّقلَ جاء بما تحارُ فيه العقولُ لا بما تجعلُه محالًا، النَّقلُ لم يأتِ بشيءٍ محالٍ، لكن جاء بما يُـحَيِّرُ العقولَ، وهذا هو الواقعُ، لكنَّ تحييرَ العقولِ لما جاء به النَّقلُ لا يدلُّ على فسادِ النَّقلِ، بل يدلُّ على قصورِ العقولِ حيث حَارَتْ بهذا.

مثلًا: النَّقلُ جاء بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ على عرشِه، وأنَّه ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، يَحارُ العقلُ، يقولُ: كيف يَنْزِلُ وهو على عرشِه؟! كيف نُثْبِتُ أنَّه نَزَلَ وله العلوُّ المطلقُ؟!

نقولُ: هذا يُحيِّرُ العقلَ، لكنَّ العقلَ لا يَرَى هذا محالًا بالنِّسبةِ إلى الله عزَّ وجلَّ، هو محالٌ بالنِّسبةِ لنا، لكن بالنِّسبةِ لله ليس محالًا، في يومِ القيامةِ النَّاسُ في مكانٍ واحدٍ، في صعيدٍ واحدٍ، يُسْمِعُهم الدَّاعِي وينفذهم البصرُ، منهم مَنْ يعرقُ حتَّى يبلغُ العرقُ كعبيه، ومنهم مَنْ يصلُ إلى ركبتيه، ومنهم مَنْ يصلُ إلى حِقْوَيْه، ومنهم مَنْ يُلْجِمُه وهم في صعيدٍ واحدٍ ومكانٍ واحدٍ، العقلُ هنا يَحارُ، كيف يكونُ هذا وهم في صعيدٍ واحدٍ؟! فنقول: هذا غيرُ محالٍ؛ لأنَّ اليومَ الآخِرَ لا يُقَاسُ بالدُّنيا، فهو محالٌ في الدُّنيا لكن في الآخرةِ غيرُ محالٍ، على أنَّه في الدُّنيا يمكنُ؛ لأنَّه لو وُجِدَ ماءٌ في أرضٍ غيرِ مستويةٍ صار الماءُ في أعلاها مثلًا إلى الكعبِ، وفي عمقها يُلْجِمُ، لكن على كُلِّ حالٍ الأساسُ أنَّنا لا نقيسُ أمورَ الآخِرةِ بأمورِ الدُّنيا، والقاعدةُ هنا: النَّقلُ أتى بما تَحارُ فيه العقول لا بما تُحِيلُه العقولُ، وهذه قاعدةٌ صحيحةٌ.

إِذَنْ العقولُ لا تُدْرِكُ الحِكَمَ والأسرارَ في الشَّرائعِ أحيانًا، فهي أحيانًا تقفُ متحيِّرةً، وإذا جاءها الحُكْمُ غير معلومِ العِلَّة سمَّاه الفقهاءُ تعبُّديًّا، لكن هل جاء الشَّرعُ بما يحيلُه العقلُ؟ الجوابُ: لا، وبينهما فرقٌ، فالنَّقلُ جاء بما تحارُ فيه العقولُ

لا بما تُحيلُه العقولُ، وقولنا: «**بِمَا تَحَارُ**» ليس معناه أنَّ كُلَّ ما جاء به الشَّرعُ فهو مُحيِّرٌ، لا، لكن أحيانًا يعجزُ الإنسانُ عن إدراكِ الحكمةِ والسِّرِّ في أحكامِ الله عزَّ وجلَّ، فيقفُ حائرًا، ولكنَّه مع وقوفِه حائرًا هل يُنْكِرُ أو يُسَلِّمُ؟ المؤمنُ يُسَلِّمُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وعائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَـمَّا سُئِلَتْ **مَا بَالُ الحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟!** -وهذا قد يبدو مُحيِّرًا- فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ**»[1]، وهذا كافٍ؛ لأنَّنا نعلمُ علمَ اليقينِ -والله- أنَّ الشَّرعَ لا يمكنُ أن يُفرِّقَ بين شَيْئَيْنِ فِي الحكمِ إلَّا وبينهما فَرْقٌ في الحكمةِ، نعلمُ هذا علمَ اليقينِ بلا شكٍّ، لكن من الحِكَمِ ما ندركُه ومنها ما لا ندركُه، ولكنَّنا نستسلِمُ ونرى أنَّ كُلَّ شيءٍ فَرَّقَ اللهُ ورسولُه بينهما فإنَّه لحكمةٍ بلا شكٍّ.

٣٩٥٢- فَانْظُرْ إِلَى الجَهْمِيِّ كَيْفَ أَتَى إِلَى ... أُسِّ الهُدَى وَمَعَاقِلِ الإِيمَانِ

لكن أتى إليهما بماذا؟ قال:

٣٩٥٣- بِمَعَاوِلِ التَّعْطِيلِ يَقْطَعُهَا فَمَا ... يُبْقِي عَلَى التَّعْطِيلِ مِنْ إِيمَانِ

الجهميُّ نسبةٌ إلى الجهمِ بن صفوان الذي كان تلميذًا للجعدِ بن درهمٍ، والجعدُ بن درهمٍ هو أوَّلُ مَنْ قال بالتَّعطيلِ؛ لأنَّ الجعدَ بن درهمٍ قال كلمتين: قال: «**إنَّ اللهَ لم يتَّخذ إبراهيمَ خليلًا، ولم يُكلِّمْ موسى تكليمًا**»، فأخذَها عنه الجهمُ ابنُ صفوانٍ ونشَرَها فَنُسِبَتْ إليه، ويُقالُ: إنَّ خالدَ بن عبد الله القسريَّ أحدَ أمراء بني أُميَّةَ خرج بالجعدِ موثوقًا بوثاقٍ إلى مُصَلَّى العيدِ وقال: «**أَيُّها النَّاسُ ضَحُّوا**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، مسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الحائض الصوم، رقم (٣٣٥).

تَقَبَّلَ اللهُ ضحاياكم فإنِّي مُضَحٍّ بالجعدِ بن درهمٍ، إنَّه زَعَمَ أنَّ اللهَ لم يتَّخذ إبراهيمَ خليلًا ولم يُكَلِّم موسى تكليمًا»، ثُمَّ نزل فذبحه، وكانوا فيما سبق من عهدِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يخرجون بضحاياهم إلى مُصَلَّى العيد يذبحونها هناك، ومنهم مَنْ يذبحُ في بيتِهِ من أجلِ إظهارِ شعيرةِ الذَّبحِ لله عزَّ وجلَّ، ومن أجلِ أن يُطْعَمَ منها الفقراءُ، يقولُ ابنُ القيِّمِ في النُّونيَّة:

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ ـــقَسْرِيُّ يَـوْمَ ذَبَـائِحِ القُرْبَـانِ

إِذْ قَـالَ: إِبْـرَاهِيمُ لَـيْسَ خَلِيلَـهُ كَـلَّا وَلَا مُوسَـى الكَلِـيمَ الـدَّانِي

شَكَرَ الضَّـحِيَّةَ كُـلُّ صَاحِبِ سُـنَّةٍ لله دَرُّكَ مِـنْ أَخِـي قُرْبَـانِ[1]

٣٩٥٤- يَـدْرِي بِهَـذَا عَـارِفٌ بِمَآخِـذِ الـ أَقْـوَالِ مُضْـطَلِعٍ بِهَـذَا الشَّـانِ

يعني: يدري العارفُ بمآخذِ الأقوالِ أنَّ التَّعطيلَ سببٌ لهدمِ الإيمانِ، وإن كان الرَّجلُ السَّطحِيُّ لا يرى هذا الشَّيءَ، ولكنَّ الرَّجلَ المتعمِّقَ يعرفُ أنَّ التَّعطيلَ هدمٌ للإيمانِ، صحيحٌ أنَّ مِثْلَ هذه المسائلِ العظيمةِ لا يعرفُها طالبُ العلم المبتدئ، ولا يعرفُ ماذا تستلزمُه من الباطلِ، وماذا يترتَّبُ عليها من الكفرِ، والعاميُّ من بابِ أولى، ولهذا تجدُ كثيرًا من العوامِّ تحصلُ لهم المزالقُ العظيمةُ حيث يظنُّون أنَّه لا فرقَ بين هذا وهذا.

وأَخَسُّ من ذلك وأخبثُه ما بدأ يتكلَّم به أذنابُ الغربِ من محاولةِ التَّوفيقِ بين اليهودِ والنَّصاريِ والمسلمين، أعوذُ بالله، هل يمكنُ أن يُحَاوِلَ هذا مؤمنٌ بالله

(١) انظر: النُّونيَّة لابن القيم الأبيات (٥٠، ٥١، ٥٢).

واليومِ الآخِرِ؟ هل يمكنُ لأحدٍ أن يجمعَ بين الماءِ والنَّارِ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، فيحاولون أن يجمعوا، وهذا هو الإدهانُ الذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، وهم والكُفَّارُ يعلمون أنَّه لو سَرَى هذا الفكرُ -لا أقامَه اللهُ- ما بَقِيَ للجهادِ موضعٌ، ولا بَقِيَ لمعاداتِهم موضعٌ، ولأَصْبَحَ الكافرُ وليًّا للمؤمنِ، والمؤمنُ وليًّا للكافرِ؛ لأنَّ الاختلافَ على حدِّ زعمِهم كالاختلافِ بين الحنابلةِ والشَّافعيَّةِ والمالكيَّةِ فقط، وهذا مبدأٌ خطيرٌ للغايةِ؛ ولهذا يجبُ على طلبةِ أهلِ العلمِ إنكارُه بكُلِّ وسيلةٍ، والتَّأمُّلُ والتَّفكُّرُ في المفاسدِ التي يُفْضِي إليها هذا الفكرُ الخبيثُ.

فيجب أن نعلمَ أنَّ الإنسانَ العارفَ بمآخذِ أهلِ التَّعطيلِ يدري ماذا يترتَّبُ على هذا التَّعطيلِ من المفاسدِ العظيمةِ دون الإنسانِ الذي لا يعرفُ المآخذَ فإنَّه قد يغترُّ بزخارفِ القولِ.

٣٩٥٥- وَاللهِ لَوْ حَدَّقْتُمُ لَرَأَيْتُمُ ... هَذَا وَأَعْظَمُ مِنْهُ رَأْيُ عِيَانِ

٣٩٥٦- لَكِنْ عَلَى تِلْكَ العُيُونِ غِشَاوَةٌ ... مَا حِيلَةُ الكَحَّالِ فِي العُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «**مَا حِيلَةُ الكَحَّالِ فِي العُمْيَانِ؟**» الجوابُ: لا حيلةَ له، وهذا صحيحٌ، فهذا كَحَّالٌ يبيعُ الكحلَ، وجاءه عُميان، ماذا يصنعُ؟ لو مَلأَ عيونَهم من الكحلِ ما انتفعوا به، وهذا حقيقةٌ، فالقلبُ إذا طُبِعَ عليه لا يمكنُ أن يهتديَ، واقرأ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣-١٤]، فرَأَوْا كلامَ اللهِ ورسولِه أساطيرَ الأوَّلين، نسألُ اللهَ أن يُنيرَ قلوبَنا وقلوبَهم

* * *

فصل

فِي بَهْتِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتَّعْطِيلِ فِي رَمْيِهِمْ أَهْلَ التَّوْحِيدِ وَالإِثْبَاتِ بِتَنْقِيصِ الرَّسُولِ

٣٩٥٧- قَالُوا تَنَقَّصْتُمْ رَسُولَ اللهِ وَا ... عَجَبًا لِهَذَا البَغْيِ وَالبُهْتَانِ

٣٩٥٨- عَزَلُوهُ أَنْ يَحْتَجَّ قَطُّ بِقَوْلِهِ ... فِي العِلْمِ بِاللهِ العَظِيمِ الشَّانِ

٣٩٥٩- عَزَلُوا كَلامَ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ ... عَنْ ذَاكَ عَزْلًا لَيْسَ ذَا كِتْمَانِ

٣٩٦٠- جَعَلُوا حَقِيقَتَهُ وَظَاهِرَهُ هُوَ الـ ... ـكُفْرَ الصَّرِيحَ البَيِّنَ البُطْلانِ

٣٩٦١- قَالُوا وَظَاهِرُهُ هُوَ التَّشْبِيهُ وَالتَّـ ... ـتَجْسِيمُ حَاشَا ظَاهِرُ القُرْآنِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فِي بَهْتِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتَّعْطِيلِ فِي رَمْيِهِمْ أَهْلَ التَّوْحِيدِ وَالإِثْبَاتِ بِتَنْقِيصِ الرَّسُولِ» يقولُ المؤلِّفُ رحمه الله تعالى: إنَّ أهلَ الشِّركِ والتَّعطيلِ رَمَوْا أهلَ التَّوحيدِ والإثباتِ بتنقيصِ الرَّسولِ ﷺ؛ يعني: قالوا: إنَّكم تنقَّصتم الرَّسولَ ﷺ بإثباتِكم ما يقتضي التَّجسيمَ، وهذا لا شكَّ أنَّه يقولُه كُلُّ ذي بدعةٍ وكُلُّ ذي باطلٍ.

واليوم يومُ الثَّاني عشر من شهرِ ربيعٍ الأوَّل، وعامَّةُ المسلمين يُقيمون في هذا اليومِ واللَّيلة احتفالًا بمولدِ النَّبيِّ ﷺ، ويقولون: إنَّ هذا عنوانُ محبَّتِه، وأنَّ مَنْ لم يُقِمْه فإنَّه لا يُحِبُّ الرَّسولَ ﷺ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّه لا يحتفلُ به.

وفي الحقيقةِ أنَّ هذا ينطبقُ عليه قولُ القائلِ: «رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ»[(١)]، فأيُّهما أشدُّ حُبًّا وتعظيمًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: رجلٌ يقولُ: أنا أحذو حذوَه وأتبَّعُ أثرَه ولا أخرجُ عن سنَّتِه ولا أبتدعُ في شرعِه ما ليس منه، ورجلٌ آخرُ يقولُ: لا، لا بُدَّ أن أفرِضَ إرادتي وأُحْدِثَ في دينِهِ ما ليس منه، أيُّهما أشدُّ حبًّا؟ الجوابُ: الأوَّل، فهذا رسولُ الله ﷺ، وهذا أبو بكرٍ، وهذا عمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وسائرُ الصَّحابةِ والتَّابعين والأئمَّةِ الأربعةِ ومَنْ على شاكلتِهم، كُلُّهم لم يُقيموا احتفالًا لمولدِ الرَّسولِ ﷺ مع أنَّ الأمرَ مُتَيَسِّرٌ وسهلٌ والنُّفوسَ تدعو إليه والسَّببَ موجودٌ، فما المانعُ؟

ما الذي يمنعُهم ما دام كُلُّ شيءٍ مُتيسِّرًا، والنُّفوسُ تدعو إلى تعظيمِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولا مانعَ من ذلك، والسَّببُ موجودٌ وهو مرورُ هذه اللَّيلة عليهم، فما الذي يمنعُهم؟

لو كان ذلك من مُقتَضيات حُبِّه لكانوا هم أوَّلَ النَّاسِ بذلك وأشدَّ النَّاسِ تطبيقًا له، لكنَّهم لم يفعلوا، فَدَلَّ هذا على أنَّه ليس من الشَّرعِ، ثُمَّ لو كان من شريعةِ الله لكان يجبُ على الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أن يُبَلِّغَ النَّاسَ ذلك إمَّا بفعلِه وإمَّا بقولِه.

والمتنقِّصُ للرَّسولِ ﷺ هو الذي يقولُ قولًا أو يفعلُ فعلًا مضمونُه عدمُ تبليغِ الرَّسولِ ﷺ شريعةَ الله؛ لأنَّنا إذا جعلنا هذا من الشَّريعةِ والرَّسولُ لم يفعلْه ولم يأمرْ به فمضمونُ ذلك أنَّه كَتَمَ شريعةَ الله أو أنَّه لم يعلمْ بها، وصار هؤلاء أعلمَ بها منه، أو صاروا أنصحَ للخلقِ منه، وهذا مُنْكَرٌ، نقولُه: ليس في هذه البدعةِ

---

(١) هذا من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٨٦).

فقط، بل في كُلِّ بدعةٍ، ولهذا نقولُ: أنتم إذا رَمَيْتُم مَنْ لم يُقِم الاحتفالَ بمولدِ النَّبِيِّ ﷺ بأنَّه يُبْغِضُه أو يَتَنَقَّصُه فقد رميتموه بدائِكم؛ لأنَّ حقيقةَ الأمرِ أنَّكم أنتم الذين تَنَقَّصتموه ولم تُحِبُّوه ولم تُعظِّموه، عنوانُ محبَّةِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- اتِّباعُ أثرِه وعدمُ إحداثِ شيءٍ في شرعِه، وهو يُعْلِنُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في كُلِّ خطبةِ جمعةٍ أو أكثر خطبِ الجمعةِ: «فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»[1]، فأنتم الآن إمَّا أن تفعلوها عادةً أو عبادةً، ولكن الذي يظهرُ أنَّها عبادةٌ، وهي عبادةٌ شاؤوا أو أَبَوْا؛ لأنَّ مضمونَها تعظيمُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتعظيمُ الرَّسولِ من العبادةِ، فهل جاء هذا النَّوعُ من التَّعظيمِ في شريعةِ الرَّسولِ؟ الجوابُ: لا، إِذَنْ هو بدعةٌ، ثُمَّ إنَّه يتبعُه من الأشياءِ التي تُنَافي العقلَ فضلًا عن الدِّينِ، بعضُهم يجلسُ ويذكرُ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بقصائدَ تبلغُ في الغلوِّ أن يكونَ الرَّسولُ شريكًا لله أو أعظمَ من الله، يرددون قولَ البوصيري[2]:

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمَمِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ آخِذًا يَوْمَ المَعَادِ يَدِي ... فَضْلًا وَإِلَّا فَقُلْ: يَا زَلَّةَ القَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ

يقول بعضُ العلماء: إنَّه بهذا البيتِ لم يُبْقِ لله شيئًا؛ لأنَّه جعل الدُّنيا والآخِرةَ من جُودِ الرَّسولِ، فقال: «وَمِنْ عُلُومِهِ»، ولم يقل: «كُلُّ عُلُومِهِ» أيضًا، بل قال:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، والنسائي: كتاب العيدين، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٨٧)، واللفظ له.

(٢) انظر: البردة شرحًا وإعرابًا وبلاغةً، لمحمد يحيى حلو (ص:٢٠٧).

«**وَمِنْ عُلُومِهِ عِلْـمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ**» يردِّدون هذا عن عقيدةٍ، نسأَلُ اللهَ العافيةَ، فهذه بدعةٌ قد تصلُ إلى الكفرِ، وليتَهم أيضًا يقتَصِرون على هذا مع أنَّ هذا من أعظم شيءٍ إن لم يكن أعظمَ شيءٍ، بينما هم في هزِّ الرُّؤوسِ والحركاتِ إذا بهم يقومون ويقولون: «**وعليك السَّلامُ**»، من الذي دخل؟ دخل النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

سبحان الله! يعني: تُسْلَبُ العقولُ في هذه المناسباتِ، نسأَلُ اللهَ العافيةَ، لكن لو أنَّهم كُلِّفوا بهذا من قِبَلِ الشَّرعِ هل يقومون به على هذا الوجهِ؟ الظَّاهرُ أنَّهم لا يقومون به والعلمُ عند الله، لكن كيف يُكَلِّفون أنفسَهم في أشياءَ لا تزيدُهم من الله إلَّا بُعْدًا؟! ولكن الجهل والشَّيطان هو الذي يُحْدِثُ مثلَ هذه الأمورِ؛ لأنَّهم إذا عظَّموا الرَّسولَ -كما يقولون- في هذه اللَّيلة نسوه في بقيَّةِ الأيَّامِ، مرَّةً في السَّنة وتنتهي، مع أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قد رَفَعَ اللهُ ذكرَه بغيرِ هذا، ففي الأذانِ فرضُ كفايةٍ على المسلمين أن يُعلنوا على أعلى مكانٍ: «**أشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله**» خمسَ مرَّاتٍ في اليومِ واللَّيلةِ، وفي الصَّلاةِ فرضٌ على كُلِّ مُصَلٍّ أن يقولَ: «**السَّلامُ عليك أيُّها النَّبِيُّ**»، وأن يقولَ: «**أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله**»، هل يريدون أعظمَ من هذه الذِّكرى؟! لا أعظمَ من هذه الذِّكرى.

والإشكالُ أنَّ مثلَ هؤلاء -نسأَلُ اللهَ لنا ولهم الهدايةَ- يدَّعون أنَّ من لم يفعلْ ذلك فهو يبغضُ الرَّسولَ، سبحان الله! فما أَشْبَهَ اللَّيلةَ بالبارحةِ، ما أَشْبَهَ كلامَ ابنِ القيمِّ -رحمه الله- بكلامِ هؤلاء.

وهم قد يُثابون على ما في قلوبِهم من حُبِّ الرَّسولِ، لكنَّهم يُعَاقَبون على ما أحدَثُوا من البدعةِ؛ يعني: قد يُثَابُونَ من وجهٍ، لكنَّهم لا يُثَابُونَ إذا بُيِّنَ لهم أنَّ هذه بدعةٌ وأصرُّوا عليها.

٣٩٥٧- قَـالُوا تَنَقَّصْـتُمْ رَسُـولَ الله وَا　　عَجَبًـا لِـهَذَا البَغْـيِ وَالبُهْتَـانِ

وصدَق رحمه اللهُ، هذا عجبٌ أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ المتَّبعين للوحيين: «**الكتاب والسُّنَّة**»، هم الذين يُقَالُ عنهم: إنَّهم تنقَّصوا الرَّسولَ، وهذه حُجَّةٌ يحتجُّ بها أناسٌ يقولون: مَنْ لم يَغْلُ بالرَّسولِ فهو مُبْغِضٌ له، من لم يبتدع البدعةَ في دينِه التي تدعو إلى الغلوِّ فيه فهو مُتَنَقِّصٌ له؛ ولهذا يقولُ: «**فِي رَمْيِهِمْ أَهْلَ التَّوحِيدِ وَالإِثْبَاتِ بِتَنْقِيصِ الرَّسُولِ** ﷺ»، وهو كما قال الأَوَّلُ: «**رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ**»[1].

٣٩٥٨- عَزَلُـوهُ أَنْ يُحْـتَجَّ قَـطُّ بِقَوْلِـهِ　　فِي العِلْـمِ بِـالله العَظِـيمِ الشَّـانِ

أهلُ التَّعطيلِ عزلوا الرَّسولَ أن يُحْتَجَّ بقولِه في العلمِ بالله العظيمِ الشَّانِ؛ لأنَّهم لا يحتجُّون بأحاديثِ الصِّفاتِ، إن جاءت عن طريقِ التَّواترِ ولم يكن لهم بُدٌّ من دفعِها حرَّفوها، وإن جاءت عن طريقِ الآحادِ قالوا: هذه عقيدةٌ ولا تَثْبُتُ بخبرِ الواحدِ، فمزَّقوا السُّنَّةَ بهذه الطَّريقةِ.

٣٩٥٩- عَزَلُـوا كَـلامَ الله ثُـمَّ رَسُـولِهِ　　عَـنْ ذَاكَ عَـزْلًا لَـيْسَ ذَا كِـتْمَانِ

قَوْلُهُ: «**عَنْ ذَاكَ**»؛ أي: عن الاحتجاجِ بالكتابِ والسُّنَّةِ.

٣٩٦٠- جَعَلُوا حَقِيقَتَـهُ وَظَـاهِرَهُ هُـوَ الـ　　ـكُفْرَ الصَّـرِيحَ البَـيِّنَ الـبُطْلانِ

ما هو؟ قال:

٣٩٦١- قَالُوا وَظَـاهِرُهُ هُـوَ التَّشْـبِيهُ وَالتْـ　　ـتَجْسِيمُ حَاشَـا ظَـاهِرُ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «**وَالتَّمْثِيلُ**» زيادةٌ في بعضِ النُّسخِ، وبها يطولُ البيتِ، وغالب المتكلِّمين يعبِّرون بالتَّشبيهِ، لكنَّ التَّعبيرَ بالتَّمثيلِ أحسنُ.

---

(١) انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٨٦).

قَوْلُهُ: «حَاشَا» هذا من كلامِ ابنِ القيِّمِ.

يقولون: إنَّ ظاهرَ آياتِ الصِّفاتِ التَّمثيلُ، إِذَنْ المَفَرُّ من ذلك أن نُعطِّلَ، فظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمن:٢٧] أنَّ له وجهًا مماثلًا لوجهِ المخلوقِ، إِذَنْ ماذا أفعلُ أمامَ هذا الظَّاهرِ؟ قالوا: عَطِّلْ، فقل: ليس له وجهٌ.

الذي يجعلُ ظاهرَ كلامِ الله ورسولِه في الله هو التَّمثيل معناه أنَّه جَعَلَ ظاهرَ القرآنِ والسُّنَّةِ الكفرَ؛ لأنَّ مَنْ مَثَّلَ اللهَ بخلقِه فقد كَفَرَ.

إِذَنْ على كلامِهم يكونُ ظاهرُ القُرآنِ والسُّنَّةِ هو الكفرَ والشِّركَ؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ ظاهرَهما التَّمثيلُ والتَّشبيهُ والتَّجسيمُ، وإذا كان جسمًا كان وَثَنًا والعياذُ بالله، فيرمون أهلَ التَّوحيدِ وأهلَ الإثباتِ بأنَّهم مُجَسِّمَةٌ مُمَثِّلَةٌ يعبدون الأصنامَ، وما أشبه ذلك، كما قال نعيمُ بن حمَّاد الخزاعيُّ شيخُ البخاريِّ رحمه الله، قال: **«مَنْ أنكرَ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَرَ، ومَنْ شَبَّهَ اللهَ بخلقِه فقد كَفَرَ، وليس ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه تشبيهًا»**[1].

* * *

٣٩٦٢- مَنْ قَالَ فِي الرَّحْمَنِ مَا دَلَّتْ عَلَيْـ ـــهِ حَقِيقَةُ الأَخْبَارِ وَالفُرْقَانِ

٣٩٦٣- فَهُوَ المُشَبِّهُ وَالمُمَثِّلُ وَالمُجَسْـ ـسِمُ عَابِدُ الأَوْثَانِ لَا الرَّحْمَنِ

٣٩٦٤- تَاللهِ قَدْ مُسِخَتْ عُقُولُكُمُ فَلَيْـ ـسَ وَرَاءَ هَذَا قَطُّ مِنْ نُقْصَانِ

٣٩٦٥- وَرَمَيْتُمُ حِزْبَ الرَّسُولِ وَجُنْدَهُ بِمُصَابِكُمْ يَا فِرْقَةَ البُهْتَانِ

٣٩٦٦- وَجَعَلْتُمُ التَّنْقِيصَ عَيْنَ وِفَاقِهِ إِذْ لَمْ يُوَافِقْ ذَاكَ رَأْيَ فُلَانِ

---

(١) أورده الذهبي في العلو (ص:١٧٢).

٣٩٦٧- أَنْـتُمْ تَنَقَّصْـتُمْ إِلَـهَ العَـرْشِ وَالْـ ... ـقُرْآنَ وَالمَبْعُـوثَ بِـالقُرْآنِ

٣٩٦٨- نَزَّهْتُمُـوهُ عَـنْ صِـفَاتِ كَمَالِـهِ ... وَعَـنِ الكَـلامِ وَفَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

٣٩٦٩- وَجَعَلْـتُمُ ذَا كُلَّـهُ التَّشْـبِيهَ وَالتْـ ... ـتَمْثِيلَ وَالتَّجْسِـيمَ ذَا الـبُطْلانِ

٣٩٧٠- وَكَلامُكُمْ فِيهِ الشِّفَاءُ وَغَايَـةُ التْـ ... ـتَحْقِيقِ يَا عَجَبًـا لِـذَا الـخِذْلانِ

٣٩٧١- جَعَلُوا عُقُولَـهُمُ أَحَـقَّ بِأَخْـذِ مَـا ... فِيهَـا مِـنَ الأَخْبَـارِ وَالقُـرْآنِ

٣٩٧٢- وَكَلامُـهُ لَا يُسْـتَفَادُ بِـهِ اليَقِيـ ... ـنُ لِأَجْـلِ ذَا لَا يَقْبَـلُ الـخَصْمَانِ

٣٩٧٣- تَحْكِيمَـهُ عِنْـدَ اخْـتِلافِهِمَا بَـلِ الْـ ... ـمَعْقُولَ ثُـمَّ الـمَنْطِقَ اليُونَـانِي

٣٩٧٤- أَيُّ التَّـنَقُّصِ بَعْـدَ ذَا لَـوْلَا الوَقَـا ... حَـةُ وَالـجَرَاءَةُ يَـا أُولِي العُـدْوَانِ

٣٩٧٥- يَـا مَـنْ لَـهُ عَقْـلٌ وَنُـورٌ قَـدْ غَـدَا ... يَمْشِـي بِـهِ فِي النَّـاسِ كُـلَّ زَمَـانِ

الشَّرحُ

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه الله- في بَهْتِ أهلِ الشِّركِ والتَّعطيلِ حيث رَمَوْا أهلَ الإثباتِ والتَّوحيدِ بتنقُّصِ الرَّسولِ، وقلنا: إنَّ هذا شيءٌ مُطَّرِد في أهلِ الباطلِ، يَرمون أهلَ الحقِّ بما هم مُتَّصفون به، وهم به أولى، أرأيتم قولَ المنافقين في الرَّسولِ ﷺ وأصحابه: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ»[1]؛ يعنون: الرَّسولَ ﷺ وأصحابَه، فبالله عليكم مَنْ أحقُّ بهذه الأوصافِ؟ الجوابُ: هم، فالمنافقون هم أكذبُ النَّاسِ أَلسنًا، وهم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩، رقم ١٠٠٤٤)، والطبري (١٤/ ٣٣٣).

أرغبُ النَّاسِ بطونًا، وهم أجبنُ النَّاسِ عند اللِّقاءِ، أهلُ التَّعطيلِ أيضًا قالوا لأهلِ السُّنَّةِ: أنتم تنقَّصتم اللهَ فجعلتموه جسمًا، وشبَّهتموه بخلقِه، وفعلتم وفعلتم.

فنقول: أيُّنا أحقُّ نحن أم أنتم؟ لا شكَّ أنَّ مَنْ تَدَبَّرَ طريقَهم عَلِمَ أنَّهم هم الذين تنقَّصوا اللهَ وكتابَه ورسولَه، يقول المؤلِّفُ -رحمه الله-:

٣٩٦٢- مَنْ قَالَ فِي الرَّحْمَنِ مَا دَلَّتْ عَلَيْـ ـــهِ حَقِيقَةُ الأَخْبَارِ وَالفُرْقَانِ

٣٩٦٣- فَهُوَ المُشَبِّهُ وَالمُمَثِّلُ وَالمُجَسْـ ـسِمُ عَابِدُ الأَوْثَانِ لَا الرَّحْمَنِ

مَنْ يقولُ هذا؟ أهلُ التَّعطيلِ، أهلُ التَّعطيلِ يقولون: الذي يقولُ في الرَّحمنِ ما دَلَّتْ عليه حقيقةُ الأخبارِ والفرقانِ فهو المُشَبِّهُ والمُمَثِّلُ والمُجَسِّمُ عَابِدُ الأوثانِ لا الرَّحمنِ، يقولون: أنت مُجَسِّمٌ، أنت تعبدُ جسمًا، أنت مُشَبِّهٌ، أنت لَسْتَ تعبدُ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ لا يُوصَفُ بعلوٍّ ولا يُوصَفُ بصفةٍ، فَأَيُّ إنسانٍ يُثْبِتُ له علوًّا أو صفةً فهو عابدُ وثنٍ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

يقولُ ابنُ القيِّم:

٣٩٦٤- تَاللهِ قَدْ مُسِخَتْ عُقُولُكُمُ فَلَيْـ ـسَ وَرَاءَ هَذَا قَطُّ مِنْ نُقْصَانِ

صَدَقَ رَحِمَهُ اللهُ، الذي يقولُ هذا القولَ لا شكَّ أنَّ عقلَه ممسوخٌ، ولا أردأ من هذا النَّقصِ الذي اتَّصفَ به.

٣٩٦٥- وَرَمَيْتُمُ حِزْبَ الرَّسُولِ وَجُنْدَهُ بِمُصَابِكُمْ يَا فِرْقَةَ البُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «**وَرَمَيْتُمُ حِزْبَ الرَّسُولِ وَجُنْدَهُ بِمُصَابِكُمْ**» ما هو مصابُهم؟ التَّنقيصُ باللهِ، فرميتم به حزبَ الرَّسولِ وجندَه، وقلتم: أنتم الذين تنقَّصتم اللهَ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**يَا فِرْقَةَ البُهْتَانِ**» «**البُهْتَانُ**»: الكذبُ.

٣٩٦٦- وَجَعَلْـتُمُ التَّنْقِـيصَ عَـيْنَ وِفَاقِـهِ   إِذْ لَـــمْ يُوَافِـــقْ ذَاكَ رَأْيَ فُـــلانِ

يعني: جعلتم التَّنقيصَ هو النَّقصَ حقيقةً إذا لم يُوافِقْ رأيَ فلانٍ، فإن وَافَقَهُ فليس بنقصٍ على زعمِهم؛ ولهذا يَرْجِعُون إلى رأي فلانٍ وفلانٍ دون الكتابِ والسُّنَّةِ.

٣٩٦٧- أَنْـتُمْ تَنَقَّصْـتُمْ إِلَـهَ العَـرْشِ وَالـــ   ـــقُرْآنَ وَالمَبْعُـــوثَ بِـــالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**أَنْتُمْ تَنَقَّصْتُمْ إِلَهَ العَرْشِ**»؛ يعني: اللهَ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**وَالمَبْعُوثَ بِالقُرْآنِ**» وهو الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم.

٣٩٦٨- نَزَّهْتُمُـــوهُ عَـــنْ صِـــفَاتِ كَمَالِـــهِ   وَعَـنِ الكَـلامِ وَفَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

قَوْلُهُ: «**نَزَّهْتُمُوهُ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ**»؛ أي: نَزَّهْتُم اللهَ عن صفاتِ كمالِه، نزَّهوه عن صفاتِ كمالِه؛ ولهذا كان المعطِّلةُ يُنْكِرونَ الصِّفاتِ، وأمَّا الأشاعرةُ فيثبتون منها سبعًا فقط.

قَوْلُهُ: «... **وَعَنِ الكَلَامِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ**» نزَّهتموه على زعمِكم عن الكلامِ، فقلتم: إنَّه لا يتكلَّمُ، ونزَّهتموه عن الفوقيَّةِ، عن فوق كُلِّ مكانٍ؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ اللهَ ليس فوق، وينقسمون كما سَبَقَ، فأوَّلُ الجهميَّةِ كانوا حلوليَّةً، يقولون: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، وآخرُهم معطِّلةً، يقولون: ليس فوقُ ولا تحتُ، ولا يمينُ ولا يسارُ، ولا متَّصلًا ولا منفصلًا، ولا مباينًا ولا محايثًا كما سَبَقَ.

٣٩٦٩- وَجَعَلْـتُمُ ذَا كُلَّـهُ التَّشْـبِيهَ وَالتَّـــ   ـــمْثِيلَ وَالتَّجْسِـيمَ ذَا الـبُطْلانِ

جعَلتُم هذا كُلَّه تجسيمًا وتشبيهًا وتمثيلًا، وقلتم: هذا شيءٌ باطلٌ فيلزم عليه بطلانُ هذه الصِّفاتِ؛ لأنَّها تستلزمُه، وقد سَبَقَ الجوابُ عليهم من ثلاثةِ أوجهٍ في كلامِ المؤلِّفِ رحمه الله.

٣٩٧٠- وَكَلامُكُمْ فِيهِ الشِّفَاءُ وَغَايَـة التْـ ـتَحْقِيقِ يَا عَجَبًا لِـذَا الـخِذْلانِ

يعني: وجعَلتُم كَلامَكم فيه الشِّفاء، والله هذا هو الخِذلان، أن يرى الإنسانُ كلامَه الباطلَ حقًّا، هذا هو المخذولُ حقيقةً؛ لأنَّ مَنْ رأى البطلانَ في كلامِه أوشك أن يهتديَ، لكن من رَأَى أنَّه على حقٍّ فهذا هو الخِذلان إذا كان على باطلٍ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ مَنْ هؤلاء؟ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤].

٣٩٧١- جَعَلُوا عُقُولَـهُمُ أَحَـقَّ بِأَخْـذِ مَـا فِيهَـا مِـنَ الأَخْبَـارِ وَالقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «مِنَ الأَخْبَارِ» متعلِّقة بـ«أَحَقَّ».

جعَلُوا عقولَـهم أحقَّ بأخذِ ما فيها، لكن «أَحَقَّ» من أيِّ شيءٍ؟ الجوابُ: من الأخبارِ والقرآنِ.

٣٩٧٢- وَكَلامُـهُ لَا يُسْـتَفَادُ بِـهِ اليَقِيـ ـنُ لِأَجْـلِ ذَا لَا يَقْبَـلُ الـخَصْمَانِ

٣٩٧٣- تَحْكِيمَـهُ عِنْـدَ اخْـتِلافِهِمَا بَـلِ الـ ـمَعْقُولَ ثُـمَّ الـمَنْطِقَ اليُونَـانِي

جعلوا كلامَ الله لا يُفيدُ اليقينَ، لماذا؟ قالوا: لأنَّ دلالةَ الألفاظِ ظنِّيَّةٌ حتَّى لو قلت: «قَامَ زَيْدٌ» فدلالتُه على قيامِه ظنِّيَّةٌ لاحتمال أن يكونَ «قَامَ» بمعنى «اسْتَقَامَ»، ولاحتمال أن يكونَ «زَيْدٌ» الشَّخصَّ المُشَبَّهَ بـ«زيد»، فاستُعير له اسمُ «زيد»؛ ولهذا عندهم قاعدة وهي: «كُلُّ الدَّلالاتِ اللَّفظيَّةِ ظنِّيَّةٌ»، وسبحان الله! الدَّلالاتُ العقليَّةُ التي هي أوهامٌ تكونُ عندهم قطعيَّةً؛ ولهذا يقولُ: «وَكَلَامَهُ لَا يُسْتَفَادُ بِهِ اليَقِينُ لأَجْلِ ذَا»؛ أي: لأجلِ كونِه لا يُسْتَفَادُ به اليقينُ لا يَقْبَلُ الخصمان تحكيمَه عند اختلافِهما.

إذا دُعوا إلى القرآنِ، قالوا: والله القرآنُ دلالتُه لفظيَّةٌ، والدَّلالةُ اللَّفظيَّةُ لا تفيدُ اليقينَ، أمَّا إذا جاؤوا في الحديثِ فيمزِّقونه أوَّلًا قبل أن يتكلَّموا فيه، ماذا يقولون؟ يقولون: خبرُ آحادٍ، وأخبارُ الآحادِ لا تُفيدُ إلَّا الظَّنَّ، فاهدموها من الأوَّل، ولا تتعبوا في تأويلِها.

٣٩٧٤- أيُّ التَّـنَقُّصِ بَعْـدَ ذَا لَـوْلَا الوَقَـا ... حَـةُ وَالـجَرَاءَةُ يَـا أُولِي العُـدْوَانِ

٣٩٧٥- يَـا مَـنْ لَـهُ عَقْـلٌ وَنُـورٌ قَـدْ غَـدَا ... يَمْشِـي بِـهِ فِي النَّـاسِ كُـلَّ زَمَـانِ

يُخَاطِبُ مَنْ له عقلٌ، فيقول: أين التَّنقُّصُ إذا نحن حَكَّمْنَا كتابَ الله وأنتم لم تحكِّموه، هل التَّنقُّصُ فينا أو فيكم؟ هل نحن الذين تَنقَّصْنَا كلامَ الله عزَّ وجلَّ ورسولِه أم هم يَا مَنْ لَه عقلٌ؟ فكأنَّه يقولُ: احكم بيننا: هل نحن أهلُ التَّنقيصِ أم هم؟ لكن يقولُ: الوقاحةُ التي تأتي منكم والعدوانُ هو الذي جَعَلَكُم تقولون هذا القولَ مع أنَّ اللهَ يعلمُ بأنَّكم أنتم أهلُ التَّنقُّصِ.

* * *

٣٩٧٦- لَكِنَّنَـا قُلْنَـا مَقَالَـةَ صَـارِخٍ ... فِي كُـلِّ وَقْـتٍ بَيْـنَكُمْ بِـأَذَانِ

٣٩٧٧- الـرَّبُّ رَبٌّ وَالرَّسُـولُ فَعَبْـدُهُ ... حَقًّـا وَلَـيْسَ لَنَـا إِلَـهٌ ثَـانِي

٣٩٧٨- فَلِذَاكَ لَـمْ نَعْبُدْهُ مِثْـلَ عِبَادَةِ الـرْ ... ـرَحْمَنِ فِعْلَ الـمُشْرِكِ النَّصْـرَانِي

٣٩٧٩- كَـلَّا وَلَـمْ نَغْـلُ الغُلُـوَّ كَـمَا نَهَـى ... عَنْـهُ الرَّسُـولُ مَخَافَـةَ الكُفْـرَانِ

٣٩٨٠- لله حَـقٌّ لَا يَكُـونُ لِغَـيْرِهِ ... وَلِعَبْـدِهِ حَـقٌّ هُمَـا حَقَّـانِ

٣٩٨١- لَا تَجْعَلُـوا الحَقَّـيْنِ حَقًّـا وَاحِـدًا ... مِـنْ غَـيْرِ تَمْيِيـزٍ وَلا فُرْقَـانِ

٣٩٨٢- فَالحَجُّ لِلرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِهِ وَكَذَا الصَّلاةُ وَذَبْحُ ذَا القُرْبَانِ

٣٩٨٣- وَكَذَا السُّجُودُ وَنَذْرُنَا وَيَمِينُنَا وَكَذَا مَتَابُ العَبْدِ مِنْ عِصْيَانِ

٣٩٨٤- وَكَذَا التَّوَكُّلُ وَالإِنَابَةُ وَالتُّقَى وَكَذَا الرَّجَاءُ وَخَشْيَةُ الرَّحْمَنِ

٣٩٨٥- وَكَذَا العِبَادَةُ وَاسْتِعَانَتُنَا بِهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ذَانِ تَوْحِيدَانِ

٣٩٨٦- وَعَلَيْهِمَا قَامَ الوُجُودُ بِأَسْرِهِ دُنْيَا وَأُخْرَى حَبَّذَا الرُّكْنَانِ

٣٩٨٧- وَكَذَلِكَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتْـ ـتَهْلِيلُ حَقُّ إِلَهِنَا الدَّيَّانِ

٣٩٨٨- لَكِنَّمَا التَّعْزِيرُ وَالتَّوْقِيرُ حَقْ قٌ لِلرَّسُولِ بِمُقْتَضَى القُرْآنِ

٣٩٨٩- وَالحُبُّ وَالإِيمَانُ وَالتَّصْدِيقُ لَا يَخْتَصُّ بَلْ حَقَّانِ مُشْتَرَكَانِ

٣٩٩٠- هَذِي تَفَاصِيلُ الحُقُوقِ ثَلاثَةٌ لا تَجْهَلُوهَا يَا أُولِي العُدْوَانِ

الشَّرحُ

٣٩٧٦- لَكِنَّنَا قُلْنَا مَقَالَةَ صَارِخٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ بَيْنَكُمْ بِأَذَانِ

يعني: أَنَّنا لا نُبالي، نقولُ الحقَّ ونصرخُ به بينكم؛ كما قال اللهُ تعالى لنبيِّه: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:١٥]، فالمؤمنُ يصرخُ بالحقِّ ولا يُبالي، ويتحدَّى أهلَ الباطلِ.

٣٩٧٧- الرَّبُّ رَبٌّ وَالرَّسُولُ فَعَبْدُهُ حَقًّا وَلَيْسَ لَنَا إِلَهٌ ثَانِي

الرَّبُّ ربٌّ والرَّسولُ عبدٌ، «**وَلَيْسَ لَنَا إِلَهٌ ثَانِي**»، بل اللهُ واحدٌ.

٣٩٧٨- فَلِذَاكَ لَـمْ نَعْبُدْهُ مِثْلَ عِبَادَةِ الرْ ... ـرَحْمَنِ فِعْلَ الـمُشْرِكِ النَّصْـرَانِي

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ لَـمْ نَعْبُدْهُ»؛ أي: لم نعبد الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «مِثْلَ عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ فِعْلَ الْمُشْرِكِ النَّصْرَانِي»، فالنَّصرانيُّ عَبَدَ رسولَه، أَرْسَلَ اللهُ عيسى إلى النَّصارى فآلَ بهم الأمرُ حتَّى غَلَوْا فيه فجعلوه إلـهًا ثانيًا.

٣٩٧٩- كَـلَّا وَلَـمْ نَغْـلُ الغُلُـوَّ كَـمَا نَهَـى ... عَنْـهُ الرَّسُـولُ مَخَافَـةَ الكُفْـرَانِ

الرَّسولُ ﷺ حذَّرَ من أن نغلوَ فيه لئلَّا يُؤدِّي ذلك إلى الشِّركِ والكفرِ؛ ولهذا قال: «مَخَافَةَ الكُفْرَانِ»؛ لأنَّ الغلوَّ في الشَّخصِ يُلحقُه بالإلهِ، ويُلْحِقُ الغاليَ بالمشركِ.

إِذَنْ نحن نُنَزِّلُ الرَّسولَ ﷺ منزلتَه، ونجعلُ حقَّ الله له وحدَه لا يَشْرَكُه فيه غيرُه؛ ولهذا قال المؤلِّفُ:

٣٩٨٠- للهِ حَـــقٌّ لَا يَكُــــونُ لِغَـــيْرِهِ ... وَلِعَبْـــدِهِ حَـــقٌّ هُمَـــا حَقَّـــانِ

قَوْلُهُ: «للهِ حَقٌّ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ وَلِعَبْدِهِ حَقٌّ»؛ أي: لَا يَكُونُ للهِ، إِذَنْ هما حَقَّانِ.

وهناك حقٌّ ثالثٌ مشتركٌ سيذكرُه المؤلِّفُ، فالحقوقُ ثلاثةٌ: حقٌّ خاصٌّ باللهِ، وحقٌّ خاصٌّ بالرَّسولِ، وحقٌّ مُشْتَرَكٌ.

٣٩٨١- لَا تَجْعَلُـوا الحَقَّـيْنِ حَقًّـا وَاحِـدًا ... مِـــنْ غَـــيْرِ تَمْيِيـــزٍ وَلَا فُرْقَـــانِ

بل اعرَفوا لله حقَّه، وَصِفوه بصفاتِه، وفرِّقوا بين صفاتِه وصفاتِ رسولِه.

٣٩٨٢- فَالــحَجُّ لِلــرَّحْمَنِ دُونَ رَسُــولِهِ ... وَكَـذَا الصَّـلَاةُ وَذَبْـحُ ذَا القُرْبَـانِ

قَوْلُهُ: «فَالـحَجَّ لِلرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِهِ» الـحَجُّ للهِ، فلو أراد الإنسانُ أن يَـحُجَّ

للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في المدينةِ لكان مُشرِكًا مُرتَدًّا عن الإسلامِ؛ لأنَّ الحجَّ لله وحدَه، فلا نَحجُّ إلَّا لبيتِ الله، أمَّا المشركون فيحجُّون للقبورِ، يشدُّون الرَّحْلَ ويطوفون على القبورِ أشدَّ من طوافِهم حول الكعبةِ، يجد هذا المشركُ ارتباطَه بصاحبِ القبرِ عند طوافِه به أشدَّ من ارتباطِه بالله عند طوافِه بالبيتِ، وهذا مُشَاهَدٌ، هل هؤلاء الذين يحجُّون إلى القبورِ هل هم مخلصون عابدون لله؟ الجوابُ: لا، بالعكس.

وَقَوْلُهُ: «**فَالحَجُّ لِلرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِهِ**»، وغيرُ الرَّسولِ من بابِ أَوْلَى.

قَوْلُهُ: «**وَكَذَا الصَّلَاةُ وَذَبْحُ ذَا القُرْبَانِ**»؛ أي: لله، الصَّلاةُ لله، فلو أراد أحدٌ أن يُصَلِّيَ للرَّسولِ -عليه الصَّلاة والسَّلام- أو لغيرِه لكان مُشركًا، كذلك «**ذَبْحُ ذَا القُرْبَانِ**» تقرُّبًا وتعظيمًا لا يكونُ إلَّا لله، فلو أنَّ إنسانًا ذَبَحَ أمامَ مَلِكٍ أو رئيسٍ أو وزيرٍ ذَبَحَ أمامَه تعظيمًا له وتقرُّبًا إليه لكان هذا شركًا أكبرَ، والذَّبائحُ حرامٌ؛ لأنَّها أُهِلَّ لغيرِ الله بها أو ممَّا ذُبِحَ على النُّصُبِ، وأمَّا الذَّبحُ للضَّيفِ إكرامًا فهذا ليس من الشِّركِ؛ مع أنَّ العملَ واحدٌ لكن اختلف بالنِّيَّةِ؛ لأنَّ الذَّابحَ للضَّيفِ يذبحُ له على أنَّه مفتقرٌ إلى هذه الذَّبيحةِ ليأكلَ منها لا لمجرَّدِ التَّعظيمِ، أمَّا الذي يذبحُ لله فهو يذبحُ ذلك تعظيمًا له معتقدًا أنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنها؛ ولهذا لو جاء ضيفٌ كبيرٌ فذبحنا له الغنمَ إكرامًا وقدَّمناها ليأكلَها فهذا ليس بشركٍ، والصَّعْبُ بنُ جَثَّامَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَهَبَ وَصَادَ لِلرَّسُولِ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا، وَجَاءَ بِهِ إِلَيْهِ لِيُكْرِمَهُ بِهِ، وَلَمْ يَقُلِ الرَّسولُ: «هذا شركٌ»، بل رَدَّهُ؛ لأنَّه كان مُحْرِمًا[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب إذا أهدى للمحرم حمارا وحشيا حيا لم يقبل، رقم (١٧٢٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم الصيد للمحرم، رقم (١١٩٣).

٣٩٨٣- وَكَـذَا السُّـجُودُ وَنَـذْرُنَا وَيَمِينُنَـا وَكَذَا مَتَـابُ العَبْـدِ مِـنْ عِصْـيَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا السُّجُودُ وَنَذْرُنَا وَيَمِينُنَا» السُّجودُ لله، فلو سَجَدَ أحدٌ لغيرِ الله سجدةً واحدةً لكان كافرًا مشركًا، والنَّذرُ لله، فلا يجوزُ للإنسانِ أن يقولَ للنَّبِيِّ: «عَلَيَّ نَذْرٌ أن أصومَ أو أن أُصَلِّيَ»، أو «عليَّ نذرٌ أن أذبحَ للوليِّ»، أو ما أشبه ذلك.

وكذا اليمينُ، فلا يحلفُ إلَّا بالله، قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ»[1].

قَوْلُهُ: «وَكَذَا مَتَابُ العَبْدِ مِنْ عِصْيَانِ»؛ أي: إلى الله لا إلى غيره، فَإِنْ قال قائلٌ: ماذا تُجيبون عن حديثِ عائشةَ حين جاء الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فوجد في البيتِ نُمْرُقَةً فيها صورٌ، فَوَقَفَ، وعُرِفَت الكراهِيَةُ في وجهِه، فقالت عائشةُ: «أَتُوبُ إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ، مَاذَا أَذْنَبْتُ؟»[2]، وأنتم تقولون: إنَّ التَّوبةَ خاصَّةٌ لله؟ فنقولُ: إنَّ عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا حاشاها أن تُشْرِكَ بالله معه غيرَه، لكنَّها تقولُ: «أَتُوبُ إِلَى الله» عبادةً، وإلى رسولِه اتِّباعًا؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ هو المشرِّعُ المُبَلِّغُ عن الله، فهي تتوبُ إلى الرَّسولِ اتِّباعًا له لا تقرُّبًا إليه كما تتقرَّبُ إلى الله عزَّ وجلَّ، كأنَّما تقولُ: أنا لا أقصدُ أن أخالفَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، إنَّما أقصدُ شيئًا لا يكرهُه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أو يُقَالُ: بأنَّها جاءت بلفظٍ مشتركٍ بين توبةِ العبادةِ وتوبةِ اللُّغةِ، فتوبتُها إلى الله توبةُ عبادةٍ، وتوبتُها إلى الرَّسولِ توبةُ لغةٍ؛ لأنَّ «تَابَ» بمعنى «رَجَعَ»، هذا إذا كانت لفظةُ «وَإِلَى رَسُولِهِ»

---

(١) أخرجه أحمد (١٠/ ٢٤٩، رقم ٦٠٧٢)، والترمذي أبواب النذور والإيمان، باب ما جاء في كراهة الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة، رقم (٢١٠٧).

محفوظةً، أمَّا إن لم تكن محفوظةً فلا إشكالَ.

٣٩٨٤- وَكَـذَا التَّوَكُّـلُ وَالإِنَابَـةُ وَالتُّقَـى وَكَـذَا الرَّجَـاءُ وَخَشْـيَةُ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَا التَّوَكُّلُ**»؛ أي: التَّوكُّلُ على الله عزَّ وجلَّ، بأن تتوكَّلَ على الله وحدَه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق:٣]، وهذا بخلافِ الاعتمادِ على العبدِ فيما يقدرُ عليه كتوكيلِ العبدِ في بيعٍ أو شراءٍ، فَإِنَّ الإنسانَ يعتمدُ عليه لكنَّه ليس كتوكُّلِه على الله، الإنسانُ يتوكَّلُ على وكيلِه وهو يرى أنَّه فوقَه وأنَّ وكيلَه يأتمرُ بأمرِه، لكن يتوكَّلُ على الله وهو يعلمُ أنَّه حَسْبُه وأنَّه مُفْتَقِرٌ إلى ربِّه وأنَّ اللهَ تعالى فوقَه، ففرقٌ بين التَّوكُّلَيْن؛ فتوكُّلُ الموكِّلِ على وكيلِه ليس كتوكُّلِ الإنسانِ على ربِّه؛ لأنَّ توكُّلَه على وكيلِه توكُّلُ استغناءٍ، وتوكُّلَه على ربِّه توكُّلُ افتقارٍ يعلم أنَّه محتاجٌ إليه ومضطرٌ إليه، لكن يعتمدُ عليه عزَّ وجلَّ؛ ولهذا يعتمدُ على ربِّه ويفعلُ الأسبابَ التي يتحقَّقُ بها مطلوبُه.

قَوْلُهُ: «**الإِنَابَةُ**»؛ أي: إلى الله سبحانه وتعالى، وهي الرُّجوعُ إلى الله وحدَه، فلا تُنِبْ لغيرِ الله أبدًا.

قَوْلُهُ: «**وَالتُّقَى**» مَنْ نتَّقي؟ الجوابُ: الله، لكن اللهُ عزَّ وجلَّ يذكرُ التَّقوى مضافةً إليه أحيانًا، ومضافةً إلى العذابِ أحيانًا، ومضافةً إلى دارِ العذابِ أحيانًا، ومضافةً إلى زمنِ العذابِ أحيانًا، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] هذا مكانُ العذابِ، وقولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] هذا زمنُ العذابِ، ويذكرُ اللهُ تقواه كثيرًا، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧]، فإذا كانت التَّقوى لله فكيف صحَّ أن تُضَافَ إلى المذكوراتِ السَّابقةِ؟ نقولُ: لأنَّ هذه من فعلِ الله وخَلْقِ الله، وهي محلُّ عذابِه أو زمانِه، فتقاتُها

تُعْتَبَرُ تقوىً لله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «وَكَذَا الرَّجَاءُ» الرَّجاءُ أيضًا لله عزَّ وجلَّ، والإنسانُ قد يرجو غيرَ الله، لكن رجاؤه لغيرِ الله ليس كرجائِه لله؛ لأنَّ رجاءَه لله رجاءُ عبادةٍ وثقةٍ بخلافِ رجائِه لغيرِه فإنَّه دون ذلك بكثيرٍ.

قَوْلُهُ: «وَخَشْيَةُ الرَّحْمَنِ» وكذلك أيضًا الخشيةُ، فقد يخشى الإنسانُ غيرَ الله، لكن الخشيةُ في العبادةِ لا تكونُ إلَّا لله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان:٣٣]، لكن ليس المعنى أن نخشى هذا اليومَ كخشيةِ الله، وقال اللهُ -سبحانه وتعالى- لنبيِّه: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، لكن الإنسانُ يجدُ فرقًا عظيمًا بين خشيتِه لله وخشيتِه لعبادِ الله، خشيتُه لله خشيةُ إجلالٍ وتعظيمٍ وتقرُّبٍ، وخشيتُه لغيرِ الله خشيةُ خوفٍ ورهبةٍ، وَإلَّا فليس في قلبِه محبَّةٌ ولا تعظيمٌ لهذا المخوفِ، بل ذعرٌ ورهبٌ.

ثُمَّ قال المؤلِّفُ في بيانِ الحقوقِ التي لله وحدَه، والتي للرَّسولِ ﷺ وحدَه، والتي لله وللرَّسولِ، قال:

٣٩٨٥- وَكَـذَا العِبَـادَةُ وَاسْـتِعَانَتُنَا بِـهِ ... إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ ذَانِ تَوْحِيـدَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا العِبَادَةُ وَاسْتِعَانَتُنَا بِهِ»؛ أي: بالله عزَّ وجلَّ، فالعبادةُ خاصَّةٌ بالله فلا نعبدُ غيرَه، والاستعانةُ خاصَّةٌ بالله فلا نستعينُ بغيرِه، لكنَّ المرادَ الاستعانةُ المطلقةُ المبنيَّةُ على الاعتمادِ المطلقِ، فهذه لا تكونُ إلَّا بالله، أمَّا الاستعانةُ بما يستطيعُه المستعانُ في الدُّنيا فهذه جائزةٌ، فَإنَّ النَّبيَّ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- قال: «تُعِينُ

الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ»[(١)]، ولا يزالُ النَّاسُ يستعينُ بعضُهم بعضًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، لكن هناك فرقٌ بين الاستعانةِ بالله التي تكونُ عبادةً واعتمادًا كُلِّيًّا على الله وبين الاستعانةِ بالمخلوق الذي ترى أنَّه بإعانتِك مشاركٌ لك فقط في هذا العملِ، فقولُ المؤلِّفِ: «**العِبَادَةُ وَاسْتِعَانَتُنَا بِهِ**» أضافها إلى استعانتِنا بالله، وهي استعانةٌ خاصَّةٌ غيرُ استعانتِنا بالمخلوقِ.

قَوْلُهُ: «**إِيَّاكَ نَعْبُدُ ذَانِ تَوْحِيدَانِ**» فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] في القرآنِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] في القرآنِ، ونوحِّدُ اللهَ بالعبادةِ ونوحِّدُه بالاستعانةِ، أمَّا العبادةُ فمطلقًا، وأمَّا الاستعانةُ فإنَّنا نستعينُ بالمخلوقِ فيما يقدرُ عليه، لكنَّ استعانتَنا بالمخلوقِ ليست كاستعانتِنَا بالخالقِ.

٣٩٨٦- وَعَلَيْهِمَا قَامَ الوُجُودُ بِأَسْرِهِ ... دُنْيَا وَأُخْرَى حَبَّذَا الرُّكْنَانِ

قَوْلُهُ: «**وَعَلَيْهِمَا قَامَ الوُجُودُ بِأَسْرِهِ**»؛ أي: على العبادةِ والاستعانةِ قام الوجودُ بأسرِه؛ لأنَّ الوجودَ قَامَ بالحقِّ، ولا أحقَّ من عبادتِنا لله واستعانتِنا به؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ فيما لو اتَّبع الحقُّ أهواءَهم قال: ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١]، فبالحقِّ صلحت السَّماواتُ والأرضُ، وبالباطلِ تفسدُ السَّماواتُ والأرضُ.

٣٩٨٧- وَكَذَلِكَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّـ ... ـهْلِيلُ حَقُّ إِلَهِنَا الدَّيَّانِ

لا نُسَبِّحُ إلَّا اللهَ فنقول: «**سبحان الله!**»، ولا نقولُ: «**سبحان الرَّسول**»،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩).

ونقولُ: «اللهُ أكبرُ»، ولا نقولُ: «الرَّسولُ أكبرُ»، نقولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، ولا نقولُ: «لَا إلهَ إلَّا رسولُ اللهِ»، فهذا حقُّ الدَّيَّانِ.

٣٩٨٨- لَكِنَّمَا التَّعْزِيرُ وَالتَّوْقِيرُ حَقْـ ـقٌ لِلرَّسُولِ بِمُقْتَضَى القُرْآنِ

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٩]، فقولُه: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ الهاء تعودُ على الرَّسولِ، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ على الرَّسولِ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ على الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الحقَّيْنِ الأوَّلَيْن من حقوقِ الرَّسولِ، والثَّالثَ من حقِّ الله عزَّ وجلَّ.

٣٩٨٩- وَالحُبُّ وَالإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقُ لَا يَخْتَصُّ بَلْ حَقَّانِ مُشْتَرَكَانِ

الحُبُّ والإيمانُ والتَّصديقُ لا يختصُّ لا بالرَّسولِ ولا باللهِ، بل هو مشتركٌ، فالحُبُّ والإيمانُ والتَّصديقُ للهِ وللرَّسولِ، كُلٌّ منهما فرضٌ علينا محبَّتُه والإيمانُ به وتصديقُه، ولكن لاحِظوا أنَّ محبَّتَنا للرَّسولِ -عليه الصلاة والسلام- فرعٌ عن محبَّتِنا للهِ، لولا أنَّه رسولُ اللهِ لم يجبْ علينا محبَّتُه ولا الإيمانُ به ولا تصديقُه، فمحبَّتُنا له وإيمانُنا به وتصديقُنا إيَّاه فرعٌ عن محبَّةِ اللهِ، خلافًا للغُلَاةِ بالرَّسولِ الذين يَرَوْنَ أنَّ محبَّةَ اللهِ والإيمانَ به والتَّصديقَ فرعٌ عن محبَّةِ الرَّسولِ، حتَّى إنَّا سَمِعْنا مِن بعضِهم مَنْ يقولُ: إنَّ زيارةَ المدينةِ أفضلُ من الحجِّ إلى مكَّةَ؛ لأنَّهم يَرَوْنَ أنَّ الرَّسولَ أعظمُ حقًّا من اللهِ، والعياذُ باللهِ.

٣٩٩٠- هَذِي تَفَاصِيلُ الحُقُوقِ ثَلَاثَةٌ لا تَجْهَلُوهَا يَا أُولِي العُدْوَانِ

إِذَنْ الحقوقُ ثلاثةٌ: حقٌّ للهِ خالصٌ، وحقٌّ للرَّسولِ خالصٌ، وحقٌّ مشتركٌ، الحقُّ الخالصُ باللهِ هو العبادةُ بجميعِ أنواعِها، فلا تكونُ إلَّا للهِ عزَّ وجلَّ، والحقُّ

الخاصُّ بالرَّسولِ هو التَّعزيرُ والتَّوقيرُ لقولِ الله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، والحقُّ المشتركُ هو الحُبُّ والإيمانُ والتَّصديقُ، لكن ليس حُبُّنا للرَّسولِ كحُبِّنا لله، بل حُبُّنا للرَّسولِ من حُبِّنا لله عزَّ وجلَّ.

***

٣٩٩١- حَقُّ الإِلَهِ عَبَادَةٌ بِالأَمْرِ لَا ... بِهَوَى النُّفُوسِ فَذَاكَ لِلشَّيْطَانِ

٣٩٩٢- مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكٍ بِهِ شَيْئًا هُمَا ... سَبَبَا النَّجَاةِ فَحَبَّذَا السَّبَبَانِ

٣٩٩٣- وَرَسُولُهُ فَهُوَ المُطَاعُ وَقَوْلُهُ الْـ ... ـمَقْبُولُ إِذْ هُوَ صَاحِبُ البُرْهَانِ

٣٩٩٤- وَالأَمْرُ مِنْهُ الحَتْمُ لَا تَخْيِيرَ فِيـ ... ـهِ عِنْدَ ذِي عَقْلٍ وَذِي إِيمَانِ

٣٩٩٥- مَنْ قَالَ قَوْلًا غَيْرَهُ قُمْنَا عَلَى ... أَقْوَالِهِ بِالسَّبْرِ وَالمِيزَانِ

٣٩٩٦- إِنْ وَافَقَتْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ ... فَعَلَى الرُّؤُوسِ تُشَالُ كَالتِّيجَانِ

٣٩٩٧- أَوْ خَالَفَتْ هَذَا رَدَدْنَاهَا عَلَى ... مَنْ قَالَهَا مَنْ كَانَ مِنْ إِنْسَانِ

٣٩٩٨- أَوْ أَشْكَلَتْ عَنَّا تَوَقَّفْنَا وَلَمْ ... نَجْزِمْ بِلَا عِلْمٍ وَلا بُرْهَانِ

٣٩٩٩- هَذَا الَّذِي أَدَّى إِلَيْهِ عِلْمُنَا ... وَبِهِ نَدِينُ اللهَ كُلَّ أَوَانِ

الشرحُ

٣٩٩١- حَقُّ الإِلَهِ عَبَادَةٌ بِالأَمْرِ لَا ... بِهَوَى النُّفُوسِ فَذَاكَ لِلشَّيْطَانِ

يعني: أنَّنا نعبدُ اللهَ، والعبادةُ حقُّه، لكن نعبدُه بأمرِه لا بهوانا، لو كانت العبادةُ بالهوى لأَصْبَحَ النَّاسُ فوضى؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ يَهْوَى عبادةً دون الآخَرِ،

الآن عبادةُ الله تعالى يختلفُ النَّاسُ فيها، تجد الإمامَ يُصَلِّي بالجماعةِ، واحدٌ يقولُ: أَطَلْتَ، والثَّاني يقولُ: خَفَّفْتَ، والثَّالثُ يقولُ: تَقَدَّمْتَ في الإقامةِ، والرَّابع يقولُ: تأخَّرتَ، والخامسُ يقولُ: أَسْرَعْتَ في الرُّكوعِ والسُّجودِ، والسَّادسُ يقولُ: أَبْطَأْتَ، وهي عبادةٌ مُحَدَّدةٌ مضبوطةٌ من قِبَلِ الشَّرعِ، كيف لو كانت العباداتُ موكولةً إلى أهواءِ النَّاسِ؟! لا يمكنُ أن يتَّفقَ النَّاسُ، إذَنْ نعبدُ اللهَ بأمرِ الله، قال النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1]؛ ولهذا قال:

٣٩٩٢- مِـنْ غَـيْرِ إِشْرَاكٍ بِـهِ شَـيْئًا هُمَـا ... سَـبَبَا النَّجَـاةِ فَحَبَّـذَا السَّـبَبَانِ

يعني: نعبدُه إخلاصًا له وامتثالًا لأمرِه دون إشراكٍ ولا بدعةٍ، هذان هما السَّببان المُنْجِيان.

٣٩٩٣- وَرَسُـولُهُ فَهُـوَ المُطَـاعُ وَقَوْلُـهُ الـ ... ـمَقْبُولُ إِذْ هُوَ صَـاحِبُ البُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**إِذْ هُوَ صَاحِبُ البُرْهَانِ**»؛ أي: صاحبُ الدَّليلِ.

يقولُ: قولُ الرَّسولِ ﷺ مطاعٌ وأمرُه مطاعٌ.

٣٩٩٤- وَالأَمْرُ مِنْـهُ الـحَتْمُ لَا تَخْيِـيرَ فِيـ ... ـهِ عِنْـدَ ذِي عَقْـلٍ وَذِي إِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَالأَمْرَ مِنْهُ الحَتْمُ**» الأمرُ من الرَّسولِ حَتْمٌ يلزمُنا قَبولُه، إمَّا أن يَلْزَمَنَا العملُ به إن كان واجبًا، أو يُسْتَحَبَّ لنا العملُ به إن كان تطوُّعًا، لكن قَبولُه أنَّه مشروعٌ واجبٌ.

قَوْلُهُ: «**لَا تَخْيِيرَ فِيهِ**»؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

﴿وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٣٦]، فلا خيارَ للمؤمنِ في أمرِ الله ورسولِه.

فالأمرُ من الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- حتمٌ لا تخييرَ فيه؛ يعني: ليس لنا الخيارُ أن نأخذَ به أو ندَعَه، وليس المرادُ ما يكونُ على سبيلِ الإستحبابِ؛ يعني مثلًا: لو أمر الرَّسولُ بأمرٍ على سبيلِ الاستحبابِ فليس لنا الخيارُ بين أن نفعلَه أو نقولَ: هذا لا نعبأُ به، بل يجبُ أن نعبأَ به، ولكنَّنا نقولُ: إنَّه على سبيلِ الاستحبابِ بحيث لا يأثمُ الإنسانُ بتركِه، وقد قرَّرنا كثيرًا أنَّه لا يليقُ بالمسلمِ إذا جاءه الأمرُ من الله ورسولِه أن يقولَ: هل هذا واجبٌ أو مستحبٌّ؟ وإذا جاءه النَّهيُ لا ينبغي أن يقولَ: هل هذا حرامٌ أو مكروهٌ؟ لأنَّ الصَّحابةَ ما كانوا يقولون هذا، ولكن إذا تَوَرَّطَ الإنسانُ ووقع في المخالفةِ حينئذٍ ينظرُ هل هو واجبٌ أو مستحبٌّ؟ هل هو محرَّمٌ أو مكروهٌ؟ حتَّى يُحْدِثَ توبةً، أو يتداركَ ما فاتَه.

٣٩٩٥- مَنْ قَالَ قَوْلًا غَيْرُهُ قُمْنَا عَلَى ... أَقْوَالِهِ بِالسَّبْرِ وَالمِيزَانِ

مَنْ قال قولًا غيرَ الرَّسولِ فإنَّنا نَسْبُرُ قولَه وَنزِنُه، ننظرُ هل يوافقُ أو يُخَالِفُ؟

إِذَنْ الميزانُ أن نعرضَ أقوالَ كُلِّ إنسانٍ كائنًا مَنْ كان نعرضَها ونردَّها إلى الكتابِ والسُّنَّةِ.

٣٩٩٦- إِنْ وَافَقَتْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ ... فَعَلَى الرُّؤُوسِ تُشَالُ كَالتِّيجَانِ

إذا وافَقَتْ أقوالُ غيرِ الرَّسولِ أقوالَ الرَّسولِ وحُكْمَ الرَّسولِ «فَعَلَى الرُّؤوسِ تُشَالُ كَالتِّيجَانِ»؛ يعني: تُحْمَلُ وُتْرَفُع كالتِّيجَانِ؛ يعني: تُشَالُ مُعَظَّمةً محترمةً، لا؛ لأنَّها قولُ فلانٍ ولكن لأنَّها وَافَقَتْ قولَ الرَّسولِ ﷺ، والتِّيجانُ هي التي يضعُها الملوكُ على رؤوسِهِم.

إِذَنْ رَفَعْنَا قولَ هذا العَالِـمِ؛ لأَنَّه وَافَقَ قولَ الرَّسولِ، ووضعناه على رؤوسِنا كالتِّيجانِ.

٣٩٩٧- أَوْ خَالَفَـتْ هَـذَا رَدَدْنَاهَـا عَـلَى ... مَنْ قَالَـهَا مَـنْ كَـانَ مِـنْ إِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**أَوْ خَالَفَتْ هَذَا**»؛ أي: خَالَفَتْ قولَ الرَّسولِ وحُكْمَه.

يعني: إذا خَالَفَتْ قولَ الرسولِ رددناها على مَنْ قالها مَنْ كان من إنسانٍ، حتَّى ولو كان أبا بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فكيف بِمَن دونهما؟

٣٩٩٨- أَوْ أَشْـكَلَتْ عَنَّـا تَوَقَّفْنَـا وَلَـمْ ... نَجْـزِمْ بِـلَا عِلْـمٍ وَلا بُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**أَوْ أَشْكَلَتْ عَنَّا تَوَقَّفْنَا**»؛ يعني: أَشْكَلَتْ علينا تَوَقَّفْنَا.

هذا -والله- الإنصافُ، أن نعرضَ أقوالَ غيرِ الرَّسولِ على قولِ الرَّسولِ، وهذا لا يخلو من ثلاثِ حالات:

الأولى: أن يوافقَ قولَ الرَّسولِ، فماذا نعملُ؟ الجوابُ: نحملُه على الرُّؤوسِ.

الثَّانية: أن يخالفَ، نردُّه على قائلِه.

الثَّالثة: أن يُشْكِلَ، نتوقَّفُ ولم نجزمْ بلا علمٍ ولا برهانٍ.

٣٩٩٩- هَـذَا الَّـذِي أَدَّى إِلَيْـهِ عِلْمُنَـا ... وَبِـهِ نَـدِينُ اللهَ كُـلَّ أَوَانِ

ونِعْمَ ما سَلَكَ رحمه الله، وهذا هو العدلُ، هذا هو الإنصافُ.

لكن لو أنَّ قولَ إمامِنا الذي ننتمي إليه خَالَفَ قولَ الرَّسولِ، وقولَ غيرِ إمامِنا الذي ننتمي إليه وَافقَ الرَّسولَ ماذا نفعلُ؟

الجوابُ: نأخذُ بالثَّاني، ولا يُقَالُ: حَنْبَلِـيٌّ أَخَذَ بمذهبِ الشَّافعيِّ، ولا شافعِيٌّ

أَخَذَ بمذهبِ الحَنْبَلِـيِّ، بل يُقَالُ: مسلمٌ أَخَذَ بقولِ الرَّسولِ، وهذا الواجبُ.

نعم أقوالُ العلماءِ لا شَكَّ أنَّها يُسْتَأْنَسُ بها، وأنَّ الإنسانَ إذا تَوَهَّمَ حكمًا دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ والجمهورُ على خلافِه فإنَّ الواجبَ عليه أن يتأنَّى وألَّا يُقْدِمَ على الفتوى به أو العملِ به؛ لأنَّ مخالفةَ جمهورِ العلماءِ له لها قيمتُها ووزنُها، كيف يكونُ جمهورُ العلماءِ على هذا وأنت تفهمُ شيئًا آخرَ؟! تأنَّ في الموضوعِ، ولهذا نجد الذين يتسرَّعون الآن إلى الأقوالِ الشَّاذَّةِ يكثرُ منهم الخطأُ، فإذا رَأَيْتَ أو تَوَهَّمْتَ من الأدلَّةِ ما يخالفُ رأيَ الجمهورِ فإيَّاك والتَّسرُّع؛ لأنَّ الجمهورَ لهم وزنُهم، وهم كأنت لهم فَهْمُهم، وقد يكونُ فَهْمُهم أقوى من فَهْمِك وعلمُهم أكثرَ من علمِك، فتأنَّ، هذه واحدةٌ، يجبُ عليكم -يا طلبةَ العلمِ- أن تعتنوا بها، وألَّا تتسرَّعوا بالأقوالِ الشَّاذَّةِ، هذه واحدةٌ.

ثانيًا: ما جرى عليه النَّاسُ في البلدِ لا تتسرَّعُ في نقلِ النَّاسِ منه إلى ما تراه صوابًا؛ لأنَّهم قد اقتدَوْا بعلماء، قد يكونُ الصَّوابُ في رأي العلماءِ الآخرين؛ ولهذا يُخطئُ كثيرًا مَنْ يريدُ أن ينقلَ النَّاسَ عمَّا هم عليه وعمَّا عليه علماؤهم إلى قولٍ يراه راجحًا، بل يجبُ أن يتأنَّى وينظرَ لماذا خَالَفَ النَّاسُ ما أراه صحيحًا؟ فإذا تبيَّن أنَّه صحيحٌ فلا مَناصَ منه، لكن قبل ذلك لا تتسرَّعْ، فمخالفةُ النَّاسِ ليست بالأمرِ الهيِّن، رُبَّما تحاولُ أن تنقلَهم إلى ما تراه صحيحًا فتحصلُ بذلك مفسدةٌ، إمَّا بالنِّسبةِ لك بحيث يُلْقُون بأفواهِهم سبًّا وشتمًا وغِيبةً، وإمَّا بالنِّسبةِ لتفريقِهم، بعضُهم يرى أن يتَّبعوا ما كانت عليه مشايخُهم، وبعضُهم يرى أن نأخذَ بهذا القولِ الجديدِ، فيحصلُ التَّفريقُ بين الأُمَّةِ بدون برهانٍ بَيِّنٍ، أمَّا مع البرهانِ البيِّنِ فلا تعبأْ بأحدٍ، لكن أقولُ: تَأَنَّ.

ولقد كان النَّبيُّ ﷺ يُراعي مِثْلَ هذه الأمورِ وهو أعلمُ مِنَّا وأحكمُ، لـمَّا فتَحَ مكَّةَ كان بإمكانِه أن يهدمَ الكعبةَ وأن يعيدَ بناءَها على ما كانت عليه في عهدِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لكنَّه ترك ذلك؛ خوفًا من الفتنةِ، وقال لعائشةَ: «**لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ**»[(١)]؛ أي: لَـهَدَمْتُ الكَعْبَةَ وَبَنَيْتُهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، فانظر لقد ترك أمرًا مشروعًا خوفًا من الفتنةِ مع أنَّ بإمكانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أن يبنيَ ويُقْنِعَ النَّاسَ؛ لأنَّه رسولٌ، لكنَّه رَاعَى أحوالَ النَّاسِ.

وكان معاذُ بنُ جبلٍ رَدِيفَهُ عَلَى حِمَارِهِ، فَقَالَ لَهُ: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟**» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى الله أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، كلمتان، قال: أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»[(٢)]، فنهاه عن نشرِ العلمِ مع أنَّ نشرَ العلمِ واجبٌ لاسيَّما في هذا الأمرِ المهمِّ «**عبادة وشرك**»، نهاه فقال: «**لا تُبَشِّرْهُمْ**»؛ خوفًا من مفسدةٍ وهي الاتِّكال، يتَّكلون على الإخلاصِ دُون العملِ، فأمره أن يكتمَ العلمَ خَوْفًا من المفسدةِ، فلماذا لا يكونُ لنا أسوةٌ في الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأن نَحْذَرَ ما يكونُ تشويشًا على النَّاسِ أو إفسادًا لعباداتِهم حتَّى يأتيَ الأوانُ للقولِ والعملِ.

لكنَّ هذا الحديثَ قد يُشْكِلُ على كثيرٍ من النَّاسِ، يقولُ: كيف أَخْبَرَ معاذٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والنَّبيُّ ﷺ نَهى عن ذلك؟ نقولُ: لأنَّ معاذَ بنَ جبلٍ من فقهاء الصَّحابةِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الكعبة وبنيانها، رقم (١٥٨٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، رقم (٢٧٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم (٣٠).

يعلمُ أنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يخبرْه ليكونَ مجهولًا عند الأُمَّةِ، لو كان الرَّسولُ -عليه الصَّلاة والسَّلام- يُريد ألَّا تعلمَه الأُمَّةُ هل يُحَدِّثُ معاذًا به؟ الجوابُ: لا يُحَدِّثُه، ولا يعلمُ النَّاسُ ما في قلبِه، لكنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلِمَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يُحَدِّثْ به معاذًا إلَّا لتعلمَه الأُمَّةُ ولا بد، ثُمَّ إنَّ الخوفَ الذي خافه النَّبِيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- فَهِمَ مُعاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ قولَ الرَّسولِ ﷺ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»؛ يعني: تحذيرَ الأمةِ من أن يتَّكِلوا عليه، وكُلُّ إنسانٍ يعلمُ أنَّ الرَّسولَ يخشى أن يتَّكِلَ عليه لا يتَّكِل على هذا، فكان هذا من فقهِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإلَّا فقد يقولُ الجاهلُ الغِرُّ: كيف عَصَى معاذٌ رسولَ الله ﷺ؟ يقولُ: «لَا تُخْبِرْهُمْ» وهو يُخْبِرُهم؟! فتقول: هذا هو السَّببُ، ثُمَّ إنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اقتصر على الضَّرورةِ في إخبارِهم؛ ولذا فإنَّه أَخْبَرَ عند موتِه، حيث كان في ساعاتٍ من الزَّمنِ لم يخبرْهم، لكن عند موتِه رأى أنَّه لا بد أن يُخْبِرَهم.

فالقصدُ من هذا هو أنَّ أقوالَ العلماءِ تُعْرَضُ على الكتابِ والسُّنَّةِ؛ فإمَّا أن تُوافِقَ، أو تخالفَ، أو تُشْكِلَ، في الموافقةِ نأخذُ بها، وفي المخالفةِ لا نَأخذُ بها بل نردُّها، وفي الإشكالِ نتوقَّفُ حتَّى يتبيَّنَ الأمرُ، لكن في الغالبِ أنَّه لا يمكنُ أن يكونَ توقُّفًا؛ لأنَّه لا بد أن يكونَ هناك أصولٌ يُبْنَى عليها، والذي يُعْطِيه اللهُ تعالى فقهًا يتبيَّنُ له الأمرُ، ثُمَّ عَرَّجْنَا إلى ما يفعلُه بعضُ النَّاسِ من التَّسرُّعِ في مخالفةِ الجمهورِ، ولا تتسرَّعْ في مخالفةِ ما النَّاسُ فيه تابعونَ لعلمائِهم حتَّى يتبيَّنَ، وضربنا مَثَلَيْنِ من هدي النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام- أحدهما: في بناء الكعبة، والثَّاني: في حديث معاذٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

* * *

٤٠٠٠- فَهُوَ الـمُطَاعُ وَأَمْرُهُ العَالِي عَلَى ... أَمْرِ الـوَرَى وَأَوَامِرِ السُّلْطَانِ

٤٠٠١- وَهُوَ الـمُقَدَّمُ فِي مَحَبَّتِنَا عَلَى الـ ... ـأَهْلِينَ وَالأَزْوَاجِ وَالوِلْـدَانِ

٤٠٠٢- وَعَلَى العِبَادِ جَمِيعِهِمْ حَتَّى عَلَى النْـ ... ـنَفْسِ الَّتِي قَدْ ضَمَّهَا الـجَنْبَانِ

٤٠٠٣- وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ أَعْدَاءِ الـمَسِيـ ... ـحِ مِنَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ

٤٠٠٤- إِنَّا تَنَقَّصْنَا الـمَسِيحَ بِقَوْلِنَا ... عَبْدٌ وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ

٤٠٠٥- لَوْ قُلْتُمُ وَلَدٌ إِلَهٌ خَالِقٌ ... وَفَّيْتُمُوهُ حَقَّهُ بِوِزَانِ

٤٠٠٦- وَكَذَاكَ أَشْبَاهُ النَّصَارَى مُذْ غَلَوْا ... فِي دِينِهِمْ بِالـجَهْلِ وَالطُّغْيَانِ

٤٠٠٧- صَارُوا مُعَادِينَ الرَّسُولَ وَدِينَنَا ... فِي صُورَةِ الأَحْبَابِ وَالإِخْوَانِ

٤٠٠٨- فَانْظُرْ إِلَى تَبْدِيلِهِمْ تَوْحِيدَهُ ... بِالشِّرْكِ وَالإِيمَانِ بِالكُفْرَانِ

٤٠٠٩- وَانْظُرْ إِلَى تَجْرِيدِهِ التَّوْحِيدَ مِنْ ... أَسْبَابِ كُلِّ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَنِ

٤٠١٠- وَاجْمَعْ مَقَالَتَهُمْ وَمَا قَدْ قَالَهُ ... وَاسْتَدْعِ بِالنُّقَّادِ وَالوُزَّانِ

٤٠١١- عَقْلٍ وَفِطْرَتِكَ السَّلِيمَةِ ثُمَّ زِنْ ... هَذَا وَذَا لَا تَطْغَ فِي المِيزَانِ

٤٠١٢- فَهُنَاكَ تَعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا هُوَ الـ ... ـمُتَنَقِّصُ المَنْقُوصُ ذُو العُدْوَانِ

٤٠١٣- رَامِي البَرِيءِ بِدَائِهِ وَمُصَابِهِ ... فِعْلُ الـمُبَاهِتِ أَوْقَحِ الحَيَوَانِ

٤٠١٤- كَمُعَيِّرٍ لِلنَّاسِ بِالزَّغَلِ الَّذِي ... هُوَ ضَرْبُهُ فَاعْجَبْ لِذَا البُهْتَانِ

٤٠١٥- يَا فِرْقَةَ التَّنْقِيصِ بَلْ يَا أُمَّةَ الدْ ... دَعْوَى بِلا عِلْمٍ وَلَا عِرْفَانِ

٤٠١٦- وَاللهِ مَا قَدَّمْتُمُ يَوْمًا مَقَا لَتَهُ عَلَى التَّقْلِيدِ لِلإِنْسَانِ

٤٠١٧- وَاللهِ مَا قَالَ الشُّيُوخُ وَقَالَ إِلْـ لَا كُنْتُمُ مَعَهُمْ بِلا كِتْمَانِ

٤٠١٨- وَاللهِ أَغْلاطُ الشُّيُوخِ لَدَيْكُمُ أَوْلَى مِنَ المَعْصُومِ بِالبُرْهَانِ

الشَّرحُ

٤٠٠٠- فَهُوَ المُطَاعُ وَأَمْرُهُ العَالِي عَلَى أَمْرِ الوَرَى وَأَوَامِرِ السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**فَهُوَ المُطَاعُ**»؛ يعني: النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «**أَمْرِ الوَرَى**» يقصدُ كُلَّ الخلقِ.

وَقَوْلُهُ: «**وَأَوَامِرِ السُّلْطَانِ**» هذا تخصيصٌ بعد تعميمٍ؛ لأنَّ السُّلطانَ من الوَرَى، لكن لما كانت أوامرُ السُّلطانِ غالبًا تكونُ مطاعةً وغالبًا يطيعُهم الإنسانُ في معصيةِ الله نَصَّ عليها وإلَّا فهم داخلون في «**أَمْرِ الوَرَى**».

قَوْلُهُ: «**وَأَمْرُهُ العَالِي عَلَى أَمْرِ الوَرَى**» أمرُ الرَّسولِ ﷺ عالٍ على أمرِ الورى؛ أي: على كُلِّ الخلقِ حتَّى على أُمِّك وأبيك، فإذا أمرك الرَّسولُ بشيءٍ وأمرك أبوك بخلافِه مَنْ تقبلُ؟ الجوابُ: تقبلُ أمرَ الرَّسولِ، لو قال أبوك: لا تصلِّ تحيةَ المسجدِ إذا دَخلْتَ المسجدَ فيأخذك زبانيةُ السُّلطانِ، ماذا تفعلُ؟ الجوابُ: أُصلِّي، والوهمُ من أخذِ زبانيةِ السُّلطانِ وهمٌ، قد يفعلون وقد لا يفعلون، وبه نعرفُ الميزانَ الذي يكونُ به بِرُّ الوالدين، فإذا قالا: «**لا تطلب العلمَ**»، لا تطعهما، اطلب العلمَ إلَّا في حال الضَّرورة التي لا يدفعُها عنهم إلَّا أنت، فحينئذٍ يجبُ أن تُقدِّمَ خدمتَهم على ذلك، وأمَّا مع غيرِ هذا فلا؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن

رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٨]؛ يعني: قولًا يحصلُ به التَّوفيقُ بين ما تريدُ وبين ما يريدُ ذوو الأرحامِ.

قَوْلُهُ: «وَأَمْرُهُ العَالِي عَلَى ... أَوَامِرِ السُّلْطَانِ»؛ يعني: هذا الواجبُ علينا، أن نجعلَ أمرَه عاليًا على أوامرِ السُّلطانِ، والسُّلطانُ أوامرُه مُطَاعَةٌ بنصِّ القرآنِ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النِّساء:٥٩]، لكنَّ أمرَ النَّبيِّ ﷺ مُقَدَّمٌ على أمرِ السُّلطانِ، فإذا تَعَارَضَ أمرُ الرَّسولِ ﷺ وأوامرُ السُّلطانِ قُدِّمَ أمرُ الرَّسولِ.

وتأمَّل الحكمةَ في التَّعبيرِ القرآنيِّ، قال اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النِّساء:٥٩]، ما قال: «أَطِيعُوا أُولِي الأَمْرِ»؛ لأنَّ طاعةَ ولاةِ الأمرِ ليست مستقلَّةً، فلا يُطَاعونَ إلَّا في طاعةِ الله ورسولِه، وقد أمرنا اللهُ ورسولُه بطاعتِهم في غيرِ المعصيةِ.

فأوامرُ السُّلطانِ ثلاثةُ أقسامٍ:

القسم الأوَّل: قسمٌ أَمَرَ اللهُ به ورسولُه مثل أن يأمرَ بإقامةِ الصَّلاةِ جماعةً، فهذا واجبٌ، لكن هل بأمرِ السُّلطانِ أو بأمرِ الله ورسولِه؟ الجوابُ: بهما جميعًا، لكن الأصلُ أمرُ الله ورسولِه، فنكون مثابين على طاعةِ الله ورسولِه وعلى طاعةِ السُّلطانِ التي أُمِرْنَا بها.

القسم الثَّاني: أن يأمُرَنا السُّلطانُ بمعصيةِ الله ورسولِه فحينئذٍ ننظر، اللهُ يقولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النِّساء:٥٩]، فجعل طاعتَهم تابعةً لطاعةِ الله ورسولِه، فإذا أَمَرَنَا السُّلطانُ بمعصيةٍ قُلنا: لا، لا نوافقُك، لكن كيف نقولُ: لا؟ هل معنى ذلك أن نصادمَه مصادمةً، فإذا قال:

افعل معصيةَ كذا، قلنا: لا سمعَ ولا طاعةَ؟! الجوابُ: لا، هذا غلطٌ، هذا منابذةٌ، ولكنَّا نمتنعُ ثُمَّ نتلقَّاه بالجوابِ السَّليمِ الهيِّن اللِّينِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى بَعَثَ رسولًا من أولي العزمِ إلى أعتى عبادِ الله وهو فرعون، وقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه:٤٤]، وهو كافرٌ عنيدٌ، فلا ننابذُه ونقول: لا سمعَ ولا طاعةَ، وما ورد عن بعضِ السَّلفِ من منابذة الحاكمِ على هذا الوجه فهو لأحوالٍ معيَّنةٍ مخصوصةٍ تخالفُ القاعدةَ العامَّةَ من مخاطبةِ ولاةِ الأمورِ بما يليقُ بمنزلتِهم، بمعنى: أنَّه رُبَّما في ذلك الوقتِ لا يغضبُ السُّلطانُ لو أنَّه قال: لا سمعَ ولا طاعةَ، بل يرى ذلك من منقبتِهِ إذا وَافَقَ لهذا الذي قال: «**لا سمعَ ولا طاعةَ**»، ولا نتَّهمُ أحدًا؛ إذ رُبَّما يقولُ السُّلطانُ لأحدِ النَّاسِ: إنِّي سآمُرُ بكذا ممَّا يكونُ معصيةً، ولكن قُمْ، وقل لي: لا سمعَ ولا طاعةَ، ثُمَّ سأقولُ: ما الدَّليلُ؟ فإذا قلتَ: الدَّليلُ كذا وكذا، فسوف أنسَحبُ؛ ليكون ذلك منقبةً له ورفعةً له، فتلك أحوالٌ فيما وَرَدَ عن بعضِ السَّلفِ من منابذةِ الحُكَّامِ، تلك أحوالٌ لها خصوصيَّتُها، وهي التي يُسمِّيها العلماءُ بقضيةِ العينِ، وقضايا الأعيانِ لا تصلحُ لخرقِ القواعدِ العامَّةِ من النَّهيِ عن منابذةِ الحُكَّامِ، بل نعاملُهم بما تقتضيه المصلحةُ.

واعلم أنَّك إذا عامَلْتَ السُّلطانَ بما تقتضيه المصلحةُ من كونِ ذلك سرًّا بينك وبينه فإنَّ ذلك أقربُ إلى القَبولِ والإجابةِ؛ لأنَّ السُّلطانَ يرى نفسَه له السُّلطة، وهو له السُّلطةُ حقًّا، فمنابذتُه ليست بالهيِّنةِ، ثُمَّ إذا بَذَلْتَ أيُّها الإنسانُ ما بينك وبين ربِّك سَقَطَ عنك الإثمُ وَبرِئَت الذِّمَّةُ، أليس الإمامُ أحمدُ وغيرُه من العلماءِ يخاطبون السُّلطانَ ويكاتبونه في الرُّجوعِ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ وإلى مذهب أهلِ السُّنَّةِ ومع ذلك فالولاةُ في عهدِهم يخالفونهم، هل نقولُ: إنَّ ذمَّةَ الإمامِ أحمدَ ومَنْ معه من علماءِ السَّلفِ لم تبرأ أو بَرِئَتْ؟ الجوابُ: بَرِئَتْ، ومع ذلك لم ينابذ

الإمامُ أحمدُ ولا غيرُه من السَّلفِ الحُكَّامَ ولم يجعلوا أنفسَهم هم السُّلطان على السُّلطةِ، هذا غلطٌ وَسفَهٌ ممَّن يفعلُه، والإنسانُ إنَّما يريدُ أن تكونَ كلمةُ الله هي العُليا، ولن تكونَ بطريقِ العنفِ والمنابذةِ أبدًا.

إِذَنْ الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو المطاعُ، وأمرُه العالي على أمرِ الورى وأوامرِ السُّلطانِ مهما كان السُّلطانُ، لكن كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥].

القسم الثَّالث: أن يأمرَ ولاةُ الأمور بما ليس من أوامرِ الله ورسولِه عَيْنًا وليس من مناهي الله ورسولِه؛ يعني: مـمَّا يَرَوْنَ أنَّ فيه مصلحةً للنَّاسِ، لكنَّ القرآنَ والسُّنَّةَ لم ينصَّا عليه، فهل تجبُ طاعتُهم أو لا؟ الجوابُ: تجبُ طاعتُهم فيه، وطاعتُهم هذه طاعةٌ لله ورسولِه؛ لأنَّ اللهَ أمرنا بذلك، فهي طاعةٌ لله ورسولِه لكنَّها تقصرُ عن القسمِ الأوَّلِ الذي أمر اللهُ به ورسولُه عينًا، هذا تجبُ طاعتُهم، ومَنْ قال: إنَّ طاعةَ السُّلطانِ لا تجبُ إلَّا فيما أَمَرَ اللهُ به ورسولُه فقد ضَلَّ ضلالًا بعيدًا وهو نفسُه لم يُطَبِّقْ ما أَمَرَ اللهُ به ورسولُه؛ لأنَّ اللهَ أمر بطاعةِ السُّلطانِ، ولم ينهَ عن طاعةِ السُّلطانِ إِلَّا في حالٍ واحدةٍ وهي أن يأمرَ بمعصيةِ الله.

وهل نقولُ: من شرطِ امتثالِنا لأمرِ السُّلطانِ ألَّا يكونَ السُّلطانُ عاصيًا لله؟ الجوابُ: لا، ليس من شرطِه، يجبُ أن نطيعَه ولو كان عاصيًا، والسَّلفُ الصَّالحُ كانوا يطيعون السَّلاطين مع أنَّ عندهم المغنِّياتِ، وعندهم السُّكرَ، وعندهم الضَّربَ على فعلِ العباداتِ، راجعوا التَّاريخَ، راجعوا سيرَ أعلامِ النُّبلاء تجدون عن بعضِ الولاةِ على بعضِ البلدان الإسلاميَّةِ الآن شيئًا عجيبًا؛ يعني: يَقُصُّون رقبةَ مَنْ يُصَلِّي ومع ذلك يطيعونهم في حدودِ أمرِ الله، فليس من شرطِ وجوبِ طاعةِ السُّلطانِ ألَّا يعصيَ السُّلطانُ.

وأقولُ لكم: لو طبَّقنا هذه القاعدةَ، وقلنا: لا تجبُ علينا طاعةُ مَنْ تجبُ علينا طاعتُه إلَّا إذا كان هو لا يَعْصِي اللهَ لكان أولادُنا يعصوننا؛ لأنَّنا لم نَسْلَمْ من معصيةِ الله، ولقال لك ولدُك إذا قلت له: «**اخرُج للصَّلاةِ**» لقال: لستُ بخارجٍ، أنتظر الضُّيوفَ في البيتِ، قال: لا، لماذا؟ قال: لأنَّك تعصي اللهَ، يقولُ لأبيه: لأنَّك تَحْلقُ لحيتَك، كيف أطيعُك وأنت تعصي اللهَ؟! ولهذا لا شكَّ في ضلالِ مَنْ قال: إنَّ السُّلطانَ لا يُطَاعُ إلَّا إذا كان لا يَعْصِي اللهَ، نقولُ: يا رجل أنت برِّىء نفسَك من معصيةِ الله.

إذَنْ الأقسامُ ثلاثةٌ: فما أمر به السُّلطانُ ممَّا لا يكونُ معصيةً لله بعينِه فطاعتُه فيه واجبةٌ، سواءٌ رأينا نحن أنَّ المصلحةَ فيه أو لم نَرَ؛ لأنَّنا لو قِسْنَا المصلحةَ التي يراها السُّلطانُ بما نراه مصلحةً لم يَبْقَ للسُّلطانِ فائدةٌ، ولكان كُلُّ واحدٍ سلطانًا على نفسِه، أنت ترى أنَّ هذا مصلحةٌ، والثَّاني يراه ليس بمصلحةٍ، والثَّالثُ يقولُ: فيه نظرٌ، وذاك يقولُ: فيه قولان، وذاك يقولُ: فيه ثلاثةُ أقوالٍ، وآخَر يقولُ: إن كان كذا فهو مصلحةٌ، وإن كان كذا فهو مفسدةٌ، وإن لم يكن لا هذا ولا لهذا ففيه نظرٌ، ثُمَّ النَّظرُ يتولَّدُ منه النَّظراتُ، فلو قلنا في الأمورِ التي لم يأمر بها اللهُ ورسولُه ولم يَنْهَ اللهُ عنها ورسولُه، لو قلنا: إنَّك ترجعُ إلى أذواقِ كُلِّ واحدٍ منَّا فأيُّ فائدةٍ للسُّلطانِ؟! ليس له فائدةٌ، فقد يرى السُّلطانُ أنَّ هذا مصلحةٌ ويأمرُ به ويُلْزِمُ به، وأنا أرى أنَّه ليس مصلحةً؛ إذ لا يُوجَدُ حُكْمٌ في كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه يُعَيِّنُ هذه المسألةَ، فالواجبُ عليَّ أن أخضعَ للسُّلطانِ وإن كنتُ لا أرى المصلحةَ فيه؛ لأنَّ هذا ليس فيه أمرٌ ولا نهيٌ من الله ورسولِه، وإنَّما هو مجرَّدُ اجتهادٍ يرى السُّلطانُ أنَّ هذا مصلحةٌ وأرى أنَّه ليس بمصلحةٍ، فالواجب عليَّ طاعةُ السُّلطانِ، وموافقةُ الجماعةِ.

انتَبِهوا لهذه القواعد المهمَّة، لا تَضِلُّوا كما ضَلَّ بعضُ العاطفيِّين الذين عواطفُهم عواصفُ عليهم وعلى غيرِهم من أهلِ الخيرِ وعلى الأُمَّةِ كُلِّها، لنا سلفٌ مَأمورون باتِّباعِهم؛ قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التَّوبة:١٠٠]، ننظرُ طريقَ السَّلفِ، ولا ننظرُ طريقَ مَنْ نَابَذَ الولاةَ وعاكسوهم؛ لأَنَّه معصيةٌ، أو بعضُهم يقولُ: أنا لا أطيعُ السُّلطانَ إِلَّا في أمرٍ أَمَرَ اللهُ به ورسولُه، إِذَنْ ما الفائدةُ من السُّلطانِ؟! الجوابُ: لا فائدةَ منه.

فهذه قواعدُ عامَّةٌ أرجو أن تبنوا منهجَكم عليها، وهي أمانةٌ عليَّ أتركُها بينكم، نحن لا نُراعي أحَدًا في دِين الله أبَدًا مهما كان، لكن يجبُ علينا أن نُوجِّهَ الأُمَّةَ إلى صوابِ المنهجِ والمَسْلكِ، ماذا فَعَلَت الأُمَّةُ الآن في الوقتِ الحاضرِ حيث خرج مَنْ خرج عن جادَّةِ السَّلفِ ماذا حَصَلَ؟ إراقةُ دماءٍ، وانتهاكُ أعراضٍ، وتعطُّلُ مصالحٍ، كُلُّه بسبب فَهْمِ النُّصوصِ على غيرِ مرادِ الله ورسولِه، وبسببِ الغفلةِ عن طريقِ السَّلفِ الصَّالحِ.

٤٠٠١- وَهُـوَ الـمُقَدَّمُ فِي مَحَبَّتِنَـا عَـلَى الـ ـــأَهْلِينَ وَالأَزْوَاجِ وَالوِلْـدَانِ

نعم؛ يجبُ أن نُقَدِّمَ محبَّةَ الرَّسولِ ﷺ على محبَّةِ أهلينا وأزواجِنا وأولادِنا، بل «**وَعَلَى العِبَادِ جَمِيعِهِمْ**»؛ ولذا قال:

٤٠٠٢- وَعَلَى العِبَادِ جَمِيعِهِمْ حَتَّى عَلَى النْـ ـنَفْسِ الَّتِي قَـدْ ضَـمَّهَا الـجُنْبَانِ

نُقَدِّمُ محبَّتَه على أنفسِنا، وعلامةُ ذلك أَنَّك تتصوَّرُ لو تَعَارَضَ قولُه وقولُ زوجتِك تُقَدِّمُ قولَه، ولو تَعَارَضَ قولُه وقولُ أبيك تُقَدِّمُ قولَ الرَّسولِ، ولو تَعَارَضَ قولُه وما تهواه نفسُك؟ تُقَدِّمُ قولَه، إِذَنْ تقديمُ قولِه ﷺ من علامةِ المحبَّةِ.

المهمُّ أنَّه يجبُ علينا أمور:

أوَّلًا: أن نُقَدِّمَ محبَّةَ الله على محبَّةِ كُلِّ أحدٍ.

ثانيًا: أن نُقَدِّمَ محبَّةَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- على محبَّةِ كُلِّ مخلوقٍ حتَّى على أنفسِنا، ولا يتمُّ الإيمانُ إلَّا بهذا كما قال النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1]، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنَا وَإِيَّاكُمْ مَحَبَّةَ الله وَرَسُولِهِ.

٤٠٠٣- وَنَظِيرُ هَذَا قَـوْلُ أَعْـدَاءِ الـمَسِيـ ـحِ مِنَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ

قَوْلُهُ: «وَنَظِيرُ هَذَا»؛ يعني: نظيرُ قولِ أهلِ التَّعطيلِ لنا أنَّكم مُتنقِّصون لله نظيرُه: «قَوْلُ أَعْدَاءِ المَسِيحِ مِنَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ».

قَوْلُهُ: «قَوْلُ أَعْدَاءِ المَسِيحِ» كيف أعداؤه؟ أعداؤه يُقَدِّسُونه، يقولون: إنَّه إلهٌ، إنَّه ابنُ الله، فتلك هي العداوةُ، إِذَنْ أولياءُ المسيحِ هم المسلمون، فهم أولياؤه الذين نزَّلوه منزلتَه التي يرضاها هو بنفسِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أمَّا النَّصارى فهم أعداءُ المسيحِ، لو أنَّ المسيحَ خَرَجَ لقاتلَهم؛ ولهذا إذا نزل في آخرِ الزَّمانِ فإنَّه «يَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الجِزْيَةَ»[2]، وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الإِسْلَامَ فقط؛ لأنَّ النَّصارى أعداءٌ له.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم (١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد، رقم (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢١٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٥).

٤٠٠٤- إِنَّـا تَنَقَّصْـنَا الـمَسِيحَ بِقَوْلِنَـا عَبْـدٌ وَذَلِـكَ غَايَـةُ النُّقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّا تَنَقَّصْنَا المَسِيحَ بِقَوْلِنَا عَبْدٌ» هم يقولون: أنتم أيُّها المسلمون تنقَّصتم المسيحَ، قلتم: إنَّه عبدٌ ورسولٌ، وهو حقيقة إلهٌ وربٌّ، فأنتم تنقَّصتموه.

قَوْلُهُ: «وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ» الظَّاهرُ أنَّه من تتمَّةِ كلامِ النَّصارى؛ يعني: حيث جعلتموه عبدًا، فهذا نقصانٌ له.

يقول المسيحيُّون الذين هم أعداءُ المسيحِ حقيقةً، إنَّنا تنقَّصنا المسيحَ؛ لأنَّنا قلنا: إنَّه عبدٌ، وهذا نقصانٌ عظيمٌ عندهم، وَوَصَفَهُم بأعداءِ المسيحِ ونحن نشهدُ باللهِ أنَّهم أعداءُ المسيحِ، وأنَّ المسيحَ بَرِيءٌ منهم براءةَ الذِّئبِ من دمِ يوسفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّه متبرِّئٌ منهم في الدُّنيا والآخرةِ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ في الآخرةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧]، فهم أعداؤه، وهم الذين كَذَّبوا المسيحَ، فقد قال لهم المسيحُ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الصَّف:٦]، وهذا تصديقٌ لرسولٍ سابقٍ وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف:٦]، وهذا تبشيرٌ برسولِ اللهِ، ولكنَّهم كذَّبوه، قالوا: أبدًا، محمَّدٌ هذا رسولٌ للعربِ، وليس رسولًا إلى النَّاسِ، واسمُه عندنا أحمدُ، وعند العربِ محمَّدٌ.

ولكن نقولُ لهم: إنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الصَّف:٦]، فأنتم إنْ صدَّقتم أنَّ اسمَه محمَّدٌ لورودِه في القرآنِ فَصَدِّقوا أنَّه جاءكم بالبيِّناتِ لورودِ ذلك

في القرآنِ، فالقرآنُ صريحٌ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ [الصَّف:٦]؛ أي: هذا الرَّسولُ الذي بَشَّرَ به عيسى، وسمَّاه أحمد، لـمَّا جاءهم بالبيِّنات ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فهم مُكَذِّبون إمَّا باحتمالِ هذا أو باحتمالِ هذا، إن قالوا: «المبعوثُ محمَّدٌ» قلنا: من أين جعلتموه كاذبًا، قالوا: إنَّه عندنا أحمد، قلنا: إذا صَدَّقتم أنَّ اسمَه أحمد وأقررتم به فأقرُّوا بقولِهِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصَّف:٦]؛ ولهذا نحن نَشْهَدُ ونُشْهِدُ اللهَ وملائكتَه أنَّ الذين يُسمُّون أنفسَهم المسيحيِّين الآن هم أبعدُ النَّاسِ عن المسيحِ ومن أكفرِ النَّاسِ به، رَدُّوا بشارتَه وكذَّبوه، وقاتلوا مَنْ يُصَدِّقُ به ويؤمنُ به وهم المسلمون، وكان اسمُهم قبل الثَّورةِ الصِّناعيَّةِ في أوروبا كان اسمُهم النَّصارى، فكانوا معروفين باسمِ النَّصارى في القرآنِ وفي السُّنَّةِ وفي كلامِ السَّلفِ، لكن لـمَّا استعمروا المسلمين قالوا: نريدُ أن تكونَ نسبتُنا إلى نَبِيٍّ وهو المسيح فتسمَّوا بالمسيحيِّين؛ ولذلك ينبغي أن نُسمِّيَهم بالاسمِ الحقيقيِّ لهم وهو النَّصارى؛ لأنَّ تسميتَنا إيَّاهم بالمسيحيِّين إقرارٌ لهم بأنَّهم على دِينِ المسيحِ، ومَعاذَ الله أن يكونَ المسيحُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يدعوهم إلى أنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، أو إلى أنَّه ابنُ الله، أو ما أشبه ذلك.

فيقول رحمه الله: إنَّ هؤلاء الذين يُنكرون علينا ألَّا نغلُوَا في الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُشْبِهُون المسيحيِّين، بل يُشْبهون النَّصارى؛ لأنَّه قال: «**النَّصارى**» الذين قالوا: إنَّنا -نحن المسلمين- نبغضُ المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ؛ لأنَّنا وصفناه بأنَّه عبدٌ.

٤٠٠٥- لَوْ قُلْتُمْ وَلَدٌ إِلَهٌ خَالِقٌ وَفَّيْتُمُوهُ حَقَّهُ بِوِزَانِ

يعني: قالوا لنا: لو قُلتم: إنَّ عيسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ولدٌ لله، وهو في الوقتِ نفسِه إلهٌ خالقٌ لوفَّيتموه حقَّه بِوِزَانٍ.

وهم كذبوا، والله ما صدقوا، لو قلنا: إنَّه عبدٌ ورسولٌ حينئذٍ وفَّيناه حقَّه، أمَّا لو قلنا: إنَّه إلهٌ وولدٌ وخالقٌ فإنَّنا لم نُوفِّه حَقَّه، بل أعطيناه ما لا يستحقُّ، ولكنَّنا نعلمُ علمَ اليقينِ أنَّ عيسى -عليه السَّلامُ- لا يقولُ أبدًا: هذا حقِّي؛ ولهذا يقولُ لله يومَ القيامة: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦]، وصَدَقَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فلا أحدَ من الخلقِ يستحقُّ أن يُعْبَدَ من دونِ الله.

٤٠٠٦- وَكَذَاكَ أَشْبَاهُ النَّصَارَى مُذْ غَلَوْا فِي دِينِهِمْ بِالجَهْلِ وَالطُّغْيَانِ

قَوْلُهُ: «مُذْ غَلَوْا»، وفي نسخةٍ: **«قَدْ غَلَوْا»**.

٤٠٠٧- صَارُوا مُعَادِينَ الرَّسُولَ وَدِينَنَا فِي صُورَةِ الأَحْبَابِ وَالإِخْوَانِ

يعني: أنَّ هؤلاء الذين يعادوننا يعادون الرَّسولَ ويعادون دينَه يدَّعون أنَّهم أحبابُ الرَّسولِ وأنَّهم إخوانُ الرَّسولِ وأنَّهم أنزلوه منزلتَه، وهم يَدْعُون الرَّسولَ ﷺ، ويقولون: إنَّه يعلمُ الغيبَ، ويُجيبُ الدَّعوةَ، وما أشبهَ ذلك ممَّا قالوه في الرَّسولِ، وأخبثُ من ذلك الرَّافضةُ الذين يَدْعُون عليَّ بن أبي طالبٍ عند الشَّدائدِ، وعند الرَّخاءِ يَدْعُون اللهَ عزَّ وجلَّ، فيعدُّون عليًّا للشَّدائدِ وربَّ عليٍّ للرَّخاء، ثُمَّ إذا أنكرنا عليهم وقلنا: إنَّ عليَّ بن أبي طالبٍ بشرٌ كغيرِه من البشرِ ولو كان ربًّا يُدْعَى لمنع نفسَه من الخارجيِّ الذي قتله، قالوا: أنتم تُبْغِضونَ عليًّا ولا تحبُّونه.

فسبحان الله! الذي يسيرُ خلفَ عليِّ بن أبي طالبٍ امتثالًا لأمرِ الرَّسولِ ﷺ: **«عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ»**[1] هو المُبْغِضُ له، والذي يأتي بما يُنكرُه

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه: المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢).

عليٌّ يكونُ هو المحبَّ له.

فابنُ القيِّم -رحمه الله- يقول: «**صَارُوا مُعَادِينَ الرَّسُولَ وَدِينَنَا فِي صُورَةِ الأَحْبَابِ وَالإِخْوَانِ**» الأحبابُ لمن؟ للرَّسولِ ومَنْ يُغْلون فيهم، نقولُ: نحن الذين نحبُّه أمَّا أنتم فلا تحبُّونه.

٤٠٠٨- فَــانْظُرْ إِلَى تَبْــدِيلِهِمْ تَوْحِيــدَهُ　　　بِالشِّــرْكِ وَالإِيــمَانِ بِــالكُفْرَانِ

انظُر أيُّها العاقلُ إلى تبديلِ هؤلاء المُشْبِهين للنَّصارى توحيدَ الله بالشِّركِ وتبديلِهم الإيمانَ بالكفرانِ.

٤٠٠٩- وَانْظُــرْ إِلَى تَجْرِيــدِهِ التَّوْحِيــدَ مِــنْ　　　أَسْــبَابِ كُــلِّ الشِّــرْكِ بِــالرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**وَانْظُرْ إِلَى تَجْرِيدِهِ التَّوْحِيدَ**»؛ أي: تجريدِ الرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

يعني: جَرَّدَ التَّوحيدَ من أسبابِ كُلِّ الشِّركِ بالرَّحمنِ، حتَّى إنَّ رجلًا قال له: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فقال: «**أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا**»[1]، ويُرْوَى أنَّ رجلًا جاءه وقال: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ وَبِكَ عَلَى الله، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سُبْحَانَ الله! سُبْحَانَ الله! سُبْحَانَ الله!**» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ؛ لأنَّه قال: «**نَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ**»، فجعل اللهَ شفيعًا إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ لَا يُسْتَشْفَعُ بِالله عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ الله أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ**»[2]، بل يُسْتَشْفَعُ بالخلقِ على الله إذا كان يوم القيامةِ.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٧٤، رقم ٧٨٣)، والطبراني (١٢/ ٢٤٤، رقم ١٣٠٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب ي الجهمية، رقم (٤٧٢٦).

٤٠١٠- وَاجْمَــعْ مَقَــالَتَهُمْ وَمَــا قَــدْ قَالَــهُ وَاسْـــتَدْعِ بِالنُّقَّـــادِ وَالــــوُزَّانِ

قَوْلُهُ: «وَاجْمَعْ مَقَالَتَهُمْ»؛ أي: مقالة أشباهِ النَّصارى.

قَوْلُهُ: «وَمَا قَدْ قَالَهُ»؛ يعني: الرَّسولَ.

قَوْلُهُ: «وَاسْتَدْعِ بِالنَّقَّادِ وَالوَزَّانِ» صيغةُ مبالغةٍ للمفردِ الواحِدِ، أو «بالنُّقَّادِ وَالوُزَّانِ» جمع «ناقد» و «وازن».

فهو يَرُدُّ على الذين يغلون في الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، يقولُ: اجمعهما جميعًا.

٤٠١١- عَقْــلٍ وَفِطْرَتِــكَ السَّــلِيَمةِ ثُــمَّ زِنْ هَـــذَا وَذَا لَا تَطْـــغَ فِي المِيـــزَانِ

قَوْلُهُ: «عَقْلٍ وَفِطْرَتِكَ السَّلِيمَةِ» اعرِضْ قولَ هؤلاءِ وقولَ الرَّسولِ على العقلِ والفطرةِ السَّليمةِ، وانظر ماذا يحكمُ به العقلُ والفطرةُ.

قَوْلُهُ: «ثُمَّ زِنْ هَذَا وَذَا»؛ يعني: زِنْ أقوالَــهم وأقوالَ الرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قَوْلُهُ: «وَلَا تَطْغَ فِي المِيزَانِ»؛ يعني: زِنْ زِنَةَ عَدْلٍ.

٤٠١٢- فَهُنَــاكَ تَعْلَــمُ أَيُّ حِزْبَيْنَــا هُــوَ الــ مُتَــنَقِّصُ المَنْقُــوصُ ذُو العُــدْوَانِ

وما الذي يُؤدِّيه علمُنا إليه؟ أنَّهم هم أصحابُ التَّنقُّصِ وهم المنقوصون، أمَّا نحن الذين عرفنا لربِّنا حقَّه، ولنبيِّنا حقَّه، فنحن الذين أعطيناه ما يستحقُّ، وأعطينا الرَّبَّ عزَّ وجلَّ ما يستحِقُّ، ولم نكن بنعمةِ الله منقوصين، بل نحن الذين على أتمِّ الطُّرقِ.

٤٠١٣- رَامِـي الـبَرِيءِ بِدَائِـهِ وَمُصَـابِهِ ... فِعْـلُ الـمُبَاهِتِ أَوْقَـحِ الحَيَـوَانِ

يعني: أنَّ هؤلاء رَمَوْا البُرَآءَ بدائِهم ومُصابِهم، رَمَوْنَا بأنَّنا نتنقَّصُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أو نتنقَّصُ اللهَ، والحقيقةُ أنَّهم هم الذين سلكوا هذا المسلكَ، فَرَمَوْنَا بالدَّاءِ والمُصَابِ على حدِّ قولِ المَثَل: «**رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ**»[1].

٤٠١٤- كَمُعَـيِّرٍ لِلنَّـاسِ بِالزَّغَـلِ الَّـذِي ... هُوَ ضَرْبُـهُ فَاعْجَـبْ لِـذَا البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «**كَمُعَيِّرٍ النَّاسِ بِالزَّغَلِ الَّذِي هُوَ ضَرْبُهُ**»؛ يعني: يُعَيِّرُ النَّاسَ بالزَّغَلِ وهو الذي ضَرْبُهُ، والزَّغَلُ هو الغِشُّ في الذَّهبِ أو في الفضَّةِ، يُعَيِّرُ النَّاسَ، يقولُ: فلانٌ -واللهِ- لا يخافُ اللهَ؛ يتعاملُ بالزَّغَلِ، وهذا غريبٌ؛ إذ هو الذي يضربُ السِّكَّةَ ويجعلُ فيها الغشَّ، ثُمَّ يَعيبُ الذين يتعاملون به.

قَوْلُهُ: «**فَاعْجَبْ لِذَا البُهْتَانِ**» صحيحٌ، هذا من أعجبِ ما يكون.

ثُمَّ اتَّجه -الآن- لـهؤلاء الذين رَمَوْا أهلَ الحقِّ بالتَّنقُّصِ والتَّنقيصِ فقال:

٤٠١٥- يَا فِرْقَةَ التَّنْقِيصِ بَـلْ يَـا أُمَّـةَ الـدْ ... دَعْـوَى بِـلا عِلْـمٍ وَلَا عِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «**يَا فِرْقَةَ التَّنْقِيصِ**»؛ أي: حسَب مَسلكِهم ومَنهجِهم.

قَوْلُهُ: «**أُمَّةَ الدَّعْوَى**» حسب ما رَمَوْنا به من أنَّنا متنقِّصون لله ولرسولِه.

وَقَوْلُهُ: «**يَا فِرْقَةَ التَّنْقِيصِ بَلْ يَا أُمَّةَ الدَّعْوَى**» «**بل**» هنا للإضرابِ، ولكنَّها ليست لإضرابِ الإبطالِ، بل لإضراب الانتقالِ ليَصِحَّ الوصفُ الأوَّلُ والثَّاني لهم، فهم مُتنقِّصون للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهم أُمَّةُ الدعوى الباطلة التي ليس فيها علمٌ ولا عرفانٌ.

---

(١) انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٨٦).

٤٠١٦- وَاللهِ مَـا قَـدَّمْتُمُ يَوْمًـا مَقَـا   لَتَـهُ عَـلَى التَّقْلِيـدِ لِلإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «مَقَالَتَهُ»؛ أي: مقالة الرَّسولِ، بل مقالة الله ورسولِه.

ما قَدَّمتموها على التَّقليدِ، إذا قال شيوخُكم قولًا وقال الرَّسولُ قولًا قَدَّمتم قولَ الشُّيوخِ؛ ولهذا قال:

٤٠١٧- وَاللهِ مَـا قَـالَ الشُّـيُوخُ وَقَـالَ إِلْـ   ـلَا كُنْـتُمُ مَعَهُـمْ بِـلا كِـتْمَانِ

يعني: والله ما قال الشُّيوخُ قولًا وقال النَّبيُّ ﷺ قولًا إلَّا كنتم معهم؛ أي: مع الشُّيوخِ، تُقَدِّمونَ قولَـهم على قولِ الرَّسولِ -عليه الصلاة والسلام-.

٤٠١٨- وَاللهِ أَغْـلاطُ الشُّـيُوخِ لَـدَيْكُمُ   أَوْلَى مِـنَ المَعْصُـومِ بِالبُرْهَـانِ

وهذا نقولُه نحن؛ يعني: أنَّ أقوالَ الشُّيوخِ -وإن كانت غلطًا- أولى عندكم من أقوالِ المعصومِ بالقرآنِ وهو النَّبيُّ ﷺ، هذا على نسخةٍ، والنَّسخة الثَّانية:

وَاللهِ أَغْـلَاطُ الشُّـيوخِ لَـدَيْكُمُ   عَيْنُ الصَّـوَابِ وَمُقْتَضَـى البُرْهَـانِ

يعني: أَنَّكم تَرَوْنَ أنَّ أغلاطَ الشُّيوخِ صوابٌ، وأَيُّهما أشدُّ: أن يجعلوا أغلاطَ الشُّيوخِ أَوْلَى من قولِ المعصومِ أو أن يجعلوا أغلاطَ الشُّيوخِ صوابًا؟ الجوابُ: الأَوَّلُ أشدُّ، وهذا -والعياذُ بالله- من تلبيسِ الحقِّ، وقوله: «**مُقْتَضَى البُرْهَانِ**»؛ أي: مقتضى الدَّليلِ.

وهذا في الحقيقةِ من عَمى البصيرةِ والعِياذُ بالله، الذي يظنُّ الغلطَ صَوابًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، وكُلُّ إنسانٍ لا يريدُ الحقَّ فالغالبُ أن يُعْمَى عنه وألَّا يُوَفَّقَ له لقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

فعليك يا عبدَ الله بقصدِ الحقِّ حتَّى تُوَفَّقَ له، لا يكن همَّك أن تنصرَ ما قلتَ، اجعل همَّك أن تنصرَ الحقَّ، إن كُنْتَ قُلْتَهُ تظنُّ أنَّه الحقُّ فتبيَّن لك أنَّه غيرُ الحقِّ فاعدل عنه، وإن كنتَ قُلْتَهَ تظنُّ أنَّه الحقُّ ولا يزالُ عندكَ هو الحقُّ فاستمسِكْ به، ولا تخالفْه لقولِ أحدٍ، واعلم أنَّك إذا قَصَدْتَ الحقَّ وُفِّقْتَ له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

* * *

٤٠١٩- وَكَذَا قَضَيْتُمْ بِالَّذِي حَكَمَتْ بِهِ ... جَهْلًا عَلَى الأَخْبَارِ وَالقُرْآنِ

٤٠٢٠- وَاللهِ إِنَّهُمُ لَدَيْكُمْ مِثْلُ مَعْـ ... ـصُومٍ وَهَذَا غَايَةُ الطُّغْيَانِ

٤٠٢١- تَبًّا لَكُمْ مَاذَا التَّنَقُّصُ بَعْدَ ذَا ... لَوْ تَعْرِفُونَ العَدْلَ مِنْ نُقْصَانِ

٤٠٢٢- وَاللهِ مَا يُرْضِيهِ جَعْلُكُمُ لَهُ ... تُرْسًا لِشِرْكِكُمُ وَلِلعُدْوَانِ

٤٠٢٣- وَكَذَاكَ جَعْلُكُمُ المَشَايِخَ جُنَّةً ... بِخِلافِهِ وَالقَصْدُ ذُو تِبْيَانِ

٤٠٢٤- وَاللهُ يَشْهَدُ ذَا بِجَذْرِ قُلُوبِكُمْ ... وَكَذَاكَ يَشْهَدُهُ أُولُو الإِيمَانِ

٤٠٢٥- وَاللهِ مَا عَظَّمْتُمُوهُ طَاعَةً ... وَمَحَبَّةً يَا فِرْقَةَ العِصْيَانِ

٤٠٢٦- أَنَّى وَجَهْلُكُمُ بِهِ وَبِدِينِهِ ... وَخِلافُكُمْ لِلوَحْيِ مَعْلُومَانِ

٤٠٢٧- أَوْصَاكُمُ أَشْيَاخُكُمْ بِخِلافِهِمْ ... لِوِفَاقِهِ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

٤٠٢٨- خَالَفْتُمُ قَوْلَ الشُّيُوخِ وَقَوْلَهُ ... فَغَدَا لَكُمْ خُلْفَانِ مُتَّفِقَانِ

٤٠٢٩- وَاللهُ أَمْرُكُمُ عَجِيبٌ مُعْجِبٌ ... ضِدَّانِ فِيكُمْ لَيْسَ يَتَّفِقَانِ

٤٠٣٠- تَقْـدِيمُ آرَاءِ الرِّجَـالِ عَلَيْـهِ مَـعْ هَـذَا الغُلُـوِّ فَكَيْـفَ يَجْتَمِعَـانِ

الشَّـرحُ

٤٠١٩- وَكَذَا قَضَيْتُمْ بِالَّـذِي حَكَمَـتْ بِـهِ جَهْـلًا عَـلَى الأَخْبَـارِ وَالقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا»، وفي نسخةٍ: «وَلِذَا».

قَوْلُهُ: «وَكَذَا قَضَيْتُمْ بِالَّذِي حَكَمَتْ بِهِ» الفاعلُ الأشياخُ.

يعني: قَضَيْتُم بما حَكَمَ به الأشياخُ على الأخبارِ والقرآنِ، فما حَكَمَتْ به الأشياخُ على الأخبارِ والقرآنِ قضيتم به وإن كان ذلك جهلًا إمَّا منكم أو من الشُّيوخِ؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ يحكمُ على القرآنِ بما يخالفُ القرآنَ فهو جاهلٌ، فصار المخصومُ عندهم الأخبارَ والقرآنَ، والخاصمُ هم الشُّيوخ.

٤٠٢٠- وَاللهِ إِنَّهُـمْ لَـدَيْكُمْ مِثْـلُ مَعْـ ـصُومٍ وَهَـذَا غَايَـةُ الطُّغْيَـانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّهُمْ» الضَّميرُ يعودُ على الأشياخِ.

قَوْلُهُ: «مِثْلُ مَعْصُومٍ»؛ أي: مثل الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل هو على كلامِ المؤلِّفِ، هم أعلى من المعصومِ، يُقَدِّمونَ أقوالَهم على قولِه.

٤٠٢١- تَبًّـا لَكُـمْ مَـاذَا التَّـنَقُّصُ بَعْـدَ ذَا لَـوْ تَعْرِفُـونَ العَـدْلَ مِـنْ نُقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «تَبًّا»؛ أي: خسارةً لكم.

قَوْلُهُ: «مَاذَا التَّنَقُّصُ بَعْدَ ذَا»؛ أي: هل يمكنُ أن يُوجَدَ تنقُّصٌ وراء ذلك أن تُقَدِّموا قولَ أشياخِكم على قولِ الرَّسولِ؟ الجوابُ: أبدًا، هذا غايةُ التَّنقيصِ للرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٢٢- وَاللهِ مَا يُرْضِيهِ جَعْلُكُمُ لَهُ تُرْسًا لِشِرْكِكُمْ وَلِلعُدْوَانِ

ما يُرضِي الرَّسولَ أن تجعلوه تُرْسًا لكم، فتقولوا: نحن أحبابُه، وهو حبيبُنا، وهو قدوتُنا، وهو إمامُنا، وأنتم تشركون به بالغلوِّ ودعائِه والاستغاثةِ به، فهؤلاء جمعوا بين الشِّركِ بالرَّسولِ وبين تنقُّصِ أقوالِه.

٤٠٢٣- وَكَذَاكَ جَعْلُكُمُ المَشَايِخَ جُنَّةً بِخِلافِهِ وَالقَصْدُ ذُو تِبْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ جَعْلُكُمُ المَشَايِخَ جُنَّةً بِخَلَافِهِ» يجعلون المشايخَ جُنَّةً؛ أي: وقايةً أمامَ النَّاسِ، إذا قيل لهم: القرآنُ والسُّنَّة يقولان: كذا وكذا، قالوا: لكنَّ هذا قاله الشَّيخُ الفلانيُّ، يجعلونهم جُنَّةً.

قَوْلُهُ: «بِخِلَافِهِ»؛ أي: بمخالفة الرَّسولِ، وفي نسخةٍ: «لِخِلَافِهِ»؛ أي: لاختلافٍ معه أو بخلافه، والظَّاهرُ أنَّه يصحُّ الوجهان.

قَوْلُهُ: «وَالقَصْدُ ذُو تِبْيَانِ» القصدُ: تقديمُ آراءِ الشُّيوخِ على قولِ الرَّسولِ.

٤٠٢٤- وَاللهُ يَشْهَدُ ذَا بِجَذْرِ قُلُوبِكُمْ وَكَذَاكَ يَشْهَدُهُ أُولُو الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «بِجَذْرِ قُلُوبِكُمْ»؛ أي: بأصلِها.

يعني: أنَّ اللهَ يشهدُ بقصدِكم ويعلمُه، يشهدُ بها في قلوبِكم بها في أصلِها.

٤٠٢٥- وَاللهِ مَا عَظَّمْتُمُوهُ طَاعَةً وَمَحَبَّةً يَا فِرْقَةَ العِصْيَانِ

وإنَّما عظَّموه مُداهنةً وتَتَرُّسًا بهذا التَّعظيمِ أمام العامَّةِ، فهم يُعظِّمونه من وجهٍ لكنَّه تعظيمٌ لا يرضاه وذلك بالغلوِّ، ويتنقَّصونه من وجهٍ وذلك بتقديمِ كلامِ الشُّيوخِ على كلامِه.

٤٠٢٦- أَنَّــى وَجَهْلُكُــمُ بِــهِ وَبِدِينِــهِ وَخِلافُكُــمْ لِلْــوَحْيِ مَعْلُومَــانِ

يعني: كيف تكونـون مُعظِّمين له وأنتم تـجهلون به وبدينِه وتـخالفون الوحيَ؟!

٤٠٢٧- أَوْصَــاكُمُ أَشْـيَاخُكُمْ بِخِلافِهِــمْ لِوِفَاقِــهِ فِي سَــالِفِ الأَزْمَــانِ

المرادُ «بأشياخِهم» هنا الأئمَّةُ، أَوْصَوْهُم بخلافِهم لوفاقِه؛ أي: بمخالفتِهم لوفاقِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

يعني: إذا خالَفْنا الرَّسولَ فخُذوا بما يُوافِقُ الرَّسولَ، وهو يعني بذلك أئمَّةَ الهدى، فالشَّافعيُّ -رحمه الله- يقولُ: «إذا رَأَيْتُم قولي يخالفُ قولَ الرَّسولِ فخذوا بقولِ الرَّسولِ واضربوا بقولي عُرْضَ الحائطِ»[1]، ومالكٌ يقولُ: «كُلٌّ يُؤْخَذُ من قولِه ويُتْرَكُ إلَّا صاحبَ هذا القبرِ»[2]؛ يعني: الرَّسولَ ﷺ، والإمامُ أحمدُ كذلك له في هذا كلامٌ كثيرٌ حتَّى إنَّه يُحَذِّرُ عن تقليدِ الرِّجالِ، وأبو حنيفةَ كذلك.

٤٠٢٨- خَــالَفْتُمُ قَــوْلَ الشُّـيُوخِ وَقَوْلَــهُ فَغَــدَا لَكُــمْ خُلْفَــانِ مُتَّفِقَــانِ

قَوْلُهُ: «خَالَفْتُمُ قَوْلَ الشُّيُوخِ وَقَوْلَهُ»؛ يعني: لم تأخذوا بوصيَّتِه، فَقَدَّمتم قولَ الشُّيوخِ على قولِه وخالفتم قولَه.

قَوْلُهُ: «فَغَـدَا لَكُـمْ خُلْفَانِ مُتَّفِقَانِ» ما هما؟ مخالفةُ الأشياخِ الذين أَوْصَوْا باتِّباعِ الـرَّسولِ وطرحِ أقوالِـهم، ومخالفةِ الـرَّسولِ حيث خالفـوا قولَـه لقولِ أشياخِهم.

(١) انظر: معارج القبول (٣/ ١٢٣٩).
(٢) انظر: جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، للألوسي (ص:٩٣).

٤٠٢٩- وَاللهُ أَمْـرُكُمُ عَجِيـبٌ مُعْجِـبٌ ضِـدَّانِ فِـيكُمْ لَـيْسَ يَتَّفِقَـانِ

صدَق رحمه اللهُ، فأمرُهم عجيبٌ، يُقَدِّمون قولَ الشُّيوخِ وهم ينهونهم عن تقديمِ قولِهم، هذا عجيبٌ «مُعْجِبٌ»؛ يعني: أنَّه يُعْجِبُ الإنسانَ، فهو بنفسِه عجيبٌ وهو أيضًا مُعْجِبٌ، كُلُّ مَنْ عَلِمَ به يتعجَّبُ منه.

٤٠٣٠- تَقْـدِيمُ آرَاءِ الرِّجَـالِ عَلَيْـهِ مَـعْ هَـذَا الغُلُـوِّ فَكَيْـفَ يَجْتَمِعَـانِ

يقولُ: تُقَدِّمون آراءَ الرِّجالِ على قولِه، وتغلُون فيه غُلوًّا جائرًا خارجًا عن العدلِ، كيف يتَّفقان؟! كيف تغلُون فيه هذا الغلوَّ حتَّى تجعلوه إلهًا تدعونه إلى أن تعبدوه وربًّا تدعونه يُغيثكم عند الشَّدائدِ ويُنْقذُكم من المَهَالِكِ؟! وكيف تُقَدِّمون قولَ غيرِه على قولِه؟! هذا عجيبٌ؛ إذ لو كانت محبَّتُهم صادقةً وغلوُّهم صحيحًا لم يُقَدِّموا على قولِه قولَ أحدٍ من النَّاسِ.

* * *

٤٠٣١- كَفَّرْتُمُ مَـنْ جَـرَّدَ التَّوْحِيـدَ جَهْـ ـلًا مِـنْكُمُ بِحَقَـائِقِ الإِيـمَانِ

٤٠٣٢- لَكِنْ تَـجَرَّدْتُمْ لِنَصْرِ الشِّرْكِ وَالْـ ـبِدَعِ المُضِلَّةِ فِي رِضَا الشَّيْطَانِ

٤٠٣٣- وَاللهِ لَـمْ نَقْصِدْ سِوَى التَّجْرِيـدِ لِلتَّـ ـوْحِيدِ ذَاكَ وَصِـيَّةُ الـرَّحْمَنِ

٤٠٣٤- وَرِضَـا رَسُـولِ اللهِ مِنَّـا لَا غُلُـوْ وَ الشِّـرْكِ أَصْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَـانِ

٤٠٣٥- وَاللهِ لَـوْ يَـرْضَى الرَّسُـولُ دُعَاءَنَـا إِيَّـاهُ بَادَرْنَـا إِلَى الإِذْعَـانِ

٤٠٣٦- وَاللهِ لَوْ يَرْضَى الرَّسُـولُ سُجُودَنَا كُنَّـا نَخِـرُّ لَـهُ عَـلَى الأَذْقَـانِ

٤٠٣٧- وَاللهِ مَـا يُرْضِـيهِ مِنَّـا غَـيْرُ إِخْـ ـلاصٍ وَتَحْكِـيمٍ لِـذَا القُـرْآنِ

٤٠٣٨- وَلَقَدْ نَهَى ذَا الخَلْقَ عَنْ إِطْرَائِهِ ... فِعْلَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ

٤٠٣٩- وَلَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَصَيِّرَ قَبْرَهُ ... عِيدًا حَذَارِ الشِّرْكَ بِالرَّحْمَنِ

٤٠٤٠- وَدَعَا بِأَلَّا يُجْعَلَ القَبْرُ الَّذِي ... قَدْ ضَمَّهُ وَثَنًا مِنَ الأَوْثَانِ

٤٠٤١- فَأَجَابَ رَبُّ العَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الجُدْرَانِ

٤٠٤٢- حَتَّى اغْتَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ ... فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

٤٠٤٣- وَلَقَدْ غَدَا عِنْدَ الوَفَاةِ مُصَرِّحًا ... بِاللَّعْنِ يَصْرُخُ فِيهِمُ بِأَذَانِ

٤٠٤٤- وَعَنَى الأُلَى جَعَلُوا القُبُورَ مَسَاجِدًا ... وَهُمُ اليَهُودُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

٤٠٤٥- وَاللهِ لَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ ... لَكِنَّهُمْ حَجَبُوهُ بِالحِيطَانِ

٤٠٤٦- قَصَدُوا إِلَى تَسْنِيمِ حُجْرَتِهِ لِيَمْـ ... ـتَنِعَ السُّجُودُ لَهُ عَلَى الأَذْقَانِ

٤٠٤٧- قَصَدُوا مُوَافَقَةَ الرَّسُولِ وَقَصْدُهُ التْـ ... ـتَجْرِيدُ لِلتَّوْحِيدِ لِلرَّحْمَنِ

٤٠٤٨- يَا فِرْقَةً جَهِلَتْ نُصُوصَ نَبِيِّهِمْ ... وَقُصُودَهُ وَحَقِيقَةَ الإِيمَانِ

٤٠٤٩- فَسَطَوْا عَلَى أَتْبَاعِهِ وَجُنُودِهِ ... بِالبَغْيِ وَالعُدْوَانِ وَالبُهْتَانِ

٤٠٥٠- لا تَعْجَلُوا وَتَبَيَّنُوا وَتَثَبَّتُوا ... فَمُصَابُكُمْ مَا فِيهِ مِنْ جُبْرَانِ

الشرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله- في هؤلاء الذين قَدَّموا آراءَ الرِّجالِ على قولِ الرَّسولِ ﷺ مع غلوِّهم فيه:

٤٠٣١- كَفَّرْتُمُ مَنْ جَرَّدَ التَّوْحِيدَ جَهْـ ـلًا مِنْكُمُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

يعني: أنَّهم كَفَّروا مَنْ جَرَّدَ التَّوحيدَ لله، وقالوا: إنَّكم إذا لم تفعلوا مِثْلَ فِعْلِنا في الرَّسولِ فأنتم كُفَّارٌ تُبغضونَ الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٣٢- لَكِنْ تَجَرَّدْتُمْ لِنَصْرِ الشِّرْكِ وَالْـ ـبِدَعِ المُضِلَّةِ فِي رِضَا الشَّيْطَانِ

كَفَّروا مَنْ جَرَّدَ التَّوحيدَ وتجرَّدوا هم لنَصْرِ الشِّركِ وصاروا دعاةً له، يَدْعُون العامَّةَ إلى دعاءِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- والاستغاثةِ به، والبدعِ المضلَّةِ، وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٍ.

٤٠٣٣- وَاللهِ لَمْ نَقْصِدْ سِوَى التَّجْرِيدِ لِلتْـ ـتَوْحِيدِ ذَاكَ وَصِيَّةُ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ لَمْ تَقْصِدْ سِوَى التَّجْرِيدِ لِلتَّوْحِيدِ» يُخْبِرُ عن نفسِه وهو صادقٌ -رحمه الله- أنَّه ما قَصَدَ إلَّا التَّجريدَ للتَّوحيدِ.

قَوْلُهُ: «ذَاكَ وَصِيَّةُ الرَّحْمَنِ» حيث قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فإنَّ معنى «قَضَى»: «وَصَّى» كما قال به كثيرٌ من المُفَسِّرين.

٤٠٣٤- وَرِضَا رَسُولِ اللهِ مِنَّا لَا غُلُوْ وَ الشِّرْكِ أَصْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ

قَوْلُهُ: «وَرِضَا رَسُولِ اللهِ»؛ يعني: لم نقصد سوى رضا رسولِ الله.

قَوْلُهُ: «لَا غُلُوَّ الشِّرْكِ»: يعني: لم نقصدْ غلوَّ الشِّركِ.

قَوْلُهُ: «أَصْلَ عِبادَةِ الأَوْثَانِ» الظَّاهر أنَّ «أَصْلَ» بالفتحِ أصحُّ؛ لأنَّ الغلوَّ هو أصلُ عبادةِ الأصنامِ كما قال الإمامُ محمَّدُ بن عبد الوهَّاب رحمه الله: «بابُ ما جاء أنَّ الغُلُوَّ فِي قُبورِ الصَّالحين يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»[1]، فالغلوُّ هو أصلُ

(١) التوحيد لابن عبد الوهاب (ص:٦٤).

الشِّركِ؛ ولهذا قال: «**لَا غُلُوَّ الشِّرْكِ أَصْلَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ**»، فالغلوُّ هو أصلُ العبادةِ، إِذَنْ الغلوُّ في الصَّالحين جعلهم أوثانًا يُعْبَدُون من دونِ الله؛ ولهذا نهى الرَّسولُ - عليه الصَّلاةُ والسَّلام- عن الغلوِّ.

٤٠٣٥- وَاللهِ لَوْ يَرْضَى الرَّسُولُ دُعَاءَنَا إِيَّاهُ بَادَرْنَا إِلَى الإِذْعَانِ

وَصَدَق رحمه اللهُ، لو قال لنا الرَّسولُ: «**ادْعُونِ**» -وحاشاه أن يقولَ ذلك- لدعَوْناه.

٤٠٣٦- وَاللهِ لَوْ يَرْضَى الرَّسُولُ سُجُودَنَا كُنَّا نَخِرُّ لَهُ عَلَى الأَذْقَانِ

نعم؛ لو قال: «**اسجدوا لي**» سَجَدْنَا على الأَذْقَانِ، لكنَّه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- نَهَى عن ذلك أشدَّ النَّهيِ، نَهَى عن أن يُدْعَى أو يُسْجَدَ له.

٤٠٣٧- وَاللهِ مَا يُرْضِيهِ مِنَّا غَيْرُ إِخْـ ـلاصٍ وَتَحْكِيمٍ لِـذَا القُرْآنِ

وهذا معلومٌ من هديِه وسُنَّتِهِ أنَّه لا يَرْضَى منَّا إلَّا الإخلاصَ لله وتحكيمَ شريعتِه.

٤٠٣٨- وَلَقَدْ نَهَى ذَا الخَلْقَ عَنْ إِطْرَائِهِ فِعْلَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ

قَوْلُهُ: «**وَلَقَدْ نَهَى ذَا الخَلْقِ عَنْ إِطْرَائِهِ**» يعني: نهى أن نُطْرِيَه، فقال: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ**»[1]؛ يعني: لا تَغْلُوا فيَّ كما غَلَت النَّصارى.

قَوْلُهُ: «**عَابِدِي الصُّلْبَانِ**»؛ يعني: أنَّ النَّصارى يعبدون الصَّليبَ، وهذا مِن سفهِهم وجهلِهم، فالصَّليبُ مصلوبٌ عليه نبيُّهم بزعمِهم، وكان مقتضى العقلِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾، رقم (٣٤٤٥).

أنَّهم إذا رَأَوُا الصَّليبَ كَسَّروه؛ لأنَّه صُلِبَ عليه نبيُّهم، فكان من العقلِ أن يسخطوا هذا الذي صُلِبَ عليه نبيُّهم وأن يكَسِّروه لكن لجهلِهم وضلالِهم وسفهِهم صاروا يُقَدِّسونه ويعبدونه والعياذُ بالله، وصَدَقَ اللهُ أنَّهم ضالُّون كما قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧].

٤٠٣٩- وَلَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَصَيِّرَ قَبْرَهُ عِيدًا حَذَارِ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَنِ

فقال ﷺ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**»(١)، لماذا؟ لأنَّنا إذا اتخذناه عيدًا تكرَّر عَوْدُنا إليه وصار ذلك سببًا للشِّرك به؛ فلهذا قال: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**».

٤٠٤٠- وَدَعَا بِأَلَّا يُجْعَلَ القَبْرُ الَّذِي قَدْ ضَمَّهُ وَثَنًا مِنَ الأَوْثَانِ

أي: دعا اللهَ فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**».

٤٠٤١- فَأَجَابَ رَبُّ العَالَمِينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الجُدْرَانِ

٤٠٤٢- حَتَّى اغْتَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

يقولُ ابنُ القيِّم: إنَّ اللهَ أَجَابَ دعاءَه وأحاط القبرَ بثلاثة جُدران، فلا أحدَ يصلُ إليه حتَّى يجعلَه وثنًا، حتَّى لو عُبِدَ القبرُ فإنَّه لا يمكنُ أن يكونَ وثنًا، لماذا؟ لأنَّه محاطٌ بثلاثةِ جدران، الحجرةُ النَّبويَّةُ «**حجرةُ الرَّسول**» -ولا أُريدُ الحجرةَ المبنيَّةَ هذه- أصلًا جُعِلَت ثلاثةَ جدران، وجُعِلَت مُثَلَّثةً، زاويتُها القائمةُ من خلف القبلةِ من أجل ألَّا يُتَّجَهَ إلى القبر اتِّجاهٌ مستقيمٌ، فالحجرةُ جُعِلَت مثلَّثةً لا مُرَبَّعةً، فالذي يستقبلُه يستدبرُ القبلةَ، لكن الذي يستقبلُ القبرَ الآن ماذا يستقبلُ؟ يستقبلُ زاويةً «**رأسَ سهمٍ**»، لا يستقبلُ جِدارًا مُرَبَّعًا أو مستقيمًا.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم (٢٠٤٢).

وهذا من حمايةِ الله عزَّ وجلَّ لقبرِ الرَّسولِ ﷺ، كما أنَّه أيضًا لا يمكنُ الوصولُ إليه الآن؛ لأنَّه قد فقد أُحْكِمَ.

وفي التَّاريخِ أنَّ رَجُلَيْن جاءَا من المشرقِ بصفةِ غَرِيبَيْنِ إلى المدينةِ يُريدان أن يَنْبُشَا قبرَ النَّبِيِّ ﷺ، فجِيء إلى الملكِ في ذلك الوقتِ، وأُرِي في المنام أنَّ رجلَيْن جاءَا إلى المدينةِ من أجل أن يَنْبُشَا قبرَ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويأْخُذا جسدَه الشَّريفَ؛ لأنَّ جسدَه الشَّريفَ لم تأكُلْه الأرضُ، فَفَزِعَ وقام بسرعةٍ، وكما هو معلومٌ في ذاك الوقتِ لا تُوجَدُ مواصلاتٌ، بل على ظهورِ الإبلِ وظهورِ السُّفنِ، المهمُّ أنَّه جاء بما معه من الجنودِ ونزل المدينةَ وصنَع موائدَ كثيرةً، وقال لأمرائِه: «**اجمعوا لي أهلَ المدينةِ كُلَّهم**»، فبدؤوا يجمعونهم، يأتون بأناسٍ ويأتون بأناسٍ وهو واقفٌ ينظر؛ لأنَّه قد أُرِيَ في المنام وَجْهَي الرَّجُلَيْن، كُلَّما جاءت طائفةٌ نظر فيها، ولكنَّه لم ير الرَّجُلَيْنِ، حتَّى قالوا له: إنَّ أهلَ المدينةِ انتهوا، كُلُّ مَنْ في المدينةِ جِئنا بهم، فقال: لا، قالوا: لا يُوجَدْ إلَّا رجلان غريبان في بيتٍ حول المسجدِ، فقال: في قرارةِ نفسِه واللهُ أعلمُ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف:٦٤]، فجِيء بهما، فإذا هما على الوصفِ الذي رآه في المنامِ، فسألهما وحَقَّقَ معهما، فإذا هما قد حفَرا خندقًا في الأرضِ من البيتِ الذي هما فيه إلى قبرِ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لكنَّهما لم يَصلاه بعدُ، على كُلِّ حالٍ أجرى اللَّازمَ عليهما، ثُمَّ أَمَرَ بأن يُذَابَ رصاصٌ عظيمٌ وصَل إلى الجبلِ أحاطه بقبرِ النَّبِيِّ ﷺ حمايةً لهذا الجسدِ الشَّريفِ، ثُمَّ بنى عليه هذه الجدرانَ الثَّلاثة.

قَوْلُهُ: «**حَتَّى اغْتَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدِعَائِهِ**»؛ أي: بسببه في عِزَّةٍ وحمايةٍ وصيانٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أحاطَه بثلاثةِ جدرانٍ مَبْنِيَّةٍ على الحجرةِ، وهذه الثَّلاثةُ مُثَلَّثَةٌ، وزاويةُ المثلَّثِ يتَّجهُ إليها مَنْ يريدُ أن يُصلِّيَ إلى القبرِ، فلا يستطيعُ أن يُصلِّيَ إلى القبرِ على وجهِ الاستواءِ؛ فلو أراد أحدٌ أن يُصَلِّيَ إليه تكونُ الزَّاويةُ الثُّلاثيَّةُ قِبَلَ وجهِه،

وحينئذٍ لا يمكنُ أن يكونَ القبرُ وثنًا، فإن قال قائلٌ: أَلَسْنَا نجدُ الآنَ مَنْ يُصَلِّي إلى القبرِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟

قلنا: إن صَحَّ هذا فإنَّه لم يكن القبرُ وثنًا، وإن اعتقد هذا المصلِّي له أنَّ ذلك وثنٌ فإنَّه ليس وثنًا، لماذا؟ لتعذُّرِ الوصولِ إلى القبرِ، وقد ذكرنا سابقًا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ يقولُ: إنَّ زيارةَ النِّساءِ لقبرِ الرَّسولِ ﷺ ليست زيارةً لقبرٍ؛ لأنَّه لا يُمْكِنُ الوصولُ إلى القبرِ؛ ولهذا لا نجزمُ بأنَّ مَنْ زارت قبرَ الرَّسولِ ﷺ من النِّساء أنَّها داخلةٌ في لعنِ زائراتِ القبورِ؛ إذ في الحقيقة بينها جدرانٌ لم تصل إلى القبرِ؛ ولهذا قال أهلُ العلم رحمهم الله: تُسَنُّ زيارةُ قبرِ النَّبِيِّ ﷺ حتَّى للنِّساءِ، هكذا صَرَّحَ فقهاءُ الحنابلة رحمهم الله، وذكر شيخُنا عبدُ الرَّحمن ابن سعدي -رحمه الله- أنَّ العِلَّةَ في ذلك أنَّ زيارةَ النِّساءِ للقبرِ ليست زيارةً حقيقيَّةً للقبرِ؛ للحيلولةِ بينهنَّ وبين الوصولِ إلى القبرِ، لكنَّنا مع ذلك نقولُ: الاحتياطُ أَلَّا تزورَ القبرَ؛ لأنَّ ذلك زيارةٌ عرفًا وليس زيارةً حقيقيَّةً شرعيَّةً، فهي زيارةٌ عرفيَّةٌ، تعارف النَّاسُ أنَّ مَنْ وَقَفَ عند القبرِ الشَّريفِ ولو مع حيلولةِ هذه الجدران فهو زائرٌ.

فالمهمُّ أنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- يقولُ: إنَّ الله أجابَ دعاءَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حين قال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[1].

ولو قال قائلٌ: إنَّه يوجد مَنْ يعبدُه قلنا: لكن القبرُ لم يكن وثنًا، فالقبرُ مستورٌ، وكونُنا نقولُ: إنَّ اللهَ أجابَ دعوتَه خيرٌ من كونِنا نقولُ: إنَّ اللهَ لم يُجِبْ دعوتَه في أمرٍ محتمِلٍ، وعدمُ إجابةِ دعوةِ الله للرَّسولِ لحكمةٍ فوق حكمةِ الرَّسولِ ﷺ؛ ولهذا سأل الرَّسولُ ربَّه ثلاثًا، فهل أَجابَ الثَّلاثَ كُلَّها؟ الجوابُ: لا، ما أَجابَ اللهُ الثَّلاثَ كُلَّها، واللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي له الملكُ، يُعْطِي ويمنعُ،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠، رقم ٧٥٤٤)، وعبد الرزاق (١/ ٤٠٦، رقم ١٥٨٧).

ويُجيبُ ولا يُجيبُ، ولا شكَّ أنَّ قولَنا بأنَّ اللهَ أجابَ دعاءَه حين قال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**» هو المتعيِّنُ؛ لأنَّ غيرَه مُحْتَمِلٌ، والأصلُ أنَّ اللهَ أجاب دعاءَه، وإن عُبِدَ القبرُ فليس القبرُ نفسُه وثنًا؛ للحيلولةِ بهذه الجدران الثَّلاثةِ.

فإن قيل: إنَّ بعضَ النَّاسِ يقولُ: إنَّ قبرَ النَّبيِّ في المسجدِ فما الجوابُ؟

نقولُ: وهل الذي يقولُ: إنَّ مسجدَ الرَّسولِ ﷺ هو قباء، هل تُطيعُه؟ الجوابُ: لا، كذلك إذا قال: قبرُه في المسجدِ هل تطيعُه، أو أنَّ المعنى أنَّ المسجدَ يشملُه؟ فهل معناه إذا قلت بالأوَّل: أنَّ القبرَ في المسجدِ؛ يعني: في الرَّوضةِ، وليس في المكان الذي فيه الآن، ما معنى في المسجد؟ معنى في المسجد هل معناه: أنَّ قبرَ الرَّسولِ ليس في مكانِه الآن ولكنَّه في الرَّوضةِ؟ الجوابُ: في مكانِه، والمسجدُ شاملٌ له، نقولُ: لا حُجَّةَ لكم في هذا؛ لأنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- دُفِنَ وبيتُه مستقلٌّ عن المسجدِ، ولكن لـمَّا وَسَّعوا المسجدَ كأنَّهم في ذلك الوقتِ ما رَأَوُا مثلًا فُسحةً إلَّا من هذه الجهةِ، فدخلت الحجرةُ في المسجدِ، فهي حجرةٌ في مسجدٍ، وليست قبرًا في مسجدٍ.

٤٠٤٣- وَلَقَدْ غَدَا عِنْدَ الوَفَاةِ مُصَرِّحًا ... بِاللَّعْنِ يَصْرُخُ فِيهِمُ بِأَذَانِ

٤٠٤٤- وَعَنَى الأُلَى جَعَلُوا القُبُورَ مَسَاجِدًا ... وَهُمُ اليَهُودُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

في مَرَضِ موتِه كان يقولُ صلواتُ الله وسلامُه عليه: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، يقولُ ذلك تحذيرًا لأُمَّتِهِ مِـمَّا صَنَعُوا[1]؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم (٤٣٥)، مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٢٩).

ولهذا قال:

٤٠٤٥- وَاللهِ لَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ   لَكِنَّهُمْ حَجَبُوهُ بِالحِيطَانِ

فهو قال ذلك يُحَذِّرُ أُمَّتَه أن يصنعوا مثلما صنعوا، قالت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «وَلَوْلَا ذَلِكَ لأُبْرِزَ قَبْرُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[١].

مَن الذين حجبوه؟ الجوابُ: الصَّحابةُ، فهم دفنوه في البيتِ نفسِه، على أنَّه أيضًا قد وردت آثارٌ أنَّ النَّبيَّ يُدْفَنُ حَيْثُ قُبِضَ[٢].

٤٠٤٦- قَصَدُوا إِلَى تَسْنِيمِ حُجْرَتِهِ لِيَمْـ   ـتَنِعَ السُّجُودُ لَهُ عَلَى الأَذْقَانِ

قصدوا إلى تسنيمِ الحجرةِ وليس تسنيمَ القبرِ، فالقبرُ مُسَنَّمٌ لا شكَّ، لكن أيضًا الحجرةُ مُسَنَّمَةٌ؛ يعني: مُثَلَّثَةٌ لماذا؟ لأجل أن يمتنعَ السُّجودُ له على الأذقانِ.

٤٠٤٧- قَصَدُوا مُوَافَقَةَ الرَّسُولِ وَقَصْدُهُ التْـ   ـتَجْرِيدُ لِلتَّوْحِيدِ لِلرَّحْمَنِ

يعني: أنَّهم قصدوا موافقةَ الرَّسولِ في ألَّا يُجْعَلَ قبرُه وَثَنًا يُعْبَدُ.

٤٠٤٨- يَا فِرْقَةً جَهِلَتْ نُصُوصَ نَبِيِّهِمْ   وَقُصُودَهُ وَحَقِيقَةَ الإِيمَانِ

٤٠٤٩- فَسَطَوْا عَلَى أَتْبَاعِهِ وَجُنُودِهِ   بِالبَغْيِ وَالعُدْوَانِ وَالبُهْتَانِ

٤٠٥٠- لا تَعْجَلُوا وَتَبَيَّنُوا وَتَثَبَّتُوا   فَمُصَابُكُمْ مَا فِيهِ مِنْ جُبْرَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم (٤٣٥)، مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٢٩).

(٢) كما في حديث: «ما قُبض نبي إلا دُفن حيث يُقبض». أخرجه ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم (١٦٢٨).

يعني: بذلك الذين يُشَنِّعونَ على مَنْ جَرَّدوا التَّوحيدَ ويقولون: أنتم تنقَّصتم الرَّسولَ، أنتم لا تعبدونه، أنتم لا تدعونه، أنتم لا تغلون فيه، أنتم لا تحبُّونه، وأمثال ذلك، فهم سَطَوْا على أتباعِ الرَّسولِ وجندِه بالبغيِ والعدوانِ والعياذُ بالله، ولكن ما موقفُ أتباعِ الرَّسولِ وجندِه من هذا؟

موقفهم: **الأوَّلُ**: الصَّبرُ، **الثَّاني**: الثَّباتُ، **الثَّالثُ**: المدافعةُ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال:٤٥]، اثْبُتْ، لا تتغيَّرْ بكثرةِ الهجومِ عليك أو التَّشنيعِ على قولِك، ما دُمْتَ على حقٍّ فَاثْبُتْ، فالحقُّ لا يمكنُ أن يُزَحْزَحَ، اصبر، ثُمَّ بعد ذلك دَافِعْ، هذا إذا كُنْتَ في مقام الضَّعفِ، فلا أدنى من المدافعةِ، أمَّا إذا كُنْتَ في مقامِ القوَّةِ فعليك بالهجومِ، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

ولا شكَّ أنَّ النَّاسَ منذ كانت الدُّنيا يداولُ اللهُ الأيَّامَ بينهم، فتارةً يكونون في مقامِ القوَّةِ، وتارةً يكونون في مقامِ الضَّعفِ، ولكُلِّ مقامٍ ما يناسبُه، لكن أهمُّ شيءٍ أنَّك في مقامِ الضَّعفِ يجبُ أن تَثْبُتَ، لا تتزحزحْ عن الحقِّ، لا تقل: النَّاسُ كُلُّهم على خلاف ذلك، بل اثْبُتْ، فلك أتباعٌ، قال رحمه اللهُ:

وَاللهُ نَـاصِرُ دِينِـهِ وَكِتَابِـهِ ... وَرَسُـولِهِ فِي سَـائِرِ الأَزْمَـانِ

* * *

٤٠٥١- قُلْنَـا الَّـذِي قَـالَ الأَئِمَّـةُ قَبْلَنَـا ... وَبِهِ النُّصُوصُ أَتَتْ عَلَى التِّبْيَانِ

٤٠٥٢- القَصْدُ حَجُّ البَيْتِ وَهْوَ فَرِيضَةُ الرْ ... رَحْمَـنِ وَاجِبَـةٌ عَلَى الأَعْيَانِ

٤٠٥٣- وَرِحَالُنَـا شُـدَّتْ إِلَيْـهِ مِـنْ بِقَـا ... عِ الأَرْضِ قَاصِيهَا كَـذَاكَ الـدَّانِي

٤٠٥٤- مَنْ لَمْ يَزُرْ بَيْتَ الإِلَهِ فَمَا لَهُ ... مِنْ حَجِّهِ سَهْمٌ وَلا سَهْمَانِ

٤٠٥٥- وَكَذَا نَشُدُّ رِحَالَنَا لِلْمَسْجِدِ النْـ ... ـنَبَوِيِّ خَيْرِ مَسَاجِدِ الْبُلْدَانِ

٤٠٥٦- مِنْ بَعْدِ مَكَّةَ أَوْ عَلَى الإِطْلاقِ فِيـ ... ـهِ الْخُلْفُ عِنْدَ النَّاسِ مُنْذُ زَمَانِ

٤٠٥٧- وَنَرَاهُ عِنْدَ النَّذْرِ فَرْضًا لَكِنِ النْـ ... ـنُعْمَانُ يَأْبَى ذَا وَلِلنُّعْمَانِ

٤٠٥٨- أَصْلٌ هُوَ النَّافِي الوُجُوبَ فَإِنَّهُ ... مَا جِنْسُهُ فَرْضًا عَلَى الإِنْسَانِ

٤٠٥٩- وَلَنَا بَرَاهِينٌ تَدُلُّ بِأَنَّهُ ... بِالنَّذْرِ مُفْتَرَضٌ عَلَى الإِنْسَانِ

٤٠٦٠- أَمْرُ الرَّسُولِ لِكُلِّ نَاذِرِ طَاعَةٍ ... بِوَفَائِهِ بِالنَّذْرِ بِالإِحْسَانِ

٤٠٦١- وَصَلاتُنَا فِيهِ بِأَلْفٍ مِنْ سِوَا ... هُ مَا خَلا ذَا الحِجْرِ وَالأَرْكَانِ

٤٠٦٢- وَكَذَا صَلاةٌ فِي قِبَا فَكَعُمْرَةٍ ... فِي أَجْرِهَا وَالفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

٤٠٦٣- فَإِذَا أَتَيْنَا المَسْجِدَ النَّبَوِيَّ صَلْـ ... ـلَيْنَا التَّحِيَّةَ أَوَّلًا ثِنْتَانِ

٤٠٦٤- بِتَمَامِ أَرْكَانٍ لَهَا وَخُشُوعِهَا ... وَحُضُورِ قَلْبٍ فِعْلَ ذِي الإِحْسَانِ

٤٠٦٥- ثُمَّ انْثَنَيْنَا لِلزِّيَارَةِ نَقْصِدُ الْـ ... ـقَبْرَ الشَّرِيفَ وَلَوْ عَلَى الأَجْفَانِ

٤٠٦٦- فَنَقُومُ دُونَ القَبْرِ وَقْفَةَ خَاضِعٍ ... مُتَذَلِّلٍ فِي السِّرِّ وَالإِعْلانِ

٤٠٦٧- فَكَأَنَّهُ فِي القَبْرِ حَيٌّ نَاطِقٌ ... فَالوَاقِفُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ

٤٠٦٨- مَلَكَتْهُمُ تِلْكَ المَهَابَةُ فَاعْتَرَتْ ... تِلْكَ القَوَائِمَ كَثْرَةُ الرَّجَفَانِ

٤٠٦٩- وَتَفَجَّرَتْ تِلْكَ العُيُونُ بِمَائِهَا ... وَلَطَالَمَا غَاضَتْ عَلَى الأَزْمَانِ

٤٠٧٠- وَأَتَى الـمُسَلِّمُ بِالسَّلامِ بِهَيْبَةٍ ... وَوَقَارِ ذِي عِلْمٍ وَذِي إِيمَانِ

٤٠٧١- لَمْ يَرْفَعِ الأَصْوَاتِ حَوْلَ ضَرِيحِهِ ... كَلَّا وَلَمْ يَسْجُدْ عَلَى الأَذْقَانِ

٤٠٧٢- كَلَّا وَلَمْ يَرَ طَائِفًا بِالقَبْرِ أُسْـ ... ـبُوعًا كَأَنَّ القَبْرَ بَيْتٌ ثَانِي

٤٠٧٣- ثُمَّ انْثَنَى بِدُعَائِهِ مُتَوَجِّهًا ... لله نَحْوَ البَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ

٤٠٧٤- هَذِي زِيَارَةُ مَنْ غَدَا مُتَمَسِّكًا ... بِشَرِيعَةِ الإِسْلامِ وَالإِيمَانِ

٤٠٧٥- مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ هَاتِيكَ الزِّيَا ... رَةُ وَهْيَ يَوْمَ الحَشْرِ فِي المِيزَانِ

٤٠٧٦- لا تَلْبِسُوا الحَقَّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ ... سُنَنُ الرَّسُولِ بِأَعْظَمِ البُرْهَانِ

٤٠٧٧- هَذِي زِيَارَتُنَا وَلَمْ نُنْكِرْ سِوَى الـ ... ـبِدَعِ المُضِلَّةِ يَا أُولِي العُدْوَانِ

٤٠٧٨- وَحَدِيثُ شَدِّ الرَّحْلِ نَصٌّ ثَابِتٌ ... يَجِبُ المَصِيرُ إِلَيْهِ بِالبُرْهَانِ

الشرحُ

لـمَّا بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ غلوَّ هؤلاءِ بالرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مع مخالفتِهم قولَه فيما وَصَفَ به ربَّه مُنْكَرٌ من وَجْهَيْنِ هما:

الوجه الأوَّل: الغلوُّ.

الوجه الثَّاني: التَّحريفُ لكلامِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

لـمَّا بَيَّنَ ذلك قال رحمه الله:

٤٠٥١- قُلْنَا الَّذِي قَالَ الأَئِمَّةُ قَبْلَنَا ... وَبِهِ النُّصُوصُ أَتَتْ عَلَى التِّبْيَانِ

يعني: أنَّنا نحن نقولُ ما قاله الأئمَّةُ قبلَنا وجاءت به النُّصوصُ، ثُمَّ ذَكَرَ الزِّيارةَ الشَّرعيَّة فبدأ بالحجِّ فقال:

٤٠٥٢- القَصْدُ حَجُّ البَيْتِ وَهْوَ فَرِيضَةُ الرْ ... رَحْمَنِ وَاجِبَةٌ عَلَى الأَعْيَانِ

قَوْلُهُ: «القَصْدُ حَجُّ البَيْتِ»؛ يعني: أنَّنا نُسافرُ إلى البيتِ للحجِّ بخلاف هؤلاء الذين يغلون فيمَنْ يزعمونهم أولياءَ؛ فإنَّهم يحجُّون إليهم، ويَرَوْنَ أنَّ الحجَّ إلى قبورِهم أفضلُ من الحجِّ إلى بيتِ الله عزَّ وجلَّ، فجعلوا قصدَ قبورِ الأمواتِ أفضلَ من قصدِ بيتِ ربِّ السَّماواتِ والعياذُ بالله.

قَوْلُهُ: «وَهْوَ فَرِيضَةُ الرَّحْمَنِ وَاجِبَةٌ عَلَى الأَعْيَانِ»، وهذا معروفٌ، فالحجُّ أحدُ أركانِ الإسلامِ.

٤٠٥٣- وَرِحَالُنَا شُدَّتْ إِلَيْهِ مِنْ بِقَا ... عِ الأَرْضِ قَاصِيهَا كَذَاكَ الدَّانِي

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧]، فالنَّاسُ يأتون إلى هذا البيتِ من أقاصي الأرضِ ودانيها.

٤٠٥٤- مَنْ لَمْ يَزُرْ بَيْتَ الإِلَهِ فَمَا لَهُ ... مِنْ حَجِّهِ سَهْمٌ وَلا سَهْمَانِ

يعني: أنَّ مَنْ لم يَطُفْ بالبيتِ فليس له حجٌّ؛ لأنَّ الطَّوافَ بالبيتِ وهو طوافُ الزِّيارةِ ركنٌ من أركانِ الحجِّ، قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩]، فَمَنْ حَجَّ ولم يَزُرِ البيتَ ولم يَطُفْ به فلا حجَّ له حتَّى لو وَقَفَ بعرفةَ وبمزدلفةَ ورَمَى الجمارَ، وبَاتَ بمنى، فإنَّه لا حجَّ له.

٤٠٥٥- وَكَذَا نَشُدُّ رِحَالَنَا لِلمَسْجِدِ النْـ ـنَبَوِيِّ خَيْرِ مَسَاجِدِ البُلْدَانِ

٤٠٥٦- مِنْ بَعْدِ مَكَّةَ أَوْ عَلَى الإِطْلاقِ فِيـ ـهِ الخُلْفُ عِنْدَ النَّاسِ مُنْذُ زَمَانِ

نشدُّ الرَّحلَ إلى مسجدِ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أَذِنَ فيه، بل رَغَّبَ فيه فقال: «لَا تُشَدُّ الرِّحالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى»[1].

لكن هل هو أفضلُ من مكَّةَ أو مكَّةُ أفضلُ؟ لا شكَّ أنَّ مكَّةَ أفضلُ، أمَّا الصَّلاةُ في البيتِ فإنَّه بالنَّصِّ عن النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- حيث قال: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاه من المَسَاجِدِ إِلَّا مَسْجِدَ الكَعْبَةِ»[2]، هكذا في صحيحِ مسلمٍ، وكذلك في الصَّحيحين من حديث أبي هُريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ»[3]، لكن هل مكَّةُ أفضلُ أو المدينةُ؟ هذا محلُّ الخلاف، والصَّوابُ بلا شكٍّ أنَّ مكَّةَ أفضلُ من المدينةِ.

المسجدُ النَّبويُّ لا شَكَّ أنَّه خيرُ مساجدِ البلدانِ مِنْ بَعْدِ مَكَّةَ أو على الإطلاقِ، لكن القولُ بأنَّه «على الإطلاقِ» ضعيفٌ، والصَّوابُ أنَّه خيرُ المساجدِ من بعد مسجدِ مكَّةَ، والحديثُ في هذا صريحٌ صحيحٌ كما سبق.

لكن لعلَّ الذين قالوا بخِلاف ذلك يريدون نفسَ المسجدِ دُون الصَّلاةِ فيه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٨٩). ومسلم: كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد، رقم (١٣٧٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم (١٣٩٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٣٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم (١٣٩٤).

والصَّوابُ أنَّ المسجدَ الحرامَ أفضلُ من المسجدِ النَّبويِّ، وأنَّ الصَّلاةَ فيه أفضلُ من الصَّلاةِ في المسجد النَّبويِّ، وأمَّا ما زعمه بعضُ العلماءِ من أنَّ الحجرةَ النَّبويَّةَ أفضلُ من المسجدِ الحرامِ وأفضلُ من الكعبةِ فهذا قولٌ باطلٌ، قال ابنُ عقيلٍ -رحمه الله- وهو من علماء الحنابلة: «الكعبةُ أفضلُ من مُجرَّدِ الحجرةِ، فأمَّا والنَّبيُّ ﷺ فيها فلا وَالله وَلَا العرشُ وَحَمَلَتُهُ ولَا الجَنَّةُ»[1]، وهذا غلطٌ منه رحمه الله؛ لأنَّنا لسنا نُريدُ التَّفضيلَ بين محمَّدٍ ﷺ وبين الكعبة، إنَّما نُريدُ التَّفضيلَ بين هذا المسجدِ وهذا المسجدِ، وأمَّا كونُ النَّبيِّ ﷺ فيها فإنَّ ذلك لا يُوجِبُ أنَ يزيدَ فَضلُها على فضلِ الكعبةِ والمسجدِ الحرامِ.

٤٠٥٧- وَنَرَاهُ عِنْدَ النَّذْرِ فَرْضًا لَكِنِ النُّـ ـعْمَانُ يَأْبَى ذَا ....

قَوْلُهُ: «وَنَرَاهُ عِنْدَ النَّذْرِ فَرْضًا» المعنى: شدُّ الرَّحلِ إلى المسجدِ النبويِّ نراه فرضًا عند النَّذرِ، إِذَنْ المؤلِّفُ -رحمه الله- يُشيرُ إلى أنَّه بالاتِّفاقِ أنَّ شدَّ الرَّحلِ إلى المسجدِ الحرامِ فرضٌ من أصلِ الإسلامِ، وفرضٌ بالنَّذرِ إذا نَذَرَ الصَّلاةَ فيه.

قَوْلُهُ: «لَكِنِ النُّعْمَانُ يَأْبَى ذَا» النُّعمان هو: أبو حنيفةَ رحمه الله، يرى أنَّ الإنسانَ إذا نَذَرَ شدَّ الرَّحلِ إلى مسجدِ المدينةِ فإنَّه لا يلزمه الوفاءُ به لماذا؟ بناءً على أصلٍ، ما هو الأصل؟ قال رحمه الله:

٤٠٥٧- .... وَلِلنُّعْمَانِ

٤٠٥٨- أَصْلٌ هُوَ النَّافِي الوُجُوبَ فَإِنَّهُ مَا جِنْسُهُ فَرْضًا عَلَى الإِنْسَانِ

يقول النُّعمانُ رحمه الله: إنَّه لا يجبُ الوفاءُ بنذرِ الطَّاعةِ إلَّا إذا كان جنسُه

---

(١) انظر: الفروع لابن مفلح (٦/ ٢٨).

فرضًا، فنذرُ الصَّلاةِ يجبُ الوفاءُ به؛ لأنَّ جنسَه فرضٌ، ونذرُ الصَّدقةِ يجبُ الوفاءُ به لأنَّ جنسَه فرضٌ وهو الزَّكاةُ، ونذرُ الحجِّ يجبُ الوفاءُ به؛ لأنَّ جنسَه فرضٌ، ونذرُ الصَّومِ يجبُ الوفاءُ بِه؛ لأنَّ جنسَه فرضٌ، ونذرُ شدِّ الرَّحلِ إلى المسجدِ النبويِّ ليس بفرضٍ عند أبي حنيفةَ؛ لأنَّه ليس له جنسٌ مفروضٌ، فليس هناك فرضٌ بشَدِّ الرَّحلِ إلى المسجدِ النَّبويِّ، وعند الجمهورِ يجبُ الوفاءُ به، وهو الصَّوابُ، فإذا نَذَرَ أن يُصَلِّيَ في المسجدِ النَّبويِّ فيجبُ الوفاءُ به؛ ولذا قال:

٤٠٥٩- وَلَنَا بَرَاهِينٌ تَدُلُّ بِأَنَّهُ ... بِالنَّذْرِ مُفْتَرَضٌ عَلَى الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «**لَنَا بَرَاهِينٌ**»؛ يعني: أدلَّةَ.

يقولُ: لنا أدلَّةٌ تدلُّ على أنَّ شَدَّ الرَّحلِ لزيارةِ المسجدِ النَّبويِّ يكونُ فرضًا على الإنسانِ إذا نذره، ما هذه البراهين؟ منها:

٤٠٦٠- أَمْرُ الرَّسُولِ لِكُلِّ نَاذِرِ طَاعَةٍ ... بِوَفَائِهِ بِالنَّذْرِ بِالإِحْسَانِ

قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**»[1]، وهذا أمرٌ، ولا شكَّ أنَّ شدَّ الرَّحلِ إلى المسجدِ النَّبويِّ طاعةٌ، وإذا كان طاعةً دَخَلَ في عمومِ قولِه: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**»، ثُمَّ قال:

٤٠٦١- وَصَلاتُنَا فِيهِ بِأَلْفٍ مِنْ سِوَا ... هُ مَا خَلا ذَا الحِجْرِ وَالأَرْكَانِ

قَوْلُهُ: «**صَلاتُنَا فِيهِ بِأَلْفٍ مِنْ سِوَاهُ**»، ولكن الأَوْلَى أن نقولَ: «**خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ**» كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهناك فرقٌ بين أن نقولَ: صلاةٌ بألفٍ، وصلاةٌ خيرٌ من ألفٍ، والحديثُ الثَّابتُ: «**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ**

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦).

أَلْفِ»[١]، وفي لفظٍ لمسلمٍ: «أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ»[٢]، وبينهما فرقٌ، لكن ما ذكره المؤلِّفُ هو روايةٌ فِي مسندِ الإمامِ أحمدَ[٣] رحمه الله.

قَوْلُهُ: «مَا خَلَا ذَا الحِجْرِ وَالأَرْكَانِ»؛ يعني: مسجدَ الكعبةِ.

قَوْلُهُ: «مَا خَلَا ذَا الحِجْرِ وَالأَرْكَانِ» فيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّفضيلَ بمئةِ ألفِ صلاةٍ أو خيرٍ من مئةِ ألفِ صلاةٍ إنَّما هو في مسجدِ الكعبةِ فقط لا في جميعِ مكَّةَ، ويدلُّ على هذا ما ثبت في صحيح مسلمٍ من قول النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام-: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا مَسْجِدَ الكَعْبَةِ»[٤]، وهذا نصٌّ صريحٌ.

نعم؛ مكَّةُ الصَّلاةُ فيها أفضلُ من الصَّلاةِ في الحِلِّ، والدَّليلُ على هذا كونُ النَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي بالحرمِ وهو نازلٌ في الحِلِّ في عام الحديبية[٥]، مِـمَّا يدلُّ على أنَّ الصَّلاةَ في الحرمِ أفضلُ، وأمَّا التَّفضيلُ الخاصُّ فهو خاصٌّ في المسجدِ الحرامِ الذي فيه الكعبةُ، وحتَّى لو اتَّسع فإنَّ ما زِيدَ في المسجدِ له حكمُ المزيدِ كما نَصَّ على ذلك العلماءُ ومنهم شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله.

فإذا كان الرَّسولُ ﷺ أمر مَنْ نَذَرَ أن يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، فالصَّلاةُ في مسجدِ النَّبِيِّ ﷺ مقصودةٌ، وفيها ثوابٌ، فهي طاعةٌ، فإذا نَذَرَ الصَّلاةَ في المسجدِ النَّبويِّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٣٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم (١٣٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم (١٣٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٣، رقم ١٤٧٣٥).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم (١٣٩٦).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٥٨١).

لَزِمَه أن يُصَلِّيَ في المسجدِ النَّبَوِيِّ، ولكن يجوزُ أن يُصَلِّيَ في المسجدِ الحرامِ؛ لأَنَّه أفضلُ منه.

وَقَوْلُهُ: «الحِجْرِ» الحِجْرُ معروفٌ، وهو القطعةُ أو الطَّائفةُ من الكعبة التي مُحَجَّرٌ عليها الآن، وهي من الكعبةِ، ولكن ليس كُلُّ الحِجْرِ من الكعبةِ، فمن الكعبةِ بمقدار ستَّة أذرع وشيء، يعني: ثلاثةَ أمتارٍ وربعًا تقريبًا، وحَدَّه بعضُهم فقال: من منعطف الحِجْر هذا من الكعبة، وما بعدَه ليس من الكعبةِ، وسُمِّي حِجْرًا؛ لأنَّ قريشًا لـمَّا بَنَوُا الكعبةَ نقصت النَّفقةُ عليهم، وكانوا قد عزَموا على ألَّا يبنوه إلَّا بمالٍ حلالٍ فنقصت النَّفقةُ، فقالوا: نبني بعضَه فَبَنَوا ما هو قائمٌ الآن، وجعلوا هذا محوطًا عليهِ بهذا الجِدار خارج المُسَقَّف، فَسُمِّي حِجْرًا؛ لأنَّه مُحَجَّرٌ، وسُمِّي حطيمًا؛ لأنَّه حُطِمَ، وحطيمٌ بمعنى محطوم من الكعبة وأُخْرِجَ منها، وأمَّا ما اشتهر عند العامَّةِ الجُهَّالِ من أنَّ فيه قبرَ إسماعيلَ فإنَّ هذا كَذِبٌ لا أصلَ له، ويُسَمِّيه بعضُ العامَّةِ الآن حِجْرَ إسماعيل، لكن هذا هو الأصلُ، فإنَّه لم يكن معروفًا في عهد إسماعيلَ، ولم يكن مدفونًا فيه، وكانت الكعبةُ قبل ذلك أوسعَ من هذا، فقال النَّبِيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- وهو يُحَدِّثُ عائشةَ: «يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ فَأَدْخَلْتُ فِي البَيْتِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا»[1]، وفي رواية: «يَدْخُلُونَ مِنْ هَذَا وَيَخْرُجُونَ مِنْ هَذَا»[2]، فتوفي الرَّسولُ ﷺ وهي على ما كانت عليه في الجاهلية،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الكعبة وبنيانها، رقم (١٥٨٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار، مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه، رقم (١٢٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

ولـمَّا تولَّى عبدُ الله بن الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على الحجاز هدمها وبناها[(١)] على قواعدِ إبراهيمَ على حسَب ما أراده النَّبِيُّ ﷺ، ولـمَّا قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستَوْلَى الحجَّاجُ على مكَّةَ وهو أميرٌ من أمراء بني أُمَيَّة، أرسلَ إلى عبد الملك بن مروان، ثُمَّ أمره بأن يُعِيدَ الكعبةَ على ما كانت عليه في زمنِ الجاهليَّةِ وفي عهدِ الرَّسولِ ﷺ فأعادها[(٢)]، ثُمَّ لـمَّا بلغه -أي: عبد الملك- الخبرُ عن عائشةَ تمنَّى أنَّه عَلِمَ به أوَّلا، ولـمَّا تولَّى هارونُ الرَّشيد أراد أن يُغَيِّرَ الكعبةَ من بناءِ الحَجَّاجِ إلى بناء عبد الله بن الزُّبَيْرِ، فاستشار مالكًا في ذلك فقال: «لا تجعل بيتَ الله ملعبةً للملوك، كُلَّما جاءَ ملكٌ هَدَمَه وغيَّره»[(٣)]، فَأُبْقِيَ على ما كان عليه.

وهذا في الحقيقةِ من رحمة الله عزَّ وجلَّ وحِكمتِه، لو أنَّه كان على ما أراده النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لكان في مثلِ هذه الأوقاتِ سببًا للهلاكِ والموتِ؛ لأنَّ النَّاسَ إذا كانوا يقتتلون على رمي الجمراتِ ويُقْتَلُ بعضُهم فما بالُك إذا كانوا يَقتتلون على الدُّخولِ في الكعبةِ من بابٍ ضيِّقٍ والكعبةُ مُسَقَّفَةٌ وضيِّقةٌ! ولكن -والحمد لله- ما أراده النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قضاه اللهُ عزَّ وجلَّ، صار الحِجْرُ الآنَ مفتوحًا وله بابان بابٌ يدخلُ منه النَّاسُ وبابٌ يخرجون منه، والذي يدخلُ مع البابِ الشَّرقيِّ من الحِجْرِ ويخرجُ من الغربيِّ كأنَّما دَخَلَ الكعبةَ وخَرَجَ منها، فحصل -ولله الحمدُ- ما أراده النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مع انتفاءِ الضَّررِ، وهذا يدلُّك على حكمةِ الله عزَّ وجلَّ، وبه تتذكَّرُ دائمًا قولَه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

(٣) انظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، لأبي الطيب الفاسي (١/ ١٣٦)، و تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، لابن الضياء (ص:١١٢).

أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

فصارت -والحمدُ لله- الخيرةُ فيما وقع فيه هذا الحِجْر، وأمَّا قولُه: «والأَرْكَانِ» يعني: الأركانَ الأربعةَ، فالكعبةُ -شرَّفها اللهُ- لها أركانٌ أربعةٌ، منها رُكنان على بِناءِ إبراهيمَ، وهما اللَّذان فيهما الاستلام: الرُّكنُ اليمانيُّ والحَجَرُ الأسودُ، وركنان على غيرِ قواعدِ إبراهيمَ؛ ولهذا لا يُسْتَلمان، ولـمَّا طَافَ معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذات سنةٍ من السَّنواتِ التي حَجَّ فيها جعَل يستلمُ الأركانَ الأربعةَ: الحَجَرَ، والحِجْرَ، والرُّكنَ الشَّاميَّ، والعراقيَّ، فقال له ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لَـمْ يَكُنْ يَسْتَلِم إِلَّا الـحَجَرَ الأَسْوَدَ وَالرُّكْنَ اليَمَانِيَّ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَيْسَ شَيءٌ مِنَ البَيْتِ مَهْجُورًا -يعني: كُلُّ الأركانِ ليست مهجورةً- فَقَالَ له ابنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، فَرَجَعَ معاويةُ[1]، أراد معاويةُ أن يُعارِضَ النَّصَّ بالقياسِ، ولكن بَيَّنَ له ابنُ عبَّاسٍ أنَّ معارضةَ النَّصِّ بالقياسِ باطلةٌ فاسدةٌ، فإذا كان النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لم يستلم إلَّا الرُّكنَيْنِ اليمانيَّيْن فإنَّه لا يُشْرَعُ لنا أن نستلمَ بقيَّةَ الأركانِ.

٤٠٦٢- وَكَـذَا صَـلاةٌ فِي قِبَـا فَكَعُمْـرَةٍ فِي أَجْرِهَـا وَالفَضْـلُ لِلمَنَّـانِ

وهذا الأجرُ مُقَيَّدٌ بما إذا تطهَّر الإنسانُ في بيتِه، ثُمَّ خرج قاصدًا قُباء وصلَّى فيه صلاةً فإنَّه كَمَنْ أَدَّى عمرةً[2]، وكان النَّبيُّ ﷺ يُصلِّي الجمعةَ في المسجدِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب من لم يستلم إلا الركنين اليمانيين، رقم (١٥٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، رقم (٣٢٤)، والنسائي: كتاب المساجد، باب مسجد قباء والصلاة فيه، رقم (٦٩٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، رقم (١٤١١).

النَّبويِّ، وفي يومِ السَّبت يخرجُ إلى مسجدِ قُباء[١]؛ لأنَّه أَوَّلُ مسجدٍ أُسِّس على التَّقوى، ومسجدُ قُباء معروفٌ، فإن قال قائلٌ: مسجدُ قُباء الموجود أكبرُ من مسجد قُباء في عهدِ الرَّسولِ ﷺ؟ قلنا: ما زِيدَ في المسجدِ فله حكمُه؛ ولهذا انظُر إلى المسجدِ الحرامِ هل هو على ما كان عليه على عهدِ الرَّسولِ؟ الجوابُ: أبدًا، ما كان عليه على عهدِ الرَّسولِ ﷺ قريبٌ جدًّا من حوالي بئر زمزم، كذلك أيضًا المسجدُ النَّبويُّ هل هو على ما كان عليه في عهد الرَّسولِ؟ الجوابُ: لا، زَادَ فيه عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوَّلا، ثُمَّ زاد فيه عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والصَّحابةُ أجمعوا على أنَّ الزِّيادةَ لها حكمُ المزيدِ، والدَّليلُ على إجماعِهم أنَّ عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لـمَّا زاد في المسجدِ النَّبويِّ من جهةِ القبلةِ كان يُصلِّي في محرابِ الزِّيادةِ التي زادها[٢]، وكان المسلمون يتسابقون إليها ويصلُّون في الصَّفِّ الأوَّل، ولو لم يكن لها حكمُ المسجدِ لكانوا يتأخَّرون إلى المسجدِ الأوَّلِ الذي كان على عهدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٦٣- فَـإِذَا أَتَيْنَـا المَسْـجِدَ النَّبَـوِيَّ صَلْـ ـــلَيْنَا التَّحِيَّـــةَ أَوَّلًا ثِنْتَـــانِ

إذا دَخلْتَ المسجدَ النَّبويَّ فأوَّل ما تفعلُ أنَّ تصلِّيَ ركعتين لله عزَّ وجلَّ؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ المَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ»[٣].

٤٠٦٤- بِـتَمامِ أَرْكَـانٍ لَـهَا وَخُشُـوعِهَا وَحُضُورِ قَلْبِ فِعْلَ ذِي الإِحْسَانِ

يعني: أن يُصلِّيَها تامَّةً بأركانِها وواجباتِها وشُروطِها مع خُشوعِ القلبِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب مسجد قباء، رقم (١١٣٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته، رقم (١٣٩٩).

(٢) انظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (٢/ ٤٣٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحية المسجد بركعتين، رقم (٧١٤).

وأراد بذلك الإشارةَ إلى ما يفعَلُه بعضُ الجهلةِ، تجده يُحِبُّ أن يبدأَ أوَّلًا بزيارةِ القبرِ، فإذا قيل له: «صَلِّ ركعتَيْن» يُصلِّيهما بسرعةٍ نقرًا وبقلبٍ متعلِّقٍ بالقبرِ، ليس بخاشعٍ، فأراد ابنُ القيِّم -رحمه الله- بهذا أن يُلْفِتَ النَّظرَ إلى أنَّه لا ينبغي أن تتسرَّعَ في هاتين الرَّكعتين، بل بطمأنينةٍ وخشوعٍ.

٤٠٦٥- ثُـمَّ انْثَنَيْنَـا لِلزِّيَـارَةِ نَقْصِـدُ الـ ـقَبْرَ الشَّرِيفَ وَلَوْ عَـلَى الأَجْفَـانِ

يعني: ولو كُنَّا نمشي على أجفانِ عُيونِنا، لا على أقدامِ سُوقِنا؛ يعني: نمشي تعظيمًا للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ولو على الأذقانِ، لكنَّهم في الحقيقةِ إنَّما يمشون على الأقدامِ لا شكَّ.

٤٠٦٦- فَنَقُـومُ دُونَ القَـبْرِ وَقْفَـةَ خَاضِـعٍ مُتَـذَلِّلٍ فِي السِّـرِّ وَالإِعْـلانِ

٤٠٦٧- فَكَأَنَّـهُ فِي القَـبْرِ حَـيٌّ نَـاطِقٌ فَـالوَاقِفُونَ نَـوَاكِسُ الأَذْقَـانِ

هذا من ابن القيِّم -رحمه الله- لا شكَّ أنَّه مُبالغةٌ؛ ولذا يجبُ أن نعلمَ أنَّ هذا الخضوعَ ليس كخضوعِنا الأوَّل في صلاةِ الرَّكعتين، فالخضوعُ الأوَّلُ خضوعُ عبادةٍ لله عزَّ وجلَّ، والخضوعُ الثَّاني خضوعُ احترامٍ وإكرامٍ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]، وعلى هذا فلا نقفُ واضعي أيدينا على صدورِنا هكذا كالصَّلاةِ، لا يجوزُ ذلك، إنَّما نقفُ كأنَّه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بيننا باحترامٍ وخضوعٍ، وما كان الصَّحابةُ يقفون على قبرِ الرَّسولِ كهذا الوقوفِ الذي ذكره ابنُ القيِّمِ، وهذا الخشوعُ خشوعٌ لا ينبغي إلَّا أن يكونَ لربِّ العالمين عزَّ وجلَّ، حتَّى الصَّحابة والرَّسولُ بين أيديهم حيٌّ، هل كانوا يأتون إليه على هذا الوجهِ من التَّعظيمِ؟!

ولذا فإنَّ قولَه: «فَالوَاقِفُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ» هذا لا يصحُّ إلَّا لله.

وهذا في الحقيقةِ من الزَّلةِ التي نرجو اللهَ عزَّ وجلَّ أن يعفوَ عن ابنِ القيِّمِ منها، لأنَّها ليست هيِّنةً، فنحن نقولُ لابنِ القيِّمِ: هل كان ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يُسَلِّمُ على رسولِ الله ﷺ وعلى أبي بكرٍ وعلى أبيه، هل كان يقفُ هذا الوقوفَ؟ هل كان يقفُ نواكسَ الأذقانِ؟! هل كان يقفُ خاضعًا كأنَّما هو بين يدي الله عزَّ وجلَّ؟! الجوابُ: لا، ونحن نعلمُ أنَّ ابنَ القيِّمِ وغيرَه ممَّن دونَ الصَّحابةِ لا يمكنُ أن يكونوا في توقيرِهم للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كتوقيرِ الصَّحابةِ للرَّسولِ أبدًا، فنسألُ اللهَ أن يعفوَ عنه.

٤٠٦٨- مَلَكَتْهُمُ تِلْكَ المَهَابَةُ فَاعْتَرَتْ   تِلْكَ القَوَائِمَ كَثْرَةُ الرُّجْفَانِ

يقولُ: إنَّ مهابةَ الرَّسولِ ﷺ مَلَكَتْهُ حتَّى صارت قوائمُهم تَرْجُفُ من شِدَّة المهابةِ.

وهذا لا ينبغي؛ يعني: لا ينبغي أن يكونَ وقوفُ الإنسانِ أمام قبرِ الرَّسولِ الى هذا الحدِّ، صحيحٌ أنَّ الإنسانَ إذا وقف يشعرُ أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أُرْسِلَ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأنه بَلَّغَ الرِّسالةَ، وأَدَّى الأمانةَ، وأنَّه نَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ في الله، أمَّا أن يقفَ هذا الوقوفَ الذي وصفه ابنُ القيِّمِ، فكلَّا والله.

٤٠٦٩- وَتَفَجَّرَتْ تِلْكَ العُيُونُ بِمَائِهَا   وَلَطَالَمَا غَاضَتْ عَلَى الأَزْمَانِ

هذا لا بأسَ به، لا بأسَ أن يذكرَ الإنسانُ حالَ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ثُمَّ يبكي، وهذا الإنسانُ لو ذَكَرَ ابنَه أو أباه أو أخاه الذي مات قد تفيضُ عيناه من الدَّمعِ، فكيف بالرَّسولِ ﷺ؟! يكونُ من بابِ أولى.

٤٠٧٠- وَأَتَـى الـمُسَلِّمُ بِالسَّـلامِ بِهَيْبَـةٍ وَوَقَـارِ ذِي عِلْـمٍ وَذِي إِيـمَانِ

هذا أهوَنُ من الذي قبله؛ يعني: أنَّ الإنسانَ يُسَلِّمُ سلامًا بوقارٍ مبنيًّا على علمٍ وإيمانٍ.

٤٠٧١- لَـمْ يَرْفَعِ الأَصْوَاتِ حَوْلَ ضَرِيحِهِ كَـلَّا وَلَـمْ يَسْجُدْ عَلَى الأَذْقَـانِ

قَوْلُهُ: «لَـمْ يَرْفَعِ الأَصْوَاتِ حَوْلَ ضَرِيحِهِ»؛ أي: لم يرفع الأصواتَ حول ضريحِ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أي: حولَ قبرِه، بل يتكلَّمُ بهدوءٍ، فمن الأدبِ ألَّا ترفعَ الصَّوتَ عند قبرِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد ثَبَتَ في البخاريِّ أنَّ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ رَجُلَيْنِ يَرْفَعَانِ أَصْوَاتَهُمَا في مَسْجِدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَنَادَاهُمَا وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالَا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، فَقَالَ: «لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا؛ تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ الله ﷺ»[1]، ولا شَكَّ أنَّه من الأدبِ ألَّا ترفعَ الصَّوتَ في المسجدِ النَّبويِّ، بل ولا في المساجد الأخرى أيضًا، حتَّى إنَّ الرَّسولَ جعل رفعَ الأصواتِ في المساجدِ من علاماتِ السَّاعةِ[2].

قَوْلُهُ: «كَلَّا وَلَـمْ يَسْجُدْ عَلَى الأَذْقَانِ» هذا هو الصَّحيحُ، فلا سجودَ إلَّا لله عزَّ وجلَّ.

٤٠٧٢- كَلَّا وَلَـمْ يَـرَ طَائِفًـا بِـالقَبْرِ أُسْـ ـبُوعًا كَـأَنَّ القَـبْرَ بَيْـتٌ ثَـانِي

وهذا صحيحٌ، ومن العامَّةِ الـجُهَّالِ لاسيَّما مَنْ عندهم قبورٌ في بلادِهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المساجد، رقم (٤٥٨).

(٢) كما جاء عن عطاء بن يسار قال: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ عُلُوُّ صَوْتِ الْفَاسِقِ فِي الْـمَسَاجِدِ، وَمَطَرٌ وَلَا نَبَاتٌ، وَأَنْ تُتَّخَذَ الْـمَسَاجِدُ طُرُقًا، وَأَنْ تَظْهَرَ أَوْلَادُ الزُّنَاةِ». أخرجه عبد الرزاق (٣/ ١٥٥، رقم ٥١٣٨).

يطوفون عليها، تجدُهم يطوفون على قبرِ النَّبِيِّ ﷺ، ولكن بفضلِ الله أنَّهم في هذه السَّنواتِ الأخيرةِ جعلوا حاجزًا يمنعُ من تمامِ الطَّوافِ، لكنِّي أخشى أن يأتيَ عامِّيٌّ يخرجُ من البابِ ويدخلُ مع البابِ الثَّاني حتَّى يُكمِلَ الطَّوافَ، فالعامَّةُ عندهم اعتقاداتُهم الزَّائفةُ يرخصُ عندهم كُلُّ غالٍ.

٤٠٧٣- ثُـمَّ انْثَنَـى بِدُعَائِـهِ مُتَوَجِّهًـا ... لله نَحْـوَ البَيْـتِ ذِي الأَرْكَـانِ

يعني: بعد أن يُسَلِّمَ على الرَّسولِ ﷺ ينثني؛ يعني: يتقدَّمُ ويتَّجهُ إلى الكعبةِ فيدعو اللهَ عزَّ وجلَّ.

أفادنا المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ الزِّيارةَ النَّبويَّةَ على الوصفِ الذي ذَكَرَ، يُسَلِّمُ على النَّبِيِّ ﷺ، ولم يذكر -رحمه الله- السَّلامَ على أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنَّه بصدَدِ الرَّدِّ على هؤلاء الغلاةِ الذين يَغْلون في رسولِ الله ﷺ، فلم يتكلَّمْ على السَّلامِ على أبي بكرٍ وعمرَ، وإلَّا فمن المشروعِ أن تُسَلِّمَ على أبي بكرٍ وعمرَ كما كان ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يفعلُ[1]، فلأبي بكرٍ وعمرَ من التَّوقيرِ ما يليقُ بحالِهما، فهما خليفتا رسولِ الله ﷺ، وهما وزيراه، وهما اللَّذان يكونان معه دائمًا، إذا ذهب وإذا رجع، ودائمًا يقولُ هو نفسُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «خَرَجْتُ أَنَا وأبو بكرٍ وعمرُ»، «رَجَعْتُ أَنَا وأبو بَكْرٍ وعُمَرُ» وهكذا يُطريهما دائمًا معه؛ ولهذا اختار اللهُ عزَّ وجلَّ بعلمِه وقدرتِه أن يكونا إلى جنبِهِ في قبرِه حتَّى إذا كان يومُ القيامةِ خرج الثَّلاثةُ جميعًا من مكانٍ واحدٍ، فكما كانوا جميعًا يذهبون ويجيئون فإنَّهم في الآخرةِ كذلك، اللَّهُمَّ احشرنا معهم يا رَبَّ العالمين.

---

(١) كما في حديث عبد الله بن دينار ، أنه قال: «رَأَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ يَقِفُ عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يُسَلِّمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيَدْعُو، ثُمَّ يَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا». أخرجه البيهقي (٥/ ٤٠٣، رقم ١٠٢٧٢).

ثُمَّ بعد الزِّيارة اتَّجه إلى القِبلةِ وادْعُ اللهَ عزَّ وجلَّ بما شئت، فليس هناك دعاءٌ مُعَيَّنٌ، هكذا قال المؤلِّفُ رحمه الله، لكنَّ بعضَ أهلِ العلمِ عَارَضَ في هذا، وقال: إنَّه لم يَثْبُتْ أنَّ هذا المكانَ مكانُ دعاءٍ، وأنَّ الإنسانَ إذا سَلَّمَ ينصرفُ كما كان عبدُ الله بنُ عمرَ يفعلُ، ولا يقومُ يدعو اللهَ، وإذا أراد أن يدعوَ اللهَ يدعوه في صلاتِه، أو بعدها، أو بين الأذان والإقامة، على حسب ما جاءت به السُّنَّةُ، أمَّا أن يُجْعَلَ ما حول قبرِ الرَّسولِ مكانًا للدُّعاءِ فهذا فيه نظرٌ، وأنا إلى هذا القولِ أَمْيَلُ مِنِّي إلى قولِ ابنِ القيِّم -رحمه الله- وغيرِه من أهلِ العلم، أنَّ الإنسانَ لا يقفُ هنا للدُّعاءِ، بل يُسَلِّمُ ثُمَّ ينصرفُ، وللدُّعاءِ مكانٌ آخرُ.

إِذَنْ الصَّوابُ خلاف ذلك، وأنَّ هذا ليس بمشروعٍ؛ لأنَّ هذا يحتاجُ إلى دليلٍ، ولا دليلَ على هذا، فالخلفاءُ الرَّاشدون رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ما كانوا يفعلون هذا عند قبرِه؛ يعني: أنَّهم إذا سلَّموا عليه اتَّجهوا إلى القبلةِ فدَعَوْا، لكن بعض أهلِ العلمِ -رحمهم الله- قال: «**إذا سلَّم اتَّجه إلى القِبلةِ فدعا**» ردًّا لقولِ مَنْ يدعو وهو واقفٌ على القبرِ، فتجده يُسَلِّمُ على القبرِ ثُمَّ يرفعُ يديه ويدعو اللهَ، وهذا غلطٌ، فالسَّلفُ الذين قالوا هذا أو فعلوه للرَّدِّ على مَنْ قالوا: إنَّه يقفُ متَّجهًا إلى القبرِ فيدعو.

٤٠٧٤- هَـذِي زِيَـارَةُ مَـنْ غَـدَا مُتَمَسِّـكًا ... بِشَـرِيعَةِ الإِسْـلامِ وَالإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «**هَذِي زِيَارَةُ مَنْ غَدَا مُتَمَسِّكًا بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ**» الإشارةُ إلى كُلِّ الصِّفةِ السَّابقة أنَّها زيارةُ مَنْ غَدَا متمسِّكًا، ولكنَّا نقولُ لابنِ القيِّم: رحمك اللهُ وجزاك عن أُمَّةِ الإسلامِ خيرًا، هذه الزِّيارةُ في نظرِك، أمَّا ما ذكرتَ من بعض ما يكونُ غلوًّا فلا شكَّ أنَّها ليست زيارةً شرعيَّةً، ولكن يشفعُ له أنَّه -رحمه الله- كان مجتهدًا، والمجتهدُ قد يُصِيبُ وقدْ يُخطِئ.

٤٠٧٥- مِنْ أَفْضَلِ الأَعْـمَالِ هَاتِيـكَ الزِّيَـا رَةُ وَهْـيَ يَـوْمَ الـحَشْرِ فِي المِيـزَانِ

الزِّيارةُ الشَّرعيَّةُ -لا شكَّ- أنَّها في ميزانِ الحسناتِ، أمَّا الزِّيارةُ البدعيَّةُ فهي في ميزانِ السَّيِّئاتِ.

وهنا أُنَبِّهُ على مسألةٍ دائـمًا يُطلقُها بعضُ النَّاسِ أخيرًا، وهي أن يقولَ: «**جعل اللهُ ذلك في ميزانِ أعمالِك**»، والأحسنُ أن يقولَ: «**جعل اللهُ ذلك في ميزانِ حسناتِك**»؛ لأنَّ ميزانَ الأعمالِ يشملُ السَّيِّئاتِ والحسناتِ، فإذا قال: «**في ميزانِ أعمالِك**» ما أدري! لكن هو على كُلِّ حالٍ يقصدُ «**ميزان الحسناتِ**» بلا شكٍّ، لكن اللَّفظُ صالحٌ، فالأحسنُ أن نَعْدِلَ عن هذا اللَّفظِ إلى لفظٍ لا يحتملُ.

٤٠٧٦- لا تَلْبِسُوا الـحَقَّ الَّذِي جَاءَتْ بِـهِ سُـنَنُ الرَّسُـولِ بِـأَعْظَمِ البُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**لَا تَلْبِسُوا الحَقَّ**»؛ يعني: لا تلبسوه بالباطلِ وتَخْلطُوه به، وتقولوا: هذه زيارةٌ شرعيَّةٌ، وهي زيارةٌ مبنيَّةٌ على الغلوِّ الذي نهى عنه الرَّسولُ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

قَوْلُهُ: «**بِأَعْظَمِ البُرْهَانِ**»، وفي نسخةٍ «**بِأَعْظَمِ البُطْلَانِ**»، فعلى نسخة «**بِأَعْظَمِ البُرْهَانِ**» قولُه: «**بِأَعْظَمِ**» متعلِّقةٌ بـ«**جَاءَتَ**»؛ يعني: جاءت به بأعظمِ دليلٍ، أمَّا «**بِأَعْظَمِ البُطْلَانِ**» فهي متعلِّقةٌ بـ«**تَلْبِسُوا**»؛ يعني: لا تلبسوا الحقَّ بأعظمِ البطلانِ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة:٤٢].

٤٠٧٧- هَذِي زِيَارَتُنَا وَلَـمْ نُنْكِرْ سِوَى الـ ـبِدَعِ المُضِـلَّةِ يَـا أُولِي العُـدْوَانِ

وهذا صحيحٌ، ابنُ القيِّم -رحمه الله- لـمَّا أنكر على هؤلاء ما أنكر لم يُنْكِرْ عليهم إلَّا البدعَ المُضِلَّةَ.

٤٠٧٨- وَحَدِيثُ شَدِّ الرَّحْلِ نَصٌّ ثَابِتٌ   يَجِبُ المَصِيرُ إِلَيْهِ بِالبُرْهَانِ

حديثُ شدِّ الرَّحلِ هو: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»[1]، فلا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى هذه المساجِدِ، وقولُه في هذا الحديثِ: «إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ» هذا استثناءٌ من أعمِّ الأحوالِ والأزمانِ والأماكنِ، إذا قلنا بهذا أورد علينا الذين يشدُّون الرِّحالَ إلى القبورِ، وقالوا: أَلَسْتُم تُجِيزونَ شَدَّ الرَّحلِ إلى أيِّ بلدٍ لطلبِ التِّجارةِ؟ قلنا: بلى، قالوا: أَلَسْتُم تُجِيزونَ شَدَّ الرِّحالِ لطلبِ العلمِ وهو عبادةٌ؟ قلنا: بلى.

يقولون: إنَّ تقديرَ الحديثِ: «لَا تُشَدُّ الرِّحالُ إلى مسجدٍ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجدَ»؛ لأنَّ المستثنى يكونُ من جنس المستثنى منه، وما دام المستثنى منه ليس عامًّا كما تُقِرُّون به فليكن مناسِبًا للمستثنى؛ أي: «لا تشدُّوها إلَّا إلى ثلاثةِ مساجدَ: المسجدِ الحرامِ ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»، وهذا القولُ ذهب إليه بعضُ الفقهاءِ، وقالوا: إنَّ شَدَّ الرَّحلِ إلى القبورِ لا يُسْتَفَادُ تحريمُه من هذا الحديثِ، بل من أدلَّةٍ أخرى؛ لأنَّ هذا الحديثَ لا يمكنُ أن يُرَادَ به العمومُ، وإذا لم يمكن فليكن المُقَدَّرُ من جنسِ المذكورِ؛ يعني: المستثنى منه من جنسِ المستثنى، فأيُّ إنسانٍ يَشُدُّ الرَّحلَ إلى مسجدٍ من أيِّ مساجد الدُّنيا نقولُ: هذا حرامٌ إلَّا المساجدَ الثَّلاثَةَ، أمَّا زيارةُ القبورِ فإنَّ التَّحريمَ لا يأتي من أجلِ أنَّها داخلةٌ في الحديثِ، لكن من أجلِ الغلوِّ فيها؛ لأنَّ مَنْ شَدَّ الرَّحلَ إلى القبرِ إنَّما يريدُ الغلوَّ فيه كما هو الواقع، يَرَوْنُ أنَّ دعاءَ الله عند هذا القبرِ أقربُ إلى الإجابةِ من غيرِه، وربَّما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٨٩). ومسلم: كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد، رقم (١٣٧٩).

يَرَوْنَ أنَّ شَدَّ الرَّحلِ إلى قبرِ الوليِّ وما أشبه ذلك لأجلِ دعاءِ هذا الوليِّ، فيكونُ شدًّا إلى الشِّركِ أو إلى وسائلِ الشِّركِ، فلذلك حرَّمناه من أجل هذا؛ أي: من أجلِ أنَّه شدٌّ للشِّركِ بهذا الوليِّ المقبورِ، أو وسيلةٌ إلى الشِّركِ كما هو الواقع الآن.

بعضُ النَّاسِ رأى شَخْصًا يُسَافِرُ من بلدٍ إلى آخَرَ يوم الجمعةِ ليستمعَ إلى خطبةِ إمام المسجدِ، فصاحَ عليه قائلًا: نعوذُ بالله منك، ونبرأُ إلى الله من فعلِك فقال: ماذا فعلتُ؟ قال: شَدَدْتَ الرَّحْلَ إلى غيرِ المساجدِ الثَّلاثةِ؟ نقول: ما شَدَّ الرَّحلَ للمسجدِ، بل شَدَّ الرَّحلَ للعلمِ ليستفيدَ من خطبةِ هذا الرَّجلِ؛ ولهذا لو كان الرَّجلُ عنده في بلدِه ما شدَّ الرَّحلَ، ففرقٌ بين مَنْ يَشُدُّ الرَّحلَ ليستمعَ إلى خطبةِ الإمامِ أو ليُصلِّيَ خلفَ الإمامِ كما يفعل بعضُ النَّاسِ في أيَّام رمضانَ؛ يكونُ في البلد قُرَّاءٌ يتلذَّذون بقراءتِهم، فيشدُّون الرَّحْلَ إليهم، هذا نقولُ: لا بأسَ؛ لأنَّه لم يَشُدَّ الرَّحلَ إلى المكان، إنَّما شَدَّ الرَّحلَ إلى العلمِ إذا كانت خطبةً، أو إلى التَّلذذ بقراءتِه واستماعِ قراءتِه، وهذا لا بأسَ به.

* * *

فصل

فِي تَعْيِينِ أَنَّ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ وَالقُرْآنِ طَرِيقَةُ النَّجَاةِ مِنَ النِّيرَانِ

٤٠٧٩- يَا مَنْ يُرِيدُ نَجَاتَهُ يَوْمَ الحِسَا ... بِ مِنَ الجَحِيمِ وَمَوْقِدِ النِّيرَانِ

٤٠٨٠- اتْبَعْ رَسُولَ اللهِ فِي الأَقْوَالِ وَالـ ... أَعْمَالِ لا تَخْرُجْ عَنِ القُرْآنِ

٤٠٨١- وَخُذِ «الصَّحِيحَيْنِ» اللَّذَيْنِ هُمَا لِعِقْـ ... ـدِ الدِّينِ وَالإِيمَانِ وَاسِطَتَانِ

٤٠٨٢- وَاقْرَأْهُمَا بَعْدَ التَّجَرُّدِ مِنْ هَوًى ... وَتَعَصُّبٍ وَحَمِيَّةِ الشَّيْطَانِ

٤٠٨٣- وَاجْعَلْهُمَا حَكَمًا وَلَا تَحْكُمْ عَلَى ... مَا فِيهِمَا أَصْلًا بِقَوْلِ فُلانِ

٤٠٨٤- وَاجْعَلْ مَقَالَتَهُ كَبَعْضِ مَقَالَةِ الـ ... أَشْيَاخِ تَنْصُرُهَا بِكُلِّ أَوَانِ

٤٠٨٥- وَانْصُرْ مَقَالَتَهُ كَنَصْرِكَ لِلَّذِي ... قَلَّدْتَهُ مِنْ غَيْرِ مَا بُرْهَانِ

٤٠٨٦- قَدِّرْ رَسُولَ اللهِ عِنْدَكَ وَحْدَهُ ... وَالقَوْلُ مِنْهُ إِلَيْكَ ذُو تِبْيَانِ

٤٠٨٧- مَاذَا تَرَى فَرْضًا عَلَيْكَ مُعَيَّنًا ... إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَذَا إِيمَانِ

٤٠٨٨- عَرْضَ الَّذِي قَالُوا عَلَى أَقْوَالِهِ ... أَوْ عَكْسُ ذَاكَ فَذَانِكَ الأَمْرَانِ

٤٠٨٩- هِيَ مَفْرِقُ الطُّرُقَاتِ بَيْنَ طَرِيقِنَا ... وَطَرِيقِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالعُدْوَانِ

٤٠٩٠- قَدِّرْ مَقَالاتِ العِبَادِ جَمِيعِهِمْ ... عَدَمًا وَرَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ

٤٠٩١- وَاجْعَلْ جُلُوسَكَ بَيْنَ صَحْبِ مُحَمَّدٍ ... وَتَلَقَّ مَعْهُمْ عَنْهُ بِالإِحْسَانِ

٤٠٩٢- وَتَلَــقَّ عَــنْهُمْ مَــا تَلَقَّــوْهُ هُــمُ ... عَنْــهُ مِــنَ الإِيــمَانِ وَالعِرْفَــانِ

٤٠٩٣- أَفَلَــيْسَ فِي هَــذَا بَــلاغٌ مُسَــافِرٍ ... يَبْغِــي الإِلَــهَ وَجَنَّــةَ الحَيَــوَانِ

٤٠٩٤- لَوْلَا التَّنَاوُشُ بَيْنَ هَذَا الـخَلْقِ مَـا ... كَـانَ التَّفَـرُّقُ قَـطُّ فِي الـحُسْبَانِ

الشــرحُ

كُلٌّ منَّا -نحن المؤمنين- يريدُ النَّجاةَ من النَّارِ ويريدُ دخولَ الجنَّةِ، فما الطَّريقُ؟ بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه الله- في هذا الفصلِ هذا الطَّريقَ فقال:

٤٠٧٩- يَا مَــنْ يُرِيــدُ نَجَاتَــهُ يَــوْمَ الــحِسَا ... بِ مِنَ الـجَحِيمِ وَمَوْقِـدِ النِّـيرَانِ

هذا النِّداءُ مُوجَّهٌ لكُلِّ مَنْ يريدُ النَّجاةَ من الجحيمِ ومُوقَدِ النِّيرانِ.

٤٠٨٠- اتْبَـعْ رَسُـولَ اللهِ فِي الأَقْـوَالِ وَالـ ... أَعْــمَالِ لا تَخْــرُجْ عَــنِ القُــرْآنِ

قَوْلُهُ: «اتْبَعْ رَسُولَ اللهِ»؛ أي: حتَّى تنجوَ.

قَوْلُهُ: «فِي الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ»، وهل يدخلُ في ذلك أيضًا الاعتقادُ؟ الجوابُ: نعم يدخلُ؛ لأنَّ الأقوالَ تشملُ أقوالَ البدنِ وأقوالَ القلوبِ، والأعمالَ تشملُ أعمالَ البدنِ وأعمالَ القلوبِ، أقوالُ القلوبِ هي إقرارُها واعترافُها وإيمانُها بالشَّيءِ، أمَّا أعمالُها فهي حركاتُها من المحبَّةِ والتَّوكُّلِ والخشيةِ والخوفِ وما أشبه ذلك، أمَّا أقوالُ الجوارحِ فهي قولُ اللِّسانِ، وأعمالُ الجوارحِ عملُ الأركانِ، فقولُ اللِّسانِ كالقِراءةِ والذِّكرِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ وحِفظِ الأحاديثِ وغيرِها، وأعمالُ الجوارحِ كالصَّلاةِ في قيامِها وركوعِها وسجودِها والذَّهابِ إليها وغيرِ ذلك.

وَقَوْلُهُ: «لَا تَخْرُجْ عَنِ الْقُرْآنِ» إشارة إلى أنَّ ما جاء عن الرَّسولِ ﷺ فهو من القرآنِ حُكْمًا يجبُ أن نعملَ به كما نعملُ بالقرآنِ، وعملُنا به عملٌ بالقرآنِ حقيقةً.

٤٠٨١- وَخُذِ «الصَّحِيحَيْنِ» اللَّذَيْنِ هُمَا لِعِقْـ ـدِ الدِّينِ وَالإِيمَانِ وَاسِطَتَانِ

قَوْلُهُ: «وَخُذِ الصَّحِيحَيْنِ»؛ يعني: بعد القرآنِ.

وهذا حثٌّ واضحٌ من المؤلِّفِ -رحمه الله- على قراءة الصَّحيحَيْنِ، ويعني بهما: صحيحَ البخاريِّ وصحيحَ مسلمٍ؛ لأنَّهما أصحُّ الكتبِ فيما أُلِّفَ في الحديثِ، والبخاريُّ أصَحُّ من مسلمٍ وإن كان ترتيبُ مسلمٍ -رحمه الله- أجودَ لكن من حيثُ الصِّحَّةُ، فالبخاريُّ أصحُّ.

٤٠٨٢- وَاقْرَأْهُمَا بَعْدَ التَّجَرُّدِ مِنْ هَوًى وَتَعَصُّبٍ وَحَمِيَّةِ الشَّيْطَانِ

اقرأ الصَّحيحَيْنِ متجرِّدًا عن الهوى والحميَّةِ والتَّعصُّبِ، وهذا واجبٌ على كُلِّ مَنْ قرأ دليلًا أن يتجرَّدَ من الهوى والتَّعصُّبِ ليحكمَ بما دَلَّ عليه الدَّليلُ؛ ولهذا يُقَالُ: «استدِلَّ ثُمَّ اعتقِدْ ثُمَّ اعملْ» ولا تعتقدْ ثُمَّ تستدلُّ؛ لأنَّك إن اعتقدتَ ثُمَّ استدلَلْتَ فربَّما تميلُ إلى اعتقادِك وتصرفُ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ إليه، لكن إذا قَرَأْتَ الدَّليلَ أوَّلا، ثُمَّ بَنَيْتَ العقيدةَ والعملَ عليه فحينئذٍ يكونُ طريقُك صوابًا.

٤٠٨٣- وَاجْعَلْهُمَا حَكَمًا وَلَا تَحْكُمْ عَلَى مَا فِيهِمَا أَصْلًا بِقَوْلِ فُلَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، اجعل ما في الصَّحيحَيْنِ هو الأصل، ولا تحكمْ عليهما بقولِ فلانٍ وفلانٍ فتجعلَهما تَابِعَيْنِ لا متبوعَيْنِ.

٤٠٨٤- وَاجْعَلْ مَقَالَتَهُ كَبَعْضِ مَقَالَةِ الـ أَشْيَاخِ تَنْصُرُهَا بِكُلِّ أَوَانِ

قَوْلُهُ: «وَاجْعَلْ مَقَالَتَهُ»؛ أي: مقالةَ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

اجعَلْ مقالةَ الرَّسولِ كبعضِ مقالةِ الأشياخِ، وهذا تَنَزُّلٌ من ابنِ القيِّمِ، والواجبُ أن أجعلَها فوق مقالةِ كُلِّ الأشياخِ، لكنَّه يقولُ: نريدُ منكم من بابِ التَّنزُّلِ أن تنصروا قولَ الرَّسولِ ﷺ كما تنصرون قولَ أشياخِكم، لكن هذا من بابِ التَّنَزُّلِ، يقولُ: على الأقلِّ أَعْطِه ولو بعضَ الشَّيءِ، وهو يُخاطِبُ مَنْ يُقَدِّمون مقالةَ الأشياخِ على مقالةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٨٥- وَانْصُرْ مَقَالَتَهُ كَنَصْرِكَ لِلَّذِي قَلَّدْتَهُ مِنْ غَيْرِ مَا بُرْهَانِ

يعني: انصر مقالةَ الرَّسولِ كنصر الذي قَلَّدْتَه وأنت تقلِّدُه بلا بُرهانٍ، لكن لو اتَّبَعْتَ الرَّسولَ اتَّبَعْتَه ببُرهانٍ.

٤٠٨٦- قَدِّرْ رَسُولَ الله عِنْدَكَ وَحْدَهُ وَالقَوْلُ مِنْهُ إِلَيْكَ ذُو تِبْيَانِ

يعني: اجعلْ قَدْرَ الرَّسولِ وحدَه عندك، واجعل كلامَه ذا تبيانٍ؛ أي: كلامًا فصيحًا واضحًا حتَّى تأخذَ بمدلولِه.

٤٠٨٧- مَاذَا تَرَى فَرْضًا عَلَيْكَ مُعَيَّنًا إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَذَا إِيمَانِ

٤٠٨٨- عَرْضَ الَّذِي قَالُوا عَلَى أَقْوَالِهِ أَوْ عَكْسُ ذَاكَ فَذَانِكَ الأَمْرَانِ

يعني: هل ترى من الفرضِ عليك أن تَعرِضَ ما قالوه على أقوالِ الرَّسولِ أو أن تَعْرِضَ أقوالَ الرَّسولِ على الذي قالوه؟ الجوابُ: الأوَّل، فالفرضُ أن تَعرِضَ أقوالَهم على أقوالِ الرَّسولِ، فإن وافقَتْ قُبِلَتْ وإلَّا رُدَّتْ.

٤٠٨٩- هِيَ مَفْرِقُ الطُّرُقَاتِ بَيْنَ طَرِيقِنَا وَطَرِيقِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالعُدْوَانِ

نحن نَعْرِضُ مقالةَ غيرِ الرَّسولِ على مقالةِ الرَّسولِ، وهم يَعْرِضُون مَقالةَ

الرَّسولِ على مقالةِ غيرِ الرَّسولِ، هذا هو مفترقِ الطُّرقِ، والحقُّ مع مَنْ عَرَضَ مقالةَ النَّاسِ على مقالةِ الرَّسولِ.

فإن وَافَقَتْ أقوالُ الشُّيوخِ أقوالَ الرَّسولِ ﷺ فعلى العينِ والرَّأسِ، وإن خَالَفَتْ أقوالَ الرَّسولِ فليس لها حظٌّ من النَّظرِ عندنا، هم بالعكس؛ ولهذا إذا خَالَفَتْ أقوالُ الرَّسولِ أقوالَ أشياخِهم لجأوا إلى أحد أمرين: إمَّا التَّحريفِ، وهذا فيما ثبت وما لم يثبت، وإمَّا الرَّدِّ إذا أمكنهم الرَّدُّ، فمثلًا إذا جاءت المخالَفةُ في أقوالِ الرَّسولِ في المتواتر ماذا يصنعون؟ يحرِّفون، وإذا جاءت بأخبارِ الآحادِ قالوا: مردودةٌ، هذا الحديثُ مردودٌ؛ لأنَّ أخبارَ الآحادِ لا يثبتُ بها اليقينُ، فهي تفيدُ الظَّنَّ، ودلالةُ العقلِ عندهم يقينيَّةٌ، ولا شكَّ أنَّ هذا -والعياذُ بالله- زيغٌ عظيمٌ، فالواجبُ أنَّ كُلَّ ما صَحَّ عن رسولِ الله ﷺ عن طريقِ الآحادِ أو التَّواترِ فالواجبُ تقديمُه على كُلِّ قولٍ.

٤٠٩٠- قَدِّرْ مَقَالاتِ العِبَادِ جَمِيعِهِمْ عَدَمًا وَرَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «**قَدِّرْ مَقَالَاتِ العِبَادِ جَمِيعِهِمْ عَدَمًا**» كأنَّهم لم يقولوا شيئًا، إذَنْ إلى أيِّ شيءٍ أرجعُ؟ قال: «**وَرَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ**»؛ يعني: منبعَ الإيمانِ، وهو كلامُ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٩١- وَاجْعَلْ جُلُوسَكَ بَيْنَ صَحْبِ مُحَمَّدٍ وَتَلَقَّ مَعْهُمْ عَنْهُ بِالإِحْسَانِ

يعني: اجعل كأنَّك مع الصَّحابةِ تسمعُ كلامَ النَّبيِّ ﷺ، وترى أفعالَه، لتكونَ مِثْلَهم في الاتِّباعِ، وهذه فائدةٌ عظيمةٌ، اجعل جلوسَك مع أصحابِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وعلى هذا فلا تسأل عمَّا لم يسألوا عنه ولا تُحْدِثْ ما لم يقولوه؛ ولهذا نحن ننتقدُ على بعضِ إخوانِنا المُثبتين للصِّفاتِ أن يتعمَّقوا في

إثباتِها، فمثلًا قالوا: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا»[1]، فهل نُثْبِتُ لله الملَلَ أو لا؟ نقولُ: الصَّحابةُ ما ذهبوا يراجعون الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في هذا، عرفوا المرادَ والمقصودَ وسكتوا عمَّا سوى ذلك، عرفوا أنَّ مرادَ الرَّسولِ ﷺ أنَّه مهما أكثَرتُم من العملِ فاللهُ تعالى يُجازيكم عليه، ولم يسألوا: هل اللهُ يُوصَفُ بالملِلِ أو لا يُوصَفُ؟ وأشياءُ كثيرةٌ من هذا النَّوعِ يتعمَّقُ فيها المتعمِّقون، والصَّحابةُ الذين هم -واللهِ- أفضلُ منَّا وأحرصُ منَّا على الخيرِ، وعندهم مَنْ يستطيعُ أن يُجيبَ وهو الرَّسولُ ﷺ لم يسألوا، إِذَنْ يسعُك ما وَسِعَهم.

٤٠٩٢- وَتَلَقَّ عَنْهُمْ مَا تَلَقَّوْهُ هُمُ ... عَنْهُ مِنَ الإِيمَانِ وَالعِرْفَانِ

فإذا قال قائلٌ: كيف أتلقَّى عنهم؟ نقولُ: الحمدُ لله بالسَّنَدِ، هذه الأُمَّةُ حفظ اللهُ دِينَها بالسَّنَدِ، اقرأ: «**حدَّثنا فلانٌ عن فلانٍ عن فلانٍ**» حتَّى تصلَ إلى الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

٤٠٩٣- أَفَلَيْسَ فِي هَذَا بَلَاغُ مُسَافِرٍ ... يَبْغِي الإِلَهَ وَجَنَّةَ الحَيَوَانِ

الجوابُ: بلى، وبلاغُ المسافرِ الزَّادُ الذي يُبْلِغُه مقصدَه؛ يعني: فأنت الآن إذا أَخَذْتَ بما قلتُه لك فقد أَخَذْتَ بلاغَ المسافرِ الذي يُوصلُه إلى منتهى سفرِه.

٤٠٩٤- لَوْلَا التَّنَاوُشُ بَيْنَ هَذَا الخَلْقِ مَا ... كَانَ التَّفَرُّقُ قَطُّ فِي الحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «**لَوْلَا التَّنَاوُشُ**»، وفي نسخةٍ: «**لَوْلَا التَّنَافُسُ**».

لولا هذا ما كان التَّفرُّقُ قَطُّ في الحسبانِ، فلولا هذا لكان النَّاسُ أُمَّةً واحدةً، ولكنَّهم تَناوشوا فتفرَّقوا، أو تنافسوا فاختلفوا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله عزَّ وجلَّ أَدْوَمُه، رقم (٤٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن، رقم (٧٨٥).

٤٠٩٥- فَـالرَّبُّ رَبٌّ وَاحِـدٌ وَكِتَابُـهُ حَـقٌّ وَفَهْـمُ الحَـقِّ مِنْـهُ دَانِي

٤٠٩٦- وَرَسُولُهُ قَدْ أَوْضَحَ الحَـقَّ الـمُبِيـ ـنَ بِغَايَـةِ الإِيضَـاحِ وَالتِّبْيَـانِ

٤٠٩٧- مَـا ثَـمَّ أَوْضَـحُ مِـنْ عِبَارَتِـهِ فَـلا يَحْتَـاجُ سَـامِعُهَا إِلَى تِبْيَـانِ

٤٠٩٨- وَالنُّصْحُ مِنْـهُ فَـوْقَ كُـلِّ نَصِـيحَةٍ وَالعِلْـمُ مَـأْخُوذٌ عَـنِ الـرَّحْمَنِ

الشَّـرحُ

ذكَر -رحمه الله- في هذه الأبياتِ أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ واحدٌ، وكتابَه حقٌّ ورسولَه حقٌّ، والكتابَ فهمُه دانٍ؛ ولذا قال رحمه الله:

٤٠٩٥- فَـالرَّبُّ رَبٌّ وَاحِـدٌ وَكِتَابُـهُ حَـقٌّ وَفَهْـمُ الحَـقِّ مِنْـهُ دَانِي

الرَّبُّ واحدٌ، ويريدُ يريدُ بذلك أن يمنعَ التَّناقضَ في كلامِ الله؛ لأنَّه واحدٌ، وأيضًا كتابُه حقٌّ، ولو لم يكن حقًّا لكان متناقضًا، والفهمُ من القرآنِ دانٍ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، أمَّا الرَّسولُ فيقول:

٤٠٩٦- وَرَسُولُهُ قَدْ أَوْضَحَ الحَـقَّ الـمُبِيـ ـنَ بِغَايَـةِ الإِيضَـاحِ وَالتِّبْيَـانِ

٤٠٩٧- مَـا ثَـمَّ أَوْضَـحُ مِـنْ عِبَارَتِـهِ فَـلا يَحْتَـاجُ سَـامِعُهَا إِلَى تِبْيَـانِ

٤٠٩٨- وَالنُّصْحُ مِنْـهُ فَـوْقَ كُـلِّ نَصِـيحَةٍ وَالعِلْـمُ مَـأْخُوذٌ عَـنِ الـرَّحْمَنِ

اجتمع في كلامِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ثلاثةُ أمورٍ:

الأَوَّل: الفصاحةُ، فلا شيءَ أوضحُ من عبارتِه، ولا أفصحُ ولا أَبْيَنُ.

الثَّاني: النُّصحُ، فهو ﷺ فوق كُلِّ ناصحٍ، فلا أحدَ أنصحُ للخَلقِ منه.

الثَّالث: العلمُ، فإنَّ كلامَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مأخوذٌ من الرَّحمنِ، لا منِ قولِ فلانٍ ولا من قولِ فلانٍ.

فإذا اجتمع في الكلامِ تمامُ العلمِ وتمامُ النُّصحِ وتمامُ الفصاحةِ والبيان، فإنَّه يكونُ بذلك كاملًا ولا يحتاجُ إلى ما يُكَمِّلُه؛ لأنَّ أكثرَ ما يعيبُ الكلامَ أن يكونَ الكلامُ ركيكًا، لا يُفْهَمُ المرادُ منه، أو أن يكونَ القائلُ به جاهلًا لا يُوثَقُ به، أو أن يكونَ القائلُ به غيرَ ناصحٍ لا يُوثَقُ به.

وهناك وصفٌ رابعٌ لم يذكره المؤلِّفُ، وهو الصِّدقُ، أن يكونَ صادقًا، فكلامُ الرَّسولِ ﷺ اجتمع فيه أربعةُ أوصافٍ وهي: العلمُ وهذا أخذه من الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وكمالُ النُّصحِ، وكمالُ الفصاحةِ، وكمالُ الصِّدقِ، أفبعدَ هذه الأوصافِ الأربعة نحتاجُ إلى أن نطلبَ الحقَّ من غيرِ كلامِه؟! الجوابُ: أبدًا.

***

٤٠٩٩- فَلِأَيِّ شَيْءٍ يَعْدِلُ البَاغِي الـهُدَى	عَنْ قَوْلِهِ لَوْلَا عَمَى الـخِذْلانِ
٤١٠٠- فَالنَّقْلُ عَنْهُ مُصَدَّقٌ وَالقَوْلُ مِنْ	ذِي عِصْمَةٍ مَا عِنْدَنَا قَوْلانِ
٤١٠١- وَالعَكْسُ عِنْدَ سِوَاهُ فِي الأَمْرَيْنِ يَا	مَنْ يَهْتَدِي هَلْ يَسْتَوِي النَّقْلانِ
٤١٠٢- تَاللهِ قَدْ لاحَ الصَّبَاحُ لِمَنْ لَهُ	عَيْنَانِ نَحْوَ الفَجْرِ نَاظِرَتَانِ
٤١٠٣- وَأَخُو العَمَايَةِ فِي عَمَايَتِهِ يَقُو	لُ اللَّيْلُ بَعْدُ أَيَسْتَوِي الرَّجُلانِ
٤١٠٤- تَاللهِ قَدْ رُفِعَتْ لَكَ الأَعْلامُ إِنْ	كُنْتَ المُشَمِّرَ نِلْتَ دَارَ أَمَانِ
٤١٠٥- وَإِذَا جَبُنْتَ وَكُنْتَ كَسْلانًا فَمَا	حُرِمَ الوُصُولَ إِلَيْهِ غَيْرُ جَبَانِ

٤١٠٦- فَاقْدِمْ وَعِدْ بِالوَصْلِ نَفْسَكَ وَاهْجُرِ الـ ـمَقْطُوعَ مِنْـهُ قَـاطِعَ الإِنْسَـانِ

٤١٠٧- عَـنْ نَيْـلِ مَقْصِـدِهِ فَـذَاكَ عَـدُوُّهُ وَلَـوَ انَّـهُ مِنْـهُ القَرِيـبُ الـدَّانِي

الشَّـرحُ

يقول المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى-: إذا اتَّضحت هذه الأمورُ الثَّلاثةُ في كلامِ الرَّسولِ ﷺ، ونحن زدنا أمرًا رابعًا وهو الصِّدق، يقولُ:

٤٠٩٩- فَلِأَيِّ شَيْءٍ يَعْدِلُ البَاغِي الـهُدَى عَنْ قَوْلِـهِ لَـوْلَا عَمَـى الـخِذْلانِ

قَوْلُهُ: «فَلأَيِّ شَيْءٍ يَعْدِلُ البَاغِي الـهُدَى عَنْ قَوْلِهِ» «البَاغِي الـهُدَى»؛ يعني: الطالبَ الـهدى، لأيِّ شيءٍ يَعْدِلُ عن قولِه وقد اجتمع في قولِه الكمالاتُ الأربعة.

قَوْلُهُ: «لَوْلَا عَمَى الـخِذْلَانِ» نعوذُ بالله؛ يعني: لولا أنَّ هذا مصابٌ بالعمى الذي خَذَلَهُ لكان لا يَعْدِلُ عن قولِه أبدًا.

٤١٠٠- فَالنَّقْلُ عَنْهُ مُصَـدَّقٌ وَالقَـوْلُ مِـنْ ذِي عِصْـمَةٍ مَـا عِنْـدَنَا قَـوْلانِ

النَّقلُ عن الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مُصَدَّقٌ، وقولُه معصومٌ ما عندنا في هذا قولان، أمَّا غيرُ الرَّسولِ فالبعكس.

٤١٠١- وَالعَكْسُ عِنْدَ سِوَاهُ فِي الأَمْرَيْنِ يَـا مَنْ يَهْتَدِي هَـلْ يَسْـتَوِي الـنَّقْلانِ

قَوْلُهُ: «وَالعَكْسُ عِنْدَ سِوَاهُ فِي الأَمْرَيْنِ» فالنَّقلُ عنه ليس بِمُصَدَّقٍ، والخطأُ ليس معصومًا منه، فما سوى الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ليس بمعصومٍ عن الكذبِ ولا عن الخطأ ولا عن الجهلِ، وأمَّا النَّبيُّ ﷺ فمعصومٌ من ذلك.

قَوْلُهُ: «هَلْ يَسْتَوِي النَّقْلَانِ؟» الجوابُ: لا يستويان.

٤١٠٢- تَـالله قَـدْ لاحَ الصَّـبَاحُ لِـمَنْ لَـهُ ... عَيْنَـانِ نَحْـوَ الفَجْـرِ نَاظِرَتَـانِ

أقْسَمَ بأنَّه لَاحَ الصَّباحُ، وهو انشقاقُ النُّورِ لمن ينظرُ إلى الفجرِ، أمَّا مَنْ نَكَّسَ رأسَه فلم يُطالِعْ في الأفُقِ فإنَّه لا يَرى الصَّباحَ.

٤١٠٣- وَأَخُـو العَـمَايَةِ فِي عَـمَايَتِهِ يَقُـو ... لُ اللَّيْـلُ بَعْـدُ أَيَسْـتَوِي الـرَّجُلانِ

قَوْلُهُ: «**أَيَسْتَوِي الرَّجُلَانِ؟**» الجوابُ: لا.

٤١٠٤- تَالله قَـدْ رُفِعَـتْ لَـكَ الأَعْـلامُ إِنْ ... كُنْـتَ المُشَـمِّرَ نِلْـتَ دَارَ أَمَـانِ

قَوْلُهُ: «**الأَعْلَامُ**» جمعُ «عَلَم»، وهو ما يُرْفَعُ في القتالِ وغيرِ القتالِ ليكونَ دليلًا على المقصودِ.

٤١٠٥- وَإِذَا جَبُنْـتَ وَكُنْـتَ كَسْـلانًا فَـمَا ... حُـرِمَ الوُصُـولَ إِلَيْـهِ غَـيْرُ جَبَـانِ

٤١٠٦- فَاقْدِمْ وَعِدْ بِالوَصْلِ نَفْسَكَ وَاهْجُرِ الـ ... ـمَقْطُوعَ مِنْـهُ قَـاطِعَ الإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**فَاقْدِمْ**»؛ أي: تَقَدَّمْ.

يعني: أَقْدِم ولا تتأخَّرْ، وكُلُّ شيء يقطعُك عن الإقدامِ فاهجرْه.

٤١٠٧- عَـنْ نَيْـلِ مَقْصِـدِهِ فَـذَاكَ عَـدُوُّهُ ... وَلَـوَ انَّـهُ مِنْـهُ القَرِيـبُ الـدَّانِي

كُلُّ إنسانٍ يعوقُك عن مقصدِك وعن اتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ فإنَّه عدوُّك ولو كان من أقربِ النَّاسِ إليك.

* * *

فصــل

فِي تَيْسِيرِ السَّيْرِ إِلَى اللهِ عَلَى الْمُثْبِتِينَ الْمُوَحِّدِينَ، وَامْتِنَاعِهِ عَلَى الْمُعَطِّلِينَ وَالْمُشْرِكِينَ

٤١٠٨- يَـا قَاعِـدًا سَـارَتْ بِـهِ أَنْفَاسُـهُ ... سَـيْرَ البَرِيـدِ وَلَـيْسَ بِالـذَّمَلانِ

٤١٠٩- حَتَّى مَتَى هَذَا الرُّقَـادُ وَقَـدْ سَرَى ... وَفْـدُ المَحَبَّـةِ مَـعْ أُولِي الإِحْسَـانِ

٤١١٠- وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْـوَ العُـلَى ... لا حَـادِيَ الرُّكْبَـانِ وَالأَظْعَـانِ

٤١١١- رَكِبُوا العَزَائِمَ وَاعْتَلَـوْا بِظُهُورِهَـا ... وَسَرَوْا فَـمَا حَنُّـوا إِلَى نُعْـمَانِ

٤١١٢- سَـارُوا رُوَيْـدًا ثُـمَّ جَـاؤُوا أَوَّلًا ... سَـيْرَ الـدَّلِيلِ يَـؤُمُّ بِالرُّكْبَـانِ

٤١١٣- سَارُوا بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ إِلَيْهِ لا التْـ ... ـتَعْطِيلِ وَالتَّحْرِيـفِ وَالنُّكْـرَانِ

٤١١٤- عَرَفُوهُ بِالأَوْصَافِ فَـامْتَلأَتْ قُلُـو ... بُهُـمُ لَـهُ بِالـحُبِّ وَالإِيـمَانِ

٤١١٥- فَتَطَايَرَتْ تِلْكَ القُلُوبُ إِلَيْـهِ بِالـ ... أَشْـوَاقِ إِذْ مُلِئَـتْ مِـنَ العِرْفَـانِ

٤١١٦- وَأَشَـدُّهُمْ حُبًّـا لَـهُ أَدْرَاهُـمُ ... بِصِـفَاتِهِ وَحَقَـائِقِ القُـرْآنِ

٤١١٧- فَالـحُبُّ يَتْبَـعُ لِلشُّـعُورِ بِحَسْبِهِ ... يَقْـوَى وَيَضْـعُفُ ذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ

٤١١٨- وَلِـذَاكَ كَـانَ العَـارِفُونَ صِـفَاتِهِ ... أَحْبَابَـهُ هُـمْ أَهْـلُ هَـذَا الشَّـانِ

٤١١٩- وَلِـذَاكَ كَـانَ العَالِـمُونَ بِـرَبِّهِمْ ... أَحْبَابَـهُ وَبِشِـرْعَةِ الإِيـمَانِ

٤١٢٠- وَلِذَاكَ كَانَ الْمُنْكِرُونَ لَـهَا هُـمُ الـ ... أَعْـدَاءَ حَقًّـا هُـمْ أُولُـو الشَّـنَآنِ

٤١٢١- وَلِذَاكَ كَانَ الـجَاهِلُونَ بِـذَا وَذَا ... بُغَضَـاءَهُ حَقًّـا ذَوِي شَـنَآنِ

٤١٢٢- وَحَيَاةُ قَلْبِ العَبْدِ فِي شَيْئَيْنِ مَـنْ ... يُـرْزَقْهُمَا يَحْيَـا مَـدَى الأَزْمَـانِ

٤١٢٣- فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الأُخْـرَى يَكُـو ... نُ الحَـيُّ ذَا الرِّضْـوَانِ وَالإِحْسَـانِ

٤١٢٤- ذِكْـرُ الإِلَـهِ وَحُبُّـهُ مِـنْ غَـيْرِ إِشْـ ... ـرَاكٍ بِـهِ وَهُمَـا فَمُمْتَنِعَـانِ

٤١٢٥- مَنْ صَاحَبَ التَّعْطِيلَ حَقًّا كَامْتِنَا ... عِ الطَّائِرِ المَقْصُوصِ مِنْ طَيَرَانِ

٤١٢٦- أَيُحِبُّـهُ مَـنْ كَـانَ يُنْكِـرُ وَصْـفَهُ ... وَعُلُـوَّهُ وَكَلامَـهُ بِقُـرَانِ

٤١٢٧- لا وَالَّذِي حَقًّا عَلَى العَـرْشِ اسْتَوَى ... مُـتَكَلِّمًا بِـالوَحْيِ وَالفُرْقَـانِ

٤١٢٨- اللهُ أَكْـبَرُ ذَاكَ فَضْـلُ اللهِ يُـؤْ ... تِيـهِ لِـمَنْ يَـرْضَى بِـلا حُسْبَانِ

٤١٢٩- وَتَرَى المُخَلَّفَ فِي الـدِّيَارِ تَقُـولُ ذَا ... إِحْـدَى الأَثَـافِي خُـصَّ بِالحِرْمَـانِ

٤١٣٠- اللهُ أَكْـبَرُ ذَاكَ عَـدْلُ اللهِ يَقْـ ... ـضِيهِ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ إِنْسَانِ

٤١٣١- وَلَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا الـحَمْدُ فِي الـ ... أُولَى وَفِي الأُخْـرَى هُمَـا حَمْـدَانِ

٤١٣٢- حَمْـدٌ لِـذَاتِ الـرَّبِّ جَـلَّ جَلالُـهُ ... وَكَـذَاكَ حَمْـدُ العَـدْلِ وَالإِحْسَـانِ

الشــرحُ

٤١٠٨- يَـا قَاعِـدًا سَـارَتْ بِـهِ أَنْفَاسُـهُ ... سَـيْرَ البَرِيـدِ وَلَـيْسَ بِالـذَّمَلانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَاعِدًا» يا أيَّ قاعدٍ، إنَّما نَصَبَها؛ لأنَّها نكرةٌ غيرُ مقصودةٍ، والنِّداءُ إذا وُجِّه لنكرةٍ غيرِ مقصودةٍ صار المنادَى منصوبًا.

قَوْلُهُ: «سَيْرَ البَرِيدِ» كانوا فيما سبق يقيمون شخصًا يركبُ على الخيلِ إلى مسافةِ بريدٍ، ثُمَّ تقفُ هذه الخيلُ في مكانٍ ما، وإذا بخيلٍ أخرى مجهَّزةٍ تحملُ الرَّسائلَ والأخبارَ من الخيلِ الأولى إلى بريدٍ آخرَ فيأخذ ما معه من الرَّسائلِ، ثُمَّ يعدو بها إلى بريدٍ آخرَ، وهكذا، والبريدُ أربعةُ فراسخ، والفرسخُ ثلاثةُ أميالٍ، والميلُ اثنا عشر ألف ذراعٍ، فهذا يُسمَّى بريدًا؛ لأنَّه أسرعُ ممَّا لو كان السَّيرُ من خيَّالٍ واحدٍ.

وَقَوْلُهُ: «سَيْرَ البَرِيدِ»؛ لأنَّه يُسْرِعُ.

قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ بِالذَّمَلَانِ»؛ أي: السَّير، و«الذَّمَلَانِ»: نوعٌ من المشي الضَّعيفِ[1].

٤١٠٩- حَتَّى مَتَى هَذَا الرُّقَادُ وَقَدْ سَرَى وَفْدُ المَحَبَّةِ مَعْ أُولِي الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «حَتَّى مَتَى هَذَا الرُّقَادُ؟»؛ يعني: إلى أين تبقى راقدًا؟

قَوْلُهُ: «وَقَدْ سَرَى وَفْدُ المَحَبَّةِ» سَرَوْا؛ أي: مَشَوْا ليلًا، ويقولُ الشَّاعرُ:

عَنْدَ الصَّبَاحِ: يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى ....[2]

٤١١٠- وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْوَ العُلَى لا حَادِيَ الرُّكْبَانِ وَالأَظْعَانِ

قَوْلُهُ: «وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْوَ العُلَى»؛ يعني: أنَّ عزماتِهم حَدَتْ بهم نحو العُلَى، و«العُلَى»؛ يعني: الأخلاقَ العاليةَ.

---

(١) الذَّمِيلُ: ضَرْبٌ من سَيْرِ الإبل، وقيل: هو السَّيْرُ اللَّيِّن ما كان. انظر: لسان العرب، مادة: «ذمل».

(٢) هذا من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال (٢/ ٣).

قَوْلُهُ: «لَا حَادِيَ الرُّكْبَانِ وَالأَظْعَانِ» «الأَظْعَان» جمعُ «ظعينة» وهنَّ النِّساءُ، وقد جرت العادةُ فيما سبق أنَّ أهلَ الأسفارِ يَحْدُون بالإبلِ التي عليها النِّساءُ؛ لأنَّ الإبلَ إذا حدا الحادي صارت تمشي بسهولةٍ وسرعةٍ، فتُسْرِعُ مع سهولةِ المشي، وحداءُ الإبل معروفٌ.

٤١١١- رَكِبُوا العَزَائِمَ وَاعْتَلَوْا بِظُهُورِهَا وَسَرَوْا فَمَا حَنُّوا إِلَى نُعْمَانِ

قَوْلُهُ: «رَكِبُوا العَزَائِمَ»؛ يعني: أنَّهم لم يهتمُّوا بما وراءَهم، وإنَّما ينظرون إلى ما أمامهم، فهم رَكِبُوا العزائمَ، و«العُزَائِمُ» جمعُ: «عزيمة».

قَوْلُهُ: «وَاعْتَلَوْا بِظُهُورِهَا»؛ أي: على ظهورِها.

قَوْلُهُ: «وَسَرَوْا فَمَا حَنُّوا إِلَى نُعْمَانِ»؛ أي: إلى بلدِهم.

٤١١٢- سَارُوا رُوَيْدًا ثُمَّ جَاؤُوا أَوَّلًا سَيْرَ الدَّلِيلِ يَؤُمُّ بِالرُّكْبَانِ

ساروا رُوَيْدًا، ولكنَّهم لاستمرارِهم في السَّيرِ جاؤوا أوَّلًا كما يجيءُ الدَّليلُ الذي يَؤُمُّ بالرُّكْبَانِ ويقودُهم.

٤١١٣- سَارُوا بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ إِلَيْهِ لا التْـ ـتَعْطِيلِ وَالتَّحْرِيفِ وَالنُّكْرَانِ

من هنا عرفنا أنَّه يريدُ -بمن سبق- أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ الذين يُثبتون لله تعالى الصِّفاتِ، لا أهلَ التَّعطيلِ والتَّحريفِ والنُّكرانِ، فأهلُ التَّعطيلِ هم الذين يُعطِّلون اللهَ عمَّا له من الصِّفاتِ، ويُعطِّلون النُّصوصَ عن معناها، وأهلُ التَّحريفِ هم الذين يُحرِّفونها إلى معنىً آخرَ، والنُّكران الذين يُكَذِّبونها، وهذا وصفُ أهلِ التَّعطيلِ، فهم يعطِّلونَ اللهَ عمَّا يجبُ له من الصِّفاتِ، ويَعْدُون على النُّصوصِ فيُحرِّفونها، ويَعْدُون على بعضِ النُّصوصِ فينكرونها، ما هي النُّصوص التي ينكرونها؟ هي

أخبارُ الآحادِ مثلًا في السُّنَّةِ، وأمَّا ما لا يمكنُ إنكارُه فيَسْطون عليه بالتَّحريفِ.

٤١١٤- عَرَفُوهُ بِالأَوْصَافِ فَامْتَلأَتْ قُلُو ... بُهُـمُ لَـهُ بِالحُبِّ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «عَرَفُوهُ» الضَّميرُ يعودُ على الله عزَّ وجلَّ.

فهم عرفوه بأوصافِه الكاملةِ، فامتلأت قلوبُهم له محبَّةً وإيمانًا به.

٤١١٥- فَتَطَايَرَتْ تِلْكَ القُلُوبُ إِلَيْـهِ بِالـ ... أَشْـوَاقِ إِذْ مُلِئَـتْ مِـنَ العِرْفَـانِ

لأنَّه من المعلومِ أنَّك كُلَّما عَرَفْتَ صفاتِ الشَّخصِ وكانت هذه الصِّفاتُ حميدةً فإنَّك سوف تسعى إلى الوصولِ إليه بكُلِّ ما تستطيعُ، هم عرفوا اللهَ عزَّ وجلَّ بأوصافِه فطارت قلوبُهم شوقًا إليه.

٤١١٦- وَأَشَـدُّهُمْ حُبًّـا لَـهُ أَدْرَاهُـمُ ... بِصِـفَاتِهِ وَحَقَـائِقِ القُـرْآنِ

هؤلاء هم أشدُّ النَّاسِ حُبًّا لله عزَّ وجلَّ العالمون بصفاتِه؛ لأنَّه كُلَّما عَلِمَ الإنسانُ بصفةٍ ازداد محبَّةً للموصوفِ.

٤١١٧- فَالحُبُّ يَتْبَـعُ لِلشُّـعُورِ بِحَسْـبِهِ ... يَقْـوَى وَيَضْـعُفُ ذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ

وهذا صحيحٌ؛ فالحبُّ مدارُه على شعورِ الإنسانِ بمَنْ يُحِبُّ، فإذا شعر الإنسانُ بصفاتٍ كاملةٍ في المحبوبِ فإنَّه لا بد أن يميلَ إليه بالحُبِّ، حتَّى الأمور المعتادة كالطَّعامِ والشَّرابِ واللِّباسِ والمساكنِ، كُلَّما شَعَرَ الإنسانُ بكمالِ هذا الشَّيءِ ازداد حُبًّا له.

٤١١٨- وَلِـذَاكَ كَـانَ العَـارِفُونَ صِـفَاتِهِ ... أَحْبَابَـهُ هُـمْ أَهْـلُ هَـذَا الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «العَارِفُونَ صِفَاتِهِ» الضَّميرُ يعودُ على الله.

٤١١٩- وَلِـذَاكَ كَـانَ العَالِـمُونَ بِـرَبِّهِمْ   أَحْبَابَـهُ وَبِشِـرْعَةِ الإِيـمَانِ

٤١٢٠- وَلِذَاكَ كَانَ المُنْكِرُونَ لَـهَا هُـمُ الـ   أَعْـدَاءَ حَقًّـا هُـمْ أُولُـو الشَّـنَآنِ

قَوْلُهُ: «الشَّنَآنِ»؛ يعني: البغض، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة:٢].

المنكِرون بل الجاهلون بهذه الأوصافِ هم أبعَدُ النَّاسِ عن محبَّةِ الله؛ لأنَّ مَنْ كان بالله أجهلَ كان عنه أبعدَ؛ إذ كيف يُحِبُّ مَنْ لا يعرفُ؟! هذا شيءٌ مستحيلٌ.

٤١٢١- وَلِذَاكَ كَـانَ الـجَاهِلُونَ بِـذَا وَذَا   بُغَضَـاءَهُ حَقًّـا ذَوِي شَـنَآنِ

قَوْلُهُ: «الجَاهِلُونَ بِذَا وَذَا»؛ أي: الجاهلون بصفاتِه والجاهلون به عزَّ وجلَّ وبأحكامِه هم البُغَضاءُ حقًّا ذوي شَنآن.

٤١٢٢- وَحَيَاةُ قَلْبِ العَبْـدِ فِي شَـيْئَيْنِ مَـنْ   يُـرْزَقْهُمَا يَحْيَـا مَـدَى الأَزْمَـانِ

٤١٢٣- فِي هَذِهِ الـدُّنْيَا وَفِي الأُخْـرَى يَكُـو   نُ الحَـيُّ ذَا الرِّضْـوَانِ وَالإِحْسَـانِ

ما هما؟ يقولُ:

٤١٢٤- ذِكْـرُ الإِلَـهِ وَحُبُّـهُ مِـنْ غَـيْرِ إِشْـ   ـرَاكٍ بِـهِ وَهُمَـا فَمُمْتَنِعَـانِ

٤١٢٥- مَنْ صَاحَبَ التَّعْطِيلَ حَقًّا كَامْتِنَا   عِ الطَّائِرِ المَقْصُوصِ مِـنْ طَـيَرَانِ

يقول: إذا رُزِقَ الإنسانُ هذين الأمرَيْنِ: الأوَّل: ذِكْرَ الإله، والثَّاني: حبَّه، صار حيًّا في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ أمَّا في الدُّنيا فحياتُه طيِّبةٌ، وأمَّا في الآخرةِ فأطيبُ؛ لقولِه -سبحانه وتعالى-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل:٩٧]؛ يعني: في الدُّنيا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل:٩٧]؛ يعني: في الآخرةِ، فكُلَّما أَدَامَ الإنسانُ ذكرَ ربِّهِ ازداد قلبُه حياةً، وكُلَّما أَحَبَّ اللهَ ازداد قلبُه حياةً لكن «**مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكٍ بِهِ**»، و«**هُمَا**»؛ أي: الذِّكرُ والمحبَّةُ فممتنعان «**مِنْ صَاحِبِ التَّعْطِيلِ حَقًّا كَامْتِنَاعِ الطَّائِرِ المَقْصُوصِ مِنْ طَيَرَانِ**»، لو أنَّك قَصَصْتَ جَنَاحَيْ الطَّائرِ هل يطيرُ؟ لا يمكنُ، إِذَنْ أهلُ التَّعطيلِ لا يمكنُ أن تمتلئَ قلوبُهم حُبًّا لله، ولا يمكنُ أن تَلْهَجَ ألسنتُهم ذكرًا به ما داموا معطِّلين؛ لأنَّه يقرأُ النُّصوصَ التي فيها الإثباتُ وهو لا يُثْبِتُها، إِذَنْ تكونُ حروفًا على ورقٍ.

٤١٢٦- أَيُحِبُّهُ مَنْ كَانَ يُنْكِرُ وَصْفَهُ ... وَعُلُوَّهُ وَكَلامَهُ بِقُرَانِ

٤١٢٧- لا وَالَّذِي حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ... مُتَكَلِّمًا بِالوَحْيِ وَالفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «**أَيُحِبُّهُ مَنْ كَانَ يُنْكِرُ وَصْفَهُ...؟**» هل يُحِبُّ اللهَ مَنْ كان يُنكرُ أنَ يكونَ موصوفًا بالكمالِ؟ الجوابُ: أبدًا، وكيف يُحِبُّ مَنْ لا يتَّصفُ بالكمالِ؟

قَوْلُهُ: «**لَا وَالَّذِي حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى**» يريدُ أن يُكايدَ هؤلاء الذين يُنكرون العلوَّ.

قَوْلُهُ: «**مُتَكَلِّمًا بِالوَحْيِ**» يُريد أن يُكايدَ هؤلاء الذين يُنكرون كلامَه.

٤١٢٨- اللهُ أَكْبَرُ ذَاكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْ ... تِيهِ لِمَنْ يَرْضَى بِلا حُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «**ذَاكَ**» المشارُ إليه: الذِّكرُ والمحبَّةُ أو الإقرارُ بالصِّفاتِ.

فمَنْ أُعْطِيَ الفضلَ بإثباتِ الصِّفاتِ والأسماءِ والمحبَّةِ لله عزَّ وجلَّ وكثرةِ الذِّكرِ فهذا فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ.

٤١٢٩- وَتَرَى الْمُخَلَّفَ فِي الدِّيَارِ تَقُولُ ذَا إِحْدَى الأَثَافِي خُصَّ بِالْحِرْمَانِ

قَوْلُهُ: «الْمُخَلَّفَ فِي الدِّيَارِ» يُريدُ بذلك الذي لم يُسَافِرْ إلى الله.

قَوْلُهُ: «تَقُولُ ذَا إِحْدَى الأَثَافِي» «الأَثَافِي» هي التي يُنْصَبُ عليها القِدْرُ، والتي يُنْصَبُ عليها القِدْرُ لا يمكنُ أن تزولَ عن مكانِها؛ لأنَّ مكانَ الطَّبخِ واحدٌ، فهم مِثْلُ الأثافي خُصَّ بالحِرمانِ.

٤١٣٠- اللهُ أَكْبَرُ ذَاكَ عَدْلُ اللهِ يَقْـ ـضِيهِ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «ذَاكَ» المشارُ إليه: ما حُرِمُوا من الوصولِ إلى الحقِّ؛ لأنَّهم عَدَلُوا عن الحقِّ فقابلهم اللهُ عزَّ وجلَّ بالعدلِ، فمَنْ خُذِلَ فذلك عدلُ الله كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف:٥]، وكما قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة١٣].

٤١٣١- وَلَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا الْحَمْدُ فِي الْـ أُولَى وَفِي الأُخْرَى هُمَا حَمْدَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا الحَمْدُ» «عَلَى هَذَا»؛ يعني: على الفضلِ، «وَهَذَا»؛ يعني: العدلَ، والحمدُ في الأولى وفي الأخرى هما حَمْدَانِ.

٤١٣٢- حَمْدٌ لِذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَكَذَاكَ حَمْدُ العَدْلِ وَالإِحْسَانِ

إِذَنْ اللهُ يُحْمَدُ على كمالِه الذَّاتِيِّ وعلى كمالِه المتعدِّي، كمالُه الذَّاتيُّ هو كمالُ صفاتِه، والمتعدِّي هو العدلُ والإحسانُ.

* * *

٤١٣٣- يَـا مَـنْ تَعِـزُّ عَلَـيْهِمُ أَرْوَاحُهُـمْ   وَيَـرَوْنَ غُبْنًـا بَيْعَهَـا بِهَـوَانِ

٤١٣٤- وَيَـرَوْنَ خُسْـرَانًا مُبِينًـا بَيْعَهَـا   فِي إِثْـرِ كُـلِّ قَبِيحَـةٍ وَمُهَـانِ

٤١٣٥- وَيَـرَوْنَ مَيْـدَانَ التَّسَـابُقِ بَـارِزًا   فَيُتَـارِكُونَ تَقَحُّـمَ الـمَيْدَانِ

٤١٣٦- وَيَـرَوْنَ أَنْفَـاسَ العِبَـادِ عَلَـيْهِمُ   قَدْ أُحْصِيَتْ بِالعَدِّ وَالـحُسْبَانِ

٤١٣٧- وَيَـرَوْنَ أَنَّ أَمَـامَهُمْ يَـوْمُ اللِّقَـا   للهِ مَسْـأَلَتَانِ شَـامِلَتَانِ

٤١٣٨- مَـاذَا عَبَـدْتُمْ ثُـمَّ مَـاذَا قَـدْ أَجَبْـ   ـتُمْ مَـنْ أَتَـى بِـالحَقِّ وَالبُرْهَـانِ

٤١٣٩- هَـاتُوا جَوَابًـا لِلسُّـؤَالِ وَهَيِّئُـوا   أَيْضًـا صَـوَابًا لِلجَـوَابِ يَـدَانِ

٤١٤٠- وَتَيَقَّنُوا أَنْ لَـيْسَ يُنْجِـيكُمْ سِـوَى   تَجْرِيـدِكُمْ لِـحَقَائِقِ الإِيـمَانِ

٤١٤١- تَجْرِيـدِكُمْ تَوْحِيـدَهُ سُـبْحَانَهُ   عَـنْ شِرْكَـةِ الشَّـيْطَانِ وَالأَوْثَـانِ

٤١٤٢- وَكَـذَاكَ تَجْرِيـدُ اتِّبَـاعِ رَسُـولِهِ   عَـنْ هَـذِهِ الآرَاءِ وَالـهَذَيَانِ

٤١٤٣- وَاللهِ مَـا يُنْجِـي الفَتَـى مِـنْ رَبِّـهِ   شَيْءٌ سِـوَى هَـذَا بِـلا رَوَغَـانِ

الشرحُ

في هذه الأبياتِ وَجَّهَ المؤلِّفُ -رحمه الله- هذا الخطابَ إلى مَنْ أَنْفُسُهم عزيزةٌ عليهم فقال:

٤١٣٣- يَـا مَـنْ تَعِـزُّ عَلَـيْهِمُ أَرْوَاحُهُـمْ   وَيَـرَوْنَ غُبْنًـا بَيْعَهَـا بِهَـوَانِ

وهؤلاء هم أحياءُ القلوبِ الذين يعزُّ عليهم أن تهونَ أرواحُهم، وَيرَوْنَ من الغَبْنِ أن يبيعوها بالهوانِ.

٤١٣٤- وَيَــرَوْنَ خُسْــرَانًا مُبِينًــا بَيْعَهَــا ... فِي إِثْــرِ كُــلِّ قَبِيحَــةٍ وَمُهَــانِ

يَرَوْنَ أيضًا من الـخسرانِ المبين أن يبيعوها في إِثْرِ كُلِّ قولةٍ قبيحةٍ صادرةٍ من مُهَانٍ.

٤١٣٥- وَيَــرَوْنَ مَيْــدَانَ التَّسَــابُقِ بَــارِزًا ... فَيُتَــارِكُونَ تَقَحُّــمَ الــمَيْدَانِ

يَرَوْنَ أنَّ ميدانَ التَّسابقِ بارزًا فَيُتَارِكُونَ تقحُّمَ الميدانِ، ولكنَّهم يدخلونه من غير تقحُّمٍ، ويدخلونه بهونٍ حتَّى يَصِلوا إلى مُرادِهم.

٤١٣٦- وَيَــرَوْنَ أَنْفَــاسَ العِبَــادِ عَلَــيْهِمُ ... قَدْ أُحْصِيَتْ بِالعَـدِّ وَالـحُسْبَانِ

الإنسانُ -في الحقيقةِ- تُعَدُّ عليه أنفاسُه، ومَنْ يُحْصِي نَفَسَه؟! بل يُعَدُّ عليه ما دون النَّفَسِ، فكُلُّ لحظةٍ تمرُّ به فإنَّها إمَّا له وإمَّا عليه، واللهُ المستعانُ.

٤١٣٧- وَيَــرَوْنَ أَنَّ أَمَــامَهُمْ يَــوْمُ اللِّقَــا ... لله مَسْــــــأَلَتَانِ شَــــــامِلَتَانِ

في هذا البيتِ أَخَذَ المؤلِّفُ بلُغةِ من يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ مطلقًا؛ لأنَّ قولَه: «أَنَّ أَمَامَهُم» «أَمَام»: مصدرٌ، خبرٌ مقدَّمٌ، و«مَسْأَلَتَانِ»: اسمُ «أَنَّ» مؤخَّرٌ، و«شَامِلَتَانِ» صفةٌ له، ويصحُّ أن نجعلَ «أَمَامَ» هو الاسم على أنَّه ليس بظرفٍ، ولكنَّه اسمٌ لما كان قُدَّام الإنسانِ؛ لأنَّ هذا الأمامَ والفوقَ والتَّحتَ قد يُرَادُ بها المعنى نفسُه لا أنَّها ظرفٌ لشيءٍ آخرَ، فيكون المؤلِّفُ جاريًا على اللُّغةِ الفصحي، على كُلِّ حالٍ يقولُ: يَرَوْنَ أنَّ أمامَهم يوم لقاءِ الله مسألتان شاملتان، ثُمَّ ذكر المسأَلَتَيْنِ فقال:

٤١٣٨- مَــاذَا عَبَــدْتُمْ ثُــمَّ مَــاذَا قَــدْ أَجَبْــ ... ــتُمْ مَــنْ أَتَــى بِــالحَقِّ وَالبُرْهَــانِ

المسألة الأولى: ماذا عَبَدْتُم؟؛ يعني: يُسْأَلُ الإنسانُ يوم القيامة: مَنْ عَبَدْتَ؟

وهذا في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٧٤]، فيسألهم.

المسألة الثَّانية: ثُمَّ ماذا قد أجبتُم مَن أتى بالحقِّ والبرهانِ؟ وهم الرُّسل، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، فأنت مسؤولٌ يوم القيامةِ عن هذين السُّؤالَيْنِ، فكُلُّ إنسانٍ يُسْأَلُ عن هذا: ماذا عَبَدْتَ؟ هل عَبَدَ اللهَ أو أشركَ؟ وماذا أَجَابَ المرسلين؟ هل اتَّبعهم أو ابْتَدَعَ؟

٤١٣٩- هَاتُوا جَوَابًا لِلسُّؤَالِ وَهَيِّئُوا ... أَيْضًا صَوَابًا لِلجَوَابِ يَدَانِ

يُطْلَبُ منهم شيئان:

الشَّيءُ الأوَّلُ: الجوابُ، والشَّيءُ الثَّاني: أن يكونَ صَوابًا، أنت الآنَ إذا سَأَلْتَ التِّلميذَ عن مسألةٍ تطلبُ منه شيئين وهما: الإجابة، وأن تكونَ الإجابةُ صوابًا؛ ولهذا إذا سَكَتَ تقولُ له: أَجِبْ، وإذا أجاب خطًا، قلت: خطأٌ، هاتِ الصَّوابَ، نسألُ اللهَ أن يجعلنَا وإيَّاكم ممَّن يجيبُ بالصَّوابِ.

٤١٤٠- وَتيَقَّنُوا أَنْ لَيْسَ يُنْجِيكُمْ سِوَى ... تَجْرِيدِكُمْ لِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

٤١٤١- تَجْرِيدِكُمْ تَوْحِيدَهُ سُبْحَانَهُ ... عَنْ شِرْكَةِ الشَّيْطَانِ وَالأَوْثَانِ

٤١٤٢- وَكَذَاكَ تَجْرِيدُ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ... عَنْ هَذِهِ الآرَاءِ وَالهَذَيَانِ

يعني: لا يُنْجِي الإنسانَ إلَّا هذان التَّجريدان: **التَّجريدُ الأوَّلُ**: تجريدُ العبادةِ بألَّا يعبدَ إلَّا اللهَ عزَّ وجلَّ، **والتَّجريدُ الثَّاني**: تجريدُ المتابعةِ بألَّا يُتَابعَ إلَّا الرَّسولَ، ولا يَدَعَ قولَه لقولِ فلانٍ وفلانٍ، بل لا يتَّبعُ إلَّا رسولَ الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

٤١٤٣- وَاللهِ مَا يُنْجِي الفَتَى مِنْ رَبِّهِ ... شَيْءٌ سِوَى هَذَا بِلا رَوَغَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، لا يُنْجِي الإنسانَ إلَّا الإخلاصُ والمتابعةُ.

* * *

٤١٤٤- يَا رَبِّ جَرِّدْ عَبْدَكَ المِسْكِينَ رَا ... جِي الفَضْلِ مِنْكَ أَضْعَفَ العَبْدَانِ

٤١٤٥- لَمْ تَنْسَهُ وَذَكَرْتَهُ فَاجْعَلْهُ لَا ... يَنْسَاكَ أَنْتَ بَدَأْتَ بِالإِحْسَانِ

٤١٤٦- وَبِهِ خَتَمْتَ فَكُنْتَ أَوْلَى بِالجَمِيـ ... ـلِ وَبِالثَّنَاءِ مِنَ الجَهُولِ الجَانِي

٤١٤٧- فَالعَبْدُ لَيْسَ يُضِيعُ بَيْنَ فَوَاتِحٍ ... وَخَوَاتِمٍ مِنْ فَضْلِ ذِي الغُفْرَانِ

٤١٤٨- أَنْتَ العَلِيمُ بِهِ وَقَدْ أَنْشَأْتَهُ ... مِنْ تُرْبَةٍ هِيَ أَضْعَفُ الأَرْكَانِ

٤١٤٩- كُلٌّ عَلَيْهَا قَدْ عَلا وَهَوَتْ إِلَى ... تَحْتِ الجَمِيعِ بِذِلَّةٍ وَهَوَانِ

٤١٥٠- وَعَلَتْ عَلَيْهَا النَّارُ حَتَّى ظَنَّ أَنْ ... يَعْلُو عَلَيْهَا الخَلْقُ مِنْ نِيرَانِ

٤١٥١- وَأَتَى إِلَى الأَبَوَيْنِ ظَنًّا أَنَّهُ ... سَيُصَيِّرُ الأَبَوَيْنِ تَحْتَ دُخَانِ

٤١٥٢- فَسَعَتْ إِلَى الأَبَوَيْنِ رَحْمَتُكَ الَّتِي ... وَسِعَتْهُمَا فَعَلَا بِكَ الأَبَوَانِ

٤١٥٣- هَذَا وَنَحْنُ بَنُوهُمَا وَحُلُومُنَا ... فِي جَنْبِ حِلْمِهِمَا لَدَى المِيزَانِ

٤١٥٤- جُزْءٌ يَسِيرٌ وَالعَدُوُّ فَوَاحِدٌ ... لَهُمَا وَأَعْدَانَا بِلا حُسْبَانِ

٤١٥٥- وَالضَّعْفُ مُسْتَوْلٍ عَلَيْنَا مِنْ جَمِيـ ... ـعِ جِهَاتِنَا سِيمَا مِنَ الإِيمَانِ

٤١٥٦- يَا رَبُّ مَعْذِرَةً إِلَيْكَ فَلَمْ يَكُنْ ... قَصْدُ العِبَادِ رُكُوبَ ذَا العِصْيَانِ

٤١٥٧- لَكِنْ نُفُوسٌ سَوَّلَتْهُ وَغَرَّهَا ... هَذَا العَدُوُّ لَهَا غُرُورَ أَمَانِ

٤١٥٨- فَتَيَقَّنَتْ يَا رَبُّ أَنَّكَ وَاسِعُ الـ ... ـغُفْرَانِ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانِ

٤١٥٩- وَمَقَالُنَا مَا قَالَهُ الأَبَوَانِ قَبْـ ... ـلُ مَقَالَةُ العَبْدِ الظَّلُومِ الجَانِي

٤١٦٠- نَحْنُ الأُلَى ظَلَمُوا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرِ الذْ ... ذَنْبَ العَظِيمَ فَنَحْنُ ذُو خُسْرَانِ

٤١٦١- يَا رَبُّ فَانْصُرْنَا عَلَى الشَّيْطَانِ لَيْـ ... ـسَ لَنَا بِهِ لَوْلا حِمَاكَ يَدَانِ

الشرحُ

قال المؤلِّفُ -رحمه الله- مبتهلًا إلى ربِّه عزَّ وجلَّ:

٤١٤٤- يَا رَبِّ جَرِّدْ عَبْدَكَ المِسْكِينَ رَا ... جِي الفَضْلِ مِنْكَ أَضْعَفَ العَبْدَانِ

قَوْلُهُ: «عَبْدَكَ المِسْكِينَ»؛ يعني: نفسَه.

يسألُ اللهَ -سبحانه وتعالى- أن يُنجيَه، ويَصِفُ نفسَه بأنَّه عبدُ الله، والعبوديَّةُ أشرفُ وصفٍ يتَّصفُ به الإنسانُ؛ ولهذا يذكرُها اللهُ عزَّ وجلَّ في مقامِ التَّأييدِ والتَّحدِّي وبيانِ الفضلِ على الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فيقولُ متحدِّيا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، ويقولُ: مؤيِّدًا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١]، ويقولُ مبيِّنًا فضلَه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء:١].

كذلك أيضًا وصف نفسَه بأنَّه مسكينٌ بالنِّسبة لله، قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، ويَصِفُ نفسَه بأنَّه أضعفُ العُبدان، وهذا من بابِ التَّنزُّلِ والتَّواضعِ وإلَّا فإنَّه ليس أضعفَ العُبدانِ؛ إذ أنَّه لم يتجوَّل في عبادِ الله حتَّى يعرفَ أنَّه أضعفُهم.

٤١٤٥- لَـــمْ تَنْسَــهُ وَذَكَرْتَــهُ فَاجْعَلْــهُ لَا   يَنْسَــاكَ أَنْـتَ بَـدَأْتَ بِالإِحْسَــانِ

قَوْلُهُ: «لَـمْ تَنْسَهُ وَذَكَرْتَهُ» هذا كلامٌ عجيبٌ، لم تَنْسَه وذَكَرْتَه، نعم، اللهُ عزَّ وجلَّ لم ينسَ الإنسانَ، لم ينسَ العبدَ المؤمنَ، وذَكَرَهُ بماذا؟ أَمَدَّه بالنِّعمِ وهداه للإسلامِ، وهذا من أعظمِ الذِّكرِ.

قَوْلُهُ: «فَاجْعَلْهُ لَا يَنْسَاكَ»؛ يعني: كما أنَّك لم تنسَه فاجعله لا ينساك، وهذا من باب التَّوسُّلِ إلى الله -سبحانه وتعالى- بأفعالِه، والتَّوسُّل إلى الله تعالى بأفعالِه جائزٌ، فنحن نقولُ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»[1] فتَوَسَّلْنَا بصلاتِه على إبراهيمَ أن يُصلِّيَ على نبيِّه محمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

٤١٤٦- وَبِهِ خَتَمْـتَ فَكُنْـتَ أَوْلَى بِالجَمِيـ   ـلِ وَبِالثَّنَاءِ مِنَ الـجَهُولِ الــجَانِي

قَوْلُهُ: «وَبِهِ خَتَمْتَ»؛ يعني: وبالإحسانِ خَتَمْتَ، فاللهُ بدأ الإنسانَ بالإحسانِ وخَتَمَهُ بالإحسانِ، وقال في جزائِه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرَّحمن:٦٠]، الله أكبر؛ كأنَّنا نحن المحسنون من أنفسِنا مع أنَّ اللهَ هو الذي ابتدأ بالإحسانِ وخَتَمَ به.

٤١٤٧- فَالعَبْـدُ لَـيْسَ يُضِـيعُ بَـيْنَ فَـوَاتِحٍ   وَخَوَاتِمٍ مِـنْ فَضْـلِ ذِي الغُفْـرَانِ

الإنسانُ لا يضيعُ بين الفضلِ الأوَّلِ والفضلِ اللَّاحقِ، بين الإحسانِ الأوَّلِ والإحسانِ اللَّاحقِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، بابٌ، رقم (٣٣٧٠)، مسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٥).

٤١٤٨- أَنْـتَ العَلِـيمُ بِـهِ وَقَـدْ أَنْشَـأْتَهُ مِـنْ تُرْبَـةٍ هِـيَ أَضْـعَفُ الأَرْكَـانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:٥]، فأصلُنا من التُّرابِ ومرجعُنا إلى التُّرابِ، قال اللهُ تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، فالمرجعُ النِّهائيُّ -إن شاء اللهُ تعالى- إلى السَّماواتِ العُلَى في جنَّاتِ النَّعيمِ.

٤١٤٩- كُـلٌّ عَلَيْهَـا قَـدْ عَـلا وَهَـوَتْ إِلَى تَحْـتِ الـجَمِيعِ بِذِلَّـةٍ وَهَـوَانِ

أي: كُلٌّ على الأرضِ التي منها التُّرابِ قَدْ عَلَا وَهَوَتْ إِلَى تَحْت الجَمِيعِ بِذِلَّةٍ وَهَوَانٍ.

٤١٥٠- وَعَلَتْ عَلَيْهَا النَّـارُ حَتَّـى ظُـنَّ أَنْ يَعْلُـو عَلَيْهَـا الخَلْـقُ مِـنْ نِـيرَانِ

قَوْلُهُ: «وَعَلَتْ عَلَيْهَا النَّارُ» النَّارُ -كما هو معروفٌ- جوهرٌ يطيرُ يرتفعُ كما تشاهدون، فاللَّهبُ يصعدُ والدُّخانُ يرتفعُ.

قَوْلُهُ: «حَتَّى ظَنَّ أَنْ يَعْلُو عَلَيْهَا الخَلْقُ مِنْ نِيرَانِ» الخَلْقُ بمعنى المخلوق؛ يعني: ظنَّ أن يعلوَ المخلوقُ من النَّارِ على المخلوقِ من ترابٍ؛ لأنَّ التُّرابَ موضوعٌ مُهَانٌ يُدَاسُ بالأقدامِ، والنَّار بالعكسِ مرتفعةٌ تطلبُ العلوَّ، والمخلوقُ من نيرانٍ هو إبليسُ؛ ولهذا ارتفع واعتزَّ بأصلِه فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف:١٢].

٤١٥١- وَأَتَـى إِلَى الأَبَـوَيْنِ ظَنًّـا أَنَّـهُ سَيُصَـيِّرُ الأَبَـوَيْنِ تَحْـتَ دُخَـانِ

أَتَى إِلَى الأَبَوَيْنِ؛ أي: آدمَ وحوَّاء، وقصَّتُه معهما مشهورةٌ، ظنًّا أنَّه سَيُصَيِّرُهُمَا تحت دخانٍ.

٤١٥٢- فَسَعَتْ إِلَى الأَبَوَيْنِ رَحْمَتُكَ الَّتِي وَسِعَتْهُمَا فَعَلَا بِكَ الأَبَوَانِ

الحمدُ لله، رحمةُ الله أَدْرَكَت الأبوين، فَعَلَا الأبوان برحمتِه وصار ما يريدُه إبليسُ منهما ممتنعًا برحمةِ الله.

٤١٥٣- هَذَا وَنَحْنُ بَنُوهُمَا وَحُلُومُنَا فِي جَنْبِ حِلْمِهِمَا لَدَى المِيزَانِ

٤١٥٤- جُزْءٌ يَسِيرٌ وَالعَدُوُّ فَوَاحِدٌ لَهُمَا وَأَعْدَانَا بِلا حُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَنَحْنُ بَنُوهُمَا»؛ يعني: نحن أبناؤهما.

قَوْلُهُ: «وَحُلُومُنَا فِي جَنْبِ حِلْمِهِمَا لَدَى المِيزَانِ جُزْءٌ يَسِيرٌ» يعني: عقولُنا بالنِّسبة إلى عقلِ الأبوين جزءٌ يسيرٌ.

قَوْلُهُ: «وَالعَدُوُّ فَوَاحِدٌ لَـهُمَا وَأَعْدَانَا بِلَا حُسْبَانِ»؛ يعني: إذا كان أبوانا آدمُ وحوَّاءُ غرَّهما الشَّيطانُ وأغواهما فحصلت منهما المخالفةُ مع أنَّهما خيرٌ منَّا، فحلومُهما أقوى منَّا وعدوُّهما واحدٌ، أمَّا نحن فدونهما، فحلومُنا ضعيفةٌ، وأعداؤنا كثيرون بلا عددٍ.

٤١٥٥- وَالضَّعْفُ مُسْتَوْلٍ عَلَيْنَا مِنْ جَمِيـ ـعِ جِهَاتِنَا سِيمَا مِنَ الإِيمَانِ

الضَّعفُ مُستَوْلٍ علينا من كُلِّ جهةٍ لا سيَّما ضعفُ الإيمانِ، وإبليسُ متوعِّدٌ لنا من كُلِّ جهةٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] يجلس على الصِّراطِ، إذا أردنا أن ندخلَ صَرَفَنَا، وإن دخلنا حاول إخراجَنا؛ ولهذا لم يقل: «**لأقعدنَّ لهم على صراطِك**»، بل قال: ﴿صِرَٰطَكَ﴾ ليشملَ القعودَ على بابِ الصِّراطِ والقعودَ من داخلِ الصِّراط ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ

وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧]، ولكن لا يأتينا من فوق؛ لأنَّ فوق ربَّ العالمين عزَّ وجلَّ، بل يأتي من هذه الجهاتِ الأربعِ، فإذا كان إبليسُ يأتينا من جميعِ الجهاتِ يقولُ المؤلِّفُ:

٤١٥٦- يَا رَبُّ مَعْذِرَةً إِلَيْكَ فَلَمْ يَكُنْ … قَصْدُ العِبَادِ رُكُوبَ ذَا العِصْيَانِ

يعني: يعتذرُ إلى الله عزَّ وجلَّ مـمَّا جَرَى مِنَّا من المعاصي التي قد لا تكونُ مقصودةً.

٤١٥٧- لَكِنْ نُفُوسٌ سَوَّلَتْهُ وَغَرَّهَا … هَذَا العَدُوُّ لَهَا غُرُورَ أَمَانِ

يعني: أنَّ نفوسَنا سَوَّلَتْ لنا وزيَّنت لنا معاصيَ الله، وزادها ذلك هذا العدوُّ إبليسُ، فإبليسُ قَاسَمَ الأبوين؛ أي: بالغ في الإِقْسَامِ لهما، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢١-٢٢] «**دَلَّاهُمَا**»؛ أي: نزَّلهما من مرتبتهما العُلْيَا إلى المرتبةِ الدُّنيا بغرورٍ بالغٍ، فهو عدوٌّ قويٌّ يُقْسِمُ بأنَّه ناصحٌ فدلَّاهما بغرورٍ.

٤١٥٨- فَتَيَقَّنَتْ يَا رَبُّ أَنَّكَ وَاسِعُ الـ … ـغُفْرَانِ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانِ

يعني: بعد أن حصل ما حصل من المعصيةِ يرجعُ الإنسانُ إلى نفسِه وإلى ربِّه فيتيقَّن أنَّ اللهَ تعالى واسعُ الغفرانِ ذو فضلٍ وذو إحسانٍ.

٤١٥٩- وَمَقَالُنَا مَا قَالَهُ الأَبَوَانِ قَبْـ … ـلُ مَقَالَةُ العَبْدِ الظَّلُومِ الجَانِي

ما هي؟ قال:

٤١٦٠- نَحْنُ الأُلَى ظَلَمُوا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرِ الذْ … ذَنْبَ العَظِيمَ فَنَحْنُ ذُو خُسْرَانِ

أتى المؤلِّفُ بالآيةِ بالمعنى، قال اللهُ -سبحانه وتعالى- عن آدمَ وحوَّاء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، ثُمَّ قال رحمه اللهُ:

٤١٦١- يَا رَبُّ فَانْصُرْنَا عَلَى الشَّيْطَانِ لَيْـ ... ـسَ لَنَا بِهِ لَوْلا حِمَاكَ يَدَانِ

آمين.

* * *

فصل

فِي ظُهُورِ الفَرْقِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ وَعَدَمِ الْتِبَاسِهِ إِلاَّ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِذِي عَيْنَيْنِ

٤١٦٢- وَالفَرْقُ بَيْنَكُمُ وَبَيْنَ خُصُومِكُمْ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ثَابِتٍ بِبَيَانِ

٤١٦٣- مَا أَنْتَ مِنْهُمُ وَلا هُمْ مِنْكُمُ ... شَتَّانَ بَيْنَ السَّعْدِ وَالدَّبَرَانِ

٤١٦٤- فَإِذَا دَعَوْنَا لِلقُرَانِ دَعَوْتُمُ ... لِلرَّأْيِ أَيْنَ الرَّأْيُ مِنْ قُرْآنِ

٤١٦٥- وَإِذَا دَعَوْنَا لِلحَدِيثِ دَعَوْتُمُ ... أَنْتُمْ إِلَى تَقْلِيدِ قَوْلِ فُلانِ

٤١٦٦- وَكَذَا تَلَقَّيْنَا نُصُوصَ نَبِيِّنَا ... بِقَبُولِهَا بِالحَقِّ وَالإِذْعَانِ

٤١٦٧- مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلا جَحْدٍ وَلَا ... تَفْوِيضِ ذِي جَهْلٍ بِلا عِرْفَانِ

٤١٦٨- لَكِنْ بِإِعْرَاضٍ وَتَجْهِيلٍ وَتَأْ ... وِيلٍ تَلَقَّيْتُمْ مَعَ النُّكْرَانِ

٤١٦٩- أَنْكَرْتُمُوهَا جُهْدَكُمْ فَإِذَا أَتَى ... مَا لا سَبِيلَ لَهُ إِلَى نُكْرَانِ

٤١٧٠- أَعْرَضْتُمُ عَنْهُ وَلَمْ تَسْتَنْبِطُوا ... مِنْهُ هُدًى لِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

٤١٧١- فَإِذَا ابْتُلِيتُمْ مُكْرَهِينَ بِسَمْعِهَا ... فَوَّضْتُمُوهَا لَا عَلَى العِرْفَانِ

٤١٧٢- لَكِنْ بِجَهْلٍ لِلَّذِي سِيقَتْ لَهُ ... تَفْوِيضَ إِعْرَاضٍ وَجَهْلَ مَعَانِي

٤١٧٣- فَإِذَا ابْتُلِيتُمْ بِاحْتِجَاجِ خُصُومِكُمْ ... أَوَّلْتُمُوهَا دَفْعَ ذِي صَوَلانِ

٤١٧٤- فَالجَحْدُ وَالإِعْرَاضُ وَالتَّأْوِيلُ وَالتْـ ... تَجْهِيلُ حَظُّ النَّصِّ عِنْدَ الجَانِي

٤١٧٥- لَكِـنْ لَـدَيْنَا حَظُّـهُ التَّسْـلِيمُ مَـعْ ... حُسْنِ القَبُولِ وَفَهْمِ ذِي الإِحْسَانِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ بَيَّنَ فيه المؤلِّفُ طريقةَ المنحرفين عن طريقِ السَّلفِ وأنَّ بينهم وبين السَّلفِ فرقًا عظيمًا شاسعًا فقال:

٤١٦٢- وَالفَرْقُ بَيْـنَكُمُ وَبَـيْنَ خُصُـومِكُمْ ... مِـنْ كُـلِّ وَجْـهٍ ثَابِـتٍ بِبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «**ثَابِتٌ**»: خبرُ المبتدأ «**الفَرْقُ**»، فالفرقُ ثابتٌ من كُلِّ وجهٍ.

٤١٦٣- مَـا أَنْـتَ مِـنْهُمُ وَلا هُـمْ مِـنْكُمُ ... شَـتَّانَ بَـيْنَ السَّـعْدِ وَالـدَّبَرَانِ

قَوْلُهُ: «**شَتَّانَ**»؛ أي: بَعُدَ.

قَوْلُهُ: «**بَيْنَ السَّعْدِ وَالدَّبَرَانِ**» السَّعْدُ واحدُ «**السُّعود**»، وهي ثلاثةٌ: سعدُ الذَّابح، وسعدُ بلع، وسعدُ السُّعود، هذه ثلاثةُ نجوم تكونُ في آخر فصلِ الشِّتاءِ، قُبَيْلَ فصلِ الرَّبيعِ، وتُسَمَّى عند عامَّتِنا في البلدِ تُسَمَّى «**العقارب**»، فـ«**سعد الذَّابح**» يسمُّونه العقربُ الأولى، و«**سعد بلع**» العقرب الثَّانية، و«**سعد السُّعود**» العقرب الثَّالثة، ومن أمثالِ العربِ: «**إذا طلع سعدُ السُّعود كُرِهَ في الشَّمس القعودُ**»؛ لأنَّ الحرَّ بدأ يأتي، أمَّا الدَّبَرَانِ فنجمٌ أحمر يكونُ خلفَ الثُّريَّا؛ ولذلك سُمِّي الدَّبَرَان؛ لأنَّه مدابرٌ لها، والثُّريَّا أنجمٌ مجتمعةٌ بإذن الله معروفةٌ، يخلفُها ويتلوها نجمٌ أحمر ليس بالكبيرِ لكن لونه أحمر يُسَمَّى الدَّبَرَانِ يسيرُ على آثارِها دبرانها فلا هو مسبوقٌ ولا هو لاحقٌ يخاطبُ الثُّريَّا يقولُ:

يَسِـيرُ عَـلَى آثَارِهَـا دَبَرَانُهَـا ... فَلَا هُـوَ مَسْـبُوقٌ وَلَا هُـوَ لَاحِـقُ[1]

(١) البيت لذي الرُّمة، كما في لسان العرب، مادة: «دفف».

إِذَنْ السَّعدُ والدَّبَرَانُ بينهما فرقٌ؛ لأنَّ الدَّبَرَانَ من نجومِ الصَّيفِ، والسَّعدَ من نجومِ الشِّتاءِ، فبينهما فرقٌ عظيم، فهذا هو الفرقُ بيننا وبينكم.

ثُمَّ ذكر وجهَ الفرقِ فقال:

٤١٦٤- فَإِذَا دَعَوْنَا لِلقُرَانِ دَعَوْتُمُ لِلرَّأْيِ أَيْنَ الرَّأْيُ مِنْ قُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**فَإِذَا دَعَوْنَا لِلْقُرَانِ دَعَوْتُمُ لِلرَّأْيِ**» وهذا فرقٌ؛ ولهذا قال: «**أَيْنَ الرَّأْيُ مِنْ قُرْآنِ؟!**»، فبينهما فرقٌ عظيمٌ.

٤١٦٥- وَإِذَا دَعَوْنَا لِلحَدِيثِ دَعَوْتُمُ أَنْتُمْ إِلَى تَقْلِيدِ قَوْلِ فُلَانِ

نحن نقولُ: تعالوا إلى حديثِ الرَّسولِ ﷺ نقلِّدُه، وهم يقولون: لا، تعالوا إلى قولِ الشَّيخ فلانٍ نقلِّدُه، وهذا فرقٌ أيضًا، إِذَنْ يجبُ على الإنسانِ أن يستغنيَ بالكتابِ والسُّنَّةِ عن تقليدِ الرِّجالِ والآراءِ؛ لأنَّنا سنُسْأَلُ يومَ القيامةِ: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، لكن إذا كان الإنسانُ لا يستطيعُ هذا بنفسِه ففرضُه التَّقليدُ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النَّحل:٤٣]، وما أحسَنَ ما قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله: «إنَّ التَّقليدَ بمنزلة أكلِ الميتةِ»[1]، وأكلُ الميتةِ للضَّرورةِ جائزٌ، وأمَّا مَنْ قَدِرَ على أن يُدْرِكَ الحقَّ بنفسِه من أصولِه «**الكتاب والسُّنَّة**» فإنَّه لا يجوزُ له التَّقليدُ، ولا يجوزُ أن يحتجَّ بقولِ مَنْ يُقَلِّدُه النَّاسُ.

٤١٦٦- وَكَذَا تَلَقَّيْنَا نُصُوصَ نَبِيِّنَا بِقَبُولِهَا بِالحَقِّ وَالإِذْعَانِ

يعني: تلقَّينا النُّصوصَ بالقَبولِ بدون رفضٍ، وبالإذعانِ؛ أي: بالانقيادِ التَّامِّ لها تصديقًا بأخبارِها وعملًا بأحكامِها.

---

(١) انظر: رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص:٦).

٤١٦٧- مِـنْ غَـيْرِ تَحْرِيـفٍ وَلا جَحْـدٍ وَلَا　　　تَفْـوِيضِ ذِي جَهْـلٍ بِـلا عِرْفَـانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا جَحْدٍ لَا تَفْوِيضٍ» هذه ثلاثُ طرقٍ يسلكُها أهلُ البدعِ.

وَقَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ» فهم يُحرِّفونَ الكلمَ عن مواضعِه، مثالُه: يقولون معنى قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرَّعد:٢] «ثُمَّ استولى على العرشِ»، وهذا تحريفٌ، ويقولون معنى قولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]: «بل نعمتاه مبسوطتان»، وهذا تحريفٌ.

قَوْلُهُ: «وَلَا جَحْدٍ»؛ أي: إنكارٍ، والمُحَرِّفُ مُنكرٌ للمعنى المراد مُدَّعٍ لغيرِه، فقد جمع بين أمرين: بين جحدِ المرادِ ودعوى غيرِ المراد، فمثلًا يقولُ في قولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] ليس المرادُ بهما اليدين الحقيقيَّتين، بل: النِّعمتان، فهو جَحَدَ المعنى الأوَّلَ، وادَّعى معنىً آخرَ، فجمع بين أمرينِ كلاهما غيرُ مقبولٍ.

قَوْلُهُ: «وَلَا تَفْوِيضٍ» وما أدراك ما التَّفويضُ؟ التَّفويضُ الذي زَعَمَ الجُهَّالُ أنَّه مذهبُ السَّلَفِ، قالوا: أهلُ السُّنَّةِ انقسَمُوا إلى قِسمين: مؤوِّلةٌ ومفوِّضةٌ، المؤوِّلةُ؛ يعني: المُحَرِّفةَ، والمفوِّضة؛ يعني: الذين إذا قيل لهم: ما معنى قولِ الله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢]؟ قالوا: اللهُ أعلمُ، ما معنى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]؟ قالوا: اللهُ أعلمُ، ما معنى ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمن:٢٧]؟ قالوا: اللهُ أعلمُ، ما معنى قولِ الرَّسولِ ﷺ: «يِنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»[1]؟ قالوا: اللهُ أعلمُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

فعند أهل التَّفويضِ الأنبياءُ يتكلَّمون بالكلامِ من صِفاتِ الله لا يعلمون معناه، سبحان الله! هل أحَدٌ عاقلٌ يتكلَّمُ بكلامٍ لا يعرفُ معناه؟! الجوابُ: أبدًا، هم يَرَوْنُ الأنبياءَ فيما يتعلَّقُ بالصِّفاتِ يتكلَّمون بكلامٍ لا يدرون ما معناه، يقولون: حتَّى الرَّسول لا يدري معنى ما يقولُ، فهؤلاءِ المفوِّضةُ ادَّعى الجُهَّالُ بمذهبِ السَّلفِ أنَّ هذا هو مذهبُ السَّلفِ.

والإشكالُ أنَّ هذا الكلامَ يُنْقَلُ حتَّى في كتُبِ العلماءِ المشهورين مثل: «**شرح مسلم للنَّوويِّ**»، وغيرِه، يقولون: إنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ هو تفويضُ المعنى، مع الأسفِ! ولهذا جاؤوا بالعبارةِ الكاذبةِ المتناقضةِ، وهي قولـهُم: «**طريقةُ السَّلفِ أسلمُ، وطريقةُ الخلفِ أعلمُ وأحكمُ**»، قالوا: «**أسلم**»؛ لأنَّهم يقولون: نُفوِّضُ المعنى ولا نتكلَّم فيه، وهل هذا سلامةٌ؟! الجوابُ: لا، بل هذا هو العطبُ، ولا شكَّ أنَّ هذا كذبٌ على السَّلفِ أو جهلٌ بحقيقةِ مذهبِهم، فالسَّلفُ لا يُفوِّضون المعنى أبدًا، بل يثبتونه ويقرِّرونه ويفصِّلون فيه، نعم هم يجهلون الكيفيَّةَ والحقيقةَ، وقد قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ -رحمه الله- في كتابه: «دَرْءُ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» قال: «إنَّ قولَ أهل التَّفويض من شرِّ أقوالِ أهلِ البدعِ والإلحاد»[1]؛ إذ كيف يدَّعِي مُدَّعٍ أنَّ هذا مذهبُ السَّلفِ، وقال: «إنَّ هذا المذهبَ هو الذي فتح الأبوابَ للفلاسفةِ والملاحدةِ»[2]؛ لأنَّ الفلاسفةَ والملاحدةَ يُثبتون للنُّصوصِ معانيَ لكن على أهوائِهم، ومَنْ يُثْبِتُ المعنى خيرٌ من الأُمِّيِّ الذي لا يدري عن المعنى، فالذي يثبتُ المعنى يكونُ عنده علمٌ أكثر من الذي لا يثبتُ المعنى، وإن كان علمه مبنيًّا على باطلٍ، لكن الكلام الذي يجعلُ للألفاظِ رُوحًا خيرٌ ممَّن لا يدري ما هي.

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).
(٢) المصدر السابق.

المهمُّ: أنَّ هؤلاء المخالفين لمذهبِ السَّلفِ يتولَّون النُّصوصَ على وجهِ التَّحريفِ والجحدِ والتفَّويضِ؛ ولهذا قال: «**تَفْوِيضِ ذِي جَهْلٍ بِلَا عِرْفَانِ**»، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، لكن ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ بعضَ هؤلاء الذين يحرِّفون الصِّفاتِ يظنُّون أنَّ هذا هو الحقُّ ونحن نعرفُ أنَّ لهم نيَّةً طيِّبةً، وأنَّهم من خُلَّص المؤمنين، فلا نكفِّرهم هل يستطيعُ أحدٌ أن يُكفِّرَ مثل النَّوويِّ أو ابن حجرٍ في بعضِ كلامه؟ لا يمكنُ هذا.

٤١٦٨- لَكِنْ بِإِعْرَاضٍ وَتَجْهِيلٍ وَتَأْ ... وِيلٍ تَلَقَّيْتُمْ مَعَ النُّكْرَانِ

يعني: نحن تلقَّينَا النُّصوصَ بالقَبولِ والإذعانِ، وأنتم تلقَّيتموها بالإعراضِ والتَّجهيلِ والتَّأويلِ، تَلَقَّيْتُم ذلك مَعَ النُّكْرَانِ.

٤١٦٩- أَنْكَرْتُمُوهَا جُهْدَكُمْ فَإِذَا أَتَى ... مَا لا سَبِيلَ لَهُ إِلَى نُكْرَانِ

٤١٧٠- أَعْرَضْتُمُ عَنْهُ وَلَمْ تَسْتَنْبِطُوا ... مِنْهُ هُدًى لِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

يعني: إذا أتاهم ما لا طاقةَ لهم بردِّه أعرضوا عنه، وقالوا: لا نتكلَّمُ بهذا، دَعْنَا من هذا الكلامِ.

٤١٧١- فَإِذَا ابْتُلِيتُمْ مُكْرَهِينَ بِسَمْعِهَا ... فَوَّضْتُمُوهَا لَا عَلَى العِرْفَانِ

يعني: إذا ابتُلِيتم وأُلْزِمتم بالقولِ بها قلتم إِذَنْ نقولُ بها، ولكن نفوِّضُ المعنى، فلا نتكلَّمُ في المعنى إطلاقًا، بل نقولُ: اللهُ أعلمُ.

٤١٧٢- لَكِنْ بِجَهْلٍ لِلَّذِي سِيقَتْ لَهُ ... تَفْوِيضَ إِعْرَاضٍ وَجَهْلَ مَعَانِي

يعني: هم لو تأمَّلوها لوجدوا لـها معنًى، لكن هم يُعْرِضُونَ، ويقولون:

اللهُ أعلمُ، كما لو سألك سائلٌ وأنت تكرهُ الإجابةَ فإنَّك تقولُ: «**دَعْنِي، اللهُ أعلمُ**»، هم هكذا يقولون، إذا أحدٌ أكرههم على الإجابةِ لجؤوا إلى هذا.

٤١٧٣- فَإِذَا ابْتُلِيتُمْ بِاحْتِجَاجِ خُصُـومِكُمْ ... أَوْلَيْتُمُوهَـــا دَفْـــعَ ذِي صَـــوَلَانِ

بـماذا؟ بالصُّراخِ والشِّكايةِ والتَّشـويهِ إلى ولـيِّ الأمرِ، يصولون صولًا، ولا يردُّون بحقٍّ.

٤١٧٤- فَالجَحْدُ وَالإِعْرَاضُ وَالتَّأْوِيلُ وَالتْـ ... ـجْهِيـلُ حَـظُّ الـنَّصِّ عِنْـدَ الجَـانِي

٤١٧٥- لَكِـنْ لَـدَيْنَا حَظُّـهُ التَّسْـلِيمُ مَـعْ ... حُسْنِ القَبُولِ وَفَهْمِ ذِي الإِحْسَانِ

هذه طريقتُهم؛ إمَّا الإعراضُ، وإمَّا التَّأويلُ الذي هو التَّحريفُ، وإمَّا التَّجهيلُ، حتَّى إنَّهم يقولون: إنَّ الرَّسولَ ﷺ يقولُ كلامًا وهو لا يعرفُ معناه، يقولون: إنَّ الرَّسولَ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إلى السَّماءِ الدُّنْيَا**»[1] وهو لا يدري ما معنى النُّزول؟ -نسألُ اللهَ العافيةَ- وهل أشدُّ قدحًا من هذا أنَّ الرَّسولَ ﷺ يتكلَّمُ بالكلامِ ولا يدري ما معناه؟! وأيضًا لا يدري ما معناه في أعظمِ الأمورِ وهو معرفةُ الله وأسمائِه وصفاتِه؟!

إِذَنْ ظهر الفرقُ بين الطَّرفَيْنِ، وأنَّ بينهما كما بين السَّعدِ والدَّبَرَانِ.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

فصل

فِي التَّفَاوُتِ بَيْنَ حَظِّ الْمُثْبِتِينَ وَالْمُعَطِّلِينَ مِنْ وَحْيِ رَبِّ العَالَمِينَ

٤١٧٦- وَلَنَا الحَقِيقَةُ مِنْ كَلامِ إِلَهِنَا ... وَنَصِيبُكُمْ مِنْهُ المَجَازُ الثَّانِي

٤١٧٧- وَقَوَاطِعُ الوَحْيَيْنِ شَاهِدَةٌ لَنَا ... وَعَلَيْكُمُ هَلْ يَسْتَوِي الأَمْرَانِ

٤١٧٨- وَأَدِلَّةُ المَعْقُولِ شَاهِدَةٌ لَنَا ... أَيْضًا فَقَاضُونَا إِلَى البُرْهَانِ

٤١٧٩- وَكَذَاكَ فِطْرَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ شَا ... هِدَةٌ لَنَا أَيْضًا شُهُودَ بَيَانِ

٤١٨٠- وَكَذَاكَ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالأُلَى ... تَبِعُوهُمُ بِالعِلْمِ وَالإِحْسَانِ

٤١٨١- وَكَذَاكَ إِجْمَاعُ الأَئِمَّةِ بَعْدَهُمُ ... هَذَا كَلامُهُمُ بِكُلِّ مَكَانِ

٤١٨٢- هَذِي الشُّهُودُ فَهَلْ لَدَيْكُمْ أَنْتُمُ ... مِنْ شَاهِدٍ بِالنَّفْيِ وَالنُّكْرَانِ

٤١٨٣- وَجُنُودُنَا مَنْ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ ... وَجُنُودُكُمْ فَعَسَاكِرُ الشَّيْطَانِ

٤١٨٤- وَخِيَامُنَا مَضْرُوبَةٌ بِمَشَاعِرِ الـ ... ـوَحْيَيْنِ مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

٤١٨٥- وَخِيَامُكُمْ مَضْرُوبَةٌ بِالتِّيهِ فَالسْـ ... ـسُكَّانُ كُلُّ مُلَدَّدٍ حَيْرَانِ

٤١٨٦- هَذِي شَهَادَتُهُمْ عَلَى مَحْصُولِهِمْ ... عِنْدَ المَمَاتِ وَقَوْلِهِمْ بِلِسَانِ

٤١٨٧- وَاللهُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ أَيْضًا كَذَا ... تَكْفِي شَهَادَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

الشـــرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلُ فِي التَّفَاوُتِ بَيْنَ حَظِّ الْمُثْبِتِينَ وَالْمُعَطِّلِينَ مِنْ وَحْيِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»؛ يعني: أيُّنا أحظُّ هم أو نحن؟ نَنظرُ، قال رحمه اللهُ:

٤١٧٦- وَلَنَـا الـحَقِيقَةُ مِـنْ كَـلامِ إِلَـهِنَا وَنَصِـيبُكُمْ مِنْـهُ المَجَـازُ الثَّـانِي

نحن نحملُ كلامَ الله على الحقيقةِ، وهم يحملونه على المجازِ، مثالُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، فهذا نحملُه على الحقيقةِ وأنَّه مجيءٌ حقيقيٌّ، وهم يحملونه على أنَّه مجازٌ عن مجيءِ أمرِه.

ومثلُه أيضًا قولهُ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، فنحن نحملُ ذلك على الحقيقةِ، فهو له يَدٌ حقيقةً، وهم يقولون: لا، ليس له يدٌ حقيقةً، ولكنَّها مجازٌ عن النِّعمةِ، إِذَنْ حظُّنا من القرآنِ الحقيقةُ وحظُّهم المجازُ، هذا واحدٌ.

٤١٧٧- وَقَوَاطِـعُ الـوَحْيَيْنِ شَـاهِدَةٌ لَنَـا وَعَلَـيْكُمُ هَـلْ يَسْـتَوِي الأَمْـرَانِ

قَوْلُهُ: «وَقَوَاطِـعُ الوَحْيَيْنِ شَـاهِدَةٌ لَـنَا وَعَلَـيْكُمُ» وهذا فرقٌ، فقواطعُ الوَحْيَيْنِ «الكتاب والسُّنَّة» أدلَّتُها قاطعةٌ شاهدةٌ لنا، أمَّا بالنِّسبةِ لكم فهي شاهدةٌ عليكم.

قَوْلُهُ: «هَلْ يَسْتَوِي الأَمْرَانِ؟» الجوابُ: لا يستويان.

٤١٧٨- وَأَدِلَّـةُ الـمَعْقُولِ شَـاهِدَةٌ لَنَـا أَيْضًـا فَقَاضُـونَا إِلَى البُرْهَـانِ

أيضًا الأدلَّةُ العقليَّةُ تحكمُ لنا وتشهدُ لنا، وإذا كنتم صادقين فقاضونا، تعالوا نتقاضى نحن وإيَّاكم إلى الأدلَّةِ العقليَّةِ.

٤١٧٩- وَكَــذَاكَ فِطْـرَةُ رَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ شَـا ... هِــدَةٌ لَنَــا أَيْضًــا شُــهُودَ بَيَــانِ

الفطرةُ تشهدُ بما نقولُ، ولا تشهدُ لكم، ونظيرٌ لهذا عُلوُّ الله عزَّ وجلَّ هم ينكرونه، فمتقدِّمو الجهميَّةِ يقولون: إنَّ اللهَ في كُلِّ مكانٍ؛ في المسجدِ، في السُّوقِ، في المطعمِ، ولو كانوا يشربون الدُّخانَ وكُلَّ شيءٍ، فاللهُ في كُلِّ مكانٍ، بل في أقذر من ذلك والعياذُ بالله، فاللهُ فيه هو نفسُه، أمَّا المتأخِّرون منهم فقالوا: هذا غيرُ معقولٍ، هذا مُنْكَرٌ، ولكنَّ الصَّوابَ أنَّ اللهَ ليس فوقَ العالمِ ولا تحتَه، ولا يمينَه ولا شمالَه، ولا متَّصلًا ولا منفصلًا، ولا داخلَ العالمِ ولا خارجَ العالمِ، إِذَنْ هو عَدَمٌ محضٌ كما قال محمود بن سبكتكين رحمه الله لـمَّا قال: «صِفْ لنا ربَّك»، قال: هو لا داخل العالمِ ولا خارجه... إلى آخرِه من هذا النَّفي، فقال: والله ما تصفُ العدمَ بأحسنَ من هذا الوصفِ، هذا هو العَدَمُ.

لكن نحن نقولُ: اللهُ عزَّ وجلَّ فوق كُلِّ شيءٍ، لو أنَّ الإنسانَ لم يقرأ أيَّ كتابٍ في العلوِّ أين يطلبُ ربَّه؟ الجوابُ: في العلوِّ، بمقتضى الفِطرةِ السَّليمةِ يطلبُه في العلوِّ، وإذا قال: «يا ربِّ» لا يمكنُ إلَّا إلى السَّماءِ، وإذا جُودِلُوا وقيل لهم: أنتم ترفعون أيديكم عند دعاءِ الله، قالوا: نعم، نرفعُ أيديَنا؛ لأنَّ السَّماءَ جهة قبلة الدَّاعِي، وليس لأنَّ اللهَ في السَّماءِ، أعوذ بالله، لكن كيف قبلة الدَّاعي والمدعو تحت؟ كيف هذا؟ لكن نسألُ اللهَ العافيةَ، إنَّه الجهلُ، إِذَنْ الشُّهودُ هي: الكتابُ والسُّنَّةُ والعقلُ والفطرةُ.

٤١٨٠- وَكَــذَاكَ إِجْمَــاعُ الصَّــحَابَةِ وَالأُلَى ... تَبِعُــوهُمُ بِــالعِلْمِ وَالإِحْسَــانِ

الخامسُ والسَّادسُ: إجماعُ الصَّحابةِ والذين اتَّبعوهم بالعلمِ والإحسانِ.

٤١٨١- وَكَـذَاكَ إِجْمَـاعُ الأَئِمَّـةِ بَعْـدَهُمُ   هَـذَا كَلامُهُـمُ بِكُـلِّ مَكَـانِ

قَوْلُهُ: «بَعْدَهُمْ»؛ أي: بعد التَّابعين، إِذَنْ السَّابعُ: إجماعُ الأئمَّةِ بعد التَّابعين، فصارت الآن الأدلَّةُ سبعةً.

٤١٨٢- هَذِي الشُّهُودُ فَهَـلْ لَـدَيْكُمْ أَنْـتُمُ   مِـنْ شَـاهِدٍ بِـالنَّفْيِ وَالنُّكْـرَانِ

إِذَنْ كُلُّ هذه شاهدةٌ لنا والحمدُ لله، وليس عندهم واحدٌ منها.

هل أحدٌ يشهد لكم بالطَّريقةِ التي أنتم عليها النَّفي والنُّكران؟

الجوابُ: لا.

٤١٨٣- وَجُنُودُنَـا مَـنْ قَـدْ تَقَـدَّمَ ذِكْـرُهُمْ   وَجُنُـودُكُمْ فَعَسَـاكِرُ الشَّـيْطَانِ

وفرقٌ، فجنودُنا الأنبياءُ والصَّحابةُ والتَّابعون وتابعوهم بإحسانٍ والأئمَّةُ، أمَّا جنودُكم فعساكرُ الشَّيطانِ من فلاسفةِ اليونانِ والمناطقةِ وغيرِهم.

٤١٨٤- وَخِيَامُنَـا مَضْـرُوبَةٌ بِمَشَـاعِرِ الــ   ـوَحْيَيْنِ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

خيامُنا مضروبةٌ بالمشاعرِ المقدَّسةِ، وهي مشاعرُ الوَحْيَيْنِ من الخبرِ ومن القُرآنِ، والخبرُ عن الرَّسولِ، والقُرآنُ كلامُ الله، وقَدَّمَ الخبرَ على القُرآنِ في الذِّكرِ من أجلِ القافيةِ.

٤١٨٥- وَخِيَامُكُمْ مَضْرُوبَةٌ بِالتِّيـهِ فَالسْـ   ـسُكَّانِ كُـلُّ مُلَـدَّدٍ حَـيْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَخِيَامُكُمْ مَضْرُوبَةٌ بِالتِّيهِ» التِّيهُ مكانٌ معلومٌ.

فهي مضروبةٌ بمكانٍ لا يُدْرَى عنه ولا تُقْصَدُ ولا يُنْتَفَعُ بها، والعياذُ بالله.

٤١٨٦- هَذِي شَهَادَتُهُمْ عَلَى مَحْصُولِهِمْ عِنْدَ المَمَاتِ وَقَوْلِهِمْ بِلِسَانِ

يقولون: علماءُ الكلامِ هم أشدُّ النَّاسِ شَكًّا عند المماتِ، والعياذُ بالله! لأنَّهم ما بَنَوْا على عقيدةٍ، وعند المماتِ مَنْ وُفِّقَ منهم رجع، وقال: «**أموتُ على عقيدةِ أُمِّي**»؛ أي: على عقيدةِ أُمِّه التي ما تعلَّمت، ويقولُ بعضُهم: «**أموتُ على عقائدِ عجائزِ نيسابور**»؛ لأنَّ كُلَّ حياتِه التي أمضاها لم يَسْتَفِدْ شيئًا إلَّا كما قال كبراؤهم:

لَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا(١)

٤١٨٧- وَاللهُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ أَيْضًا كَذَا تَكْفِي شَهَادَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦]، وأظنُّ أنَّ الفرقَ بينهم وبين السَّلفِ واضحٌ جدًّا، فأدلَّةُ هؤلاء من كتابِ الله ومن سُنَّةِ رسولِه وإجماعِ أهلِ الخيرِ، وأمَّا هؤلاء فبالعكسِ.

* * *

٤١٨٨- وَلَنَا المَسَانِدُ وَالصِّحَاحُ وَهَذِهِ السْـ ـسُنَنُ الَّتِي نَابَتْ عَنِ القُرْآنِ

٤١٨٩- وَلَكُمْ تَصَانِيفُ الكَلَامِ وَهَذِهِ الـ آرَاءُ وَهْيَ كَثِيرَةُ الهَذَيَانِ

٤١٩٠- شُبَهٌ يُكَسِّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا كَبَيْـ ـتٍ مِنْ زُجَاجٍ خَرَّ لِلأَرْكَانِ

٤١٩١- هَلْ ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرُ رَأْيٍ أَوْ كَلَا مِ بَاطِلٍ أَوْ مَنْطِقِ اليُونَانِ

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٧).

٤١٩٢- وَنَقُولُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... فِي كُلِّ تَصْنِيفٍ وَكُلِّ مَكَانِ

٤١٩٣- لَكِنْ تَقُولُوا قَالَ آرِسْطُو وَقَا ... لَ ابْنُ الخَطِيبِ وَقَالَ ذُو العِرْفَانِ

٤١٩٤- شَيْخٌ لَكُمْ يُدْعَى ابْنَ سِينَا لَمْ يَكُنْ ... مُتَقَيِّدًا بِالدِّينِ وَالإِيمَانِ

٤١٩٥- وَخِيَارُ مَا تَأْتُونَ قَالَ الأَشْعَرِيْ ... يُ وَتَشْهَدُونَ عَلَيْهِ بِالبُهْتَانِ

٤١٩٦- فَالأَشْعَرِيُّ مُقَرِّرٌ لِعُلُوِّ رَبْ ... بِ العَرْشِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

٤١٩٧- فِي غَايَةِ التَّقْرِيرِ بِالمَعْقُولِ وَالْـ ... ـمَنْقُولِ ثُمَّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

٤١٩٨- هَذَا وَنَحْنُ فَتَارِكُو الآرَاءِ لِلنْـ ... ـنَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُحْكَمِ الفُرْقَانِ

٤١٩٩- لَكِنَّكُمْ بِالعَكْسِ قَدْ صَرَّحْتُمُ ... وَوَضَعْتُمُ القَانُونَ ذَا البُهْتَانِ

٤٢٠٠- وَالنَّفْيُ عِنْدَكُمُ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْـ ... إِثْبَاتِ إِجْمَالًا بِلَا نُكْرَانِ

٤٢٠١- وَالمُثْبِتُونَ طَرِيقَهُمْ نَفْيٌ عَلَى الْـ ... إِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ بِالتِّبْيَانِ

٤٢٠٢- فَتَدَبَّرُوا القُرْآنَ مَعْ مَنْ مِنْكُمَا ... وَشَهَادَةَ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

الشَّرحُ

٤١٨٨- وَلَنَا المَسَانِدُ وَالصِّحَاحُ وَهَذِهِ السْـ ... ـسُنَنُ الَّتِي نَابَتْ عَنِ القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَلَنَا المَسَانِدُ وَالصِّحَاحُ وَهَذِهِ السُّنَنُ»؛ يعني: لنا أدلَّةٌ، و«المَسَانِدُ» جمعُ «مُسْنَد» مثل مُسْنَد الإمام أحمد، و«الصِّحَاحُ» جمع «صحيح» كالبخاريِّ، و«السُّنَنُ» جمع سُنَّة، والمرادُ بها سننُ النَّسائيُّ وأبي داودَ، وما أشبه ذلك.

يعني: أدلَّتُنا من سننِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- الموجودةِ في المسانِدِ والصِّحاحِ والسُّننِ.

قَوْلُهُ: «نَابَتْ عَنِ القُرْآنِ»؛ يعني: أنَّها تأتي بالتَّفصيلِ فيما يجيءُ به القرآنُ إجمالًا، ورُبَّما تأتي بحكمٍ مُستَقِلٍّ لا يُوجَدُ في القُرآنِ، لكن هذا الحكمُ المستقلُّ الذي لم يُوجَد في القرآنِ قد أَرْشَدَ القرآنُ إلى قَبولِه في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النِّساء:٥٩]، وقولِه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، وهذه الآيةُ وإن كانت واردةً في الفَيْءِ فإنَّه إذا كان يجبُ قَبولُ ما آتاه من الفَيْءِ، وما نَهَى عنه من الفَيْءِ يجبُ الانتهاءُ عنه، فما جاء منه تشريعًا فهو من بابِ أَوْلَى.

على كُلِّ حالٍ السُّنَّةُ تَنُوبُ عن القُرآنِ فيما يحتاجُ إلى تفصيلٍ أو ما أشبه ذلك.

٤١٨٩- وَلَكُمْ تَصَانِيفُ الكَلامِ وَهَـذِهِ الـ ... آرَاءُ وَهْـيَ كَثِـيرَةُ الـهَذَيَانِ

ففرقٌ بين هذا وهذا بلا شكٍّ.

٤١٩٠- شُبَهٌ يُكَسِّـرُ بَعْضُـهَا بَعْضًـا كَبَيْـ ... ـتٍ مِـنْ زُجَـاجٍ خَـرَّ لِلأَرْكَـانِ

يعني: الذي عندكم شُبَهٌ يُكَسِّرُ بعضُها بعضًا؛ ولهذا تجدهم متناقضين، بل تجدُ الواحدَ منهم يؤلِّفُ كتبًا يتناقضُ فيها، وهذا البيتُ أخذه المؤلِّفُ من بيتٍ سابقٍ ذَكَرَهُ الخَطَّابيُّ يقولُ:

حُجَجٌ تَهَافَت كَالزُّجَاجِ تَخَالُـهَا ... حَقًّا وكُـلٌّ كَـاسِرٌ مَكْسُـورُ[1]

(١) انظر: غاية الأماني في الرد على النبهاني (٢/ ٢٢٨).

يعني: حُججُ أهلِ الكلامِ كهذا البيتِ، فحججُهم تتهافتُ مثل الزُّجاجِ تظنُّها حقًّا، وكُلٌّ يكسرُ الآخرَ.

٤١٩١- هَـلْ ثَـمَّ شَيْءٌ غَـيْرُ رَأْيٍ أَوْ كَـلا ... مٍ بَاطِـلٍ أَوْ مَنْطِـقِ اليُونَـانِ

الجوابُ: لا، أمَّا نحن فنقول:

٤١٩٢- وَنَقُـولُ قَـالَ اللهُ قَـالَ رَسُـولُهُ ... فِي كُـلِّ تَصْـنِيفٍ وَكُـلِّ مَكَـانِ

يعني: نبني أقوالَنا على قولِ الله ورسولِه.

٤١٩٣- لَكِـنْ تَقُولُـوا قَـالَ آرِسْـطُو وَقَـا ... لَ ابْنُ الـخَطِيبِ وَقَالَ ذُو العِرْفَانِ

٤١٩٤- شَيْخٌ لَكُمْ يُدْعَى ابْنَ سِينَا لَـمْ يَكُـنْ ... مُتَقَيِّـدًا بِالـدِّينِ وَالإِيـمَانِ

هذه أشياخُهم، فلاسفةٌ مَلاحِدةٌ لا يتقيَّدون بإيمانٍ ولا يتقيَّدون بدِينٍ، وهذا بيتٌ من عدَّةِ أبياتٍ يُصَرِّحُ ابنُ القيِّمِ وكذلك شيخُه بأنَّ ابنَ سينا كافرٌ خارجٌ من الدِّينِ، وإن كان عند بعضِ المثقَّفين يُرَى أنَّه مؤمنٌ، ولكنَّنا نقولُ: إنَّه طبيبٌ جيِّدٌ في الطِّبِّ، ولكنَّه فيما يتعلَّقُ بالأديانِ نرى أنَّ النَّاقلين عنه الكفرَ كشيخِ الإسلامِ وتلميذِه وغيرِهما نرى أنَّهم ثقاتٌ، وأنَّ شهادتَهم عليه مقبولةٌ، وكذلك الأصلُ عدمُ رُجوعِه إلى الإسلامِ، أمَّا أبو الحسن الأشعريُّ فكان على مذهبِ المعتزلةِ، ثُمَّ كان وسَطًا بين المعتزلةِ وأهلِ السُّنَّة، ثُمَّ كان من أهلِ السُّنَّةِ، فهذا رجَع وصَرَّحَ برُجوعِه، فهل هؤلاء القومِ كابنِ سينا وغيرِه صَرَّحُوا برُجوعِهم؟ الأصلُ عدمُ الرُّجوعِ، وأمَّا ما رُوي عنه من نظمٍ أو كلامٍ له بأنَّه رجع، فإنَّه يُنْظَرُ في صِحَّةِ إثباتِ هذا النَّظمِ له، وأين مَنْ رواها؟ حدَّثنا فلانٌ عن فلانٍ حتَّى يصلَ إليه؛ لأنَّه رُبَّما يقولُ هذه القصيدةَ مَنْ يدَّعي أنَّه رجع.

٤١٩٥- وَخِيَارُ مَا تَأْتُونَ قَالَ الأَشْعَرِيْ ... يُ وَتَشْهَدُونَ عَلَيْهِ بِالبُهْتَانِ

هذا خيارُ ما تأتون به أن تضيفوا أقوالَكم إلى الأشعريِّ، ومع ذلك تقولون عليه بالبهتانِ، تكذبون عليه؛ لأنَّ أبا الحسن الأشعريَّ كان في أوَّل عُمرِه على مذهبِ المعتزلةِ، بَقِيَ على هذا أربعين سنةً يُعَطِّلُ الصِّفاتِ، وله أيضًا آراءٌ في الإيمانِ والقدرِ وما أشبهها، ثُمَّ اتَّصل بعبدِ الله بن سعيد بن كُلَّابٍ، فعرف منه بعضَ الشَّيءِ المخالفِ لمذهبِ المعتزلةِ، فاعتَنَقَه وخالَفَه في بعضِ الأمورِ، وخَرَجَ ذات يومٍ في يوم الجمعةِ، وكان له كرسيٌّ يتكلَّمُ منه بعد صلاةِ الجمعةِ، فَوَضَعَ عمامتَه فقال: «**مَنْ عَرَفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني فأنا أبو الحسن الأشعريُّ**».

انظُر إلى العلماءِ الأوَّلين يصدعون بالحقِّ، ثُمَّ قال: إنَّه كان على مذهبِ المعتزلةِ، وأنا الآنَ أُقِرُّ ببطلانِه وأنَّه مذهبٌ باطلٌ، وجعَل رحمه الله يُفَنِّدُه، ثُمَّ بعد مُدَّةٍ طَالَعَ كتبَ السَّلفِ وكتبَ أهلِ السُّنَّةِ، وأعجبه مذهبُ الإمامِ أحمدَ -رحمه الله- إمامِ أهلِ السُّنَّة، وصنَّف كتابَه: «**الإبانة عن أصول الدِّيانة**»، وصَرَّحَ بأنَّه تابعٌ للإمامِ أحمد ابن حنبلٍ، وسَاقَ الأدلَّةَ على إثباتِ الصِّفاتِ، وَرَدَّ على المعتزلةِ ردًّا بليغًا، وكتابُه -والحمدُ لله- مشهورٌ الآن ومعروفٌ ومطبوعٌ.

أصحابُه الذين ينتمون إليه الآن تعلَّقوا بأيِّ زمنٍ من حالِه؟ الجوابُ: بالأوسط، فصاروا بين مذهبِ المعتزلةِ ومذهبِ أهلِ السُّنَّةِ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

٤١٩٦- فَالأَشْعَرِيُّ مُقَرِّرٌ لِعُلُوِّ رَبْ ... بِ العَرْشِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

وأنتم أيُّها المنتسِبون إليه تقولون: لا، إنَّ اللهَ ليس عاليًا فوق كُلِّ شيءٍ، بل علوُّه علوُّ معنى وصفةٍ، لا علوُّ ذاتٍ.

٤١٩٧- فِي غَايَـةِ التَّقْرِيـرِ بِـالمَعْقُولِ وَالـ ـــمَنْقُولِ ثُـمَّ بِفِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ

هذه أدلَّةُ العلوِّ: المنقولُ وهو كتابٌ وسُنَّةٌ، والمعقولُ، والفطرةُ، بَقِيَ دليلٌ خامسٌ هو الإجماع، فالقرآنُ مملوءٌ بذكرِ علوِّ الله عزَّ وجلَّ، فكثيرٌ من آياتِ القرآنِ فيها ذكرُ العلوِّ.

والسُّنَّةُ كذلك؛ فقد قَرَّرَ النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- علوَّ الله قولًا وفعلًا وإقرارًا، فأقوالُ الرَّسولِ كثيرةٌ جدًّا في إثباتِ علوِّ الله، ففي كُلِّ صلاةٍ يقولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»[1]، وهذا تقريرٌ لعلوِّ الله، وبالفعلِ فَلَمَّا خَطَبَ الأُمَّةَ يوم عرفةَ وقرَّرَهم بتبليغِه وقالوا: نشهدُ بأنَّك قد بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» يَرْفَعُ إِصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا للنَّاسِ[2]، هذا تقريرٌ للعلوِّ بالفعلِ، وكان ﷺ ينتظرُ الوحيَ دائمًا ويرفعُ وجهَه إلى السَّماءِ، قال اللهُ تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٤٤] ينتظر الوحيَ نازلًا من ربِّ السَّماءِ عزَّ وجلَّ.

أمَّا إقرارُه غيرَه فجاريةُ معاوية بن الحكمِ دعاها النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، جاريةٌ ما دَرَسَتْ ولا تعلَّمت، لكن اهتدت لذلك بالفطرةِ، قالت: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[3].

هؤلاء يقولون: الذي يقولُ: إنَّ اللهَ في السَّماءِ كافرٌ؛ لأنَّ اللهَ في كُلِّ مكانٍ أو لأنَّ اللهَ لا في السَّماءِ ولا في الأرضِ ولا يمين ولا يسار.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة في منى، رقم (١٧٤١)، مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

ويُذْكَرُ أنَّه قال لحصين أبي عمران بن الحصين: «كَمْ إِلَـهًا تَعْبُدُ؟» قال: أَعْبُدُ سَبْعَةً؛ سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تُعِدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ[1]، وهو كافرٌ مشركٌ يعبدُ ستَّةَ آلهةٍ مع الله.

أمَّا الفطرةُ فلا تسأل، فكُلُّ إنسانٍ مفطورٌ على علوِّ الله، حتَّى إنَّ أبا المعالي الجوينيَّ -رحمه الله- كان يُقرِّرُ ذات يومٍ -والمشايخُ الكبارُ في عهدِهم يُجْعَلُ لهم كراسٍ يُدَرِّسونَ النَّاسَ عمومًا- كان يُقَرِّرُ فيقولُ: «**إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- كان، ولم يكن شيءٌ معه، وهو الآن على ما كان عليه**»، وهذه كلمةٌ طيِّبةٌ في ظاهرِها، لكنَّه يريدُ بذلك أن ينكرَ استواءَ الله على العرشِ، فـ«**كان**»؛ أي: كان ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه، إِذَنْ لا استواءَ على العرشِ، فقال له أبو العلاء الهمدانيُّ رحمه الله: «**يا شيخ دعنا من ذكرِ العرشِ، أَخْبِرْنَا عن هذه الضَّرورةِ، ما قال عارفٌ قطُّ: يا الله إلَّا وَجَدَ من قلبِه ضرورةً بطلبِ العلوِّ**»، فقام يضربُ على رأسِه يصرخُ يقولُ: حيَّرني الهمدانيُّ حيَّرني[2]؛ لأنَّ الفطرةَ لا يمكنُ إنكارُها أبدًا.

ويُذْكَرُ أنَّ سُليمانَ -عليه السَّلامُ- لـمَّا مُنِعَ المطرُ عنهم خرج ذاتَ يومٍ يستسقي بالنَّاسِ فَمَرَّ بالطَّريقِ على نملةٍ مستلقيةٍ على ظهرِها رافعةٍ قوائمَها إلى السَّماءِ تقولُ: «**اللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ لَيْسَ بِنَا غِنًى عَنْ سُقْيَاكَ وَرِزْقِكَ**» -وهي نملةٌ- فقال: «**ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُم بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ**»[3]، الله أكبر! حشرةٌ تدري أين ربُّها؛ ولهذا رَفَعَتْ قوائمَها إلى السَّماءِ، فالمهمُّ أنَّ هذه فطرةٌ، حتَّى الحيوان مفطورٌ عليها أنَّ اللهَ في السَّماءِ.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٧٧)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٢١، رقم ١١٨٤).
(٢) انظر: العرش للذهبي (١/ ١٥٣)، والعلو له (١/ ٢٥٩)، وغاية الأماني (١/ ٥٧١).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي (٩/ ٢٨٥٨، رقم ١٦٢٠٣).

أمَّا الإجماع، فيقول شيخُ الإسلامِ: إنَّ الصَّحابةَ والسَّلفَ مُجْمِعُونَ على أنَّ اللهَ في العلوِّ، يقولُ: واللهُ يعلمُ أنِّي بعد البحثِ التَّامِّ ومطالعةِ ما أمكن من كلامِ السَّلفِ ما وجدتُ أحدًا منهم قال: إنَّ اللهَ ليس في السَّماءِ، ولا إنَّ اللهَ ليس على العرشِ، ولا إنَّه لا داخلَ العالَـمِ ولا خارجَه، وشيخُ الإسلامِ كما هو معلومٌ في سعةِ العلمِ والاطلاعِ والأمانةِ، يقول: «**ما وجدتُ أحدًا صَرَّحَ بنفي ذلك**».

فصارت الأدلَّةُ على علوِّ الله: الكتابَ، والسُّنَّةَ، والإجماعَ، والعقلَ، والفطرةَ.

لكن كيف دَلَّ العقلُ على علوِّ الله؟

نقولُ: من المعلومِ أنَّ العلوَّ صفةُ كمالٍ، كُلٌّ يعرفُ ذلك، وإذا كان العلوُّ صفةَ كمالٍ لَزِمَ أن يكونَ اللهُ متَّصفًا به هذا أوَّلًا، ثانيًا: ولأنَّ السُّلطةَ التَّامَّة لا تكونُ إلَّا بالعلوِّ؛ ولهذا إذا كان عدوُّك يأتيك من فوق لا تستطيعُ أن تقابلَه، فهو إِذَنْ من تمام سلطانِ الله عزَّ وجلَّ ومن كمالِ صفاتِه.

٤١٩٨- هَـذَا وَنَحْـنُ فَتَـارِكُو الآرَاءِ لِلنْـ ـنَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُحْكَـمِ الفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «**لِلنَّقَلِ الصَّحِيحِ**»؛ أي: عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم، إِذَنْ مذهبُنا تقديمُ النَّقلِ على العقلِ، ونرى أنَّ النَّقلَ هو مصدرُ التَّلقِّي لا سيَّما فيما يتعلَّقُ بأسماءِ الله وصفاتِه.

٤١٩٩- لَكِـنَّكُمْ بِـالعَكْسِ قَـدْ صَرَّحْـتُمُ وَوَضَـعْتُمُ القَـانُونَ ذَا البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «**بِالْعَكْسِ**»؛ يعني: قَدَّمتم العقلَ على النَّقلِ، ولاحظوا أنَّ العقلَ الذي قدَّموه ليس عقلًا صريحًا؛ لأنَّه عقلٌ مَبْنِيٌّ على الشُّبهاتِ، أمَّا العقلُ الصَّريحُ فلا يمكنُ أن يُخَالِفَ النَّقلَ الصَّحيحَ، ولا يمكنُ أن يُعارِضَه.

٤٢٠٠- وَالنَّفْيُ عِنْدَكُمُ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالـ   إِثْبَاتِ إِجْمَالًا بِلَا نُكْرَانِ

طريقةُ أهل التَّعطيلِ في الصِّفاتِ النَّفيُ؛ لئلَّا يُشَبِّهوا اللهَ بالموجوداتِ إن أَثْبَتُوا، يقولونُ: اللهُ تعالى لا داخِلَ العالمِ ولا خارِجَه ولا سميعٌ ولا بصيرٌ ولا أعمى إلى آخِرِه، فالنَّفيُ دائمًا، فهم لا يُثبتون، لماذا؟ قالوا: لأنَّنا إذا أَثْبَتْنَا شبَّهناه بالموجوداتِ فننفي، قلنا لهم: إذا نفيتم شبَّهتموه بالمعدوماتِ، فوقعتم في شرٍّ ممَّا فررتم منه، فجاءت طائفةٌ ثالثةٌ قالت: إِذَنْ نَسْلَمُ من الاعتراضِ فلا نَصِفُه بإثباتٍ ولا نفيٍ، فلا نقولُ: سميعٌ، ولا نقولُ: غيرُ سميعٍ، قالوا ذلك حتَّى يتخلَّصوا من السَّلفِ ومن المعطِّلةِ، قلنا لهم: إذا قلتم هكذا شبَّهتموه بالممتنعاتِ؛ لأنَّه لا يَوجَدُ شيءٌ لا موجودٌ ولا معدومٌ، ولا سميعٌ ولا أصمُّ، ولا بصيرٌ ولا أعمى، فأهلُ التَّعطيلِ -والعياذُ بالله- كُلَّما فرُّوا من شيءٍ وقعوا في شرٍّ منه.

٤٢٠١- وَالـمُثْبِتُونَ طَرِيقَهُمْ نَفْيٌ عَلَى الـ   إِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ بِالتِّبْيَانِ

المثبتون وهم السَّلفُ وأتباعُهم على العكسِ من أهلِ التَّعطيلِ، يُجملون في النَّفي ويُفصِّلون في الإثباتِ، وذلك لِسَبَبَيْنِ:

السَّبب الأوَّل: لأنَّ هذا طريقةُ القرآنِ، فكم آية ذَكَرَ اللهُ فيها صفاتِ الكمالِ على وجهِ التَّفصيلِ؟ الجوابُ: كثيرٌ، تكادُ تقولُ: كُلُّ الآياتِ أو أكثرُها كُلُّها تفصيلٌ لصفاتِ الله عزَّ وجلَّ، فهم يقولون: إنَّ اللهَ سميعٌ، عليمٌ، عزيزٌ، حكيمٌ، سلامٌ، قدُّوسٌ،... إلى آخرِه، وكم آية ذَكَرَ فيها النَّفيَ إجمالًا؟ الجوابُ: قليلٌ، تعدُّها بالأصابعِ، ما تتجاوز عشرَ آياتٍ إلَّا فيما يتعلَّقُ بالألوهيَّةِ والعبادةِ فهي كثيرةٌ.

السَّبب الثَّاني: أنَّ التَّفصيلَ في الإثباتِ ثناءٌ وتعظيمٌ على الموصوفِ، والتَّفصيلُ في النَّفي قدحٌ وعيبٌ واستهزاءٌ بالموصوفِ، ولنضرب لذلك مثالًا: هذا إنسانٌ قام

يمدحُ مَلِكًا أمامَه فقال: أنت الملكُ، الشُّجاعُ، المقدامُ، الكريمُ، الحليمُ، وصار يذكرُ من صفاتِ الكمالِ ما يملأُ الأوراقَ، وكُلَّما ذَكَرَ صفةَ كمالٍ انتفخ الملكُ وزاد حتَّى صار كالجبلِ العظيمِ من كثرةِ صفاتِ الإثباتِ في المدحِ، فجاء مسكين يريدُ أن يُقلِّدَ صاحبَ الإثباتِ ووقف أمام الملكِ فقال له: أيُّها الملكُ لست بكسَّاحٍ، ولا زبَّال، ولا دمَّالٍ، ولا وحشٍ، ولا حمارٍ، ولا كلبٍ، فإذا قال ذلك فإنَّ الملكَ يأمرُ به إلى السِّجنِ؛ لأنَّ هذا ليس مدحًا له، بل هو ذمٌّ له.

إِذَنْ التَّفصيلُ في النَّفيِ حكمُه ذمٌّ للموصوفِ في الحقيقةِ، ففي النَّفي يُجْمِلُونَ كقولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى:١١]، وكقولِه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]؛ ولهذا لم يذكر اللهُ التَّفصيلَ في النَّفيِ إلَّا في مسائلَ قليلةٍ، إمَّا لإبطالِ قولِ مَنْ وَصَفَهُ بهذا المنفيِّ مثل قولِه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]، وكقولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان:٢]، وإمَّا لتوهُّمِ نقصٍ في كمالِه مثل قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]؛ لأنَّ الإنسانَ قد يتصوَّرُ أنَّ الذي خَلَقَ هذه السَّماواتِ العظيمةَ والأرضَ العظيمةَ خلقها في ستَّةِ أيَّامٍ لا بُدَّ أن يتعبَ فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، ورُبَّما يتجرَّأُ العاصي على المعصيةِ ويقولُ: لعلَّه يعصي اللهَ في غفلةِ الله، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤]، ورُبَّما يقولُ قائلٌ: السَّماواتُ والأرضُ كُلُّها لعبٌ، حياةٌ وموتٌ فقط، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدُّخان:٣٨]، فالحاصلُ أنَّك لا تجدُ نفيًا في صفاتِ الله إلَّا على سبيلِ التَّفصيلِ إلَّا لسببٍ.

إِذَنْ طريقُ أهل السُّنَّة والجماعة التَّفصيلُ في الإثباتِ والإجمالُ في النَّفي.

أمَّا هؤلاء المعطِّلة فهم على العكسِ، فيقولون: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليس داخلَ العالمِ ولا خارجَه، ولا متَّصلًا ولا منفصلًا، ولا مباينًا ولا محايثًا، إلى آخر ما يقولون من الكلامِ الطَّويلِ الذي هو تفصيلٌ في نفي ما يدَّعون أنَّه لا يصحُّ إلَّا لله عزَّ وجلَّ.

إِذَنْ طريقُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ التَّفصيلُ في الإثباتِ، والإجمالُ في النَّفي، لكن هل التَّفصيلُ في الإثباتِ يكونُ أمامَ العامَّة؟

نقولُ: هناك أشياء تُفَصَّلُ فيها؛ فمثلًا إذا قلت: «إنَّ اللهَ سميعٌ»؛ أي أنَّه -سبحانه وتعالى- يسمعُ كُلَّ شيءٍ، فتُفَصِّل لهم، فهذا طَيِّبٌ، لكن هناك أشياء قد يكونُ من الأحسنِ ألَّا تُحَدِّثَ بها، مثل لو فَصَّلْتَ في يدِ الله أو أصابعِ الله مثلًا، أو ما أشبه ذلك؛ لأنَّ العامِّيَّ قد لا يعرفُ هذا الشَّيءَ، فإذا خفت أن يفهمَ التَّمثيلَ مثلًا فهذا لا يحسنُ كما قال عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ...»(١).

٤٢٠٢- فَتَدَبَّرُوا القُرْآنَ مَعْ مَنْ مِنْكُمَا وَشَهَادَةَ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

يعني: تَدبَّروا كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِه ﷺ مع مَنْ هما؟ هل هما معكم أيُّها النُّفاةُ أو مع المثبتين؟ إذا تدبَّرنا ذلك وجدنا أنَّها مع المثبتين، وأنَّ القُرآنَ والسُّنَّةَ يُفَصِّلان في الإثباتِ ويُجْمِلَانِ في النَّفي، وطريقةُ أهلِ التَّعطيلِ التَّفصيلُ في النَّفي والإجمالُ في الإثباتِ.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، رقم (١٢٧).

٤٢٠٣- وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الشُّيُوخُ وَمُحْكَمَ الفُرْقَانِ

٤٢٠٤- فَالمُحْكَمُ النَّصُّ المُوَافِقُ قَوْلَهُمْ ... لا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ فِي الأَذْهَانِ

٤٢٠٥- لَكِنَّمَا النَّصُّ المُخَالِفُ قَوْلَهُمْ ... مُشَابِهٌ مُتَأَوَّلٌ بِمَعَانِي

٤٢٠٦- وَإِذَا تَأَدَّبْتُمْ تَقُولُوا مُشْكِلٌ ... أَفَوَاضِحٌ يَا قَوْمُ رَأْيُ فُلانِ

٤٢٠٧- وَاللهِ لَوْ كَانَ المُوَافِقَ لَمْ يَكُنْ ... مُتَشَابِهًا مُتَأَوَّلًا بِلِسَانِ

٤٢٠٨- لَكِنْ عَرَضْنَا نَحْنُ أَقْوَالَ الشُّيُو ... خِ عَلَى الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الوَحْيَانِ

٤٢٠٩- مَا خَالَفَ النَّصَّيْنِ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ ... شَيْئًا وَقُلْنَا حَسْبُنَا النَّصَّانِ

٤٢١٠- وَالمُشْكِلُ القَوْلُ المُخَالِفُ عِنْدَنَا ... فِي غَايَةِ الإِشْكَالِ لا التِّبْيَانِ

الشَّرحُ

٤٢٠٣- وَعَرَضْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَى الَّذِي ... قَالَ الشُّيُوخُ وَمُحْكَمَ الفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «وَمُحْكَمَ الفُرْقَانِ»؛ أي: وعرضتم محكمَ القرآنِ أيضًا.

والمعنى: تعرضون قولَ الله ورسولِه على قولِ الشُّيوخِ، فإن وَافَقَ قولَ الشُّيوخِ قبلتموه، وإن خَالَفَ قولَ الشُّيوخِ رددتموه؛ ولهذا قال:

٤٢٠٤- فَالمُحْكَمُ النَّصُّ المُوَافِقُ قَوْلَهُمْ ... لا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ فِي الأَذْهَانِ

يعني: تجعَلون النَّصَّ الموافقَ لقولِهم هو المُحْكَم الذي لا يقبلُ التَّأويلَ، وهو الواضح الذي لا يقبلُ الاشتباهَ.

٤٢٠٥- لَكِنَّمَا النَّصُّ الْمُخَالِفُ قَوْلَهُمْ ... مُشَابِهٌ مُتَأَوَّلٌ بِمَعَانِي

فطريقةُ هؤلاء أنَّهم يَعْرِضُونَ القرآنَ والسُّنَّة على ما قال الشُّيوخُ، فإن وَافَقَ ما قال الشُّيوخُ فهو مُحْكَمٌ واضحٌ لا يحتملُ التَّأويلَ، وإن خَالَفَ فهو المتشابهُ القابلُ للتَّأويلِ، وتأويلُ هؤلاء المعطِّلةِ عندهم تأويلٌ وعندنا تحريفٌ؛ لأنَّه لا دليلَ عليه.

٤٢٠٦- وَإِذَا تَأَدَّبْتُمْ تَقُولُوا مِشْكِلٌ ... أَفَوَاضِحٌ يَا قَوْمُ رَأْيُ فُلانِ

يعني: إذا تأدَّبتم وأردتم أن تتكلَّموا بلَباقةٍ لا تقولوا: هذا متشابهٌ، بل تقولوا: هذا مُشْكِلٌ، يقولون: المُشْكِلُ: القرآنُ والسُّنَّةُ إذا خالفا آراءَ الرِّجالِ، والواضحُ آراءُ الرِّجالِ، فإذا تأدَّبوا قالوا: مُشْكِلٌ، أمَّا إذا لم يتأدَّبوا قالوا: هذا مُتَشَابِهٌ، فأَوِّلوه حَرِّفوه.

٤٢٠٧- وَاللهِ لَوْ كَانَ الْمُوَافِقَ لَمْ يَكُنْ ... مُتَشَابِهًا مُتَأَوَّلًا بِلِسَانِ

يعني: والله لو كان النَّصُّ هو الموافقَ لقولِ الشُّيوخِ لم يكن مُتَشَابِهًا، بل كان مُحْكَمًا واضحًا.

٤٢٠٨- لَكِنْ عَرَضْنَا نَحْنُ أَقْوَالَ الشُّيُو ... خِ عَلَى الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الوَحْيَانِ

وهذا طريقُ أهلِ السُّنَّةِ المثبِتين، يَعْرِضُونَ أقوالَ الشُّيوخِ على ما جاء به الوحيان.

٤٢٠٩- مَا خَالَفَ النَّصَّيْنِ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ ... شَيْئًا وَقُلْنَا حَسْبُنَا النَّصَّانِ

فما خَالَفَ «**النَّصَّيْنِ**»: الكتابَ والسُّنَّةَ «**لَمْ نَعْبَأْ بِهِ شَيْئًا**»؛ يعني: لم نُبالِ به شيئًا، و«**قُلْنَا: حَسْبُنَا النَّصَّانِ**»، ونِعْمَ الحسيبُ، و«**حَسْبُنَا**»؛ يعني: يكفينا النَّصَّان عن آراءِ الرِّجالِ، هذا إذا خَالَفَتْ آراءُ الرِّجالِ النَّصَّيْنِ.

٤٢١٠- وَالْمُشْكِلُ القَوْلُ المُخَالِفُ عِنْدَنَا فِي غَايَةِ الإِشْكَالِ لا التِّبْيَانِ

«المُشْكِلُ» أقوالُ الشُّيوخِ المخالفةُ للكتابِ والسُّنَّةِ، أَمَّا الواضحُ عندنا فهو دلالةُ الكتابِ والسُّنَّةِ.

* * *

٤٢١١- وَالعَزْلُ وَالإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى الـ آرَاءِ عِنْدَكُمُ بِلا كِتْمَانِ

٤٢١٢- لَكِنْ لَدَيْنَا ذَاكَ مَرْجِعُهُ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

٤٢١٣- وَالكُفْرُ وَالإِسْلامُ عَيْنُ خِلافِهِ وَوِفَاقِهِ لَا غَيْرَ بِالبُرْهَانِ

٤٢١٤- وَالكُفْرُ عِنْدَكُمُ خِلافُ شُيُوخِكُمْ وَوِفَاقُهُمْ فَحَقِيقَةُ الإِيمَانِ

٤٢١٥- هَذِي سَبِيلُكُمُ وَتِلْكَ سَبِيلُنَا وَالمَوْعِدُ الرَّحْمَنُ بَعْدَ زَمَانِ

٤٢١٦- وَهُنَاكَ يُعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا عَلَى الـ حَقِّ الصَّرِيحِ وَفِطْرَةِ الدَّيَّانِ

٤٢١٧- فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ فَإِذَا أُصِبْتَ فَفِي رِضَا الرَّحْمَنِ

٤٢١٨- فَالقَوْمُ مِثْلُكَ يَأْلَمُونَ وَيَصْبِرُو نَ وَصَبْرُهُمْ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ

الشرحُ

٤٢١١- وَالعَزْلُ وَالإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى الـ آرَاءِ عِنْدَكُمُ بِلا كِتْمَانِ

قَوْلُهُ: «العَزْلُ» هو الرَّدُّ.

قَوْلُهُ: «الإِبْقَاءُ»؛ يعني: القَبولَ في كلامِ المؤلِّفِ.

فالرَّدُّ والقَبولُ مَرجِعُه عندكم إلى الآراءِ، فما وَافَقَ آراءَ الشُّيوخِ فهو مقبولٌ، وما خَالَفَهَا فهو مردودٌ، فهو يُبَيِّنُ أنَّ المرجعَ عندهم آراءُ الرِّجالِ، فهي التي تعزلُ أو تُبْقِي.

٤٢١٢- لَكِـــنْ لَـــدَيْنَا ذَاكَ مَرْجِعُـــهُ إِلَى   قَـوْلِ الرَّسُـولِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

وفرقٌ بين هذا وهذا، فرقٌ بين مَنْ يرجعُ في أمورِه إلى الكتابِ والسُّنَّةِ وبين مَنْ يرجعُ إلى آراءِ الرِّجالِ.

٤٢١٣- وَالكُفْـرُ وَالإِسْـلامُ عَـيْنُ خِلافِـهِ   وَوِفَاقِـــهِ لَا غَـــيْرَ بِالبُرْهَـــانِ

قَوْلُهُ: «الكُفْرُ وَالإِسْلَامُ عَيْنُ خِلَافِهِ وَوِفَاقِهِ» هذا لفٌّ ونشرٌ مُرتَّبٌ، فالكفرُ عَيْنُ خلافِه، والإسلامُ عَيْنُ وفاقِه، ففي البيتِ لفٌ ونشرٌ مُرتَّب، فـ: «عَيْنُ خِلَافِهِ» يعودُ إلى الكفرِ، و«وِفَاقِهِ» يعودُ إلى الإسلامِ.

يعني: أنَّ الكفرَ عندنا مخالفةُ النَّصَّيْنِ: القرآنِ وقولِ الرَّسولِ، والإسلامَ موافقتُهما لا غير، فمَنْ وَافَقَ الكتابَ والسُّنَّةَ فهو مسلمٌ، ومن خَالَفَهُما فهو كافرٌ، لكن الكفرُ أنواعٌ.

٤٢١٤- وَالكُفْرُ عِنْدَكُمُ خِلافُ شُـيُوخِكُمْ   وَوِفَـــاقُهُمْ فَحَقِيقَـــةُ الإِيـــمَانِ

قَوْلُهُ: «وَالكُفْرُ عِنْدَكُمُ خِلَافَ شُيُوخِكُمْ» هذا الكفرُ عندهم، فمَنْ خَالَفَ الشَّيخَ فهو كافرٌ.

قَوْلُهُ: «وَوِفَاقُهُمْ فَحَقِيقَةُ الإِيمَانِ» وَمَنْ وافقهم فهو مؤمنٌ.

إِذَنْ فرقٌ بيننا وبينهم، نحن نقولُ: الإيمانُ موافقةُ الكتابِ والسُّنَّةِ، والكفرُ مخالفةُ الكتابِ والسُّنَّةِ، وهؤلاء يقولون: الإيمانُ موافقةُ الشُّيوخِ والكفرُ مخالفةُ الشُّيوخِ.

٤٢١٥- هَـذِي سَـبِيلُكُمُ وَتِلْـكَ سَـبِيلُنَا وَالـمَوْعِدُ الـرَّحْمَنُ بَعْـدَ زَمَـانِ

٤٢١٦- وَهُنَاكَ يُعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَـا عَـلَى الـ ـحَـقِّ الصَّـرِيحِ وَفِطْـرَةِ الـدَّيَّانِ

يعني: هذه طريقُنا وهذه طريقُكم، والذي يحكمُ بيننا هو اللهُ بعد زَمانٍ، فاللهُ يوم القيامة يَحكُمُ بين العبادِ فيما كانوا فيه يختلفون، فكما يحكمُ بينهم في الحقوقِ الخاصَّةِ كأخذ المالِ وقتل النَّفسِ والعِرْضِ فهو يحكمُ بينهم أيضًا فيما اختلفوا فيه من الحقِّ يوم القيامةِ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة «النِّساء»: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء:١٤١]، وهذه بُشرى سارَّة، حيث يخبرُنا بأنَّنا سنتحاكمُ، والحقُّ لنا، ولن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلًا، فبالله عليكم لو أنَّ خصمَيْنِ ذهبا إلى القاضي، فقال القاضي لأحدِهما: «**لن يكونَ لفُلانٍ عليك سبيلًا**»، فإنَّه سيذهبُ مستبشِرًا مُنتصِرًا، فاللهُ بَيَّنَ أنَّه سيحكمُ بين الكافرين والمؤمنين، ولن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

٤٢١٧- فَاصْـبِرْ قَلِـيلًا إِنَّـمَا هِـيَ سَـاعَةٌ فَـإِذَا أُصِـبْتَ فَفِـي رِضَـا الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ**» نعم، اصبر قليلًا لو خالفك النَّاسُ، لو رَأَيْتَ النَّاسَ على باطلٍ، اصبِرْ فَإِنَّما هي ساعةٌ من زمانٍ مهما طال بك الوقتُ لو تبلغ مئات السِّنين فكأنَّما بقيت ساعةً من زمانٍ، فكُلُّ شيءٍ ينفد، كُلُّ شيءٍ يذهبُ.

قَوْلُهُ: «**فَإِذَن أُصِبْتَ فَفِي رِضَا الرَّحْمَنِ**»؛ يعني: فإذا أُصِبْتَ من هؤلاء المبتدعةِ من هؤلاء المعتدين بأن اعْتَدَوْا عليك بضربٍ أو قتلٍ أو غيرِ ذلك فهذا العدوانُ في رضا الله عزَّ وجلَّ، تُثَابُ عليه وتُؤْجَرُ عليه.

٤٢١٨- فَالقَوْمُ مِثْلُكَ يَأْلَمُونَ وَيَصْبِرُو نَ وَصَبْرُهُمْ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «فَالقَوْمُ مِثْلَكَ»، ويجوزُ: «مِثْلُكَ».

وأمَّا أنت فتتألَّم وتصبر، وصبرُك في طاعةِ الله، قال اللهُ تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النِّساء:١٠٤]، «تهنوا»؛ يعني: تَضْعُفُوا، و﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: في طلب الكُفَّارِ الذين يقاتلونكم على الإسلامِ، لا تهنوا في ابتغائِهم، اطلبوهم، اقْفُوا آثارَهم، و﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النِّساء:١٠٤]؛ لأنَّهم بشرٌ وأنتم بشرٌ، لكن الفرقُ كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النِّساء:١٠٤]، فأنتم تُقاتلون في سبيلِ الله، والذين كفروا يُقاتِلون في سبيلِ الطَّاغوتِ، وفرقٌ بين الأمرين؛ ولذا لا تقولوا: إنَّ القتالَ تعبٌ، وإزهاقُ نفسٍ، وإتلافُ مالٍ، فهؤلاء القومُ مثلُكم يتعبون ويألمون، ولكنَّكم أنتم ترجون من الله ما لا يرجون.

وهذه مسألةٌ مهمَّةٌ ينبغي للإنسانِ أن يجعلَها على بالِه في مخاصمةِ الأعداءِ وجدالِهم أنَّ ما يصيبُه من الأذى والتَّحمُّلِ والهمِّ والغمِّ ففي سبيلِ الله، وما يصيبُ خصمَه ففي سبيلِ الطَّاغوتِ والشَّيطانِ، فهو على خيرٍ، وهم على شرٍّ.

وفي هذا تسليةٌ للمؤمنِ إذا أصابه من الكافرِ ما يُصيبُه أن يتسلَّى بكلامِ الله عزَّ وجلَّ.

* * *

فصــل

فِي بَيَانِ الاسْتِغْنَاءِ بِالوَحْيِ المُنَزَّلِ مِنَ السَّمَاءِ عَنْ تَقْلِيدِ الرِّجَالِ وَالآرَاءِ

٤٢١٩- يَا طَالِبَ الحَقِّ المُبِينِ وَمُؤْثِرًا   عِلْمَ اليَقِينِ وَصِحَّةَ الإِيمَانِ

٤٢٢٠- اسْمَعْ مَقَالَةَ نَاصِحٍ خَبَرَ الَّذِي   عِنْدَ الوَرَى مُذْ شَبَّ حَتَّى الآنِ

٤٢٢١- مَا زَالَ مُذْ عَقَدَتْ يَدَاهُ إِزَارَهُ   قَدْ شَدَّ مِيزَرَهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

٤٢٢٢- وَتَخَلَّلَ الفَتَرَاتِ لِلعَزَمَاتِ أَمْـ   ـرٌ لازِمٌ لِطَبِيعَةِ الإِنْسَانِ

٤٢٢٣- وَتَوَلَّدَ النُّقْصَانُ مِنْ فَتَرَاتِهِ   أَوَلَيْسَ سَائِرُنَا بَنِي النُّقْصَانِ

٤٢٢٤- طَافَ المَذَاهِبَ يَبْتَغِي نُورًا لِيَهْـ   ـدِيهِ وَيُنْجِيهِ مِنَ النِّيرَانِ

٤٢٢٥- وَكَأَنَّهُ قَدْ طَافَ يَبْغِي ظُلْمَةَ الْـ   ـلَيْلِ البَهِيمِ وَمَذْهَبَ الحَيْرَانِ

٤٢٢٦- وَاللَّيْلُ لَا يَزْدَادُ إِلَّا قُوَّةً   وَالصُّبْحُ مَقْهُورٌ بِذِي السُّلْطَانِ

٤٢٢٧- حَتَّى بَدَتْ فِي سَيْرِهِ نَارٌ عَلَى   طَوْرِ المَدِينَةِ مَطْلَعِ الإِيمَانِ

٤٢٢٨- فَأَتَى لِيَقْبِسَهَا فَلَمْ يُمْكِنْهُ مَعْ   تِلْكَ القُيُودِ مَنَالُهَا بِأَمَانِ

٤٢٢٩- لَوْلَا تَدَارَكَهُ الإِلَهُ بِلُطْفِهِ   وَلَّى عَلَى العَقِبَيْنِ ذَا نُكْصَانِ

٤٢٣٠- لَكِنْ تَوَقَّفَ خَاضِعًا مُتَذَلِّلًا   مُسْتَشْعِرَ الإِفْلَاسِ مِنْ أَثْمَانِ

٤٢٣١- فَأَتَاهُ جُنْدٌ حَلَّ عَنْهُ قُيُودَهُ   فَامْتَدَّ حِينَئِذٍ لَهُ البَاعَانِ

٤٢٣٢- وَاللهِ لَـوْلَا أَنْ تُحَـلَّ قُيُـودُهُ ... وَتَـزُولَ عَنْـهُ رِبْقَـةُ الشَّـيْطَانِ

٤٢٣٣- كَـانَ الرُّقِـيُّ إِلَى الثُّرَيَّـا مُصْـعِدًا ... مِـنْ دُونِ تِلْـكَ النَّـارِ فِي الإِمْكَـانِ

٤٢٣٤- فَـرَأَى بِتِلْـكَ النَّـارِ آطَـامَ المَدِيـ ... ـنَةِ كَالـخِيَامِ تَشُـوفُهَا العَيْنَـانِ

٤٢٣٥- وَرَأَى عَـلَى طُرُقَاتِهَـا الأَعْـلَامَ قَـدْ ... نُصِبَتْ لِأَجْلِ السَّـالِكِ الـحَيْرَانِ

٤٢٣٦- وَرَأَى هُنَالِـكَ كُـلَّ هَـادٍ مُهْتَـدٍ ... يَـدْعُو إِلَى الإِيـمَانِ وَالإِيقَـانِ

٤٢٣٧- فَهُنَـاكَ هَنَّـأَ نَفْسَـهُ مُتَـذَكِّرًا ... مَـا قَالَـهُ المُشْـتَاقُ مُنْـذُ زَمَـانِ

٤٢٣٨- وَالـمُسْتَهَامُ عَلَى الـمَحَبَّةِ لَـمْ يَزَلْ ... حَاشَـا لِـذِكْرَاكُمْ مِـنَ النِّسْـيَانِ

٤٢٣٩- لَـوْ قِيـلَ مَـا تَهْـوَى لَقَـالَ مُبَـادِرًا ... أَهْـوَى زِيَـارَتَكُمْ عَـلَى الأَجْفَـانِ

٤٢٤٠- تَـاللهِ إِنْ سَـمَحَ الزَّمَـانُ بِقُـرْبِكُمْ ... وَحَلَلْـتُ مِـنْكُمْ بِالمَحَـلِّ الـدَّانِي

٤٢٤١- لَأُعَفِّرَنَّ الـخَدَّ شُـكْرًا فِي الثَّـرَى ... وَلَأُكْحِلَـنَّ بِـتُرْبِكُمْ أَجْفَـانِي

الشَّـرحُ

٤٢١٩- يَا طَالِـبَ الحَـقِّ الـمُبِينِ وَمُـؤْثِرًا ... عِلْـمَ اليَقِـينِ وَصِـحَّةَ الإِيـمَانِ

يعني: يا مَنْ يطلبُ الحقَّ المبينَ، ويُؤْثِرُ علمَ اليقينِ على الشُّكوكِ والظُّنونِ التي يقولُـها هؤلاء الشُّيوخُ، وصحَّةَ الإيمانِ على سقمِ الإيمانِ.

٤٢٢٠- اسْمَعْ مَقَالَـةَ نَاصِـحٍ خَـبَرَ الَّـذِي ... عِنْدَ الوَرَى مُـذْ شَـبَّ حَتَّـى الآنِ

ويعني بذلك نفسَه، فإنَّه خَبَرَ الوَرَى؛ يعني: عرفهم عن خبرةٍ مُذْ شَبَّ؛ يعني: منذ كان صغيرًا حتَّى الآن.

٤٢٢١- مَـا زَالَ مُـذْ عَقَـدَتْ يَـدَاهُ إِزَارَهُ ... قَـدْ شَـدَّ مِيـزَرَهُ إِلَى الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «مَا زَالَ مُذْ عَقَدَتْ يَدَاهُ إِزَارَهُ» وهذا يكونُ من سبعِ سنين، أو ما أشبه ذلك؛ لأنَّ الصَّغيرَ لا يستطيعُ أن يربطَ إزارَه، والذي يعقدُ إزارَه له أُمُّهُ أو الخادم أو ما أشبه ذلك، فإذا كبر تمكَّن من أن يعقدَ إزارَه بنفسِه.

وهو يقولُ هذا مُتحدِّثًا بنعمة الله لا فاخِرًا به على عبادِ الله، ولا يُقَالُ: إنَّ هذا من بابِ تزكيةِ النَّفسِ؛ لأنَّ المقصودَ بذلك إغراءُ النَّاسِ على أن يأخذوا من الكتابِ والسُّنَّةِ، وها هو عبدُ الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقولُ: «لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»[1]، هل أراد عبدُ الله ابنُ مسعودٍ أن يُزَكِّيَ نفسَه؟ الجوابُ: لا، بل أراد حَثَّ النَّاسِ على طلبِ العلمِ مهما بعدت أقطارُه، وهكذا ابنُ القيِّمِ -رحمه الله- لا نعتقدُ ولا نظنُّ أنَّه أراد بذلك أن يمدحَ نفسَه أمام النَّاسِ، أو يزكِّيها عند الله عزَّ وجلَّ.

٤٢٢٢- وَتَخَلُّـلَ الفَـتَرَاتِ لِلعَزَمَـاتِ أَمْـ ... ـرٌ لازِمٌ لِطَبِيعَـةِ الإِنْسَـانِ

لـمَّا أخبر أنَّه منذ كان صغيرًا وهو لا زال يشدُّ مِئزرَه إلى الرَّحمنِ استثنى فقال: هناك فتراتٌ تعتري الإنسانَ وتصدُّه عن عزمِه، وهذا لازمٌ لطبيعةِ الإنسانِ، فالإنسانُ يكونُ نشيطًا في وقتٍ، ويكون كسلانَ في وقتٍ آخرَ، ففي بعض الأحيان تكونُ عنده عزيمةٌ قويَّةٌ وإيمانٌ قويٌّ كأنَّما يُشَاهِدُ العرشَ والكرسيَّ والجنَّةَ والنَّارَ، ثُمَّ تحصلُ فترةٌ لا يصلُ إلى هذا الحدِّ، وهذا شيءٌ كُلُّ إنسانٍ مُبْتَلًى به.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٤٧١٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٦٣).

٤٢٢٣- وَتَوَلَّدَ النُّقْصَانُ مِنْ فَتَرَاتِهِ أَوَلَيْسَ سَائِرُنَا بَنِي النُّقْصَانِ

يعني: أنَّ الإنسانَ إذا فتر لا بُدَّ أن ينقصَ علمُه، ولا بُدَّ أن ينقصَ فهمُه، ولا بُدَّ أن ينقصَ دينُه إذا فتر عن طاعةِ الله، وهذا لا شكَّ أنَّه نقصٌ، ولكن كُلُّنا بنو النَّقصِ.

٤٢٢٤- طَافَ المَذَاهِبَ يَبْتَغِي نُورًا لِيَهْـ ـدِيهِ وَيُنْجِيهِ مِنَ النِّيرَانِ

يعني بذلك نفسَه، فإنَّه -رحمه الله- له اطِّلاعٌ واسعٌ على مذاهبِ العلماءِ، وكان أوَّلَ أمرِه صوفيًّا، لولا أن مَنَّ اللهُ عليه بشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ كاد أن يهلكَ في طريقِ الصُّوفيَّةِ، ولكنَّ اللهَ مَنَّ عليه بشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ، فلازمه وانتفع بعلمِه، وهداه اللهُ على يدِه.

٤٢٢٥- وَكَأَنَّهُ قَدْ طَافَ يَبْغِي ظُلْمَةَ الْـ ـلَيْلِ البَهِيمِ وَمَذْهَبَ الحَيْرَانِ

يعني: ومع هذا الطَّوافِ يريدُ ما يُنجيه كأنَّه طَافَ اللَّيلَ، فهو حتَّى الآن لم يهتدِ إلى النُّورِ.

٤٢٢٦- وَاللَّيْلُ لَا يَزْدَادُ إِلَّا قُوَّةً وَالصُّبْحُ مَقْهُورٌ بِذِي السُّلْطَانِ

٤٢٢٧- حَتَّى بَدَتْ فِي سَيْرِهِ نَارٌ عَلَى طَوْرِ المَدِينَةِ مَطْلَعِ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «طَوْرِ المَدِينَةِ» بالرَّاء؛ أي: السُّور، وفي نسخةٍ: «طَوْدِ المَدِينَةِ»؛ أي: الجبل، ومعلومٌ أنَّ النَّارَ إذا بَدَتْ بعد التَّعبِ الشَّديدِ في طلبِها يكونُ الإنسانُ بها أشدَّ فرحًا، وأشدَّ شوقًا إليها.

٤٢٢٨- فَأَتَى لِيَقْبِسَهَا فَلَمْ يُمْكِنْهُ مَعْ تِلْكَ القُيُودِ مَنَالُهَا بِأَمَانِ

جاء يقتبسُ من هذه النَّارِ، لكن عليه ذنوبٌ قَيَّدَتْهُ فلم يَسْتَطِعْ أن يقتبسَ منها.

٤٢٢٩- لَــوْلَا تَدَارَكَــهُ الإِلَــهِ بِلُطْفِــهِ   وَلَّى عَــلَى العَقِبَــيْنِ ذَا نُكْصَــانِ

يعني: لولا أنَّ اللهَ تداركه بلُطفِه لكان حين عجز عن الاقتباسِ يرجعُ ويتركُ كما يوجدُ من بعضِ النَّاسِ إذا عجز عن إدراكِ الشَّيءِ لأوَّل مرَّةٍ نكص على عَقِبَيْهِ وتركه.

٤٢٣٠- لَكِــنْ تَوَقَّــفَ خَاضِــعًا مُتَــذَلِّلًا   مُسْتَشْــعِرَ الإِفْــلَاسِ مِــنْ أَثْــمَانِ

يعني: أنَّه لم ينكص، ولكن وقف، وقال: لعلَّ اللهَ يفتحُ عليَّ.

٤٢٣١- فَأَتَــاهُ جُنْــدٌ حَــلَّ عَنْــهُ قُيُــودَهُ   فَامْتَــدَّ حِينَئِــذٍ لَــهُ البَاعَــانِ

ومعلومٌ أنَّه إذا حُلَّت القيودُ يستطيعُ أن يخطوَ خطوةً واسعةً ويمتدَ باعُه.

٤٢٣٢- وَاللهِ لَــوْلَا أَنْ تُحَــلَّ قُيُــودُهُ   وَتَــزُولَ عَنْــهُ رِبْقَــةُ الشَّــيْطَانِ

٤٢٣٣- كَــانَ الرُّقِــيُّ إِلَى الثُّرَيَّــا مُصْــعِدًا   مِــنْ دُونِ تِلْــكَ النَّــارِ فِي الإِمْكَــانِ

لولا أنَّ اللهَ يَسَّرَ له مَنْ حَلَّ له القيودَ حتَّى مشى لكان الرُّقِيُّ إلى الثُّرَيَّا وهي في السَّماءِ أيسرَ من الوصولِ إلى هذه النَّارِ التي يريدُ أن يقتبسَ منها.

٤٢٣٤- فَــرَأَى بِتِلْــكَ النَّــارِ آطَــامَ المَدِيــ   ــنَةِ كَالــخِيَامِ تَشُــوفُهَا العَيْنَــانِ

قَوْلُهُ: «الآطَام» جمع «أُطُم»، وهي الأماكنُ المرتفعةُ.

٤٢٣٥- وَرَأَى عَــلَى طُرُقَاتِهَــا الأَعْــلَامَ قَــدْ   نُصِبَتْ لِأَجْلِ السَّــالِكِ الــحَيْرَانِ

الأعلامُ وهي إرشاداتُ الطرُّقِ نُصِبَتْ لِتُرْشِدَ الإنسانَ المتحيِّرَ، فهنا آطامٌ وهنا أعلامٌ.

٤٢٣٦- وَرَأَى هُنَالِكَ كُلَّ هَادٍ مُهْتَدٍ ... يَدْعُو إِلَى الإِيمَانِ وَالإِيقَانِ

إِذَنْ هناك علاماتٌ أرضيَّةٌ وعلاماتٌ بشريَّةٌ، العلاماتُ البشريَّةُ هم هؤلاء الـهُداةُ المهتدون الذين يدعون إلى الله عزَّ وجلَّ.

٤٢٣٧- فَهُنَاكَ هَنَّأَ نَفْسَهُ مُتَذَكِّرًا ... مَا قَالَهُ الْمُشْتَاقُ مُنْذُ زَمَانِ

هناك حين رَأى الآطامَ وأعلامَ الـهدى من الـهُداةِ المهتدين هَنَّأَ نفسَه متذكِّرًا ما قاله المشتاقُ منذ زمانٍ، لكن ما الذي قال؟

٤٢٣٨- وَالـمُسْتَهَامُ عَلَى الـمَحَبَّةِ لَمْ يَزَلْ ... حَاشَا لِذِكْرَاكُمْ مِنَ النِّسْيَانِ

قَوْلُهُ: «الْمُسْتَهَامُ»: الذي أصابه الـهُيامُ من شدَّةِ الشَّوقِ.

قَوْلُهُ: «لَمْ يَزَلْ»؛ يعني: لم يزل على المحبَّةِ.

قَوْلُهُ: «حَاشَا لِذِكْرَاكُمْ مِنَ النِّسْيَانِ» «حَاشَا» بمعنى: تنزيهًا؛ يعني: تنزيهًا أن أنسى ذِكْرَكم، فأنا لن أنسى ذِكْرَكم.

٤٢٣٩- لَوْ قِيلَ مَا تَهْوَى لَقَالَ مُبَادِرًا ... أَهْوَى زِيَارَتَكُمْ عَلَى الأَجْفَانِ

إِذَنْ مُنْيَتُهُ أن يزورَهم ولو على الأجفانِ بدلًا عن الأقدامِ، وهذا من المبالغةِ في محبَّتِهِ لزيارتِهم.

٤٢٤٠- تَاللهِ إِنْ سَمَحَ الزَّمَانُ بِقُرْبِكُمْ ... وَحَلَلْتُ مِنْكُمْ بِالْمَحَلِّ الدَّانِي

٤٢٤١- لأُعَفِّرَنَّ الـخَدَّ شُكْرًا فِي الثَّرَى ... وَلأُكْحِلَنَّ بِتُرْبِكُمْ أَجْفَانِي

وهذه مبالغةٌ شديدةٌ، لكن لعلَّه ينقلُ قولَ غيرِه، يقولُ: «تَاللهِ إِنْ سَمَحَ الزَّمَانُ بِقُرْبِكُمْ»؛ يعني: إن تيسَّر لي أن أَقْرُبَ منكم، «وَحَلَلْتُ مِنْكُمْ بِالْمَحَلِّ

الدانِي» وهو ديارُهم.

قَوْلُهُ: «**لأُعَفِّرَنَّ الخَدَّ شُكْرًا فِي الثَّرَى**» «**فِي الثَّرَى**» متعلِّقٌ بـ«**أُعَفِّر**»؛ يعني: أُعِفِّر خدِّي بالتُّرابِ شكرًا للوصولِ إلى محلَّاتِكم.

قَوْلُهُ: «**وَلأُكْحِلَنَّ بِتُرْبِكُمْ أَجْفَانِي**» بدل أن يكحلَ بالإثمدِ يكحل بالتُّرابِ، وهذه مبالغةٌ لا شكَّ، وهذا يقولُه العُشَّاقُ في الزَّمنِ الأوَّلِ، فالعشقُ يقتلُ الإنسانَ، فإذا عشق محبوبةً مثلًا، ثُمَّ لو قالت له: «**اسجد**» لسجد لها، ويبالغون في بيان ما في نفوسِهم من محبَّة اللقاءِ والشَّوْقِ إليها.

لكن يقولُ شيخُنا ابنُ سعديٍّ رحمه الله: إنَّ عشقَ الصُّورِ وَلَّى، لكن جاء عشقُ الدُّنيا، عشقُ المالِ، فما ظنُّكم لو أنَّه بَقِيَ إلى هذا الوقتِ لكان أشدَّ وأشدَّ، فالنَّاسُ الآن -نسألُ اللهَ العافيةَ- آثروا الدُّنيا على الآخرةِ؛ ولهذا لا يبالون بالحلالِ والحرامِ والرِّبا والغشِ والكذبِ، نسألُ اللهَ السَّلامةَ.

والظَّاهرُ لي -واللهُ أعلمُ- أنَّ هذه أبياتٌ قيلت مِنْ قَبْلِه، فإن كان هو الذي قالها فنسأل اللهَ له العفوَ؛ لأنَّ هذا مبالغةٌ، وليس من المشروعِ، لكن هذه من المبالغات التي يقولُها الشُّعراءُ، والشِّعرُ إذا كان فيه مبالغةٌ يَرَوْنَ أَنَّ هذا من مُلَحِه وطراوتِه، لكنَّه لا يومئ إلى مسألة القبوريِّين الذين يأتون إلى القبورِ ويُعَفِّرون الخدودَ؛ لأنَّه قال: «**لأُعَفِّرَنَّ الخَدَّ شُكْرًا**»، والقبوريُّون يُعفِّرونها تعظيمًا وعبادةً.

***

٤٢٤٢- إِنْ رُمْتَ تُبْصِرُ مَا ذَكَرْتُ فَغُضَّ طَرْ ... فًا عَنْ سِوَى الآثَارِ وَالقُرْآنِ

٤٢٤٣- وَاتْرُكْ رُسُومَ الخَلْقِ لا تَعْبَأْ بِهَا ... فِي السَّعْدِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ دَبَرَانِ

٤٢٤٤- حَذِّقْ لِقَلْبِكَ فِي النُّصُوصِ كَمِثْلِ مَا قَدْ حَذَّقُوا فِي الرَّأْيِ طُولَ زَمَانِ

٤٢٤٥- وَاكْحَلْ جُفُونَ القَلْبِ بِالوَحْيَيْنِ وَاحْـ ـذَرْ كُحْلَهُمْ يَا كَثْرَةَ العُمْيَانِ

٤٢٤٦- فَاللهُ بَيَّنَ فِيهِمَا طُرُقَ الهُدَى لِعِبَادِهِ فِي أَحْسَنِ التِّبْيَانِ

٤٢٤٧- لَمْ يُحْوِجِ اللهُ الخَلائِقَ مَعْهُمَا لِخَيَالِ فَلْتَانٍ وَرَأْيِ فُلانِ

٤٢٤٨- فَالوَحْيُ كَافٍ لِلَّذِي يُعْنَى بِهِ شَافٍ لِدَاءِ جَهَالَةِ الإِنْسَانِ

٤٢٤٩- وَتَفَاوُتُ العُلَمَاءِ فِي أَفْهَامِهِمْ لِلْوَحْيِ فَوْقَ تَفَاوُتِ الأَبْدَانِ

الشَّرحُ

٤٢٤٢- إِنْ رُمْتَ تُبْصِرُ مَا ذَكَرْتُ فَغُضَّ طَرْ فًا عَنْ سِوَى الآثَارِ وَالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «تُبْصِرُ»؛ يعني: بعينِ قلبِك.

قَوْلُهُ: «مَا ذَكَرْتُ»؛ أي: ما ذَكَرْتُ لك من أنَّ الوحيَ بقسميه «الكتاب والسُّنَّة» كافٍ.

قَوْلُهُ: «فغُضَّ الطَّرْفَ عَنْ سِوَى الآثَارِ وَالقُرْآنِ»، أي: اترك هذه الكتبَ التي ليس فيها إلَّا الهذيانُ والكلامُ الباطلُ.

٤٢٤٣- وَاتْرُكْ رُسُومَ الخَلْقِ لا تَعْبَأْ بِهَا فِي السَّعْدِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ دَبَرَانِ

قَوْلُهُ: «وَاتْرُكْ رُسُومَ الخَلْقِ لَا تَعْبَأْ بِهَا»؛ يعني: اترك ما رسموه من كُلِّ كلامٍ مخالفٍ لما في الكتابِ والسُّنَّةِ، وأمَّا الكلامُ الموافقُ لما في الكتابِ والسُّنَّةِ فهو من الكتابِ والسُّنَّةِ.

قَوْلُهُ: «**فِي السَّعْدِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ دَبَرَانِ**» سبق أنَّ السُّعودَ ثلاثةٌ: سعد الذَّابحِ، و سعد بلعٍ، وسعد السُّعودِ، و«**الدَّبَرَان**» نجمٌ صغيرٌ أحمرُ يكونُ خلفَ الثُّريَّا.

وَقَوْلُهُ: «**فِي السَّعْدِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ دَبَرَانِ**» وكأنَّ ابنَ القيِّم -رحمه الله- أنا أظنُّ من كلامِه أنَّ العربَ كانوا يتشاءمون بالدَّبَرَانِ، والسَّعد يتفاءلون به؛ لأنَّ السَّعدَ من السَّعادة، والدَّبَرَان من الدُّبور، ففي السَّعدِ ما يغنيك عن دَبَرَانِ.

٤٢٤٤- حَذِّقْ لِقَلْبِكَ فِي النُّصُوصِ كَمِثْلِ مَا قَدْ حَذَّقُوا فِي الرَّأْيِ طُولَ زَمَانِ

يعني: اجعلْ قلبَك حاذقًا في النُّصوصِ كما حَذَّقوا هم للآراءِ طولَ زمانٍ، والقلبُ إذا كان مهتمًّا بالوحيين؛ الكتابِ والسُّنَّةِ، نال بهما سعادةَ الدُّنيا والآخرة.

٤٢٤٥- وَاكْحَلْ جُفُونَ القَلْبِ بِالوَحْيَيْنِ وَاحْـ ـذَرْ كُحْلَهُمْ يَا كَثْرَةَ العُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «**وَاكْحُلْ جُفُونَ القَلْبِ بِالوَحْيَيْنِ وَاحْذَرْ كُحْلَهُمْ**»؛ لأنَّهم يكتحلون بالآراءِ والهذيانِ، ولهذا كَثُرَ فيهم العمى.

قَوْلُهُ: «**يَا كَثْرَةَ العُمْيَانِ**»، فيا كثرةَ العُمْيَانِ الذين اكتحلوا بالآراءِ والهذيانِ، أمَّا مَن اكْتَحَلَ بالوحي فسيكون بصيرًا قويَّ البصرِ.

٤٢٤٦- فَاللهُ بَيَّنَ فِيهِمَا طُرُقَ الهُدَى لِعِبَادِهِ فِي أَحْسَنِ التِّبْيَانِ

الحمدُ لله؛ بَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ طرقَ الهدى في القرآنِ والسُّنَّةِ بأتمِّ التِّبيان.

٤٢٤٧- لَمْ يُحْوِجِ اللهُ الخَلائِقَ مَعْهُمَا لِخَيَالِ فَلْتَانٍ وَرَأْيِ فُلانِ

عندنا مَثَلٌ يقولُ: «**فُلَيْتَان ورُقَيْعَان**»، و«**فَلْتَان**» مكبَّر «**فُلَيْتَان**»؛ لأنَّ «**فُلَيْتَان**» مصغَّر، و«**الفَلْتَان**» معناه الذي لا يُعْبَأُ بكلامِه؛ لأنَّ كلامَه لا ينبني على شيءٍ، و«**رَأْيِ فُلَانِ**» فُلَان يُكْنَى به عن الرَّجُلِ، يُقَالُ: فلانٌ، ويُقَالُ: فلانةٌ.

٤٢٤٨- فَالوَحْيُ كَافٍ لِلَّذِي يُعْنَى بِهِ شَافٍ لِدَاءِ جَهَالَةِ الإِنْسَانِ

صدَق والله، إنَّ الوحيَ كافٍ لِـمَن اعتنى به، فهو شافٍ من كُلِّ داءٍ كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

٤٢٤٩- وَتَفَاوُتُ العُلَمَاءِ فِي أَفْهَامِهِمْ لِلوَحْيِ فَوْقَ تَفَاوُتِ الأَبْدَانِ

نحن نرى النَّاسَ يتفاوتون في الأبدانِ، هذا قصيرٌ وهذا طويلٌ، وهذا عريضٌ وهذا دقيقٌ، وهذا نحيفٌ وهذا سمينٌ، وهذا أبيضُ وهذا أسودُ، وهكذا، وهذا شيءٌ مُشَاهَدٌ.

والأفهامُ كذلك؛ لأنَّ الأفهامَ قوى باطنةٌ، وتفاوتُ العلماءِ في الأفهامِ أشدُّ من تَفاوتِهم في الأبدانِ؛ ولهذا تجدُ بعضَهم لا يعرفُ شيئًا، وبعضَهم لا يفهمُ ولا يحفظُ، وبعضَهم يحفظُ ويفهمُ، فهم أربعةُ أقسامٍ، حافظٌ فاهمٌ، وحافظٌ غيرُ فاهمٍ، وفاهمٌ غيرُ حافظٍ، وليس بحافظٍ ولا بفاهمٍ، وشَرُّ الأقسامِ: الأخيرُ، وخيرُ الأقسامِ الأوَّلُ: الحافظُ الفاهمُ.

فالنَّاسُ يختلفون في الأَفهامِ بلا شكٍّ، تَرِدُ آيةٌ من كتابِ الله يستنبطُ منها بعضُ النَّاسِ مسائلَ عديدة، وبعضُ النَّاسِ لا يعرفُ شيئًا، ولقد حدَّثناكم عن حمار الفُروعِ، وحمارُ الفروعِ رجلٌ قد حفظ كتابَ «**الفروع**»، و«**الفروعُ**» كتابُ فقهٍ أَلَّفَه محمَّدُ بنُ مفلحٍ أحدُ تلاميذِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ الذي قال له ابنُ تيميَّةَ: «**ما أنت ابنُ مفلحٍ، بل أنت مفلحٌ**»، وهذا الكتابُ حوى جُلَّ ما قاله الفقهاء، ليس فقهاء الحنابلة فقط حتَّى غير الحنابلة؛ لأنَّ له اطِّلاعًا واسعًا، تجده مثلًا يذكرُ المسألَةَ، ثُمَّ يقولُ: وفاقًا للشَّافعيِّ، وفاقًا لمالكٍ، وفاقًا لأبي حنيفةَ، خلافًا لمالكٍ،

خلافًا للشَّافعيِّ، خلافًا لأبي حنيفةَ، وهو كتاب يُعْتَبَرُ جامعًا حتَّى إنَّ بعضَهم يسمِّيه مِكْنَسة المَذْهَبِ؛ يعني: يكنسُ كُلَّ شيءٍ، وهو رجلٌ حافظٌ عن ظهر قلبٍ لهذا الكتابِ، وهو ثلاثةُ مجلَّداتٍ مع تصحيحِ الفروعِ، وجعله القَطَرِيُّون ستَّةَ مجلَّدات.

المهمُّ: أنَّ هذا الرَّجُلَ حافظٌ للكتابِ عن ظهرِ قلبٍ، لكنَّه لا يفهمُ إطلاقًا، فكان أصحابُه يخرجون به معهم كأنَّه كتابٌ، إذا أشكل عليهم شيءٌ، قالوا: اقرأ علينا الفصلَ الفلانيَّ في البابِ الفلانيِّ، ثُمَّ يقرؤه عليهم، لا يقولون له: ماذا قال صاحبُ الفروعِ فيه؟ لأنَّه لا يدري، فكان يُلَقَّبُ بحمارِ الفروعِ، وهذا اللَّقبُ لا شكَّ أنَّه ليس بطيِّبٍ، لكن يقولون: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ضَرَبَ مثلًا للذين حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لم يحملوها كمثل الحمارِ يحملُ أسفارًا، فالحمارُ إذا حَمَّلْتَه كتبًا لا يستفيدُ منها، فهو نفسُه بليدٌ.

على كُلِّ حالٍ تفاوتُ العلماءِ في أفهامِهم للوحيِ فوق تفاوتِ الأبدانِ، وصدق رحمه اللهُ، فالتَّفاوتُ بينهم عظيمٌ جدًّا.

* * *

٤٢٥٠- وَالجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ ... أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ

٤٢٥١- نَصٌّ مِنَ القُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ ... وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِمُ الرَّبَّانِي

٤٢٥٢- وَالعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلاثٌ مَا لَهَا ... مِنْ رَابِعٍ وَالحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

٤٢٥٣- عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الإِلَهِ وَفِعْلِهِ ... وَكَذَلِكَ الأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ

٤٢٥٤- وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ ... وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي

٤٢٥٥- وَالكُـلُّ فِي القُـرْآنِ وَالسُّـنَنِ الَّتِـي جَـاءَتْ عَـنِ المَبْعُـوثِ بِالفُرْقَـانِ

٤٢٥٦- وَاللهِ مَـا قَـالَ امْـرُؤٌ مُتَحَـذْلِقٌ بِسِـوَاهُمَا إِلَّا مِـنَ الـهَذَيَانِ

٤٢٥٧- إِنْ قُلْـتُمُ تَقْرِيـرَهُ فَمُقَـرَّرٌ بِـأَتَمِّ تَقْرِيـرٍ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٤٢٥٨- أَوْ قُلْـتُمُ إِيضَـاحَهُ فَمُبَـيَّنٌ بِـأَتَمِّ إِيضَـاحٍ وَخَـيْرِ بَيَـانِ

٤٢٥٩- أَوْ قُلْـتُمُ إِيجَـازَهُ فَهُـوَ الَّـذِي فِي غَايَـةِ الإِيجَـازِ وَالتِّبْيَـانِ

٤٢٦٠- أَوْ قُلْـتُمُ مَعْنَـاهُ هَـذَا فَاقْصِـدُوا مَعْنَـى الخِطَـابِ بِعَيْنِـهِ وَعِيَـانِ

٤٢٦١- أَوْ قُلْتُمُ نَحْنُ التَّرَاجِمُ فَاقْصِدُوا الـ ـمَعْنَى بِـلا شَـطَطٍ وَلا نُقْصَـانِ

٤٢٦٢- أَوْ قُلْـتُمُ بِخِلافِـهِ فَكَلامُكُـمْ فِي غَايَـةِ الإِنْكَـارِ وَالـبُطْلانِ

الشـرحُ

٤٢٥٠- وَالـجَهْلُ دَاءٌ قَاتِـلٌ وَشِـفَاؤُهُ أَمْـرَانِ فِي التَّرْكِيـبِ مُتَّفِقَـانِ

٤٢٥١- نَـصٌّ مِـنَ القُـرْآنِ أَوْ مِـنْ سُـنَّةٍ وَطَبِيـبُ ذَاكَ العَالِـمُ الرَّبَّـانِي

وهذا لا يُنكره أحدٌ أنَّ الجهلَ داءٌ قاتلٌ؛ لأنَّه لا يبلغُ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغُ الجاهلُ من نفسِه، فالجهلُ مرضٌ قتَّالٌ، لكن ما شفاؤه؟ يقولُ: «**أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ**»، ثُمَّ ذكرهما فقال: «**نَصٌّ مِنَ القُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ**»، فالشِّفاءُ نصٌّ من القُرآنِ أو من السُّنَّةِ، وهذا دواءٌ، والدَّواءُ يحتاجُ إلى طبيبٍ يصفُه للمريضِ، فمَنْ هذا الطَّبيبُ؟ قال: «**وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِمُ الرَّبَّانِي**» فالعلماءُ أطبَّاء، والدَّواءُ: الكتابُ والسُّنَّة.

والطَّبيبُ الذي يُوصِلُنا إلى أن ننتفعَ بالكتابِ والسُّنَّةِ هو العالمُ الرَّبَّانِيُّ، وليس كُلُّ عالمٍ ينفعُ، بل هو العالمُ الرَّبَّانِيُّ، والعالمُ الرَّبَّانِيُّ قيل: إنَّه الحكيمُ في التَّعليمِ، الذي يُربِّي النَّاسَ بصغارِ العلمِ قبل كبارِه، وقيل: إنَّ العالـمَ الرَّبَّانِيَّ مَنْ لا يريدُ بعلمِه إلَّا الوصولَ إلى الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فهو مُهتدٍ هادٍ للخلقِ، لا يريدُ رياءً ولا سمعةً ولا كبرياء ولا غير ذلك، إنَّما يريدُ وصولَ العبادِ إلى ربِّ العبادِ، ولا مانعَ من أن نقولَ: إنَّ العالمَ الرَّبَّانِيَّ من اتَّصف بهذا وهذا؛ لأنَّ الوَصْفَيْنِ لا يختلفان، يمكن أن يجتمعا في شخصٍ واحدٍ، لكن لا بُدَّ من القرآنِ والسُّنَّةِ، لا بُدَّ من عالمٍ، فهو كالطَّبيبِ بالنِّسبةِ للأدويةِ الحسِّيَّةِ.

٤٢٥٢- وَالعِلْـمُ أَقْسَـامٌ ثَـلاثٌ مَـا لَـهَا ... مِـنْ رَابِـعٍ وَالـحَقُّ ذُو تِبْيَـانِ

لـمَّا ذكَر المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ الجهلَ داءٌ قاتلٌ وأنَّ شفاءَه في أمرين، وأنَّ العالـمَ هو طبيبُ هذين الأمرين ذكر أنَّ العلمَ ثلاثةُ أقسامٍ فقال:

٤٢٥٣- عِلْـمٌ بِأَوْصَـافِ الإِلَـهِ وَفِعْلِـهِ ... وَكَـذَلِكَ الأَسْـمَاءُ لِلـرَّحْمَنِ

٤٢٥٤- وَالأَمْـرُ وَالنَّهْـيُ الَّـذِي هُـوَ دِينُـهُ ... وَجَـزَاؤُهُ يَـوْمَ المَعَـادِ الثَّـانِي

قَوْلُهُ: «عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الإِلَهِ وَفِعْلِهِ» هذا الأوَّلُ، أن يكونَ الإنسانُ عالمًا بأوصافِ الله وعالمًا بأفعالِ الله، وأفعالُ الله من صفاتِه ولكنَّها من الصِّفاتِ الفعليَّة، فـ«الحياة» مثلًا صفةٌ، و«الخلق» صفةٌ وفعلٌ، فالعلمُ بالأوصافِ التي لا تتعدَّى الموصوفَ أو بالأفعالِ التي هي صفاتٌ متعدِّيةٌ لغيرِ الموصوف.

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ الأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ»، كذلك الأسماءُ للرَّحمن.

إِذَنْ الأوَّل: العلمُ بأسماءِ الله وصفاتِه وأفعالِه.

قَوْلُهُ: «الأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ» هذا الثَّاني.

قَوْلُهُ: «جَزَاؤُهُ يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي» هذا الثَّالث.

إِذَنْ أقسامُ العلومِ ثلاثةٌ:

الأَوَّلُ: علمٌ يتعلَّقُ بالله عزَّ وجلَّ وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، وهو أشرفُها وأعظمُها.

الثَّاني: علمٌ يتعلَّقُ بأحكامِه وشَرائعِه التي تعبَّدنا اللهُ بها، وهو العلمُ بالأمرِ والنَّهي، افعلوا ولا تفعلوا، وهذا يتعلَّقُ بأفعالِ العبادِ.

الثَّالث: عِلمٌ بجَزائِه وهو العلمُ باليومِ الآخِرِ وما يكونُ فيه فيدخلُ فيه كُلُّ ما يكونُ يوم القيامةِ؛ ولهذا قال النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إنَّ «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»[1]؛ لأنَّها خبرٌ عنِ الله وأسمائِه وصفاتِه، ويبقى أحكامُه وجزاؤه، فهذه أقسامُ العلمِ ليس لها رابعٌ، والدَّليلُ على انحصارِ العلمِ في هذه الثَّلاثةِ هو التَّتبُّع، فلا تجدُ أنَّ هناك علمًا يخرجُ عن هذه الثَّلاثةِ.

فالعلمُ الحقيقيُّ ثلاثةُ أقسامٍ؛ ولهذا جَزَمَ المؤلِّفُ بأنَّه ليس لها من رابعٍ.

٤٢٥٥- وَالكُلُّ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... جَاءَتْ عَنِ المَبْعُوثِ بِالفُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «الكُلُّ»؛ يعني: من الأقسامِ الثَّلاثةِ.

يعني: كُلُّ هذه الأقسامِ موجودةٌ في القُرآنِ والسُّنَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٥٠١٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٨١١).

٤٢٥٦- وَاللهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مُتَحَذْلِقٌ بِسِوَاهُمَا إِلَّا مِنَ الْهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «المُتَحَذْلِق»؛ أي: الطَّالبُ للحِذْقِ وهو الإجادة، وزِيدَت اللَّامُ من أجلِ النِّسبةِ.

والمعنى: أنَّ الإنسانَ المُتَحَذْلِقَ الذي ينسبُ نفسَه للحذْقِ وليس كذلك لا يقولُ بسوى الكتابِ والسُّنَّةِ إلَّا قولَ هذيانٍ، فلا خيرَ فيه ولا فائدةَ.

٤٢٥٧- إِنْ قُلْتُمُ تَقْرِيرُهُ فَمُقَرَّرٌ بِأَتَمِّ تَقْرِيرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «تَقْرِيرُه»؛ أي: تقريرُ النَّبِيِّ ﷺ، فإنَّه مُقَرِّرٌ لما يقولُ بأتمِّ تقريرٍ.

٤٢٥٨- أَوْ قُلْتُمُ إِيضَاحُهُ فَمُبَيَّنٌ بِأَتَمِّ إِيضَاحٍ وَخَيْرِ بَيَانِ

ولا شَكَّ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أفصحُ الخلقِ، وأنَّ كلامَه أوضحُ الكلامِ.

٤٢٥٩- أَوْ قُلْتُمُ إِيجَازُهُ فَهُوَ الَّذِي فِي غَايَةِ الإِيجَازِ وَالتِّبْيَانِ

يعني: ليس عنده هذيانٌ وتطويلٌ ولَفٌّ ودورانٌ، بل كلامُه مُوجَزٌ فصيحٌ واضحٌ، وهو مع كونِه موجَزًا فهو في غايةِ التِّبيانِ، فقد أُعْطِيَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مفاتيحَ الكَلِمِ[1]، واخْتُصِرَ له الكلامُ؛ ولهذا تجدُ الجملةَ الواحدةَ من كلامِه يُكْتَبُ عليها مجلَّداتٌ.

٤٢٦٠- أَوْ قُلْتُمُ مَعْنَاهُ هَذَا فَاقْصِدُوا مَعْنَى الخِطَابِ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِ

يعني: أو أردتم أن تعيبوا في المعنى أو تطلبوا المعنى فأنتم اقصدوا معنى الخطابِ، لا تقولوا: هذا مجازٌ عن كذا، هذا مجازٌ عن كذا فتضلُّوا، اقصدوا المعنى بعينِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، رقم (٦٥٩٧).

٤٢٦١- أَوْ قُلْتُمُ نَحْنُ التَّرَاجِمُ فَاقْصِدُوا الـ ـمَعْنَى بِلا شَطَطٍ وَلا نُقْصَانِ

الظَّاهِرُ أنَّ معنى قوله: «أَوْ قُلْتُمُ نَحْنُ التَّرَاجِمُ»؛ يعني: نشرحُ كلامَ الله ورسولِه، فإذا كنتم تدَّعون هذا فاقصدوا المعنى بلا شَطَطٍ، أي: زيادةٍ، ولا نقصانٍ.

٤٢٦٢- أَوْ قُلْتُمُ بِخِلافِهِ فَكَلامُكُمْ فِي غَايَةِ الإِنْكَارِ وَالبُطْلانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ قُلْتُمُ بِخِلَافِهِ»؛ أي: بخلافِ قولِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «فَكَلَامُكُمْ فِي غَايَةِ الإِنْكَارِ وَالبُطْلَانِ»؛ يعني: كلامُكم باطلٌ مُنْكَرٌ؛ لأنَّ كُلَّ مَنْ خالَفَ قولَ الله ورسولِه فكلامُه مرفوضٌ مردودٌ، وهو باطلٌ مُنْكَرٌ.

* * *

٤٢٦٣- أَوْ قُلْتُمُ قِسْنَا عَلَيْهِ نَظِيرَهُ فَقِيَاسُكُمْ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

٤٢٦٤- نَوْعٌ يُخَالِفُ نَصَّهُ فَهُوَ المُحَا لُ وَذَاكَ عِنْدَ الله ذُو بُطْلانِ

٤٢٦٥- وَكَلامُنَا فِيهِ وَلَيْسَ كَلامُنَا فِي غَيْرِهِ أَعْنِي القِيَاسَ الثَّانِي

٤٢٦٦- مَا لا يُخَالِفُ نَصَّهُ فَالنَّاسُ قَدْ عَمِلُوا بِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

٤٢٦٧- لَكِنَّهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ لا يُصَا رُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ ذَا الفُقْدَانِ

٤٢٦٨- هَذَا جَوَابُ الشَّافِعِيِّ لِأَحْمَدٍ لله دَرُّكَ مِنْ إِمَامِ زَمَانِ

٤٢٦٩- وَالله مَا اضْطُرَّ العِبَادُ إِلَيْهِ فِيـ ـمَا بَيْنَهُمْ مِنْ حَادِثٍ بِزَمَانِ

٤٢٧٠- فَإِذَا رَأَيْتَ النَّصَّ عَنْهُ سَاكِتًا فَسُكُوتُهُ عَفْوٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

٤٢٧١- وَهُوَ الـمُبَاحُ إِبَاحَةَ العَفْوِ الَّذِي ... مَا فِيهِ مِنْ حَرَجٍ وَلا نُكْرَانِ

٤٢٧٢- فَأَضِفْ إِلَى هَذَا عُمُومَ اللَّفْظِ وَالـ ... مَعْنَى وَحُسْنَ الفَهْمِ فِي القُرْآنِ

٤٢٧٣- فَهُنَاكَ تُصْبِحُ فِي غِنًى وَكِفَايَةٍ ... عَنْ كُلِّ ذِي رَأْيٍ وَذِي حُسْبَانِ

الشرحُ

٤٢٦٣- أَوْ قُلْتُمُ قِسْنَا عَلَيْهِ نَظِيرَهُ ... فَقِيَاسُكُمْ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

يعني قلتم: إنَّنا نقيسُ هذا على هذا، يعني: نُثْبِتُ الحُكْمَ بالقياسِ، فنقولُ: القياسُ نوعان، ثُمَّ ذكرهما فقال:

٤٢٦٤- نَوْعٌ يُخَالِفُ نَصَّهُ فَهُوَ الـمُحَا ... لُ وَذَاكَ عِنْدَ اللهِ ذُو بُطْلانِ

نوعٌ يخالفُ النَّصَّ، فهذا مُحالٌ أن يكونَ صحيحًا، بل هو باطلٌ، ويُسَمَّى عند الأصوليِّين فاسدَ الاعتبارِ، فكُلُّ قياسٍ يخالفُ النَّصَّ فإنَّه نصٌّ باطلٌ مردودٌ فاسدُ الاعتبارِ.

٤٢٦٥- وَكَلامُنَا فِيهِ وَلَيْسَ كَلامُنَا ... فِي غَيْرِهِ أَعْنِي القِيَاسَ الثَّانِي

٤٢٦٦- مَا لا يُخَالِفُ نَصَّهُ فَالنَّاسُ قَدْ ... عَمِلُوا بِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَلَامُنَا فِيهِ»؛ أي: في القياسِ المخالفِ للنَّصِّ.

يعني: نحنُ نُبْطِلُ القياسَ المخالفَ للنَّصِّ، أمَّا القياسُ الثَّاني الذي لا يخالفُ النَّصَّ فإنَّنا لا ننكرُه، «**فَالنَّاسُ قَدْ عَمِلُوا بِهِ فِي سَائِرِ الأَزْمَانِ**»؛ يعني: أجمع النَّاسُ على العملِ به ما عدا الظَّاهريَّة، فإنَّهم متناقضون؛ أحيانًا يعملون به، وأحيانًا لا يعملون به، ولكنَّهم إذا لم يعملوا به أَتَوْا بما يُضْحِكُ، أَتَوْا بالأشياء التي تُضْحِكُ

العاقلَ، مثلًا قالوا: إنَّ الإنسانَ لو ضَحَّى بشاةٍ ثنيَّة لم تُقْبَل الأضحيةُ، ولو ضَحَّى بجَذَعٍ من الضَّأنِ أجزأ، وهذا كلامٌ غيرُ معقولٍ، والدَّليلُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً إِلَّا أَنْ تَعْسُرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ**»[1]، فقالوا: «**إِلَّا مُسِنَّةً**» يعني: من غيرِ الضَّأنِ، وجَذَعَة من الضَّأنِ في الضَّأنِ، فيُقَالُ: تبًّا لهذه العقولِ، كيف لا تجزئُ الثَّنيَّةُ، والجذعةُ تجزئ، أيُّها أولى بالإجزاء؟ الجوابُ: الثَّنيَّة.

كذلك أيضًا ممَّا يُضْحَكُ منه أنَّهم قالوا: لو أنَّ رجلًا قال لبنتِهِ البكر: فلانٌ خطبك، قالت: فلانٌ؟ قال: نعم، قالت: الرَّجُل طالبُ العلمِ المستقيمُ، قال: نعم، قالت: لا أريدُ سوى هذا، هذا هو الذي أتمنَّى، قالوا: لا يجوز أن يُزوِّجَها بهذا؛ لأنَّها ما أذنت؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا سُئِلَ عن إذنِ البكرِ قال: «**إِذْنُهَا صُمَاتُهَا**»[2]؛ أي: «**أَنْ تَسْكُتَ**»، وهذه تكلَّمت، وعلى رأيهم يجبُ على الأمِّ أن توصيَ هذه البنتَ تقولُ: اسكتي إذا قال أبوك: أزوِّجُك، لا تتكلَّمي ولا بكلمةٍ، حتَّى يزوِّجَها، وإذا قالت: هذا الرَّجلُ الذي أريدُه ولا أريدُ سواه، يقولُ: لا يُزوِّجُها.

ومنهم مَنْ قال: إذا بَالَ الرَّجلُ في الماءِ الرَّاكدِ فهو حرامٌ، وإن بال في إناءٍ وصبَّه في الماءِ الرَّاكد فهو جائزٌ، سبحان الله! ما الفرقُ؟ قال: هذا الرَّسولُ يقولُ: «**لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ**»[3]، وهذا لم يَبُلْ في الماء، بل في إناءٍ، ثُمَّ صُبَّ في الماءِ، هذه قالها بعضُهم، لكن مثل ابن حزمٍ -رحمه الله- لا يقولُ هذا القولَ الأخيرَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب سن الأضحية، رقم (١٦٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها، رقم (٥١٣٦). ومسلم: كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت، رقم (١٤١٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، رقم (٢٣٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الدائم، رقم (٢٨٢).

فالمهمُّ أنَّ القياسَ أنكره أهلُ الظَّاهرِ في الجملةِ لا في كُلِّ مسألةٍ؛ لأنَّهم أحيانًا يتناقضون ويقيسون.

٤٢٦٧- لَكِنَّهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ لا يُصَا ... رُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ ذَا الفُقْدَانِ

يعني: أنَّنا لا نصيرُ إلى القياسِ إلَّا إذا عَدِمْنَا النَّصَّ، أمَّا إذا وَجَدْنَا النَّصَّ فإنَّنا في غنًى عن القياسِ، إذا عَدِمْنَاه فَإِنَّنا نقيسُ، فيكونُ القياسُ بالنِّسبة للنُّصوصِ كالميتةِ بالنِّسبةِ للمُذكَّاةِ؛ أي: عند الضَّرورةِ، ويكونُ القياسُ كذلك بالنِّسبةِ للنُّصوصِ بمنزلةِ التُّرابِ عند الماءِ، لا نستعملُه إلَّا إذا تَعَذَّرَ استعمالُ الماءِ، فالقياسُ لا يُصَارُ إليه إلَّا عند الضَّرورةِ؛ لأنَّك لو أَدْخَلْتَ القياسَ في أمرٍ فيه الكتابُ والسُّنَّةُ فَتَحْتَ بابَ المعقولِ لِيُعَارَضَ به المنقولُ، فإذا اضطُررنا إليه ولم نجد نصًّا ولا إجماعًا نعتمدُ عليه حينئذٍ نلجأُ إلى القياسِ.

٤٢٦٨- هَـذَا جَـوَابُ الشَّافِعِيِّ لِأَحْمَـدٍ ... للهِ دَرُّكَ مِـنْ إِمَـامِ زَمَـانِ

الشَّافعيُّ أجاب الإمامَ أحمدَ لـمَّا سأله عن القياسِ بهذا الجوابِ بأنَّ القياسَ لا يُصَارُ إليه إلَّا عند الضَّرورةِ.

والشَّافعيُّ شيخُ الإمامِ أحمدَ، وجَوابُه هذا حقٌّ؛ لأنَّه متى أمكن إثباتُ الحكمِ بالنَّصِّ فهو أَوْلَى، وإن لم يمكنُ فالقياسُ، لكن أحيانًا نضطرُ إلى القياسِ في مقابلةِ مَنْ لا يعترفُ بالنَّصِّ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ لا يُقِرُّ إلَّا الدَّليلَ العقليَّ القياسيَّ، فحينئذٍ نستعملُ القياسَ من أجلِ إرغامِ هذا المُنْكِرِ للحُكْمِ على أن يُقِرَّ.

٤٢٦٩- وَاللهِ مَـا اضْـطُرَّ العِبَـادُ إِلَيْـهِ فِيـ ... ـمَا بَيْنَهُمْ مِـنْ حَـادِثٍ بِزَمَـانِ

يعني: أنَّ النُّصوصَ كافيةٌ، ولكن لا شكَّ أنَّ هذا ليس على إطلاقِه، فإنَّ

الحوادثَ لا مُنتهى لها، وهي -أعني: الحوادَث- أحيانًا قد تكونُ داخلةً في العموم، ولكن لا يفهمُ بعضُ النَّاسِ دخولَها فيذهبُ إلى القياسِ، ودعوى أنَّ كُلَّ مسألةٍ بعينِها يُوجَدُ حُكْمُهَا في الكتابِ والسُّنَّةِ في النَّفسِ منه شيءٌ، لكن يُوجَدُ الإحالةُ على القياسِ في الكتابِ والسُّنَّةِ، وحينئذٍ يكونُ لها أصلٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ من حيث أنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ يُحيلان على القياسِ الصَّحيحِ.

٤٢٧٠- فَإِذَا رَأَيْتَ النَّصَّ عَنْهُ سَاكِتًا   فَسُكُوتُهُ عَفْوٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

٤٢٧١- وَهُوَ المُبَاحُ إِبَاحَةَ العَفْوِ الَّذِي   مَا فِيهِ مِنْ حَرَجٍ وَلا نُكْرَانِ

وهذا جاء به الحديثُ عن النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام- أنَّه قال: «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ»[1]، وقال: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رُخْصَةً لَكُمْ لَيْسَ بِنِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»[2]، فإذا لم تجد في النَّصِّ إثباتًا ولا نفيًا ولا تحريمًا ولا إباحةً فعليك بالإباحةِ إلَّا ما تُعبِّدَ به لله فالأصلُ التَّحريمُ؛ ولذلك من مَنَعَ عبادةً أو وَصفًا في عبادةٍ أو قَدْرًا في عبادةٍ فإنَّه لا يُطَالَبُ بالدَّليلِ؛ لأنَّ الأصلَ معه، وإنَّما يُطَالَبُ بالدَّليلِ مَنْ أَثْبَتَ ما لم يَقُمْ عليه الدَّليلُ، إِذَنْ إذا تُعبِّدَ بعبادةٍ لا يُعْلَمُ لها أصلٌ ونَهَيْتَ المُتعبِّدَ بها وقال لك: ما دليلُك؟ ماذا تقولُ؟ تقولُ: أنت ما دليلُك؟ هذه عبادةٌ، وقد قال اللهُ تعالى مُنْكِرًا على هؤلاء: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشُّورى:٢١]، وقال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا

(١) أخرجه الترمذي: كتاب اللباس، باب لبس الفراء، رقم (١٧٢٦)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن، رقم (٣٣٦٧).
(٢) أخرجه الطبراني (٢٢/ ٢٢١، رقم ٥٨٩)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٧)، والبيهقي موقوفًا (١٠/ ١٢، رقم ١٩٥٠٩)، والدارقطني (٤/ ١٨٤) والحاكم موقوفًا (٤ / ١٢٩، رقم ٧١١٤).

لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، أَمَّا غيرُ العباداتِ فالأصلُ الحلُّ؛ لأنَّه مسكوتٌ عنها، وما سَكَتَ اللهُ عنه فهو عفوٌ.

فما يفعلُه العبادُ من الانتفاعاتِ والمعاملاتِ الأصلُ فيه الحلُّ، فالمعاملاتُ الأصلُ فيها الإباحةُ، والانتفاعاتُ الأصلُ فيها أيضًا الإباحةُ، فكُلُّ شيء في الأرضِ فلنا أن ننتفعَ به إلَّا بنصٍّ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، فإذا سكت اللهُ عنه فهو ممَّا أباحه، فما سَكَتَ اللهُ عنه فهو عفوٌ وهو المباحُ.

وكذلك أيُّ إنسانٍ يدَّعي أنَّ هذا حرامٌ من نباتٍ أو حيوانٍ، نقولُ: ما الدَّليلُ؟ كُلُّ ما في الأرضِ مخلوقٌ لنا، ولو كان حرامًا علينا ما انتفعنا به، ولا صار مخلوقًا لنا، فإذا قال لك قائلٌ: هذه الشَّجرةُ حرامٌ أكلُها، هذا الطَّيرُ حرامٌ أكلُه، هذا الزَّاحفُ حرامٌ أكلُه، قل: ما الدَّليلُ؟ فإن أتى بدليلٍ فعلى العينِ والرَّأسِ، وإلَّا فالأصلُ الحلُّ.

٤٢٧٢- فَأَضِفْ إِلَى هَذَا عُمُومَ اللَّفْظِ وَالـ ... مَعْنَى وَحُسْنَ الفَهْمِ فِي القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَأَضِفْ إِلَى هَذَا عُمُومَ اللَّفْظِ وَالمَعْنَى»؛ يعني: أَضِفْ إلى هذا الأصلِ وهو أنَّ ما سَكَتَ عنه فهو عفوٌ أَضِفْ إليه عمومَ اللَّفظِ والمعنى، فإنَّك ربَّما تجدُ حُكْمَ هذه الحادثةِ داخلًا في عمومِ لفظٍ أو في عموم معنى، والفرقُ بينهما: أنَّ عمومَ اللَّفظِ ما دَلَّ عليه اللَّفظُ بمادتِه، وعمومَ المعنى ما دلَّ عليه بمعناه وهو القياسُ الجليُّ، فإنَّ القياسَ الجليَّ يكونُ فيه المقيسُ موافقًا للمقيسِ عليه في العِلَّة،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

والعِلَّةُ هي المعنى الموجِبُ للحكمِ؛ ولهذا نقولُ: العموماتُ إمَّا لفظيَّةٌ وهي ما دَلَّ عليه اللَّفظُ بمادتِه، وإمَّا معنويَّةٌ وهي ما دَلَّ عليه اللَّفظُ بمعناه وهذا هو القياسُ الجليُّ؛ وذلك لأنَّ القياسَ الجليَّ يتساوى فيه الفرعُ -وهو المقيس- والأصلُ وهو المقيس عليه، يتساويان في العِلَّةِ وهي المعنى العامُّ الموجِبُ للحكمِ.

قَوْلُهُ: «**وَحُسْنَ الفَهْم**» وهذا مهمٌّ أيضًا، فكم من إنسانٍ يفهمُ الشَّيءَ على خلاف ما أراد اللهُ ورسولُه، فإذا وُفِّقَ الإنسانُ لحسنِ الفَهْمِ مع قوَّةِ الملاحظةِ والذَّكاءِ فلا تسأل عن حالِه في إصابةِ الصَّوابِ.

٤٢٧٣- فَهُنَاكَ تُصْبِحُ فِي غِنًى وَكِفَايَةٍ عَنْ كُلِّ ذِي رَأْيٍ وَذِي حُسْبَانِ

يعني: إذا أَخَذْتَ بالأصلِ وهو أنَّ الأصلَ الإباحةُ، وكذلك أيضًا أَضَفْتَ إلى هذا عُمومَ اللَّفظِ والمعنى تستغني بهذا عن كُلِّ ذي رأيٍ وذي حُسْبَان.

***

٤٢٧٤- وَمُقَدَّرَاتُ الذِّهْنِ لَمْ يَضْمَنْ لَنَا تِبْيَانَهَا بِالنَّصِّ وَالقُرْآنِ

٤٢٧٥- وَهِيَ الَّتِي فِيهَا اعْتَرَاكَ الرَّأْيُ مِنْ تَحْتَ العَجَاجِ وَجَوْلَةِ الأَذْهَانِ

٤٢٧٦- لَكِنْ هُنَا أَمْرَانِ لَوْ تَمَّا لَنَا احْـ ـتَجْنَا إِلَيْهِ فَحَبَّذَا الأَمْرَانِ

٤٢٧٧- جَمْعُ النُّصُوصِ وَفَهْمُ مَعْنَاهَا المُرَا دِ بِلَفْظِهَا وَالفَهْمُ مَرْتَبَتَانِ

٤٢٧٨- إِحْدَاهُمَا مَدْلُولُ ذَاكَ اللَّفْظِ وَضْـ ـعًا أَوْ لُزُومًا ثُمَّ هَذَا الثَّانِي

٤٢٧٩- فِيهِ تَفَاوَتَتِ الفُهُومُ تَفَاوُتًا لَمْ يَنْضَبِطْ أَبَدًا لَهُ طَرَفَانِ

٤٢٨٠- فَالشَّيْءِ يَلْزَمُهُ لَوَازِمُ جَمَّةٌ عِنْدَ الخَبِيرِ بِهِ وَذِي العِرْفَانِ

٤٢٨١- فَبِقَدْرِ ذَاكَ الخُبْرِ يُحْصِي مِنْ لَوَا ... زِمِهِ وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

الشرحُ

٤٢٧٤- وَمُقَدَّرَاتُ الذِّهْنِ لَمْ يَضْمَنْ لَنَا ... تِبْيَانَهَا بِالنَّصِّ وَالقُرْآنِ

٤٢٧٥- وَهِيَ الَّتِي فِيهَا اعْتَرَاكَ الرَّأْيُ مِنْ ... تَحْتَ العَجَاجِ وَجَوْلَةِ الأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «مُقَدَّرَاتُ الذِّهْنِ»؛ يعني: ما تُقَدِّرُها الأذهانُ، وهي الاحتمالاتُ التي يفرضُها الذِّهنُ في نصوصِ القرآنِ أو السُّنَّةِ، فالأذهانُ تُقَدِّرُ أشياءَ طويلةً عريضةً عويصةً، هل هذا مضمونٌ لنا تبيانُها بالقرآنِ؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ من الأمورِ المقدَّرات في العقلِ ما يكونُ الشَّرعُ ساكتًا عنه، فتدخلُ في العموماتِ؛ ولهذا قال ابنُ حجرٍ في فتح الباري وغيرُه من العلماءِ: «الِاحْتِمَالَاتِ الْعَقْلِيَّةَ لَا مَدْخَلَ لَهَا فِي الْأُمُورِ النَّقْلِيَّةِ»[1]؛ لأنَّك لو أردتَ الاحتمالاتِ العقليَّةَ ما استقام لك دليلٌ قطُّ، فكُلُّ دليلٍ يمكنُ أن توردَ عليه احتمالًا عقليًّا، وحينئذٍ تضيعُ فوائدُ الأدلَّةِ اللفظيَّةِ.

ولا شكَّ أنَّنا لو ذهبنا نقدِّرُ كما يوجدُ من بعضِ النَّاسِ الآن -نسألُ اللهَ لنا ولهم الهدايةَ- إذا جِئْتَ بالدَّليلِ قال: يحتملُ كذا، نقولُ: خُذْ بظاهرِه، أمَّا أن تقولَ: يحتملُ كذا، فإنَّ الثَّاني يقولُ لك: يحتملُ كذا، وإذا قلنا: يحتملُ كذا ويحتملُ كذا، فإنَّ الدَّلالةَ تبطلُ، لا لي ولا لك، لأنَّك إذا قُلْتَ: يحتملُ كذا، وأنا قلتُ: يحتملُ كذا، والثَّالثُ يقولُ: يحتملُ كذا، فبأيِّ شيءٍ نستدلُّ؟!

خُذِ اللَّفظَ على ظاهرِه كما أخذَه الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ واستغنوا عن التَّكلُّفِ والتَّنطُّعِ؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ كلمةً تشهدُ بصِدقِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

(١) فتح الباري (١/ ١٩٣).

حقيقةً، كما له من الآياتِ الكثيرةِ الدَّالةِ على صدقِه قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[(١)]، فالمتنطِّعُ هالكٌ لن يصلَ إلى حياةٍ، والآخِذُ للأمورِ على ظاهرِها ويتقبَّلُها كما يتقبَّلُها الصَّحابةُ هذا هو الذي على حَقٍّ؛ ولهذا أقولُ: إنَّ أهلَ التَّنطُّعِ لا تجدُ نورَ الإيمانِ في قلوبِهم إلَّا أن يشاءَ اللهُ؛ لأنَّ قلوبَهم تكونُ دائمًا قلقةً تُورِدُ الإيراداتِ والشُّبهات ولا تبقى منقادةً، لو أنَّك أَمْعَنْتَ النَّظرَ لكنت تحكمُ على أنَّ قلوبَ العامَّةِ أصفى من قلوبِ كثيرٍ من طلبةِ العلمِ؛ لأنَّهم يأخذون الأمورَ على ظاهرِها قبولًا وتسليمًا تامًّا بدون إيرادِ احتمالاتٍ؛ ولهذا أُحذِّرُ نفسي وإيَّاكم من طريقِ الاحتمالاتِ، فهذه اتركوها، خُذْ بما ظهر كما أخذ به مَنْ قبلك من الصَّحابةِ والتَّابعينَ والأئمَّةِ؛ ولهذا أنا أكرهُ أن يقولَ الإنسانُ: «لو قال قائلٌ...»، فإذا جاءت «**لو قَالَ قائلٌ**» انفتح بابُ الجدلِ، بل سلِّم للنُّصوصِ على ما هي عليه، ولا تفرض احتمالاتٍ ذهنيَّةً فتضلَّ، وتبقى في كُلِّ أعمالِك شاكًّا، ولستُ أقول: إنَّك تكونُ شاكًّا في العلمِ، بل حتَّى في العملِ؛ لأنَّك ستقولُ: لَعَلَّ اللهَ أراد كذا، لَعَلَّ الرَّسولَ أراد كذا، وتبقى في فَهْمِ الكتابِ والسُّنَّةِ كالموسوسِ في العبادةِ.

فاترُك الاحتمالاتِ العقليَّةَ؛ لأنَّها واسعةٌ، فيمكن أن يفرضَ الذِّهنُ عشرةَ احتمالاتٍ في نصٍّ واحدٍ مثلما فَرَضَ المعطِّلةُ في الاستواءِ على العرشِ، فقالوا: الاستواءُ له معانٍ، والعرشُ له عشرة معانٍ، فأيُّها تريدُ؟

إِذَنْ خُذوا الأمورَ على ظاهرِها، والحمدُ لله أنتم لـم تُـخَاطَبُوا إلَّا بالظَّواهرِ، والاحتمالاتُ التي تُوجِبُ التَّشكُّكَ والتَّشكيكَ ابعدوها عن أنفسِكم حتَّى تسلموا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

٤٢٧٦- لَكِنْ هُنَا أَمْرَانِ لَوْ تَـمَّا لَـمَا احْـ ـــتَجْنَا إِلَيْـهِ فَحَبَّـذَا الأَمْـرَانِ

٤٢٧٧- جَمْعُ النُّصُوصِ وَفَهْمُ مَعْنَاهَا الْمُـرَا دِ بِلَفْظِهَا ....

قَوْلُهُ: «لَكِنْ هُنَا أَمْرَانِ لَوْ تَـمَّا لَـمَا احْتَجْنَا إِلَيْهِ»؛ أي: إلى القياسِ، «فَحَبَّذَا الأَمْرَانِ»: الأوَّلُ: جمعُ النُّصوص، والثَّاني: فَهْمُ مَعْنَاهَا المُرَادِ بِلَفْظِهَا، وهذان الأمران لا بُدَّ منهما، ولا يمكنُ الاستدلالُ إلَّا بهما.

الأمرُ الأوَّلُ: جمعُ النُّصوصِ؛ وذلك لأنَّك قد تسمعُ نصًّا عامًّا له مُخَصِّصاتٌ فتحكم بالعمومِ وحينئذٍ تكونُ مخطئًا، وعدمُ جمعِ النُّصوصِ ابْتُلِيَ به بعضُ الطَّلبةِ المبتدئين، فصار إذا وصل إلى نصٍّ أخذ به، ولم يبالِ بخلافِ العلماءِ ولا بخلافِ عملِ أهلِ البلادِ، ويقولُ: أنا معي العموم، مع أنَّ هذا العمومَ لعلَّه قد خُصَّ بما هو أقوى منه رتبةً في الثُّبوتِ وهو لا يدري.

مثالُ ذلك قولُ النَّبيِّ ﷺ: «فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ العُشْرُ»[1]، وهذا الحديثُ عمومُه يقتضي وجوبَ الزَّكاةِ في القليلِ والكثيرِ، وأخذنا العمومَ من قولِه: «فِيمَا سَقَتْ» ما قال: «فِيمَا سَقَتْ إِذَا بِلَغَ كَذا»، فإذا لم تجمع النُّصوصَ حَكَمْتَ على شخصٍ يملكُ نصفَ النِّصاب بوجوبِ الزَّكاة عليه وهي العشر؛ لأنَّك أَخَذْتَ بالعمومِ، الآن لـمَّا حَكَمْتَ بوجوبِ الزَّكاةِ عليه وزرعُه دون النِّصابِ أَخْطَأْتَ، والذي فاتك هنا جمعُ النُّصوصِ، لو جَمَعْتَ هذا العمومَ إلى قولِ النَّبيِّ ﷺ: «لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ»[2]، تبيَّن لك أنَّ ما دون النِّصاب ليس فيه زكاةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب العشر فيما يسقي من ماء السماء وبالماء الجاري، رقم (١٤١٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب ما أدى زكاته فليس بكنز، رقم (١٣٤٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، رقم (٩٧٩).

الأمرُ الثَّاني: فَهْمُ المرادِ بها، وهذا هو الذي صارت فيه المعاركُ بين النَّاسِ؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ يفهمُ فهمًا غيرَ فَهْمِ الثَّاني، وصحَّةُ الفَهْمِ لها أسبابٌ، سواء من جهةِ الفَهْمِ الذي يلقيه اللهُ في قلبِ الإنسانِ، أو من جهةِ الاعتقادِ السَّابقِ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ إذا كان عنده اعتقادٌ سابقٌ حمله اعتقادُه على فَهْمِ النُّصوصِ بمقتضى هذا الاعتقادِ، ولذلك كان من طرقِ العلمِ السَّليمةِ أن تستدلَّ أوَّلًا ثُمَّ تعتقدَ أو تحكمَ ثانيًا.

لكن فَهْمُ المرادِ هو الذي يختلفُ فيه النَّاسُ كثيرًا، هل أراد اللهُ كذا أو أراد كذا؟ مثالُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨]؛ يعني: إذا طُلِّقَت المرأةُ فلا بُدَّ أن تعتدَّ بثلاثة قُروء، لكن ما هي القروء؟ قال بعضُ العلماء: القروءُ هي الحِيَض، وقال آخرون: القروءُ هي الأطهارُ، اختلفوا، فَمَنْ قال: هي الحِيَض، قال: تعتدُّ بثلاثة حِيَضٍ، ومَنْ قال: هي الأطهارُ، قال: تعتدُّ بثلاثةِ أطهارٍ كاملةٍ.

وقال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «ذَكَاةُ الجَنِينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ»[1]، والجنينُ هو الحملُ في البطنِ، سُمِّيَ جنينًا لأنَّه مستترٌ، لكن ما معنى الحديث؟ قال بعضُ العلماء: يعني: إذا ذُكِّيت الشَّاةُ الحاملُ فذكاتُها ذكاةٌ لجنينها، فإذا سلخناها وشققنا بطنَها وأخرجنا الولدَ فهو مُذَكَّى حلالٌ، وقال بعضُ العلماء: ذكاةُ الجنينِ كذكاةِ أُمِّه؛ يعني: أنَّك إذا أردت أن تُذَكِّيَه فاقطع رأسَه، وبناءً على هذا القولِ لو ذَكَّيْتَ الشَّاةَ وأَخْرَجْتَ الجنينَ لم يحلَّ؛ لأنَّك لم تُذَكِّه.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الضحايا، باب ما جاء في ذكاة الجنين، رقم (٢٨٢٨)، والترمذي: كتاب الأطعمة، باب ما جاء في ذكاة الجنين، رقم (١٤٧٦)، وابن ماجه: كتاب الذبائح، باب ذكاة الجنين، ذكاة أمه، رقم (٣١٩٩).

فانظُر إلى اختلافِ الفَهْمِ، والصَّحيحُ أنَّ معنى الحديث أنَّ الأُمَّ إذا ذُكِّيت فذكاتُها ذكاةٌ للجنينِ، ولا يحتاجُ إلى أن يُذَكَّى؛ لأنَّ الرُّوحَ تخرجُ مع روحِ الأمِّ أو تبقى قليلًا، فالمهمُّ أنَّه لا بُدَّ من جمعِ النُّصوصِ، والثَّاني: فَهْمُ المراد، ثُمَّ إنَّ الفَهْمَ يختلفُ فيه النَّاسُ اختلافًا عظيمًا، ويُذْكَرُ أنَّ الشَّافعيَّ -رحمه الله تعالى- نزل ضيفًا على الإمامِ أحمدَ، وكان الإمامُ أحمدُ يُثْنِي عليه عند أهلِه -أي: أهلِ الإمام أحمدَ- يُثْنِي على الإمامِ الشَّافِعِيِّ كثيرًا، وهو أهلٌ للثَّناءِ، فنزل عليه ضيفًا، فَقَدَّمَ إليه العَشَاء فأكل العَشَاءَ كُلَّه، وهو كثيرٌ؛ يعني: ملأ بطنَه، ثُمَّ تفرَّق كُلٌّ منهما إلى منامِه ولم يقم الشَّافِعِيُّ لصلاةِ اللَّيلِ، ولـمَّا أَذَّنَ الفجرُ خَرَجَ إلى الصَّلاةِ بدون أن يطلبَ ماءً يتوضَّأُ به، فقال أهلُ الإمامِ أحمدَ للإمامِ أحمدَ: هذا الشَّافعيُّ الذي تُثْنِي عليه دائمًا أَكَلَ العَشَاءَ كُلَّه، وقد قال النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام: «إِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[1]، ثُمَّ إنَّه بَقِيَ على فراشِه ولم يَقُم اللَّيلَ، ثُمَّ إنَّه قام إلى صلاةِ الفجرِ ولم يتوضَّأ، وهذه أدهى في رأيهم، يُصلِّي بلا وضوء! فقال: ننظرُ في الأمرِ، فسأل الشَّافعيَّ -رحمه الله- عن هذا، فقال: أمَّا كوني آكُلُ العَشَاءَ كُلَّه فلأنِّي لا أعلمُ في هذا البلدِ طعامًا أحلَّ من طعامِ الإمامِ أحمدَ فأردتُ أن أملأَ بطني منه؛ يعني: وكأنَّه يقولُ: ولا ملامةَ عليَّ في ذلك، وأبو هريرةَ ملأَ بَطْنَهُ مِنْ اللَّبَنِ حتَّى إِنَّ الرَّسولَ قَالَ لَهُ: «اشْرَبْ» قَالَ: لَا أَجِدُ لَهُ مَسَاغًا[2]؛ لأنَّ البطنَ امتلأ، وأمَّا كوني لم أقم اللَّيلَ فلأنَّني أتأمَّلُ العلمَ، والعلمُ أفضلُ من قيامِ اللَّيلِ، كنتُ أتأمَّلُ في قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (٢٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا، رقم (٦٠٨٧).

النُّغَيْرُ؟»[١]، وهذا حديثٌ يقولُه الرَّسولُ لِصَبِيٍّ صغيرٍ كان معه نُغَيرٌ، والنُغَيْرُ: الطَّيرُ يلعبُ به، فلمَّا مات الطَّيرُ حزن الصَّبِيُّ عليه كالعادةِ، فالصَّبِيُّ إن كان له هرَّةٌ يلعبُ بها ثُمَّ تموتُ كأنَّما ماتت أمُّه أو أختُه، فكان الرَّسولُ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- من حُسنِ خلقِه إذا مرَّ به بعد أن مَاتَ الطَّيرُ يقولُ مازحًا له: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»، وهذا الحديثُ اختلفت فيه الرِّواياتُ، استنبط من هذا الحديثِ مِئتَي فائدةٍ، مَنْ يستنبطُ منَّا مِئتي فائدةٍ من هذا الحديثِ؟ ولا خمس فوائد، لكن هو -رحمه الله- إذا استنبط فائدةً يطلبُ لها دليلًا آخرَ، ثُمَّ يتولَّدُ من هذا الدَّليلِ فوائدُ أخرى، فيكونُ هذا الحديثُ سببًا لموسوعةٍ علميَّةٍ في الحديثِ، وليس لأجلِ هذا الحديثِ فقط، وإلَّا فهذا الحديثُ -والعلمُ عند الله- لا يصلُ إلى هذا مهما كان، لكن كُلَّما استدلَّ به على مسألةٍ فَرَّعَ عليها، كُلَّ اللَّيلِ وهو يستنبطُ هذه الفوائدَ، وهذا لا شكَّ أنَّه أفضلُ من قيام اللَّيلِ، فالعلمُ أفضلُ من قيام اللَّيلِ، قال الإمامُ أحمدُ: «العلمُ لا يعدلُه شيءٌ»[٢].

الثَّالثة: خروجُه إلى المسجدِ ولم يتوضَّأ؛ لأنَّه لم ينم، فلم يحتجْ إلى وضوءٍ، فرجع الإمامُ أحمدُ إلى أهلِه وأخبرهم بذلك، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم، اللَّهُمَّ ألحقنا بالصَّالحين.

٤٢٧٧- .... وَالفَهْـمُ مَرْتَبَتَـانِ

٤٢٧٨- إِحْدَاهُمَا مَدْلُولُ ذَاكَ اللَّفْـظِ وَضْــ ـــعًا أَوْ لُزُومًـا ثُـمَّ هَـذَا الثَّـانِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته، رقم (٢١٥٠).
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٤٥).

٤٢٧٩- فِيهِ تَفَاوَتَتِ الفُهُومُ تَفَاوُتًا لَمْ يَنْضَبِطْ أَبَدًا لَهُ طَرَفَانِ

يقولُ المؤلِّفُ رحمه الله: إنَّ الفَهْمَ مرتبتان:

المرتبة الأولى: فَهْمُ مدلولِ اللَّفظِ وضعًا، بأن تفهمَ مدلولَ هذا اللَّفظِ وضعًا؛ أي: بحسَب الوضعِ؛ أي: باعتبار الوضعِ الشَّرعيِّ إن كان شرعيًّا أو اللُّغويِّ إن كان لغويًّا، وهذا رُبَّما يكونُ سهلًا على كثيرٍ من النَّاسِ أن يفهمَ معنى اللَّفظ بحسب اللُّغةِ العربيَّة؛ يعني: افهَمْ ما تدلُّ عليه هذه الكلمةُ، فمثلًا: «لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلاةً بِغَيْرِ وُضُوءٍ»[1]، الوضوءُ في اللُّغةِ أعمُّ من الوضوءِ في الشَّرعِ، فالذي غسل ونظَّف يديه يُسَمَّى متوضئًا، فلا بُدَّ أن تفهمَ معنى الوضوءِ في الشَّرعِ؛ لأنَّ قولَ ابن القيمِّ رحمه الله: «وَضْعًا» يقصدُ بذلك الوضعَ الشَّرعيَّ والوضعَ اللُّغويَّ.

المرتبة الثَّانية: فَهْمُ لوازمِ الخطابِ؛ يعني: دلالةَ اللُّزومِ، وهذه يتَفاوتُ فيها النَّاسُ تفاوتًا عظيمًا، رُبَّما يفهمُ هذا الرَّجلُ من دليلٍ واحدٍ لوازمَ كثيرةً لا يفهمُها الآخرون فيستفيد فوائدَ كثيرةً لا يستفيدُها الآخرون، فتجد مثلًا رجلًا يقولُ: «**يدلُّ هذا الحديثُ بمنطوقِه على كذا، وبمفهومِه على كذا، وبفحواه على كذا، وبإشارتِه على كذا، وبلازمِه على كذا**»، ثُمَّ يستخرجُ فوائدَ كثيرةً لا يقدرُ عليها إنسانٌ آخرُ؛ فلذلك يقولُ رحمه الله: «**ثُمَّ هَذَا الثَّانِي**» ما هو هذا الثَّاني؟ هو مدلولُ اللَّفظِ لزومًا، يقولُ: «**هَذَا الثَّانِي فِيهِ تَفَاوَتَتِ الفُهُومُ تَفَاوُتًا لَمْ يَنْضَبِطْ أَبَدًا لَهُ طَرَفَانِ**»، وهذا صحيحٌ، فالفهومُ تفاوتت تفاوتًا عظيمًا، ومن أدقِّ ما رَأَيْتُ في فَهْمِ النُّصوص البخاريُّ رحمه الله، فإنَّ تراجمَه على الأحاديثِ قد يعجزُ الإنسانُ عن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيل، باب في الصلاة، رقم (٦٩٥٤). ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، رقم (٢٢٥).

معرفةِ وجهِ استشهادِه بالحديثِ، هذا إذا لم يكن في البابِ حديثٌ على غيرِ شَرْطِه؛ لأنَّه أحيانًا يذكرُ التَّرجمةَ إشارةً إلى حديثٍ ليس على شرطِه، ثُمَّ يأتي بحديثٍ مُقَارِبٍ، والنَّاسُ يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا.

٤٢٨٠- فَالشَّـــيْءِ يَلْزَمُـــهُ لَـــوَازِمُ جَمَّـــةٌ عِنْـدَ الـــخَبِيرِ بِـهِ وَذِي العِرْفَـانِ

٤٢٨١- فَبِقَدْرِ ذَاكَ الـخُبْرِ يُحْصِي مِـنْ لَـوَا زِمِـهِ وَهَـــذَا وَاضِـــحُ التِّبْيَـــانِ

قَوْلُهُ: «الشَّيْءُ» يريدُ به اللَّفظَ.

قَوْلُهُ: «ذَاكَ الخُبْرِ»؛ أي: المعرفة.

والمعنى: أنَّ اللَّفظَ يلزمُه لوازمُ كثيرةٌ، لكن مَنْ يعرفُ هذه اللَّوازمَ؟ الجوابُ: يعرفُها الخبيرُ بدلالاتِ اللُّزومِ، فمثلًا: قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرَّعد:١٦]، نفهمُ من هذا أنَّ اللهَ خالقٌ، نفهمُ صفةَ الخلقِ، ونفهمُ غيرَها باللُّزومِ، فالخلقُ لا بُدَّ له من قدرةٍ، إِذَنْ فالآيةُ دالَّةٌ على قدرةِ الله.

وثانيًا: نفهمُ العلمَ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يخلقَ بلا علمٍ، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

ثالثًا: نفهمُ الإرادةَ، لأنَّه لا يمكنُ أن يخلقَ بلا إرادةٍ.

رابعًا: نفهمُ الحياةَ؛ لأنَّ الميِّتَ لا يخلقُ.

خامسًا: نفهمُ افتقارَ الخلقِ إلى الله، وغنى الله عنهم.

ورُبَّما إذا تأمَّلْتَ أيضًا تجدُ فوائدَ كثيرةً، وهذه المدلولاتُ هل أخَذْناها من دلالة اللَّفظِ وضعًا أو لُزومًا؟ الجوابُ: لُزومًا، فلم نأخُذ من دلالة اللَّفظِ وضعًا إلَّا صفةً واحدةً وهي الخلق فقط، والباقي كُلُّه من اللُّزومِ، هذا اللُّزومُ يتفاوتُ

النَّاسُ فيه تفاوتًا عظيمًا كما قال المؤلِّف رحمه الله: «**لا يمكنُ أن ينضبطَ له طرفان**».

والأمثلةُ كثيرةٌ لا تُحْصَى، ومنها أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- أَمَرَ بالوضوءِ عند إرادةِ الصَّلاةِ[1]، فلو أنَّ إنسانًا ليس عنده ماءٌ، لكن الماءُ في السُّوقِ يُبَاعُ ومعه دراهمُ يستطيعُ أن يشتريَ، فإنَّنا نقولُ له: يلزمُك شراءُ الماءِ، فاللهُ أَوْجَبَ عليك أن تشتريَ الماءَ الآن؛ لأنَّه لا يتمُّ امتثالُ الأمرِ بالوضوءِ إلَّا بالشِّراءِ، وما أَكْثَرَ اللَّوازمَ التي تخفى على كثيرٍ من النَّاسِ وهي عند آخرين مثل الشَّمسِ!

* * *

٤٢٨٢- وَلِذَاكَ مَنْ عَرَفَ الكِتَابَ حَقِيقَةً ... عَرَفَ الوُجُودَ جَمِيعَهُ بِبَيَانِ

٤٢٨٣- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ جُمْلَةَ الشَّرْعِ الَّذِي ... يَحْتَاجُهُ الإِنْسَانُ كُلَّ زَمَانِ

٤٢٨٤- عِلْمًا بِتَفْصِيلٍ وَعِلْمًا مُجْمَلًا ... تَفْصِيلُهُ أَيْضًا بِوَحْيٍ ثَانِي

٤٢٨٥- وَكِلاهُمَا وَحْيَانِ قَدْ ضَمِنَا لَنَا ... أَعْلَى العُلُومِ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ

٤٢٨٦- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ وَالـ ... أَفْعَالِ وَالأَسْمَاءِ ذِي الإِحْسَانِ

٤٢٨٧- مَا لَيْسَ يَعْرِفُ مِنْ كِتَابٍ غَيْرِهِ ... أَبَدًا وَلا مَا قَالَتِ الثَّقَلانِ

٤٢٨٨- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِ البَعْثِ بالتْـ ... ـتَفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ في القرآن

٤٢٨٩- مَا يَجْعَلُ اليَوْمَ العَظِيمَ مُشَاهَدًا ... بِالقَلْبِ كَالمَشْهُودِ رَأْيَ عِيَانِ

٤٢٩٠- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ ... وَصِفَاتِهَا بِحَقِيقَةِ العِرْفَانِ

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٥].

٤٢٩١- يَعْـرِفْ لَوَازِمَهَـا وَيَعْـرِفُ كَوْنَهَـا ... مَخْلُوقَــةً مَرْبُوبَــةً بِبَيَــانِ

٤٢٩٢- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مَا الَّذِي فِيهَا مِنَ الـ ... ـحَاجَاتِ وَالإِعْـدَامِ وَالنُّقْصَانِ

٤٢٩٣- وَكَـذَاكَ يَعْـرِفُ رَبَّـهُ وَصِـفَاتِهِ ... أَيْضًـا بِـلا مِثْـلٍ وَلا نُقْصَـانِ

٤٢٩٤- وَهُنَـا ثَلاثَـةُ أَوْجُـهٍ فَـافْطُنْ لَـهَا ... إِنْ كُنْـتَ ذَا عِلْـمٍ وَذَا عِرْفَـانِ

٤٢٩٥- بِالضِّـدِّ وَالأُولَى كَـذَا بِالإِمْتِنَـا ... عِ لِعِلْمِنَـا بِـالنَّفْسِ وَالـرَّحْمَنِ

٤٢٩٦- فَالضِّـدُّ مَعْرِفَـةُ الإِلَـهِ بِضِـدِّ مَـا ... فِي النَّفْسِ مِنْ عَيْبٍ وَمِـنْ نُقْصَـانِ

٤٢٩٧- وَحَقِيقَـةُ الأُولَى ثُبُـوتُ كَـمَالِهِ ... إِذْ كَـانَ مُعْطِيـهِ عَـلَى الإِحْسَـانِ

الشــرحُ

لما ذكَر المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ نصوصَ الوحيَيْن «**الكتاب والسُّنَّة**» فيهما الكفايةُ، وفيهما الغنى عمَّا عداهما، قال رحمه الله:

٤٢٨٢- وَلِذَاكَ مَنْ عَرَفَ الكِتَـابَ حَقِيقَـةً ... عَـرَفَ الوُجُـودَ جَمِيعَـهُ بِبَيَـانِ

مَنْ عَرَفَ القرآنَ معرفةً حقيقيَّةً مطابقةً لمرادِ الله به فإنَّه يعرفُ حقيقةَ الوجودِ معرفةً كونيَّةً قدريَّةً، ولماذا خُلِقَ؟ وما غايتُه؟ وما نهايتُه؟ وما ثمرةُ الحياةِ؟ لأنَّ كلامَ الله قد بَيَّنَ هذا إمَّا جملةً وإمَّا تفصيلاً.

٤٢٨٣- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ جُمْلَةَ الشَّرْعِ الَّـذِي ... يَحْتَاجُـهُ الإِنْسَـانُ كُـلَّ زَمَـانِ

إذا عَرَفَ القُرآنَ حقيقةً عَرَفَ كُلَّ ما يحتاجُه الإنسانُ من شريعةِ الله؛ لأنَّ اللهَ قال وهو أصدَقُ القائلين: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّحل:٨٩]،

والتِّبيانُ؛ أي: الذي يُبيِّنُ كُلَّ شيءٍ، ولكن القصورُ منَّا، إمَّا قصورٌ وإمَّا تقصيرٌ.

إِذَنْ مَنْ عَرَفَ الكتابَ حقيقةً يعرفُ أيضًا جملةَ الشَّرعِ الذي يحتاجُه الإنسانُ كُلَّ زمانٍ؛ أي: من عهدِ الرَّسولِ ﷺ إلى يومِ القيامةِ، و«أل» في «الإِنْسَان» هنا للجنسِ، لكن متى يوجدُ إنسانٌ يعرفُ الكتابَ حقيقةً؟ وهو نادرٌ، لكن من وَفَّقَ اللهُ -وجعلني اللهُ وإيَّاكم منهم- لهذا عَرَفَ الوجودَ.

٤٢٨٤- عِلْمًا بِتَفْصِيلٍ وَعِلْمًا مُجْمَلًا تَفْصِيلُهُ أَيْضًا بِوَحْيٍ ثَانِي

يعني: أحيانًا يكونُ القرآنُ مُفَصَّلًا، وأحيانًا يكونُ مُجْمِلًا وتُفَصِّلُه السُّنَّةُ، فمثلًا قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣] هذا مُجْمَلٌ؛ إذ ما الصَّلاةُ التي نُقيمُها؟ وكيف نقيمُها؟ وهذا الإجمالُ قد بَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ، وقولُه تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، هذا مُجْمَلٌ، لم يُبيِّن اللهُ عزَّ وجلَّ ما الذي يُؤْتَى هل هو قليلٌ أو كثيرٌ؟ لكن بَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ، ولم يُبيِّن اللهُ عزَّ وجلَّ ما الذي تجبُ الزَّكاةُ فيه من الأنصبةِ، وما المال المزكَّى، ومَنْ نعطيها؟ ولكن بَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ.

فأنت ترى أنَّ النُّصوصَ تأتي مُجْمَلَةً أحيانًا ومُفَصَّلَةً أحيانًا، وما جاء في الكتابِ مُجْمَلًا وفَصَّلَتْهُ السُّنَّةُ فإنَّ تفصيلَه جاء بوحيٍ.

فالحاصلُ أنَّ الوحيَ -ولله الحمدُ- تامٌّ بالقرآنِ والسُّنَّةِ، ولا يحتاجُ إلى غيرِه.

٤٢٨٥- وَكِلاهُمَا وَحْيَانِ قَدْ ضَمِنَا لَنَا أَعْلَى العُلُومِ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَكِلَاهُمَا» الضَّميرُ يعودُ على الكتابِ والسُّنَّةِ.

فهما وحيان قد ضَمِنَا لنا أعلى العلوم بغايةِ التِّبيانِ، فإذا قال قائلٌ: أمَّا كونُ القرآنِ وحيًا فلا شكَّ فيه، ولكن كونُ السُّنَّةِ وحيًا نجدُ بعضَ الأحاديثِ تدلُّ على

أنَّ السُّنَّةَ ليست بوحيٍ مثل قولِه ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُم بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»(١)، و«...مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ»(٢)، فهذا يدلُّ على أنَّها ليست وحيًا؛ لأنَّها لو كانت وحيًا لكان الأمرُ إلى الله، وقال في صلاة العِشاء: «إِنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي»(٣)، وسأله رجلٌ عن الشَّهادةِ: هَلْ تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ؟ فأجابه بأنَّها تُكَفِّرُ كُلَّ شَيءٍ، فَلَمَّا أَدْبَرَ الرَّجُلُ نَادَاهُ أَوْ أَمَرَ بِهِ فَنُودِيَ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَم إِلَّا الدَّيْنَ كَذَلِكَ قَالَ لِي جِبْرِيلُ»(٤)، وهذا أيضًا يدلُّ على أنَّها ليست بوحيٍ؛ لأنَّ الوحيَ يكونُ متكاملًا.

المهمُّ هناك أحاديثُ تدلُّ على أنَّ السُّنَّةَ ليست بوحيٍ من الله، فما الجوابُ؟ نقولُ: إنَّ العلماءَ قالوا: إنَّ إقرارَ النَّبيِّ ﷺ على الشَّيءِ من سُنَّتِه، فإقرارُ الله نبيَّه على الشَّيءِ كالوحي، فإذا وَقَعَ من النَّبيِّ ﷺ شيءٌ ولم يقرَّهُ اللهُ بَيَّنَه له كما في قولِه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التَّوبة:٤٣]، وكقولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّحريم:١].

المهمُّ أنَّ الجوابَ عن هذا الإشكالِ أن نقولَ: ما وَقَعَ من الأحاديثِ ممَّا ظاهرُه أنَّه ليس بوحيٍ فإنَّه وحيٌ باعتبارٍ آخرَ وهو إقرارُ الله له، كما قال العلماءُ: إنَّ إقرارَ النَّبيِّ ﷺ على الشَّيءِ يُعْتَبَرُ من سُنَّةِ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة، رقم (٨٨٧). ومسلم: كتاب الطهارة، باب السواك، رقم (٢٥٢).

(٢) أخرجه البخاري تعليقا: كتاب الصوم، باب سواك الرطب واليابس للصائم.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها، رقم (٦٣٨).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلَّا الدَّين، رقم (١٨٨٥).

٤٢٨٦- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِ الله وَالـ ... أَفْعَالِ وَالأَسْمَاءِ ذِي الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «الأَفْعَالِ»؛ أي: أفعالِ الله.

قَوْلُهُ: «الأَسْمَاءِ»؛ أي: أسماءِ الله.

قَوْلُهُ: «ذِي الإِحْسَانِ» «ذِي» بالجرِّ صفةٌ لـ«الله».

٤٢٨٧- مَا لَيْسَ يَعْرِفُ مِنْ كِتَابٍ غَيْرِهِ ... أَبَدًا وَلا مَا قَالَتِ الثَّقَلانِ

قَوْلُهُ: «مَا لَيْسَ يَعْرِفُ» «يَعْرِفُ» بفتح الياءِ، وبضمِّها «يُعْرَفُ»، أي: يَعْرِفُ من صفاتِ الله ما لا يُعْرَفُ.

وهذا صحيحٌ، تَعْرِفُ من كتابِ الله ما لا تعرفُه من غيرِه، بل تَعْرِفُ منه مالا تَعْرِفُه ممَّا قاله الثَّقَلَانِ.

٤٢٨٨- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِ البَعْثِ بالتْـ ... ـتَفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ فِي القرآن

صفاتُ البعثِ بيَّنَها اللهُ عزَّ وجلَّ بيانًا إجماليًّا أحيانًا، وبيانًا تفصيليًّا أحيانًا.

٤٢٨٩- مَا يَجْعَلُ اليَوْمَ العَظِيمَ مُشَاهَدًا ... بِالقَلْبِ كَالمَشْهُودِ رَأْيَ عِيَانِ

الله أكبر، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]، و«الأجداثُ»؛ أي: القبورُ، تُشَاهِدُ هذا كأنَّك تُشَاهِدُ أرضًا مُنبسطةً يمشي عليها جرادٌ مُنْتَشِرٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٤-٥]، كأنَّك تُشَاهِدُ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:٢]،

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النَّمل:٨٨]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، كُلُّها تُصَوِّرُ القيامةَ كأنَّها رأيُ عينٍ.

٤٢٩٠- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مِنْ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ ... وَصِفَاتِهَا بِحَقِيقَةِ العِرْفَانِ

وهذه هي المهمَّة، أن يعرفَ الإنسانُ نفسَه، ويعرفُ حقيقتَها، ويعرفُ أنَّها غادرةٌ خائنةٌ إلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ؛ ولهذا يقولُ:

٤٢٩١- يَعْرِفْ لَوَازِمَهَا وَيَعْرِفُ كَوْنَهَا ... مَخْلُوقَةً مَرْبُوبَةً بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «يَعْرِفْ لَوَزِامَهَا» «يَعْرِفْ» بالسُّكون؛ لأجل الوزنِ.

فإذا عرف الإنسانُ نفسَه عرف ربَّه، فيعرفُ أنَّه مخلوقٌ ضعيفٌ ومحتاجٌ إلى الله، وبذلك يعرفُ أنَّ اللهَ خالقٌ قويٌّ غنيٌّ.

٤٢٩٢- وَكَذَاكَ يَعْرِفُ مَا الَّذِي فِيهَا مِنَ الـ ... ـحَاجَاتِ وَالإِعْدَامِ وَالنُّقْصَانِ

قَوْلُهُ: «يَعْرِفُ مَا فِيهَا»؛ أي: ما في نفسِه.

والمعنى: يعرفُ ما في نفسِه من الحاجاتِ، وأنَّه بحاجةٍ إلى الله، وأنَّه لا غنى له عن الله طرفةَ عينٍ، ويعرفُ كذلك ما فيها من الإعدامِ أنَّها مُعْدَمَةٌ لولا إيجادُ الله، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

ويعرفُ ما فيها من النَّقصِ، فالإنسانُ ناقصٌ إذا لم يَمُنَّ اللهُ عليه بالكمالِ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النَّحل:٧٨]، إِذَنْ الأصلُ في الإنسانِ العدمُ، عدمُ القدرةِ، عدمُ الغنى، عدمُ القوَّةِ، وأنَّنا بحاجةٍ إلى غذاءٍ وهواءٍ ولباسٍ وغيرِ ذلك، إِذَنْ الأصلُ فيه النَّقصُ، فيعرفُ بنقصانِه كمالَ الله عزَّ وجلَّ.

٤٢٩٣- وَكَـذَاكَ يَعْـرِفُ رَبَّـهُ وَصِـفَاتِهِ ... أَيْضًـا بِـلا مِثْـلٍ وَلا نُقْصَـانِ

هذا ليس تكرارًا مع البيتِ السَّابقِ، ولكنَّه قَيَّدَ هنا بأنَّه يَعْرِفُهُ بصفاتِه بلا مِثْلٍ ولا نقصانٍ، «**بِلَا مِثْلٍ**»؛ يعني: لا يماثلُه المخلوقُ وهو لا يماثلُ المخلوقَ، و«**لَا نُقْصَانٍ**»، بينما النُّقصانُ لازمٌ للإنسانِ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فإنَّه مُنَزَّهٌ عنه.

٤٢٩٤- وَهُنَـا ثَلاثَـةُ أَوْجُـهٍ فَـافْطُنْ لَـهَا ... إِنْ كُنْـتَ ذَا عِلْـمٍ وَذَا عِرْفَـانِ

٤٢٩٥- بِالضِّـدِّ وَالأُولَى كَـذَا بِالإِمْتِنَـا ... عِ لِعِلْمِنَـا بِـالنَّفْسِ وَالـرَّحْمَنِ

يعني: هناك ثلاثةُ أوجهٍ بين الخالقِ والمخلوقِ افْطُنْ لها إن كنت ذا علمٍ وذا عرفانٍ: بِالضِّدِّ، والأَوْلَى، كذا بِالإِمْتِنَاعِ لِعِلْمِنَا بِالنَّفْسِ وَالرَّحْمَنِ.

فَسَّرهَا بقوله:

٤٢٩٦- فَالضِّـدُّ مَعْرِفَـةُ الإِلَـهِ بِضِـدِّ مَـا ... فِي النَّفْسِ مِنْ عَيْبٍ وَمِـنْ نُقْصَانِ

هذا الضِّدُّ؛ يعني: أنَّك إذا عَرَفْتَ نفسَك بأنَّك مخلوقٌ من عَدَمٍ وآيلٌ إلى العدمِ، وأنَّك محتاجٌ وناقصٌ، اعرف أنَّ ضدَّ ذلك ثابتٌ للخالقِ، ووجهُه أنَّ الخالقَ مُوجِدٌ والمخلوقَ مُوجَدٌ، ولا يمكنُ أن يتساوى المُوجِدُ والمُوجَدُ، بل لا بُدَّ أن يكونَ بينهما ما يكونُ بين الإيجادِ والوجودِ، فالإنسانُ مُوجَدٌ؛ إِذَنْ لا بُدَّ أن يكونَ على ضدِّ صفاتِ الموجِدِ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ.

فإذا كُنَّا ذا نقصٍ فالرَّبُّ ذو كَمالٍ، وعلى هذا فَقِسْ، كذلك إذا كُنَّا ذا عيبٍ فالرَّبُّ مُنَزَّهٌ عن العيبِ، وجودُنا هل هو من الممكنِ أو من الواجبِ أو من المستحيلِ؟

الجوابُ: لا يمكنُ أن نقولَ: من المستحيلِ؛ لأَنَّنا موجودون، ولا يمكن أن

نقولَ: من الواجبِ؛ لأنَّنا من عدَمٍ، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

٤٢٩٧- وَحَقِيقَـةُ الأُولَى ثُبُـوتُ كَـمَالِهِ إِذْ كَـانَ مُعْطِيـهِ عَـلَى الإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**الأَوْلَى**» معناه: كُلُّ صفةِ كمالٍ في المخلوقِ فاللهُ أَوْلَى بها؛ ولهذا قال رحمه الله: «**إِذْ كَانَ مُعْطِيهِ عَلَى الإِحْسَانِ**».

حقيقةُ الأَوْلَى ثبوتُ كمالِه، فمتى ثَبَتَ في المخلوقِ كمالٌ فإنَّ الخالقَ أَوْلَى به لماذا؟ لأنَّه مُعْطِ الكمالَ، ومُعْطِي الكمالِ أَوْلَى بالكمالِ.

بقينا في الوجه الثَّالثِ: الامتناعُ؛ أي: امتناعُ العَيْبِ والنُّقصانِ، فإنَّ اللهَ تعالى ممتنِعٌ عليه العيبُ والنُّقصانُ، لكن لو قال قائلٌ: النَّومُ في الإنسانِ هل هو كمالٌ أو نقصٌ؟ نسألُ أوَّلًا: أيُّما أكملُ: حياتُنا هنا أو في الجنَّة؟ الجوابُ: في الجنَّة، هل في الجنَّةِ نومٌ؟ إِذَنْ صار نقصًا، لكنَّ هذا النَّقصَ إنَّما كان لضعفِ البدنِ عن مكابدةِ الحياةِ ومقاومتِها، فمن أجلِ ذلك مَنَّ اللهُ علينا بالنَّومِ لنستريحَ من شيءٍ من تعبِ الماضي، ونستجدَّ نشاطًا للمستقبل، لكنَّه باعتبارِ البشريَّةِ المبنيَّةِ على النَّقصِ يُعْتَبَرُ كمالًا؛ لأنَّ مَنْ ينامُ ويستيقظُ أكملُ من الذي لا ينامُ، ولهذا فإنَّ الإنسانَ إذا كان لا ينامُ تنهدمُ صحَّتُه.

والأكلُ والشُّربُ هل هما كمالٌ أو نقصٌ؟ هما نقصٌ في الأصلِ؛ لأنَّ البدَنَ يحتاجُ إليهما للبقاءِ والنَّماءِ، فإِذَن هما نقصٌ، لكنَّهما كمالٌ من جهةٍ أخرى وهي أنَّ بهما قيامَ البدنِ ونماءَه؛ ولهذا مَنْ لا يأكلُ لا بُدَّ أن يكونَ لمرضٍ وإلَّا بمقتضى الطَّبيعة لا يمكنُ أن يدعَ الأكلَ.

فإن قال قائلٌ: إِذَنْ أهلُ الجنَّةِ حياتُهم ناقصةٌ؛ لأنَّهم يأكلون ويشربون؟

نقولُ: يأكلون ويشربون لكمالِ نعيمِهم تلذُّذًا، ولا نقولُ: لأنَّهم لو لم يأكلوا الماتوا؛ لأنَّه ليس فيها موتٌ لكن للتَّلذُّذِ؛ ولهذا عندهم نساءٌ يتلذَّذون بهنَّ، وهم ليسوا بحاجةٍ إلى الأولادِ، ولا يأتيهم أولادٌ أيضًا.

فالحاصلُ أنَّنا نقولُ: الرَّبُّ عزَّ وجلَّ كاملٌ لا تأخذُه سِنَةٌ ولا نومٌ، وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، لا يحتاجُ إلى أكْلٍ ولا شُربٍ، ولا إلى غيرِ ذلك، فهو سبحانه وتعالى كاملُ الغنى، وكُلُّ ما سواه فهو مفتقرٌ إليه؛ ولهذا يلجأُ الخلقُ إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ يسألونه حاجاتِهم من تفريجِ الكرباتِ وتحصيلِ الخيراتِ.

بفضل الله تعالى وتوفيقه تمَّ المجلد الثالث

ويليه بمشيئة الله تعالى المجلد الرابع

وأوله: فصلٌ في بَيَانِ شُرُوطِ كِفَايَةِ النَّصَّيْنِ، البيت رقم (٤٢٩٨)

* * *

فهرس الآيات

* * *

فهرس الأحاديث والآثار

* * *

فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع **الصفحة**